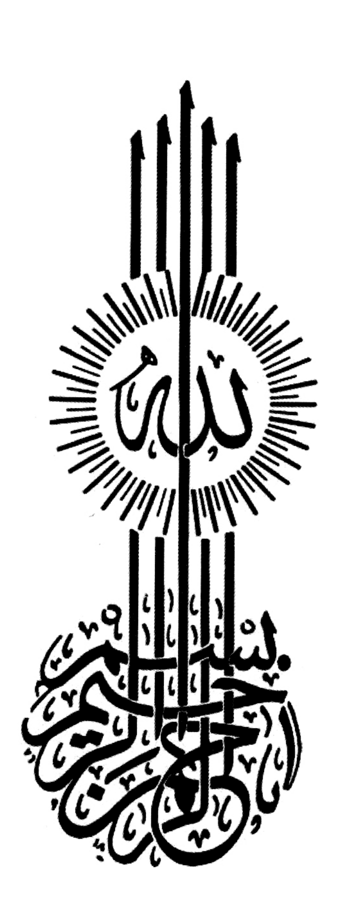


المؤتمر الدولي القرآني الأول: توظيف الدراسات القرآنيه في علاج المشكلات المعاصرة

المجلد الثالث


بسم الله الرحمن الرحيم

علي بن محمد نجم

تاريخ ومكان الإزدياد : ٠٢ رجب ١٣٩١، الموافق ل ٢٤- ٠٨ – ١٩٧١ بالرباط.
المهنة : مدرس. .
الجنسية : مغربي.

المؤهلات:

- ماجستير في الفقه سنة ٢٠١٢، وسأناقش الدكتوراه بعد شهرين إن شاء الله.
- بكالوريوس في علم الأحياء تخصص بيوكيمياء، منذ ١٩٩٤.
- خريج الأكاديمية الإسلامية المفتوحة، محتلا المرتبة الثانية من بين ٨٠٠٠٠ مشارك من ٨٢ دولة.
- خريج دار القرآن التابعة لجمعية القاضي عياض بسلا، ومدرس بها وبجمعيات أخرى.
- خريج المركز التربوي، ومدرس بالقطاع الحكومي منذ ١٩٩٥.
- محاضر بجامعة المدينة العالمية.
- نشر لي كتاب إلكتروني تحت عنوان الشح في الفتوى.
- عضو هيئة تحرير جريدة السبيل سابقا، وعضو بفريق موقع صحة سابقا.
- فائز بالمرتبة الثانية في مسابقة الملخص الماهر بموقع الألوكة.
- فائز بالرتبة السادسة في قسم المقالات الشرعية بمسابقة كاتب الألوكة.
- نشرت لي مقالات في مجلات وجرائد ومواقع وطنية ودولية.

المشاركات:

- مؤتمر جامعة طيبة الدولي في توظيف تقنية المعلومات لخدمة القرآن/ المملكة العربية السعودية.
- ندوة (الفتوى بين التأثير والتأثر بالمتغيرات) / المدينة المنورة- المملكة العربية السعودية
- المؤتمر الثاني لتطوير الدراسات القرآنية / الرياض- المملكة العربية السعودية
- مؤتمر النص الشرعي/القصيم -المملكة العربية السعودية
- المؤتمر العالمي الخامس للتسويق الإسلامي /ماليزيا
- ندوة الحديث الشريف السابعة/ دبي-الإمارات
- مؤتمر الإمام مالك الدولي الأول /ليبيا.
- ملتقى المرجعية الفقهية والعقدية /الجزائر

استثمار القرآن الكريم وعلومه في المستجدات الاقتصادية المعاصرة: تطبيقات من المجامع الفقهية ومؤسسات الفتوى

المحور الرابع: توظيف الدراسات القرآنية في علاج المشكلات الاقتصادية

علي بن محمد نجم

مقدمة :

لا تقوم للدول، أو الأفراد قائمةٌ، دون معاملات اقتصادية، بل صارت قوة الدول مرتبطةً ارتباطاً وثيقاً بأنشطتها الاقتصادية؛ لأن هذا المجال يتطور بسرعةٍ فائقة، ويعرف مستجدات كثيرةً؛ مما ينادي بحلولٍ شرعيةٍ ترفع المشقة، وتقي من الوقوعٍ في الحرام؛ ولا يكون ذلك إلا بإعمال اجتهادات الفقهاء التي لا تنفك عن استدعاء النصوص الشرعية المناسبة، وعلى رأسها القرآن الكريم.

ورغم أن هذا القرآن نزل في وقت، وبيئةٍ معينين؛ فإنه لا يعجزه إسعاف المفتين بإجاباتٍ لما يطرح عليهم من القضايا المعاصرة، بالأخص في المعاملات الاقتصادية؛ وذلك بتخريجها على المعاني التي نزل بها القران الكريم في العهد النبوي؛ استناداً إلى التفاسير المعتمدة، والاجتهادات الفقهية المرعية.

وتطبيقاً لذلك، اقترحت الرجوع إلى فتاوى معاصرةٍ للمجامع الفقهية، أو بعض مؤسسات الفتوى، بغية بيان استثمارها للآيات، أو التفاسير القرآنية، في الإجابة عن الإكراهات الاقتصادية المعاصرة، وإيجاد الحلول المطلوبة للنوازل الاقتصادية المستجدة.

وتتجلى مشكلة هذا البحث في السؤال الآتي: إلى أي مدى يمكن للقرآن الكريم الذي اكتمل نزوله قبل أربعة عشر قرناً، أن يكون مسعفاً للمفتين في الحكم على نوازل المعاملات الاقتصادية المعاصرة، وأن يسهم في إيجاد حلول للمستجدات الاقتصادية المستحدثة؟

ولاستجلاء هذه المشكلة، اخترت هذا البحث الذي يهدف إلى ما يلي:

أولاً: إبراز أهمية القرآن الكريم في المعاملات الاقتصادية، والتأكيد على صلاحيته لكل زمانٍ ومكانٍ.

ثانياً: إظهار مدى إسعاف القرآن الكريم، وتفاسيره، في فهم النوازل الاقتصادية المستحدثة، أو إيجاد حلولٍ لمستجدات المعاملات الاقتصادية المعاصرة.

ثالثاً: الإتيان بنماذج تكشف عن أثر القرآن الكريم، في الحكم على المستجدات

الاقتصادية المعاصرة؛ ومن ذلك قرارات المجامع الفقهية، ومؤسسات الإفتاء.

رابعاً: إبراز إمكانية العثور على صيغ تمويلية جديدة للمعاملات الاقتصادية المعاصرة، والخروج بتوصياتٍ تُقترح على المؤسسات الاقتصادية.

ولتحقيق هذه الأهداف يرى الباحث تسطير المطالب التالية:

- **المطلب الأول:** تواتر وتعقيد المستجدات الاقتصادية المعاصرة، وحاجتها إلى الفتوى.
- **المطلب الثاني:** القرآن الكريم من مظان الأحكام الشرعية لاحتواء المستجدات الاقتصادية المعاصرة.
- **المطلب الثالث:** نماذج تطبيقية من استثمار القرآن الكريم وتفاسيره في الحكم على المستجدات الاقتصادية المعاصرة .

المطلب الأول

تواتر وتعقيد المستجدات الاقتصادية المعاصرة، وحاجتها إلى الفتوى.

تواترت المستجدات الاقتصادية في عصرنا، وتسلسلت بشكلٍ انسيابيٍّ، في جميع المجالات والمؤسسات الاقتصادية؛ تبعاً للتطور العام في جميع مجالات الحياة، مما استوجب تدخل العلماء والفقهاء لمجاراة هذه التطورات، والإجابة عن التساؤلات، والاستفتاءات؛ وبيان ذلك من خلال الفرعين التاليين:

- الفرع الأول: التسارع الملفت للمستجدات الاقتصادية المعاصرة.
- الفرع الثاني: حاجة المستجدات الاقتصادية المعاصرة إلى الحلول، والفتاوى الشرعية.

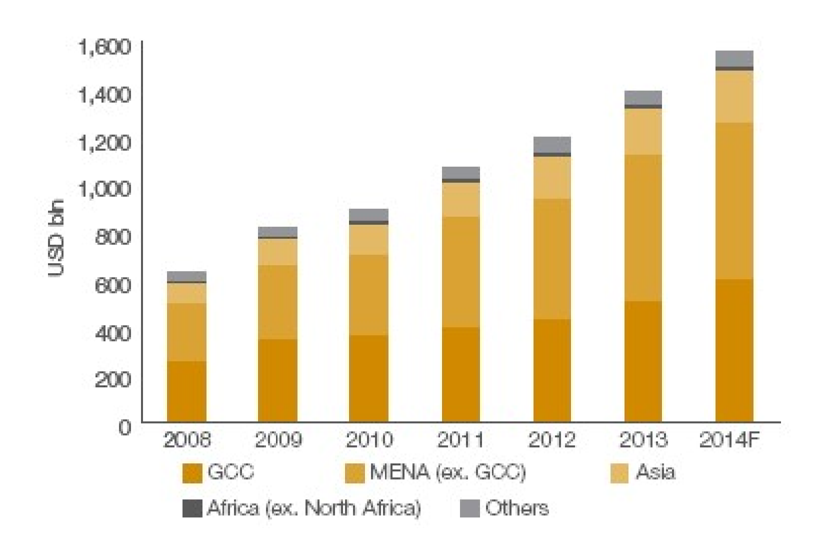
الفرع الأول: التسارع الملفت للمستجدات الاقتصادية المعاصرة.

هذا عصر السرعة، وكثرة النوازل، والأحداث؛ ومن ذلك المستجدات، والنوازل الاقتصادية؛ التي تواترت في عصرنا بشكلٍ مدهشٍ، ومَهولٍ، لا سيما مع النمو الديموغرافي الذي تسبب في تزايدٍ مستمرٍ للحركة الاقتصادية، وبالأخص مع تطور المعلوميات، وشبكات التواصل؛ والتي يسرت سبل إنجاز العمليات التجارية بين الأفراد، والمؤسسات، وحتى الدول؛ بل صارت بعضها تُجرى بضغطة زرٍ، تنتقل عبرها ملايين الدولارات.

ولم تخرج المالية الإسلامية عن هذا الإطار، بل حاولت اللحاق بالاقتصاد العالمي؛ مما طرح مجموعةً من النوازل، وفرض ركاماً من الفتاوى تنادي بحلولٍ شرعية؛ فالسوق العالمي للمالية الإسلامية يتقوى سنوياً، حيث تجاوز ملياري دولار؛ لكن يتوقع تراجعٌ لهذا النمو في هذه السنة[1]، بسبب انخفاض أثمنة البترول، وبسبب التقنينات الجديدة، حسب تنقيط

(١) سنة ٢٠١٦.


Standard & Poor's، وفيما يلي شكلٌ يوضح هذا التطور:



شكلٌ يبين النمو المتزايد للأصول المصرفية الإسلامية ٢٠٠٨ - ٢٠١٤ [١]

ويوضـح الشكل الازدياد المستمر للأصول المالية الإسلامية، بمعدل نمو يقدر ب١٧٪[٢]، وقـد تجاوزت الأصـول المصرفية الإسلامية لدى البنوك التجاريـة عالمياً ١,٧ تريليون دولار أمريكـي في عـام ٢٠١٣م، بواقع نمو سنـويٍّ قدره ١٧,٦٪ خـلال السنوات سنـوات أربع[٣]. وعبرت إرنست ويونغ[٤]، في تقرير حديث عن القدرة التنافسية العالمية للمصارف الإسلامية؛ التـي حققت معدل نموّ مرتـين إلى مراتٍ ثلاث أسرع من البنـوك التقليدية، مشيرةً إلى أن ذلـك يرجع في جزءٍ منـه إلى الأزمة الماليّة العالمية، وإلى التزام المصارف الإسلامية بمبادئ الشريعـة الإسلاميـة[٥]؛ قـال سعيد المرطـان: "ولذلك لم يكـن غريباً علينـا أن نلحظ هذا

(١) تقرير صناعة الخدمات المالية الإسلامية الاستقرار، ص١٥.

(2) Finance participative Dernier coup d'accélérateur, journal L'Economiste.

(٣) حسب تاريخ التقرير

(World Islamic Banking Competitiveness Report)2013–14, p5.

(٤) إرنست ويونغ أو اختصاراwا (E&Y) :هي إحدى الشركات المهنية الأربع الكبرى في العالم.

(5) Linda Yueh)(Islamic banking: Growing fast but can it be more than a niche market?
, BBC NEWS, 18 July 2014.

الانتشار السريع للعمل المصرفي الإسلامي، ونموه بمعدلات هائلة، منذ منتصف السبعينات. وما أن بدأت العجلة تدور، حتى تسارعت في دورانها، فتزايد عدد المصارف، والمؤسسات الاقتصادية الإسلامية، واتسعت السوق، وأصبح العمل المصرفي الإسلامي جزءا لا يستهان به؛ بل لا يمكن تجاهله في الصناعة المصرفية والمالية العالمية"[1].

الفرع الثاني: حاجة المستجدات الاقتصادية المعاصرة إلى الحلول، والفتاوى الشرعية.

يحتاج الناس في عباداتهم، ومعاملاتهم، إلى معرفة الأحكام، والسؤال عن أمور دينهم؛ ولذلك أنزل الله كتابه الكريم وبعث به نبيه صلى الله عليه وسلم الأمين، فأقام به الحجة على عباده ببيان كل ما يحتاجونه في دينهم ودنياهم، فلم يمت إلا وقد ترك لهذه الأمة ما تستطيع به معرفة واجباتها، وحقوقها، بتبصير من ورثته، وهم فقهاء هذه الأمة، الذين يكفلون تنزيل النصوص الشرعية على النوازل، والحوادث، في كل زمان، ومكان، ويجيبون عن أسئلة المستفتين مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣﴾[2]. إنهم العلماء الذين يُعملون آلات الاجتهاد لإسعاف الناس بالفتاوى، والحلول، لما يقع لهم من حوادث.

فعندما تقع النازلة، يتصدى لها مجتهدو الأمة لبيان حكم الله فيها؛ وإذا كانت هذه النوازل عاريةً عن النصوص الشرعية المباشرة، فإن المجتهد مضطرٌ لاستثمار هذه النصوص، معملاً الأقيسة المرعية والقواعد والمقاصد الشرعية، بل قد يحتاج في استنباطه للحكم الشرعي، لعلوم غير شرعيةٍ أو لعلاماتٍ عرفيةٍ أو لمؤشرات تاريخيةٍ.

وما دام الناس غير منفكين عن التعامل بالأموال استجلاباً للرزق وطلباً للعيش الكريم، فإنهم معرضون لا محالة للوقوع في صورٍ وحالاتٍ، يحتاجون فيها إلى معرفة حكم الله

---

(١) بتصرفٍ: تقويم المؤسسات التطبيقية للاقتصاد الإسلامي: النوافذ الإسلامية للمصارف التقليدية، لسعيد المرطان.

(٢) سورة النحل، جزء من الآية:٤٣.

تعالى في معاملاتهم، حيث ظهرت قضايا جديدةٌ تتطلب تكييفاً فقهياً ملائماً؛ لبيان حكمها الشرعي المناسب، وإيجاد الحلول الشرعية المناسبة؛ مما ينادي بإعمال النصوص الشرعية وقواعدها ومقاصدها؛ "لئلا يلزم خلو الوقائع عن الأحكام"[1]؛ لأن النصوص محصورةٌ والوقائع والمستجدات غير متناهية[2]، قال الزركشي: "النصوص محصورةٌ، والأحكام الثابتة بها محدودةٌ، ومعاني النصوص لا تتناول أحكام الوقائع المستجدة؛ لأنها محصورةٌ متناهيةٌ، والوقائع المستجدة غير متناهيةٍ، والقياس لا يصح إلا بوجود أصلٍ يقاس عليه، ولم يوجد هذا في الوقائع المستجدة، فيلزم من عدم اعتبار المصالح المرسلة حجة، خلو كثير من الوقائع عن الأحكام، وهذا باطلٌ"[3].

إن الأصل في المؤسسات المالية الإسلامية أن تعمِد إلى كل ما يخول لها تطبيق الشريعة الإسلامية، وأن تفزع إلى علماء الشريعة ليدلوها على الحق، وقد ترك أئمة الفقه رحمهم الله رصيداً مهماً من الفتاوى، أجابوا فيها عن النوازل والمستجدات التي كانت في زمانهم، مستندين إلى الاستنباط من النصوص الشرعية؛ وعلى ذلك نقيس، ونقول إن على علمائنا أن يجدوا لنا حلولاً للحوادث الاقتصادية، مستندين إلى القرآن الكريم، والسنة النبوية، وهو ما سأحاول التطرق إليه في المطلب الآتي.

(١) التقرير والتحبير على تحرير الكمال بن الهمام، لابن أمير حاج، ٢٤١/٣.وأيضاً: تيسير التحرير، لأمير بادشاه، ١٠٥/٤.

(٢) شرح مختصر التحرير للفتوحي، لأحمد الحازمي، الدرس٦٩.

(٣) تشنيف المسامع بجمع الجوامع، للزركشي، ٤٣/٣.

المطلب الثاني

القرآن الكريم من مظان الأحكام الشرعية لاحتواء المستجدات الاقتصادية المعاصرة.

يمكن استثمار القرآن الكريم في المستجد الاقتصادي، على مستويين:

- الأول: كونه مصدراً مهماً للمجتهد في إيجاد الحكم الشرعي.
- الثاني: كونه مظنةً لابتكار حلول للمشاكل الراهنة.

وهذان المستويان هما موضوعا الفروع التالية:

- **الفرع الأول:** القرآن الكريم مفزعٌ للمجتهد في إصدار حكم النازلة الاقتصادية .
- **الفرع الثاني:** القرآن الكريم مظنةٌ لابتكار حلولٍ للمستجدات الاقتصادية.
- **الفرع الثالث:** شروط ومراحل استثمار القرآن الكريم في الحكم على المستجدات الاقتصادية.

الفرع الأول: القرآن الكريم مفزعٌ للمجتهد في إصدار حكم النازلة الاقتصادية .

لم يُقبض رسول الله ﷺ إلا وقد أكمل الدين كما قال تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾[1]، فقد ترك لأمته إرثاً خالداً إلى يوم القيامة، لا ينقص، ولا ينضب، مهما نهلوا منه، حيث بين فيه سبحانه كل ما سيحتاج إليه عباده، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾[2]، وقال عنه عز وجل: ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾[3]؛ علاوةً على السنة النبوية المطهرة، التي يتجلى فيها قوله

---

(١) سورة المائدة، جزء من الآية:٣.

(٢) سورة النحل ، جزء من الآية:٨٩.

(٣) سورة الأنعام ، جزء من الآية:٣٨.

تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾[1]، وهي إما موافقةٌ للقرآن الكريم، أو مبينةٌ له، أو مُشَرِّعةٌ لما سكت عنه.

ومن ثَمَّ، فما من نازلة أو فتوى، إلا ويمكن ردها إلى هذين الأصلين، إما مباشرةً، أو عن طريق الاستنباط، بإعمال الأقيسة المرعية، والقواعد، والمقاصد الشرعية.

ولكي يجتهد المجتهد، أو يفتي المفتي، فلا بد له من شروط، وآلات، أهمها اعتماده على الوحيين، وقدرته على الاستنباط منهما؛ وتعتبر آيات الأحكام من أهم وسائل الاجتهاد، والإفتاء، كيف لا، والقرآن الكريم دستور هذه الأمة؛ فما إنْ تُعرض على المجتهد، أو المفتي نازلةٌ؛ إلا وتوجه ذهنه، وقلبه، إلى القران الكريم؛ يستنجِد به للعثور على الدليل المناسب الذي يسعفه في الجواب عن السؤال، أو في تحرير المسألة.

نحن بصدد الكلام عن المستجدات الاقتصادية، ومرجعيتنا إسلاميةٌ؛ وعليه، فيُفترض تطبيق الشريعة الإسلامية، المستمدة من نصوص الوحيين، فهما المرجع في تحرير الأدلة الشرعية، وهما أدوات الاستنباطات الفقهية، ومكان المخارج الشرعية للمعاملات الاقتصادية، ومنطلق الصيغ والمنتجات التمويلية؛ يفتش فيهما الفقيه والمفتي عن الأدلة وآلات الاستنباط، ويتفقد فيهما المهندس المالي المنتجات والصيغ المالية، ويستثمرهما المراقب أو المدقق الشرعي في وضع المعايير، أو تتبع العمليات المصرفية.

فالقرآن الكريم يُستهدى به في مُسْتغلَق الأمور الدينية؛ بل ويُسترشد بهم في بعض مُسْتشكَل الأمور الدنيوية. وتعتبر المعاملات الاقتصادية من أكثر المجالات حاجةً إلى الوحي، فهو محور المالية الإسلامية، وقطب رحاها؛ بحكم أن هذا الميدان قد رام الشريعة الإسلامية، والتي يسهر العلماء على ترشيد تطبيقها، وبثها بين الناس. وما يعتري هذه التطبيقات من قصورٍ أو تقصير فمرده إلى سوء في التطبيق، وليس إلى عيب في الشريعة، والتي تقررت صلاحيتها لكل زمانٍ ومكانٍ، قال علي الشحود: "ومفهوم أن كل أمرٍ أو نهي أو توجيه ورد في القرآن الكريم، كان يواجه حالة واقعة في المجتمع الجاهلي، وكان يتوخى إما إنشاء حالة غير قائمة، وإما إبطال حالة قائمة ، فهذه النصوص التي جاءت لتواجه أحوالا بعينها، هي ذاتها

---

(١) سورة النجم، الآيتان: ٣ – ٤.

التي تواجه الجماعة الإنسانية، في أي طور من أطوارها. وحين نقرأ القرآن نستطيع أن نتبين منه ملامح المجتمع الجاهلي، من خلال أوامره ونواهيه وتوجيهاته كما نستطيع أن نتبين الملامح الجديدة التي يريد أن ينشئها، وأن يثبتها في المجتمع الجديد"[1].

وإذا علمنا أن كثرة الوقائع الاقتصادية نتج عنه ارتفاعٌ في الطلب على الفتاوى، وأن الإفتاء يتطلب استنفار الاجتهاد في النصوص، فإن القرآن الكريم وتفاسيره وعلومه ملجأٌ وملاذٌ للفقيه بامتياز. وقد كان النبي ﷺ يجيب عن الأسئلة ويحل المشاكل من جهة، ويكون ذلك تشريعاً من جهة أخرى، ولذلك لم يحس صحابته بأي حرج في نقل الأحكام عنه، أو في إصدار أحكام جديدة في النوازل التي لم تكن في عهده[2]، "فالقرآن والسنة يعملان معاً في تنسيق كامل"[3]. فكانوا يرجعون إليهما فيما يطرأ من الحوادث[4] ويُعْمِلون اجتهادهم للنَّهل منهما، فهما بمثابة الأرض بالنسبة للفلاح، وأساليب الاستنباط بمثابة الحرث، والأحكام بمثابة الثمرة. وهذا ديدن الفقهاء، فالمتأمل في كتب الفقه المُعْتَنِية بالدليل، يجدها مليئةً بالاستشهادات من القران الكريم وبالاستنباطات من آياته، وبقدر ما يكون مع الفقيه من الإحاطة بكتاب الله تعالى وسبر أغوار آياته وتحرير تفاسيره، بقدر ما يكون مبَرَّزاً في نقل الأحكام واستنباطها.

ويعتبر القرآن الكريم أهم الآلات التي يرجع إليها العلماء لفهم بعض النوازل أو للبث فيها، لأنه يُمَكِّن من فهم الظروف التي أحاطت بالحادثة في زمن ما، مما يُخَوِّل الاستفادة منها في الأزمنة اللاحقة؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾[5]، فقد استفتي يوسف عليه السلام ثم أفتى بفتوى تنص على تدبير الشأن الاقتصادي، بادِّخار

(١) بتصرف وتلخيص : القرآن الكريم في مواجهة الجاهلية، علي بن نايف الشحود، ص: ٩١-٩٢.

(٢) للمزيد راجع: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، لمصطفى السباعي، ٤٩/١.

(٣) السنة المفترى عليها، لسالم البهنساوي، ص ٣٢٤.

(٤) انظر: الرد على من ينكر حجية السنة، لعبد الغني عبد الخالق، ص ٤٧٨.

(٥) سورة يوسف، الآيات: ٤٦-٤٩.

محصـول سنوات الري لسنوات القحـط؛ وكذلك تفعل الهيئات الشرعيـة حين تفتي بفتاوى لتدبير الشأن المصرفي، بحيث تشير على المصرف بما يبقيه في دائرة الشرع، وتسعفه بأدواتٍ شرعيةٍ ترفع من مداخيله أو تَقيه من مغبة الوقوع في الخسائر المَهُولة.

الفرع الثاني: القرآن الكريم مظنةٌ لابتكار حلول للمستجدات الاقتصادية.

إنّ للدراسـات القرآنية دوراً كبـيراً في تطوير الإدارة المالية؛ و إيجـاد البدائل الشرعية ونبـذ الحيل؛ فبإمكان رأي العالم أن يغير مسـار قرار المؤسسة المالية، ويصرفها عن مشروع يـدر عليها الأموال الطائلة بصيغة محرمة، كما لـه أن يدلها على منتجٍ ماليٍّ، وفتوى شرعيةً تستجلب بواسطتها أرباحاً تضاعفً ما حرًم عليها.

إن الماليـة الإسلاميـة لا تقوم إلا بالكفـاءة، التي ترمي إلى تطويـر المنتجات، واكتشاف الصيـغ التمويلية؛ كما أنهـا لا تستتب، وتستمر، إلا بالاستقـرار، والمحافظة على المكتسبات، والكفـاءات؛ بيد أن هذه الكفاءة، وذاك الاستقرار، موقوفان على اجتهادات علماء الشريعة، فهـم مَرام الإتقان، وصمام الأمان، ولا يتسنى لهم ذلك إلا إذا ارتكزوا على الوحي. ولا جرم أن الأمـة الإسلامية محظوظـةٌ بمرجعيتها الشرعية، المتمثلـة في الوحيين، واللذين حويا من النصوص والقواعد والمقاصد، ما يكفي ويحث علـى استنباط الأسس والضوابط الإبداعية، التـي تمكـن من بناء المعرفـة وتنميتها. بدليل أن الرعيـل الأول الذين نهلـوا من النصوص، وفقهـوا معانيهـا، وتحروا تنزيلها، تفتقت عـن مواهبهم إبداعاتٌ وابتـكاراتٌ أبهرت العالم، وجعلتهم قبلةً للناسخين، والمقتدين، من أبناء حضاراتٍ سابقةٍ.

لقـد استدعت المستجدات الاقتصادية معرفة حكمها بالاجتهاد لإيجاد الحلول الشرعية والتـي تفتقر إلى القرآن الكـريم، في توجيه الاجتهاد الفقهي في المسائل المستجدة وفي تدبير الاختـلاف الفقهـي. وقد يسعـف الوحيان نبهاء الفقهـاء وصفوة العلمـاء، في إيجاد مخارج شرعيـة لمعاملات محرمة، ولاكتشاف حلول وبدائل مباحة تسهل عملية إدارة المال وترويجه، لرفع الحًرج عن اًلمسلمين اًلذين يفرون من اًلمعاملات الربوًية؛ حيث يوفران لهم حلولاً شرعيةً تجعلهم يُقْدمون عليها، وهم مرتاحو البال ومطمئنو النفس، علاوةً على ما قد تجلبه لهم من الربح الوفير.

وقـد يختلف المجتهدون، أو المفتون، في مسألـة معينة، فيلجؤون إلى الجمع، أو الترجيح؛ وهنا أيضاً يبرز دور الدراسات القرآنية وآيات الأًحكام؛ إًذ تخول تفاسيرها للناظر، إمكانيةَ

الجمع بين الاجتهادات، أو الترجيح بينها.

وقد يقول قائلٌ: "أنى لهذه النصوص التي وردت في سياقٍ تاريخيٍّ، ومكانيٍّ معينين، أن تسعفنا في نوازل اليوم، فضلاً عن أن تقدم لنا الحلول؟". والجواب أن ذلك متيسرٌ من خلال القياس والتخريج، لاستنباط الأحكام الفقهية في المسائل المعاصرة، وفق رؤيةٍ شرعيةٍ منضبطةٍ، وشروطٍ معتبرةٍ، تُبقي الفقه حياً مسايراً للواقع، مما يدفع شبهة انحصاره في عصرٍ معينٍ؛ فالحكم الشرعي المُضَمَّن في النص الشرعي جاء تحقيقاً لمصلحةٍ معينةٍ، وهو ثابتٌ ودائمٌ لا يتغير ولا يتبدل؛ لأن المصلحة التي شُرع لتحقيقها لا تتغير ولا تتبدل، لكن تطبيقه على الوقائع قد يتغير من مجتهدٍ إلى آخر، ومن بلدٍ إلى بلدٍ، ومن زمنٍ إلى زمنٍ، مع وحدة الحكم الشرعي وثباته[(١)].

ومن ثَمَّ، فالمخارج الشرعية ضروريةٌ في المعاملات الاقتصادية لمواءمة الظروف المعيشة وتخريجها على نصوص الوحيين؛ لأن تلك النصوص ليست قاصرةً على العهد النبوي، وإنما هي حلولٌ وأصولٌ إلى يوم القيامة، وتحضرني هنا القاعدة التي تقول: "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب"[(٢)].

إن البحث في نصوص الوحيين لإيجاد البديل المباح للمعاملة المحظورة، لذو أهميةٍ قصوى في العقود المالية، لأنه يحسس المستفتي بالأمان ويلقحه ضد الوقوع في الربا[(٣)]، ولذلك قال ابن القيم: "من فقه المفتي ونصحه إذا سأله المستفتي عن شيءٍ فمنعه منه، وكانت حاجته تدعوه إليه، أن يدله على ما هو عوضٌ له منه، فيسد عليه باب المحظور، ويفتح له باب المباح، وهذا لا يتأتى إلا من عالم ناصح مشفقٍ يريد أن يتاجر مع الله بعلمه. فمثاله في العلماء مثال الطبيب العالم الناصح في الأطبَّاء يحمي العليل عما يضره، ويصف له ما ينفعه، فهذا شأن أطباء الأديان والأبدان"[(٤)].

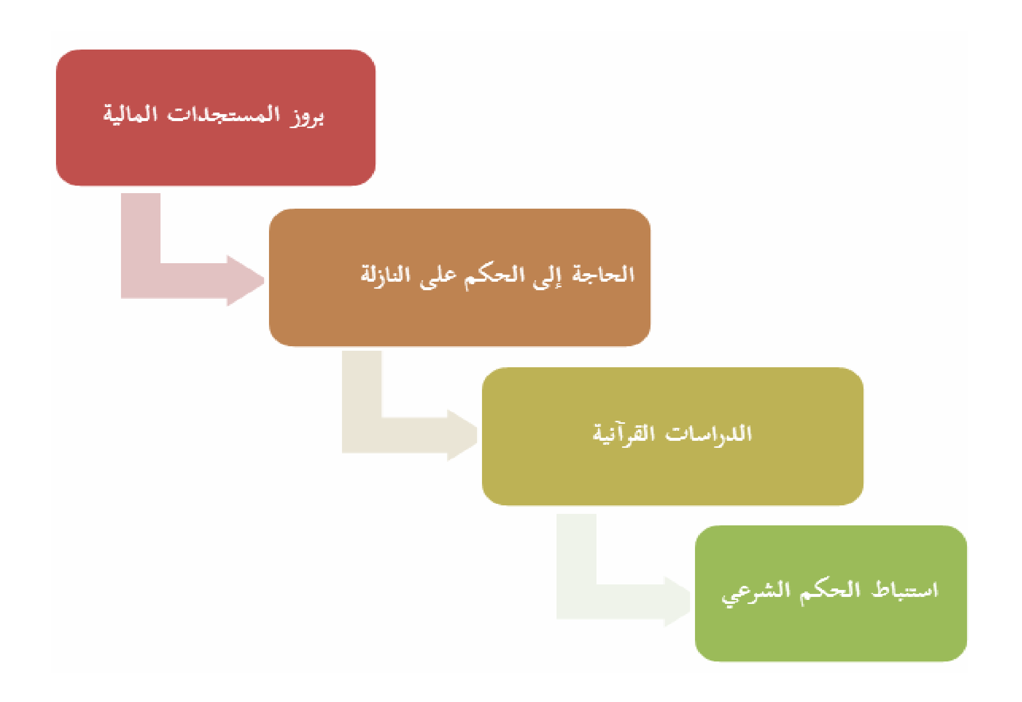
---

(١) السنة تشريعٌ لازمٌ ودائمٌ، لفتحي عبد الكريم، ص٩٣-٩٤.

(٢) قال عبد الله الجديع: "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، لكن مراعاة السبب أصل لفهم مراد الله ورسوله ﷺ، خصوصاً عند اشتباه المعنى، والعموم باق في مثل صورة السبب". تحرير علوم الحديث، ٧٠٦/٢.

(٣) للمزيد راجع: التحديات المستقبلية للمصرفية الإسلامية-رؤية مقاصدية-، لمسفر بن علي القحطاني.

(٤) إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم، ١٢١/٤- ١٢٢.



شكل يلخص الحاجة الملحة إلى الدراسات القرآنية في إيجاد حلول للمستجدات الاقتصادية[١].

الفرع الثالث: شروط ومراحل استثمار القرآن الكريم في الحكم على المستجدات الاقتصادية.

ليس بإمكان أي كان أن يأتي إلى القرآن الكريم، ويقول أنا بإمكاني أن أحكم على نازلة فقهية، فضلاً عن أن تكون مستجداً مالياً، تحار فيه المجامع الفقهية؛ وإنما هذه المهمة لها أهلها ممن استجمعوا شروط الفتوى والاجتهاد العامة[٢]، وزادوا عليها، معرفةً وخبرةً بعلم الاقتصاد لا يعذرون بجهلها، أو استعانوا بذوي الاختصاص.

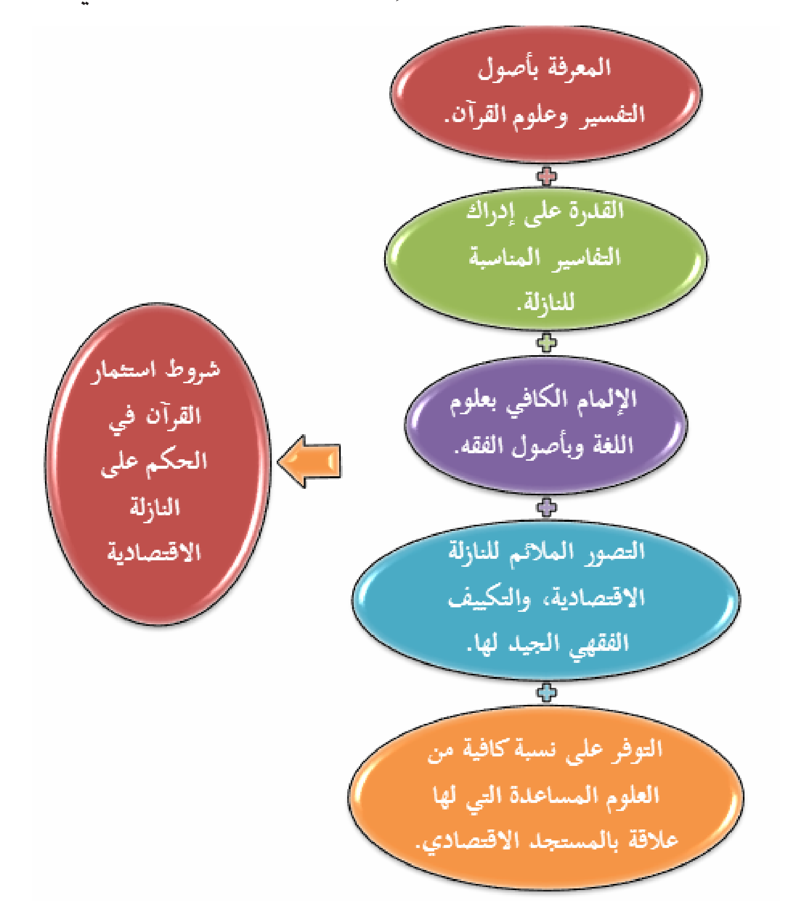
وعلى هذا، فإن الواقعة الاقتصادية إذا احتيج فيها إلى نص قرآني، وجب أن يتوفر في الناظر فيه شروطٌ أهمها:

(١) من إعداد الباحث

(٢) فلتراجع في كتب أصول الفقه

١. المعرفة بأصول التفسير وعلوم القرآن.
٢. القدرة على إدراك التفاسير المناسبة للنازلة.
٣. الإلمام الكافي بعلوم اللغة وبأصول الفقه.
٤. التصور الملائم للنازلة الاقتصادية، والتكييف الفقهي الجيد لها.

التوفر على نسبة كافية من العلوم المساعدة التي لها علاقة بالمستجد الاقتصادي، كالاقتصاد والقانون والمحاسبة واللغات الحية، فإن تعذر عليه، استنجد بأهالي هذه الفنون.



شكلٌ يبين شروط استثمار القرآن في الحكم على النازلة الاقتصادية (١).

(١) من إعداد الباحث

وتعتبر الهندسة المالية الإسلامية فرصةً سانحةً لابتكار أدوات اقتصادية متنوعة، تغطي مختلف الحاجات نحو تنويع اقتصادي مريح؛ لأنها تخول الحصول على منتجات مالية مناسبة، وتمكن من توفير المخارج الشرعية الكفيلة بإيجاد حلول شرعية للمستجدات الاقتصادية المعاصرة، "فهي المسار الذي يُتَّبع لاكتشاف أو تطوير صيغة تمويلية، وبعبارة أخرى، يمكن القول إن الهندسة المالية الإسلامية كفيلةٌ بإنتاج صناعة مالية إسلامية قادرة على مواجهة تحديات العصر، استناداً إلى نصوص الشرع وقواعده ومقاصده؛ وبذلك أنتجت الهندسة المالية الإسلامية مجموعةً من الأدوات والصيغ التمويلية والاستثمارية الخاصة بها والخاضعة لضوابط المعاملات المالية في الاقتصاد الإسلامي"[1].

ومنه، فإن المهندس المالي الإسلامي مطالب بالتوفر على حدٍّ أدنى من هذه الشروط، أي ما لا يسعه جهله من العلوم الشرعية، وإلا فإنه مجبرٌ على الرجوع إلى المجتهدين والمفتين.

وتمر العملية الاستنباطية من القرآن الكريم بمراحل عدة تتلاقح فيها مجموعة من المجالات والتخصصات، لتطلع علينا بحكم الواقعة الاقتصادية، أو لإيجاد حلٍ لها، وفي تقدير الباحث، فإن هذه المراحل تتسلسل على النحو التالي:

المرحلة الأولى: تصور المستجد الاقتصادي تصوراً كافياً وشاملاً، وذكر راشد العليوي أن الفتوى الصحيحة هي التي تستقصي أولاً تكييف الواقعة وتصورها تصوراً صحيحاً مطابقاً للواقع[2]. فهذه المرحلة مفادها التوصيف الجيد للنازلة على أمل الحصول على تكييفٍ فقهيٍّ مناسبٍ لها، لأن الحكم عن الشيء فرعٌ عن تصوره.

المرحلة الثانية: البحث عن الأدلة الشرعية المناسبة للتوصيف والتكييف المنجزَيْن في المرحلة الأولى، فهذه مرحلةٌ تنزيليةٌ للأدلة على صورة المسألة؛ فينطلق المفتي إلى القرآن الكريم يغوص في معاني آياته، ويسبح في تفاسيره، طلباً لحكم النازلة، أو سعياً إلى إيجاد المخرج لها عبر هندسةٍ ماليةٍ منضبطةٍ.

---

(١) دور الهندسة المالية في تطوير الصناعة المصرفية الإسلامية -دراسة نقدية لبعض المنتجات المصرفية الإسلامية-، لآمال لعمش، ص٧٦و١٨٢و١٨٦ونحوها.

(٢) تفاوت "صيغ العقود" طبيعي لكن لا يتجاوز إلى التطبيق والإخلال ب "الفتوى" ، مقال منشور بجريدة الرياض.

المرحلة الثالثة: تحقيقُ المناط والوصول للحكم الشرعي[1]، أو العثور على المخرج المناسب.

المرحلة الرابعة: التحقق من الفتاوى ومراجعتها، لمعرفة مدى مطابقتها للواقع، والتأكد من الاستثمار الصحيح للنص القرآني؛ كما يُنصح بتدوين هذه الفتاوى ليستفاد منها.

شكلٌ يوضح مراحل استثمار النص القرآني في الحكم على المستجد الاقتصادي أو في إيجاد الحل له (٢).

(١) هيئات الفتوى والرقابة الشرعية في المصارف الإسلامية (دراسة وتقويم)، لعبد الحق حميش.

(٢) من إعداد الباحث

إن هــذه الشروط والمراحل لمــن الأهمية بمكان؛ لأن أي قصــور سيتسبب في نقص على مستــوى الحكـم أو الحـل للواقعــة الاقتصادية، وقد ينجــم عن ذلك حكـم معكوس، يترجم بتطبيق خاطئ للمعاملة الاقتصادية، وربما يفضي ذلك إلى الحرام، أو إلى تضرر المستفتي؛ وهــذا الخلل إنما حصل في الطريــق الموصلة إلى الهدف، وأما الهدف نفسه فمحميٌّ من لدن حكيمٍ خبيرٍ.

المطلب الثالث: نماذج تطبيقية من استثمار القرآن الكريم وتفاسيره في الحكم على المستجدات الاقتصادية المعاصرة .

سأحــاول استحضار بعضــ الأمثلة التطبيقيــة لاستثمار القرآن الكــريم في الحكم على النازلة الاقتصادية، وذلك من خلال اجتهادات المجامع الفقهية، ومؤسسات الفتوى؛ وهو ما سأبسطه في الفرعين الآتيين:

- الفرع الأول: أمثلة من المجامع الفقهية.
- الفرع الثاني: أمثلة من مؤسسات الفتوى.

الفرع الأول: أمثلة من المجامع الفقهية.

تتأكــد أهمية الاجتهاد الجماعي في المعامــلات الاقتصادية، التي تطورت بإيقاعٍ يتجاوز الفتــوى الفرديــة، وينادي بتكاتــف الجهود لاحتــواء هذه المستجــدات الاقتصاديــة. وتعتبر المجامــع الفقهية من أهم الميادين التي يمكن أن تسعف في توفير الاجتهاد الجماعي للمسائل الاقتصادية ؛ لأن الحوادث والمستجدات فيها أكثر من نظيراتها في العبادات، وللوتيرة العالية التــي تتسارع بهــا تطوراتها. إن تــوالي المستجــدات المصرفية وتعقدها، باعــثٌ على تضافر الجهود لاستيعابها، ولا يتحقق ذلك إلا باجتهادٍ جماعيٍّ، كالذي توفره المجامع الفقهية"[(1)].

وإذا مــا التفتنــا إلى قائمــة حــول الموضوعــات الاقتصاديــة التــي بحثها مجمــع الفقه الإسلامي الدولي، نجد أنها حوالَي تسعٍ وسبعين قراراً من الدورة الثانية إلى العشرين"[(2)]،

(1) الاجتهاد الجماعي ودور المجامع الفقهية في تطبيقه، لشعبان إسماعيل، ص١٢٧.

(2) دور مجمــع الفقه الإسلامــي الدولي في دعم وتطوير الصناعة المالية الإسلاميــة نحو ما يقرب من ثلاثين عاما على إنشائه، بحث لأحمد أبي عليو ، ص١٣-١٦.

وقد بحثت في الدورتين الأخيرتين أي الحادية والعشرين، والثانية والعشرين، فوجدت خمسة قـرارات إضافيـةً، فيؤول الأمـر إلى أربع قرارات تقريباً في كل دورة، وهـو رقمٌ مهمٌّ يَنُم عن الاهتمام البالغ للمجمع بالقضايا الاقتصادية، وعن اهتمام العلماء بها، وسعيهم إلى ضبطها ، وتطويرها. وفيما يلي بعض الأمثلة:

المثال الأول: الوعد والمواعدة في المرابحة للآمر بالشراء.

بعد اطلاع مجلس مجمع الفقه الإسلامي الدولي بجدة على البحوث المقدمة من الأعضاء والخبراء في موضوعـي الوفاء بالوعد، والمرابحة للآمر بالشراء، واستماعه للمناقشات التي دارت حولهمـا، قـرر أن الوعـد الذي يصدر مـن الآمـر أو المأمور على وجه الانفـراد، يكون ملزمـاً للواعـد ديانةً إلا لعذر، وهو ملـزمٌ قضاءً إذا كان معلقاً على سبـبٍ، ودخل الموعود في كلفـة نتيجـة الوعد. ويتحدد أثر الإلزام في هذه الحالة إما بتنفيذ الوعد، وإما بالتعويض عن الضرر الواقع فعلاً بسبب عدم الوفاء بالوعد بلا عذر. وأما المواعدة – وهي التي تصدر من الطرفـين – فتجوز في بيـع المرابحة بشرط الخيار للمتواعدين، كليهمـا أو أحدهما، فإذا لم يكـن هناك خيارٌ فإنها لا تجوز؛ لأن المواعـدة الملزمة في بيع المرابحة تشبه البيع نفسه، حيث يُشترط عندئذ أن يكون البائع مالكاً للمبيع حتى لا تكون هناك مخالفةٌ لنهي النبي صلى الله عليه وسلم عن بيع الإنسان ما ليس عنده[(١)].

وقـد أثيرت نقاشاتٌ كثيرةٌ حول هذا الموضوع أذكر منها رأيين استندا إلى آياتٍ قرآنيةٍ، وهما كالاتي:

الرأي الأول: يرى أن الوعد غير ملزم قضاء في جميع الأحوال، ويستحب الوفاء به ديانة، وقد استدلوا على ذلك بعدة أدلة، منها: أن الوعد تفضل وإحسان يجوز الرجوع فيه ، وقد قال الله تعـالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ ﴾[(٢)].

(١) قرار رقم: ٤٠ – ٤١ (٢/٥ و ٣/٥) بشأن الوفاء بالوعد، والمرابحة للآمر بالشراء مجلس مجمع الفقه الإسلامي الـدولي بجـدة ، في دورة مؤتمره الخامس بالكويت من ١- ٦ جمادى الأولى ١٤٠٩ الموافق ١٠ – ١٥ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٨م.
وأيضاً: مجلة مجمع الفقه الإسلامي الدولي الجزء الثاني، العدد الخامس، ص ٧٥٤ و ٩٦٥

(٢) سورة التوبة، جزء من الآية:٩١.

الـرأي الثاني: يرى أنه ملـزمٌ، ومما استدلوا به من الآيـات القرآنية قوله تعالـى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ ﴾[1]. واستدلـوا أيضـا بقوله تعـالـى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾[2]. واستـدل هـذا الفريـق أيضاً بالآيات التي أثنـى الله فيها على مـن بر بوعده وأوفى بعهده، منها قوله تعـالـى: ﴿ ۞ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾[3]، وقوله: ﴿ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ ﴾[4]، ومدح إسماعيل لصدقه في وعده بقوله عز شأنه: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ ﴾[5].

ويظهر جلياً أن القرآن الكريم أسعف كل رأي فقهي بأدلة، للفصل في هذا المستجد المالي الكامن في بيع المرابحة للآمر بالشراء مع الوعد الملزم.

المثال الثاني[6]: عقد التأمين التجاري.

هـذا العقد ضربٌ من ضروب المقامرة، لمـا فيه من المخاطرة في معاوضات مالية، ومن الغُرم بلا جناية أو تسبب فيها، ومن الغنم بلا مقابل أو مقابل غير مكافئ، فإن المستأمن قد يدفع قسطاً من التأمين ثم يقع الحادث فيغرم المؤمن كل مبلغ التأمين، وقد لا يقع الخطر ومع ذلـك يغنم المؤمن أقسـاط التأمين بلا مقابل، وإذا استحكمت فيه الجهالة، كان قماراً ودخل في عموم النهي عن الميسر في قوله تعالـى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ

---

(١) سورة المائدة ، جزء من الآية: ١.

(٢) سورة الصف، الآيتان: ٢-٣.

(٣) سورة البقرة، الآية:١٧٧.

(٤) سورة النجم، الآية:٣٧.

(٥) سورة مريم، الآية:٥٤.

(٦) فتوى تحت عنوان التأمين بشتى صوره وأشكاله، المجمع الفقهي الإسلامي التابع لرابطة العالم الإسلامي، الدورة الأولى، بتاريخ ١٦/٧/١٩٧٨م الموافق ١٠/٨/١٣٩٨ هـ .

وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾[1]، وهذا هو الشاهد؛ لأن معاني الميسر موجودةٌ في التأمين التجاري، مع ما يشوبه من عداوة وبغضاء بين المتعاقدين، وهو ما نشهده في المحاكم من دعاوى الاحتجاج على مؤسسات التأمين، أو اتهام هذه المؤسسات للمنخرط بالتحايل.

المثال الثالث[2]: بيع التورق[3].

هذا جائز شرعاً، وبه قال جمهور العلماء، لأن الأصل في البيوع الإباحة، لقول الله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ ﴾[4]، ولم يظهر في هذا البيع رباً لا قصداً ولا صورة، ولأن الحاجة داعية إلى ذلك لقضاء دين، أو زواج أو غيرهما.

والشاهد هنا أن المجمع استدل بالبراءة الأصلية في هذه الآية على حل التورق، فبنى على التصريح بجواز البيع ما لم يكن ربا، وعلى هذا تقاس المستجدات المعاصرة التي ليست ربا ولا فيها غرر أو جهالة، فيحكم عليها بالجواز، استناداً إلى هذه الآية والتي مفادها أن الأصل في البيوع هو الجواز ما لم يوجد دليل على الحرمة.

المثال الرابع[5]: رأى المجلس أن بيع الدم، لا يجوز؛ لأنه من المحرمات المنصوص عليها في القرآن الكريم، مع الميتة ولحم الخنزير. ومستند المجمع في هذا هو قوله عز وجل: ﴿ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ

(١) سورة المائدة، الآيتان: ٩٠-٩١.

(٢) قرار بشأن حكم بيع التورق، المجمع الفقهي الإسلامي التابع لرابطة العالم الإسلامي، الدورة الخامسة عشرة بتاريخ١٩٩٨ /٣١/١٠ م الموافق ١٤١٩/٧/١١هـ. مرجع سابق.

(٣) هو شراء سلعة في حوزة البائع وملكه، بثمن مؤجل، ثم يبيعها المشتري بنقد لغير البائع، للحصول على النقد (الورق). المرجع نفسه.

(٤) سورة البقرة، جزء من الآية:٢٧٥.

(٥) قرار بشأن حكم نقل الدم من امرأة إلى طفل دون سن الحولين وهل يأخذ حكم الرضاع المحرم أو لا؟ وهل يجوز أخذ العوض عن هذا الدم أو لا؟، المجمع الفقهي الإسلامي التابع لرابطة العالم الإسلامي، الدورة الحادي عشرة / القرار الثالث، بتاريخ: ١٩٨٩/٢/٢٦م الموافق ل ١٤٠٩/٧/٢٠هـ. مرجع سابق.

كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣﴾ ﴾[1].

وينفـع هذا في الحكم على معامـلات بنوك الدم المستجدة، بأنه لا يجوز بيعها للدم بناء على هذه الفتوى.

المثال الخامس[2] : من صور البيع الصوري.

ومـن صور البيع الصوري للأسهم وهو لا يرغـب في بيعها، وإنما يفعل ذلك للنصب على النـاس في رفع ثمنهـا[3]، فهذا من النجش الذي جاء الوعيد الشديـد على من فعله، كما روى البخاري[4]"أَنَّ رَجُلًا أَقَامَ سِلْعَةً فِي السُّوقِ، فَحَلَفَ فِيهَا، لَقَدْ أَعْطَى بِهَا مَا لَمْ يُعْطِه، لِيُوقِعَ فِيهَا رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ"، فَنَزَلَتْ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٧٧﴾ ﴾[5].

ومحـل الشاهد هو النهي عن يشترى بعهد الله ثمـن قليل؛ لأن النـاس يثقون في النـاجش بنـاء على عهد صدقه في الثمـن. وعلى هذا فكل معاملة اقتصادية مستجدة من هذا القبيل، تدخل في هذا الحكم، وتحرمها هذه الآية والحديث الذي وردت فيه.

---

(١) سورة المائدة، جزء من الآية:٣.

(٢) مجلة المجمع الفقهي الإسلامي، السنة الثامنة والعشرون، العدد ٣٢، ص١٨٠-١٨٣ .

(٣) بحيـث ينتهز المضارب أو المستثمـر المخادع فرصة ارتفاع في القيمة السوقية لأسهم يمتلكها، فيقوم بالاتفاق مع أشخاص آخريـن يبيعها عليهم صورياً، بسعر أعلى من السعر الجـاري في السوق؛ ثم يقوم هؤلاء الأشخاص في نفس اليوم بإعادة بيعها له بسعـر أعلى، أو يقوم المضارب نفسه بالبيع ثم يعرض بسعر أعلى، ثم يقوم بالشراء وهكذا. فمثل هذه المبايعات والتداولات للسهم من شأنها أن تفرض حالة من الركون والاطمئنان لدى المضاربين بإبقاء أسهمهم، لكثرة وتزايد التعامل على تلك الأسهم، وهو ما يعتبره بعض المضاربين الذين لا يملكون أسهماً من هذه الشركة المساهمة، مؤشراً على تحسنٍ في ظروف المنشأة المصدرة لها. المرجع نفسه.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، ٦/ ٣٤.

(٥) سورة آل عمران، الآية:٧٧.

الفرع الثاني: أمثلة من مؤسسات الفتوى.

المثال الأول[1]:

لا يجوز بيع السلع المقلدة على أنها أصلية، ولا يجوز الإتجار بها ولا توزيعها على المحلات التجارية؛ لما في ذلك من غش المسلمين، والكذب والاحتيال عليهم، ولما في ذلك من التعاون على الإثم والعدوان وأكل أموال الناس بالباطل، لقوله سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾ ﴾[2]، ولقوله عز وجل: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾[3].

وقد حرمت هذه الفتوى المعاملة المستحدثة ارتكازاً على الآيتين الكريمتين.

المثال الثاني[4]: إخراج تصاريح مبنية على الكذب احتيال على تعليمات الدولة

(١) فتاوى اللجنة الدائمة، الفتوى رقم: ٢١٦٦١ ، بوابة الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء.
السؤال: أعمل في مجال بيع المواد الغذائية والمواد الاستهلاكية وأملك عددًا من المحلات التجارية والبقالات في كل من مكة وجدة والمدينة المنورة .
وسؤالي هنا أن بعض موزعي المواد الغذائية والاستهلاكية يعرضون علي من وقت لآخر عددًا من البضائع التي تبدو تمامًا كالبضائع الأصلية من حيث الشكل الخارجي والمسمى التجاري لكنها في الأساس بضائع مقلدة. مع العلم بأن المستهلك الذي يشتري السلعة أو المنتج يعتبر كأنها أصلية.
بعض الإخوة جزاهم الله خيرًا نصحوني بعدم الإقدام على ما سلف ذكره من باب أن هذا ضرب من ضروب الغش والاحتيال على المستهلك وإلحاق الضرر بالتجار وأصحاب المحلات التجارية التي تتعامل بالبضائع الأصلية.فضيلة الشيخ: هل يجوز الإقدام على بيع مثل هذه البضائع والاتجار بها، وهل مجرد توزيعها على بعض المحلات التجارية التي تبيعها وتتعامل بها يعد أمرًا مخالفًا لشرع الله عز وجل؟

(٢) سورة المائدة، جزء من الآية: ٢.

(٣) سورة البقرة ، جزء من الآية: ١٨٨.

(٤) فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، الفتوى رقم ١٦٤٤٠ ، مرجع سابق.
السؤال: لدي عدة تصاريح بدخول عدد معين من الأغنام، وقد حصلت عليها بزعم أن لي أغنامًا خارج المملكة بهذا العدد، وأريد إدخالها بهذه التصاريح، وأنا في الواقع استخرجتها لهدف بيعها لمن يجلب بها أغنامًا يشتريها من الخارج، ويكون البيع بمبلغ ٣٠ ريالاً مثلاً على كل رأس حسب ما هو في هذه التصاريح، كما أفيد فضيلتكم أنني عندما أخذت التصريح فهمت القائم بإصدار التصاريح أنه قبل عدة سنوات خرجت بهذه الأغنام الذي كان عددها آنذاك ١٠٠٠ رأس، والآن توالدت وأصبحت ٥٠٠٠ رأس، وكل هذا بحجة بيع التصريح فقط، ومن الأساس لا يوجد لي أغنام، لا قديمًا ولا الآن، أرجو الإفادة عن:حكم حصولي عليها وبيعها – أي: التصاريح –؟

ومخالفة لأوامرها، وهذا لا يجوز؛ لما فيه من معصية ولي الأمر، وتسيب الأمور، وكل هذا من التعاون على الإثم والعدوان الذي حرمه الله بقوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢﴾ ﴾[1] .

المثال الثالث[2]: الرهن مشروع بالكتاب والسنة، ولا فرق في الرهن بين الذهب وبين غيره، ولا بين أن يكون المرتهن صائغا أو غير صائغ، ودليل مشروعيته من الكتاب قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِن كُنتُمۡ عَلَىٰ سَفَرٖ وَلَمۡ تَجِدُواْ كَاتِبٗا فَرِهَٰنٞ مَّقۡبُوضَةٞۖ فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٢٨٣﴾ ﴾[3]؛ لأن الآية جاءت مطلقةً ولم تفرق بين الذهب وغيره.

المثال الرابع[4]: رهن الشقة لدى المؤسسة حتى يسدد لها الثمن لا مانع منه وهو من باب التوثق، والرهن المقصود به التوثق له أصل في الشرع .

المثال الخامس[5]: فالظاهر عدم جواز هذه الصورة[6] من المزايدة لشبهة القمار

(١) سورة المائدة، جزء من الآية: ٢.

(٢) عنوان الفتوى : حكم رهن الذهب عند الصائغ، رقم الفتوى٩٤٠٠١ : تاريخ الفتوى : الثلاثاء ٨ ربيع الأول ١٤٢٨ / ٢٧-٣-٢٠٠٧، موقع الشبكة الإسلامية.
السؤال: ما هي شروط رهن الذهب عند الصائغ وجزاكم الله خيراً ؟

(٣) سورة البقرة ، جزء من الآية: ٢٨٣.

(٤) عنوان الفتوى: حكم شراء عقار عن طريق مؤسسة بالتقسيط، رقم الفتوى: ٣٨٥٩١ ، بتاريخ: الأحد ١٦ شعبان ١٤٢٤ / ١٢-١٠-٢٠٠٣. موقع الشبكة الإسلامية، مرجع سابق.
السؤال: أنا موظف في مؤسسة، تقوم هذه المؤسسة بإعطاء قروض سكنية بطريقة المشاركة المتناقصة، والطريقة كالتالي يقوم الموظف بمعاينة الشقة التي يريد شراءها ويتفق مع صاحب الملك على ثمنها، وبعد ذلك تقوم المؤسسة بمعاينتها وتقوم بدفع المبلغ للمالك وتقوم برهن الشقة لصالحها فمثلا إذا كان القرض ٢٥٠٠٠ دينار أردني يقوم بدفع أقساط شهرية مبلغ ١٤٠ دينار لمدة عشرين سنة فهل هذه الطريقة حلال جزاكم الله خيرا

(٥) عنوان الفتوى: هذه الصورة من بيع المزايدة فيها شبهة القمار، رقم الفتوى: ١٣٦١٧٠، بتاريخ: الإثنين ١٨ جمادى الآخر ١٤٣١ / ٣١-٥-٢٠١٠. موقع الشبكة الإسلامية، مرجع سابق.

(٦) هي التي وردت في السؤال ونصه: أريد أن أسأل عن بعض المواقع في الشبكة العنكبوتية التي تقوم بعرض منتجات تباع عن طريق المزاد، و الذين يشاركون في المزاد يسجلون في الموقع، وللمشاركة في المزاد يقومون

حيث إن المشترك إما أن يربح المزايدة فيحصل على السلعة بثمن بخس أو تفوته المزايدة فيخسر ما اشترى به النقاط وهذا هو القمار، فلا يجوز، وقد ورد اللعن لليهود لأنهم لما نهوا عن الشحوم جملوها وباعوها وأكلوا ثمنها، ولما نهو عن الاصطياد يوم السبت احتالوا على ذلك فوضعوا شباكهم يوم الجمعة وسحبوها يوم الأحد، وفي هذا يقول رب العزة والجلال: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾[1].

فهذه الحيل لا تبيح المعصية بل تزيدها سوءا وإثماً، لأن الله تعالى ذم المخادعين له بقوله تعالى: ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾[2].

وهاتان الآيتان يسدان الباب أمام الحيل في جميع المعاملات الاقتصادية المستحدثة.

بشراء نقط من الموقع ب ٥٠ سنت للنقطة، وفي كل مرة يزايد أحدهم يرتفع ثمن المنتج ١سنت. فبهذه الطريقة العرض مغري لأنك تشتري المعروض بثمن بخس ولكن في حالة عدم الفوز في المزايدة تخسر النقط التي زايدت بها. فما قول الشرع في هذا النوع من التجارة؟

(١) سورة الأعراف، الآية:١٦٣.

(٢) سورة البقرة، الآية:٩.

خاتمة

بعد يسر الله تعالى إنجاز مطالب هذا البحث، خلص الباحث إلى النتائج والتوصيات التالية:

فأما النتائج فمنها:

١. المستجدات الاقتصادية كثيرة وتتوالى بسرعة، وهي بحاجة ماسة إلى الفتاوى والحلول.
٢. لا يشك من له مسكة عقلٍ في أهمية القرآن الكريم عند معالجة المستجدات الاقتصادية المعاصرة.
٣. لا بد من شروط ومراحل لاستثمار القرآن الكريم في الحكم على المستجدات الاقتصادية.
٤. لم يعثر الباحث في حدود علمه على تطبيقات في هذا المجال، وما أورده في الباحث هو محض اجتهاد منه.

وأما التوصيات، فمنها:

١. الرفع من اهتمام الدراسات القرآنية بالمستجدات الاقتصادية المعاصرة.
٢. التنسيق بين المؤسسات الاقتصادية وبين العلماء، لاستثمار أنجع للقرآن الكريم وعلومه في الحكم على النوازل الاقتصادية وحل مشكلاتها.
٣. تشجيع البحث العلمي في هذا الباب.

المراجع والمصادر

المراجع باللغة العربية :

١. الاجتهاد الجماعي ودور المجامع الفقهية في تطبيقه، شعبان محمد إسماعيل، (دار البشائر الإسلامية: لبنان – بيروت/ دار الصابوني: سوريا- حلب، الطبعة الأولى، ١٤١٨ه-١٩٩٨م).

٢. إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، (دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩١م).

٣. التحديات المستقبلية للمصرفية الإسلامية-رؤية مقاصدية-، مسفر بن علي القحطاني، مقال منشور بمجلة الحكمة، (بريطانيا- مانشستير)، العدد ٤٣.

٤. تحرير علوم الحديث، عبد الله بن يوسف الجديع، (مؤسسة الريان: لبنان- بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م-١٤٢٤ه).

٥. تشنيف المسامع بجمع الجوامع، محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق: سيد عبد العزيز و عبد الله ربيع، (مكتبة قرطبة: الطبعة الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م).

٦. تفاوت "صيغ العقود" طبيعي لكن لا يتجاوز إلى التطبيق والإخلال ب "الفتوى" ، مقال منشور بجريدة الرياض، الثلاثاء ٣ ربيع الأول ١٤٣٤ هـ - ١٥ يناير ٢٠١٣م - العدد ١٦٢٧٦.

٧. تقرير صناعة الخدمات المالية الإسلامية الاستقرار، مايو ٢٠١٥م ، مجلس الخدمات المالية الإسلامية ماليزيا.

٨. التقرير والتحبير علي تحرير الكمال بن الهمام، محمد بن محمد بن محمد المعروف بابن أمير حاج، (دار الكتب العلمية: لبنان-بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).

٩. تقويم المؤسسات التطبيقية للاقتصاد الإسلامي: النوافذ الإسلامية للمصارف التقليدية، سعيد بن سعد المرطان، بحث مقدم للمؤتمر العالمي الثالث للاقتصاد الإسلامي الذي نظمته كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة أم القرى بمكة

المكرمة خلال شهر محرم ١٤٢٤هـ.

١٠. تيسير التحرير، محمد أمين بن محمود البخاري المعروف بأمير بادشاه، (دار الفكر: لبنان- بيروت).

١١. دور الهندسة المالية في تطوير الصناعة المصرفية الإسلامية -دراسة نقدية لبعض المنتجات المصرفية الإسلامية-، آمال لعمش، مذكرة مقدمة ضمن متطلبات الحصول على شهادة الماجستير في العلوم التجارية إشراف الأستاذ الدكتور صالح صالحي، جامعة فرحات عباس – سطيف، كلية العلوم الاقتصادية والتجارية وعلوم التسيير، ٢٠١١/٢٠١٢.

١٢. دور مجمع الفقه الإسلامي الدولي في دعم وتطوير الصناعة المالية الإسلامية نحو ما يقرب من ثلاثين عاما على إنشائه، أحمد عبد العليم عبد اللطيف أبو عليو ، مؤتمر دولي حول منتجات وتطبيقات الابتكار والهندسة المالية الإسلامية: بين المالية التقليدية والمالية الإسلامية، يومي ٥ و ٦ مايو/أيار ٢٠١٤م الموافق لـ ٥ و ٦ رجب ١٤٣٥هـ، بمدينة سطيف الجزائرية.

١٣. الرد على من ينكر حجية السنة (مطبوع مع كتاب دفاع عن السنة لأبي شهبة)، عبد الغني بن محمد عبد الخالق، (مكتبة السنة: مصر- القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٩ ٥- ١٩٨٩م).

١٤. السنة المفترى عليها، سالم البهنساوي، (دار الوفاء: مصر- القاهرة، ودار البحوث العلمية: الكويت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م).

١٥. السنة تشريع لازم ودائم، فتحي عبد الكريم، (مكتبة وهبة: مصر-القاهرة: الطبعة الأولى، ١٤٠٥ه-١٩٨٥م).

١٦. السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، مصطفى بن حسني السباعي، ٤٩/١، (المكتب الإسلامي: بيروت – لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م).

١٧. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، (الطبعة السلطانية المطبعة الأميرية، مصر- القاهرة،١٣١١ هـ).

١٨. القرآن الكريم في مواجهة الجاهلية، علي بن نايف الشحود، الطبعة الأولى، ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

١٩. مجلة المجمع الفقهي الإسلامي، المجمع الفقهي الإسلامي برابطة العالم الإسلامي، السنة الثامنة والعشرون، العدد٣٢، ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م .

٢٠. هيئات الفتوى والرقابة الشرعية في المصارف الإسلامية (دراسة وتقويم)، عبد الحق حميش، بحث مقدم للمؤتمر العلمي السنوي الرابع عشر، كلية الشريعة والقانون جامعة الإمارات العربية المتحدة.

المواقع الإلكترونية :

١. بوابة الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء http://www.alifta.net /

٢. موقع أحمد الحازمي. www.alhazme.net (شرح مختصر التحرير للفتوحي، أحمد الحازمي، دروس صوتية قام بتفريغها هذا الموقع).

٣. موقع الشبكة الإسلامية : www.islamweb.net

٤. موقع المجمع الفقهي الإسلامي التابع لرابطة العالم الإسلامي (قرارات المجمع الفقهي الإسلامي التابع لرابطة العالم الإسلامي). www.ar.themwl.org/

٥. موقع مجمع الفقه الإسلامي الدولي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي. (قرارات مجمع الفقه الإسلامي الدولي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي).-http://www.fiqhacad emy.org.sa/

٦. موقع مصحف المدينة للنشر الحاسوبي، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف. http://nashr.qurancomplex.gov.sa/site/

المراجع الأجنبية :

1. Finance participative Dernier coup d'accélérateur, journal L'Economiste, Édition N° 4631, du 2015/10/21
2. Islamic banking: Growing fast but can it be more than a niche market?; Linda Yueh , BBC NEWS, 18 July 2014.
3. World Islamic Banking Competitiveness Report 2013–14.

د. محمد بن رزيق بن قبل الرحيلي

- تاريخ الميلاد : ١٣٨٩/٧/١هـ
- السكن : المدينة المنورة
- حاصل على درجة البكالوريوس من جامعة الملك عبدالعزيز كلية التربية قسم الدراسات الإسلامية عام ١٤١٢هـ .
- حاصل على درجة الماجستير من جامعة أم القرى عام ١٤٢٢هـ بتقدير ممتاز مع التوصية بطبع الرسالة .
- وعنوان الرسالة (بعض المبادئ التربوية المستنبطة من قصة يوسف عليه السلام).
- حاصل على درجة الدكتوراه من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة من كلية القرآن الكريم قسم التفسير عام ١٤٣٣هـ بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى وكانت الرسالة تحقيق مخطوط وعنوانها (الفرات النمير في تفسير الكتاب المنير - لجمال الدين الضمدي من بداية سورة التوبة إلى نهاية سورة السجدة).
- داعية متعاون في مركز الدعوة والإرشاد بالمدينة المنورة التابع لوزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد .
- عضو في مركز تعظيم القرآن الكريم .
- إمام وخطيب في المدينة المنورة منذ عام ١٤٢٠هـ .
- أستاذ مساعد في قسم الدراسات القرآنية كلية الآداب والعلوم الإنسانية بينبع .
- أعمل حالياً وكيلاً لعمادة شؤون الطلاب فرع ينبع .

التقليل من شأن العلماء
خطورته وعلاجه في ضوء القرآن الكريم

د. محمد بن رزيق الرحيلي

أستاذ مساعد قسم الدراسات القرآنية
كلية الآداب والعلوم الإنسانية ينبع جامعة طيبة

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الأمين واله وصحبه أجمعين.

لقد اعتنى القرآن الكريم بالعلماء ورفع مكانتهم وأعلى من قدرهم وكرمهم تكريماً عظيماً وحذر من انتقاصهم، والتقليل من شأنهم وبين أن عاقبة ذلك خطرها عظيم، فالعلماء صمام أمان لهذا الدين فبهم يُرفع وبهم يدخل الناس في دين الله تعالى.

وما حدث في هذا الزمن من مخالفات عظيمة عانت الأمة منها الويلات من تفجير وتكفير وطعن في ولاة الأمر وغير ذلك يعد من أعظم أسبابه التقليل من شأن العلماء وعدم تكريمهم والاستماع إلى أقوالهم ، فهذا البحث محاولة لعلاج هذه المشكلة وقد جعلت عنوانه:

التقليل من شأن العلماء : خطورته وعلاجه في ضوء القرآن الكريم.

واشتمل هذا البحث على مقدمة وفيها: أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وأهدافه، ومنهج البحث

وأربعة مباحث وخاتمة كما سيأتي بمشيئة الله تعالى.

أهمية الموضوع:

تبرز أهمية هذا الموضوع من خلال الآتي:

الحرص على الارتباط بكتاب الله عز وجل لعظم أجر تلاوته وتدبره وتفهم معانيه ففيه علاج مشكلاتنا المعاصرة.

معرفة خطورة التقليل من شأن العلماء وأنه مخالفة صريحة للقرآن الكريم وهدي سيد المرسلين.

معرفة الآثار المترتبة على التقليل من شأن العلماء ومخاطرها العظيمة على الفرد والمجتمع .

أسباب اختيار الموضوع:

وتم اختيار موضوع التقليل من شأن العلماء خطورته وعلاجه في ضوء القرآن الكريم للأسباب التالية:

١. انتشار التقليل من شأن العلماء في وسائل الأعلام انتشاراً واضحاً.

٢. انتشار التقليل من شأن العلماء بين عامة الناس حتى يكاد ينسى فضلهم ومكانتهم.

٣. إن التقليل من شأن العلماء من أعظم الأسباب التي تؤدي إلى انحراف المرء عن دين الله تعالى.

٤. جرائم التفجير والتكفير والطعن في ولاة الأمر سببها الرئيس التقليل من شأن العلماء.

٥. إبراز مكانة العلماء في ضوء القرآن الكريم.

أهداف الموضوع:

وأهداف الموضوع تتحقق من خلال الإجابة على الأسئلة التالية:

١. من هم العلماء؟ ومن هم الذين ينتقصونهم؟

٢. ما أسباب انتشار التقليل من شأن العلماء؟

٣. ما الآثار المترتبة على التقليل من شأن العلماء؟

٤. ما علاج التقليل من شأن العلماء؟

منهج البحث:

سلكت في هذا البحث المنهج الاستقرائي الاستنباطي الذي يقوم على استقراء الآيات المتعلقة بالموضوع وتفسيرها تفسيراً موضوعياً من خلال كلام العلماء واستنباط المعاني المناسبة منها لعلاج مشكلة البحث.

المبحث الأول

من هم العلماء؟ ومن هم الذين ينتقصونهم ؟

المطلب الأول: من هم العلماء؟

العلماء مكانتهم في الإسلام عظيمة، ومنزلتهم فيه جليلة، فضلهم الله على غيرهم ورفعهم درجات، بهم يُعرف الحق من الباطل، والضار من النافع، بهم يُسلك طريق الهدى والرشاد ويُتجنب طريق الغي والفساد، بهم يُعرف الحلال من الحرام، هم قادة الأنام يقول الآجري: "الطَّاعَةُ لَهُمْ مِنْ جَمِيعِ الْخَلْقِ وَاجِبَةٌ، وَالْمَعْصِيَةُ لَهُمْ مُحَرَّمَةٌ، مَنْ أَطَاعَهُمْ رَشَدَ، وَمَنْ عَصَاهُمْ عَنَدَ، مَا وَرَدَ عَلَى إِمَامِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَمْرٍ اشْتَبَهَ عَلَيْهِ، حَتَّى وَقَفَ فيه فَبِقَوْلِ الْعُلَمَاءِ يَعْمَلُ، وَعَنْ رَأْيِهِمْ يَصْدُرُ، وَمَا وَرَدَ عَلَى أُمَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ حُكْمٍ لا عِلْمَ لَهُمْ بِهِ فَبِقَوْلِهِمْ يَعْمَلُونَ، وَعَنْ رَأْيِهِمْ يَصْدُرُونَ، وَمَا أَشْكَلَ عَلَى قُضَاةِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ حُكْمٍ، فَبِقَوْلِ الْعُلَمَاءِ يَحْكُمُونَ، وَعَلَيْهِ يُعَوِّلُونَ، فَهُمْ سِرَاجُ الْعِبَادِ، وَمَنَارُ الْبِلَادِ، وَقِوَامُ الْأُمَّةِ، وَيَنَابِيعُ الْحِكْمَةِ، هُمْ غَيْظُ الشَّيْطَانِ، بِهِمْ تَحْيَا قُلُوبُ أَهْلِ الْحَقِّ، وَتَمُوتُ قُلُوبُ أَهْلِ الزَّيْغِ، مَثَلُهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَثَلِ النُّجُومِ فِي السَّمَاءِ، يُهْتَدَى بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ"[1]

قبل الخوض في غمار هذا البحث وبيان خطورة التقليل من شأن العلماء لا بد أن نعرف من هم العلماء المعنيون بهذا الشأن؟

أستطيع القول بأبسط صورة هم العلماء الربانيون المتبعون للكتاب والسنة.

قال الإمام ابن القيم عنهم هم : "فُقَهَاءُ الْإِسْلَامِ ، وَمَنْ دَارَتْ الْفُتْيَا عَلَى أَقْوَالِهِمْ بَيْنَ الْأَنَامِ ، الَّذِينَ خُصُّوا بِاسْتِنْبَاطِ الْأَحْكَامِ ، وَعَنَوْا بِضَبْطِ قَوَاعِدِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ"[2]

---

(١) أخلاق العلماء للآجري ص(١٦-١٧).

(٢) إعلام الموقعين لابن القيم (٩/١).

وقال تعالى عنهم: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[1] فهم الأئمة الذين يهدونا الناس إلى الخير بما عندهم من علم وصبر ويقين وصفات جليلة.

العلماء هم ورثة الأنبياء الذين يهتدون بهدي نبيهم محمد ﷺ ويقتدون به. قال عليه الصلاة والسلام: ((وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا، وَلَا دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ)).[2]

العلماء هم قادة الناس وبموتهم يفسد الناس فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ النَّاسِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَتْرُكْ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رؤوساً جُهَّالًا فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا)).[3]

ولعل لقائل أن يقول كل من الخوارج والصوفية والمتساهلين وغيرهم يدعي أنه من أفراد هذا الصنف وأنهم متبعون للكتاب والسنة.

فنقول إن هناك معالم واضحة يتميز بها العلماء الربانيون الذين يجب الصدور عن رأيهم وتعظيمهم وتبجيلهم وإنزالهم المنزلة اللائقة بهم من هذه المعالم:

أنهم رأس الجماعة التي أُمرنا بلزومها قال عليه الصلاة والسلام: ((عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الوَاحِد وَهُوَ مِنَ الاثْنَيْنِ أَبْعَدُ، مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الجَنَّةِ فَلْيَلْزَمُ الجَمَاعَةَ، مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ)).[4]

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾[5] اُختلف في أولي

---

(١) السجدة:.٢٤

(٢) ذكره البخاري تعليقاً (٢٤/١) كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل. سنن أبي داود (٣١٧/٣) حديث رقم (٣٦٤١) كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم. وصححه الألباني.

(٣) سنن الترمذي (٣١/٥) حديث رقم (٢٦٥٢) كتاب العلم، باب ما جاء في ذهاب العلم. وصححه الألباني.

(٤) سنن الترمذي (٣٥/٤) حديث رقم (٢١٦٥) كتاب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة، وصححه الألباني.

(٥) النساء:.٥٩

الأمر الذين أُمرنا بطاعتهم، فقيل: الأمراء. وقيل: العلماء. ورجح ابن جرير أنهم هم العلماء والأمراء.[١]

أذن العلمـاء المعنيـون هم رأس الجماعة لا الشذاذ من الناس الذيـن لا يعرفون، ولا يُعرف في تاريخ المسلمين أن جماعتهم قادها إمام مجهول أو نكرة من الناس ليس لديه علم أولديه علم قليل.

يُعرفون برسوخهم في العلم وثناء الناس عليهم قال ابن تيمية: "ومن له في الأمة لسان صدق عام بحيث يُثنى عليه ويُحمد في جماهير أجناس الأمة، فهؤلاء أئمة الهدى ومصابيح الدجى".[٢]

فـإذا أقبلت الفتنة عرفها العلماء الراسخون وجهلهـا الناس، وإذا أدبرت عرفها العالم والجاهل.

يُعرفـون بشهادة مشايخهم لهم بالعلم فالعالم الذي لـه مشايخ تتلمذ على أيديهم ونبغ وبـز بين أقرانه فعرف بعلمه. "قال أبو مصعب: سمعـت مالكاً يقول: ما أفتيت حتى شهد لي سبعون أني أهل لذلك"[٣]

يُعرفـون بدروسهم ومؤلفاتهم وفتاويهـم، فالعالم لابد أن تكون لـه دروس يتلقاه الناس عنه، ومؤلفات وفتاوى تؤخذ عنه.

فروق بين العلماء وغيرهم:

وهناك فرق بين العالم والقارئ فالعالم الذي يُصدر عن رأيه فيما اختلف فيه الناس أما القارئ فهو الذي يحسن القراءة ويجيدها وقد لا يكون عالماً.

والخوارج كانوا قراءً ولم يكونوا علماء قال عليه الصلاة والسلام: ((يقرؤون القرآن لا يجـاوز حناجرهم))[٤] أي: "أنهم يأخذون أنفسهم بقـراءة القرآن وإقرائه وهم لا يتفقهون فيه ولا يعرفون مقاصده"[٥]

---

(١) انظر: جامع البيان لابن جرير (٥٠٣/٨).

(٢) الفتاوى لابن تيمية : (٤٣/١١).

(٣) تذكرة الحفاظ للذهبي (١٥٤/١).

(٤) صحيـح البخـاري (١٩٧/٦) كِتَـابُ فَضَائِـلِ القُرْآنِ، بَـابُ إِثْمِ مَـنْ رَاءَى بِقِـرَاءَةِ القُـرْآنِ أَوْ تَـأَكَّلَ بِهِ، حديث رقم(٥٠٥٨)، وصحيح مسلم (٧٤٠/٢) كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم حديث رقم (١٠٦٣).

(٥) الاعتصام للشاطبي (٢٢٦/٢).

وهناك فرق بين العالم والمفكر فالمفكر هو الذي يفهم الإسلام فهماً عاماً وله اطلاع على مجمل القضايا التي تعد مفرق طرق بين الإسلام والأديان والمذاهب المعاصرة، ويملك وعياً بالقضايا المستجدة وله اطلاع على الحضارة الغربية وأوجه نقدها.

وهناك فرق بين العالم والمثقف فالمثقف هو من برز في فن معين من خلال القراءة قد يكون هذا الفن في العلوم التجريبية أو الإنسانية أو حتى الشرعية.

وهناك فرق بين العالم والواعظ أو الخطيب كان سابقاً لا يعظ الناس ولا يخطب فيهم إلا العلماء فلما اتسع الأمر صار يخطب أو يعظ من يعرف أشياء من العلم وتغيب عنه أشياء[1]

المطلب الثاني: من هم الذين ينتقصون العلماء؟

إذا عرفت مكانة العلماء فإن المؤمن مأمور بطاعتهم واحترامهم وإنزالهم المنزلة اللائقة بهم ولا يكن من الذين ينتقصونهم أما الذين ينتقصونهم فهم أصناف:

أولاً: المنافقون.

الله تعالى حذر من المنافقين كثيراً في كتابه الكريم نزلت سورة تفضحهم وتبين خطورتهم وهي سورة الفاضحة (التوبة) ونزلت سورة باسمهم وهي سورة (المنافقون) وغير ذلك كثير من الآيات المبثوثة في كتاب الله تعالى التي تحذر من خطرهم.

والنبي ﷺ حذر منهم في أحاديث نبوية كثيرة.

فالمنافقون عندما يطعنون في العلماء أنما يطعنوا في هذا الدين، وخطرهم عظيم لأنهم من بني جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا.

والمنافقون هم من أبطن الكفر وأظهر الإسلام أو اتصف بصفاتهم المذكورة في القرآن الكريم والسنة النبوية ويدخل فيهم ما يسمى في هذا الزمن اللبراليون والحداثيون والعلمانيون وغيرهم من المسميات الحادثة.

---

(١) انظر: قواعد في التعامل مع العلماء لعبدالرحمن معلا اللويحق ص(١٩-٣٩).

فالتقليل من شأن العلماء خطره عظيم، ووباله جسيم، ومن تنقصهم فلغير سبيل المؤمنين سلك، وباتباعه للمنافقين هلك، قال تعالى فيهم: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٩ ﴾[1] قال السعدي:" وهذا أيضا من مخازي المنافقين، فكانوا -قبحهم الله- لا يدعون شيئا من أمور الإسلام والمسلمين يرون لهم مقالا إلا قالوا وطعنوا بغيا وعدوانا، فلما حثَّ الله ورسوله على الصدقة، بادر المسلمون إلى ذلك، وبذلوا من أموالهم كل على حسب حاله، منهم المكثر، ومنهم المقل، فيلمزون المكثر منهم، بأن قصده بنفقته الرياء والسمعة، وقالوا للمقل الفقير: إن الله غني عن صدقة هذا، أي: يعيبون ويطعنون فيقولون: مراؤون، قصدهم الفخر والرياء.

فيخرجون ما استطاعوا ويقولون: الله غني عن صدقاتهم.

فقابلهم الله على صنيعهم.[2]

فهذا ديدن المنافقين يطعنون في أهل الخير وخصوصاً من كان ذا فضل من المؤمنين كالمتصدقين وغيرهم فلا شك أن طعنهم في العلماء العاملين من باب أولى.

فهم يطعنون في العلماء ويلمزونهم وهدفهم في ذلك واضح ولكن تبريراتهم مختلفة فتارة يطعنون في العلماء باسم النصيحة في الدين والخوف على الأمة، ومرة بدعوى القضاء على التشدد في الدين، وتارة بدعوى مواكبة الواقع المعاصر، وتارة بدعوى الرقي والتقدم، وهكذا في كل حين يغلفون اللمز والطعن بغلاف حسن فبئس ما صنعوا.

ومن أقوى أسلحتهم تأثيراً الإعلام، فالإعلام له دور بارز في تضعيف هيبة العلماء والتقليل من شأنهم تارة بسلوك سبيل المنافقين بالهمز واللمز، وتارة أخرى بتضخيم أخطاء بعض المنتسبين للعلم وتسليط الضوء على هذه الأخطاء وأخذ آراء العامة من الناس في هذه الأخطاء فبذلك تهون مكانة العلماء عند الناس، ولهم أساليب أخرى كثيرة ليس هذا مكان بسطها.

---

(١) التوبة:.٧٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي (١/٣٤٥).

ثانياً: المتشددون في الدين.

وهم الذين غالوا في بعض أحكام الدين وجاوزوا حدودها في أقوالهم وأفعالهم.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ" قَالَهَا ثَلَاثًا.(١)

والمتنطع المتعمق في الشيء المتكلف البحث عنه على مذاهب أهل الكلام الداخلين فيما لا يعنيهم الخائضين فيما لا تبلغه عقولهم.(٢)

ودور الخوارج والمتشددين في الدين في التقليل من شأن العلماء لا يقل خطراً عن دور المنافقين؛ إذ أن كثيراً من عامة الناس ضعيف الفقه في الدين إذا أتاه من يتكلم باسم الدين وهيئته هيئة العلماء تأثر بهم واقتنع برأيهم لما في قلوبهم من عاطفة تجاه الدين وهموم الأمة.

فهذا الصنف من المتشددين يقللون من شأن العلماء زاعمين أن هدفهم الغيرة على الأمة والدفاع عن حياضها فيصفون العلماء بأوصاف تقلل من شأنهم وتنفر الناس عنهم مثل قولهم: علماء السلطة، مناديل السلطان، علماء الكراسي، علماء الدنيا، أرباب الأموال وغير ذلك.

ثالثاً: أرباب الفرق الضالة.

أرباب الفرق الضالة من الرافضة والصوفية والقاديانية والبهائية وغيرهم لهم دور بارز في التشكيك في العلماء والتقليل من شأنهم لأنهم يعلمون أن هؤلاء العلماء هم الذين يحولون بينهم وبين الناس في قبول أفكارهم ومعتقداتهم.

رابعاً: أعداء الإسلام.

أعداء الإسلام من اليهود والنصارى وغيرهم، وأخرتهم في الذكر لأن خطرهم واضح للصغير والكبير من المسلمين وإن كانت لهم أساليب مختلفة في التقليل من شأن العلماء تارة

---

(١) صحيح مسلم (٤/٢٠٥٥) كتاب العلم، باب هلك المتنطعون حديث رقم (٢٦٧٠).

(٢) معالم السنن للخطابي (٤/٣٠٠).

بأساليب مباشرة وتارة بأساليب خفية والله تعالى يقول: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾[1]

خامساً: الجهلة من عامة الناس.

وهـم يتبعون الأصناف السابقة في قدحهـم للعلماء أو أن تحدث لبعضهم مواقف فتكون لهم ردة فعل في ذلك، وهم أخف الأصناف وأغلبهم إذا بُين له رجع عن قدحه وتقليله للعلماء.

(١) البقرة:.١٢٠

المبحث الثاني

أسباب التقليل من شأن العلماء

لعلنا في عجالة نستعرض بعض الأسباب التي تؤدي إلى التقليل من شأن العلماء وانتشار ذلك ومن أبرز هذه الأسباب في نظري:

١- ضعف المرجعية الدينية الرسمية.

تجد أن المرجعية الدينية الرسمية في كثير من بلدان المسلمين كأنها وضعت لأشياء معينة، وأحوال مخصوصة، فلا تشارك في كثير من قضايا الأمة الحساسة فمثلاً يحدث حدث عظيم يتكلم عنه القاصي والداني وهذه المرجعية لا تحرك ساكناً وليس لها دور يذكر في هذا الشأن.

فالناس مأمورون برجوعهم إلى أهل العلم والله تعالى يقول: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣﴾[1] فإذا لم يجد عامة الناس تجاوباً مع قضايا الأمة سواء السياسية أو الاجتماعية أو غيرها من قبل هذه المرجعيات فلا شك أن مكانتها تضعف في قلوب الناس وبالتالي يقل شأن العلماء في نفوسهم.

وفي المقابل نجد بعض المرجعيات في الفرق الضالة أقوى من مرجعيات أهل السنة لدورها الفعال في مجتمعهم.

٢- أخطاء بعض المنتسبين إلى العلم.

الناس معرضون للخطأ وكل يؤخذ من قوله ويرد إلا المعصوم عليه الصلاة والسلام، والعلماء من الناس فربما أخطأ عالم من العلماء فالواجب على المسلمين أن يتركوا خطأ هذا العالم ويأخذوا ما عنده من صواب لكن الإشكال أن أخطاء العلماء يسلط عليها الضوء وتنشر وتذاع وتكون سبيلاً للتهكم والسخرية.

---

(١) النحل:٤٣.

ناهيك عن أخطاء بعض المنتسبين إلى العلم، فعامة الناس لا يفرقون كثيراً بين العالم وغيره من المنتسبين إلى الدعوة والعلم، فربما تجد شخصاً اهتدى حديثاً وكان قبل ذلك على فسق وضلال، ولم يُعرف عنه طلب للعلم فلما هداه الله أخذ يذكر تجربته للناس وكيف هداه الله؟ وأخذ يدعو الناس عن طريق ذلك، فهذا لو أخطأ لعده كثير من عامة الناس من العلماء.

فهذه الأخطاء تجعل كثير من عامة الناس يزهدون في العلماء ويقللون من شأنهم.

٣- خطر الإعلام ودوره الكبير في التقليل من شأن العلماء.

للإعلام دور بارز في التقليل من شأن العلماء تارة بالهمز واللمز، وتارة بتسليط الضوء على أخطاء العلماء وتضخيمها، وتارة بالتعاون بين بعض الإعلاميين لإسقاط شخصية علمية معتبرة وخصوصاً أن الإعلام الآن أصبح مفتوحاً على مصراعيه لكل زاعق وناعق، وهو الوسيلة الفعالة في أيدي منتقصي العلماء.

تأثر عامة الناس بنقل الشائعات الكاذبة عن العلماء.

فكثير من الناس إذا سمع خبراً أذاعه ونشره دون تثبت، والواجب على المؤمن التثبت من الأخبار قبل نقلها واستشارة العلماء وأهل الرأي فيها، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٣ ﴾[1] قال السعدي: "هذا تأديب من الله لعباده عن فعلهم هذا غير اللائق. وأنه ينبغي لهم إذا جاءهم أمر من الأمور المهمة والمصالح العامة ما يتعلق بالأمن وسرور المؤمنين، أو بالخوف الذي فيه مصيبة عليهم أن يتثبتوا ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر، بل يردونه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم، أهلِ الرأي والعلم والنصح والعقل والرزانة، الذين يعرفون الأمور ويعرفون المصالح وضدها. فإن رأوا في إذاعته مصلحة ونشاطاً للمؤمنين وسروراً لهم وتحرزاً من أعدائهم فعلوا ذلك. وإن رأوا أنه ليس فيه مصلحة أو فيه مصلحة ولكن مضرته تزيد على مصلحته، لم يذيعوه، أي:

(١) النساء:٨٣.

يستخرجونه بفكرهم وآرائهم السديدة وعلومهم الرشيدة.[١]

والله تعالى يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦ ﴾[٢] فإذا كان هذا التحذير في شأن عامة الناس فلا شك أن خطره في العلماء أعظم وأشنع.

عدم معاقبة المسيء للعلماء.

الإساءة إلى العالم والإساءة إلى الدين خطرها عظيم فوجب على من ولاه الله أمر المؤمنين أن يردع الذين يسيئون للدين أو العلماء ويأخذ على أيديهم ولو تم ذلك على الوجه المراد شرعاً لكُفت كثير من الألسنة، والله توعد الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ٥٨ ﴾[٣] قال ابن كثير: "وَهَذَا هُوَ الْبُهْتُ الْبَيِّنُ أَنْ يُحْكَى أَوْ يُنْقَلَ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ مَا لَمْ يَفْعَلُوهُ، عَلَى سَبِيلِ الْعَيْبِ وَالتَّنَقُّصِ لَهُمْ، وَمَنْ أَكْثَرِ مَنْ يَدْخُلُ فِي هَذَا الْوَعِيدِ الكفرةُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، ثُمَّ الرَّافِضَةُ الَّذِينَ يَتَنَقَّصُونَ الصَّحَابَةَ وَيَعِيبُونَهُمْ بِمَا قَدْ بَرَّأَهم اللَّهُ مِنْهُ، وَيَصِفُونَهُمْ بِنَقِيضِ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ"[٤]

فالحاكم والعالم يجب أن تصان مكانتهما ويعاقب منتقصها، ولو علم ذلك الناس وطُبق في واقع الحياة لحفظت مكانتهما.

وما تجرأ ضعاف النفوس على النيل من العلماء إلا عندما لم يروا رادعاً لهم.

البيئة المحيطة.

سواء كانت هذه البيئة البيت أو الوسط العائلي أو الصحبة أو الحي أو غيرها، فإذا كانت هذه البيئة منتقصة للعلماء فغالباً الفرد لن يخرج عن هذه البيئة وسيكون مثل هذا الوسط الذي يعيش فيه في انتقاص العلماء.

(١) تيسير الكريم الرحمن للسعدي (١/١٩٠).
(٢) الحُجُرات:.٦
(٣) الأحزاب:.٥٨
(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/٤٨٠).

ولذلك جاء الإسلام بالاهتمام ورعاية الناشئة في البيئة المحيطة وحذر من رفقة السوء. قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾[1] "فلينظر العبد لنفسه وقت الإمكان وليتدارك الممكن قبل أن لا يمكن، وليوال من ولايته فيها سعادته وليعاد من تنفعه عداوته وتضره صداقته"[2]

عدم المعرفة الحقيقية لمكانة العلماء.

فالعلماء مكانتهم مرفوعة كرمهم الله في القرآن الكريم على كثير من خلقه – على نحو ما سنعرض إن شاء الله تعالى . فالجهل بمكانتهم يؤدي إلى انتقاصهم والتقليل من شأنهم.

الاعتماد على النفس في طلب العلم أو الأخذ عن الجاهلين.

فمن اعتمد على نفسه في طلب العلم ولم يتلقاه عن أهل العلم كثرت أخطاؤه وهو لا يشعر بها ويظن أنه على صواب، ولذلك قيل: من كان شيخه كتابه كان خطاؤه أكثر من صوابه.

وبالتالي هذا الذي تلقى العلم عن الكتب لا يرى العلماء شيئاً ويرى أنه أفضل منهم، فلا يزال منتقصاً لهم.

ومن تلقى العلم على أمثال هؤلاء من أنصاف المتعلمين تأثر بهم وأخذ يسير على نهجهم.

(١) الفرقان:٢٧-٢٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٥٨١).

المبحث الثالث

الآثار المترتبة على التقليل من شأن العلماء وعدم الاستجابة لهم.

المطلب الأول: آثارها على الفرد:

ومن أهم هذه الآثار:

التساهل في الوقوع في المعاصي.

العلماء هم الذين يُعرِّفون الناس بالحلال والحرام، والطاعة من المعصية، فإذا طُعن فيهم ولم يدري المرء من اين يأخذ دينه جهل الناس وتساهلوا في الوقوع في المعاصي، وهكذا نجد كل نبي دعا قومه إلى عبادة الله فلما استخف به قومه ولم يطيعوه وقعوا في المعاصي. قال تعالى عن قوم عاد: ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ ﴾[١]

قال البيضاوي: "عصوا من دعاهم إلى الإيمان وما ينجيهم وأطاعوا من دعاهم إلى الكفر وما يرديهم"[٢]

وقال تعالى في قوم شعيب: ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾[٣]

قال الشوكاني: "وَأَنْكَرُوا عَلَيْهِ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ مِنْهُ لَهُمْ بِمَا يُخَالِفُ الْحِلْمَ وَالرُّشْدَ فِي اعْتِقَادِهِمْ."[٤] وهكذا ينقلب الحق باطلاً والباطل حقاً عند الجهلة الذين لا يطيعون أنبياءهم وعلماءهم.

---

(١) هود:.٥٩.

(٢) انوار التنزيل للبيضاوي (١٣٩/٣).

(٣) هود:.٨٧.

(٤) فتح القدير للشوكاني (٥٨٩/٢).

عدم قبول الحق والإعراض عنه.

ومن آثار التقليل من شأن العلماء عدم قبول الحق والإعراض عنه وهذا شبيه بعمل الذين لا يؤمنون بالرسل فلما أمرهم رسلهم بطاعة الله تعالى أعرضوا ولم يقبلوا الحق، قال تعالى: ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ ﴾[1]

"وَلَمَّا بَيَّنَ أَنَّ شَأْنَهُمُ الْإِعْرَاضُ عَنِ الْآيَاتِ الْمُنَزَّلَةِ وَسَائِرِ مَا يُؤَيِّدُ اللهُ بِهِ رُسُلَهُ، أَيْ فَبِسَبَبِ ذَلِكَ الشَّأْنِ الْكُلِّيِّ الْعَامِّ وَهُوَ اسْتِمْرَارُهُمْ عَلَى الْإِعْرَاضِ عَنِ النَّظَرِ فِي الْآيَاتِ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ الَّذِي جَاءَهُمْ لَمَّا جَاءَهُمْ فَلَمْ يَتَرَيَّثُوا وَلَمْ يَتَأَمَّلُوا، وَإِنَّمَا كَذَّبُوا مَا جَهِلُوا، وَمَا جَهِلُوا إِلَّا لِأَنَّهُمْ سَدُّوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مَسَالِكَ الْعِلْمِ"[2]

الطبع على القلوب.

فإذا تساهل المرء في المعاصي وأعرض عن الحق طُبع على قلبه وهذا مصير من أعرض عن العلماء وقلل من شأنهم يقول النبي ﷺ : ((مَنْ تَرَكَ الْجُمُعَةَ ثَلَاثَ مَرَاتٍ مِنْ غَيْرِ ضَرُورَةٍ طُبِعَ عَلَى قَلْبِهِ))[3] فانظر إلى حال هذا الذي أعرض عن مواعظ العلم من خطب الجمعة كيف إنه لما تكرر منه هذا العمل عوقب بالطبع على قلبه.

قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ ﴾[4]

قال السمرقندي: "من المنافقين من يستمع إليك حَتَّى إذا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ماذا قالَ آنِفاً وذلك أن النبيّ ﷺ خطب الناس يوم الجمعة، وعاب في خطبته المنافقين، فلما خرجوا من عنده، قال بعض المنافقين لعبد الله بن مسعود، وهو الذي أوتي العلم. ماذا قال آنفاً؟ يعني: الساعة، على جهة الاستهزاء.

(١) الأنعام:٤-٥.
(٢) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٧/٢٥٢).
(٣) مسند الإمام أحمد (٣٧/٢٥٠) حديث رقم (٢٢٥٥٨). قال محققه: صحيح لغيره.
(٤) محمد:١٦.

قال الله تعالى: أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ مجازاة لهم وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ يعني: عملوا بهوى أنفسهم".[1]

وهكذا إذا أعرض الإنسان عن العلم واستهزأ بأهله طُبع على قلبه فلا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً نسأل الله السلامة والعافية.

الكفر.

العلماء هم الذي يعلمون الناس الخير ويبعدونهم عن الشر وهم الذين يعرفون الناس الحق من الباطل، فإذا أهينوا ولم يكرموا ولم يُسمع لهم أدى ذلك للوقوع في الكفر وخير مثال على ذلك أنبياء الله ورسله لما عصاهم قومهم ولم يؤمنوا بما جاءوا به كفروا بالله تعالى قال سبحانه: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾[2] كذب منهم وجحود كما قالت قريش لرسول الله ﷺ لولا أنزل عليه آية من ربه كأنه قيل: وما نترك آلهتنا صادرين عن قولك وما يصح من أمثالنا أن يصدقوا مثلك فيما يدعوهم إليه إقناطاً له من الإجابة.[3]

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾[4] استفهام في معنى التقرير. أخبره أنه لما جاءتهم الرسل قابلوهم بالكنود، وعاملوهم بالجحود وردوا أيديهم في أفواههم، وحذوا سبيل أمثالهم في الكفر، وبنوا على الشك والريبة قواعدهم، وأسسوا على الشّرك والغيّ مذاهبهم.[5]

التعرض للعذاب الشديد في الآخرة.

العلماء في هذا الزمن هم المبلغون عن الله وهم ورثة الأنبياء فإذا أعرض المرء عن

(١) بحر العلوم للسمرقندي (٣/٣٠١).
(٢) هود:.٥٣
(٣) انظر: مدارك التنزيل للنسفي (٢/٦٧).
(٤) إبراهيم:.٩
(٥) انظر: لطائف الإشارات للقشيري (٢/٢٤٢).

كلامهم واتبع هواه قاده إلى التعرض للعذاب الشديد في الآخرة لأن الله تعالى خلقنا في هذه الحياة ليبتلينا أينا أحسن عملاً فأما المحسن فله جزاء الحسنى في الدنيا والآخرة، وأما المسيء فله معيشة ضنكاً ويحشر يوم القيامة أعمى.

المطلب الثاني: الآثار المترتبة على التقليل من شأن العلماء وعدم الاستجابة لهم التي تعود على المجتمع:

ومن أبرز هذه الآثار:

انتشار الجهل.

إذا قُلل من شأن العلماء ولم يُستجب لهم فإن الناس سيتخذون رؤوساً جهالاً فيُسألون ويفتون بغير علم فيَضلون ويُضلون وهذا مصداق قول النبي ﷺ: ((إنَّ اللَّه لاَ يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رؤوساً جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا))[1] وإن التقليل من شأن العلماء وانتقاصهم هو بمثابة إماتتهم في قلوب الناس، فبالتالي يتخذ الناس رؤوساً جهالاً يقودنهم إلى الجهل والضلال.

انتشار المعاصي.

لأن الذي يردعهم عن الوقوع في المعاصي قُلل من شأنه فبالتالي من الطبيعي أن تنتشر المعاصي في أوساط الناس لأن كثيراً منهم حينئذٍ يفعل المعصية وهو ربما يظن أنه يفعل شيئاً مباحاً.

انتشار الغلو والتطرف.

إن الرغبة في تحقيق مزيد من القرب إلى الله وحدها لا تكفي للنجاة بل لابد أن يكون ذلك على هدى وبصيرة، فإذا لم يُسمع كلام العلماء وقاد الإنسان نفسه في هذا الاتجاه حاد عن الحق وغلا وتطرف، وخير مثال على ذلك ذو الخويصرة[2] عندما رد كلام رسول الله ﷺ بدعوى القرب من الله وهو العدل فقال: اعدل يا محمد فإنك لم تعدل فقال عليه الصلاة والسلام: ((وَيْلَكَ، وَمَنْ يَعْدِلُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ؟" فَقَالَ عُمَرُ: دَعْنِي أَضْرِبُ عُنُقَهُ، قَالَ:

---

(١) صحيح البخاري (٣١/١) كتاب بدء الوحي، باب كيف يقبض العلم حديث رقم (١٠٠).

(٢) هو حرقوص بن زهير التميمي الذي صار بعد ذلك من رؤوس الخوارج. انظر: فتح الباري لابن حجر (٣٢٣/١).

دَعْـهُ، فَإِنَّ لَـهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُـمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِـمْ، وَصِيَامَهُ مَـعَ صِيَامِهِمْ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ))[1]

وهـا نحن نرى في زماننا هـذا انتشار الغلو والتطرف في شباب حدثـاء الأسنان سفهاء الأحلام، ابتعدوا عن العلم وأهله فكانت هذه العاقبة غلو وتطرف وبالغوا في الغلو حتى كفروا المسلمـين وفجروا مساجدهم ، يدخل أحدهم بحـزام ناسف في وسط مجموعة من المسلمين فيفجـر نفسه زاعماً أنه شهيد في سبيل الله تعـالى، أي شهادة في ذلك؛ انتحار، وقتل لأنفس معصومـة، ناهيـك عن أن تكون في مكان عبـادة، وبعد ذلك يدعي الشهـادة، إن أشد أعداء الإسـلام لا يمكـن أن يفـرح بأكثر من هذا، وما جرهـم إلى ذلك إلا إعراضهـم عن العلماء وتلقيهم التوجيهات من أنصاف المتعلمين الذين لم يتلقوا العلم على أيدي العلماء.

انتشار البدع بأنواعها المختلفة.

لمـا عارضـ الخوارج أصحاب رسـول الله e وهم العلماء في زمانهـم وفيهم علي بن أبي طالـب رضي الله عنـه، وعبدالله بن عباس رضي الله عنهمـا وغيرهما اتخذ الخوارج منهم رؤوساً قادوهم إلى الابتداع في الدين.

ولما اعتزل واصل بن عطاء[2] مجلس شيخه الحسن البصري[3] أوغل في الاعتزال إذ لا إمام له في ذلك وانتشرت هذه البدعة.

وهكذا تنتشر البدع إذا قُلل من شأن العلماء ولم يُطاعوا.

انتشار الظلم.

العلمـاء هـم حمـاة الناس من الظلـم لأنهم أعرف النـاس بالله تعالى وأعـرف الناس بحـدوده فـلا يتجاوزوها وإذا تجاوزها غيرهـم بينوا ما يجب عليهم بيانـه ولذلك كان سيد

(١) انظـر: صحيح مسلم (٧٤٤/٢) كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، حديث رقم (١٠٦٤)، مسند الامام أحمـد (١٢٣/٢٣) مسنـد جابر بـن عبدالله، حديـث رقم (١٤٨٢٠). سـنن ابن ماجـه (٦١/١) باب في ذكر الخوارج، حديث رقم (١٧٢).

(٢) هـو واصل بـن عطاء الغزَّال البليـغ الأفوه رأس المعتزلة توفي سنة ١٣١هـ. انظر: سير أعـلام النبلاء للذهبي (١٧٥/٦)، معجم الأدباء لياقوت الحموي (٢٧٩٣/٦).

(٣) هـو الحسن بـن يسار البصـري أبو سعيد، من سـادات التابعين وكبرائهـم، وجمع كل فن من علـم وزهد وورع وعبـادة، تـوفي سنة ١١٠هـ. انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (٦٩/٢)، سير أعلام النبلاء للذهبي (٥٦٣/٤)، الوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي (١٩٠/١٢).

الشهداء الذي ينكر على سلطان جائر وفي الحديث ((سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَرَجُلٌ قَامَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ فَقَتَلَهُ)) صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ[1]

فإذا قلل من شأن العلماء ولم يُسمع لهم فشا الظلم وانتشر.

ضعف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

نالت هذه الأمة الخيرية على الأمم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾[2]

وانظر كيف قُدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله؟ "فإن قلت لم قدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله في الذكر مع أن الإيمان يلزم أن يكون مقدماً على كل الطاعات والعبادات؟. قلت الإيمان بالله أمر يشترك فيه جميع الأمم المؤمنة وإنما فضلت هذه الأمة الإسلامية بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على سائر الأمم، وإذا كان كذلك كان المؤثر في هذه الخيرية هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأما الإيمان بالله فهو شرط في هذا الحكم لأنه ما لم يوجد الإيمان لم يضر شيء من الطاعات مقبولا فثبت أن الموجب لهذه الخيرية لهذه الأمة هو كونهم آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر، فلهذا السبب حسن تقديم ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على ذكر الإيمان"[3]

فإذا ضعف شأن العلماء انتشرت المنكرات دون نكير لها فربما أصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً.

التبعية لأعداء الإسلام.

الناس أعداء ما يجهلون فإذا جهلوا شيئاً في دينهم عادوه من حيث يشعرون أو لا يشعرون وكانوا تبعاً لأعداء الإسلام قال عليه الصلاة والسلام: ((لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ" ، قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ: الْيَهُودَ،

---

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم (٣/٢١٥) باب ذكر إسلام حمزة، حديث رقم (٤٨٨٤).

(٢) آل عمران:.١١٠

(٣) لباب التأويل للخازن (١/٢٨٥).

وَالنَّصَارَى قَالَ: فَمَنْ)).[1]

"والتشبيه بجحر الضب لشدة ضيقه ورداءته .. وما أروع هذا التشبيه الذي صدق معجزة لرسول الله ﷺ فنحن نشاهد تقليد أجيال الأمة لأمم الكفر في الأرض فيما هي عليه من أخلاق ذميمة وعادات فاسدة تفوح منها رائحة النتن وتمرغ أنف الإنسانية في مستنقع من وحل الرذيلة والإثم وتنذر بشر مستطير"[2]

وما وصلوا إلى هذه الحالة إلا لجهلهم بالدين وعدم اتباعهم لأهل العلم.

ضعف قوتهم والاستيلاء على ديارهم.

فإذا وصلت الأمة إلى هذه الحالة من التبعية لغيرهم، وتشتتوا وتفرقوا ضعفت قوتهم وسهل الاستيلاء على ديارهم. قال تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾[3] فإذا اطاعوا الله ورسوله ولم يختلفوا وكانوا على قلب رجل واحد، وصبروا فإن الله ينصرهم كما نصر أسلافهم. قال ابن كثير: "وَقَدْ كَانَ لِلصَّحَابَةِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ -فِي بَابِ الشَّجَاعَةِ وَالِائْتِمَارِ بِأَمْرِ اللَّهِ، وَامْتِثَالِ مَا أَرْشَدَهُمْ إِلَيْهِ -مَا لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ مِنَ الْأُمَمِ وَالْقُرُونِ قَبْلَهُمْ، وَلَا يَكُونُ لِأَحَدٍ مِمَّنْ بَعْدَهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ بِبَرَكَةِ الرَّسُولِ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَطَاعَته فيمَا أَمَرَهُمْ، فَتَحُوا الْقُلُوبَ وَالْأَقَالِيمَ شَرْقًا وَغَرْبًا فِي الْمُدَّةِ الْيَسِيرَةِ، مَعَ قِلَّةِ عَدَدِهِم بِالنِّسْبَةِ إِلَى جُيُوشِ سَائِرِ الْأَقَالِيمِ، مِنَ الرُّومِ وَالْفُرْسِ وَالتُّرْكِ وَالصَّقَالِبَةِ وَالْبَرْبَرِ والحبُوش وَأَصْنَافِ السُّودَانِ والقبْط، وَطَوَائِفِ بَنِي آدَمَ، قَهَرُوا الْجَمِيعَ حَتَّى عَلَتْ كَلِمَةُ اللَّهِ، وَظَهَرَ دِينُهُ عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ، وَامْتَدَّتِ الْمَمَالِكُ الْإِسْلَامِيَّةُ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، فِي أَقَلِّ مِنْ ثَلَاثِينَ سَنَةً، فَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ أَجْمَعِينَ، وَحَشَرَنَا فِي زُمْرَتِهِمْ، إِنَّهُ كَرِيمٌ وَهَّابٌ"[4].

---

(١) صحيح البخاري (٤/١٦٩) كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني اسرائيل، حديث رقم (٣٤٥٦). صحيح مسلم (٤/٢٠٥٤)، كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى، حديث رقم (٢٦٦٩).

(٢) من تعليق مصطفى البغا على صحيح البخاري (٤/١٦٩).

(٣) الأنفال:.٤٦

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤/٧٢).

المبحث الرابع

علاج التقليل من شأن العلماء في ضوء القرآن الكريم:

إن علاج التقليل من شأن العلماء موجود في كتاب الله تعالى فالله تعالى في كتابه الكريم كـرم العلماء تكريماً عظيماً ولو اتبع الناس هذا الكتاب لقادهم إلى الخير في الدنيا والأخرة قال ﷺ: ((وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ، كِتَابُ اللَّهِ)).[1]

وسأذكر في هذا المبحث أولاً: مظاهر تكريم الله للعلماء في القرآن الكريم.

ثانياً: الناحية التطبيقية لإبراز هذه المظاهر التي جاءت في كتاب الله تعالى.

المطلب الأول: مظاهر تكريم الله للعلماء في القرآن الكريم:

ومن أبرز هذه المظاهر:

استشهد بهم في أعظم القضايا في كتاب الله تعالى.

وأهـم قضية هي قضية التوحيد قال تعـالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾[2]

اسْتشْهـد سُبْحَانَهُ بأولى الْعلم على أجل مشهود عَلَيْـه وهو توحيده وَهَذَا يدل على فضل الْعلم وأهله من وُجُوه: أحدها استشهادهم دون غَيرهم من الْبشر.

الثَّانِي: اقتران شَهَادَتهم بشَهَادَته.

الثَّالِث: اقترانها بشَهَادَة مَلَائِكَته.

الرَّابِع: إن في ضمن هَذَا تزكيتهم وتعديلهم فإن الله لَا يستشهد من خلقه إلا الْعُدُول

---

(١) صحيح مسلم (٢/٨٨٦) كتاب المناسك، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم، حديث رقم (١٢١٨).

(٢) آل عمران: ١٨.

الْخَامِس: أنــه وَصفهم بكونهم أولى الْعلـم وَهَذَا يدل على اختصاصهــم بِهِ وأنهم أهله وأصحابه

السَّادِس: أنــه سُبْحَانَهُ اسْتشْهد بنَفسِــه وَهُوَ أجل شَاهد ثمَّ بخِيَــار خلقه وهم مَلَائِكَته وَالْعُلَمَاء من عباده ويكفيهم بِهَذَا فضلاً وشرفاً.

السَّابِـع: أنــه اسْتشْهد بهم على أجل مشهود بِهِ وأعظمه وأكبره وَهُــوَ شَهَادَة أن لَا إِلَه إِلَّا الله والعظيم الْقدر إنما يستشهد على الأمر الْعَظِيم أكابر الْخلق وساداتهم.

الثَّامِن: أنه سُبْحَانَهُ جعل شَهَادَتهم حجَّة على المنكرين فهم بِمَنْزِلَة أدلته وآياته وبراهينه الدَّالَّة على توحيده.

التَّاسِـع: أنه سُبْحَانَــهُ أفرد الْفِعْل المتضمن لهَــذِه الشَّهَادَة الصادرة منْــهُ وَمن مَلَائِكَته وَمنْهُــم وَلم يعْطف شَهَادَتهــم بفعل آخر غير شَهَادَته وَهَذَا يدل على شــدَّة ارتباط شَهَادَتهم بشَهَادَته فَكَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ شهد لنَفسه بِالتَّوْحِيدِ على ألسنتهم وأنطقهم بِهَذِهِ الشَّهَادَة فَكَانَ هُوَ الشَّاهِــد بهَا لنَفسه إِقَامَة وإنطاقاً وتعليماً وهم الشاهدون بهَا لَــهُ إِقْرَاراً واعترافاً وَتَصْدِيقًا وإيماناً.

الْعَاشِر: أنه سُبْحَانَهُ جعلهم مؤدين لحقه عِنْد عباده بِهَذِهِ الشَّهَادَة فَإِذا أدوها فقد أدوا الْحق الْمَشْهُود بِهِ فَثَبت الْحق الْمَشْهُود بِهِ فَوَجَبَ على الْخلق الإقرار بِهِ وَكَانَ ذَلِك غَايَة سعادتهم في معاشهــم ومعادهم وكل من ناله الْهــدى بشَهَادَتِهِم وأقر بِهَذَا الْحق بِسَبَب شَهَادَتهم فَلهم مــن الأجــر مثل أجــره وَهَذَا فضل عَظِيم لَا يدرى قــدره إلا الله وَكَذَلِكَ كل مــن شهد بهَا عَن شَهَادَتهم فَلهم من الأجر مثل أجره أيضاً فَهَذِهِ عشرَة أوجه في هَذِه الآية.[1]

والعلمــاء وصلــوا في مرتبة العلم إلى اليقــين فلذلك شهدوا أن ما أنــزل على الرسول ﷺ هــو الحــق قــال تعــالى: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ ﴾[2] "أهــل الإيمــان والعلم يرون رؤية متيقنــة أن الوحي الذي أنزله

(١) انظر: مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/ ٥٠،٥١)

(٢) سبأ:٦.

الله تعالى على نبيه محمد ﷺ حق مؤكد ثابت، وأنه يهدي (أي يرشد) إلى الطريق الأقوم، والحياة السعيدة، ويدركون أن القرآن يرشد المتبعين له إلى طريق الله ذي العزة والقوة والجبروت، وأنه القاهر لكل شيء، والمحمود في جميع أقواله وأفعاله وشرائعه وأقداره".[1]

الله تعالى شهد للعلماء شهادة في ضمنها الاستشهاد بهم على صحة ما أنزل على رسوله ﷺ فقال تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾[2]

وكذلك سبحانه يستشهد بأهل العلم والإيمان يوم القيامة على بطلان قول الكفار فقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾[3] قال الالوسي: "وفي الآية من الدلالة على فضل العلماء ما لا يخفى"[4]

أعلى من شأنهم ورفعهم درجات.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾(٥) قال البيضاوي: " بالنصر وحسن الذكر في الدنيا ، وإيوائهم غرف الجنان في الآخرة . ويرفع العلماء منهم خاصة درجات بما جمعوا من العلم والعمل ، فإن العلم مع علو درجته يقتضي العمل المقرون به مزيد رفعة ، ولذلك يقتدى بالعالم في أفعاله ولا يقتدى بغيره ".(٦)

أعلى سبحانه من شأنهم وأخبر أنهم أهل الحق في كل ما يُختلف فيه، في مناظرة إبراهيم u لأبيه وقومه عقب ذلك قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن

(١) الوسيط للزحيلي (٣/٢٠٩٧).
(٢) الأنعام:.١١٤
(٣) الروم:٥٥-٥٦.
(٤) روح المعاني للألوسي (١٥/٣٩٧).
(٥) المجادلة:.١١
(٦) أنوار التنزيل للبيضاوي (٥/٢٧٧).

﴿نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ٨٣﴾(١) أرشدناه إليها، وعلمناه إياها، بلا واسطة معلّم.

نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ يعني: في العلم والحكمة(٢).

وجاء في صحيح مسلم أَنَّ نَافِعَ بْنَ عَبْدِ الْحَارِث، لَقِيَ عُمَرَ بِعُسْفَانَ، وَكَانَ عُمَرُ يَسْتَعْمِلُهُ عَلَى مَكَّةَ، فَقَالَ: مَن اسْتَعْمَلْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي، فَقَالَ: ابْنَ أَبْزَى، قَالَ: وَمَن ابْنُ أَبْزَى؟ قَالَ: مَوْلًى مِنْ مَوَالِينَا، قَالَ: فَاسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلًى؟ قَالَ: إِنَّهُ قَارِئٌ لِكتَابِ اللّٰه عَزَّ وَجَلَّ، وَإِنَّهُ عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ، قَالَ عُمَرُ: أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ ﷺ قَدْ قَالَ: ((إِنَّ اللّٰه يَرْفَعُ بِهَذَا الْكتَاب أَقْوَامًا، وَيَضَعُ به آخَرِينَ))(٣) وجاء في السنن أن النبي ﷺ قال: ((وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالم عَلَى الْعَابد، كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكب، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا، وَلَا دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ))(٤).

نفى المساواة بينهم وبين غيرهم.

قال السمعاني: "بمعنى: لا يستوون، ويقال: الذين يعلمون هم المؤمنون، والذين لا يعلمون هم الكفار، ويقال: الذين يعلمون العلماء، والذين لا يعلمون الجهال"(٥).

"وقيل: الذين يعلمون هم الذين ينتفعون بعلمهم، والذين لا يعلمون هو من لا ينتفع بعلمه، ومن لا علم عنده"(٦).

وقال تعالى: ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩﴾(٧) أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ، فَيُؤْمِنُ بِهِ وَيَعْمَلُ بِمَا فِيهِ، كَمَنْ هُوَ أَعْمَى، عَنْهُ لا

(١) الأنعام: ٨٣.

(٢) محاسن التأويل للقاسمي (٤/٤١٦).

(٣) صحيح مسلم (١/٥٥٩) كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه حديث رقم (٢٦٩).

(٤) انظر: سنن أبي داود (٣/٣١٧) كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، حديث رقم (٣٦٤١). سنن ابن ماجه (١/٨١) كتاب فضائل الصحابة والعلم، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم حديث رقم (٢٢٣).

(٥) تفسير القرآن للسمعاني (٤/٤٦١).

(٦) الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (١٠/٦٣٠٨).

(٧) الرعد: ١٩.

يَعْلَمُهُ وَلَا يَعْمَلُ بِهِ. أَيْ: لَا يَسْتَوِي مَنْ يُبْصِرُ الْحَقَّ وَيَتَّبِعُهُ وَمَنْ لَا يُبْصِرُهُ وَلَا يَتَّبِعُهُ.(١) "وإِنَّما في هذه الآية حاصرة، أي إِنَّما يَتَذَكَّرُ فيؤمن ويراقب الله من له لب وتحصيل".(٢)

أمر بسؤالهم والرجوع إليهم.

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾(٣)

"قال ابن عباس: أهل الذكر أهل القرآن وقيل: أهل العلم، والمعنى متقارب"(٤).

"وعموم هذه الآية فيها مدح أهل العلم، وأن أعلى أنواعه العلم بكتاب الله المنزل. فإن الله أمر من لا يعلم بالرجوع إليهم في جميع الحوادث، وفي ضمنه تعديل لأهل العلم وتزكية لهم حيث أمر بسؤالهم، وأن بذلك يخرج الجاهل من التبعة، فدل على أن الله ائتمنهم على وحيه وتنزيله، وأنهم مأمورون بتزكية أنفسهم، والاتصاف بصفات الكمال"(٥).

سلى نبيه ﷺ بإيمانهم.

قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ ﴾(٦)

"أمر بالإعراض عن المشركين واحتقارهم والازدراء بشأنهم ، وأن لا يكترث بهم وبإيمانهم وبامتناعهم عنه ، وأنهم إن لم يدخلوا في الإيمان ولم يصدّقوا بالقرآن وهم أهل جاهلية وشرك ، فإن خيراً منهم وأفضل - وهم العلماء الذين قرؤا الكتب وعلموا ما الوحي وما الشرائع - قد آمنوا به وصدّقوه ، وثبت عندهم أنه النبي العربيّ الموعود في كتبهم ، فإذا تلي عليهم خرّوا سجداً وسبحوا الله تعظيماً لأمره ولإنجازه ما وعد في الكتب المنزلة وبشر به من بعثه محمد ﷺ وإنزال القرآن عليه"(٧)

(١) انظر: معالم التنزيل للبغوي (١٥/٣).
(٢) المحرر الوجيز لابن عطية (٣٠٩/٣).
(٣) النحل:.٤٣
(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٠٨/١٠).
(٥) تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٤٤١/١).
(٦) الإسراء:.١٠٨
(٧) الكشاف للزمخشري (٤٩١/٣).

أثنى عليهم وشرفهم بأن جعل آياته محفوظة في صدورهم.

قال تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾(١)

فإذا كان آيات بينات في صدور أمثال هؤلاء، كانوا حجة على غيرهم، وإنكار غيرهم لا يضر، ولا يكون ذلك إلا ظلماً لأنه لا يجحدها إلا جاهل تكلم بغير علم، ولم يقتد بأهل العلم، وهو متمكن من معرفته على حقيقته، وإما متجاهل عرف أنه حق فعانده، وعرف صدقه فخالفه" (٢)

أخبر أنهم هم أهل الخشية.

قال تعالى: ﴿ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ ﴾(٣)

وقال أيضاً: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾(٤) "أي الذي له جميع الكمال ، ولا كمال لغيره إلا منه ، ودل على أن كل من سواه في قبضته وتحت قهره ثم ذكر محط الفائدة وهو من ينفع إنذاره أي لا سواهم وإن كانوا عباداً وإن بلغت عبادتهم ما عسى أن تبلغ ، لأنه لا يخشى أحد أحداً إلا مع معرفته ، ولا يعرفه جاهل ، فصار المعنى كأنه قيل : إنما ينفع الإنذار أهل الخشية، وإنما يخشى العلماء ، والعالم هو الفقيه العامل بعلمه" (٥).

وقال الرازي: "الخشية بقدر معرفة المخشي ، والعالم يعرف الله فيخافه ويرجوه . وهذا دليل على أن العالم أعلى درجة من العابد ، لأن الله تعالى قال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾(٦) فبين أن

---

(١) العنكبوت:.٤٩

(٢) تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٦٣٣).

(٣) الإسراء:١٠٧-١٠٨.

(٤) فاطر:.٢٨

(٥) نظم الدرر للبقاعي (٣٩/٧).

(٦) الحُجُرات:.١٣

الكرامـة بقدر التقوى ، والتقوى بقدر العلم . فالكرامة بقدر العلم لا بقدر العمل ، نعم العالم إذا ترك العمل قدح ذلك في علمه ، فإن من يراه يقول : لو علم لعمل . ذكر ما يوجب الخوف والرجـاء ، فكونـه عزيـزاً ذا انتقام يوجب الخوف التـام ، وكونه غفوراً لمـا دون ذلك يوجب الرجاء البالغ" (١).

وقَالَ رَسُولُ ﷺ: ((لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا ، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا)) (٢).

"قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: "كَفَى بِخَشْيَةِ اللَّهِ عِلْمًا وَكَفَى بِالاغْتِرَارِ بِاللَّهِ جَهْلا" (٣).

أخبر أنهم هم أهل الحجة.

إشارة إلى جميع احتجاجاته حتى خاصمهم وغلبهم بالحجة.. أي بالعلم والفهم والإمامة والملك. (٤) فإبراهيم عليه السلام هو صاحب الحجة على قومه وكذلك كل الأنبياء والمرسلين هـم أصحاب الحجة علـى أقوامهم قال تعـالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾ (٥) "فلـو لم يبشـر الرسـل بالجنـة لمن امتثل التكاليف الشرعية، ولم ينذروا بالنار من لم يمتثل، وكانت تقع المخالفة المترتب عليها العقاب بمـا لا شعور للمكلف بهـا من حيث إن الله لا يبعث إليه من يعلمه بـأن تلك معصية، لكانت له الحجة إذ عوقب على شيء لم يتقدم إليه في التحذير من فعله، وأنه يترتب عليه العقاب." (٦)

أخبر أنهم هم المنتفعون بكلامه وأمثاله.

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَۛ فِيهِۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴾ (٧) والمتقي الذي يجعل بينه وبين عذاب الله وقاية لابد أن يعلم ما يفعل وما يحذر وعند تفسير هذه الآية ذكر ابن جزي بواعث التقوى وذكر منها العلم. (٨)

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي (١٢/٤٧٤).

(٢) صحيح البخاري (٨/١٠٢) كتاب الرقاق، باب قول الرسول e : لو علمتم ما أعلم، حديث رقم (٦٤٨٥).

(٣) انظر: الزهد لأحمد بن حنبل ص(١٥٨)، الزهد لابن المبارك ص(١٥)، إبطال الحيل لابن بطة ص(١٧).

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/٣٠).

(٥) النساء:.١٦٥

(٦) البحر المحيط لأبي حيان (٤/١٤٠).

(٧) البقرة:.٢

(٨) انظر: التسهيل في علوم التنزيل لابن جزي (١/٥).

وبين سبحانه وتعالى أن أمثاله التي ضربها في كتابه لا يعقلها إلا العلماء فقال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾(١) أي: لا يعقل صحتها وحسنها وفائدتها إلا هم، لأنّ الأمثال والتشبيهات إنما هي الطرق إلى المعاني المحتجبة في الأستار حتى تبرزها وتكشف عنها وتصوّرها للأفهام ، كما صوّر هذا التشبيه الفرق بين حال المشرك وحال الموحد(٢).

وفي القرآن الكريم بضعة وأربعون مثلاً وكان بعض السلف إذا مر بمثل لا يفهمه يبكي ويقول: لست من العالمين(٣).

١٠-أعطاهم خيراً كثيراً هو خير مما يجمع الناس.

فأفضل الخلق هم أنبياء الله ورسله فضلهم الله تعالى بما آتاهم من العلم فقال في ذكر نعمته على نبينا محمد ﷺ: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾(٤) هذا من أعظم الدلائل على أن العلم أشرف الفضائل والمناقب. وذلك أن الله تعالى ما أعطى الخلق من العلم إلا قليلا ، ونصيب الشخص من علوم الخلائق يكون قليلا ، ثم إنه سمى ذلك القليل عظيما.(٥)

وقال في يوسف- عليه السلام -: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾(٦)

وقال في موسى – عليه السلام -: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾(٧) "قال الزجاج: جعل الله تعالى إيتاء العلم والحكمة مجازاة على الإحسان لأنهما يؤديان إلى الجنة، التي هي جزاء المحسنين" (٨)

(١) العنكبوت:.٤٣
(٢) الكشاف للزمخشري (٥/٢١٣).
(٣) انظر: مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/٥٣).
(٤) النساء:.١١٣
(٥) مفاتيح الغيب للرازي (١١/٢١٧).
(٦) يوسف:.٢٢
(٧) القصص:.١٤
(٨) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٤/١٣٦).

وقال في عيسى- عليه السلام - : ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ ﴾(١)

وقال في حق داود : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ﴾(٢) وغيرهم من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مما يطول المقام بذكره.

وشهد الله لمن آتاه العلم بأنه قد آتاه خيراً كثيراً فقال تعالى: ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾(٣) ومعنى إيتائِها تبيينُها والتوفيقُ للعلم والعمل بها.. والإظهارُ في مقام الإضمار لإظهار الاعتناءِ بشأنها وللإشعار بعِلة الحِكم أي أيَّ خيرٍ كثير فإنه قد خِيرَ له خيرُ الدارين.(٤)

والله تعالى أمر أهل العلم بالفرح بما آتاهم وأخبر أنه خير مما يجمع الناس(٥) فقال تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾(٦) الإسلام القرآن الفضل والرَّحمة أيّ: ما آتاهم الله من الإسلام والقرآن خيرٌ ممَّا يجمع غيرهم من الدُّنيا.(٧)

المطلب الثاني: الناحية التطبيقية للعلاج :

إيجاد مرجعية دينية رسمية قوية تتفاعل مع قضايا المجتمع ويكون لها دور بارز في قضايا الأمة ويربى الناس على الرجوع لهذه المرجعية في قضاياهم.

(١) المائدة:.١١٠

(٢) ص:.٢٠

(٣) البقرة:.٢٦٩

(٤) إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٣٢٧/١).

(٥) انظر: مفتاح دار السعادة لابن القيم (٥٠/١-٥٢).

(٦) يونس:.٥٨

(٧) الوجيز للواحدي ص(٥٠٢).

والأهــم من ذلك احترام هذه المرجعية وإعلاء شأنها ومكانتها والصدور عن رأيها فيما يختلف فيه الناس.

والناس لابد لهم من إمام يقودهم وهذه المرجعية تكون نائبة عن الإمام في قيادة الناس في المسائل الشرعية قال الأفوه الأودي(١):

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم

ولا سراة إذا جهالهم سادوا[١]

"ومن شأن الرعيّة قلة الرضى عن الأئمة، وتحجّر العذر عليهم ، وإلزام اللائمة لهم ورب ملوم لا ذنب له. ولا سبيل إلى السلامة من ألسنة العامة إذ كان رضى جملتها، وموافقة جماعتها من المعجز الذي لا يدرك والممتنع الذي لا يملك.

ولكلّ حصته من العدل، ومنزلته من الحكم. فمن حقّ الإمام على رعيته أن يقضي عليهم بالأغلب من فعله والأعمّ من حكمه، ومن حق الرعيّة على إمامها حسن القبول لظاهر طاعتها وإضرابه صفحا عن مكاشفتها" (٢)

ولابد أن تكون هذه المرجعية مبنية على أسس علمية قوية يُختار لها أفضل العلماء المشهود لهم بالتقوى وقوة العلم والحجة والحكمة.

الإعلاء من شأن العلماء في المؤسسات التعليمية المدارس والجامعات والمحاضن التربوية الأخرى كدور التحفيظ ومراكز الأحياء وغيرها ويركز فيها على إبراز مظاهر تكريم الله للعلماء وتضمينها في المناهج الدراسية والمناشط التربوية.

يقوم المسجد برسالته التربوية المنوطة به من إعلاء شأن العلماء وفضح مخططات منتقصيهم.

---

(١) هو صلاءة بن عمرو بن مالك من مذحج شاعر جاهلي كان سيداً في قومه قائدهم في حروبهم. انظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة (٢١٧/١)، والأغاني لأبي فرج الأصفهاني (١٩٨/١٢).

(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه (١٠/١).

يقوم الإعلام بدوره الريادي في الإعلاء من شأن العلماء وإنزالهم منزلتهم التي أنزلهم الله إياها والكف عن كل ما يؤدي إلى تشويه صورتهم عند عامة الناس.

مجابهة أهل الباطل من أعداء الإسلام والمنتسبين إليه من أهل النفاق والفرق الضالة وتبيين أساليبهم في الطعن في العلماء ومواجهتها بأسس علمية محكمة، وبيان مقاصدهم وكشف زيفهم وما يريدون لهذه الأمة.

إبراز دور العلماء من خلال الملتقيات الشبابية والتفاف الشباب حولهم ونزول العلماء للشباب والالتقاء بهم ومحاورتهم ومعرفة ما يدور في أوساطهم من أفكار.

تعويد الناشئة على زيارة العلماء وطرح ما يدور في أذهانهم من أفكار واستشارتهم في أمورهم العامة والخاصة.

تعويد الناشئة على الطريق الصحيح في طلب العلم من ثني الركب في حلقات العلم وحفظ القرآن الكريم والحديث النبوي والمتون العلمية.

تعويد الناشئة على التخلق بأخلاق أهل العلم من التواضع والصبر في تلقي العلم وعدم الاستعجال وعدم التطلع والتعالي على العلماء.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات والصلاة والسلام على خير خلق الله نبينا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد

فأحمد الله تعالى على توفيقه إياي من إتمام هذا البحث الذي قضيت معه فترة من الزمن وخلصت فيه إلى بعض النتائج التي من أهمها:

١. أهمية معرفة الأسباب التي تؤدي إلى التقليل من شأن العلماء والطعن فيهم والعمل على تلافي هذه الأسباب وعلاجها.

٢. إنزال العلماء المنزلة اللائقة بهم والتي أنزلها الله إياهم في كتابه الكريم.

٣. معرفة أصناف الذين ينتقصون العلماء وكشف زيفهم ومخططاتهم.

٤. العمل بالقرآن الكريم وتطبيقه في واقع الحياة يقضي على كل مشاكل المجتمع في شتى المجالات المختلفة.

٥. خطورة الآثار المترتبة على التقليل من شأن العلماء التي تعود على الفرد والتي تعود على المجتمع.

٦. تعريف المجتمع بمظاهر تكريم الله للعلماء في القرآن الكريم عن طريق وسائل الأعلام والمؤسسات التعليمية وغيرها.

٧. أهمية العمل بما جاء في الناحية التطبيقية لعلاج هذه المشكلة.

٨. أهمية دراسة هذا الموضوع بشكل أكبر كرسالة دكتوراه أو تكون مؤتمرات خاصة بهذا الشأن.

قائمة المراجع

١. إبطال الحيل، لابن بطة العكبري، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الاسلامي – بيروت – ١٤٠٢هـ.

٢. أخلاق العلماء، لأبي بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجُرِّيُّ البغدادي، تحقيق: إسماعيل الأنصاري، رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض.

٣. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود محمد بن محمد العمادي، ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت ، الأولى، د.ت.

٤. الاعتصام، للقاسم بن فيره الشاطبي، دار الكتب العلمية –بيروت.

٥. إعلام الموقعين، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق. محمد عبدالسلام إبراهيم، دار الكتب العلمية –بيروت، ١٤١١هـ.

٦. الأغاني، لأبي الفرج علي بن الحسين الأصفهاني، ت. د.إحسان عباس وآخرون، ط. دار صادر-بيروت، الثانية ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

٧. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للقاضي أبي سعيد عبدالله بن عمر البيضاوي، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الأولى، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

٨. بحر العلوم، لنصر بن محمد السمرقندي، ت. محمود مطرجي، ط. دار الفكر -بيروت، الأولى، د.ت.

٩. البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان محمد بن يوسف بن حبان الأندلسي، ت. عادل أحمد عبد الموجود - الشيخ علي محمد معوض، ط. دار الكتب العلمية-بيروت، الأولى، ١٤٢٢هـ.

١٠. تذكرة الحفاظ، لشمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، ط.دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الأولى، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

١١. التسهيل لعلوم التنزيل، لأبي القاسم محمد بن أحمد بن جزي الكلبي ت: رضا فرج الهمامي، ط. المكتبة العصرية - بيروت، الأولى ١٤٢٣هـ.

١٢. تفسير القرآن، لأبي المظفر منصور بن محمد السمعاني، ت. ياسر إبراهيم وغنيم بن عباس، ط دار الوطن -الرياض، الأولى، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

١٣. تفسير القرآن الحكيم المشهور بتفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، ط.دار المنار، القاهرة، الثانية، ١٣٦٦هـ.

١٤. تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، ت. سامي محمد السلامة، ط. دار طيبة، الثانية، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

١٥. التفسير الوسيط ، للدكتور: وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر – دمشق، الطبعة : الأولى - ١٤٢٢ ه.

١٦. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن بن ناصر بن سعدي ت: طه عبدالرؤوف سعد، ط. مكتبة الأوس – المدينة المنورة، الأولى، د.ت.

١٧. جامع البيان عن تأويل القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، ت: أحمد بن محمد شاكر، ط. مؤسسة الرسالة، الأولى، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

١٨. الجامع لأحكام القرآن، لمحمد بن أحمد القرطبي، ت.د. عبدالله التركي، ط. مؤسسة الرسالة -بيروت، الأولى ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

١٩. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لمحمود شكري الألوسي، ط. دار إحياء التراث العربي -بيروت، الأولى، د.ت.

٢٠. الزهد، لأحمد بن حنبل الشيباني، دار الكتب العلمية – بيروت.

٢١. الزهد ويليه الرقائق، لعبد الله بن المبارك ، تحقيق : حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية – بيروت.

٢٢. سنن ابن ماجه، لأبي عبدالله محمد بن يزيد ابن ماجة، ت. محمد فؤاد عبدالباقي، ط. دار إحياء الكتب العربية، د.ت.

٢٣. سنن أبي داود، لسليمان بن الأشعث، ت: محمد محي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، بيروت.

٢٤. سنن الترمذي، لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، ت. أحمد بن محمد شاكر ومحمد فؤاد، ط. شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الثانية، ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م.

٢٥. سير أعلام النبلاء، لأبي عبدالله محمد بن أحمد الذهبي، ت.مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، ط. مؤسسة الرسالة، الثالثة، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

٢٦. الشعر والشعراء، لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، ت: أحمد محمد شاكر، ط. دار المعارف-القاهرة، الأولى، ١٣٧٧هـ.

٢٧. صحيح أبي داود، لمحمد ناصر الدين الألباني، مؤسسة غراس، الكويت، ط١ ، ١٤٢٣هـ.

٢٨. صحيح البخاري، لأبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، ت. محمد زهير الناصر، ط. دار طوق النجاة، الأولى، ١٤٢٢هـ.

٢٩. صحيح مسلم، لمسلم بن الحجاج القشيري، ت. محمد فؤاد عبدالباقي، ط. دار إحياء التراث العربي-بيروت، د.ت.

٣٠. العقد الفريد، لأحمد بن محمد بن عبدربه الأندلسي، ت: محمد عبدالقادر شاهين، ط. المكتبة العصرية- بيروت، الأولى، ١٤١٩هـ.

٣١. الفتاوى الكبرى، لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية، ط. دار الكتب العلمية، الأولى، ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م.

٣٢. فتح الباري شرح صحيح البخاري، لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ت. عمر فؤاد عبدالباقي ومحب الدين الخطيب، ط. دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.

٣٣. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، لمحمد بن علي الشوكاني، ت. د. عبدالرحمن عميرة، ط. دار الوفاء- المنصورة، الثانية ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

٣٤. قواعد الشعر، لأحمد بن يحيى بن زيد بن سيار الشيباني بالولاء، أبو العباس، المعروف بثعلب تحقيق: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٩٩٥م.

٣٥. قواعد في التعامل مع العلماء، لعبدالرحمن معلا اللويحق، دار إحياء التراث الإسلامي-الكويت.

٣٦. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، ت. عادل أحمد عبدالموجود – علي محمد معوض ط. مكتبة العبيكان، الرياض، الأولى ١٤١٨هـ.

٣٧. لباب التأويل في معاني التنزيل المسمى بتفسير الخازن، لعلاء الدين علي بن محمد البغدادي الشهير بالخازن، ت.عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، ط. دار الفكر -بيروت- لبنان، الأولى، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

٣٨. لطائف الإشارات: لعبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري ت: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر، الثالثة .

٣٩. محاسن التأويل، لمحمد جمال الدين بن محمد الحلاق القاسمي، ت. محمد باسل عيون السود، ط. دار الكتب العلمية -بيروت، الأولى، ١٤١٨هـ.

٤٠. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبدالحق بن غالب بن عطية، ت. عبدالسلام عبدالشافي محمد، ط. دار الكتب العلمية -بيروت، الأولى، ١٤٢٢هـ.

٤١. مدارك التنزيل وحقائق التأويل، لأبي البركات عبدالله بن أحمد النسفي، ت: مروان محمد الشعار، ط. دار النفائس-بيروت، الأولى، د.ت.

٤٢. المستدرك على الصحيحين، لأبي عبدالله الحاكم محمد بن عبدالله النيسابوري، ت: د. يوسف بن عبدالرحمن المرعشلي ، ط. دار المعرفة -بيروت، الأولى، ١٤١١هـ-١٩٩٠م.

٤٣. مسند الإمام أحمد بن حنبل، لأبي عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، ت. شعيب الأرناؤوط، عادل مرشد، وآخرون بإشراف، د. عبدالله التركي، ط. مؤسسة الرسالة، الأولى، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

٤٤. معالم التنزيل، لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، ت: محمد عبدالله النمر، ود. عثمان جمعة ضميرية وسليمان مسلم الحرش، ط. دار طيبة، الرياض، الأولى، ١٤٠٩هـ.

٤٥. معالم السنن، وهو شرح سنن أبي داود، لأبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي، المطبعة العلمية – حلب، الطبعة: الأولى ١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م.

٤٦. معاني القرآن وإعرابه، لإبراهيم بن السري بن سهل الزجاج، عالم الكتب ، بيروت، ط١ ، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

٤٧. معجم الأدباء، لياقوت الحموي ، ت: د. إحسان عباس، ط. دار الغرب الإسلامي-بيروت، الأولى، ١٩٩٣م.

٤٨. مفاتيح الغيب، لمحمد بن عمر المعروف بالفخر الرازي، ت: د. عبدالفتاح شلبي وعلي ناصف، ط. دار الفكر، بيروت، الأولى، ١٤٠١هـ.

٤٩. مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية – بيروت.

٥٠. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لإبراهيم بن عمر البقاعي، ت. عبد الرزاق غالب المهدي، ط. دار الكتب العلمية -بيروت، الأولى، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

٥١. الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب القيسي، مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة، بإشراف أ. د: الشاهد البوشيخي، مجموعة بحوث الكتاب والسنة - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة، الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م

٥٢. الوافي بالوفيات، لصلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي، ت.أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، ط.دار إحياء التراث-بيروت، الأولى، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

٥٣. الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي، ت. صفوان عدنان داوودي، ط. دار القلم، الدار الشامية- دمشق، بيروت، الأولى، ١٤١٥هـ.

٥٤. وفيات الأعيان وأنباء الزمان، لأبي العباس أحمد بن محمد ابن خلكان، ت. إحسان عباس، ط١. دار صادر - بيروت، د.ت.

الدكتور/ عبد الرحمن محمد رضوان حرش

- الجنسية : سوري مواليد: الميدان - دمشق – ١٩٧٩

المؤهلات العلمية

- شهادة حفظ القرآن الكريم، من شيخ قراء الشام: محمد اكريم راجح حفظه الله تعالى١٩٩٢.
- الشريعة الإسلامية
- دكتوراه في الشريعة الإسلامية – جامعة أم درمان، قسم أصول الفقه درجة ممتاز مع التوصية بالطباعة ٢٠١٢
- ماجستير في أصول الفقه، جامعة أم درمان، درجة ممتاز ٢٠٠٩
- إجازة في الشريعة الإسلامية، كلية الشريعة والقانون في جامعة الأزهر، مصر٢٠٠٢
- الإعدادية والثانوية في المدرسة الشرعية بالميدان ١٩٩١___ ١٩٩٦
- اللغة العربية
- ماجستير في اللغة العربية، جامعة الجنان، بعنوان: "ملامح تصوير القبيح في القرآن الكريم" بدرجة امتياز ٢٠١٤
- تمهيدي الماجستير في اللغة العربية، جامعة الجنان، التقدير: جيد جداً٢٠١٠
- إجازة في اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة دمشق، التقدير: جيد.٢٠٠١

التصوير القرآني لمشكلات الشباب الاجتماعية
أسبابها وعلاجها

الدكتور/ عبد الرحمن محمد رضوان حرش

كلية الدراسات الإسلامية، قسم التفسير وعلوم القرآن
جامعة إسطنبول شهير- تركيا

ملخص البحث:

كلمة العلاج تستدعي كلمة المرض، والمشكلة في التصور القرآني من الأمراض التي تصورها اللغة بطاقاتها التعبيرية، فتلونها وتحركها بما يلائمها، حتى تكاد من حسن تصويرها تسمعها تقول: هذا هو الداء وذلك هو الدواء! وإن العرض القرآني ببيانه ومعانيه وبديعه يظهر الداء، كما أنه يصف الدواء وهو تدبر ما وراء الألفاظ من المعاني، وبذل غاية الجهد للذهاب بالفكر في المعنى إلى أقصى مرامي الألفاظ، فلعل المتدبر يلمس ما تحمله المشكلة المصورة - في أدوات تصويرها، أو في سياقات الحديث عنها- من العلاج، أو يتلمس بإيمائها إلى أسبابها طريقة التخلص منها، مدركًا العلاقة الوثقى بين الغاية من إنزال القرآن وعلاج المشكلات، علاقة تكاد تبنى عليها بعض التفاسير، ولعل هذه الدراسة تسهم في ذيّالك البناء بلبنة، وفي بناء الشباب بلبنة أخرى! فهل الناس -كما قيل- إلا مستعجل مرحلة الشباب أو متمتع فيه أو متحسر على مضيه من عمره؟ وهل ينمو المجتمع نموًا سليمًا إلا حين يكون شبابه في عافية ؟ ولقد قسمت خطتي على هذا النحو:

المبحث التمهيدي: ويتكون من مطالب تمهيدية:

المطلب الأول: معنى التصوير القرآني.

المطلب الثاني: مرادفات كلمة المشكلة في القرآن.

المطلب الثالث: أهمية الشباب في المجتمع.

المبحث الأول: التصوير القرآني لأسباب مشكلات الشباب الاجتماعية، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تصويره للأسباب التي ليس للعبد إلا تهذيبها.

المطلب الثاني: تصويره للأسباب التي يمكن للعبد تجنبها.

المبحث الثاني: التصوير القرآني لآثار مشكلات الشباب على المجتمع، وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: تصوير أثر إطلاق البصر على عرض المجتمع.

المطلب الثاني: تصوير أثر إطلاق اللسان وتلقف السمع لآفاته على نسيج المجتمع.

المطلب الثالث: تصوير أثر إطلاق اليد على دين المجتمع، ووحدته.

المطلب الرابع: تصوير الخطوات في القرآن وبيان أثرها على عقل المجتمع وفكره.

المطلب الخامس: تصوير أثر النفاق الاجتماعي على قوام المجتمع بأسره.

المبحث الثالث: خصائص العلاج القرآني لمشكلات الشباب الاجتماعية. وفيه مطلبان:

المطلب الأول: خصائص في الأساليب.

المطلب الثاني: خصائص في المضامين.

وقد تبين للباحث كون العلاج القرآني: واقعيًا، ثابتًا، شاملًا، قابلًا للتطبيق، نابعًا من حاجة المجتمع، منوعًا بتنوع الحاجات، موافقًا للفطرة، مراعيًا لحجم المشكلة، قريب التناول، واضحًا، متدرجًا، آمنًا، يعتمد الوقاية قبل العلاج، جذريًا، يسرد القصة المرضية فعلاجها في الأزمنة الغابرة ومن ثم نجاحها... وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه في البدء والختام..

المبحث التمهيدي

التصوير القرآني لمشكلات الشباب ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: معنى التصوير:

نقل ابن منظور(١) - رحمه الله- عن أحد مصادره الخمسة وهو ابن الأثير(٢) تفصيله لطرائق ورود الصورة في لسان العرب يعني "لغتهم" بأنها ترد على ثلاثة معان: (على ظاهرها، وعلى معنى حقيقة الشيء وهيئته، وعلى معنى صفته، يقال: صورة الفعل كذا وكذا؛ أي: هيئته، وصورة كذا وكذا؛ أي: صفته)(٣). غير أن في تعريف ابن منظور للصورة لغويًا مدخلًا مقنعًا جدًا للوصول من خلاله إلى معناها الاصطلاحي فهو ينص على أن معنى: (تصورت الشيء: توهَّمت صورته، فتُصوِّر لي) فإن معنى التوهم هنا الذي ينص عليه يدخل عنصر التخيل الذي تسمح به الألفاظ للصورة التي يريد النص للمتدبر الوقوف عندها، وهذا التخيل يبدأ بالتصور الفكري لينتهي إلى التصوير اللغوي فإن (التصوُّر هو العلاقة بين الصورة والتصوير، وأداته الفكر فقط، وأما التصوير؛ فأداته الفكر واللسان واللغة)

(١) هو الإمام العلامة اللغوي جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم ابن منظور الأنصاري الخزرجي الإفريقي المصري، ولد سنة (٦٣٠هـ)، وكان مشاركاً في كثير من العلوم من تصانيفه: "لسان العرب"، "مختصر تاريخ ابن عساكر"، "نثائر الأزهار"، وغير ذلك مما لم يزل مخطوطاً، وتوفي سنة (٧١١هـ) وله اثنان وثمانون سنة، ينظر "الوافي بالوفيات" (٣٧/٥)، "الدرر الكامنة" (٢٦٢/٤)، "بغية الوعاة" (٢٣٥/١).

(٢) هو الإمام القاضي العلامة البارع البليغ مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري، ولد بجزيرة ابن عمر سنة (٥٤٤هـ)، قرأ الحديث والعلم والأدب، وكان رئيساً مُشاوراً، ورعاً عاقلاً بهياً، صنف "جامع الأصول"، و"النهاية في غريب الحديث"، "شرح مسند الشافعي"، وغيرها، وأخوه عز الدين علي مصنف "الكامل في التاريخ"، وأخوهما ضياء الدين نصر الله مصنف "المثل السائر"، توفي أبو السعادات سنة (٦٠٦هـ)، ينظر "إنباه الرواة" (٢٥٧/٣)، "سير أعلام النبلاء" (٤٨٨/٢١)، "وفيات الأعيان" (١٤١/٤).

(٣) "لسان العرب" (٤٩٢/٢) مادة (ص و ر)، وينظر "النهاية في غريب الحديث" لابن الأثير (٥٨/٣) مادة (صور).

(١). فـإن كان إبـراز الصورة إلى الخـارج على نحو فني فهو التصويـر، وإن كان عقليًا فهو التصـور، فأنت تتصور الشيء عقلًا ثم تبرزه شـكلًا فنيًا، ومن هنا يمكن القول بأن التصوُّر هو (مرور الفكر بالصورة الطبيعية التي سبق أن شاهدها وانفعل بها ثم اختزنها في مخيلته؛ مـروره بها يتصفحها) (٢). ثم يبدأ بعد ذلـك بتصويرها كما لو كان ينقش (صورة الأشياء أو الأشخاص على لوح أو حائط أو نحوهمـا بالقلم أو بالفرجون أو بآلة التصوير، [ليبرزها كما لو كان يعتمد] "التصوير الشمسي": وهو: أخذ صورة الأشياء بالمصورة الشمسية) (٣)، علـى أن التصوير القرآني، تصوير شامل، (فهو تصوير باللون، وتصوير بالحركة، وتصوير بالتخييـل، كما أنه تصوير بالنغمـة تقوم مقام اللون في التمثيل، وكثـيراً ما يشترك الوصف والحـوار، وجرس الكلمات، ونغم العبـارات، وموسيقى السياق في إبـراز صورة من الصور) (٤). ولـن يتمكـن من تأمل هذه جميعًا مـا لم يستطيع التفطن إلى المعـاني وهي (مطروحة في الطريـق) (٥)، ليستطيع إبـراز عناصر التصوير التي تناولهـا سيد قطب(٦) كالحركة والإطـار والألـوان والظلال والجرس والنغـم، بحيث تستعمـل فيها اللغة كلها بـكل طاقاتها وإيحاءاتها، فكيف عالجت عناصر التصوير أهم مشكلات الشباب الاجتماعية؟

المطلب الثاني: حديث القرآن عن المشكلات الاجتماعية

مـا لا يقبله المجتمع السوي -وهـو هنا المؤمن- لخروجه عن الضوابط الصحيحة -وهي

---

(١) " مجلة الرسالة" المجلد الثاني – السنة الثانية، العدد (٦٤)، (ص ١٧٥٦).

(٢) "نظرية التصوير الفني عند سيد قطب" (ص ٧٤).

(٣) "المعجم الوسيط" (٥٢٨/١) مادة (صور).

(٤) "نظرية التصوير الفني عند سيد قطب" (ص ٣٣).

(٥) "الحيوان" للجاحظ (١٣١/٣).

(٦) هـو سيـد قطب بـن إبراهيم، مفكر إسلامـي مصري، مـن مواليد قرية موشـا في أسيوط سنـة (١٣٢٤هـ-١٩٠٦م)، تخـرج بكليـة دار العلوم بالقاهـرة سنة (١٩٣٤م)، وأوفد في بعثة لدراسـة برامج التعليم في أميركا، ولمـا عـاد انتقد البرامج المصرية، وبنـى على هذا استقالته، وانضـم إلى الإخوان المسلمـين، فترأس قسم نشر الدعـوة، وتـولى تحرير جريدتهم، وسجن معهم، فعكف على تأليـف الكتب ونشرها وهو في سجنه، إلى أن صدر الأمـر بإعدامه، فأعدم سنـة (١٣٨٧هـ- ١٩٦٧م)، وكتبه كثيرة مطبوعة متداولـة، منها: "النقد الأدبي أصوله ومناهجـه"، "العدالة الاجتماعية في الإسلام"، "التصوير الفني في القرآن"، "الإسلام ومشكلات الحضارة"، "في ظلال القرآن"، "معالم في الطريق"، ينظر "الأعلام" (١٤٧/٣).

هنا القوانين القرآنية- هو ما سيدور البحث حوله على اعتباره المشكلة الاجتماعية التي تستنطق الآيات الكريمات لمعرفة الإجراءات التي ينبغي أن تقوم للحد منها، لكننا – ونحن نستنطق- لا تجد في النص القرآني كلمة مشكلة! إذلم ينص على هذه الكلمة في موضع من مواضعه، ولكنه صورها تصويرًا دقيقًا وأضفى عليها أسماء مناسبة، فصور أصحابها حينًا غرقى في الظلمات، قد أعماهم ظلام في القلب أو رين أو صدأ، أو عشت أعينهم عن الحق فهم لا يبصرون، وهم حينًا آخر كالبهائم أو أضل! ومشكلاتهم أشبه ما تكون بأمراضها كالصعر والصدف، وفي أجسادهم علل لأنها لم تستخدم فيما خلقت لها، ويكاد المتأمل لحال هؤلاء يرى أعضاءهم لا تعمل فأصحابها صم بكم عمي، بل أموات وإن كانوا في الصورة أحياء! على اعتبار أن الحياة حياة القلب والموت موته، فإن كان مريضًا أومغلقًا فعلى القبح كله قد انطوى! وأي داء أدوأ من هذا!(١).

والقرآن يحذر أتباعه من السير وراء أمثال هؤلاء ولا يتبعوا خطواتهم التي هي في الأصل خطوات إبليس حتى لا يقعوا في مشاكلهم نفسها، وليس سوى الإيمان من علاج، وما أشد حاجة المرضى إلى العلاج ولا سيما الشباب! ولكن لماذا الشباب؟

المطلب الثالث: عناية القرآن بالشباب

لعل من نافلة القول الحديث عن أهمية الشباب، وهل الناس – كما قيل- إلا مستعجل مرحلة الشباب أو متمتع فيه أو متحسر على مضيه من عمره؟ وهل الشباب إلا قوة المجتمع وبأسه وعطاؤه؟ وهل ينمو المجتمع نموًا سليمًا إلا حين يكون شبابه في عافية من كل سوء؟ وهل يضع العدو همه في إفساد الأمة إلا بإفساد شبابها كما يقول أهل الأدب؟ إنه يراهم انعكاسًا لمجموع المجتمع تظهر عليهم علله أكثر ما تظهر! وهذا ما يدفع الأبحاث إلى أن تتجه إليهم على أنهم المعيار على سلامة المجتمع بأسره! ولو تمتع الصغار أو الكهول بما يتمتع به الشباب فلربما أصابتهم العدوى ورقدوا في مشافي الدراسات، واستجدوا أطباءها!

(١) قال الرازي: " وهذه الدنيا مثل دار المرضى إذا كانت مملوءة من المرضى والأنبياء كالأطباء الحاذقين والمريض ربما قد قوي مرضه فلا يعود إلى الصحة إلا بمعالجات قوية وربما كان المريض جاهلاً فلا ينقاد للطبيب ويخالفه في أكثر الأمر إلا أن الطبيب إذا كان مشفقاً حاذقاً فإنه يسعى في إزالة ذلك المرض بكل طريق يقدر عليه فإن لم يقدر على إزالته فإنه يسعى في تقليله وتخفيفه إذا عرفت هذا فنقول.... " "مفاتيح الغيب" (٢١/ ٢٤)

لقد أولى القرآن هؤلاء الشباب أهمية بالغة وصور الأحداث التاريخية لشباب عانوا المشكلات نفسها التي يعانيها الأجيال من الشباب حتى اليوم وما قصص (الفتى) إبراهيم عليه السلام وابنه (الشاب) إسماعيل و(الشاب) يحيى بن زكريا الذي آتاه الله الحكم (صبيًا)، وغيرهم من شباب القرآن الذين يحتاج إليهم جيل القرآن اليوم منا ببعيدة، منهم من نص على أسمائهم ومنهم من أغفله أسماءهم حتى يصفو للذهن البحث عن العبر من قصصهم دون تفاصيل قد لا تخدم الغرض من المناسبة التي سيقت لها.

لقد عرض القرآن فيما عرض مشكلة مجموعة من الشباب لا نعلم عنهم إلا أنهم (فتية) ولهذا الخبر قيمة كبرى وأية قيمة في هذا السياق! لقد فر هؤلاء (الفتية) بدينهم من الفتن في قصة أشبه ما تكون بالقصص التي يعاني منها الكثرة الكاثرة من شباب اليوم وهم يبحثون عن كهف يقيهم الفتنة في دينهم بعد أن اشتعل أوار الحرب في بلدانهم، وقد تناثروا كحبات القمح في بلاد العالم سقاها ربي بعطفه وعنايته.

ولقد صور القرآن ما حصل في الكهف الذي نشر الله لهم فيه رحمته حين فروا بدينهم إليه كما صور ما حصل في حجرات السجن الذي اختاره النبي الشاب يوسف عليه السلام حين راودته امرأة العزيز، في سياق بديع يتحدث فيه عن مشكلة من مشاكل الشباب وبحثهم الدؤوب عن حل لها ثم بيان توفيق الله لهم في علاجها..

وفي سورة يوسف عرض القرآن قصة شاب تدور أحداثها حول معظم مشكلات الشباب اليوم، وهي مشكلة تحاكي كثيرًا من قصص شبابنا في الغربة –التي أضحت سمة من سمات الشباب المسلم– إن في خارج أوطانهم أو داخلها حيث البعد عن أعين الرقباء، وصور القرآن حركة ذلك النبي الشاب حركة حركة، النبي العزب المغترب البعيد عن عين المجتمع الذي يعرفه ويعرف أصوله وحسبه ونسبه، إلى مجتمع لم يعرف منه إلا خلقه وقد توصل بخلقه إلى أن يتسنم أعلى رتبة في مجتمعه الجديد! صورت الآيات المشكلات التي يتعرض لها كل شاب بداية بمشاكل غيرة من حوله منه إلى غربته وصولاً إلى غرفته الخاصة وإبراز مدى عفته ونزاهته من داخلها! ثم سجنه بسبب جماله وخروجه بسبب علمه ثم ترقيه في المناصب وعدم نسيانه بعد كل هذا بر والده وطيب خلقه بعفوه عن إخوته.. فتغلب على أهم سببين من أسباب مشاكل الشباب: الطبيعة البشرية الداعية للانتقام والغضب والاستجابة للشهوة فهذبها، والمجتمع الذي عاش فيه فلم يمل إلى ما يميل إليه الشباب بل إلى ما كان يدعوه إليه.

المبحث الأول

التصوير القرآني لأسباب مشكلات الشباب الاجتماعية

لا ريب أن البحث وراء الأسباب هو جزء من البحث عن الحلول، فإن معرفة الأسباب تفضي إلى إيجاد حلول جذرية وعلاجات تناسب طبيعة الأمراض، وقد تبين لي أن أسباب هذه المشكلات على ضربين: ضرب لا بد من تهذيبه وضرب لا بد من تجنبه:

المطلب الأول: سبب خلقي، ليس للعبد إلا تهذيبه بالعقيدة الصحيحة

للإنسان في الدراسات القرآنية مجال رحب كتب فيه غير ما مؤلف١ ، وهنالك أسباب كثيرة لمشكلاته منها ما يعود إلى أصل خلقته وتكوينه التي عرفها الشيطان فنفذ إلى نفسه من خلالها، وهي كثيرة منها: الضعف الذي قد يكون سببًا عظيمًا من أسباب وقوع الناس في المشكلات إن لم يتبينوا طرق النجاة، وقد ذكر ذلك القرآن في غير ما آية (٢)، وقد بين سعيد بن المسيب(٣) رحمه الله هذا المعنى ودلل على أن إبليس يستغل نقطة الضعف هذه فيغري العبد بها وذلك بقوله: (ما أيس الشيطان من بني آدم قط إلا أتاهم من قبل النساء، فقد أتى علي ثمانون سنة وذهبت إحدى عيني وأنا أعشو بالأخرى وإنَّ أخوف ما أخاف عليّ فتنة النساء) (٤). ومثل ذلك أن القرآن نبه على أن الإنسان قد خلق من عجل(٥) ولكن ذلك

---

(١) كتب العقاد "الإنسان في القرآن الكريم" وكذا محمد لطفي الصباغ، والسعيد عاشور، وعبد الكريم الخطيب، ومحمد الشيخ طبشات، وزاد أحمد أبو شلطة الحديث النبوي الشريف في دراساته، فصارت: "الإنسان في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف".

(٢) كما في سورة الروم: ٥٤. وسورة النساء: ٢٨. وسورة آل عمران: ١٤.

(٣) هو: سعيد بن المسيّب بن حَزْن، أبو محمّد القرشيّ المخزوميّ، سيّد التابعين، وفقيه الفقهاء، وعالم العلماء في زمانه، لم يكن أحدٌ أعلمَ منه بقضاء قضاه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان يسير الأيّام والليالي في طلب الحديث الواحد، توفي سنة (١٠٠هـ)، ينظر "تهذيب الكمال" (٦٦/١١)، "سير أعلام النبلاء" (٢١٧/٤).

(٤) "الكشاف" (٥٣٣/١).

(٥) سورة الإسراء: ١١.

لا يمنـع العبد من التؤدة والتمهل والسكينة فإن القـرآن قد نهانا عن الاستعجال (١)، وليس في هـذا تكليـف ما لا يطاق! فإنه كما ركّـب فيه الشهوة وأمره أن يغلبهـا؛ أعطاه القدرة التي يستطيـع بها قمع الشهوة وترك العجلة(٢). كمـا وصف الله تعالى الإنسان بأنه يؤوس قنوط (٣)، والقنـوط من رحمة الله مرتبط بالضلال(٤)، ووصفـه بأنه أكثر الكائنات جدلاً (٥) وأنه ظلوم جهول (٦)،وأنه كفور(٧)، وأنه يفجر(٨)، وأنه كنود(٩)، وهلوع جزوع (١٠)، وأن لـه نفسًا توسوس (١١)، وأنه يغتر بربه(١٢). وأنه يطغى ويستغني(١٣)، وأنه خصيم مبين ينسـى وهو في غمرة نشوة الخصام أنه خلق من نطفة(١٤)، وكأن علاج ذلك الكبرياء يأتي تذييلًا للآية بتذكير العبد بأصله! وقد وردت في القرآن الكريم صيغة: ﴿ولكن أكثر النـاس﴾ سبع عشرة مرة، وكلها في معرض الذم! ما يؤكد أن الإنسان ذو صفات قد توقعه في مشكلات كثـيرة مـا لم يعرف طرائق النجاة التي شرعها الله تعالى لـه، وما لم يعلم أن القرآن الكريم

---

(١) سورة الأنبياء: ٣٧.

(٢) "الكشاف" (١١٨/٣-١١٩).

(٣) سورة الإسراء: ٨٣.

(٤) سورة الحجر: ٥٦.

(٥) سورة الكهف: ٥٤.

(٦) سورة الأحزاب: ٧٢.

(٧) ولابن عاشور رحمه الله كلام نفيس حول وصف كفور أهو كفر بالتوحيد أو كفر بالنعمة إذ نقل اختلاف محامل المفسرين للآية بأن منهم:
-من حملها على خصوص الإنسان الكافر بالله مثل الزمخشري والقرطبي والطيبي
-ومنهـم من حملها على ما يعـم أصناف النـاس مثل الطبري والبغوي والنسفي وابن كثير، ومنهم من حملها على إرادة المعنيين
علـى أن أولهما هو المقصود والثاني مندرج بالتبع وهـذه طريقة البيضاوي وصاحب الكشف. ومنهم من عكس وهيطريقة الكواشي في تلخيصه. انظر "التحرير والتنوير [١٣٤/٢٥]

(٨) سورة القيامة: ٥. سورة نوح: ٢٦-٢٧.

(٩) سورة العاديات: ٦.

(١٠) سورة المعارج: ١٩-٢١.

(١١) سورة ق: ١٦.

(١٢) سورة الانفطار: ٦.

(١٣) سورة العلق: ٦-٧.

(١٤) (١٨) سورة النحل: ٤

هو الحبل المتين الذي إن تمسك به نجا من الغرق في أوحالها! وقد جبل أكثر الناس على هذه الصفات حتى نعتوا بأنهم لا يعقلون ولا يؤمنون ولا يفقهون ولا يشكرون!

المطلب الثاني: سبب خلقي، لا بد من تجنبه، وهو التشبه بالمجتمعات الكافرة، والعادات البالية.

لا شك أن الكفر مذموم أصلًا! وقد صوره القرآن غير ما صورة تنبئ عن مدى قبحه حيث جعل كلمة الكفر أشبه ما تكون بالشجرة الخبيثة وحسبك بالخبث بشاعة وقبحًا ولا سيما إن قرنته بكلمة التوحيد تلك الكلمة الطيبة! وإن قبح هذه الكلمة قد سرت إلى معتنقيها فأورثتهم نجاسة حتى لكأنهم غدوا عينها، أو أنهم أصبحوا ذوي نجاسة حين خبث باطنهم، أو أن الشرك الذي اعتقدوه هو بمنزلة النجس! فإن جمعت إلى هذا كونهم لا يتطهرون ولا يجتنبون النجاسات حتى لابستهم النجاسة فقد جمعت الشر كله فيهم والقرف! قال تعالى: ﴿إنما المشركون نجس﴾ [التوبة: ٢٨](١)، والإسلام ليطلب من معتنقيه النظافة من ذلك الرجس أولًا وإزالة ذياك الخبث بالاغتسال ليجمع التوبة إلى الطهارة فيكون طاهر الظاهر طاهر الباطن، وينخلع من القذارة المعنوية بالطهارة الحسية حتى يكون أهلًا للفضائل التي يمنعها تلبسه بما لا يلائمها، سواء كان الرجل ممن يعتني بنظافته وطيبه جريًا منه على أصل فطرته أو عادته وبيئته أو كان مستقذر الجسد لعدم وجود دافع شخصي ولا ديني يأمره بالنظافة (٢).

إن الآية على وجازتها تحمل في طياتها معاني جليلة بهذا التشبيه البليغ الذي يخلع على المشركين صفة النجاسة، حيث لا يراهم متنجسين فحسب، بل نجس خالص، إنها منتهى أوصاف القذارة والقبح والخبث، وسبب ذلك بعدهم عن متوضّأ الإيمان، فليس هناك تعبير أشدّ وأدهى من هذا التعبير ليجسد معنى الكفر والشرك في واقع الناس وحياتهم، وإن كان النجس معنويًا والذي يمس الكافر لا ينجس كما عليه جمهور الفقهاء في الآية الكريمة فإن المعنى ليذهب بعيدًا إلى حد القول: كيف للمجتمع المؤمن الذي بني على الطهارة أن يشوب

(١) "إرشاد العقل السليم" (٤/٥٧).

(٢) "التحرير والتنوير" (١٠/١٥٩).

مجتمعه النظيف بالتشبه بالأوصاف التي شوهت صورة المجتمعات الأخرى؟ وكيف له أن يتقبل تلك الصفات بله معايشتها وتقليدها؟(١) وإذا كانت المعصية –وليس الكفر– هي بمنزلة الاحتراق الذي يفعل بالجسد الأفاعيل من تشويه الصورة لا يحسنها ويجملها سوى القيام إلى الصلاة كما في حديث: "تحترقون تحترقون"٢ فكيف تفعل كلمة الكفر في أصحابها لو صورت أشكالهم المعنوية على حقيقتها؟

وإذا عددنا هذا هو الشق الأول من مصائب التشبه عند الشباب فإننا قد نجد الشق الثاني عند شباب أخذوا منحى آخر لا يقل خطورة عن الأول وهو منحى التبعية والجمود فإما سألتهم وحاورتهم وجادلتهم في فعلتهم وتصرفاتهم فإن لم ينسبوها إلى المجتمع الجديد وما يتطلبه اللحاق بركبهم من تشبه بهم نسبوها إلى ما : ﴿وجدنا عليه آباءنا﴾ [البقرة: ١٧١]. فهم يصرون على اتباع ما وجدوا عليه آباءهم أصابوا أم لم! ، إن كفرًا كما كان الكفار يتذرعون أو عادات وتقاليد لا ترضي الله، لمجرد رؤيتهم أسلافهم يقومون بها! فأي جمود هذا وأي تقليد! جمود يليق به أن تكون صورته كصورة بهيمة لا تفقه ما يقال لها ولو ناداها من يرعاها لا تفقه نداءه، فهؤلاء كالأنعام بل هم أضل من هذه البهيمة، فالبهيمة ترى وتسمع وتصيح، وهم صم بكم عمي! ومن لا ينتفع بما آتاه الله من الجوارح فهو وفاقدها سواء (٣). ولذلك شبهوا بالبهائم تنبيهاً للسامعين لهم أنهم إنما وقعوا فيما وقعوا فيه بسبب ترك الإصغاء، وقلة الاهتمام بالدين، فصيرهم من هذا الوجه بمنزلة الأنعام، ومثل هذا المثل يزيد السامع معرفة بأحوال الكفار، ويحقر إلى الكافر نفسه إذا سمع ذلك، فيكون كسراً لقلبه، وتضييقاً لصدره، حيث صيره كالبهيمة، فيكون في ذلك نهاية الزجر والردع لمن يسمعه عن أن يسلك مثل طريقه في التقليد، والجمود والتبعية من غير ما احتكام إلى نص صريح وعقل صحيح، ويأتي هذا التشويه لهذا السبب وهذا التصرف عن طريق الاستعارة في تشبيه الكافرين بالصم والبكم والعمي، وذلك بحذف المشبه وإبقاء المشبه به، لتغدو الصورة واضحة لكل ذي عينين!

(١) "الجدول في إعراب القرآن" (١٠/٣١٨-٣١٩).
(٢) " المعجم الأوسط للطبراني " من حديث ابن مسعود (٣٥٦/٢)
(٣) "في ظلال القرآن" (١٥٥/١).

المبحث الثاني

التصوير القرآني لآثار مشكلات الشباب على المجتمع

الجوارح التي يناضل العبد عنها يوم القيامة إلى أن تشهد عليه، إنما تشهد عليه بما سبب لنفسه ولقومه من ويلات الدنيا والآخرة حين أساء استخدامها، ولعله حين يتصورها تنطق شاهدة عليه يومئذ يحسن توظيفها اليوم، فيسمع ويعقل ويبصر ويتفكر، وإنك لواجد صور هذه الجوارح في الآيات مبصرة وعمياء، ناطقة وخرساء، سامعة وصماء، ماشية وعرجاء، وكذا الأمة التي تحوي أصحاب هؤلاء الجوارح هي إما أمة من الصنف الأول أو الثاني بحسب أفرادها، وحين يصور القرآن بشاعة الأفراد فلك أن تتصور بشاعة الأمة التي تحوي هؤلاء ولذا فإن الشارع حين يقطع يد امرئ فإنه يأبى أن تشوب الصورة الجميلة صورة يد خائنة فيحذفها منها ويحمي بذلك المجتمع بأسره، وحين يقطع قدم باغ فإنه يقطع الطريق على آثار المشكلات أن تستشري، والكاتب كذلك يد المجتمع والمؤتمن على دينه، والعالم عقل المجتمع والمؤتمن على فكره، والقرآن يصور مشكلات الشباب النابعة من الخلل في استعمال الأعضاء البشرية، وثمة خمسة مطالب هنا:

المطلب الأول: تصوير أثر عدم تعظيم الوحيين على فكر المجتمع

إن بعض تفاسير القرآن اتجهت في جملتها لإيضاح تلك العلاقة بين الوحي القرآني والمجتمع حتى كادت تكون لونًا تفسيريًا خاصًا، ولقد جاء الأمر مرتين (اقرأ) (اقرأ) في أول سورة نزلت توطئة للحديث عن مشكلة اجتماعية (الطغيان)! ولو تفكر المرء في ختام القرآن لوجده يتحدث في كل سورة عن مشكلة ومن ثم يضع لها حلولًا على اختلاف أنواع المشاكل المطروحة، وكأن في هذا الجزء اختصارًا لجميع ما مر في القرآن، أو فلنقل إنها السور المكية الأولى التي جاءت والعالم يعج بمشكلات لا حصر لها فجاء القرآن بلسمًا للجروح، يطببها طورًا بالإنذار وطورًا بالإعذار وطورًا بالتهديد بيوم القيامة وطورًا بعرض ما حصل في التاريخ

لأقوام لم يستجيبوا للعلاج الدوائي فكان الكي آخر طبهم، ولو استعرضنا هذا الجزء لوجدناه يدعو إلى التوحيد الخالص لبناء الإنسان فكريًا وتخليصه من الشوائب ولو عرضنا لهذه السور المكية المتسلسلة من القرآن الكريم لوجدناها تربط على نحو وثيق بين ضرورة التوجه إلى الخالق الواحد سبحانه وفي الوقت ذاته تعالج كل سورة من السور مشكلة من المشكلات الاجتماعية رابطة بينها وبين الإخلال بالعقيدة، وبنظرة عجلى على هذا الجزء نجد أن سورة عم تصور مشكلة واحدة من الجدل بأساليب مختلفة، وسورة النازعات تعالج قضية دعوية وتمهد لقصة في السورة بعدها، وسورة عبس تعالج موضوعًا دعويًا، وسورة المطففين تعالج مشكلة التطفيف، وسورة الانشقاق تعالج مشكلة عقيدية، وسورة البروج تصور مشكلة الطغيان والاستبداد، وسورة الأعلى تصور مشكلة إيثار الحياة الدنيا، وسورة الفجر تصور مشكلة البخل والنظرة إلى المال، وسورة الشمس تصور مشكلة تزكية النفس، وسورة الليل تعالج مشكلة مالية، وسورة الضحى تعالج مسألة ضرورة الثقة بأفعال الله، وسورة الشرح تصور علاج المشكلات النفسية، وسورة التين تصور مشكلة التسفل الأخلاقي، وسورة اقرأ تصور العلاقة بين الجهل والطغيان، وسورة القدر وفيها أن السلام هو العلاج، وسورة البينة تعالج مشكلة التفرق، وسورة الزلزلة وسورة القارعة فيهما علاج مشكلة من يتقال العمل، وسورة التكاثر تعالج مشكلة الترف، وسورة العصر تعالج مشكلة هدر الزمن، وسورة الهمزة تعالج مشكلة الكبر، وسورة قريش تعالج مشكلة الجوع والخوف، وسورة الماعون تتحدث عن علاقة التكذيب بمشكلات اجتماعية، وسورة الكافرون تعالج مشكلة التشبه والتمييع وعدم المفاصلة، وسورة النصر تعالج مسألة تربوية في حال النصر وما يجب عنده، وسورة المسد تعالج مشكلة توظيف الطاقات في الصد عن الدعوة، وسورة الإخلاص تعالج مشكلات في التوحيد، وسورة الفلق تعالج مشكلة السحر والشعوذة، وسورة الناس وفيها علاج مشكلة الوسواس.

وكل سورة من سور القرآن ذات مجال متخصص في علاج هذا الموضوع الواحد كما يقول سيد قطب، تتجمع على الموضوع والغاية، ثم تأخذ بعد ذلك سماتها المستقلة، وطرائقها المتميزة ومجالها المتخصص في علاج هذا الموضوع، وتحقيق هذه الغاية[1].

---

(١) "في ظلال القرآن" (٣ / ١٢٤٣)

والبيـان القرآني الكـريم أولى آفات المجتمع وإصلاح الشبـاب أهمية كبرى ومن أخطر مشكلاتهـم: عدم الأدب مع هذا الوحي الذي يعالجهم، وهـذا عائد إلى أمرين: أولهما عدم تدبـر القرآن مع أن تلك هي الغاية من إنزاله، وتدبره يكون بالنظر إلى ما وراء وراء الألفاظ مـن معـان إلى أن يصل إلى أبعد مدى يحتمله النص وتوافقـه عليه اللغة وأقوال العلماء على مـا هـو معلوم من الضوابط، إضافـة إلى إعمال الفكر والاجتهاد فيه بمـا يشي به لفظ تفعل مـن الكثرة وبذل الجهد، وثانيهما: عدم التأدب مـع السنة إذ لا ينبغي أن يقول المؤمن كلامًا يتقـدم به كلام الله تعالى ورسوله فقـد جاء الأمر: ﴿لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾ [الحجـرات: ١-٥]. وعقد السيوطي في "الخصائص الكـبرى" باباً سماه (باب اختصاصه صلـى الله عليه وسلم بتحـريم التقديم بين يديه ورفع الصوت فـوق صوته والجهر له بالقول وندائه من وراء الحجرات والصياح به من بعيد).

بـل يجب على كل مؤمن متى ذَكر صلـى الله عليه وسلم أو ذُكر عنده: أن يخضع ويخشع ويتوقر، ويسكن من حركته، ويأخذ من هيبته وإجلاله بما كان يأخذ به نفسه لو كان بين يديه، ويتـأدب بمـا أدبنا الله تعالى به(١). وعلامة حب النبي صلـى الله عليه وسلم ألا يقدم عليه شيئاً مهما كان شأنه.

وكـم مـن الشباب اليوم من تعرض لـه مشكلة فتحيله على الوحيـين فيأبى ذلك العلاج بحجـج مختلفة، وفي هذه الآية صورت العبارة على سبيل الاستعارة (الهجنة والشناعة فيما نهـوا عنه مـن الإقدام على أمر من الأمور دون الاحتذاء على أمثلـة الكتاب والسنة، والمعنى: ألا تقطعـوا أمراً إلا بعدما يحكمان به ويأذنان فيه، فتكونـوا إما عاملين بالوحي المنزل، وإما مقتديـن برسول الله صلى الله عليه وسلم)(٢)، وقيل: المراد بين يدي رسول الله، وذكر الله تعـالى لتعظيمه والإيـذان بجلالة محله عنده عز وجل(٣)، وقد أشـار القرآن إلى تهجين ما نهـوا عنـه وتصوير شناعته، وإلى أنهم في القبضة ترهيبـاً لهم فقال: ﴿بين يدي الله﴾ أي: الملك الذي لا يطاق انتقامه، وعبر بالرسول دون النبي بعد أن ذكر اسمه تعالى الأعظم؛ زيادة

(١) "سبل الهدى والرشاد" (٤٣٩/١١).
(٢) "الكشاف" (٣٥١/٤).
(٣) "إرشاد العقل السليم" (١١٦/٨).

في تصوير التعظيم، فقال: ﴿ورسوله﴾ أي: الذي عظمَته ظاهرة جداً، ولذلك قرن اسمه باسمه وذكره بذكره، فهو تمهيدي لما يأتي من تعظيمه)(١). وتكتمل الصورة حين يتنبه الذهن إلى أن هنالك تشبيهًا بالخادم والمخدوم، فالتقدم بين اليدين استعارة تمثيلية للقطع بالحكم بلا اقتداء ومتابعة لمن يلزم متابعته، تصويراً لهجنته وشناعته بصورة المحسوس فيما نهوا عنه، كتقدم الخادم بين يدي سيده في سيره حيث لا مصلحة(٢)، فكيف يجرؤ امرؤ على أن يقطع أمرًا ويجزم به قبل أن يقول الله ورسوله فيه حكمًا، أو يأذن فيه؟

وتبلغ المشكلة أبعد مدى حين تصل ببعض الناس من مجرد رفع الصوت وتقديم الأحكام العقلية على النصوص الشرعية إلى حد معاداة الله ورسوله وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾(٣)، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ﴾(٤). ومعنى ﴿يحادون﴾ أي: يعادون ويشاقون، وعبارة الزجّاج: المحادة: أن تكون في حدّ يخالف حدّ صاحبك، فتكون المحادة كناية عن المعاداة؛ لكونها لازمة للمعاداة(٥). وفي معاجم اللغة: حاده: عاداه وغاضبه(٦).

وقد يستبعد المرء أن يصدر هذا من مسلم ولكن ابن القيم رحمه الله أشار إلى هذا المعنى النفيس فحذر المؤمن أن يكون في الجانب الآخر إذا كان الله ورسوله صلى الله عليه وسلم في جانب؛ فإن كان ذلك يفضي إلى المشاقة والمحادة، وهذا أصلها ومنه اشتقاقها، فإن المشاقة أن يكون في شق ومن يخالفه في شق، والمحادة أن تكون في حد ويكون هو في حد، ثم يقول: ولا تستسهل هذا؛ فإن مبادئه تجر إلى غايته، وقليله يدعو إلى كثيره، ويعيد ابن القيم هذا التصرف إلى قوة الرغبة والرهبة فهناك لا تكاد تجد أحداً في الجانب الذي فيه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، بل يعدّه الناس ناقص العقل سيىء الاختيار لنفسه، وربما نسبوه إلى الجنون، وذلك من مواريث أعداء الرسل، فإنهم نسبوهم إلى الجنون لما كانوا

---

(١) "نظم الدرر" (٧/٢٢١).

(٢) "روح المعاني" (٢٦/١٣٢).

(٣) سورة المجادلة: ٥.

(٤) سورة المجادلة: ٢٠.

(٥) "معاني القرآن وإعرابه" (٥/١٣٦).

(٦) ينظر "لسان العرب" (٣/١٤١)، "تاج العروس" (٨/١٠) مادة (حدد).

في شق وجانب، والناس في شق وجانب آخر، فعلى المؤمن أن يكون في الجانب الذي فيه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وإن كان الناس كلهم في الجانب الآخر، لأنه أحمد العواقب وأفضلها، وليس للعبد شيء أنفع من ذلك في دنياه قبل آخرته. (١)

إن هذا الأسلوب البلاغي ليصور عمق المشكلة، ويحث على ضرورة لزوم الوحيين حرصًا على السلامة من المشكلات وآثارها، فإن فيهما من النصائح ما يسعد المجتمع لو امتثلها، وإنا وإن اقتصرنا على نماذج ثمة فإنما ذلك لطبيعة البحث العلمي ومن هذه النماذج ما سنذكره في المطلب الثاني..

المطلب الثاني: تصوير أثر إطلاق البصر على عرض المجتمع

ما من مشكلة أوقع عند كثير من الشباب من مشكلة الإثارة التي يتعرضون لها في كل مجالات الحياة، من بدايات المدرسة إلى المرحلة الجامعية إلى أماكن العمل، وهي الفتنة التي ما ترك الصادق المصدوق على الأمة أضر على الرجال منها، إنها المشكلة التي تظلم القلب حتى لقد جاء الحديث عن علاجها في سورة النور! ونهاهم عن الاقتراب من هذا الباب خشية ولوجه! وعلمنا أدب الحديث معهن من خلال قصتي النبيين الشابين موسى ويوسف عليهما السلام، وعلمنا أدب الحديث في الأشياء التي تخصهن كالكناية عن الجماع بالملامسة والمباشرة والإفضاء والرفث والدخول والسر(٢)، والغشيان(٣). وأخرج ابن أبي حاتم(٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (المباشرة الجماع ولكن الله يكني)(٥).

---

(١) "الفوائد" (ص ١١٥-١١٦).

(٢) سورة البقرة: ٢٣٥.

(٣) سورة الأعراف: ١٨٩.

(٤) هو الإمام العلامة الحافظ بن الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي الحنظلي الغطفاني الرازي، صاحب الكتاب النفيس "الجرح والتعديل"، ولد سنة (٢٤٠هـ)، كان بحراً لا تكدره الدلاء، وكان الله قد كساه الله نوراً وبهاءً يسر الناظر إليه، وله أيضاً "المسند"، و"التفسير"، و"الزهد"، و"الكنى"، و"العلل"، و"الفوائد الكبير"، توفي سنة (٣٢٧هـ) بالري، وله بضع وثمانون، ينظر "سير أعلام النبلاء" (٢٦٣/١٣)، "تذكرة الحفاظ" (٨٢٩/٣)، "طبقات الشافعية الكبرى" (٣٢٤/٣)، "شذرات الذهب" (١٣٩/٤).

(٥) أخرجه سعيد بن منصور في "سننه" (١٢٦٢) ح(٦٤٠)، والطبري في "تفسيره" (٩٣٦/٢) ح(٢٩٤٥) و(٢٩٥٠)، و(٢٣٣٩/٣-٢٣٤٠) ح(٩٥٩٧) و(٩٦٠٦)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (١٦٨١)، وفي "فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير" للشوكاني (٤٧٤/١) عزاه إلى ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر، وفيه قصة.

وأخـرج عنه قال: (إن الله كريم يكني ما شـاء، وإن الرفث هو الجماع) (١). وكنى عن طلبه بالمـراودة (٢)، وعنـه أو عن المعانقة باللباس(٣)، وبالحـرث(٤)، وقد حذر الشارع من كل بـاب يمكن أن يولج إلى الحرام فأحاط المؤمن بسياج من الأوامر والنواهي وضرب على كثير مـن المعاني السافرة حجابًـا لغويًا، وطلب إلى أهل الفن رعاية هذا الأدب الجم في أكتوباتهم وقصائدهـم، وتعددت الطرائق الشرعية في ذم هذا المسلك، بوصفه أولًا بالفاحشة والسبيل السيء، وهددت فاعله بالجلد أو الرجم حتى الموت، ذلك أن البناء الذي يسعى في هدمه لا بد وأن يرمـى بحجارته. ونهى عـن اتهام العفيفات الحرائر به فجعلهن في حصن حصين وشبه من يرميهن بالكلام الفاحش كمن يرمي حصنًا بحجر، وهيهات أن يناله!

المطلب الثالث: تصوير أثر إطلاق اليد على دين المجتمع

ينعى القرآن على نوع من الشعراء يتخذ من الشعر الذي هو كلام فحسنه حسن وقبيحه قبيـح لينحو فيـه منحى الإقذاع والشتائم واللغو من القول بقولـه تعالى: ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون﴾ [الشعراء: ٢٢٤-٢٢٥]. وسبب ذلك الذم أنهم يقبحون الحسن ويحسنون القبيح! وفي الحديـث: "لأن يمتلئ جوف رجل قيحاً حتى يريه خير له من أن يمتلئ شعراً" (٥). ولعل النعـي لا يقتصر على أولئك الشعراء فإن العلة هـي أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون، وهذا يشمل ذلك الكتاب والأدباء الذين اتخذوا الأدب حرفة ووسيلة للشهرة بقدر ما يتحللون فيه من ضوابط الأدب فكيف بمن يتعمد في كتاباته إضلال الشباب حتى ليقال لما يسمى أدبًا: أدب هذا أم ماذا؟ وغدا أوسع الاتواع انتشارًا ما يسمى الأدب المكشوف حينًا ولذة النصـ حينًا آخر، ودعوى حرية الكتابـة في الفنون المثيرة لغرائز الشباب، التي أطلقت يدها

(١) أخرجه الطبري في "تفسيره" (٢/٩٢٨-١٠٤٩) ح(٢٩١٢) و(٣٥٨٣)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (١٨٢٤)، وابن أبي شيبة في "مصنفه" (١٣٢٣٠).

(٢) سورة يوسف: ٢٣.

(٣) سورة البقرة: ١٨٧.

(٤) سورة البقرة: ٢٢٣.

(٥) "صحيح البخاري" (٦١٥٥)، "صحيح مسلم" (٢٢٥٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفي الباب عن غيره.

علـى صفحـات الشابكة متاحًا لكل الشباب بضغطة زر، والخطاب في الآية (ألم تر) – على مـا قيل- هو لكل من تتأتى منه الرؤية فحالهم من الظهور والانكشاف اليوم بحيث لا تختص برؤيـة راء دون راء، فلا يـكاد الكاتب منهم يخط بيده سطـرًا إلا ويتابعه الملايين بالإعجاب والمشـاركات مـع أن هؤلاء الشعراء والأدباء والكتـاب في كل شعب من شعاب الوهم والخيال، وكل مسلـك من مسالـك الغي والضلال، يهيمـون على وجوههم لا يهتـدون، بل يتحيرون في فيـافي الغواية والسفاهة، ويتيهـون في تيه المجون والوقاحة، دينهم وديدنهم تمزيق الأعراض المحميـة، والقدح في الأنساب الطاهـرة السنية، والتسيب بالحرام والغزل والتردد بين طرفي الإفـراط والتفريـط في المدح والهجاء(١). وهذا مـا تكاد تراه كلما فتحـت وسائل التواصل الاجتماعـي لذا توقفك الآية على معنى لطيف للهيـام وهو الحيرة والتردد في المرعى! فالواد على ما هو معلوم: المنخفض بين عُدوتين، وإنما ترعى الإبل الأودية إذا أقحلت الرُبى، والربى أجود كلأ، فمُثّل حال الشعراء بحال الإبل الراعية في الأودية متحيرة؛ لأن الشعراء في حرص علـى القول لاختلاب النفوس(٢)، باستثناء المؤمنين، وإنك لترى في بعض الكتبة اليوم تكلف الصنعة، والخروج إلى المباهاة، هممهم جمع الإعجابات وشغفهم أن ينادى عليهم في البلغاء، رغبـة في المنافسـة والمغالبة، وإعادة تغريد أكتوباتهم، ومن غلـب الشيطان عليه هذه الغلبة، كانـت حاله داعية إلى قول الزور، والفخر بالكذب، وصـرف الرغبة إلى الناس والإفراط في المديح والذم، ولقد نزه الله رسوله صلى الله عليه وسلم عن قول الشعر فلم يعلمه إياه. (٣)

المطلب الرابع: تصوير أثر إطلاق اللسـان وتلقف السمع لآفاته على نسيج المجتمع

صـور القـرآن وكذا السنـة الكثير من معايـب اللسان وهـو مصدر مشـكلات الشباب والشابـات اليـوم فقد ورد في الغيبة (٤) مثلًا غير ما نص يقبح هذا الفعل بطريقة التصوير

(١) "إرشاد العقل السليم" (٦/٢٧٠)، وينظر "الكشاف" (٣/٣٤٨).

(٢) "التحرير والتنوير" (١٩/٢٠٩).

(٣) وانظـر لهذا المعنى: "البيـان والتبيين" لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيـق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت (٤/٢٩-٣٠).

(٤) "الزواجر عن اقتراف الكبائر" (٢/٥٤٢).

لماله من أثر على تفكك بنيان المجتمع المسلم، ولعل وجوده بين الشباب موشر على عطالتهم وفراغهم وانشغالهم بسفساف الأمور، ولولا أثرها العظيم لما كانت الكلمة الواحدة منه "لو مزجت بماء البحر لمزجته" (١) بمعنى: أنتنته وغيرت رائحته، وخالطته بحيث يتغير طعمه أو ريحه؛ لشدة نتنها وقبحها، (وهذا الحديث من أبلغ الزواجر عن الغيبة(٢).) وماء البحر لا يتغير كما يتغير الماء العذب بأقل ما يلقى فيه بل لا بد من شيء كبير يترك فيه الأثر، فما أخوفه من أثر!

وإن له لأثرًا في المجتمع على صغر الكلمة وكبر المجتمع كما للقاذورة من أثر على مياه البحر مهما صغرت ومهما عظم! وهذه الصورة المخيفة لكلمة الغيبة لا تقل عن أثرها الحاصل يوم القيامة الذي صوره حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "لمَّا عُرج بي؛ مررت بقوم لهم أظفار من نحاس، يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويعقون في أعراضهم" (٣). فما أقبح هذا المآل، ولو أنه كان مستحضرًا في عقل المجتمع المسلم لعزف عنه الشباب عزوفهم عن مثل هذا المنظر وفرارهم منه.

وكل هذه النصوص التي تقدمت تشير إلى قبح الغيبة في حين أن النص القرآني الذي في سورة الحجرات يتخذ من الاستعارة طريقاً لتقبيح الغيبة٤، وذلك في قوله تعالى: ﴿ أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتًا فكرهتموه﴾ [الحجرات: ١٢]، ولله كم في هذا النص

---

(١) أخرجه أحمد في "مسنده" (١٨٩/٦)، والترمذي في "سننه" (٢٥٠٢) و(٢٥٠٣)، وأبو داود في "سننه" (٤٨٧٥).

(٢) "رياض الصالحين" (ص ٢٧٨).

(٣) أخرجه أحمد في "مسنده" (٢٢٤/٣)، وأبو داود في "سننه" (٤٨٧٨).

(٤) لكن قبل الوقوف على هذه الاستعارة، تجمُل العودة إلى الآية التي سبقت بما فيه تقبيح ثم ألحقت بما فيه تقبيح كذلك، فالآية التي قبلها هي قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

ومعناها بئس الذكر المرتفع للمؤمنين أن يذكروا بالفسق بعد دخولهم الإيمان أو اشتهارهم به؛ (والمراد به إما تهجين نسبة الكفر والفسوق إلى المؤمنين خصوصاً، أو الدلالة على أن التنابز فسق، والجمع بينه وبين الإيمان قبيح) "إرشاد العقل السليم" (١٢١/٨).

من مؤكدات على التقبيح سوى الاستعارة، والتي هي موضع الشاهد١ ، فالهمزة للاستفهام الإنكاري، الذي يسري حكمه كما يرى بديع الزمان النورسي إلى جميع كلمات الآية، فهو يرى أن كل كلمة منها تتضمن حكماً؛ ففي الكلمة الأولى يقف عند تخاطب الآية الكريمة بالهمزة: أليس لكم عقل -وهو محل السؤال والجواب- ليعي هذا الأمر القبيح؟ ثم يقف عند الكلمة الثانية ﴿أيحب﴾ التي تخاطب الآية بالهمزة وكأنها تقول: هل فسد قلبكم -وهو محل الحب والبغض- حتى أصبح يحب أكره الأشياء وأشدها تنفيراً؟ وفي الكلمة الثالثة ﴿أحدكم﴾ يقف عند الأثر الاجتماعي للغيبة إذ يرى أن الهمزة تعني الإنكار على الحياة الاجتماعية -التي تستمد حيويتها من حيوية الجماعة- تقول: ما بال مدنيتكم وحضارتكم حتى أصبحت ترضى بما يسمم حياتكم ويعكر صفوكم، وفي الكلمة الرابعة ﴿أن يأكل لحم﴾ تخاطب بالهمزة: ماذا أصابت إنسانيتكم حتى أصبحتم تفترسون صديقكم الحميم، وفي الكلمة الخامسة ﴿أخيه﴾ تخاطب بالهمزة: أليس بكم رأفة ببني جنسكم، أليس لكم صلة رحم تربطكم معهم حتى أصبحتم تفتكون بمن هو أخوكم من عدة جهات، وتنهشون شخصه المعنوي المظلوم نهشاً قاسياً، أيملك عقلاً من يعضّ عضواً من جسمه؟ أوَليس هو بمجنون؟! وفي الكلمة السادسة ﴿فكرهتموه﴾ تخاطب بالهمزة: أين وجدانكم؟ أفَسدتْ فطرتكم حتى أصبحتم تجترحون أبغض الأشياء وأفسدها - وهو أكل لحم أخيكم - في الوقت الذي هو جدير بكل احترام وتوقير) (٢)، إن الهمزة التي بدأت بها الآية لتحمل في رأسها أداة تلتقط صورة لكل كلمة هنا، تصور قبيح أثر هذه الكلمة على المجتمع المسلم، تخاطبه بكلمة كلمة تستنكر عليه هذه الفعلة الشنعاء.

ويلتفت العلامة عبد الرحمن حبنكة الميداني إلى قضية أخرى تتصل بهذه الآية وقد سماها: التكامل في أساليب البيان القرآني بين الأشباه والنظائر، حيث كلّ نَهْي هنا قد انْفَرد بلَوْن تَعْبيري ذي دلالة خاصّة قابلةٍ لأن تكون شاملةً لسائر القبائح الّتي جاء في النصّ النَّهْيُ عنْهَا، وأنَّهُ يَصِحُّ في كلٍّ منْها استعْمالُ التعبيراتِ الأُخرى لتؤدِّيَ فيه دَلالاتِها، وتنصب

(١) ولعل العلامة ابن عاشور قد تكفل بجزء كبير من هذه الأنواع حين فصلها في "التحرير والتنوير" (٢٦/٢٥٥-٢٥٦). وكذا البقاعي في "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور" (٧/٢٣٠).

(٢) "الكلمات" (ص ٤٤٠).

بالجملة على الآثار الاجتماعية المترتبة على القيام بهذه المنكرات، ومع اختلاف أدوات النهي بين المنهيات الواردة إلا أنها تحمل في طياتها جميعًا بقية الأساليب وإن لم تنص عليها..

وبعد عرضه المفصل لرؤيته تلك عن الأسلوب البديع الدّالّ على التكامل في الصِّيغ المختارة لكل صنف من هذه القبائح السّت، وكيف اخْتِيرَ لكلّ قبيحة منْها صيغَةُ التعبير الّتي تدُلُّ عَلى أبْرَزِ صُورَةٍ من صُورِها، يختتم هذا العرض بقوله: وهذا من الدّقّةِ الفكريّة، والبراعةِ والإبْدَاعِ الفَنّي١.

(١) فالسخريةُ تغلبُ فيها المشاركة الجماعيّة، إذِ السّاخِرُ يضْحَكُ بسُخْرِيته آخرون، فيكونون مشاركين له في عمله، فجاء التعبير فيها بأسْلُوب: "لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قوم ...وَلاَ نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ." وجاء في هذا التعبير إفراد النساء عن الذكور، لأنّ الغالبَ أنْ لا يسْخَرَ الرّجالُ من النساء، ولا يسْخَرَ النساءُ من الرجال، وللإشارة ضِمْنَاً إلى أنّ المجتمعات الإسلاميّة هي مجتمعاتٌ غيرُ مختلطة في الغالب من الأحوال، فتقِلُّ فيها السُّخْرِيَةُ بيْنَ الصّنفين، والخطابُ في النّصّ قد بدأ بنداءِ الّذين آمَنُوا. وأسلوبُ هذا التعبير يَصْلُحُ تَعْميمُهُ على القبائح السّت..

واللّمْزُ يَغْلِبُ فيه الْعَمَلُ الفرديّ الخفيُّ، الّذي يُدْرِكُهُ أهْلُ الفطانة والنّباهة، فجاء التعبير بأسلوب: ﴿وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ وللدّلالَـة أيْضـاً عَلى أنَّ مَنْ لَمَزَ أخاهُ المؤمنَ فكأنّما لَمَز نَفْسه، لأن المؤمنين هم بمثابة الجسَد الواحد. وهذا المعنى مع أسلوب التعبير يصْلُحُ تعميمُهُ على سائر القبائح السّت، فنقول: "لاَ تَسْخَرُوا مِنْ أنفسكم – لاَ تَبْزوا أنفسكُمْ بالألقاب – اجْتَنِبوا كثيراً منَ الظّنّ في أنْفُسَكُمْ –لاَ تَجَسَّسُوا على أنْفُسكُمْ–لاَ تَغْتَابُوا أنْفُسَكُمْ."

والنَّبْزُ باللّقَب، وهوَ الشَّتْمُ بالألْقَاب القبيحَة، عَمَلٌ تَغْلِبُ فيه المشاركَةُ بيْنَ فَرِيقَيْن، فَمَنْ نَبَزَ غَيْرَهُ رَدّ عَلَيْه المَنْبُوزُ غالباً بمثْلِ قَوْلِه، أوْ بأقْبَحَ منْه، انتقاماً لنفسه، فالتنابُزُ كالتَّقَاتُل، من أجل ذلك جاء التعبير بأسلوب: ﴿وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ﴾. وهذا المعنى مع أسلوب التعبير يصْلُحُ تعميمه على سائر القبائح السّتّ، فنقول فيها: "لاَ تَتَساخَرُوا – لاَ تَتَلامَزُوا – لاَ تَتَرَامَوْا بكثير من الظّنّ–لاَ تتعامَلُوا فيما بينكُمْ بالتَّجَسُّس–لاَ تترامَوْا فيما بينكُمْ بالغيبة."

وأفضل وسيلة لترك الظنّ الذي يأثم به صاحبُه، هو اجتنابُ كثيرٍ من الظّنّ، لأنّ من جرى مع ظُنونه أو صلَتَهُ إلى ما يأثَمُ به حتماً، لِمَا لاتّباع الظنّ من مزالق، وتسلُّط على النفوس، فجاء التعبير فيه بأسْلُوب الأمر بالاجتناب، أي: بالابْتعاد عنْ كثيرٍ مِنَ الظّنّ: ﴿ياأيها الذين آمَنُوا اجتنبوا كَثِيراً مِّنَ الظن إِنَّ بَعْضَ الظن إِثْمٌ﴾ وأسلوبُ الأمر بالاجتناب يَصْلُحُ تعميمه على سائر القبائح السّتّ، ففي الابتعاد عن حُدودها سلامةٌ وحفظ وورعٌ محمود، فنقول فيها: "اجتنوا السُّخْرِية – اجْتَنِبوا اللّمز – اجتنبوا التنابُزَ والنّبْزَ بالألقاب – اجتنبوا التجسُّس – اجتنبوا الغيبة."

والتجسُّس يغْلبُ فيه العملُ الفرديّ الذي يستخفي به فاعله فجاء التعبيرُ فيه بأسْلُوب: ﴿وَلاَ تَجَسَّسُوا﴾ فالنهيّ للجماعة عمّا يمكنُ أن يقوم به كلّ فرد منْهُم هو نهيٌ موجّه لكل فرد، وأسلوبُ هذا التعبير يصْلُح تعميمُه على سائر القبائح السّتّ: فنقول فيها: "لاَ تَسْخَرُوا – لاَ تَلْمِزُوا – لاَ تَنْبِزُوا بالألقاب – لا تَتَّبِعُوا كثيراً مِنَ الظنّ – لاَ تغتابُوا."

ولا غـرو بعد كل هذا التحذير أن نرى الهلاك للمغتابين الذين يهلكون بنيان المجتمع بما يفسدونـه من العلاقات فعن أسامة بن شريك رضي الله عنـه قال: شهدتُ الأعراب يسألون النبي صلّى الله عليه وسلّم أعلينا حرج في كذا؟ أعلينا حرج في كذا؟ - لأشياء ليس بها بأس - فقال لهم: "عباد الله؛ وضع الله الحرج إلا من اقترض من عرض أخيه شيئاً، فذلك الذي حرج وهلك"(١). ومعنى: اقترض؛ أي: اقتطع، والمراد: أنه نال من أخيه المسلم بالطعن فيه. ولا عجب كذلك أن يأخذ هذا الفعل بعض أوصاف الربا كما ورد عن سعيد بن زيد عن النبي صلّى الله عليه وسلّم قال: "إن من أربى الرِّبا الاستطالة في عرض المسلم بغير حق"(٢).

وتلتقي بالغيبة النميمة في الهدف وإن اختلفت الوسيلة فهي نقل الكلام من الغير بقصد الإضرار، ولذا فقد قبح القرآن صورة القائم عليها والساعي فيها عن طريق الاستعارة بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة﴾ [التوبة: ٤٧]. فالنمائم في الآية أشبه ما تكون بالركائب في جريانها وانتقالها، وفي الحديث: "وأما هذا؛ فكان يمشي بالنميمة"(٣)، وفي المسنـد: "ألا أنبئكم بشراركم؟" قالوا: بلى، قال: "المشاؤون بالنميمة"(٤)، والمشي رمز

والغيبـة ظاهـرة من ظواهر القبائح الاجتماعية، التي يـؤذي أو يَضُرُّ بهَا النَّاسُ بعضُهم بعضـاً، إذْ فيها مُغْتَابٌ وسامـع مشـاركٌ لَهُ أو أكثر، فجاء التعبيرُ في النهي عنها بأسلوب: ﴿وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً﴾ وهذا الأسلوبُ من التعبـيرُ يَصْلُـحُ تعميمُـه على سائر القبائح السّتّ، فنقولُ فيهـا: "لاَ يَسْخَرْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ - لاَ يَلْمِزْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً - لاَ يَنْبِزْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً - لاَ يَتَّبِعْ بَعْضُكُمْ كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ بِبَعْضٍ - لاَ يتجسَّسْ بَعْضُكُمْ عَلَى بعض."

بعـد هـذا الشرح المفصّل أقول: إنّ المتدبّر الْفَطِن يكشفُ أنّ جمع هـذه التعبيرات ذوات الأداء المختلف، في نصٍّ واحد قد جمع عدّة رذائل اجتماعيّة، هي أشباهٌ ونظائر فيما بينها ويُمْكن أن يوضع لها عنوان واحد، بغيَة النهي عَنْها والتحْذِير مِنْها، يُشْعِر بأنّ كلّ تعبير منها يَصْلُح تعميمُهُ واستعماله في سائرها.

انظر: البلاغة العربية للميداني (٢/٣٣٩).

(١) أخرجـه ابـن خزيمـة في "صحيحـه" (٢٧٧٤)، وابن حبان في "صحيحـه" (٤٨٦)، وابن ماجـه في "سننه" (٣٤٣٦)، والبيهقي في "الكبرى" (١٠/٢٤٦)، وغيرهم.

(٢) أخرجه أحمد في "مسنده" (١/١٩٠)، وأبو داود في "سننه" (٤٨٧٦).

(٣) أخرجـه البخـاري في "صحيحه" (٦٠٥٢)، ومسلـم في "صحيحه" (٢٩٢) من حديـث ابن عباس رضي الله عنهما، وأطرافه في "البخاري" عند الحديث (٢١٦).

(٤) أخرجـه أحمـد في "مسنـده" (٦/٤٥٩)، وابـن راهويـه في "مسنـده" (٢٣٠٦)، والطـبراني في "الكبـير" (٢٤/١٦٧) (٤٢٣) مـن حديـث أسماء بنت يزيـد الأنصارية رضي الله عنها، وفي البـاب من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه أخرجه البزار في "مسنده" (٢٧١٩)، والشاشي في "مسنده" (١٣١٥)، ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه أخرجه الطبراني في "الأوسط" (٧٦٩٣)، و"الصغير" (٨٣٦)، ومن حديث عبد الرحمن بن غنم رضي الله عنه أخرجه أحمد في "مسنده" (٤/٢٢٧).

للسعي، فالنمام يسعى إلى تهديم العلاقة بين الناس، ويمشي بقالة السوء مهتمًا بما يقوم به حاملًا معوله معه حيث مشى يقطع أواصر العلاقات ويهدم صروحها.

المطلب الخامس: تصوير الخطوات وخطر آثارها على فكر المجتمع

من أسباب مشكلات الشباب الحيرة والتيه والاضطراب، وفي القرآن تصوير للجري خلف هذا الطريق الموصل إلى ذلك التيه وعواقبه، والقرآن الكريم ما قبّح شيئاً ما قبح الكفر والشرك وطريقه وخطوات الشيطان الموصلة إليه، والتقبيح فيه كما كان للحسيات فقد كان للمعنويات، حيث قبح حالاته النفسية والعقلية والفكرية، وما يستلزم ذلك من الحالات السلوكية والاجتماعية، وقد نص القرآن في فاتحته على ضرورة المشي على الصراط المستقيم وكأنه يقول: إن وقع أقدامك على صراط الدنيا يحكي وقع أقدامك على صراط الآخرة فانظر أين تضع قدميك، ثم انتقل بعد الفاتحة إلى بيان الطريق الأول في سورة البقرة وبيان الطريق الثاني في سورة آل عمران، ومضى في توضيح الطريقين إلى نهاية القرآن الكريم حيث حذر من طريقي الشر الذي يوسوس للدخول إليه شرار الجنة والناس، وهو فيما بين ذلك يصور الحالات النفسية التي يعاني منها القائل بكلمة المشرك، فهو تائه حائر، رغب عن قول الحق الذي يضعه الموضع الصحيح الذي كرمه الله به من بين كل الخلائق، حين خلقه الله في أحسن تقويم، فأبى إلا أن يكون منكبّاً على وجهه، وورد عن ابن عباس: ﴿أحسن تقويم﴾ قال: (خلق كل شيء منكباً على وجهه إلا الإنسان) (١). ولعله يحشر على وجهه يوم القيامة من أجل هذا، ويا لها من كلمة فعلت فعلها، فقد أخرج الطبري بسنده عن قتادة، قوله: ﴿ أفمن يمشي مكبًا على وجهه أهدى﴾ [الملك: ٢٢] هو الكافر، أكب على معاصي الله في الدنيا، حشره الله يوم القيامة على وجهه، فقيل: يا نبي الله؛ كيف يحشر الكافر على وجهه؟ قال: "إن الذي أمشاه على رجليه قادرٌ أن يحشره يوم القيامة على وجهه" (٢)، وهو في "الصحيحين" و"مسند أحمد" موصولاً من حديث قتادة عن أنس رضي الله عنه: أن رجلاً قال: يا رسول الله؛ كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال: "أليس الذي أمشاه على

(١) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٨٧٠٢/١٠) (٣٧٤٩٥).
(٢) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٨١٢٦/١٠) (٣٤٣٦٩).

رجليه في الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة"، قال قتادة: بلى وعزة ربنا، ولفظ أحمد: "على وجهه في النار"(١)، ولو تتبعنا ألوان الاستعارات في هذا النص المصور لحال الناطق بكلمة الكفر وما جرته إليه تلك الكلمة الخبيثة فإننا نجد أن الآية تشتمل على ثلاث استعارات؛ فقوله: ﴿ مكبًا على وجهه ﴾ تشبيه لحال المشرك في تقسُّم أمره بين الآلهة طلباً للذي ينفعه منها الشاكّ في انتفاعه بها، بحال السائر قاصداً أرضاً معينة ليست لها طريق جادة، فهو يتتبع بنيات الطريق الملتوية، وتلتبس عليه، ولا يوقن بالطريقة التي تبلُغ إلى مقصده، فيبقى حائراً متوسماً يتعرف آثار أقدام الناس وأخفاف الإبل، فيعلم بها أن الطريق مسلوكة أو متروكة، وفي ضمن هذه التمثيلية تمثيلية أخرى مبنية عليها بقوله: ﴿ مكبًا على وجهه ﴾ بتشبيه حال المتحيّر المتطلب للآثار في الأرض، بحال المكب على وجهه في شدة اقترابه من الأرض، وقوله: ﴿ يمشي سويًا ﴾ تشبيه لحال الذي آمن بربّ واحد الواثق بنصر ربه وتأييده وبأنه مصادف للحق، بحال الماشي في طريق جادة واضحة لا ينظر إلاّ إلى اتجاه وجهه فهو مستو في سيره.)(٢).

إن الكافر حين يعثر يخر على وجهه؛ لا بصر له ولا بصيرة تهديه إلى أفضل الأماكن فقد أماله الهوى وغلبه الجهل ولم تزجره تلك المشاق ليعود إلى الجادة، الجادة الصحيحة التي عزف القرآن عن تسميتها طريقًا؛ لأنه لا يستحق ذلك(٣). وكل سبيل فيه من البلاء والخبث والوعورة بحسبه، وأخبثهم سبيل الكفر؛ فهو الجامع لهم، فالزنى من أسوء السبل، قال تعالى: ﴿ساء سبيلا﴾ [الإسراء: ٣٢]، فالزنا أحد هذه الشعب، وسبيله بئس السبيل، فهو يقود صاحبه للخيانة، ويعرضه للمهالك، وفوق ذلك كله يعرضه لعقوبة الله سبحانه، وغضبه في الدنيا والآخرة، والإسلام الصراط المستقيم، وهو جامع لشعب الخير، والكفر شعاب معوجة وعره خبيثة، فيها جماع الشر، والتصوير البديع لهذه الحالة التي يكون عليها الكافر سواء للذي يمشي على وجهه فعلاً لا على رجليه في استقامة كما خلقه الله، أو الذي يعثر في طريقه فينكب على وجهه، ثم ينهض ليعثر من جديد! فإن كليهما لا تنتهيان إلى

(١) "صحيح البخاري" (٤٧٦٠)، "صحيح مسلم" (٢٨٠٦)، "مسند أحمد" (٣/٢٢٩).
(٢) "التحرير والتنوير" (٢٩/٤٤).
(٣) "نظم الدرر" (٨/٨٠).

خــير، ولا تقارنــان بمن يسير في الطريق اللاحب المعمور، الذي يسلكه موكب الإيمان والحمد والتمجيــد، فأيهما أهدى؟ وهل الأمر في حاجة إلى جــواب؟ (إنه تجسيم الحقائق، وإطلاق الحياة في الصور، على طريقة القرآن في التعبير بالتصوير) (١).

(١) "في ظلال القرآن" (٦/٣٦٤٤).

المبحث الثالث

خصائص تصوير العلاج القرآني لمشكلات الشباب الاجتماعية

سئل أحد العلماء: لماذا ليس في القرآن سورة للطب فأجاب: لأن القرآن كله شفاء! فحين يكون العلاج من لدن حكيم خبير فإن الدواء سيحمل ألوانًا من الشفاء، وفي الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: "عليكم بالشفاءين العسل والقرآن"١، وقد سميت بعض سوره كالفاتحة بالشافية، وهي السورة التي اكتنزت معاني القرآن كله فلا ريب كان الشفاء الذي فيه فيها، بل حديث القرآن عن القرآن وأسماؤه التي نص عليها القرآن واستخلصها العلماء وأفردوا لها في التصنيف بابًا تحت مسمى أسماء القرآن، من يتتبعها يجد كثيرًا منها دالاً على الشفاء من جميع العلل، (وكثرة الأسماء تدل على شرف المسمى، أو كماله في أمر من الأمور، ... وكذلك كثرة أسماء القرآن دلّت على شرفه، وفضيلته٢) ولعلك لو تأملت في كل اسم من أسمائه لوجدت فيه علاجًا لمشكلة من المشاكل الاجتماعية أو النفسية أو العقيدية إلى غير ذلك، على أن للعلاج خصائص في الأسلوب وخصائص في المضمون:

المطلب الأول: خصائص الأسلوب البلاغي في تصوير مشكلات الشباب الاجتماعية.

من أساليب تصوير المشكلات تصويرها بطريقة تنفر السامع منها بشتى الأنواع البلاغية وقد نص على هذا غير ما واحد من العلماء فالمراغي رحمه الله (٣) يرى أن:

(١) (٧٦) صحح البيهقي في الشعب (٥١٩/٢)، وقفه على ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) "بصائر ذوي التمييز" ٨٨/١، وانظر "خصائص القرآن الكريم"، للدكتور فهد بن عبد الرحمن الرومي ص ١٢١.

(٣) هو الشيخ أحمد بن مصطفى المراغي المصري، تخرج بدار العلوم سنة (١٩٠٩م)، ثم كان مدرس الشريعة الإسلامية بها، وولي نظارة بعض المدارس، وعين أستاذاً للعربية والشريعة الإسلامية بكلية غوردون بالخرطوم، له مصنفات؛ منها: "الحسبة في الإسلام"، "الوجيز في أصول الفقه"، "تفسير المراغي"، "علوم البلاغة"، توفي بالقاهرة سنة (١٣٧١هـ-١٩٥٢م)، ينظر "الأعلام" (٢٥٨/١).

(ضـرّب المثـل في الكلام يُذكر لحال ما يناسبها، فيُظهر مـن حسنها أو قبحها ما كان خفياً، وهـو مأخوذ من ضـرب الدراهم؛ وهو حدوث أثر خاص فيها، كأنّ ضـرب المثل يُقرَع به أُذن السامع قرعاً ينفذ أثره في قلبه، ولا يظهر التأثير في النفس بتحقير شيء وتقبيحه إلاّ بتشبيهه بما جرى العرف بتحقيره ونفور النفوس منه) (١). وكذلك الفخر الرازي يرى أنه (من أراد تقبيـح طريقة عند قـوم كان الطريق فيه ضـرب الأمثـال!) (٢). (وإن للتمثيل والتنظير في الحسَـن والقبيح أثراً عظيماً في حث النفس علـى التشبه أو التجنب) (٣)، وهذه نصوص في بيان الأثر الاجتماعي للدراسات البلاغية، وسوف أبين بعضها في هذا المطلب:

المقصد الأول: تصوير مشكلات الشباب الاجتماعية عن طريق الاستعارة:

وهـي أن تريد تشبيـه الشيء بالشيء، فـلا تفصح بالتشبيه وتظهـره، وتجيء إلى اسم المشبـه. فهـو تشبيه شيء بشيء بدون إظهـاره؛ بإعارة المشبه به للمشبـه وإجرائه عليه ولها قيمـة بيانيـة في التصويـر فهي (أمد ميدانـاً، وأشد افتنانـاً، وأكثر جريانـاً، وأعجب حسناً وإحساناً، ....) (٤). والاستعارة مجاز يقوم في أساسه على المشابهة، ومن أغراض المجاز٥: التزيين والتقبيح والتنفير، والقرآن الكريم حين يصور مشكلة اجتماعية عن طريق الاستعارة فإنـه يشوه صورتها وبعالجها بذلك إذ يجعل مـن يرفع صوته من غير حاجة كصوت الحمير قـال تعـالى: ﴿ إن أنكر الأصـوات لصوت الحمير ﴾ [لقمـان: ١٩]. فقولـه : ﴿إن أنكر﴾ أي: أفظـع وأبشع وأوحش ﴿الأصوات﴾ كلها المشتركة في المكاره برفعها فوق الحاجة، وصور الرافـع صوتـه فوق الحاجة بصورة النهـاق وجعل المصوت كذلك حمـارًا مبالغة في التهجين وتنبيهًا على أنه من الكراهة بمكان فقال ﴿لصوت الحمير﴾ أي: هذا الجنس لما له من العلو المفرط من غير حاجة! وفي ذكر الحمار مع ذلك من بلاغة الشتم والذم ما ليس لغيره ولذلك

---

(١) "تفسير المراغي" (٧٠/١).

(٢) "مفاتيـح الغيـب" (٢٤/٢٨)، وغني عن القـول: إن الأمثال القرآنيـة إن كانت مرسلة لم يصـرح فيها بلفظ التشبيـه، فليسـت بموضع دراستنا هنـا، وإنما الجهد ينصب علـى التشبيهية التي تسمى بالتشبيـه التمثيلي أو التشبيه المركب، ما سبق منها بـ "مثل" أو "ضرب" ومشتقاتها.

(٣) "التحرير والتنوير" (٣٠٤/٩).

(٤) "أسرار البلاغة" لعبد القاهر الجرجاني (ص ٣٢).

(٥) "البلاغة علومها وأفنانها" لعبد الرحمن الميداني (٦٣٥/١)

يستهجن التصريح باسمه بل يكنون عنه ويرغبون عن التصريح به فيقولون الطويل الأذنين كما يكنى عن الأشياء المستقذرة وقد عد في مساوئ الأداب أن يجري ذكر الحمار في مجلس قوم من ذوي المروءة) (١).

وبالاستعارة شوه كذلك مشكلة عظيمة يقع بها الشباب وهم ﴿ينقضون عهد الله﴾ [البقرة: ٢٧]. بمعنى يبطلونه، وقد عدها ابن عاشور رحمه الله تعالى من مخترعات٢ القرآن، لأنها بنيت على ما شاع في كلام العرب في تشبيه العهد وكل ما فيه وصل بالحبل، وهو تشبيه شائع في كلامهم، لكن الحديث هنا يتناول وجه اختيار استعارة النقض - الذي هو حل طَيَّات الحبل - إلى إبطال العهد: أنها تمثيل لإبطال العهد رويداً رويداً، وفي أزمنة متكررة ومعالجة، والنقض أبلغ في الدلالة على الإبطال من القطع والصرم ونحوهما؛ لأن في النقض إفساداً لهيأة الحبل، وزوال رجاء عودها، وأما القطع؛ فهو تجزئة) (٣). وإفساد الهيئة نوع من أنواع التقبيح لمخالفتها ما هو كمالها، وفي قوله: (﴿أولئك﴾ إشارة إلى الفاسقين باعتبار اتصافهم بما فصل من الصفات القبيحة، وفيه إيذان بأنهم متميزون بها أكمل تميز، ومنتظمون بسبب ذلك في سلك الأمور المحسوسة وما فيه من معنى البعد؛ للدلالة على بعد منزلتهم في الفساد) (٤).

كما جاء تصوير قبيح نقض العهد في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مِّعْرِضُونَ ﴾ [البقرة: ٨٣]. التي ختمت بالجملة الحالية ﴿وأنتم معرضون﴾ تقبيحاً لفعلهم من نقض العهود والإعراض عن الحق، ويقودنا التصوير بالحال في هذه الآية إلى أسلوب قرآني في تصوير مشكلات الشباب وهو التصوير بالحال:

---

(١) "السراج المنير" لشمس الدين محمد بن أحمد الشربيني، دار الكتب العلمية ـ بيروت (٢٤١/٣).

(٢) وكان الباحث قد عثر على هذا النص في "سيرة ابن هشام" يقول فيه : (قدم وفد همدان على رسول الله صلى الله عليه وسلم... فلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مرجعه من تبوك، فقام مالك بن نمط بين يديه فقال: يا رسول الله؛ نَصِيَّةٌ من هَمْدان من كل حاضر وباد، ... عهدهم لا يُنقَض ما أقامت لعلع، وما جرى اليعفور بصَلَّع) كما في "سيرة ابن هشام" (٢٥٢/٤-٢٥٤)، وينظر "غريب الحديث" لابن قتيبة (٥٤٨/١).

(٣) "التحرير والتنوير" (٣٦٨/١).

(٤) "إرشاد العقل السليم" (٧٥/١-٧٦).

المقصد الثاني: تصوير مشكلات الشباب الاجتماعية عن طريق الحال:

عرض عبد القاهر لجملة الحال في دلائل الإعجاز، وصور القرآن بها مشكلة اجتماعية متفشية وهي الكذب وذلك بإتيانه بجملة حالية اسمية مصدرة بضمير الغائب في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [المجادلة: ١٤]. فجاءت الجملة تقبيحاً لفعلهم وتشنيعاً عليهم، ولأن الحديث يخص هؤلاء المنافقين بذواتهم، وقد جاء بالضمير ﴿هم﴾ مقدماً على الخبر الفعلي، وذلك أنكى وأشنع، يقول القونوي: (وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي؛ لتقوية الحكم لا للحصر، إلا أن يقال: إنه للحصر بالإضافة إلى المؤمنين) (١)، وبهذا التركيب أدى الأسلوب القرآني الغرض الدلالي للجملة من التقبيح والتشنيع، فقوله تعالى: ﴿وأنتم تعلمون﴾ (حال من فاعل يحلفون مفيدة لكمال شناعة ما فعلوا؛ فإن الحلف على ما يعلم أنه كذب غاية القبح) (٢).

وفي آية أخرى يذكر تكذيب الأقوام لما جاء به النبي وذلك في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٧]. فقوله: (﴿وكذبتم به ﴾ إما جملة مستأنفة أو حالية بتقدير "قد" أو بدونه، جيء بها لاستقباح مضمونها واستبعاد وقوعه مع تحقق ما يقتضي عدمه من غاية وضوح البينة، والضمير المجرور لـ"البينة" والتذكير باعتبار المعنى المراد، والمعنى: إني على بينة عظيمة كائنة من ربي وكذبتم بها وبما فيها من الأخبار التي من جملتها الوعيد بمجيء العذاب) (٣).

وفي تصويره لقبيح افتراء الكذب استعمل كذلك أسلوب الحال في قوله تعالى: ﴿ انظر كيف يفترون على الله الكذب ﴾ [النساء: ٥٠]. فقوله: (﴿انظر كيف يفترون على الله الكذب ﴾: ﴿كيف﴾: نصب إما على التشبيه بالظرف أو بالحال على الخلاف المشهور بين

(١) "حاشية القونوي على تفسير البيضاوي" لعصام الدين أبي المفدى إسماعيل بن محمد بن مصطفى القونوي الحنفي (٥١٣/١٨)، وانظر "سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر" (٢٩٤/١).

(٢) "إرشاد العقل السليم" (٢٢١/٨).

(٣) "إرشاد العقل السليم" (١٤٢/٣)، وينظر "روح المعاني" (١٦٨/٧).

سيبويه والأخفش، والعامل ﴿يفترون﴾، وبه تتعلق ﴿على﴾ أي: في أي حال، أو على أي حال يفترون عليه تعالى الكذب، والمراد بيان شناعة تلك الحال وكمال فظاعتها) (١).

كما عرض لمشكلة اجتماعية وهي أكل المال بالباطل عن طريق الحال فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٨]. فقوله: ﴿وأنتم تعلمون﴾: حال مؤكدة؛ لأن المدلي بالأموال للحكام ليأكل أموال الناس عالم لا محالة بصنعه، فالمراد من هذه الحال: تشنيع الأمر وتفظيعه؛ إعلاناً بأن أكل المال بهذه الكيفية هو من الذين أكلوا أموال الناس عن عِلم وعمد، فجرمه أشد) (٢).

وكذا هيئة الأولياء في إسرافهم في أكل أموال الأيتام التي صورت بالحال قال تعالى: ﴿ ولا تأكلوها إسرافًا وبدارًا أن يكبروا﴾ [النساء: ٦]. (وانتصب ﴿إسرافًا﴾ على الحال، والمقصود تشويه حالة الأكل، و"البدار": مصدر بادره، وهو مفاعلة من البَدْر، وهو العجلة إلى الشيء، بَدَره: عجله، وبادره: عاجله، والمفاعلة هنا قصد منها تمثيل هيئة الأولياء في إسرافهم في أكل أموال محاجيرهم عند مشارفتهم البلوغ وتوقّع الأولياء سرعة إبَّانه، بحال من يبدر غيره إلى غاية والآخر يبدر إليها، فهما يتبادرانها، كأَنّ المحجور يسرع إلى البلوغ؛ ليأخذ ماله، والوصي يسرع إلى أكله؛ لكيلا يجد اليتيم ما يأخذ منه، فيذهب يدّعي عليه، ويقيم البيّنات حتّى يعجز عن إثبات حقوقه) (٣). ومن الحال إلى التقييد والإطلاق..

المقصد الثالث: مشكلات الشباب بين التقييد والإطلاق البلاغي.

يكون تقييد الفعل بالشرط، وبالوصف، وبعطف البيان، وبعطف النسق، وبالتأكيد، وبالبدل، وبالمفاعيل الخمسة، وبالنواسخ، والتقييد في أصول الفقه من المخصصات المتصلة، وبه قد صورت بعض المشكلات الاجتماعية المتفشية بين كثير من الشباب وهي الجدل من غير حجة قال تعالى: ﴿ يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم﴾ [الزمر: ٥٦]. أي: أنهم

(١) "إرشاد العقل السليم" (١٨٨/٢).
(٢) "التحرير والتنوير" (١٩٠/٢)، وينظر "نظم الدرر" (٣٥٠/١).
(٣) "التحرير والتنوير" (٢٤٤/٤).

يجادلـون مجادلة عناد وغضَب. (وفائدة هذا القيد: تشنيع مجادلتهم، وإلا فإن المجادلة في آيـات الله لا تكـون إلا بغير سلطـان؛ لأن آيات الله لا تكون مخالفة للواقـع، فهذا القيد نظير القيـد في قوله: ﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ﴾ [القصص: ٥٠]، وكذلك وصف ﴿سلطان﴾ بجملة ﴿أتاهم﴾؛ لزيادة تفظيع مجادلتهم بأنها عرية عن حجة لديهم، فهم يجادلون بما ليس لهم به علم)[١].

المقصد الرابع: دور الضمائر في تصوير مشكلات الشباب الاجتماعية.

من مشكلات المجتمع اليوم اقتتال الإخوة واستهلاك الشباب في أتون تلك المعارك بينهم وقـد قال تعالى: ﴿وإن طائفتان من المؤمنـين اقتتلوا﴾ [الحجرات: ٩]. قال في "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور": (ولما كانت الشناعة والفساد في قتال الجماعة أكثر؛ عبر بضمير الجمـع دون التثنية؛ تصويـراً لذلك بأقبح صـورة، فقال: ﴿اقتتلـوا﴾ أي: فاختلطوا بسبب القتال حتـى كانوا كالفرقة الواحدة، ﴿فأصلحوا﴾ أي: فأوقعـوا الإصلاح ليحصل الصلح، ولمـا كانـت العِبرة في الصلـح إذا وقع بين الطائفتين ما يسكن به الشـر وإن تخلف شُذّان من الجانبـين لا يعبـأ بهم، عبّر بالتثنيـة دون الجمع فقـال: ﴿بينهما﴾ أي: بالوعـظ والإرشاد الدنيوي والأخروي، ولا تظنوا أن الباغي غير مؤمن فتتجاوزوا فيه أمر الله)[٢].

وقـد يـرى بعض الشباب في عمله خيرًا أو يزين له كذلـك وإنما يتبع أهواءه، قال تعالى: ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [محمد: ١٤]، فقد زين له الشرك وسائر المعاصي كما في "تفسير أبي السعود": (مع كونه في نفسه أقبح القبائح، ﴿واتبعوا﴾ بسبب ذلك التزيين ﴿أهواءهم﴾ الزائغة، وانهمكوا في فنون الضلالات من غير أن يكـون لهـم شبهة توهم صحة مـا هم عليه، فضلاً عن حجة تدل عليـه، وجمع الضميرين الأخيرين باعتبار معنى "مَن"، كما أن إفراد الأولين باعتبار لفظها)[٣].

واستطـرد في بيـان ذلـك في "نظم الـدرر في تناسب الآيـات والسور" فقـال: (ولما كان

(١) "التحرير والتنوير" (١٧٣/٢٤).
(٢) "نظم الدرر" (٢٣٠/٧).
(٣) "إرشاد العقل السليم" (٩٥/٨).

التقدير: فرآه حسناً فعمله ملازماً له، فكان على عمى وضلال، وكان قد أفرد الضمير لقبول "مَن" له من جهة لفظها؛ جمع رداً على معناها بتعميم القبح مثنى وفرادى، وإشارة إلى أن القبيح يكون أولاً قليلاً جداً، فمتى غفل عنه فلم تحسم مادته؛ دب وانتشر، فقال عاطفاً على ما قدرته: ﴿واتبعوا أهواءهم﴾، فلا شبهة لهم في شيء من أعمالهم السيئة فضلاً عن دليل، والآية من الاحتباك، ذكر البينة أولاً؛ دليلاً على ضدها ثانياً، والتزيينَ واتباعَ الهوى ثانياً؛ دليلاً على ضدهما أولاً، وسره أنه ذكر الأصل الجامع للخير ترغيباً، والأصل الجامع للشر ترهيباً)[1].

المطلب الثاني: خصائص علاج مشكلات الشباب الاجتماعية في المضمون.

لا بد عند الحديث عن العلاج من الحديث عن خصائص تصوير المرض والمريض والعلاج ولهذا فإن هذا المطلب سيتفرع إلى ثلاثة مقاصد:

المقصد الأول: تصوير الخصائص المتعلقة بالمرض،

ومنها الشمولية والحكمة: فإن القرآن لا يدع جزئية إلا ويعالجها فهو يعالج مشكلة اجتماعية يومية، كالمجادلة التي لم يشغله سبحانه عن سماعها تدبيره لملكوت السماوات والأرض![2] وهكذا ينبغي على الشباب في مشكلاتهم أن يستشعروا شبابًا وبنات أن الله يسمعهم، وأن جزئيات حياتهم الاجتماعية ملاحظة بعين الله، كما الشأن في الأمور العظيمة التي تكرر الحديث عنها بطرائق مختلفة[3].

وفي العلاج القرآني مع شموليته حكمة ما بعدها حكمة فحين تكون المسألة في غاية الأهمية كمسألة التوحيد فإن طريقة العلاج تكون محسومة، لأنها قاعدة أساسية للتصور، ولكنها حينما تكون مشكلة عادة، كما مشكلة الخمر فإن القرآن يحرك الوجدان الديني والمنطق التشريعي إيحاء بأن تركها هو الأولى، ثم يضيق فرص المزاولة العملية لعادة الشرب

(١) "نظم الدرر" (١٥٥/٧).
(٢) "في ظلال القرآن" (٣٥٠٥/٦) بتصرف.
(٣) "في ظلال القرآن" (٦٦/١) بتصرف.

بالنهـي عنها أوقات الصلاة، ثم يأتي النهي الحـازم الأخير بتحريم الخمر والميسر[1] وهذا التـدرج يوحي بالحكمة بـأن القرآن قد جاء ليربـي أمة، والتربية تحتـاج إلى زمن، والنفس البشريـة لا تتحول بين يـوم وليلة بقراءة كتاب شامل للمنهج الجديـد. إنما تتدرج في مراقي المنهـج[2] وهـذا هو الفـرق في العلاج بين منهـج الله، ومناهـج الجاهلية قديمًـا وحديثًا على السواء![3]

ومـن الحكمة كذلـك في العلاج اعتمـاد منهج الوقايـة في حل مشكلات الشبـاب، فإنه يدعوهـم أن لا ينظروا إلى امـرأة لا تحل لهم! وأن يجتنبوا طريق الزنا، وأن لا يقربوه! وذلك بغض البصر، فالزنـا يبدأ بالنظرة الحـرام، فكأنها بريده، ولا عجـب أن يأتي الأمر بغض البصر في سورة النور، فإنه يورث القلب نورًا،

ولكنـه وهـو يعمل على الوقاية قبل أن يعمل على العلاج ، فإنه يعالج ما لم تتناوله وسائل الوقايـة. ولا يـدع عذرًا للنفس السوية أن تميل إلى الشر فالـذي يهدد أمنه هو عنصر خبيث يجب استئصاله ما لم يثب إلى الرشد والصواب وعقوبة هذا العنصر الخبيث الحرابة[4].

ومن حكمته كذلك الحكمة في اختيار الدواء فإن الأطباء يقولون لا بد من تقديم المنضج علـى سقي المسهل فإن بتناول المنضج تصير المواد الفاسـدة رخوة قابلة للزوال، فإذا سقيته المسهـل بعد ذلك حصل النقاء التـام، لذلك فقد يسمعهم التهديد والتخويف أولاً لأنه يجري مجـرى سقي المنضج أولاً، ثم يسمعهم الدليل ثانياً لأنه يجري مجرى سقي المسهل ثانياً،[5]، ولو أن الشباب يعون هذه الحقائق القرآنية ويتدبرون القرآن لوجدوا فيه أحكم علاج من لدن أحكم الحاكمين!

(١) "في ظلال القرآن" (٢٣٠/١) بتصرف.
(٢) "في ظلال القرآن" (٢٥٦٢/٥) بتصرف.
(٣) "في ظلال القرآن" (٦٦٣/٢)
(٤) "في ظلال القرآن" (٢/ ٨٧٨)
(٥) "مفاتيح الغيب" (٢١١/٢٦) بتصرف.
(٦) "مفاتيح الغيب" (٣٤/١٢)

المقصد الثاني: تصوير الخصائص المتعلقة بالعلاج:

لا شك أن العلاج هو بيت القصيد الذي يدور عليه البحث برمته، ولما كان له من الأهمية ما له فقد أفردت له بعض الفروع المتعلقة بالتصوير القرآني لها وهي:

الفرع الأول: القدرة على شفاء أعتى الأمراض لعلاج مشكلات الشباب في القرآن الكريم القدرة على حل المشكلات جميعها بداية من أمراض الروح، وعلاجها العلم بالله وبصفاته وبأحكامه١، والقرآن قادر على علاج الطبائع والجبليات كذلك، فلو تدبرنا قوله تعالى: إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إِلَّا الْمُصَلِّينَ... الْآيَاتِ. فإنه يذيل هذه الآيات بالحديث عن الصلاة والزكاة وكأنهما العلاج الأمثل للهلع والجبن الحاجم عن الإقدام في الدفاع عن الحق ومن الشح الصاد عن الإنفاق. وهو في علاجه طبيعة النفس فإنه يراعي أن هذه الطبائع لا تدعو إلى اليأس بدعوى أن هذه الطبائع طبائع لا يمكن تغييرها، وهي في المقابل لا تزدري أصحابها طالما أن عناصر الإخلاص موجود فيها[٢]، وتبقى إمكانية المعالجة واردة وإن استفحل المرض، ألا ترى تذييل الآيات المتحدثة عن الفريقين اللذين كالأعمى والأصم والسميع والبصير بقوله: أَفَلَا تَذَكَّرُونَ [هود: ٢٤]؟ وكأنه يدل بهذا التذييل على إمكانية علاج العمى الصمم!! فإن انتقلت المشكلة من مشكلة شباب أفراد إلى مشكلة أمة أحاطت بها السيئات والخطايا حتى أعزفتها عن المنهج بالكلية فإن العلاج الجذري هو الأنسب هنا حين لا تنفع العلاج الوقائية ولا التدريجية وذلك ما كان على عهد نوح، حيث ارتفعت عن أن تكون قابلة للحل فجاءهم الطوفان ، الذي يغسل التربة، لتعاد بذرة الحياة السليمة من جديد ، فتنشأ على نظافة[٣]، وقل مثل ذلك قوم فرعون[٤]، وعاد وثمود[٥].

(١) "مفاتيح الغيب" (١٦٨/١٧).
"تفسير المنار" (٤٦٨/١٠).
(٢) "في ظلال القرآن" (٧٤١/٢) بتصرف.
(٣) "في ظلال القرآن" .(٢٤٦٥/٤)
(٤) "في ظلال القرآن" (٣٩٠٤/٦)
(٥) "مفاتيح الغيب" (٩٥/٢٧)

الفرع الثاني: الواقعية، والثبوتية والاستمرارية، فمن خصائص العلاج في القرآن أنه لا يفترض المشكلات ليفترض لها حلولاً، إنما يواجه الواقع بحجمه وشكله وملابساته لصوغه في قالبه الخاص[1]. ولذا فإن المشكلات التي وقعت في حقبة ما لا بد أن تقع مرة أخرى، وافتراض وقوعها ناشيء من الطبيعة البشرية التي تكرر نفسها، وهذا ما يعطيها كذلك صفة الثبوتية فالقرآن كتاب الله المقروء إن صح القول بأن الكون كتابه المنظور وكلاهما لا يتغير، إضافة إلى أن المخاطب هي أصل الفطرة التي لا تبديل فيها ولا تغيير، وكما خاطب القرآن فطرة الشباب المؤمنين في عصر الصحابة ففطرتنا كذلك مخاطبة، لأنها تملك الاستجابة للقرآن، كما انتفع به شباب يومئذ[2]، إذ الخصائص واحدة والكتاب واحد والفطرة واحدة، والعلاج واحد.

كما يميز العلاج الاستمرارية والمتابعة فإنه لا يعطي العلاج فحسب ولكنه يعالج المشكلة ويتابع الضعف في مراحل الطريق كلما أظهرتهما الأحداث، ومن أدل الدلائل على استمرار العلاج تصويره العلاج بما يضمن بقاءه دومًا فهو حين يعالج مسألة الفقر وضرورة الإنفاق يضرب للعلاج مثلاً بقوله: "مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ ، فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ. وَاللَّهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ. وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ" فيعرض صورة من صور الحياة النابضة ، صورة الزرع الذي يعطي أضعاف ما يأخذه ، ويهب غلاته مضاعفة بالقياس إلى بذوره[3] إن هذا المشهد يتكرر أمامك كلما أقعدك الخوف عن العطاء ليستجيش فيك مشاعر البذل بأنك ستأخذ فوق ما تعطي ليزيد مالك ولا ينقص، وأن الله سيضاعف لك من خزائن رحمته، فهو علاج للبخل وللأثرة باق ما بقيت السنابل تتمايل في تلك الصورة!

وحين يعالج الجحود والأثرة والشح ، يعرض مشهد البعث والحشر في صورة تنسي حب الخير: "أَفَلا يَعْلَمُ إِذا بُعْثِرَ ما فِي الْقُبُورِ ، وَحُصِّلَ ما فِي الصُّدُورِ؟" فالجو كله عنف وشدة

(١) "في ظلال القرآن" (١٠١٠/٢)
(٢) "في ظلال القرآن" (٣٤٩/١)
(٣) "في ظلال القرآن" (٣٠٦/١)

وتعفير! أفلا يعلم إذا كان هذا؟[1]، فإن كان قد صور الخير بسنابل لا تزال نابضة حية تذكرها كلما نظرت إلى هذا المشهد، فإنه يصور لك مشهدًا قاسيًا من جنس الأرض التي تمشي عليها ليلازمك هذا الخوف من الآخرة ما لزمك هذا المرض، فكان حكمة وأية حكمة أن تعالج قضايا ثابتة بصور ثابتة، وما لا يتوقع تغييره على أرض الواقع بما لا يمكن تغييره إلا في عالم الغيب!

المقصد الثالث: تصوير الخصائص المتعلقة بالمريض:

القرآن منهج حياة كامل، وهو في علاجه يتميز بالتكامل والتناسق وعدم التعارض فيعالج النفس، ويعالج الجماعة، دون أن يدع احتمالاً من الاحتمالات المتعارضة في حياة الفرد وحياة الجماعة، بخلاف النظم البشرية فهي متأثرة بقصور الإنسان، ومن ثم فهي تقصر عن الإحاطة بجميع الاحتمالات في الوقت الواحد وقد تعالج ظاهرة فردية أو اجتماعية بدواء يؤدي بدوره إلى بروز ظاهرة أخرى تحتاج إلى علاج جديد[2].

كما أن النص القرآني يخاطب عقل المريض وقلبه وفطرته، فحين يعالج قضية تتعلق بميوله الفطرية ومشاعره فإنه يثير عنده الحساسية برقابة اللّه، وعطفه، وعونه للبشر في ضعفهم أمام ذلك الميل الفطري، الذي لا يضبطه مثل الشعور بتقوى اللّه، فيقول لهم: "وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" ولكن لا بد من مواجهة هذا الميل بحلول واقعية وهي تيسير الزواج، مع إغلاق السبل الأخرى نهائيًا فيقول: وَأَنْكِحُوا الْأَيامى مِنْكُمْ ، وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبادِكُمْ وَإِمائِكُمْ. إِنْ يَكُونُوا فُقَراءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ. وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ. وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ..." الآيات[3].

إن كل علاج يصادم الفطرة لا يفلح ولا يصلح ولا يبقى، ولا بد له من شرطي الهدى والإيمان عند متلقيه، وخبرة بالنفس البشرية عند الشافي[4] إذ إن هذا الكون مؤمن، يسبح

(١) "في ظلال القرآن" (٣٩٥٨/٦)
(٢) "في ظلال القرآن" (٢٢٥٠/٤)
(٣) "في ظلال القرآن" (٢٥١٤/٤)
(٤) "في ظلال القرآن" (١/ ١١٢)

بحمد ربه كل شيء فيه، و"الإنسان" يعيش في هذا الكون المؤمن وذرات كيانه تخضع في حركتها الفطرية للنواميس التي قدرها اللّه. فمن لا تستشعر فطرته الإيمان لهو كائن معطلة فيه أجهزة الاستقبال، والسبيل إلى علاجه هو محاولة استجاشة كوامن الفطرة في كيانه ، لعلها تتحرك، إنها وسيلة من وسائل المنهج القرآني لاستحياء القلب الإنساني لعله ينبض ويتحرك ، ويتلقى ويستجيب[1].

إن العلاج القرآني ذو غاية سامية تترجمها الآية الكريمة: "وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيماً" وهي التي جاءت في سياق متعلق بتنظيم الأسرة وتطهير المجتمع وتحديد الصورة النظيفة الوحيدة، التي يحب اللّه أن يلتقي عليها الرجال والنساء وتحريم ما عداها من الصور، فما الذي يريده اللّه وما الذي يريده الذين يتبعون الشهوات؟ فأما ما يريده اللّه فهو إرادة التنظيم، وإرادة التطهير، وأما ما يريده الذين يتبعون الشهوات فهو أن يطلقوا الغرائز من كل عقال، يريدون أن ينطلق السعار الجنسي المحموم[2] والفرق بين العلاجين شديد الوضوح فالأول علاج رباني غايته طهارة المجتمع والثاني علاج بشري غايته تفلت المجتمع وتحلله من جميع القيود.

وهكذا تبين لنا أن القرآن الكريم هو العلاج الأمثل لكل الأدواء التي تمر بها البشرية، ولا يضره إن نبتت نابتة لا تدري ما الكتاب ولا الإيمان أقنعها من أقنعها بأن الشفاء في غير القرآن، فاجتمع إليهم ذنبان: جهله وعدم إقامته، وقد قال تعالى: (إِنَّ اللّه لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللّه بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ)[3].

---

(١) "في ظلال القرآن" (١٨٢٣/٣)

(٢) "في ظلال القرآن" (٦٣١/٢)

(٣) "تفسير المنار" (٢٧٩/٨)

النتائج والتوصيات

-تعـددت الأساليب البلاغية في تصوير مشكلات الشبـاب الاجتماعية، بطرائق البيان حينًـا بالتشبيـه بالحيوانـات والدواب ونجاسـة الكفار، والمعـاني حينًا. لـذا يوصي الباحث بإماطة اللثام عن الأسرار البلاغية لتصوير كل مشكلة وحدها ودراستها في سياقها وسباقها ولحاقهـا، وأن يسخـر علم البلاغـة في خدمة علم الاجتمـاع، وأن يسخـر كلاهما في خدمة القرآن.

-يوصي الباحث بالبحث عن أسباب مشكلة من المشكلات وطريقة عرض القرآن لها في كل موضع من المواضع، وأسلوب معالجتها.

-يوصـي الباحـث بأن تجـرى دراسة شاملة لجزء القـرآن الأخير، لمعرفـة كيفية علاج القرآن للمشكلات على نحو تفصيلي دقيق.

- عنيـت الدراسـات الاحتماعية في القرآن بهذا الفن، لـذا يوصي الباحث بعمل مقارنة بـين نظـرات المفسرين حيال كل مشكلة من المشاكل، ويفترض أن هنالك طرائق مختلفة في علاجهم لمشاكل الشباب.

قائمة المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم، برواية حفص عن عاصم، مصحف المدينة المنورة، طباعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

٢. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين أبو بكر عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق: عصام فارس الحرستاني، محمد أبو صعيليك، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

٣. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: أبو السعود محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٤. إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، بديع الزمان النورسي، تحقيق إحسان صالحي.

٥. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: محمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني الشنقيطي، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

٦. إعراب القرآن الكريم وبيانه: محيي الدين الدرويش، دار اليمامة ودار ابن كثير، دمشق، ط٥، ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م.

٧. الأعلام: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٢، ١٩٩٧م.

٨. الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني، تحقيق: علي مهنا وسمير جابر، دار الفكر، بيروت.

٩. الإمتاع والمؤانسة: أبو حيان التوحيدي، تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين، دار مكتبة الحياة.

١٠. الإيضاح في علل النحو: أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي (٣٣٧هـ)، تحقيق د. مازن المبارك، دار النفائس، بيروت، ط٣، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

١١. الإيضاح في علوم البلاغة: جلال الدين أبو عبد الله محمد بن سعد الدين بن عمر الخطيب القزويني، تحقيق: بهيج غزاوي، دار إحياء العلوم، بيروت، ط٤، ١٤١٩هـ ١٩٩٨م.

١٢. البحر المحيط: أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٥م.

١٣. البرهان في علوم القرآن: أبو عبد الله محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩١هـ.

١٤. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: جلال الدين أبو بكر عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا.

١٥. البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها وصور من تطبيقاتها بهيكل جديد من طريف وتليد: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

١٦. البيان والتبيين: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت.

١٧. تاج العروس من جواهر القاموس: محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، دار الهداية.

١٨. تاج اللغة وصحاح العربية: إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٩٠م.

١٩. التبيان في البيان: شرف الدين الحسين بن عبد الله بن محمد الطيبي، تحقيق: يحيى مراد، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٠. التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، دارسحنون للنشر والتوزيع، تونس، ١٩٩٧ م.

٢١. التسهيل لعلوم التنزيل: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن جزي الغرناطي الكلبي، دار الكتاب العربي، لبنان، ط٤، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

٢٢. التعريفات: علي بن محمد بن علي الجرجاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ.

٢٣. تفسير السراج المنير: شمس الدين محمد بن أحمد الشربيني، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٤. التفسير الكبير = مفاتيح الغيب

٢٥. التقديم والتأخير جمالية التركيب: د. علي أبو القاسم عون، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٦م.

٢٦. جامع البيان عن تأويل آي القرآن: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق أحمد عبد الرزاق البكري وآخرين، دار السلام، القاهرة، ط٤، ٢٠٠٩م.

٢٧. الجدول في إعراب القرآن الكريم: صافي محمود بن عبد الرحيم، دار الرشيد، دمشق، دار الإيمان، بيروت، ١٤١٨هـ.

٢٨. الحيوان: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

٢٩. خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني د. محمد أبو موسى

٣٠. الخصائص: أبو الفتح عثمان بن جني (٣٩٢هـ)، تحقيق: محمد علي النجار، عالم الكتب، بيروت.

٣١. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون: أحمد بن يوسف السمين الحلبي، تحقيق: د. أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، ط١، ١٩٩٣م.

٣٢. الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة: شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ)، دار الجيل، بيروت، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

٣٣. دلائل الإعجاز: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٩٩٢م.

٣٤. ديوان امرئ القيس، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٥م.

٣٥. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: شهاب الدين أبو الفضل محمود الألوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣٦. سير أعلام النبلاء: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (٧٤٨هـ)، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط١٠، ١٩٩٤م.

٣٧. شرح ديوان الحماسة: أبو زكريا يحيى بن علي بن محمد الشيباني التبريزي، دار القلم، بيروت.

٣٨. صحيح البخاري: الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (٢٥٦هـ)، تحقيق: محمد زهير الناصر، دار طوق النجاة.

٣٩. الضوء اللامع لأهل القرن التاسع: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (٩٠٢هـ)، مصورة لدى دار الجيل، بيروت.

٤٠. العلم في منظوره الجديد: تأليف روبرت أو غروس وجورج استأنسير –ترجمة: كمال خلايلي

٤١. عمدة الحفاظ" للسمين الحلبي، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، مادة (م ق ت).

٤٢. عمدة القاري شرح صحيح البخاري: بدر الدين محمود بن أحمد العيني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٤٣. عناية القاضي وكفاية الراضي حاشية على "تفسير البيضاوي" : شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي، دار صادر، بيروت.

٤٤. العين: الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

٤٥. في ظلال القرآن: سيد قطب إبراهيم، دار الشروق، القاهرة.

٤٦. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٤٧. لسان العرب: جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط١.

٤٨. المحتسَب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها: أبو الفتح عثمان بن جني (٣٩٢هـ)، تحقيق: علي النجدي ناصف، ود.عبد الحليم النجار، وغيرهما، طبع المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ٢٠٠٩م.

٤٩. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري والسيد عبد العال السيد إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٢.

٥٠. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، تحقيق: بشير محمد عيون، مكتبة دار البيان، دمشق، ط١، ١٩٩٩م.

٥١. معاني القرآن وإعرابه: أبو إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج، تحقيق: د. عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.

٥٢. معاني القرآن: أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء، تحقيق: محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٥٣. معجم الأدباء: أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩١م.

٥٤. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف بن هشام الأنصاري، تحقيق: د. مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، بيروت، ط٦، ١٩٨٥م.

٥٥. مفاتيح الغيب: فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

٥٦. مفردات ألفاظ القرآن: أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، ط٣، ٢٠٠٢م

٥٧. من بلاغة القرآن: أحمد أحمد بدوي، نهضة مصر، (٢٠٠٥م).

٥٨. المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي: جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي (٨٧٤هـ)، تحقيق: د. محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤م.

٥٩. النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن: د. محمد عبد الله دراز، دار الثقافة، الدوحة، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

٦٠. نجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد: إبراهيم اليازجي، تحقيق: الأمير نديم آل ناصر الدين، مكتبة لبنان، بيروت، ط٣، ١٩٨٥هـ.

٦١. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي (٨٧٤هـ)، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مصر.

٦٢. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٢م.

تمت بحمد الله

د.عبد الواحد الوزاني

المعلومات الشخصية :

- الاسم:عبد الواحد بن عبد السلام الوزاني، من مواليد ٢٨ رمضان ١٣٩٩هـ الموافق لـ: ١٩٧٩/٨/٢٢، بفاس، المملكة المغربية.
- تخصص: أصول الفقه ومقاصد الشريعة الإسلامية.
- البريد الإلكتروني: ouazani79@gmail.com الهاتف: ٠٠٢١٢ ٦٦٢٦٢ ٥٧٨٥

المعلومات المهنية :

- أستاذ باحث
- عضو هيئة التدريس بالأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين، الدار البيضاء سطات.

التكوين الأكاديمي

- ٢٠١٣: الدكتوراه في الدراسات الإسلامية – تخصص أصول الفقه ومقاصد الشريعة الإسلامية، بميزة مشرف جدا مع التوصية بالطبع، في موضوع: "المقاصد الحاجية وتنزيلاتها الفقهية – دراسة أصولية فقهية مقارنة" من كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز – فاس
- ٢٠٠٧: دبلوم الدراسات العليا المعمقة - تخصص الدراسات الفقهية المقارنة بميزة حسن، من كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز – فاس
- ٢٠٠٣ : شهادة الإجازة في الدراسات الإسلامية بميزة حسنمن كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس – فاس

الإنتاج العلمي والتأليف:

الكتب المنشورة

- كتاب: "المقاصد الحاجية مفهومها وتطبيقاتها الفقهية" الناشر: saiss media

copie سنــة: ٢٠١٣م، رقــم الإيداع القانــوني: MO 3718 ٢٠١٣ – ردمك: ٩٧٨-٩٩٥٤-٣٢-٨٩٨-٩.

- كتــاب: "مسائل الخــلاف الفقهي عند الإمام أبي بكر ابــن العربي من خلال كتاب أحكام القرآن – مسائل الزواج نموذجا-" دار ما بعد الحداثة، سنة: ٢٠١٤ – رقم الإيداع القانوني: MO 0550 ٢٠١٤ – ردمك: ٩٧٨-٩٥٤-٣٣-٢٠٣-٠.

الدراسة المصطلحية لألفاظ القرآن الكريم وأثرها في إقامة الفهم وتقويمه

جهود معهد الدراسات المصطلحية نموذجًا.

إعداد: الدكتور عبد الواحد الوزاني

عضو هيئة التدريس بالأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين – جهة الدار البيضاء سطات المملكة المغربية

مقدمة

الحمـد لله رب العالمـين، وبه نستعين والصلاة والسلام على أشـرف المرسلين وعلى آله وصحبـه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يـوم الدين، اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلا وأنت تجعـل الحـزن إذا شأت سهلا، رب اشرح لي صدري ويسـر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي، وبعد:

فقد تناول الكثير من الباحثين المعاصرين – منذ قرن ونيف – مشكلات العالم الإسلامي بالبحـث والتحليـل في كتابات ومقالات، ومشـاركات علمية في ندوات وطنيـة ودولية، حاولوا مـن خلالها جاهدين، تشخيص الوضـع وتقديم الحلول والمقترحات، منهـم من أجاد وأفاد فنسأل الله أن يؤتيه أجره مرتين، ومنهم من اجتهد فأخطأ فله من الله أجر المحاولة وصدق النية. لكن حال دار الإسلام وأهل الإسلام بقي على ما هو عليه من الضعف والهوان والتبعية الحضارية للآخر، لما تتخبط فيه من مشاكل فكرية وسياسية واجتماعية واقتصادية...

فأين مكمن الخلل؟ وأين المشكل؟ هل في التشخيص والتوصيف؟ أم في الرؤية والتخطيط واقتراح الحلول؟ أم في الإرادة والإدارة والتطبيق؟

ومـا موقـع القرآن الكريم من كل هـذا؟ أليس به وحده صنـع الله سبحانه ورسوله عليه الصـلاة والسـلام الرعيـل الأول من المؤمنـين؟ وكانوا قـادة وسادة مارسـوا الشهادة على الناس، كل الناس.

أليـس هـذا القـرآن هو الـذي صنـع التاريـخ للمسلمين في قـرون متطاولة مـن الرقي الحضـاري والتقدم العلمي؟ وصنع الجغرافيا مـن طنجة غربا إلى جاكرتا شرقا، فكان هذا العالم الإسلامي المترامي الأطراف؟ وكان هذا الرصيد الحضاري العظيم الذي ساد الأرض لقـرون وقـرون في مختلف العلوم والفنون، قبل أن يدب الوهـن والضعف في أوصال الأمة من رأسهـا إلى أخمصـ قدمها، فلُقِبَـت فيما لُقبت به تاريخيـا بالرجل المريض، منـذ أن هُجر القـرآن، وتعاليم القرآن، وأحكام القرآن، وفَهْـم القرآن، وعجزت عن استنباط سنن القرآن الكلية الناظمة لحركة الاستخلاف في الأرض، ولسنن التسخير، ولسنن الوقاية الحضارية من

الأفول والزوال أثناء التدافع الحضاري، والتداول التاريخي الذي لا يرحم الضعيف والسقيم.

لهذا أعتقد جازما أن جامعة الملك خالد بالمملكة العربية السعودية، ممثلة في كلية الشريعة وأصول الدين، قد وُفقت في اختيار هذا الموضوع أيما اختيار ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾[1] لأنه لا صَلاحَ للأمة اليوم – لأوضاعها وحل مشاكلها – إلا بما صَلُحَ به أولها، وما صَلُحَ أولها إلا بهذا القرآن والسنة البيَانْ، قال الله عز وجل:﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾ ﴾[2] فكان بإذن الله إخراجٌ للأمة – يوم اتبعت القرآن حق الإتباع – من ظلمات الجهل والجاهلية؛ ومن ظلمات الرجس والوثنية، ومن ظلمات التبعية لأهل الفرس والروم... إلى نور الإسلام والقرآن وإلى هَدْي الرحمن وسنة النبي العدنان القائل: "تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ، لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ"[3]، لهذا نقول جازمين غير مترددين بأن القرآن الكريم هو مفتاح العلو والسيادة والرفعة الحضارية لهذه الأمة من جديد، وهو المنطلق لحل مشاكلها الفكرية والاجتماعية والاقتصادية... فهو الهدى، والسراج المنير، والكتاب المبين، وهو منظومة من المفاهيم؛ إذا حُصِّلت حُصِّلت كليات الدين، وإذا لم تُفْقَه لم يُفْقَه في الدين و"من يرد الله به خيرا يُفَقِّهُّ في الدين"[4] ومن لم يُحَصِّل الفقه السليم لهذه المفاهيم لا يمكن أن يُوَفق للعمل والتنزيل، ومن لم يُوَفق للعمل والتنزيل فهيهات هيهات أن يكون من الشاهدينَ الشُهود الحضاري على الناس والأمم أجمعين.

(١) – سورة هود ٨٨.

(٢) – سورة المائدة ١٥ – ١٦.

(٣) – أخرجه الإمام مالك في موطئه في البلاغات، في باب النهي عن القول بالقدر، رقم الحديث: ٣.

(٤) – أخرجه الإمام أحمد في مسند عبد الله بن عباس برقم ٢٧٩٠، وفي مسند معاوية بن أبـي سفيان برقم: ١٦٨٣٧ و ١٦٨٣٩.

ولا سبيـل إلى ذلـك إلا بتحصيل مفاهيـم القرآن الكلية فالجزئيـة، ولا سبيل إلى هذا السبيـل إلا بالدراسـة المصطلحيـة لألفاظ القـرآن المبين، التـي هي مفتاح المفتـاح، مفتاح الوصـول إلى مـا أنـزل على الرسول قرآنـا وسنةً، لهذا فـإني سأسعى في هـذه الدراسة إلى تحقيق الأهداف التالية:

بيان أهمية الدراسة المصطلحية لألفاظ القرآن الكريم في إقامة الفهم القرآني الأصيل الـذي ارتضاه رب العالمين للناس أجمعين، وتقويم ما اعـوج وزلَّ من فهوم مختلف العلوم بما ألبسوها من بشريتهم، وتأثرهم وتأثيرهم بمحيطهم الاجتماعي والثقافي والسياسي.

التعريـف بالدراسـة المصطلحيـة لألفـاظ القرآن الكـريم وبيان موجباتهـا الموضوعية والحضارية، ومقاصدها وأهدافها العلمية، ومنهجها الدقيق الفريد في التتبع لألفاظ القرآن الكريم وسبر أغواره وكشف أسراره.

بيـان البعـد الحضـاري للدراسة المصطلحيـة لألفاظ القـرآن الكريم، وكونهـا السبيل لحصـول الإمامة العلمية لهذه الأمة علـى الأمم كلها، وذلك بتحقيق الفهم الصحيح السليم المؤدي إلى اكتشاف سنن القرآن الكلية في الاستخلاف والتسخير والوقاية من الزوال والأفول.

إبراز جهود معهد الدراسات المصطلحية بجامعة السلطان محمد بن عبد الله بفاس في خدمة مفاهيم القرآن الكريم، من خلال ما نظمه من ندوات وأيام دراسية ودورات تكوينية، ومـا أنجزه من بحوث علمية متعلقة بالمفاهيم القرآنية، وما رسمه من خطط علمية منهجية استشرافية.

هذا وبالله سبحانه وتعالى التوفيق والسداد وعليه التكلان، وصلى الله وسلم وبارك علي سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

المبحث الأول

موجبات الدراسة المصطلحية لألفاظ القرآن الكريم ومقاصدها.

من الأمور المقررة عند أهل الذكر من سلف هذه الأمة وخلفها عبر مختلف الأعصار والأمصار، أن المصطلحات هي المفاتيح التي تفتح بها أقفال العلم المغلقة؛ بل هي المدخل الطبيعي لكل باب من أبواب العلم والمعرفة، ومما لا شك فيه أن رأس العلم والمعرفة هو القرآن الكريم، فمن تمكن من مصطلحاته تمكن من مفاهيمه، ومن فَقُهَ مفاهيمه فَقُهَ سر الوجود والاستخلاف والتمكين والعمران...

لهذا فإن المسألة المصطلحية اليوم في الأمة "هي قلب الإشكال، ومفتاح الإقلاع ومحرك التجديد؛ ذلك بأنها تتعلق ماضيا بفهم الذات، وحاضرا بخطاب الذات، ومستقبلا ببناء الذات... وهي محور الصراع، وجوهر النزاع، ومركز الدفاع؛ ذلك بأن عليها المدار منذ استخلاف آدم عليه السلام حتى قيام الساعة، وفيها النزاع بين المستكبرين والمستضعفين في مختلف الأمصار والأعصار، وبها الدفاع عن الهُوية الدينية والخصوصية الثقافية والوجهة الحضارية"[1].

وإذا كانت الدراسات المصطلحية عموما لها هذا الشأن الكبير والتأثير العظيم في التجديد والبناء وإعداد ذات الأمة لتستعيد عزتها ونهضتها من جديد فإن المصطلح القرآني هو المحور المحرك لكل ذلك، وهو العمدة والأساس لاعتبارات علمية وحضارية، فما هي موجبات هذه الدراسة؟ وما هي مقاصدها؟

المطلب الأول: موجبات الدراسة المصطلحية لألفاظ القرآن الكريم.

حرص القرآن الكريم والسنة البيان على التمييز بين المفاهيم:

إن المتأمل في القرآن الكريم، يلاحظ بجلاء أن الإسلام كان شديد الحرص على تمييز

(١) - نحو تصور حضاري للمسألة المصطلحية، كتاب دراسات مصطلحية للدكتور الشاهد البوشيخي ص ٧٥.

كل مصطلح عن غيره، فكلما كانت محاولة لتحريف مصطلح ما عن مفهومه الحقيقي إلا وتصدى الوحي لهذه المحاولة البائسة ورد الأمور إلى نصابها وحقيقتها الشرعية، وأقامها على مصطلح كلام رب الأنام، ومن الآيات القرآنية الدالة على ذلك قوله عز وجل: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾[1] وقوله أيضا: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ ﴾[2] كما أنكر عز وجل على اليهود تغييرهم وتبديلهم لمصطلحات أمرهم الله عز وجل أن يقولوها، فقال في حقهم: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَـٰيَـٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾[3]. وما قلناه عن القرآن نقوله عن السنة البيان التي تكفلت ببيان ما أنزل إلى الناس من ربهم بالقول والفعل والإقرار، حتى تم الحلول التام للإسلام في الواقع وخرج الناس الخروج التام من مفاهيم الجاهلية ودخلوا الدخول التام في نور الإسلام، يقول الدكتور الشاهد البوشيخي في هذا الشأن: "وهل كان حديث جبريل عليه السلام في آخر مراحل تنزل الدين وبيانه، غير بيان مفهوم الدين، بالمفاهيم الكلية المكونة له؛ من إسلام وإيمان، وإحسان؟ إن الحرص واضح في القرآن على تمييز مفاهيم القرآن، وإن الحرص واضح في السنة البيان، على بيان المراد من ألفاظ القرآن"[4]

مجيء الوحي على شكل نسق مفهومي:

من وجوه فضل كلام الله عز وجل على كلام خلقه مجيئه على شكل شجرة مفهومية متشعبة الأغصان ومتنوعة الأفنان، من تمكن من هذه المفاهيم ومن نسقها العام، تمكن من الصورة الصحيحة لهذا الدين، ومن تشوه لديه شيء منها أو منه تشوهت لديه الصورة العامة لهذا الدين ، ومفاهيم هذه الشجرة "ليست معزولة عن بعضها بعضا، وليست منثورة كيفما اتفق، وإنما هي فصوص في العقد الفريد للإسلام منظومة نظما بديعا رائعا في

(١) - سورة الحجرات ١٤.

(٢) - سورة البقرة ١٠٤.

(٣) - سورة البقر ٥٨ – ٥٩.

(٤) - القرآن الكريم والدراسة المصطلحية، من كتاب دراسات مصطلحية، للدكتور الشاهد البوشيخي ص ٩٩.

نسق، إذا نظر إليها وقد انتظمت أفقيا تجلى نسقها التصوري الشامل الكامل وإذا نظر إليها وقد تتابعت تاريخيا في التنزل، تجلى نسقها المنهاجي التنزيلي المتكامل ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ [١] "[٢]. وبما أن هذه المفاهيم المكونة للتصور العام للدين على هذا الشكل من التنسيق والرص، فليس ثمة من يُبين عن عرى هذا النظم سوى الدرس المصطلحي الذي يكشف ما يكتنفه كل مصطلح ولفظ ومفهوم، من دلالة، وما يعتريه من مميزات وصفات، وما يربطه بغيره من علاقات، وما ينشأ عنه من ضمائم وتركيبات، وما يتعلق به من قضايا ومستفادات.

الحضور القوي للمصطلح القرآني في مختلف العلوم:

لا يكاد يتبادر إلى الذهن مجال من مجالات العلوم والمعرفة، إلا ونجد له مصطلحات دائرة في النص القرآني، مستعملة فيه بشكل من الأشكال، حاملة لدلالة من الدلالات، سواء كانت من مصطلحات العلوم الشرعية، وتلك لها النصيب الأوفر، إذ في القرآن الكريم أصل المصطلح الفقهي، والأصولي، والعقدي...، أو تعلق الأمر بمصطلحات العلوم الإنسانية عموما، فلا يخلو القرآن من مصطلحات اللغة والأدب، ولا من مصطلحات التاريخ والاقتصاد والسياسة والاجتماع، كما لا يخلو أيضا من مصطلحات العلوم المادية...[٣]، يقول الراغب الأصفهاني في هذا الصدد: "فألفاظ القرآن هي لب كلام العرب وزبدته، وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم، وإليها مفزع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم، وما عداها وعدا الألفاظ المتفرعات عنها والمشتقات منها هو بالإضافة إليها كالقشور والنوى بالإضافة إلى أطايب الثمرة، وكالحثالة والتبن بالإضافة إلى لبوب الحنطة"[٤]

---

(١) - سورة الفرقان ٣٢ – ٣٣.

(٢) - المرجع السابق ص٩٩، د الشاهد البوشيخي.

(٣) - ينظر: مفهوم التأويل في القرآن الكريم والحديث الشريف، للدكتورة فريدة زمرد ص٧٩.

(٤) - مفردات الراغب الأصفهاني ص ٥٥.

وبسبب هذا الحضور القوي للمصطلح القرآني في كل المجالات المعرفية، فإن الدارس للمصطلح القرآني دارس لأصل المصطلح العلمي الذي تخلق من صلب القرآن، كما أن الدارس لهذه المصطلحات في المجالات العلمية المختلفة التي استعملت فيها فيما بعد يكون لزاما عليه دراستها في منبعها الأول إذ معرفة المآلات مبنية على معرفة الأصول.

حصول تشوه في فهم بعض المصطلحات القرآنية :

إن مصطلحات القرآن الكريم حينما نزلت أول مرة نزلت على مفاهيمها الموضوعة لها من قبل الله عز وجل، نزلت مضبوطة الحجم والموقع والرتبة مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ﴾[1] لكن تعامل الناس مع هذه المصطلحات في مختلف الأعصار والأمصار ألبسوها شيئا من بشريتهم حيث زحزحوا بعض المصطلحات عن مواقعها، وضخموا من حجم الصغير منها، وصغروا من حجم الكبير منها، وغيروا بعضها ببعض أثناء الإعمال فتغير بذلك دين الله، وفطرة الله[2]، وسهل على المستعمر استعمار المسلمين فكريا وثقافيا وسياسيا واقتصاديا...، ولا مناص من الخروج من هذا الوضع المعكوس المنكوس إلا بإقامة مصطلح القرآن الأصل، وإقامة المفاهيم القرآنية الحقَّة، بإعادة مفاهيم الوحي بعد تحصيلها إلى مواقعها وأحجامها ورتبها، ولا يتم ذلك إلا بفهمها وفق معهود العرب في خطابها زمن نزول الوحي، وهذا ما أشار إليه ابن تيمية رحمه الله وأكد عليه بقوله: "... ومن هنا غلط كثير من الناس فإنهم قد تعودوا ما اعتادوه إما في

---

(١) - سورة الأنعام ١١٥.

(٢) - ولعل أهم ما يمكن أن يشار إليه على سبيل التمثيل لا الحصر: تحريف مفهوم "الكفر" وإطلاقه على الملاحدة فقط، وجعل مفهوم "المسلم" بمن كان خالصا من شوائب الشرك من أية ملة كان، وكذلك جعل مفهوم "الإيمان" قائما على الاعتقاد بالله عز وجل ورسالته واليوم الآخر بلا قيد في ذلك إلا احترام ما جاء على ألسنة الرسل، فلا يشترط الإيمان بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم بل يكفي احترام ما جاء على لسانه.

وفي المجالات التشريعية تم تحريف مدلول "السارق" و"الزاني" لمن كان معروفا بهذا الوصف وليس لمن يفعلها مرة أو مرتين، وكذلك مفهوم "الربا" وهكذا، نسأل الله عز وجل أن يقينا شرورهم وأن يجعل كيدهم في نحورهم، وأن يردنا إلى مصطلحات القرآن ردا جميلا.

ينظر: بحث د. فهد الرومي "تحريف المصطلحات القرآنية وأثره في انحراف التفسير في القرن ١٤ هـ" المقدم لمؤتمر جامعة الشارقة بكلية الشريعة ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م بعنوان: "الجهود المبذولة لخدمة القرآن الكريم من بداية القرن ١٤ هـ إلى اليوم"

خطـاب عامتهم، وإما من خطاب علمائهم باستعمال اللفظ في معنى، فإذا سمعوه في القرآن والحديـث ظنوا أنه مستعمل في ذلك المعنى، فيحملوا كلام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم علـى لغتهم النبطية وعادتهم الحادثة، وهذا مما دخل به الغلطُ على طوائف، بل الواجب أن تعـرف اللغة والعادة والعرف الـذي نزل فيها القرآن والسنة ومـا كان الصحابة يفهمون من الرسـول عنـد سماع تلك الألفاظ فبتلـك اللغة والعادة والعرف خاطبهـم الله ورسوله لا بما حدث بعد ذلك"[١].

هـذه إذن أهم الموجبات التـي تجعل دراسة المصطلح القـرآني فريضة شرعية وعلمية، فمـا هي أهم مقاصدهـا وغاياتها؟ وكيف السبيل لإقامة المصطلـح القرآني وتقويم ما اعوج من مصطلحات باقي العلوم والفنون؟

المطلب الثاني: مقاصد الدراسـة المصطلحيـة لألفاظ القرآن الكريم بين الإقامة والتقويم.

نعنـي بمقاصد الدراسة المصطلحيـة لألفاظ القرآن الكريم: الغايـات والأهداف المراد تحقيقهـا من خـلال دراسة الألفاظ القرآنيـة دراسة مصطلحية وفق منهـج خاص في إطار التصور القرآني العام.

وأهـم هـذه الغايات والأهـداف المـراد تحقيقها – عنـد المتخصصين بهـذا الشأن – مقصدان:

إقامة المصطلح الأصل؛ أي مصطلحات القرآن والسنة البَيَانْ.

وتقويم المصطلح الفرع؛ أي مصطلحات العلوم والفنون النابتة في تربة علوم الأمة.

وقـد فصل الكلام في هذا الشـأن ودقق النظر فيه شيخ الدراسات المصطلحية، فضيلة الدكتـور الشاهـد البوشيخـي[٢] في كتاب له بعنـوان: "مصطلـح الأمة بين الإقامـة والتقويم

(١) – مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠٦/٧.

(٢) – هـو مؤسس معهـد الدراسات المصطلحيـة ومديرهـا السابق، ومؤسس مؤسسة البحـوث والدراسات العلمية (مبـدع) أشرف على ثلاثمائة رسالة جامعية (دكتوراه أو ماجستير) في الدراسة المصطلحية الشرعية والأدبية والنقدية، له العشرات من الكتب والمحاضرات في علم المصطلح ومناهجه، كما أشرف على العديد من المشاريع العلميـة بوضـع المناهج العلميـة والتصور الشمـولي والمراحل العملية لهـا، منها ما أنجز ومنهـا ما هو في طور الإنجاز.

والاستقامة"[1] سأحاول جاهدا استخلاص مقاصد الدراسة المصطلحية لألفاظ القرآن الكريم منه، عارضا للب الكلام ودرره:

المقصد الأول: إقامة المصطلح الأصل وما تقتضيه.

إقامة المصطلح الأصل: تعني إتمام الكلمة، وإتمام الكلمة يعني التوفية، قال الراغب "إقامة الشيء: توفية حقه"[2] ومن وفَّى فقد وفَى واستوفى، وقام بالأمر وأقامه حتى قام واستقام، وصار الاسم يساوي مسماه، والمصطلح يطابق مفهومه، ومتى أقيم المصطلح قام الخلق والأمر على وجهه، وأقيم الدين على حقه، وقامت الحجة على المقصر والغالي، واستقام التواصل بين الناس، وقام الناس بالقسط. وليس لغير ذلك أرسلت الرسل وأنزلت الكتب: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥) ﴾[3]. ولقد كان إبراهيم عليه السلام المثال لذلك، فجعله الله جل جلاله بذلك للناس إماما ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (١٢٣) ﴾[4].

وإقامة المصطلح الأصل هي الأصل، وإذا لم يقم الأصل، لم تقم الفروع، ومن ثم كان البدء ضرورة عند محاولة القيام بإقامة المصطلح، إقامة المصطلح الأصل: مصطلح الوحي الإلهي، مصطلح كلام الله جل جلاله، مصطلح كلام رب السماوات ورب الأرض رب العالمين، مصطلح القرآن والسنة البيان.

وبناء عليه فإقامة المصطلح الأصل تستلزم فيما تستلزم:

إقامة لفظه.

---

(١) - الطبعة الأولى لهذا الكتاب كانت سنة: ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م بمطبعة أنفو برانت بمدينة فاس، ثم طبع ضمن مجموع دراسات في كتاب "دراسات مصطلحية" وهي كلها لنفسه المؤلف، بدار السلام القاهرة سنة: ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م، والكلام الذي أوردته في هذا المطلب هو للشيخ الدكتور الشاهد البوشيخي من هذا الكتاب، وليس لي فيه من فضل سوى الترتيب والتصرف البسيط.

(٢) - المفردات للراغب، مادة (قوم)

(٣) - سورة الحديد ٢٥.

(٤) - سورة البقرة ١٢٣

وإقامة مفهومه.

وإقامة العمل به.

وإقامة بيانه.

إقامة لفظ المصطلح الأصل.

وهـي تعنـي أن يكون لفـظ القرآن هو المستعمـل في التواصل بين الناس بيانـا وتبينا: به يعـبرون، وإياه يتدبرون، لم يهملوه في معجمهم الحي، ولم يعوضوه بشيء ولَّدوه أو استوردوه؛ لأنـه المختـار للناس كل النـاس، من رب الناس ملـك الناس إله الناس، هـو المختار للتسمية والدلالـة، وهو المختار الأنسـب للمسمى والمدلول، اختاره الله جل جلالـه على علم بالألفاظ والمعـاني، والألسـن والأجناس والأعصر؛ فمن هجره فقد هجر كتـاب الله، ومن اختار غيره فقـد اختـار غير ما اختار الله، ولن تصح إقامة للدين بغـير إقامة ألفاظه إرسالا واستقبالا، قـولا وسماعـا ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾[1] .

إقامة مفهوم المصطلح الأصل

وهـي تعني أن يفهم من لفظه ما فَهِمَـه أو فُهِّمه من أنزل عليه صلى الله عليه وسلم أول مـرة دون تغيير أو تبديـل، بدلالة زمن التَنَـزُّل للألفاظ، ودلالة سيـاق الاستعمال للألفاظ، ودلالـة الصفات والأشـكال والأحوال التـي وردت عليها الألفاظ، والعلاقـات والقضايا التي ارتبطت بها الألفاظ. فلا يفهم اللفظ بدلالة ما بعد زمن التنزل، ولا بدلالة سياق غير سياق الاستعمـال القـرآني للألفاظ، ولا بدلالـة صفات أو أشكال أو أحوال لم يـرد عليها اللفظ في القـرآن، أو علاقـات أو قضايا لم يرتبط بها اللفظ في القـرآن، فلكم ضيقت مفاهيم قرآنية بعـد أن كانت مـا أوسعها! ولكم وسعت مفاهيم بعد أن كانت مـا أضيقها! ولكم غُيرت مواقع وأنساق، ولكم شُوِهت قضايا وبدلت علاقات عَبْر العصور. ولن يصلح آخر هذا الفهم إلا بما صلـح به أوله: استفادة المفهوم من مجموع صور استعمال اللفظ مفهوما بدلالة زمن التنزل. وإلا فهو التشوه والتشويه المستمر.

(١) - سورة الجمعة ٢.

إقامة العمل بالمصطلح الأصل

وهــي تعني التخلــق بما يقتضيه مفهومــه في الظاهر والباطن معــا، في الجنان واللسان والجــوارح، في الفــرد والجماعة والأمة؛ ذلك بأن الدليل على حاق التحقق هو التخلق. وما لم يتمثــل المفهوم في واقع يمثله فلن تظهر الثمــار، وكل ادعاء للفهم دون شاهد من العمل فإنما هــو محض افــتراء. ولو أحسنوا الفهم لأحسنــوا العمل، ولو أحسنوا العمــل لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم: ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾[1].

وبإقامــة العمل بالمصطلــح الأصل تقوم الحجة، وتمثُل القــدوة، ويظهر للعيان فضل ما جــاء بــه القرآن. وما منع النــاس أن يومنوا في هذا الزمان، إلا أن أمــة القرآن لا تقيم العمل بمصطلح القرآن.

إقامة بيان المصطلح الأصل

وهــي تعني أداءه كما حُمل، بعــد حمْله كما أُنْــزِل. ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾[2] وذلك يتأكد خاصة في هذه الأمة الخاتمة؛ لانقطاع النبوة بعد محمد ﷺ في الناس، واستمرار التكليف في متبعيه إلى قيام الساعة، بالشهادة على الناس ﴿ ۞ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ ﴾[3].

ولا إقامــة للبيان دون إقامــة لما سبق من التبين، لفظا ومفهومــا وعملا. ولا شهادة على الناس دون شهادة على النفس لتحقيق الأهلية للشهادة على الناس.

المقصد الثاني: تقويم المصطلح الفرع وما يقتضيه.

التقويم في المعاجم مداره على معنيين:

معنــى تحديــد القيمة: يقــال: "قوَّمت المتاع جعلــت له قيمة معلومــة"[4] ، "والقيمة ثمن

(١) - سورة الأعراف ٩٥.

(٢) - سورة ال عمران ١٨٧.

(٣) - سورة البقرة ١٤٢.

(٤) - المصباح المنير مادة (قوم).

الشيء بالتقويم، وفي الحديث: "قالوا يا رسول الله لو قوَّمت لنا..." أي: لو سعّرت لنا، أي: حددت لنا قيمتها"[1].

ومعنى جعل الشيء مستقيما: يقال: "قوَّمت الشيء، فهو قويم؛ أي مستقيم"[2]، "وقوَّمته تقويما فتقوَّم، بمعنى عدَّلته فتعدَّل"[3].

والمصطلح الفرع هو: "مصطلح العلوم والفنون والصناعات"[4] في تاريخنا؛ المصطلح الذي يمثل خلاصة تفاعل الأمة "مع التاريخ وفي التاريخ، المصطلح الذي يمثل كسبها وإسهامها الحضاري في مختلف المجالات"[5]، المصطلح الذي يلخص عطاء الأمة وثمرة جهدها عبر العصور، في كل أصناف العلوم، بمختلف تخصصاتها: صنف العلوم الشرعية، وصنف العلوم الإنسانية، وصنف العلوم المادية، المصطلح الذي تفرع على المصطلح الأصل، متولداً من إقامة المصطلح الأصل: إما مستنبطاً من المصطلح الأصل، أو خادما للمصطلح الأصل، أو دائرًا في فلك المصطلح الأصل.

وتقويم المصطلح الفرع، بناء على ذلك، هو تحديد قيمته :

- بالنسبة لذاته؛ أي مدى كفاية جهازه المصطلحي في تمثيل البنية، والأنساق، والتصور، والتطور الذي عرفته مفاهيم كل تخصص، في كل صنف من أصناف العلوم.
- وبالنسبة لأصله؛ أي مدى ملائمة مصطلحاته ومفاهيمه للأصل الذي تفرعت عليه، في كل تخصص، بكل صنف من أصناف العلوم؛ مستنبطة كانت، أم خادمة، أم دائرة في الفلك.
- وبالنسبة لحاجة الأمة إليه؛ أي مدى استجابته وإجابته عن بعض حاجات الأمة الآنية أو المستقبلية: في التجديد لما حقه التجديد في صنف العلوم الشرعية، والأسلمة لما حقه الأسلمة في العلوم الإنسانية، والأنسنة لما حقه الأنسنة في العلوم المادية.

---

(١) - اللسان مادة (قوم).
(٢) - اللسان مادة (قوم).
(٣) - المصباح المنير مادة (قوم).
(٤) - نحو تصور حضاري للمسألة المصطلحية، للدكتور الشاهد البوشيخي ص ٢١.
(٥) - م س.

ما يقتضيه تقويم لفظ المصطلح الفرع.

إعداد النص: ذلك بأن "التراث خزان الممتلكات، ومستودع جميع ما نملك من مصطلحات"[1]. فإذا غابت نصوص ما – وهي موجودة غير مفقودة – لسبب ما، غاب ما فيها من مصطلحات، أو ما يلقي الضوء على مصطلحات، وتعذر بسبب ذلك كل ما يتوقف على حضور ذلك؛ من درس صحيح، وفهم صحيح، وتقويم صحيح...

إحصاء مصطلحات النص المعد: ويقتضي إنجاز معجم مفهرس للمصطلحات في كل تخصص من تخصصات التراث: ولا يكون ذلك إلا بفهرسة مصطلحات كل كتاب منشور من كتب التخصص أولا، كما لا تكون تلك الفهرسة إلا من متخصصين فيه، وبالإحصاء والاستقراء التام[2].

ما يقتضيه تقويم مفهوم المصطلح الفرع.

الدراسة الوصفية لمصطلحات كل علم، بأركانها وشروطها المفصلة في منهج الدراسة المصطلحية. وهذه المرحلة طويلة شاقة، إلا على من يسرها الله تعالى عليه؛ لاقتضائها دراسة مصطلحات كل مؤلِّف على حدة، أو بعضها، وأحيانا دراسة مصطلحات الكتاب الواحد، أو بعضها [3].

الدراسة التاريخية لمصطلحات كل علم، بشروطها المشار إليها في منهج الدراسة المصطلحية. وهذه المرحلة لا تكاد تقل مشقة عن سابقتها؛ لاقتضائها رصد التطور في كل مصطلح، منذ تطوره المحتمل لدى المؤلِّف الواحد في تراثه، حتى مجموع تراث التخصص على امتداده. وكل إخلال في المرحلة الوصفية ينتج عنه خلل في المرحلة التاريخية. والأصل استدراك المؤرخ على الواصف، ولكن أنَّى ذلك، إلا لمن آتاه الله تعالى علما وفهما. وقليل ما هم! [4].

---

(1) – نظرات في المصطلح والمنهج ص ٥٦.

(2) – المصدر السابق ص ٦١.

(3) – مشروع المعجم التاريخي للمصطلحات العلمية ص ٢٠.

(4) – المصدر السابق ص ٢١.

ما يقتضيه تقويم إعمال المصطلح الفرع.

من شروط الاستفادة من المصطلح العلمي في التراث "شرط إعماله وعدم إهماله: وهذه هذه؛ لأننا لو راكمنا ما راكمنا من الإنجازات في هذا المجال، وكدَّسنا ما كدّسنا من المعاجم الغنية الشهية الميسرة النادرة المثال، ثم لم يصحب ذلك استعمال لتلك المصطلحات في واقع الحال، فإننا نكون كما قال الله عز وجل: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ ﴾[1].

وقبل الاستعمال لابد من تقويم الإعمال، ومما يقتضيه تقويم الإعمال أمران:

الأمر الأول: مقارنة المصطلح الفرع بالمصطلح الأصل:

فإن كان مستنبطا كمصطلح العلوم الشرعية، فما مدى صحة النسبة لفظا ومفهوما؟ هل لفظه هو اللفظ الذي حقه الإعمال أم لا؟ وهل مفهومه ابن شرعي لمفهوم المصطلح الأصل أم لا؟...

وإن كان خادما للمصطلح الأصل، كمصطلح بعض العلوم الإنسانية علوم الآلة وما في معناها، فما مدى صحة الخدمة؟ هل وظيفته هي الوظيفة التي حقها أن تكون؟ وهل كفايته في الخدمة تامة أم ناقصة؟.

وإن كان دائرا في فلك المصطلح الأصل، كمصطلح العلوم المادية، فما مدى هيمنة المصطلح الأصل عليه؟ وما مدى تأثره به وعدم خروجه عن مجاله؟.

الأمر الثاني: مقارنة المصطلح الفرع بالحاجة الحالية والمستقبلية للأمة، لتبيُّن مدى جدواه في مختلف المجالات: مجال التجديد لما حقه التجديد، ومجال الأسلمة لما حقه الأسلمة، ومجال الأنسنة لما حقه الأنسنة، ومجال الترجمة والتعريب لما حقه الترجمة والتعريب... وغير ذلك من الحاجات الكبرى للأمة.

منهج تقويم المصطلح الفرع.

ذلكم – في حدود ما جُرِّب فصح – هو منهج الدراسة المصطلحية[2]؛ بأركانه الخمسة في الدرّس، وخطواته الستة في العرّض، ومراحله المتكاملة في السير؛ من الوصفية حتى المقارِنة.

---

(١) – سورة الرعد ١٥

(٢) – ينظر تفصيل ذلك في كتاب: "نظرات في المصطلح والمنهج" للدكتور الشاهد البوشيخي ص ٥٩.

المبحث الثاني

أثر الدراسة المصطلحية في علاج مشكلة الفهم الخاطئ للقرآن الكريم، مفهوم الأمن نموذجا.

رغم أن أئمة السلف الصالح قد بذلوا قصارى جهدهم في فهم القرآن وتفسيره واستنباط ما يحتويه من الأحكام والشرائع والعبر والعظات، إلا أن ما وقع للمسلمين في تاريخهم من اختلاف وافتراق، وتنازع وتصارع حتى فشلوا وكادت تذهب ريحهم، أثر في فكرهم عامة وفي مسيرة تفسير القرآن وفهم معانيه خاصة، إذ صار التفسير بدوره مجالا للدفاع عن المذاهب العقدية والكلامية والفقهية...، أو لاستعراض فنون من المعارف المختلفة والمتناقضة أحيانا، مما أبعد التفسير عن تحقيق مقاصد القرآن وغاياته التوحيدية والتربوية الحقة، هذا فضلا عن غياب النظرة الشمولية للقرآن في مناهج المفسرين، إذ اقتصر أغلبهم على فهم المعاني الجزئية للمفردات أو إثارة القضايا الفقهية أو الكلامية الجزئية أيضا، بل أصبح القرآن يفهم وفق الاصطلاحات الحادثة التي استحدثت بعد عصر تنزل القرآن فَفُهِم على غير مراد الله تعالى وعلى غير اصطلاح زمن التنزيل، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "... ومن هنا غلط كثير من الناس فإنهم قد تعودوا ما اعتادوه إما في خطاب عامتهم، وإما من خطاب علمائهم باستعمال اللفظ في معنى، فإذا سمعوه في القرآن والحديث ظنوا أنه مستعمل في ذلك المعنى، فيحملوا كلام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم على لغتهم النبطية وعادتهم الحادثة، وهذا مما دخل به الغلطُ على طوائف"[1].

أما اليوم، فما أعظم الوهن والضعف الذي أصبحت تعيشه الأمة المسلمة، وما أقبح حال تداعي الأمم عليها كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها، حين حُرِفت مفاهيم الدين، وغُيرت وبُدِّلَت وأبْدِلَتْ بمفاهيم الغرب كما يراها الغرب، فـ"أغلب المصطلحات التي تقوم عليها الحياة؛ كالخير والشر، والعدل والظلم، والحق والباطل، والسلام والإجرام،... غيّر مفاهيمها

(1) - مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠٦/٧.

العالـون في الأرض أصحاب الأهواء، ولووْا أعناقها كما لوى فرعون عنق مفهوم الفساد، وهو يقـول عن موسى عليـه السـلام: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ ﴾[1] "[2].

ومـن المصطلحـات المهمة التي وقع في تحديد مدلولها لغطٌ كبـير، وحَرَّفَ أهل الانتحال المبطلون معناها القرآني الأصيل، مصطلح "الأمن". هذا المصطلح حاجة البشرية إليه اليوم شديـدة جـدا، فالقلق مسيطر على البشريـة اليوم في كل مجال، الاضطـراب والحيرة وقلق البـال واضطراب الحـال، وخاصة حال القلوب والنفوس، فلا استقـرار ولا سعادة وطمأنينة بدونه، بل غيابه مؤذن بحلول الخوف والفزع والرعب والقلق في حياة الخاصة والعامة، حياة الأفراد والشعوب والأمم.

ولكـن بأي شـيء يكون الأمن؟ وهل هو أمر يقبل التبعيض والتجزيء كما هو متداول بين النـاس اليوم؟ فتجد من يتحدث عن الأمن الوطنـي، وآخر عن الأمن الاجتماعي، وثالث عن الأمـن الفكـري... وهل يمكن الفصل بـين الأمن الديني والدنيوي، كما هـو عند أهل الغرب والعلمانيين اليوم؟ وبأي شيء يتحقق ويستمر؟ وما هي مَعِيَّاته الربانية؟

لأهمية هذا المصطلح في حياة الناس حالا ومآلا، ساسة وشعوبا، ولكونه من المصطلحات القرآنيـة العظيمـة الشـأن والقدر والحجـم، ارتأيت أن أقدمـه نموذجا لبيان أثـر الدراسة المصطلحية لألفاظ القرآن الكريم في إقامة الفهم القرآني الصحيح السليم وتقويم ما اعوج وانحرف في فهوم النـاس، وبيان ذلك فيما يلي[3]:

أولا: الأمن لا يقبل التبعيض

ممـا يثير الانتباه في كتـاب الله عز وجل أن هذا اللفظ (أي الأمن) لم يَرِدْ إلا في خمسة مواضع: ثلاثة منها ورد معرّفا في الصورة المطلقة وذلك في قوله تعالى:﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ

(١) سورة غافر الآية ٢٦.

(٢) دراسات مصطلحية ص ٨٤.

(٣) ينظـر: مفهـوم الأمن في القرآن الكريم، مجلة حراء العدد ١٣، تأليف: د الشاهد البوشيخي. والتربية الأمنية في ضوء القرآن الكريم، مجلة المعارج السنة ٢٣، العدد ١٦٤ تأليف: د عبد السلام حمدان اللوح ود محمود هاشم عنبر.

ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[2]، ومرتين ورد منكرا، منها قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾[3]. وورد على غير الصورة الاسمية أضعاف ذلك سواء بصيغة الماضي أو صيغة المضارع أو في صيغة المشتق كاسم الفاعل المفرد أو الجمع. وقد ورد اللفظ بعدة أشكال لكنه لم يرد مقيدا بشيء لا بوصف ولا بإضافة، ومعنى ذلك أنه غير قابل للتبعيض، فالأمن شيء كلي شامل لا يقبل التبعيض، فهذه نقطة مهمة وهو أن الأمن نعمة يتنعم بها الناس إما أن تكون وإما أن لا تكون، ولا يمكن أن تكون مبعضة، بمعنى ينعمون بنوع من الأمن ولا ينعمون بأنواع أخرى ولا سيما بالنسبة لأهل الإيمان، لأن المنطق الذي يحكم دائرة الإيمان بعد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هي دائرة التكليف ودائرة الشهادة على الناس، بينما الدائرة الأخرى ليست مكلفة، ولذلك إذا تمت الاستجابة للتكليف تكون النتائج وتكون الآثار الطيبة وتكون الثمرات وتكون الخيرات، وإذا لم تتم الاستجابة تكون العقوبات. بينما في دائرة غير الإيمان قد يتم التنعم الدنيوي حتى يرتحل الناس ولا يكون إشكال لأنهم ليسوا مكلفين بهذه الأمانة.

ثانيا: الأمن سكينة القلب

إنَّ تتبعنا لمفهوم الأمن يوصلنا إلى حقيقة مفادها أنه مستقر في القلب، ومدار مادة "أمن" في اللسان العربي على سكينة يطمئن إليها القلب بعد اضطراب، وأنقل هاهنا قول

(١) - النساء الآية ٨٣.

(٢) - الأنعام الآيات ٨٠ – ٨٢.

(٣) - النور الآية ٥٥.

الراغب الأصفهاني فإنه يكاد يكون جامعا لما في غيره مع تدقيق، يقول رحمه الله: "أصل الأمن: طمأنينة النفس وزوال الخوف... و"آمن" إنما يقال على وجهين: أحدهما متعدّيا بنفسه، يقال: آمنته أي جعلت له الأمن، ومنه قيل لله مؤمن؛ والثاني: غير متعدّ، ومعناه صار ذا أمن... والإيمان هو التصديق الذي معه أمن"[1]. كأن الإمام الراغب رحمه الله لا يتصور أن يكون هناك مؤمن وليس عنده أمن، أي سكينة واطمئنان، أي استقرار لا اهتزاز ولا اضطراب ولا قلق ولا حيرة، لأنه مطمئن إلى ربه ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ ﴾[2]. فالمدار إذن على وجود سكينة في القلب في جميع ما دارت فيه المادة سواء في صورة "أمن" أو "آمن" المتعدي واللازم، المدارُ على هذه السكينة وعلى هذه الطمأنينة التي تأتي في حقيقتها بعد نوع من القلق والاضطراب، وتأتي بعد قدر من الخوف، وهذا الخوف عبر عنه بالخوف نفسه، وعبر عنه بالبأس، وعبر عنه بالفزع، وعبر عنه بألفاظ أخرى غير هذه الألفاظ، ولكن مؤداها جميعا هي أنها تُحدث لدى الإنسان ضربا من الخوف، فإذا جاء الأمن أزال ذلك الخوف، هذا الأصل وهذا المدار الذي تدور عليه المادة يجعلنا نتجه إلى أن المعنى الذي للأمن هو أنه حال قلبية تجعل المتصف بها في الدنيا يرتاح ويطمئن، والموصوف بها في الآخرة يسعد وتحصل له السعادة الأبدية.

هذه الحال هي نعمة من الله عز وجل، وإذا ربطنا الكلام ببعضه، فإننا نجد من أسماء الله الحسنى "المؤمن"، وقد فهم الراغب الأصفهاني – كما مر في نصه السابق – أن معنى اسم الله المؤمن: الذي يمنح الأمن ويعطيه، فهذه الحال – التي هي نعمة من الله عز وجل – هو الذي يعطيها:﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾ ﴾[3]، أي أعطاهم الأمن، وللمكان طبيعته الخاصة، وسره الخاص، وقد وصف القرآن الكريم ذلك المكان في مواطن متعددة بأنه "آمن" ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾[4]. ذلك سر جعله الله في ذلك المكان تفضلا منه سبحانه وتعالى، وإنا لنرى ذلك حتى الساعة، إذ كيف نفسر – على سبيل المثال – اندياح موجة الاستعمار الغربي على

---

(١) – مفردات القرآن للراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان عدنان ص ٩١.

(٢) – الفتح الآية ٤.

(٣) – قريش الآيات ١ –٤.

(٤) – العنكبوت الآية ٦٧.

جميع ديار الإسلام – تقريبا – ولكن لم يحدث هذا الأمر بالنسبة للبلد الحرام، لا لأن تلك المنطقة كانت قوية، فعَسُر على الاستعمار أن يحتلها، ولكن هناك سر الله عز وجل في هذا الأمر، جعله آمنا﴿ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾[1]، هذا شيء نراه عبر التاريخ، وهذه الملحوظة بالتحديد تلفت النظر بقوة، فالجزيرة تنقصت من أطرافها واحتلت شوائطها الشرقية وجنوبها وغربها وشمالها وبقي وسطها. والأمر كذلك بالنسبة للفُرس والروم زمن رسول الله ﷺ وقبله، فالمكان له وضعيته وله حال خاصة هبة من الله تعالى لا تزال مستمرة، لكن بالنسبة للإنسان حصول تلك الحال مرتبط بأسباب وشروط. وهنا نقف في النظرة الثالثة على أسباب وجود الأمن وشروط استمراره.

ثالثا: الأمن ثمرة من ثمرات الإيمان

السبب الأول لوجود الأمن في هذه الأمة – وهو شرط في نفس الوقت – هو الإيمان. والأمر في غاية الوضوح، هناك علاقة بين الإيمان والأمانة والأمن، وهذه الألفاظ الثلاثة تنتمي لنفس المادة. والأصل الذي يتفرع منه كل شيء هو الإيمان، والإيمان يعطي الأمانة ويعطي أداء الأمانة و"لا إيمان لمن لا أمانة له"[2]، والله أمر بأداء الأمانات وحرم خيانة الأمانات ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾[3]، وكل المسؤوليات أمانات، فما نسميه اليوم بالمسؤولية هو أمانة.

إن هذه النعمة العظيمة التي هي الأمن، إذا أردنا أن ننعم بها حقيقة فإن علينا أن نتوب توبة نصوحا أفرادا وجماعات في مختلف أقطار الأمة، أن نعود إلى القرآن ونتوب إلى الله عز وجل، ونشتغل بما كان يشتغل به رسول الله صلى الله عليه وسلم، أي نمارس حياتنا في إطار شرع الله عز وجل... إذا كان ذلك كذلك جاءت العزة بالاستخلاف في الأرض، وجاء ما يعقبها من التمكين في الأرض، وجاءت النعمة الكبيرة الأخيرة الثالثة وهو تبديل الخوف القائم الآن في جميع أنحاء الأمة الإسلامية.

---

(١) – آل عمران الآية ٩٧.

(٢) – أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده، مسند أنس بن مالك، رقم الحديث ١٢٣٨٣، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد وآخرون.

(٣) – الأنفال الآية ٢٧.

وهناك الأمانة العظمى التي أشارت إليه الآية الكريمة بالنسبة لآدم وبنيه (أي للإنسان) في الآية المشهورة﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾[1]. هذه أمانة الاستخلاف العامة، فالأمانة العامة هكذا على إطلاقها هي أمانة الاستخلاف في الأرض، فبنو آدم غيرُهم مسخر لهم، وكل ما سواهم يخدمهم، وهم عليهم أن يخدموا الله عز وجل وأن يعبدوا الله جل جلاله. هذه الأمانة (أمانة الاستخلاف) تليها أمانة أخرى أعظم منها وهي أمانة "الشهادة على الناس" بالنسبة لهذه الأمة خاصة؛ لأن الأمم السابقة ما حُمِّلت تبليغ الدين فرضا، نعم، كان نفلا وكان مطلوبا من المسلمين قبل مجيء الرسول الخاتم، لأن جميع من مضى من المؤمنين كانوا مسلمين أنبياء وغير أنبياء، لكن لم يكونوا مكلفين فرضا بالتبليغ إلا في هذه الأمة فقد انتهى إرسال الرسل وانتهت النبوات، وصارت الأمة كلها مكلفة بما كان مكلفا به رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولذلك جعلها الله في مستوى معين﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾[2]، هذه الأمانة إلى جانب الأمانة الأخرى، كلها إنما تؤدى على حقيقتها بالإيمان، إذا وجد الإيمان أُدّيت، وإذا لم يوجد لا تؤدى هذه الأمانات، وهذه الأمانة على عمومها تحتها أمانات: فالصلاة أمانة والزكاة أمانة وتربية الأولاد أمانة... وكل تكليف من تكاليف الشرع أمانة من الأمانات، والله يأمر بأداء الأمانات بصفة عامة، وكلها مسؤوليات – بتعبير اليوم – يجب أن تؤدى، وإنما تؤدى على وجهها الصحيح بسبب الإيمان، فالهدف من الإيمان أن تؤدى الأمانات على أحسن وجه، وفي الحديث "لا إيمان لمن لا أمانة له"[3]

وعندما يوجد الإيمان وتؤدى الأمانة يأتي الأمر الثالث بصورة طبيعية وهو حال: يجد المؤمنون أنفسهم فيها، قلبا وقالبا: قلبا من حيث ما يشعرون به هم من طمأنينة وسكينة وراحة

(١) – الأحزاب الآية ٧٢.

(٢) – البقرة الآية ١٤٣.

(٣) – سبق تخريجه.

بال، ويشعرون بالراحة الكاملة نتيجة الإيمان وأداء الأمانة أو بالتعبير الآخر: الإيمان والعمل الصالح، ومن حيث القالب يجدون ما يسمى بـ"السلم" – وهو نوع من الأمن – ؛ فالأمن محله القلب أساسا، والصورة التي ينتجها ما في القلب في الخارج هي "السلام". فالأمن إذن نتيجة وليس فعلا يمكن أن نفعله، وإنما هو نتيجة طيبة ونعمة من الله عز وجل يتفضل بها علينا إذا آمنا وهو الشرط الأول، وإذا عملنا الصالحات وهو الشرط الثاني، وذلك ما نص عليه الوعد السابق ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾[1]. فيأتي الأمن نتيجة ما سبق، ويأتي نتيجة أسباب معينة، ويأتي نتيجة حصول شروط معينة على رأسها الإيمان الصحيح والعمل الصالح، فإذا وجد هذا بالنسبة للفرد وبالنسبة للجماعة جاءت هذه النتيجة وإلا اختفت.

ولا بأس من الإشارة في هذا المقام إلى سبب آخر من أسباب الاستمرار تشير إليه الآية الأخرى في سورة النحل، قال عز وجل:﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾[2]، حين اختفى الإيمان واختفى العمل الصالح واختفى الشكر وحل محله شيء آخر سماه القرآن، لكن هاهنا الإشارة إلى أن كفران النعمة يسلب نعمة الأمن، فالله عز وجل يعطي الأمن لكن عندما لا يقع الشكر على هذه النعمة فإنها تنقطع.

فالأمن يأتي بشروط محددة تفضلا من الله على كل حال، ويأتي بالإيمان وبالعمل الصالح، لكن هل يستمر أو لا يستمر؟ والجواب عن ذلك هو أن الأمن يستمر بشكر النعمة وينقطع بكفران النعمة.

رابعا: مَعيات الأمن.

إنه حين يوجد الأمن توجد أشياء أخرى معه، وترافقه خيرات وبركات، نجد آيات تتحدث عن هذا المعنى منها قوله تعالى:﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ

(١) – النور الآية ٥٥.

(٢) – النحل الآية ١١٢.

نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾١. فمع وجود الأمن في قلوب الأفراد وفي المجتمع، تأتي خيرات ويقع ازدهار اقتصادي وتقع حركة نشيطة في التجارة. واليوم نرى – على سبيل المثال – أن الأماكن والمناطق التي يضطرب فيها الأمن يفر المقاولون الكبار بأموالهم منها، ولا يستثمرون فيها، بينما إذا حدث العكس فإنهم يطمئنون على أموالهم ويتحركون بأمان. فهذا الازدهار الاقتصادي والراحة النفسية التي تكون للناس، تجعلهم يمارسون حياتهم في اطمئنان كامل، آمنين على أموالهم وعلى أعراضهم وعلى أنفسهم ويقع السلم الاجتماعي العام.

إذن، هذه النعمة التي اسمها "الأمن" هي نعمة مشروط وجودها بوجود الإيمان وبوجود العمل الصالح، وترتفع تلقائيا إذا وجد العكس، إنه لا يتبعض، وهو في القلب. وحينما نقول: "في القلب" فهو تلقائيا يمتد إلى باقي الجوارح وإلى جميع الجسد على القاعدة المشهورة التي أشار إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: "ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب"٢.

وما حدث في زماننا هذا، من الحديث عن أنواع كثيرة من الأمن، جعله كتاب الله عز وجل حالة واحدة إما أن تكون، وإما أن يكون عكسها وهو الخوف والفزع والقلق والاضطراب والحيرة والبأس... وغيرها مما ذكر الله تعالى في كتابه. فيمكن إذن أن نخلص إلى أمر عام هام هو أن هذه النعمة العظيمة التي هي الأمن، إذا أردنا أن ننعم بها حقيقة فإن علينا أن نتوب توبة نصوحا أفرادا وجماعات في مختلف أقطار الأمة، أن نعود إلى القرآن ونتوب إلى الله عز وجل، ونشتغل بما كان يشتغل به رسول الله ﷺ، أي نمارس حياتنا في إطار شرع الله عز وجل... إذا كان ذلك كذلك جاءت العزة بالاستخلاف في الأرض، وجاء ما يعقبها من التمكين في الأرض، وجاءت النعمة الكبيرة الأخيرة الثالثة وهو تبديل الخوف القائم الآن في جميع أنحاء الأمة الإسلامية، تبديل ذلك أمنا، ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾٣.

---

(١) – القصص الآية ٥٧.

(٢) – أخرجه البخاري في صحيحه، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم الحديث: ٥٢. ومسلم في صحيحه، باب أخذ الحلال وترك الشُبُهات، رقم الحديث: ١٥٩٩.

(٣) – النور الآية ٥٥.

المبحث الثالث

جهود معهد الدراسات المصطلحية بفاس في خدمة المفاهيم القرآنية.

لقد صاحب هذا الجهد الفكري الفريد في سبك ورص دُرَرِ منهج الدراسة المصطلحية عموما، والدراسة المصطلحية لألفاظ القرآن الكريم خصوصا، جهد علمي عملي، وتنزيل في ميدان البحث العلمي انطلق أولا بتأسيس "معهد الدراسات المصطلحية" سنة ١٩٩٣م بكلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز التابعة لجامعة السلطان محمد بن عبد الله بفاس، وتوج بإنشاء وحدة مصطلحات القرآن والحديث وعلومهما لطلبة الدراسات العليا المعمقة، ثم وحدة القرآن والحديث وعلومهما لطلبة الدكتوراه. وقد أقيمت بالمعهد ندوات وأيام دراسية ودورات تكوينية، متعلقة بقضايا المصطلح ومنهج دراسته وأبعاده الحضارية، وعلاقاته وامتداداته مع مختلف العلوم الشرعية والإنسانية والمادية... واستمر العطاء بإنشاء "مؤسسة البحوث والدراسات العلمية" المعروفة اختصار بـ (مبدع) سنة ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م – وهي مؤسسة علمية بحثية مستقلة – والمؤسستان معا تشتغلان بإشراف رائد الدراسة المصطلحية ومؤسس منهجها، فضيلة الدكتور الشاهد البوشيخي بمعية زمرة من زملائه وتلامذته النجباء، وأعمال مؤسسة البحوث والدراسات العلمية (مبدع) كثيرة ومتنوعة منها: المؤتمرات العلمية، والندوات الدولية، والأيام الدراسية، والملتقيات التخصصية، والدورات التكوينية، واللقاءات العلمية التواصلية[1].

أما الوحدتان المنشأتان للدراسات المصطلحية في القرآن الكريم والحديث الشريف برحاب كلية الآداب ظهر المهراز بفاس، فقد أثمرتا عدة رسائل دكتوراه من المستوى الجيد، لكونها من إنجاز ثلة من الأساتذة والطلبة الباحثين المقتنعين بأهمية الدراسة المصطلحية لألفاظ القرآن الكريم، فهم من الفتية الذين أمنوا بالقضية وبأبعادها الحضارية فأغذوا على الدرب السير، وأدلجوا سارين إلى النور فأصبحوا يحمدون الثرى، وفيما يلي عرض لرسائل الدكتوراه المعدة على هدي هذا المنهج والتي نُوقِش أصحابها:

(١) – تفاصيل هذه الأنشطة موجود على موقع المؤسسة بالشابكة على الرابط التالي: www.mobdii.com

ألفـاظ البنيان في القرآن الكريم والحديـث الشريف. محمد النمينج. إشراف: الدكتور الشاهـد البوشيخـي. جامعة سيـدي محمد بن عبـد الله، كليـة الآداب والعلـوم الإنسانية. دكتوراه. (نوقشت).

الله جـل جلاله في القـرآن الكريم. عبد الفتاح فهـدي. إشراف: الدكتـور حميد فتاح. جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية. دكتوراه. (نوقشت)

مفاهيـم العدل في القـرآن الكريم والحديـث الشريف. عبد السلام القـرفي. إشراف: الدكتور الشاهد البوشيخي. جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية. دكتوراه. (نوقشت).

مفهـوم الإتباع في القرآن الكريم. خالد العمراني. إشراف: الدكتور الشاهد البوشيخي. جامعـة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانيـة. دكتوراه. تاريخ المناقشة: ٢٠٠٥م.

مفهـوم الاختـلاف في القـرآن الكـريم. عمر كريمـي. إشـراف: الدكتور عبـد الرحيم الرحمـوني جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلـوم الإنسانية. دكتوراه تاريخ المناقشة: ٢٠١٤م.

مفهـوم الاستكبـار والاستضعـاف في القـرآن الكـريم (دراسـة مصطلحيـة وتفسـير موضوعي) مصطفى أوعيشة. إشراف: الدكتور الشاهد البوشيخي. جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية. دكتوراه. تاريخ المناقشة: ٢٠٠٤م .

مفهـوم الأمانـة والخيانة في القـرآن الكريم. عبـد القادر محجوبي. إشـراف: الدكتور محمـد المالكي. جامعة سيـدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلـوم الإنسانية. دكتوراه. (نوقشت).

مفهـوم الأمة في القرآن والحديث. الكبير حميـدي. إشراف: الدكتور أحمد البوشيخي. جامعـة سيـدي محمد بـن عبـد الله، كليـة الآداب والعلـوم الإنسانية. دكتـوراه. (نوقشت) (مطبوع).

مفهوم الأمر في القرآن الكريم (دراسة مصطلحية وتفسير موضوعي). جميلة زيان. إشراف: الدكتور الشاهد البوشيخي. جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية. دكتوراه الدولة. تاريخ المناقشة: ٢٠٠٥م..

مفهوم الإنسان في القرآن. أحمد بوشلطة. إشراف: الدكتور عبد الحميد العلمي. جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية. دكتوراه. تاريخ المناقشة: ٢٠٠٦م. (مطبوع)

مفهوم الآية في القرآن الكريم والحديث الشريف (دراسة مصطلحية وتفسير موضوعي). امحمد البوقاعي. إشراف: الدكتور أحمد البوشيخي. كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز. دكتوراه. تاريخ المناقشة: ٢٠٠٣م.

مفهوم البيان في القرآن والحديث. فاطمة بوسلامة. إشراف: الدكتور عبد الحميد العلمي. جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية. دكتوراه. (نوقشت).

مفهوم التأويل في القرآن الكريم والحديث الشريف. فريدة زُمَرّد. إشراف: الدكتور الشاهد البوشيخي. جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية. دكتوراه. تاريخ المناقشة: ٢٠٠١ م.(الطبعة الأولى: ٢٠٠١، والثانية ٢٠٠٥)

مفهوم الترتيل في القرآن الكريم د.محمد عبادي إشراف: الدكتور الشاهد البوشيخي (نوقشت).

مفهوم التقوى في القرآن والحديث. محمد البوزي. إشراف: الدكتور الشاهد البوشيخي. جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية. دكتوراه. تاريخ المناقشة: ٢٠٠٦.(مطبوع)

مفهوم الثواب والعقاب في القرآن والحديث. العربي لخنيك. إشراف: الدكتور أحمد البوشيخي. جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية. دكتوراه. (نوقشت).

مفهـوم التوبـة في القرآن الكـريم والحديث الشريـف. حسن هادي. إشـراف: الدكتور محمـد المالكي. جامعة سيـدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلـوم الإنسانية. دكتوراه. تاريخ المناقشة: ٢٠٠٥م.

مفهوم الجهاد في القرآن الكريم (دراسة مصطلحية وتفسير موضوعي) عبد الرحمان بوكيلي. إشراف: الدكتور الشاهد البوشيخي. جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية. دكتوراه. تاريخ المناقشة: ٢٠٠٣م.

مفهـوم الجهل والجاهلية في القـرآن الكريم (دراسة مصطلحيـة وموضوعية). محمد البوقاعـي. إشـراف: الدكتـور الشاهد البوشيخـي. جامعة سيدي محمد بـن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية. دكتوراه الدولة. تاريخ المناقشة: ٢٠٠٣م.

مفهـوم الحجاج في القرآن الكريم. (دكتـوراه الدولة). إعداد: الباحث: المهابة محفوظ ميـارة. إشراف: الدكتـور الشاهد البوشيخي.. كليـة الآداب ـ ظهر المهـراز، فاس ـ المغرب. تاريخ المناقشة:٢٠٠٥م.

مفهـوم الحفظ في القرآن الكـريم والحديث الشريف. دكتوراه. كمـال الدين رحموني. إشراف: د. عبد الحفيظ الهاشمي كلية الآداب وجدة تاريخ المناقشة: ٢٠١٤م.

مفهـوم الحق في القـرآن الكريم. دراسة مصطلحية وتفسـير موضوعي(دكتوراه دولة) عبد الرزاق الوزكيتي. إشراف: الدكتور إدريس نقوري. كلية الآداب الجديدة. تاريخ المناقشة: ٢٠٠١.

مفهـوم الحيـاة في القـرآن والحديـث. محمـد الأحمـدي. إشـراف: الدكتـور الشاهد البوشيخي. جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية. دكتوراه. تاريخ المناقشة: ٢٠٠٩م. (مطبوع)

مفهـوم الذكر في القرآن والحديث. رضوان مسباح. إشراف: الدكتور أحمد البوشيخي. جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية. دكتوراه. (نوقشت).

مفهـوم الرزق في القـرآن الكريم والحديث الشريـف. فاطمة أعبوا. إشـراف: الدكتور الشاهـد البوشيخـي. جامعة سيـدي محمد بن عبـد الله، كليـة الآداب والعلـوم الإنسانية. دكتوراه. (نوقشت)

مفهوم السلام في القرآن الكريم والحديث الشريف، الطيب البوهالي، إشراف: الدكتور الشاهد البوشيخي. جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية. دكتوراه (مطبوع)

مفهوم الشـرك في القرآن والحديث. عبد الرزاق الراشـدي. إشراف: الدكتور الشاهد البوشيخـي. جامعـة سيـدي محمد بن عبـد الله، كليـة الآداب والعلوم الإنسانيـة. دكتوراه. (نوقشت).

مفهوم الصـبر في القرآن والحديث (دراسة مصطلحيـة وتفسير موضوعي). الحسين جناني. إشراف: الدكتور الشاهد البوشيخي. جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية. دكتوراه، تاريخ المناقشة: ٢٠٠٤م.

مفهوم الصلاة في القرآن الكريم والحديث الشريف. إبراهيم إيمونن. إشراف: الدكتور أحمد البوشيخي. جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية. دكتوراه. (نوقشت).

مفهـوم الصلاح والإصلاح في القرآن الكـريم (دراسة مصطلحية وتفسير موضوعي). عبد الواحد حسيني. إشراف: الدكتور الشاهد البوشيخي. جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية. دكتوراه. تاريخ المناقشة: ٢٠٠٤م.

مفهوم الضلال في القرآن والسنة. إبراهيم بن البو. إشراف: الدكتور الشاهد البوشيخي. جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية. دكتوراه. (نوقشت).

مفهـوم الظلـم في القرآن والحديـث. عبد النور كـريم. إشراف: الدكتـور عبد الحميد العلمـي. جامعة سيدي محمد بن عبـد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانيـة. دكتوراه. تاريخ المناقشة: ٢٠٠٥م.

مفهوم العبادة في القرآن الكريم (دراسة مصطلحية وتفسير موضوعي). محمد شاكر المودني. إشراف: الدكتور الشاهد البوشيخي. جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية. دكتوراه. تاريخ المناقشة: ٢٠٠٤م.

مفهوم العداوة والعدوان في القرآن الكريم والحديث الشريف (دراسة مصطلحية وتفسير موضوعي). رقية جناو. إشراف: الدكتور محمد الروكي. جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية. دكتوراه. تاريخ المناقشة: ٢٠٠٥.

مفهوم العلم في القرآن الكريم (دراسة مصطلحية وتفسير موضوعي). مصطفى فوضيل. إشراف: الدكتور الشاهد البوشيخي. جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية. دكتوراه الدولة. تاريخ المناقشة: ٢٠٠٢م.

مفهوم الغيب في القرآن والحديث. إدريس مولودي. إشراف: الدكتور الشاهد البوشيخي. جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية. دكتوراه. تاريخ المناقشة: ٢٠٠٧م.

مفهوم الفتنة في القرآن والحديث. عبد اللطيف الفلالي. إشراف: الدكتور محمد المالكي. جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية. دكتوراه. تاريخ المناقشة: ٢٠٠٤.

مفهوم الفساد في القرآن والحديث (دراسة مصطلحية وتفسير موضوعي). فاطمة بيهردي. إشراف: الدكتور محمد الروكي. جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية. دكتوراه. تاريخ المناقشة: ٢٠٠٥.

مفهوم الفسق في القرآن والحديث. كلثومة دخوش. إشراف: الدكتور الشاهد البوشيخي. جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية. دكتوراه. تاريخ المناقشة: ٢٠٠٦م.

مفهوم الفقراء والمساكين في الكتاب والسنة. عبد السلام الخرشي. إشراف: الدكتور الشاهد البوشيخي. جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية. دكتوراه. تاريخ المناقشة: ٢٠٠١م. (طبع في مؤسسة الرسالة ودار المؤيد باسم فقه الفقراء والمساكين في الكتاب والسنة)

مفهوم القلب في القرآن الكريم (دراسة مصطلحية وتفسير موضوعي). نجيب بن عبد الله المدغري. إشراف: الدكتور محمد الصقلي. جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية. دكتوراه. تاريخ المناقشة: ٢٠٠١م.

مفهوم الكتمان في القرآن الكريم والحديث الشريف. محمد العربي الطلحي. إشراف: الدكتور محمد المالكي. جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية. دكتوراه. (نوقشت).

مفهوم المعروف والمنكر في القرآن والحديث. عبد الإله الإسماعيلي. إشراف: الدكتور الشاهد البوشيخي. جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية. دكتوراه. (نوقشت).

مفهوم الملائكة. رضوان الحضري. إشراف: الدكتور الشاهد البوشيخي. جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية. دكتوراه. (نوقشت)

مفهوم النصر في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. لخضر بوعلي. إشراف: الدكتور الشاهد البوشيخي. جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية. دكتوراه. (تاريخ المناقشة: ٢٠٠٥ ـ ٢٠٠٦).

مفهوم النعمة في القرآن والحديث (دراسة مصطلحية وتفسير موضوعي). عبد المجيد بنمسعود. إشراف: الدكتور أحمد البوشيخي. جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية. دكتوراه. تاريخ المناقشة: ٢٠٠٦م.(مطبوع)

مفهوم النفاق في القرآن والحديث. حنان إلهام. إشراف: الدكتور الشاهد البوشيخي. جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية. دكتوراه. (نوقشت).

مفهوم الهدى في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف (دكتوراه). إعداد الباحث: لحبيب مغراوي. إشراف: الدكتور محمد بوحمدي. تاريخ المناقشة: ٢٠٠٤/٠٧/١٤. كلية الآداب ـ ظهر المهراز، فاس ـ المغرب.(مطبوع)

مفهوم في سبيل الله في القرآن الكريم والحديث الشريف. عبد العالي معكول. إشراف: الدكتور أحمد البوشيخي. جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية. دكتوراه. (تاريخ المناقشة: ٢٠٠٢ - ٢٠٠٣).

خاتمة: أهم نتائج البحث المستخلصة.

المسألة المصطلحية اليوم في الأمة هي قلب الإشكال، ومفتاح الإقلاع، ومحرك التجديد، ومركز الدفاع عن الهُوية الدينية لهذه الأمة، والخصوصية الثقافية والوجهة الحضارية.

القرآن الكريم هو منطلق العلو والسيادة والرفعة الحضارية للأمة الإسلامية من جديد، وهو المنطلق لحل مشاكلها الفكرية والحضارية والاجتماعية والاقتصادية...

القرآن الكريم منظومة من المفاهيم؛ إذا حُصِّلت حُصِّلت كليات الدين، وإذا لم تُفَقّه لم يُفَقّه في الدين، ولم يُوَفَق للعمل والتنزيل والشهود الحضاري على العالمين.

الدراسة المصطلحية لألفاظ القرآن الكريم هي مفتاح التَفَقُّه في مفاهيم القرآن الكريم.

موجبات الدراسة المصطلحية لألفاظ القرآن الكريم كثيرة أهمها :

كون القرآن الكريم والسُّنة البَيَان جاءا للتمييز بين المفاهيم الربانية الصحيحة والمفاهيم الإبليسية السقيمة، بين مفاهيم الخير والصلاح... ومفاهيم الشر والإفساد والضلال.

القرآن الكريم والسنة النبوية نسق من المفاهيم المترابطة والمتكاملة.

المصطلح القرآني هو الأصل والمنطلق في مصطلحات مختلف العلوم والفنون منه تستمد وعلى وفقه تُقَوَّمُ وتُعيَّر.

حصـول تشوه في فهم بعض المصطلحات القرآنية التي أُلْبِست شيئا من الفُهُوم البشرية والاصطلاحات الحادثة عبر الأزمنة والعصور.

مقاصـد الدراسة المصطلحية لألفاظ القـرآن الكريم تكاد تنحصر في: إقامة المصطلح الأصل – المصطلح القرآني – وتقويم المصطلح الفرع، واستقامة المصطلح الوافد.

إقامة المصطلح القرآني الأصل يستلزم:

إقامة لفظه.

وإقامة مفهومه.

وإقامة العمل به.

وإقامة بيانه. (ولكل واحدة منهن تفاصيل ومستلزمات).

المصطلح الفرع: هو مصطلح العلوم والفنون والصناعات في تاريخنا الحضاري الذي يمثل تفاعل الأمة مع التاريخ وفي التاريخ وإسهامها الحضاري في مختلف المجالات.

تقويم المصطلح الفرع: معناه تحديد قيمته بالنسبة لذاته، وبالنسبة لأصله، وبالنسبة لحاجة الأمة إليه، الآنية والمستقبلية.

تقويم المصطلح الفرع يقتضي:

تقويم لفظه.

وتقويه مفهومه.

وتقويم إعماله بمقارنته بالمصطلح القرآني الأصل، وبيان مدى حاجة الأمة إليه حالا ومآلا.

الدراسة المصطلحية لألفاظ القرآن الكريم بالمفهوم الخاص هو: "طريقة البحث المفصلة المطبقة على كل مصطلح من المصطلحات المدروسة، في إطار منهج من مناهج الدراسة المصطلحية بالمفهوم العام"

أركان الدراسة المصطلحية لألفاظ القرآن الكريم خمسة وهي: الدراسة الإحصائية، والدراسة المعجمية، والدراسة النصية، والدراسة المفهومية، والعرض المصطلحي. وهي مترابطة ومتكاملة تحتاط أولاها لأخراها وتمهد لها وتصحح اللاحقة أخطاء السابقة وتمحص نتائجها.

الدراسة المصطلحية لألفاظ القرآن الكريم ليست منهجا علميا نظريا صرفا لا علاقة لها بالواقع، وإنما منهج جرب في مشاتل معهد الدراسات المصطلحية، ومؤسسة البحوث والدراسات العلمية، ووحدات البحث المصطلحي في القرآن الكريم والحديث الشريف فأثمر رسائل جامعية يانعة، وأياما دراسية ناجحة، ودورات تكوينية نافعة، وندوات دولية تمهد الطريق لكل لبيب أن يأخذ الكتاب بقوة علمية منهجية، وإيمان رباني صادق، والله من وراء القصد وهو يهدي إلى الصراط المستقيم.

لائحة المصادر والمراجع المعتمدة في البحث.

١. القرآن الكريم، مصحف المدينة المنورة للنشر الإلكتروني برواية ورش عن نافع.

٢. تحريف المصطلحات القرآنية وأثره في انحراف التفسير في القرن ١٤ هـ، للأستاذ: فهد الرومي، بحث مقدم لمؤتمر جامعة الشارقة بكلية الشريعة ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م بعنوان: "الجهود المبذولة لخدمة القرآن الكريم من بداية القرن ١٤ هـ إلى اليوم".

٣. دراسات مصطلحية، للدكتور الشاهد البوشيخي، الناشر: دار السلام – القاهر – مصر، الطبعة الأولى: ١٤٣٣هـ- ٢٠١٢م.

٤. لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري، (ت: ٧١١هـ)، الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ.

٥. مجموع الفتاوى، لتقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (ت: ٧٢٨هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، سنة النشر: ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

٦. مسند الإمام أحمد، لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت ٢٤١هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، الناشر: دار الحديث – القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م

٧. مشروع المعجم التاريخي للمصطلحات العلمية، للدكتور الشاهد البوشيخي، الناشر: مطبعة أنفوبرانت ضمن سلسلة دراسات مصطلحية، فاس – المغرب الطبعة الأولى: ٢٠٠٢م.

٨. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، لأحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي،

أبو العباس (ت ٧٧٠هـ)، الناشر: المكتبة العلمية – بيروت.

٩. مصطلحات النقد العربي لدى الشعراء الجاهليين والإسلاميين قضايا ونماذج، للدكتور الشاهد البوشيخي، الناشر: دار القلم بباريس سنة: ١٩٩٣م.

١٠. المفردات في غريب القرآن، لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (ت: ٥٠٢هـ) تحقيق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٢ هـ

١١. مفهوم التأويل في القرآن الكريم والحديث الشريف، للدكتورة فريدة زمرد، الناشر: مطبعة أنفوبرانت – فاس – المغرب، الطبعة الثانية: ٢٠٠٥م.

١٢. الموطأ، للإمام مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني (ت ١٧٩هـ)، صححه ورقمه وخرج أحاديثه وعلق عليه: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان سنة: ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٥ م.

١٣. نحو تصور حضاري للمسألة المصطلحية، كتاب دراسات مصطلحية للدكتور الشاهد البوشيخي.

الدكتور محمد معين الدين

- الاسم الوالد: محمد روح الأمين
- الجنسية : بنغلاديشي
- العنوان الحالي : الدكتور محمد معين الدين ، الأستاذ المشارك ، قسم العلوم القرآن والدراسات الإسلامية ، الجامعة ، الإسلامية العالمية شيتاغونغ ، شيتاغونغ ، بنغلاديش.

المؤهلات العلمية

١. دكتوراه في الأدب العربي بعنوان: "الإتجاه الأدبي لتفسير القرآن الكريم في القرآن العشرين" قسم اللغة العربية وآدبها ، كلية العلوم الإنسانية ، الجامعة الإسلامية كوستيا ، بنغلاديش، ٢٠١٥م.

٢. الماجستير في الأدب العربي بعنوان: "الشعر العربي في تفسير الطبري:دراسة تحليلية" قسم اللغة العربية وآدبها ، كلية العلوم الإنسانية ، الجامعة الإسلامية كوستيا ، بنغلاديش. ٢٠١١م.

٣. الماجستير في الأدب والنقد: بعنوان "رثاء الأخ بين الخنساء ومتمم بن نويرة : دراسة موازنة" قسم الأدب والنقد ، كلية اللغة العربية ، جامعة الأزهر ، القاهرة ٢٠٠٤م.

٤. ليسانس في اللغة العربية ، كلية اللغة العربية ، جامعة الأزهر ، القاهرة .١٩٩٤م.

٥. شهادة الثانوية الأزهرية ، معهد البعوث الإسلامية ، القاهرة .١٩٩٠م.

٦. شهادة الإعدادية الأزهرية ، معهد البعوث الإسلامية ، القاهرة .١٩٨٨م.

٧. شهادة العالم ، مجلس التعليم لمدارس بنغلاديش ، داكا ، ١٩٨٥م.

الحركة الإلحادية في بنغلاديش: أسبابها وظواهرها وعلاجها في ضوء القرآن الكريم

الدكتور محمد معين الدين

الأستاذ المشارك
قسم علوم القرآن والدراسات الإسلامية
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
الجامعة الإسلامية العالمية شيتاغونغ
المحمول: ٠١٧١٢١٨٧٠٨١
البريد الألكتروني : mainu99@yahoo.com

مستخلص البحث :

يهدف البحث إلى معالجة مشكلة الإلحاد التي ظهرت مؤخرا بشكل خطير في بنغلاديش ، فعرض الباحث الحركة الإلحادية في مجتمع بنغلاديش مبينا نشأتها وانتشارها وصورها وأسباب شيوعها في الأيام الأخيرة. فيتناول البحث هذه المشكلة لكونها فلسفة هدامة تدفع المسلم إلى تشكيك الدين الإسلامي وتدعو إلى الإباحية والرذائل ، فيجب تنبيه المسلمين لاسيما الشباب منهم عن خطورتها ، وآثارها الواضحة في العقيدة والأخلاق، مثل : زيادة ظاهرة التشكيك في الدين الإسلامي والإساءة لله عز وجل وللرسول صلى الله عليه وسلم وللإسلام الحنيف .

وتوصل البحث إلى النتائج التالية : إن الإلحاد أصبحت ظاهرة خطيرة على مسلمي بنغلاديش ، فأعداء الإسلام من العلمانيين والملحدين الناشطين في مواقع الإنترنت بدأوا ينهمكون جميعا في المؤامرة لاستئصال الإسلام من أرض هذا البلد. والسبيل الوحيد للقضاء على الإلحاد من مجتمع بنغلاديش هو اتباع التوجيهات القرآنية وسلوك منهج الرسول صلى لله عليه وسلم.

وقد أوصى البحث بضرورة دراسة هذه الظاهرة دراسة جدية ، ووجوب المسارعة إلى الوقوف في وجه هذه الحركة المشينة ، وتفعيل دور العلماء والدعاة في تنبيه المسلمين إلى فداحة أمرها فيها، وزيادة الاهتمام بتعيلم الناشئين أسس الإسلام وعقائده وغرسها في نفوسهم حتى لا يقع في هذه المصيدة المدمرة ، ووضع المنهج الإسلامي الصحيح في جميع المراحل الدراسية، وعقد ندوات عديدة للرد عليها بالأدلة العقلية والنقلية من القرآن والسنة.

الكلمات المفتاحية: حركة الإلحاد ، المدون ، الإساءة ، المجتمع البنغلاديشي، علاج الإلحاد

مقدمة :

الحمـد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد:

فإن بنغلاديش تعتبر دولة مستقلة ضمن مجموعة الدول الأسوية، أنشئت عقب استقلالها عـن باكستان سنة ١٩٧١م ، وقـد كانت تسمى باكستان الشرقيـة . وتبلغ مساحة بنجلاديش ٥٥١٢٦ ميل مربع . وهي سابع أكبر دول العالم من حيث عدد السكان، إذ إن عدد سكانها نحو ١٦٠ مليـون نسمة، ٩٦٪ منهم مسلمون، فهي رابع أكبر الـدول من حيث عدد المسلمين فيها، ويعتبر الإسلام الديانـة الرسمية داخلها، لكن تعيش الديانات الأخرى وتمارس شعائرها في سلام.

وتعـاني بنغلاديش من مشـكلات اجتماعية واقتصادية وثقافيـة وغيرها من المشكلات الرهيبـة يتولـد بعضها عن بعض، ويؤثر بعضها في وجـود بعض، ومن أهم هـذه المشكلات الحركـة الإلحادية التـي تسبب القلـق النفسـي والاضطـراب، وانتشار الجريمـة، وانعدام الأخلاق والفردية والأنانية، والظلم بكل معانيه وصوره، والانحلال والفساد. وقد ظهرت هذه الحركة المدمرة في أرض بنغلاديش منذ استقلالها عن باكستان . ولكنها كانت غير مباشرة وعنـد بعض الصنـف والجهات فقط ، وقد ازدادت هذه الحركة الخبيثة في هذه الأيام تحت ظل الحكومة العلمانية حيث نشط فريق من الشباب المعاندين للدين العاملين باسم المدونين والناشطين في مواقـع الإنترنت (blogger and online activist) في عملية الاستهزاء بالله والرسـول -صلى الله عليـه وسلم- والإسلام غايـة الاستهزاء. ويتجـرؤون في نشر المقولات الفاحشـة والتهم الباطلة التي يأباها الطبع ضد الأنبياء والرسل عليهم السلام على التوالي بدون أي تردد ولا إعاقة؛ بل في أمن الحكومة وحمايتها.

فيحـاول البحـث تجلية هذه الظاهـرة المشينـة في بنغلاديش بتحديد مفهـوم الإلحاد، وتاريخـه، وظهوره في بنغلاديش، والتعرف على صورها ووسائلها وآثارها السلبية في المجتمع البغلاديشـي وخطورة هذا الأمر علـى عقيدة الأمة ، وبيان طرق مجابهتها وأساليب علاجها في ضـوء القـرآن الكـريم وتعاليمه السمحـة . ويختم بالدعـوة إلى المؤسسـة الإسلامية إلى القيـام بمسؤولياتها بالتصدي لبوادر الإلحـاد لإنقاذ المسلمين من تخريب عقائدهم وتدمير وأخلاقهم . والله هو المستعان.

المبحث الأول

مفهوم الإلحاد وأفكاره وأنواعه

الإلحــاد لغة : الإلحــاد (Atheism) يأتي من الكلمــة الإغريقية ATHEOS، والتــي تعني بــدون آلهة ، فهو في اللغة يطلــق على الميل ، "العدول عــن الشيء[1] ، والانحراف عــن الاستقامــة عنها[2] ، ويأتي بمعنى المــراء والجدال والجور والظلــم والطعن ، يقال : لحد الرجــل في الدين لحداً، وألحــد إلحاداً: طعن[3]. يقول ابن جرير الطــبري " أصل الإلحاد في كلام العرب : العدول عن القصد والإعراض عنه، ثم استعمل في كل معوج غير مستقيم"[4]. قال ابن الجوزي: "الإلحاد هو العدول عن الاستقامة"[5]. قال الراغب: "أَلْحَدَ فلان: مال عن الحقّ"[6].

الإلحــاد اصطلاحا: وضح عبد الرحمن عبد الخالق المراد بالإلحاد "الكفر بالله والميل عــن طريق أهل الإيمان والرشد ، وظهور التكذيب بالبعث والجنة والنار وتكريس الحياة كلها للدنيــا فقــط" [7]. وجاء في "معجم لغــة الفقهاء" أنه " الكفر بجميع الأديــان ، وإنكار جميع

(١) –ابن منظور ، محمد بن مكرم ، لسان العرب ، دار صادر ، الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ ، ج ٣ ، ص ٣٨٩.

(٢) – الرضــا ، محمــد رشيدبــن على ، تفسير المنار ، الهيئة المصرية العامــة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٠م ج ٩ ، ص ٤٤١.

(٣) – الفيروزآبادي ، القاموس المحيط، ص٤٠٤. الفيومي ، المصباح المنير ، ج ٢ ، ص ١٠٦.

(٤) – ابن جرير الطبري. جامع البيان عن تفسير آي القرآن . دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٧٦م. ج ٩ ، ص ١٣٤.

(٥) – ابن الجوزي ، تلبيس إبليس، دار الفكر للطباعة والنشر، بيرزت، لبنان ، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م ، ص ١٤٥.

(٦) – الأصفهاني ، أبو القاسم الراغب، المفردات في غريب القرآن ، دار القلم، دمشق ، الطبعة الأول ، ١٤١٢ هـ . ص:٧٣٧

(٧) – الميــداني ، عبــد الرحمن ، كواشف زيوف المذاهب المعاصرة ، دار القلم الدمشقية ، الطبعة الثانية ٢٠٠٢م.، ص٤٠٩.

الرسالات"[1].

فالملحد : والملحد هو المائل عن الصواب، فهو الذي لا يعترف بوجود خالق أو إله أو رب للكون ، ويؤمن بالعلم فقط، ولا يؤمن بما لا يراه كالغيب. ويرى عبد الرحمن الميداني أن الملحد في هذا العصر هو : "من أنكر وجود رب خالق لهذا الكون، ويعتبر الحياة من أثر التطور الذاتي للمادة"[2]. وقال الإمام خضر حسين ، : فهو العادل الجائر عن القصد[3].

أفكار الملحدين: كل أفكار الملحدين قائمة على معاداة الدين فمن أبرز أفكار الملحدين:

- - إنكار وجود الله تعالى، وإنكار الغيبِ جملة وتفصيلاً ، وقصرهم الإيمانَ على الملموس والمحسوس.
- - استهزاؤهم بالشعائر الدينيّةِ جميعها ، ووصفهم لأهلها بالرجعيينَ والمتخلّفينَ
- - إن الكون والإنسان والحيوان والنباتات وجد صدفة وسينتهي كما بدأ، ولا توجد حياة بعد الموت.
- - عدم الاعتراف بالمفاهيم الأخلاقية ولا بالحق والعدل ولا بالأهداف السامية، ولا بالروح والجمال.
- - الإنسان مادة تنطبق عليه قوانين الطبيعة التي اكتشفها العلوم كالأشياء المادية[4].

تصنيف الإلحاد :

إن للإلحاد أنواعا وأشكالا مختلفة وقد اتخذت صورا مختلفة مع مرور الزمن وبالتغيرات الجغرافية والسياسية. فأهم أنواع الإلحاد حسب تصنيف مجلة تايم الأمريكية، الشقيقة لـ CNN التي نشرت مؤخرا كالآتي[5]:

---

(١) - محمد رواس قلعجي - حامد صادق قنيبي ، معجم لغة الفقهاء ، دار النفائس ، بيروت ، الطبعة الثانية، ١٤٠٨ هـ ،ص:.٨٧

(٢) - عبد الرحمن ، عبد الخالق. الإلحاد ، أسباب هذه الظاهرة وطرق علاجها . مرجع سابق ، ص ٦.

(٣) - محمد الخضر حسين ، الإلحاد (أسبابه ، طبائعه ، مفاسده ، أسباب ظهوره ، علاجه) ، تقديم وتعليق : محمد إبراهيم الشيباني ، مكتبة ابن تيمية ، الكويت ، ١٤٠٦هـ ، ص ١٣.

(٤) - من موقع موقع الدرر السنية، http://dorar.net/enc/mazahib/577

(5) -http://archive.arabic.cnn.com/2013/entertainment/10/27/types-of-atheists

النــوع الأول : الملحدين المثقفين، وهم يستندون على المعلومــات والدلائل التي يجمعونها حول الديانات ويقتنعون بها لتكون اساسا لجدالهم ومناظراتهم.

النوع الثاني : الملحدون النشطاء، وهم أشخاص ينشطون بالدعوة إلى الإلحاد ويؤكدون أن العالم سيكون مكانا أفضل اذا كان العالم كله ملحد.

النوع الثالث : الملحدون الطلاب، وهم لا يتمسكون بمعتقدها الإلحادي بشكل كامل .

النــوع الرابــع : الملحدون المعاديــن للمؤمنين، وهــم مجموعة تحارب الإيمــان وتصنف الاعتقاد بوجود الأديان جهل، ويرون أنفسهم أكثر الناس فهما بخطورة الأديان على العالم.

النــوع الخامس :مجموعة من الملحدين تعتبر أقلية بالنسبة لأنواع الملحدين الستة، وهم ببساطة لا يخوضون بأمور وجود الدين من عدمه.

النــوع السادســ : الملحــدون المتتبعين لبعض طقوســ الديانات، وهــم مجموعة لا تؤمن بالديانــات أو وجود حياة بعد الموت، الا انهم يتتبعون بعض العادات التي لها اصول دينية مثل التأمل أو ممارسة اليوغا إلى جانب احتفالهم بالأعياد الدينية

المبحث الثاني

الحركة الإلحادية في بنغلاديش: نشأتها ووسائلها وصورها

بداية الحركة الإلحادية في بنغلاديش وأسباب نشرها

إن عدد الملحدين في بنغلاديش المسلمة قليل جدا منذ البداية ، ولكن سيطرتهم السياسية والإعلامية تجعلهم مناهضا ضد غالبية سكانها. وقد دخلت الإلحادية في بنغلاديش بعد ظهور الشيوعية في روسيا في بداية القرن الماضي، وأصحاب تلك الأفكار الاشتراكية أدخلوا الإلحادية في بنغلاديش. فبدأ هؤلاء ينشرون أفكارهم الهدامة بين المثقفين والطلاب المتميزين في الجامعات والمعاهد الرئيسية في الدولة. فوجدوا من بعضهم قبولا حسنا لحل مشاكل الدولة العديدة بعد حصول إعجابهم شديد لشعاراتهم وهتافتهم المزيفة بأن الاشتراكية هو الحل الوحيد لحل المشكلات السائدة في بنغلاديش.

وأول ما ظهرت الإلحادية في بنغلاديش بكتابة بعض الشعراء ضد الإسلام علنا في عام ١٩٧٣ه ، مثل داود حيدر شاعر ناشئ كتب قصيدة هجا فيها الرسول صلى الله عليه وسلم هجاء فاحشا، فثار المسلمون وادعوا إعدامه فاضطرت الحكومة طرد هذا الملحد الفاجر من بنغلاديش ، فهرب إلى الهند ثم إل الألماني، إلى ألمانيا[١] ، ويعتبر هذا هو أول بذرو للحركة الإلحادية في دولة بنغلاديش غالبية سكانها مسلم. ثم توالت بعدها بعض المحلدين من المفكرين والمثقفين حتى وصلت هذه الحركة إلى شكل جماعي في عام ٢٠١٤م ثم بلغت إلى الدرجة الرهيبة

أسباب شيوع الإلحادية في بنغلاديش في الأونة الأخيرة

يمكن أن نوجز أسباب شيوع ظاهرة الإلحاد إلى بنغلاديش فيما يلي:

١-هزيمة الأحزاب السياسية الإسلامية والأيدولوجية الدينية بعد الاستقلال مباشرة

(١) - محمود صديقي ، "الرد على شبهات الملحدين" ، دار مدينة للطباعة والنشر ، داكا ، ٢٠٠١م ، ص ٦٧

وسيطرة العلمانيين على كافة مجالات الدولة. وكان للهزيمة أثرها في زعزعة العقيدة، ووجود الشعور بالنقص، واستغلال العلمانيين نشر أفكارهم الخبيثة بأن الدول المتقدمة لم تتطور إلا عندما أبعدت الدين عن الحياة.

٢ – رعاية الحكومة العلمانية على الإلحاد :إن الحكومة البنغلاديشية الحالية تؤوي الملحدين وتجعل لهم هذه البلاد المسلمة ملاذا آمنا، وتتبع عقيدتهم الكفرية الفاسدة جريا وراء المصالح السياسية والخارجية. وتساعدهم على نشر العديد من العناصر المعادية للإسلام من خلال الكتابات، وتحميهم الحكومة الحالية بالشرطة والدعم المادي.

٣- صياغة القانون والسياسة اللا إسلامية: قد صاغت الحكومة الحالية عدة سياسات وقوانين واحدة تلو الآخرى في السنوات الأخيرة التي تعارض القرآن الكريم والسنة النبوية مباشرة ، على الرغم من الاحتجاج القوي من المسلمين المخلصين وضعت الحكومة سياسة المرأة ونظام التعليم القومي العلماني وتعديل الدستور بإضافة العلمانية وإلغاء الثقة والإيمان بالله وغيرها من القرارات المثيرة للجدل.

٤- تأثير الثقافة الأجنبية والأفكار على الشباب ، لأنهم عادة ضعفاء دائما يميلون إلى نمط جديد والثقافة والأفكار جديدة. فيحبون أن يأخذ كل شيء من غرب وتابع ثقافتهم الإطلاق حتى من لا مثيل لها مع أخلاقياته. بعد ذلك يصبح ملحدا.

٥- انهماك معظم الوسائل الإعلامية من الوسائل الطباعية والإلكترونية في المساعدة القوية المستمرة على الحركة الإلحادية والإساءة والاستهزاء بالإسلام والمسلمين وعلماء الدين. وهم يستمرون في المؤامرة الخطيرة لتفريق الشعب من خلال الإذاعات الكاذبة ضد علماء الإسلام والمدارس الدينية والإشاعات المثيرة للأوهام والشبهات التي لا علاقة لها بالواقع.

٦- تنشط فريق من الشباب المعاندين للدين العاملين في مواقع الإنترنت (blo -ger) في عملية الاستهزاء بالله والرسول صلى الله عليه وسلم والإسلام غاية الاستهزاء. ويتجرؤون في نشر المقولات الفاحشة والتهم الباطلة التي يأباها الطبع ضد الأنبياء والرسل

على التوالي بدون أي تردد ولا إعاقة؛ بل في أمن الحكومة وحمايتها. وظهرت جراءة الاستهزاء بالإسلام بأساليب مختلفة .

٧- دعم القاديانيين عن طريق غير مباشر والعلمانيين عن طريق مباشر : فهم يدعمون هؤلاء الشباب المنحرفين بالمؤونة الوفيرة والدعم المالي الكبير. فبدعمهم وتشجيعهم يجرؤون الآن بعض الملحدين – مثل عدو الإسلام شاهريار كبير- يطالبون منع السياسة المبنية على تعاليم الدين (الحركات الإسلامية السياسية) من جهة، وعلى تطبيق البرامج المخالفة للإسلام بالتعاون مع الحزب المرتد مثل القاديانية من جهة أخرى(١).

أبرز الملحدين في بنغلاديش

وفيما يلي أذكر أبرز الملحدين الذين يعملون علنا في بنغلاديش .

× داود حيدر: من محافظة فابنا شمال بنغلاديش ، شاعر وكاتب ، وكان جل كتاباته هو نقد الدين وسخريته ، وكتب قصائد عديدة سخر فيها الإسلام والنبي محمد صلى الله عليه وسلم ، فثار الشعب المسلم واحتجوا احتجاجا كبيرا ، فسجنه الحاكم ثم طرده من أرض بنغلاديش ، فذهب هذا الملحد إلى الهند ثم هاجر إلى برلين.

× الكاتب همايون أجاد: وهو أيضا من كبار الملحدين المعلنين علنا ، له دور كبير لتحويل الجيل الجديد إلى الإلحادية ، كان هدفه الأصلي في جميع تأليفاته معارضة الدين ونقد أصوله ومبادئه ، وكان يرى الاشتراكية هو السبيل الوحيد لحل المشكلات الراهنة ، وليس الإسلام كما يدعونه الأصوليون. ومن أشد تاليفه هجوما على الإسلام "ناري" (المرأة) الذي تم مصادرته بعد سنة .

× عارض على متببور: كان رجلا فقيرا ، يعمل مزارعا ، ثم صار فجأة نجما كبيرا بين الملحدين بآراه الغربية عن الله وعن الدين ، وتقديم عدة شكاوى سخيفة عن الله وخلقه ووجوده ، له عدة كتب منها "البحث عن الحق" ، و"شر الخلق" ، قد أثار في كتاباته عدة أسئلة لكه تنكر الإله .

(١) – المرجع السابق ، الرد على شبهات الملحدين ص ٧٢

× الدكتـور أحمـد شريف من مواليـد ١٩٢١م ، حصل على الدكتوراه مـن جامعة داكا عـام وكان مدرسا في جامعة داكا قسم اللغـة البنغالية ، وهو أعلن إلحاده علنا ، وكان يشجع تلاميذه على الإلحادية في محاضراته وكتاباته وأقواله في الندوات والتجمعات المختلفة. توفي هـذا الملحد عام ١٩٩٩م بعـد أن خرب كثيرا من عقول الشباب المسلـم. ولم يتم الجنازة ولا الدفن له حسب وصيته الأخيرة١.

الشاعـر شمسـ الرحمـن ، يعتبر أكـبر شاعر في بنغلاديشـ ، وكان شديـد الكره على الإسـلام ومبادئه ، ومن أشهـر مقالته ضد الإسلام ، " صـوت الآذان في الفجر يشبه عندي كصوت العاهرة"٢. (نعوذ بالله)

× تسليمة نسرين الكاتبة المناصرة لحقوق المرأة البالغة من العمر ٥٢ عاما، والتي تنتقد بشـدة الإسلام الأصـولي، فاضطرت إلى مغادرة بنغلاديش عـام ١٩٩٤بعد تلقيها تهديدات بالقتـل من جماعات متطرفة أدانوا ما كتبته ووصفوها بالتجديـف. وكما أن الكاتبة الملحدة المسيئة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم" تسليمة نسرين" طالبت الحكومة بالتغيير للقرآن عام ١٩٩٤م٣.

كبـير شودري : مـن كبار المفكرين اليساريين في بنغلاديشـ ، كان من طليعة المعارضين لمحو البسملة من دستور بنغلاديش، ومن وصاياه الأخيرة " لا تسمعوا عند موتي الكلمة التي علمها محمد بل سمعوني أشعارا من شعر تاغور (شاعر هندي مشهور) ٤.

× شاهريـار كبير : أكبر المعادين للإسلام ، الذي يطلـب علنا منع السياسة المبنية على تعاليـم الدين (الحـركات الإسلامية السياسية) مـن جهة، وعلى تطبيـق البرامج المخالفة للإسلام بالتعاون مع الحزب المرتد مثل القاديانية من جهة أخرى.

× المدونون الملحدون (blogger)

(١) - https://bn.wikipedia.org/s/٢ek٢
(٢) - https://bn.wikipedia.org/s/٢٦fl
(٣) - محمود صديقي ، الرد على شبهات الملحدين ، ص ٧٨
(٤) - المرجع السابق ، ص ٨١

في شهر فبراير عام ٢٠١٤ تم عقد احتشاد كبير في ميدان شاه باغ أحد الميادين الرئيسة بجوار جامعة داكا في العاصمة البنجلاديشية داكا ، بقيادة جهة اليسريين والملحدين للمطالبة على عقوبة الإعدام لبعض قادة سياسية إسلامية . ولو كانت مطالبهم غير سياسية ولكنه ظهر بعد ذلك مطالبهم ضد الإسلام والاستهزاء به وخرجت عن طابعها الحيادي.. فظهرت الإلحادية بشكل خطير بأيدي بعض المدونين الملحدين . وهؤلاء جميعا لهم مواقع خاصة في الانترنت، ينشرون فيها كتاباتهم المسيئة إلى الله تعالى والرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن والإسلام[1]. ومن أبرز هؤلاء المدونين :

أحمد رجيب حيدر ، المكنى بـ "تهابا بابا" ، كان يكتب في موقعه مغيرا الأسماء المقدسة في الإسلام مثل : اسم النبي صلى الله عليه وسلم 'محمد' نطق الإساءة، فنطقه 'مُهَا أَمَّد' الذي يعني في اللغة البنغالية "المجنون الأكبر" (معاذ الله) . كما تكلم عن أحاديثه وشخصيته وزواجه وعاداته وشمائله وأصحابه بطريقة مسيئة جدا تكرهها طبيعة الناس العادي فضلا عن المسلم المحب للرسول عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم[2]. حتى أصبح من كبار الملحدين في الأونة الأخيرة، وقد نال جزاءه في الدنيا حيث مات مقتولا عام ١٩١٤م.

أسيف محي الدين، الذي كتب في موقعه "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم من النستيق الرجيم (النستيق كلمة بنغالية معناهه الملحد) الإساءة إلى القرآن: قال هذا المسيء إلى نبي الإسلام باسم زائف تحت عنوان "اقرأ القرآن واضحك أنت وأضحك الناس"[3]. وغيرها من الكلمات لا يمكن ذكرها.

أفيجيت راي له موقع خاص ، باسم "مكتو مونا (القلب المفتوح) ينشر فيه الكاريكاتير الساخفة والنكت السخرية ضد الإسلام والمسلمين [4].

عارف الرحمن القاطن في إنجلترا الذي قال إن كلمة "الله" من اختراع محمد ، ليس له أي حقيقة .

---

(١) – رقيب الحق ، الإسلامفوبيا في بنغلاديش ، ، الجريدة اليومية "أمار ديش" ١١ يناير ٢٠١٣م.
(٢) – انظر موقعه : www.amarblog.com
(٣) – جاهد الإسلام جهان ، مذكرة التدوين والمدون ، مكتبة أحمد ، شيتاغونغ ، ٢٠١٤م ، ص ١٥
(٤) – http://www.shodalap.org/smraihan/١٨٥٠٢/

أشـرف الإسـلام راتول ، الذي قال : (نعوذ بـالله) الله في كل مكان، هو في الطريق وفي الغائـط، الله في كل مكان، هـو في البرقع وفي داخلية المرأة، الله في كل مكان، هو في الماء وفي البراز، الله في كل مكان، هو في بول الإبل وفي الجماع١. (تعالى الله عما يصفون)

أمـي رحمن بيال، إبراهيم خليل، وغيرهم كثير الذين لهم مثل هذا عشرات من المقولة المسيئة في مواقعهم الاجتماعية .

صور الإلحاد في بنغلاديش :

إن الإلحاد له خلفية تاريخية منذ نشأة بنعلاديش ثم ظهر بشكل جلي في الأونة الأخيرة بأشكالـه وصوره المتعددة لإضلال الشباب عن القيم والإخلاق، وتحويل أفكارهم عن مفهوم وحدانية الله سبحانه وتعالى إلى نظرية الوجودية الباطلة ، فمن صور الإلحاد في بنغلاديش :

أ- الإلحاد تحت ظل المنظمات السياسية: توجد في بنغلاديش بعض المنظمات السياسية التـي تلعـب دورا مباشرا أو غير مباشر في انتشار الإلحاد بطـرق متعددة. كما هناك العديد مـن الأحزاب السياسية التي تساعد على انتشـار الإلحاد من خلال اعتماد فنية مختلفة من نشاطاتهم ومهامهم٢.

ب- تقديم المفاهيمِ الخاطئة عنِ الإسلام بوسائل الإعلام المطبوعة: توجد في بنغلاديش عشـرات جرائد يوميَّة مَـن الوسائل الإعلاميَّة، تقـومُ أكثرُ هذه الجرائـد- سوى عدد قليل جدا- بتقديم المفاهيم الخاطئة عنِ الإسـلام والعقائد الأساسيَّة للتوحيدِ والرِّسالة والآخِرة كلَّ يـوم. وأصحاب هذه الجرائد يُحاولون صَرْفَ قلـوب المسلمين المتدينين عنِ الله والرسولِ صلـى الله عليـه وسلم ، وتحويلهم إلى العقائد الماديَّة. وهذه الجرائدُ تحاول أن تُثبتَ أنَّ دولةَ بنغلاديش دولةٌ أصوليَّة، ودولةٌ فاشِلة؛ ولذلك تنشُر الأخبارَ السلبية للبلادِ إلى حدٍّ بعيد.

ج- السيطـرة على وسائل الإعـلام الإلكترونيَّة: توجدُ في الدولة قنـواتٌ تِلفازيَّة عديدةٌ مِـن الوسائـل الإعلاميَّة، ومعظم هذه القنـوات لا تنشُر برامجَ إسلاميـة صحيحةً، بل تتكلَّم

(١) -جاهد الإسلام جهان ، مذكرة التدوين والمدون ، ص ١٦

(٢) - محمود صديقي ، الرد على شبهات الملحدين ، ص ٩٠

ضدَّ الإسلام والقيَم الإسلامية بوسائلَ شتَّى، وتَستهزئ بشعارِ الإسلام مِن اللِّحى وغيرها مِن تعاليم الإسلام عن طريقِ البرامج السينمائيَّة، وتنشُر أخبارًا خاطئة عن أبرزِ علماء بنغلاديش، كما تنشَر برامجَ معاديةً لتعاليم الإسلام عن طريقِ التمثيليات الفاحِشة والسينما، كما تستهزئ بشعاراتِ الإسلام مِن اللحية وغيرِها.

د- نشر الأفكار الإلحادية على الشبكة الإلكترونية : الإنترنت، ووسائل التواصل الاجتماعية:

يستخدم الملحدون المدونون الإنترنت، ووسائل التواصل الاجتماعية مثل الفيسبوك، المدونات، وتويتر وما إلى ذلك لأنها تعتبر المواقع الآمنة لنشر أفكارهم في الإلحاد إلى زاوية وركن من أركان العالم في غضون ثوان. ويعتبر أن تكون أكثر الوسائل المؤثرة في نشر الإلحاد بين الناس وخاصة جيل الشباب في بنغلاديش. ويحتوى فيسبوك على العديد من الصفحات التي تدعو الملحدين الناشئين إلى الانضمام إليها.

ه- تعديل الدستور القومي : إن الحكومة الحالية تحاول منذ توليها على السلطة طَرْد الإيمانِ والثقةِ به في جميعِ الأمور من الدستور بوضع العلمانيَّة مكانَه عن طريق إلْغاء التعديلِ الخامس للدستور، وكلنا نَعلمَ أنَّ العلمانيَّة مِن النظَريَّات الكُفريَّة، والنِّظام الكفري يفصل الدينَ عن الدولة، ولا يَسْمَح للدِّين أنْ يُسهِم في إدارةِ المجتمع والدولة في مجالٍ ما، ولا أنْ يَحكُمَ بما أنزل الله، وكذلك لا يَسمح للمسلمين بتأسيس أيِّ حزب سياسي على أساسِ القرآن والسنة.

و- فرض نِظام التعليم العلماني : بناءً على تطبيق العلمانية في دستور بنغلاديش قامَت الحكومة بفرض نِظام التعليم العلماني على جميع مراحل التعليم في المدارس الإسلاميَّة وغير الإسلاميَّة، الذي يَصير به الطلاَّب من أبناءَ المسلمين لا صِلةَ لهم بالله، ولا بالدِّين الإسلامي، وقدْ سَلبت الحكومةُ الحقوقَ الدِّينيَّة بحرمانِ أبناء المسلمين من معرفةِ خالقِهم وعقيدتهم بفرْض هذا النِّظام العلماني في المعاهِد التعليميَّة.

ز- تصريحات إلحادية واضحة من قبل بعض الوزراء العلمانيين : قد تظهر أحيانا

تصريحات إلحادية أمام الجماهير من قبل بعض الوزراء اليساريين التي تدل مباشرة انتهاكا على حرمة الدين والخروج عن الإسلام ، ومن ذلك ما قال وزير الرعاية والشؤون الاجتماعية في بنغلاديش، محسن علي (المتوفى قبل شهور) ضد النقاب "لا يمكن لإحداكن أن تكون طالبة جامعية مع ارتدائها البرقع (النقاب)... اليوم، تنظر أوروبا إلى اللواتي يرتدين البرقع باشمئزاز وتعتقد أنهن إسلاميات إرهابيات[1] ". كما أدلى عبد اللطيف صديقي، (الوزير المخلوع) تصريحا بغيضا حول الحج والنبي صلى الله عليه وسلم . وفي محاولات يائسة لمواكبة وتنفيذ أجندات أسيادهم الغربيين، فإن هؤلاء الوزراء يتعمدون الإدلاء بهذه التصريحات المشينة ضد الإسلام واحدة تلو الأخرى.

(١) - جريدة نيا ديغنتو ، يوم ٢٩ يناير ٢٠١٥

المبحث الثالث

علاج هذه الظاهرة الخطيرة في ضوء القرآن الكريم :

في ضوء ما سبق عن الإلحاد، والحركة الإلحادية في بنغلاديش يتضح لنا أن الإلحاد له خلفية تاريخية منذ نشأة بنعلاديش ثم ظهوره بشكل جلي في الأونة الأخيرة بأشكاله المتعددة وصولا إلى هدفه الرئيسي هو ابتعاد السكان عن الدين الحنيف، وإضلال الشباب عن القيم والأخلاق، وتحويل أفكارهم من مفهوم وحدانية الله سبحانه وتعالى إلى نظرية الوجودية الباطلة . لذلك حان الوقت مكافحة الإلحاد، في ضوء القرآن الكريم على النحو الآتي :

× التصدي على الملحدين : يجب التصدي - بكلّ قوة علمية - للردّ على جميع الشُّبهات التي يثيرها الملحدون الذين ينكرون وجودَ الله تعالى؛ وذلك عن طريق استخدام جميع وسائل الإعلام المختلفة؛ المقروءة، والمرئية، والمسموعة، ويقوم بهذا العمل مجموعةٌ من العلماء المتخصصين في جميع المجالات. وقد أمرنا الله تعالى ببذل الجهود القصوى لإزالة الباطل وهو سبحانه يساعدنا بالمساعدة الإلهية ، حيث قال الله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾[1].

× محاربة وسائل الإعلام الخبيثة: فلا بد من إحكام الرقابة على وسائل الإعلام التي تبث سموم أفكارها في المجتمع؛ كالصحف والمجلات والقنوات والمواقع ومنعها من بث سمومها في المجتمع ومطالبتها بتغيير مسارها وسياساتها، وفي حال عدم الاستجابة ينبغي مساءلتها ومحاسبتها والتضييق عليها لإيقاف هذا الدور الخبيث الذي تقوم به.

المناظرات العقلية الحكيمة: من الحكمة في دعوة الملحدين والطبيعيين الماديين أن يُناظروا بالمناظرات العقلية الحكيمة التي تُوضح لهم الحق، وتجعلهم يُسلِّمون ويقرُّون بأن

(١) - سورة الأنفال : الآيات: ٦٠-٦٢

اللّهَّ هو الحق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل.كما يمكننا أن نجري الحوار معهم والمجادلة بالتي هى أحسن: الجدال الممدوح الحق، وهو من النصيحة في الدين. وقد قال تعالى :﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾١ . والاعتماد على العلم الصحيح المستفاد من الكتاب والسنة، وتقديم النقل ونصوصه على العقل وظنونه. والتحلي بالأخلاق الإسلامية العالية أثناء الجدال من القول المهذب البعيد عن الطعن والتجريح، أو الهزء والسخرية، أو احتقار الآخرين ووجهات نظرهم٢.

× ترسيخ عقيدة توحيد الله تعالى في نفوس المسلمين : ينبغي على العلماء والدعاة في بنغلاديش استخدام الوسائل العلمية الحديثة التي تساعد المسلمين على مشاهدة آيات قدرة الله تعالى في الكون، ويقوم العلماء المتخصصون بالتعليق على هذه الآيات الربانية من الناحية العلمية؛ لكي يزداد المؤمنون إيمانًا مع إيمانهم، وتزول عنهم الشبهات التي يثيرها الملاحدة المنكرون لوجود الله تعالى.

× غرس محبة الله سبحانه وتعالى ورسوله على القلوب : إن حب الله تعالى ورسوله أكثر من كل شيء هو شرط أساسي للإيمان ، إذا لم نستطع رد الملحدين إلى الحق وإذا لم نستطع منعهم عن إساءتهم الله تعالى ورسوله فيجب علينا أن نقطع كل الصلات بهم للدلالة على حبنا العميق لله ولرسوله ، ذلك هو جوهر الإيمان والعقيدة ، والقرآن الكريم يعلمنا: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾٣. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين"٤.

× التأمل في خلق الإنسان: يجب تنبيه الناس خاصة الملحدين منهم في التأمل والتدبر

(١) – سورة النحل : الآية: ١٢٥

(٢) سعيد بن علي بن وهف القحطاني ، كيفية دعوة الملحدين إلى اللّهَّ تعالى في ضوء الكتاب والسنة ، مؤسسة الجريسي ، مكتبة سفير الرياض ، ١٤٢٥هـ ، ص ٧٦.

(٣) – سورة الأنعام : الآية: ١٦٢.

(٤) – مسلم بن حجاج ، الصحيح ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، الرياض ، ١٤١٢ه ، رقم الحديث : ٢٦١٣.

في أصلهم ، قال الله تعالى :﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾١ ، قال السائب بن شريك: يأكل الإنسانُ ويشرب من مكانٍ واحد، ويُخرج من مكانين، ولو شرب لبنًا محضًا لخرج منه الماء ومنه الغائط، فتلك الآية في النفسِ. وقال ابن زيدٍ : المعنى أنه خلقكم من ترابٍ، وجعل لكم السمعَ والأبصار والأفئدة٢.

× تنبيه الشباب عن هدف الوجود في الدنيا

إن أكثر المسلمين والشباب منهم على وجه الخصوص يغيب عنهم الهدف الأصلي من وجودهم في هذه الدنيا ، فيجب تذكيرهم أن الهدف الرئيسي وهو عبادة الله، وأنها فترة اختبار وأن حياة الآخرة هي دار البقاء ، فلا يغرنهم الحياة الدنيا. وتحقيق هذين الهدفين بواسطة الدعاة لا شك سيقلل من فرص تفلت قليلي العلم فى براثن الإلحاد، فإذا علم الإنسان أنه في اختبار سيتقبل الظروف الغير مواتية بصورة مختلفة عن الإحساس بالظلم وسيعلم أن عبادة الله وسيلته إلى الأفضل فى دار البقاء.

تربية الشباب تربية حسنة: عالج القرآن مسألة تربية وإعداد الشباب بما يلزم من التوجيهات والمواعظ وحث الآباء والأولياء على مضاعفة الاهتمام والاعتناء بالأبناء منذ مراحل حياتهم الأولى، وذلك على أساس تماسك الأسرة وحمايتها من كل انحراف وترشيد التربية بالتي هي أحسن وبالقدوة والأخلاق استرشادا بالآية الكريمة ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ ٣ ، وقد عنى الرسول صلى الله عليه وسلم بالشباب عناية كبيرة .

× تطبيق نظام التعليم المناسب : ينبغي أن تتضمن مناهج التعليم كتابًا يتحدث عن الأدلة والمعجزات الكونية التي تثبت وجودَ الله تعالى، بحيث يكون هذا الكتاب بأسلوب بسيط، ويناسب مراحل التعليم المختلفة، ومزودًا بالصور الطبيعية، وتعليقات العلماء المتخصصين، وهذا سوف يؤدي - إن شاء الله - إلى تربية أجيال صالحة، تؤمن بالله تعالى، وتعمل جاهدةً على تقدم بلادها في جميع مجالات الحياة المختلفة.

(١) - سورة الذاريات، الآية : ٢١.

(٢) - القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٨م ، ج ١٢ ، ص ١٤٣

(٣) - سورة الأحزاب : الآية : ٢١

تفعيل دور العلماء والدعاة: إن محاربة هذه التيارات المدمرة بالحجة والبيان من أوجب واجبات العصر على العلماء وطلبة العلم، ولا بد من القيام به على وجه الكفاية؛ حتى يسقط الإثم عن كل الأمة إن هي قصرت في القيام بهذا الواجب .هذا أمر على درجة كبيرة من الأهمية، ليحملهم أمانة عظيمة للقيام بالدور الذي أناطه الله سبحانه وتعالى بهم؛ ليرشدوا الناس إلى طريق الحق والهداية، ويحموهم من الوقوع في شراك الباطل والغواية.[1]

(1) - سعيد بن علي بن وهف القحطاني ، كيفية دعوة الملحدين إلى اللّٰه تعالى في ضوء الكتاب والسنة ، ص ٧٩

الخاتمة

وفي الختام نحمد الله الذي يسر كتابة هذا البحث، فله الحمد كما ينبغي لجلال وجهه وكريم فضله وعظيم إحسانه، ونصلي ونسلم على خاتم النبيين، وآله وصحبه وسلم. وأذكر أهم نتائج البحث وتوصياته:

أهم النتائج:

١. إن الإلحاد حرب جديدة وظاهرة خطيرة على مسلمي بنغلاديش؛ لأنه يعادي الإسلام علنا.

٢. إن الإسلام له جذور عميقة في أرض بنغلاديش، وهي حقيقة تاريخية لا يمكن إنكارها، ولكن أعداء الإسلام من العلمانيين والملحدين الناشطين في مواقع الإنترنت انهمكوا جميعا في المؤامرة لاستئصال الإسلام من أرض هذا البلد.

٣. ومن نتائج الإلحادية الحديثة زيادة ظاهرة التشكيك في الدين الإسلامي والإساءة لله عز وجل وللرسول صلى الله عليه وسلم وللإسلام الحنيف .

٤. فعلى مسلمي بمغلاديش لاسيما على العلماء والدعاة يستوجب التصدي لهذه الظاهرة قبل أن يشتد عودها ، وأن ينبه الجميع خطورة هذه المصيبة لأجل تحصين الشباب من الفكر الإلحادي الخطير.

٥. اتباع التوجيهات القرآنية وسلوك منهج الرسول صلى لله عليه وسلم هو السبيل الوحيد للقضاء على الإلحاد من مجتمع بنغلاديش.

أهم التوصيات:

١. ضرورة دراسة هذه الظاهرة دراسة جدية، ووجوب المسارعة إلى الوقوف في وجه هذه الظاهرة المشينة

٢. تفعيل دور العلماء والدعاة في تنبيه المسلمين إلى فداحة أمرها فيها تفعيل دور العلماء والدعاة للتصدي هذه الظاهرة الخطيرة على الإسلام ومبادئه وتعاليمه.

٣. زيــادة الاهتمام بتعيلم الناشئين أسس الإسلام وعقائده وغرسها في نفوسهم حتى لا يقع في هذه المصيدة المدمرة .

٤. تعديـل المنهـج الحالي العلماني وضع المنهج الإسلامــي الصحيح في جميع المراحل الدراسية .

٥. عقـد ندوات عديدة يقوم بها المؤسسات الإسلامية لتوضيح الإلحاد المعاصر، والرد عليها بالأدلة العقلية والنقلية من القرآن والسنة.

والله أعلم وأحكم. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المراجع

١. الأصفهانـى، أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب، المفردات في غريب القرآن ، دار القلم، دمشق ، الطبعة الأول ، ١٤١٢ هـ .

٢. ابن الجوزي ، أبو الفرج، عبد الرحمن بن الجوزي تلبيس إبليس ، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان ، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م .

٣. ابـن منظـور، محمد بـن مكرم بن على، لسـان العرب ، دار صادر ، بـيروت ، الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ

٤. أحمد عقيل ، ماهية الإلحاد ، دار السلام ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٨م

٥. الرضا، محمد رشيد بن علي ، تفسير المنار ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٠م .

٦. رقيـب الحق ، الإسلامفوبيـا في بنغلاديش ، ، الجريدة اليومية "أمار ديش" ١١ يناير ٢٠١٣م.

٧. سعيـد بـن علي بن وهـف القحطاني ، كيفية دعـوة الملحديـن إلى اللّهَّ تعالى في ضوء الكتاب والسنة ، مؤسسة الجريسي ، مكتبة سفير ، الرياض ، ١٤٢٥هـ

٨. الطـبري ، أبـو جعفـر محمد ابن جريـر . جامع البيـان عن تفسير آي القـرآن ، دار المعارف ، القاهرة .

٩. الفيومي، أحمد بن محمد بن علي الحموي، المصباح المنير ، المكتبة العلمية - بيروت ، ١٩٨٨م.

١٠. عبد الرحمن الميداني ، كواشف زيوف المذاهب المعاصرة ، الطبعة الثانية - دار القلم الدمشقية .

١١. عبـد الرحمن ، عبـد الخالق ، الإلحـاد أسباب هذه الظاهرة وطـرق علاجها ، طبع ونشر : الرئاسة العامة لدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، الرياض ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٤هـ .

١٢. القرطبي ، محمد بن أحمد الأنصاري ، الجامع لأحكام القرآن ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٨م .

١٣. محمد رواس قلعجـي، حامد صادق قنيبي، معجم لغة الفقهاء، دار النفائس، بيروت، الطبعة الثانية،١٤٠٨هـ.

١٤. محمد الخضر حسين ، الإلحاد (أسبابه ، طبائعه ، مفاسده ، أسباب ظهوره ، علاجه) ، تقديم وتعليق : محمد إبراهيم الشيباني ، مكتبة ابن تيمية ، الكويت ، ١٤٠٦هـ .

١٥. مسلم بن حجاج ، الصحيح ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، الرياض ١٤٢٦ه.

١. http://dorar.net/enc/mazahib/577، http://archive.arabic.cnn.com/2013/entertainment/10/27/types-of-atheists

٢. https://bn.wikipedia.org/s/2ek2

٣. https://bn.wikipedia.org/s/26fl

٤. http://archive.arabic.cnn.com/2013/entertainment/10/27/types-of-atheists/

٥. https://amarblog.com

٦. http://www.shodalap.org/smraihan//١٨٥٠٢

جمال عبد اللطيف الأمير محمد

- التخصص/الفقه
- تاريخ الميلاد: ٢٣/٧/١٩٧٣

المؤهلات:

- الدكتوراه فى الشريعة الإسلامية"الفقه المقارن" بمرتبة الشرف الأولى ـــ كلية دار العلوم جامعة المنيا-٢٠٠٥
- الماجستير فى الشريعة الإسلامية "التفسير وعلوم القران" بتقدير ممتاز ـــ كلية دار العلوم جامعة المنيا ٢٠٠٠
- ليسانس اللغة العربية والعلوم الإسلامية بتقدير جيد كلية دار العلوم جامعة القاهرة فرع الفيوم١٩٩٥
- معهد إعداد الدعاة ١٩٩٨

الوظيفة الحالية

- معلم أول (أ) -ثانوي-لمادة اللغة العربية والتربية الإسلامية (وزارة التربية والتعليم-مصر)

الحالة الاجتماعية:

- متزوج ولله عندي ثلاثة أولاد وبنت

الدورات

- دورة icdl "الرخصة الدولية لقيادة الكمبيوتر"

المؤلفات

١- المنهاج الفقهي للإمام الشهاب القرافي
٢-منهج سعيد حوى في التفسير
٣- همسات رمضانية طبعة دار منارات. القاهرة ٢٠١١
٤- فقه زكاة الفطر (تحت الطبع)

اعلاج القرآن الكريم للتساهل في حق الحياة

إعداد

الدكتور: جمال عبد اللطيف الأمير

دكتوراة في الشريعة الإسلامية
كلية دار العلوم- جامعة المنيا- مصر

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه أما بعد:

فقد انتشرت في مجتمعاتنا المعاصرة جريمة القتل كما لم تنتشر من قبل وأصبح القتل الجماعي سمة من سماته الظاهرة ،وما الذي يحدث في معظم بلاد المسلمين من حوادث القتل المتكررة لأتفه الأسباب عنا ببعيد ،عصبيات مقيتة وحماقات مميتة دماء وأشلاء تشكو إلى الله جهل الجاهلين وظلم الظالمين المتجبرين

وحياة الإنسان هي أثمن ما يملك، وهي أساس لتمتعه بجميع الحقوق المقررة له، إذ لا يتمتع بها إلا حال حباته

فحق الحياة هو الحق الأول للإنسان، به تبدأ سائر الحقوق، وعند انتهائه تنعدم.

وحق الحياة مكفول في الشريعة لكل إنسان ،ويجب على الأفراد والمؤسسات والدول حماية هذا الحق من كل اعتداء، مع وجوب توفير الوسائل اللازمة لتأمينه

وهذا البحث" علاج القرآن الكريم للتساهل في حق الحياة" يعرض كما يبدو من عنوانه للسبل التي عالج بها القرآن الكريم هذه الظاهرة

مشكلة البحث

ما تمر به أمتنا العربية والإسلامية من تمزق وشتات ودماء وأشلاء واستهانة بالدماء وانتشار للقتل في شتى الأرجاء

أهداف البحث

١- بيان بشاعة جريمة القتل في كتاب الله
٢-إظهار ما في شريعة القرآن من حق في الحياة لكل بني البشر بل لكل المخلوقات
٣-بيان سبل حماية حق الإنسان في الحياة في الكتاب الكريم

٤- الدعوة إلى حقن الدماء والعمل على وقف أنهار الدماء التي تجرى في بلاد المسلمين

٥-الرد على من ينعت الإسلام بالإرهاب

٦-تصحيح بعض المفاهيم الخاطئة الموجودة عند المغالين من الناس

منهج البحث

المنهج الاستقرائي الاستنباطي

خطة البحث

يتكون البحث من مقدمة ومبحثين وخاتمة

المبحث الأول: كفالة حق الحياة للجميع دون تمييز و فيه سبعة مطالب:

- المطلب الأول: تكريم الله للإنسان
- المطلب الثاني بيان حرمة الدماء
- المطلب لثالث: تحريم قتل المسلم
- المطلب الرابع: تحريم قتل الأجنة والأولاد
- المطلب الخامس: تحريم قتل غير المحاربين من غير المسلمين
- المطلب السادس : تحريم قتل النفس (الانتحار)
- المطلب السابع متى تسقط حرمة الدم؟

المبحث الثانى: سد الذرائع المؤدية للقتل: و فيه خمسة مطالب:

- المطلب الأول: تحريم مقاتلة المسلمين
- المطلب الثاني إباحة المحظورات للضرورة
- المطلب الثالث: تحريم الانتقاص من الحياة
- المطلب الرابع: التشريع الزاجر والعقوبة الرادعة
- المطلب الخامس: الدعوة إلى وحدة الصف وجمع الكلمة ونبذ العصبية و الفرقة

ثم الخاتمة وفيها أهم نتائج البحث وتوصياته

والله ولى التوفيق

المبحث الأول

كفالة حق الحياة للجميع دون تمييز

المطلب الأول: -تكريم الله للإنسان

خلق اللّه الإنسان وكرمه ونفخ فيه الروح وأسجد له الملائكة وجعله خليفة في الأرض وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (الإسراء ٧٠) قال الألوسي في تفسيره: "أي جعلناهم قاطبة برهم وفاجرهم ذوي كرم أي شرف ومحاسن جمة لا يحيط بها نطلق الحصر" (١)

ومن مظاهر هذا التكريم للجنس البشرى كله دون استثناء هذا الخطاب الذي يشمل الناس جميعا في غير موضع من الكتاب الكريم ومنه قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) ﴾ (الحجرات١٣)

ف"النَّاسَ جَميعاً إخوةٌ لأمٍّ وأب ، وَلِذَلِكَ فَلَيسَ لأحَد مِنْهُمْ أنْ يَسْتَعْلِيَ عَلَى أحَد مِنْ إخْوَته ، وَلا أنْ يُسيءَ إليه ، وَلا أنْ يَنْتَقِصَهُ ، وَلا أنْ يَغْتَابَهُ . وَقَدْ جَعَلَ الله تَعَالَى البَشَرَ بالتَّكَاثُرِ شُعُوباً وَقَبَائِلَ مُخْتَلِفَةً لِيتَمَكَّنَ بَعْضُهُم مِنْ مَعْرِفَة بَعْض ، كأنْ يُقَالَ هذا فُلاَنُ بنُ فَلاَنٍ مِنْ قَبيلَةِ كَذَا مِنْ بَطْنِ كَذَا . وَلاَ فَضْلَ لأحَدٍ عَلَى أحَدٍ إلا بالتَّقْوى" (٢)

ومن مظاهر هذا التكريم تسخير هذا الكون بكل ما فيه للبشرية جمعاء دون تفرقة

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت: ٢٧٠هـ) تحقيق على عبدالباري عطية ٨|١١٢ط دار الكتب العلمية بيروت ط الأولى ١٤١٥ه

(٢) أيسر التفاسير للدكتور :أسعد محمود حومد٣|١٢٨١ ط دمشق ط الأولى١٤١٩ ه-٢٠٠٩م

بـين مؤمن وكافر يقول عز من قائل: ﴿ أَلَمْ تَـرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْـرِ بِأَمْـرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِـهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٦٥) ﴾ (الحج ٦٥)

وتذييـل هـذه الآية يـدل على أن هذه المسخرات رحمة بالنـاس جميعا "حيث هيأ لهم أسباب الاستدلال وفتح عليهم أبواب المنافع ودفع عنهم أنواع المضار." (١)

ومن مظاهر هذا التكريم عموم الأخلاق الفاضلة في القرآن للناس جميعا ومن ذلك قولـه تعالى:﴿ وَسَارِعُـوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَـوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِيـنَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِـينَ (١٣٤) ﴾(آل عمران١٣٣-١٣٤) فالعفو في الآيـة الكريمة ليس خاصا بالمسلمين وإنمـا هـو عفو عن الناس كل النـاس والأعجب من هذا أن العدل في القـرآن يشمل القريب والبعيد المؤمن والكافر العدو والصديق، يقول سبحانه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَـدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُـوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨)) (المائدة٨)

"والمعنـى : لا يحملنكـم بغضكم للمشركـين على أن تتركوا العدل فتعتـدوا عليهم بأن تنتصروا منهم وتتشفوا بما في قلوبكم من الضغائن بارتكاب ما لا يحل لكم من مثلة أو قذف أو قتـل أولاد أو نسـاء أو نقض عهد أو مـا أشبه ذلك" (٢) "كما يفعله مـن لا عدل عنده ولا قسـط، بل كما تشهدون لوليكم، فاشهدوا عليـه، وكما تشهدون على عدوكم فاشهدوا له، ولو كان كافرا أو مبتدعا، فإنه يجب العدل فيه، وقبول ما يأتي به من الحق، لأنه حق لا لأنه قاله، ولا يرد الحق لأجل قوله، فإن هذا ظلم للحق" (٣)

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل (بتفسير البيضاوي) لناصر الدين أبى سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت ٦٨٥هـ) تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي ٤|٧٨ط دار إحياء التراث العربي بيروت ط الأولى ١٤١٨هـ

(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل لأبى القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت ٥٣٨هـ) ١|٦١٢ ط دار الكتاب العربي بيروت ط الثالثة ١٤٠٧هـ

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (ت: ١٣٧٦هـ) تحقيق :عبد الرحمن بن معلا اللويحق ١|٢٢٤ ط :مؤسسة الرسالة ط الأولى ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م

المطلب الثاني :بيان حرمة الدماء

من جملة المقاصد التي جاءت الشرائع بحفظها ـــ كما قرر ذلك العلماء ـــ حفظ الأنفس، يقول الإمام الشاطبي في الموافقات : " فقد اتفقت الأمة -بل سائر الملل- على أن الشريعة وضعت للمحافظة على الضروريات الخمس وهي الدين والنفس والنسل والمال والعقل وعلمها عند الأمة كالضروري "(١)

فقد" قدس الإسلام الحياة البشرية وصان حرمة النفوس وجعل الاعتداء عليها أكبر الجرائم عند الله بعد الشرك به سبحانه "،(٢) قال تعالى : (وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩)) (الفرقان ٦٨-٦٩) وقرر القرآن (أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا) (المائدة ٣٢)

" ذلك أن النوع الإنساني أسرة واحدة والعدوان على نفس هو في الحقيقة عدوان على النوع وتجرؤ عليه"،(٣) وقد جاء هذا التقرير عقب عرض القرآن لقصة أول جريمة للقتل وقعت على ظهر الأرض قال تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١) ﴾ (المائدة ٢٧- ٣١)

(١) الموافقات لإبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (ت ٧٩٠هـ) تحقيق:أبى عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان ١ |٣١ط دار ابن عفان ط: الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م

(٢) الحلال والحرام في الإسلام، د:يوسف القرضاوي ص٣١٤ بتصرف ط المكتب الإسلامي ط الثالثة عشرة ١٤٠٠ه-١٩٨٠م

(٣) السابق :نفس الصفحة

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ (الأنعام١٥١) و(الإسراء٣٣)

قال السعدي: "وهذا شامل لكل نفس حرم الله قتلها من صغير وكبير وذكر وأنثى وحر وعبد ومسلم وكافر له عهد" (١)

وعَن ابْنِ عُمَرَ - رضى الله عنهما - قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - " لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ ، مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا " (٢)

وكان ابن عمر يقول : " إِنَّ مِنْ وَرَطَاتِ الأُمُورِ الَّتِى لاَ مَخْرَجَ لِمَنْ أَوْقَعَ نَفْسَهُ فِيهَا ، سَفْكَ الدَّمِ الْحَرَامِ بِغَيْرِ حِلِّهِ "(٣)

وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر قَالَ النَّبِىُّ - صلى الله عليه وسلم – " أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فِى الدِّمَاءِ " (٤)

المطلب الثالث:تحريم قتل المسلم

قال سبحانه ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (٩٣) ﴾..النساء (٩٣)

فقد تضمنت هذه الآية "وعيد القاتل عمدا، وعيدا ترجف له القلوب وتنصدع له الأفئدة، وتنزعج منه أولو العقول، فلم يرد في أنواع الكبائر أعظم من هذا الوعيد، بل ولا مثله، ألا وهو الإخبار بأن جزاءه جهنم، أي: فهذا الذنب العظيم قد انتهض وحده أن يجازى صاحبه بجهنم، بما فيها من العذاب العظيم، والخزي المهين، وسخط الجبار، وفوات الفوز

(١) تيسير الكريم الرحمن(تفسير السعدي)١|٤٥٧

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الديات باب قوله تعالى " ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم" رقم ٦٤٦٩انظر الجامع الصحيح المختصر (صحيح البخاري) لمحمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي تحقيق : د. مصطفى ديب البغا (٦|٢٥١٧) ط دار ابن كثير ، اليمامة – بيروت ط ١٤٠٧ه – ١٩٨٧م

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الديات باب قوله تعالى " ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم" (٦|٢٥١٧) برقم ٦٤٧٠

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الديات باب قول الله تعالى " ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم"(٦|٢٥١٧) برقم ٦٤٧١

والفلاح، وحصول الخيبة والخسار. فعياذًا بالله من كل سبب يبعد عن رحمته".(١)

روى البخـاري عَـنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِـيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي-صلـى الله عليه وسلم-قال في حجة الوداع:

"إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا إِلَى يَـوْمِ تَلْقَـوْنَ رَبَّكُمْ أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ قَالُوا نَعَمْ قَالَ اللَّهُمَّ اشْهَدْ فَلْيُبَلِّغْ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ فَلَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ"(٢)

وفي سـنن أبـي داوود عن أبي الدرداء قال : " سمِعْتُ رَسُـولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَهُ إِلاَّ مَنْ مَاتَ مُشْرِكًا أَوْ مُؤْمِنٌ قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا"(٣)

وفي سنن الترمذي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " قَالَ : "لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ"(٤)

المطلب الرابع:تحريم قتل الأجنة والأولاد

قال تعالى (وَلاَ تقتلوا أَوْلاَدَكُم مِّنْ إِمْلاَقٍ(٥) نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ) (الأنعام١٥١)

أى : لا تقتلـوا أولادكـم الصغار من أجل الفقـر فنحن قد تكفلنا برزقكم ورزقهم ﴿ وَمَـا مِـن دَآبَّةٍ فِي الأرض إِلاَّ عَلَى الله رِزْقُهَا ﴾(هود ٦) ولا شك أن الحياة حق لهؤلاء الصغار

(١) تيسير الكريم الرحمن(تفسير السعدي)١|١٩٤،١٩٣

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الحج باب الخطبة أيام منى(٢|٦٢٠) برقم ١٦٥٤

(٣) سـنن أبـى داوود " كتاب الفتن باب في تعظيم قتل المؤمن برقم ٤٢٧٢ انظـر: سنن أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني٤|١٦٧ط دار الكتاب العربي. بيروت د ت والحديث صححه الألباني فى غاية المرام برقم٤٤١ انظر غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام لمحمد ناصر الدين الألباني ص٢٥٤ ط المكتب الإسلامي الأولى ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م

(٤) سـنن الترمـذي" كتـاب الديات بـاب ما جاء في تشديـد قتل المؤمن برقـم ١٣٩٥ انظر: جامـع الصحيح (سنن الترمـذي)لمحمـد بن عيسى أبى عيسى الترمـذي السلمي(٤|١٦)ط دار إحياء الـتراث العربي – بيروت د.ت والحديث صححه الألباني في غاية المرام برقم ٤٣٩ ص٢٥٣

(٥) ا الإمـلاق : الفقـر ، مصدر أملق الرجل إملاقا إذا احتاج وافتقر نظر: لسان العرب لمحمد بن مكرم بن منظور (مادة:ملق)١٠|٣٤٧ ط دار صادر – بيروت ط الأولى د.ت

كما أنها حق لكم . فمن الظلم البين الاعتداء على حقوقهم ، والتخلص منهم خوفا من الفقر ، مع أن الله – تعالى – هو الرازق لكم ولهم .

والمجتمع الذى يبيح قتل الأولاد خوفا من الفقر أو خوفا من العار ، ، لا يمكن أن يصلح شأنه ، لأنه مجتمع نفعى تسوده الأثرة والأنانية ، ويكون في الوقت نفسه مجتمعا أفراده يسودهم التشاؤم ، وتتغشاهم الأوهام ، لأنهم يظنون أن الله يخلق خلقاً لا يدبر لهم حقهم من الرزق ، ويعتدون على روح بريئة طاهرة تخوفا من جريمة متوهمة ، وذلك هو الضلال المبين وقد ورد النهى عن قتل الأولاد هنا بهذه الصيغة ، وورد فى سورة الإسراء بصيغة أخرى هى قوله – تعالى – ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (٣١) ﴾ (الإسراء:٣١) وليس إحداهما تكراراً للأخرى . وإنما كل واحدة منهما تعالج حالة معينة .

– فهنا يقول – سبحانه – ﴿ مِّنْ إِمْلَاقٍ ﴾ أي : لا تقتلوهم بسبب الفقر الموجود فيكم أيها الآباء لذا قال : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ فجعل الرزق للآباء ابتداء ، لأن الفقر الذى يقتلون من أجله أولادهم حاصل لهم فعلا .

– وفى سورة الإسراء يقول : ﴿ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ﴾ أي : خوفا من فقر ليس حاصلا ، ولكنه متوقع بسبب الأولاد ولذا قال : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم ﴾ فقدم رزق الأولاد لأنهم سبب توقع الفقر ، ليكف الآباء عن هذا التوقع ، وليضمن للأولاد رزقهم ابتداء مستقلا عن رزق الآباء .

ففى كلتا الحالتين القرآن ينهى عن قتل الأولاد ، ويغرس فى نفوس الآباء الثقة بالله ، ولاعتماد عليه ".(١)

وهذا النهي عن قتل الأولاد يشمل لأجنة، يقول ابن كثير: "هذا يشمل قتله بعد وجوده كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق، ويعم قتله وهو جنين "(٢)

---

(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم للدكتور: محمد سيد طنطاوي ١ | ٢١٦ ط دار نهضة مصر ط الأولى١٩٩٧م

(٢) تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير) لأبى الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ) تحقيق: سامي بن محمد سلامة٨ | ١٠٠ط دار طيبة للنشر والتوزيع ط الثانية ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م

وقد نعى القران على أهل الجاهلية ما كانوا يفعلونه من وأد البنات و قتل الأولاد قال سبحانه: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩) ﴾(التكوير٨-٩) وقال عز من قائل:﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُواْ أَوْلاَدَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ اللّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ (الأنعام:١٤٠)

قال ابن كثير:" قد خسر الذين فعلوا هذه الأفعال في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فخسروا أولادهم بقتلهم، وضيقوا عليهم في أموالهم، فحرموا أشياء ابتدعوها من تلقاء أنفسهم، وأما في الآخرة فيصيرون إلى شر المنازل بكذبهم على الله وافترائهم"(١)

المطلب الخامس:تحريم قتل غير المحاربين من غير المسلمين

والقاعدة الجامعة في هذا قوله تعالى : (لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩)) (الممتحنة٨-٩)

"أي: لا ينهاكم الله عن البر والصلة، والمكافأة بالمعروف، والقسط للمشركين، من أقاربكم وغيرهم، حيث كانوا بحال لم ينتصبوا لقتالكم في الدين والإخراج من دياركم، فليس عليكم جناح أن تصلوهم، فإن صلتهم في هذه الحالة، لا محذور فيها ولا مفسدة كما قال تعالى عن الأبوين المشركين إذا كان ولدهما مسلما: (وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥)) (لقمان ١٥)

(إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ) أي: لأجل دينكم، عداوة لدين الله ولمن قام به، ﴾ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا ﴿ أي: عاونوا غيرهم ﴾ عَلَى إِخْرَاجِكُمْ ﴿ نهاكم الله ﴾ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ ﴿ بالمودة والنصرة، بالقول والفعل، وأما بركم وإحسانكم، الذي ليس

(١) تفسير ابن كثير٣|٣٤٧

بتـول للمشركـين، فلم ينهكم الله عنه، بل ذلك داخل في عمـوم الأمر بالإحسان إلى الأقارب وغيرهم من الآدميين، وغيرهم." (١)

وقـال ابن جريـر الطبري مرجحا عموم الآية وعدم النسـخ فيها بعد عرضه ما فيها من أقوال:

"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عُني بذلك: لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكـم في الديـن، من جميـع أصناف الملل والأديـان أن تبرّوهـم وتصلوهم، وتقسطوا إليهـم، إن الله عزّ وجلّ عمّ بقوله: ﴿الَّذِيـنَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ جميع من كان ذلك صفته، فلم يخصصْ به بعضًا دون بعض، ولا معنى لقول من قال: ذلك منسـوخ، لأن بـرّ المؤمن من أهـل الحرب ممن بينه وبينه قرابة نسـب، أو ممن لا قرابة بينه وبينـه ولا نسـب غير محـرّم ولا منهيّ عنه إذا لم يكن في ذلك دلالة لـه، أو لأهل الحرب على عورة لأهل الإسلام، أو تقوية لهم بكُراع أو سلاح." (٢)

قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنِ النَّبِيِّ – صلى الله عليـه وسلـم – قَالَ " مَنْ قَتَلَ نَفْسًـا مُعَاهَدًا لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّـةِ ، وَإِنَّ رِيحَهَا يُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا "(٣)

وروى الطـبراني عـن عمرو بن الحمق قال قـال رسول الله صلى الله عليه و سلم" من أمن رجلا على دمه فقتله فأنا بريء من القاتل وان كان المقتول كافرا ".(٤)

---

(١) تيسير الكريم الرحمن(تفسير السعدى)١|٨٥٦

(٢) : جامـع البيـان في تأويل القرآن(تفسير الطبري)لمحمد بن جرير بن يزيد بـن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت: ٣١٠هـ) تحقيق :أحمد محمد شاكر٢٣|٣٢٣ط مؤسسة الرسالة ط الأولى ، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م

(٣) أخرجه البخاري في" كتاب الديات باب إثم من قتل ذميا بغير جرم(٦|٢٥٣٣)برقم ٦٥١٦

(٤) أخرجـه الطبرانى في الأوسط برقم(٤٢٥٢) انظر: المعجم الأوسط لأبى القاسم سليمان بن أحمد الطبراني تحقيق : طارق بن عوض الله بن محمد ،عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني ٤|٢٩٨ ط دار الحرمين – القاهرة ، ١٤١٥ه والصغيربرقـم(٣٨) انظـر: الروضـ الداني – (المعجـم الصغير) لسليمان بـن أحمد بن أيـوب أبى القاسم الطـبراني تحقيـق : محمد شكور ١|٤٥ ط المكتب الإسلامي ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥ه – ١٩٨٥م وقال الهيثمي في مجمـع الزوائـد: "رواه الطبراني بأسانيد كثيرة وأحدها رجاله ثقـات" انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد لنور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي برقم(١٠٧١٢) ٦□٤٤٤ط دار الفكر، بيروت – ١٤١٢ هـ

"فالرسالة الإلهية التي بعث الله بها نبيه محمدا-صلى الله عليه وسلم-هي الرحمة بالعالمين وهى الرحمة التي تعم ولا تخص ،فهي رحمة بالناس أجمعين لا بقبيل دون قبيل ولا بجنس دون جنس وهى الرحمة التي من أجلها كانت الرسالات الإلهية في هذه الأرض فما من نبي إلا كانت بعثته لأجل هذه الرحمة ولذلك كان قانون الرحمة قانونا عاما شاملا لكل الشرائع السماوية والرسالات الإلهية فنوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وغيرهم من الرسل جاءوا رحمة للعالمين

وليست الرحمة مرادفة لمعنى التسامح أو معنى الشفقة والرفق فقد يكون فى التسامح والرفق والشفقة ما يخفى في ثناياه أشد أنواع القسوة فالرفق في معاملة الذين يصاولون الناس بالشر ويستعيرون من آساد الغاب شرهها إلى الدماء ويستبدلون بالظفر والناب السيف والنبل والرصاص-هو القسوة في ذاتها لأنه إن كان رفقا بالذين أجرموا فهو القسوة على فرائس هذا الإجرام ولذلك قرر محمد -صلى الله عليه وسلم- فيما قرر من قوانين الرحمة أن من لا يرحم الناس لا يرحمه القانون الرادع الزاجر فقد قال - صلى الله عليه وسلم -"من لا يرحم لا يرحم" (١)

وتلك هي القاعدة المستقرة الثابتة التي يقوم عليها بناء المجتمع ،فإن شذاب المجتمعات كالناتئ من الأبنية لابد -لكى يكون النسق رائعا جميلا وقويا موثق الأركان- من أخذ هذا

الناتئ بالمعول لتقوم عمد البناء، وكالأشجار المزهرة لا تثمر إلا إذا شذبت أطرافها من كل ما يتعلق بها من طفيل النبات" (٢)

المطلب السادس:تحريم قتل النفس (الانتحار)

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته برقم (٥٦٥١)٥|٢٢٣٥: ومسلم في الفضائل باب رحمته صلى الله عليه و سلم الصبيان والعيال رقم ٦١٧٠ انظر: الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم لأبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري ٧|٧٧ ط دار الجيل بيروت د.ت

(٢) الجريمة والعقوبة في الفقه الإسلامي-الجريمة-للشيخ محمد أبى زهرة ص٧ ط دار الفكر العربى-القاهرة١٩٩٨م

"كل ما ورد في جريمة قتل الإنسان غيره يشمل قتله لنفسه فمن قتل نفسه بأي وسيلة مــن الوسائـل فقد قتل نفسا حرم الله قتلها بغير حـق فحياة الإنسان ليست ملكا له فهو لم يخلـق نفســه ولا عضوا من أعضائه ولا خليــة من خلاياه وإنما نفسه وديعــة عنده استودعه الله إياها فلا يجوز له التفريط فيها "(١) قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًــا (٢٩) وَمَــنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًــا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَــارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) ﴾ (النساء ٢٩-٣٠)

وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – " كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ بِهِ جُرْحٌ ، فَجَزِعَ فَأَخَــذَ سِكِّينًــا فَحَزَّ بِهَا يَدَهُ ، فَمَا رَقَأَ الدَّمُ حَتَّى مَاتَ ، قَــالَ اللَّهُ تَعَالَى بَادَرَنِى عَبْدِى بِنَفْسِهِ ، حَرَّمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ "(٢)

وقال صلى الله عليه وسلم : " مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ ، فَهْوَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ، يَتَرَدَّى فِيــهِ خَالِــدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا ، وَمَنْ تَحَسَّى سَمًّا فَقَتَلَ نَفْسَــهُ ، فَسَمُّهُ فِى يَدِهِ ، يَتَحَسَّاهُ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا ، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ ، فَحَدِيدَتُهُ فِى يَدِهِ ، يَجَأُ بِهَا فِى بَطْنِهِ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا "(٣)

والإســلام يطلــب مــن معتنقــه ان يكــون صلــب العــود في مواجهة أعبــاء الحياة وتكاليفهــا ، لا تضعف قوته ولا تفتر عزيمته و لا يتسرب الخور إلى نفسه ولا اليأس إلى روحه يعرف طبيعة الحياة

طبعت على كدر وأنت تريدها   صفوا من الأقذاء والأكدار

ومكلف الأيام ضد طباعهــا   متطلــب في الماء جذوة نـــــار(٤)

(١) الحلال والحرام في الإسلام ،د: يوسف القرضاوي ص٣١٨

(٢) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء باب ما ذكر عن بني اسرائيل(٣|١٢٧٥) برقم ٣٢٧٦

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الطب باب شرب السم ، والدواء به ، وبما يخاف منه والخبيث (٥|٢١٧٩) برقم ٥٤٤٢ ، ومسلم في كتاب الإيمان باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه برقم ٣١٣. (١|٧٢)

(٤) البيتان لأبي الحسن على بن محمد التهامي ت٤١٦ ه ،انظر ديوانه بتحقيق:د: محمد بن عبد الرحمن الربيع ص ٣٠٨ط مكتبة المعارف الرياض ط الأولى ١٤٠٢ه-١٩٨٢م

ويعرف سنن الله ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ (آل عمران١٤٠) ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) ﴾(الشرح ٥-٦)

ولرب نازلة يضيق بها الفتى ذرعا وعند الله منها المخرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكنت أظنها لا تفرج(١)

المطلب السابع:متى تسقط حرمة الدم؟

قال تعالى: (وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ) (الأنعام١٥١)و(الإسراء٣٣) هذا الحق الذي ذكره القران جزاء على جريمة من ثلاث (٢)

١- القتل ظلما: فمن ثبتت عليه جريمة القتل وجب عليه القصاص نفسا بنفس والشر بالشر يحسم والبادئ أظلم ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩) ﴾" (البقرة ١٧٩)

٢- المجاهرة بارتكاب فاحشة الزنا بحيث يراه أربعة من خيار الناس رؤية عيانية وهو يرتكبها ويشهدون عليه بذلك بشرط أن يكون قد عرف طريق الحلال بالزواج ويقوم مقام الشهادة أن يقر على نفسه أمام الحاكم أربع مرات

٣- الخروج عن دين الإسلام بعد الدخول فيه والمجاهرة بهذا الخروج تحديا للجماعة الإسلامية والإسلام لا يجبر أحدا على الدخول فيه ولكنه يرفض التلاعب بالدين

وقد حصر النبي استباحة الدم المحرم في هذه الثلاث فقال : صلى الله عليه وسلم- " " لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِم يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلاَّ بِإِحْدَى ثَلاَثٍ النَّفْسُ بِالنَّفْسِ وَالثَّيِّبُ الزَّانِى ، وَالْمَارِقُ مِنَ الدِّينِ التَّارِكُ الْجَمَاعَةَ " "(٣)

(١) البيتان للإمام الشافعي، انظر ديوانه بتحقيق : محمد إبراهيم سليم ص ٤٠ ط مكتبة ابن سينا د،ت
(٢) الحلال والحرام في الإسلام، د:يوسف القرضاوي ص٣١٧ وانظر: تفسير ابن كثير:٣|٣٦٣
(٣) أخرجه البخاري في كتاب الديات باب قول الله تعالى (أن النفس بالنفس (٦|٢٥٢١) برقم ٦٤٨٤ ومسلم في كتاب القسامة باب ما يباح به دم المسلم(٥|١٦٨) برقم ٤٤٦٨

المبحث الثاني

سد الذرائع المؤدية للقتل: و فيه أربعة مطالب:

المطلب الأول:تحريم مقاتلة المسلمين

قال تعالى: ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠) ﴾ (الحجرات٩-١٠)

قال السعدي في تفسيره:" هذا متضمن لنهي المؤمنين، أن يبغي بعضهم على بعض، ويقاتل بعضهم بعضًا، وأنه إذا اقتتلت طائفتان من المؤمنين، فإن على غيرهم من المؤمنين أن يتلافوا هذا الشر الكبير، بالإصلاح بينهم، والتوسط بذلك على أكمل وجه يقع به الصلح، ويسلكوا الطريق الموصلة إلى ذلك، فإن صلحتا، فبها ونعمت، وإن (بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ) أي: ترجع إلى ما حد اللّه ورسوله، من فعل الخير وترك الشر، الذي من أعظمه، الاقتتال.(١)

"وفي هاتين الآيتين من الفوائد، غير ما تقدم: أن الاقتتال بين المؤمنين مناف للأخوة الإيمانية، ولهذا، كان من أكبر الكبائر"(٢)

وفي الحديث المتفق عليه عن عبد الله بن عمر – رضى الله عنه – عَنِ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ " مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلاَحَ فَلَيْسَ مِنَّا " (٣)

(١) تيسير الكريم الرحمن(تفسير السعدي)١|٨٠٠

(٢) المصدر السابق :نفس الصفحة

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الديات باب قول الله تعالى ٠(ومن أحياها) (٦|٢٥٢٠) برقم ٦٤٨٠ ومسلم في كتاب الإيمان باب قول النبي – صلى الله عليه وسلم- " من حمل علينا السلاح فليس منا "(١|٦٩) برقم ٢٩١

وفي الصحيحين من حديث أبي بكرة رضي الله عنه قال صلى الله عليه وسلم : " إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِى النَّارِ " . فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا الْقَاتِلُ فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ قَالَ " إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ " (١)

وفي الصحيحين أيضا قال صلى الله عليه وسلم : " " لاَ يُشِيرُ أَحَدُكُمْ عَلَى أَخِيهِ بِالسِّلاَحِ ، فَإِنَّهُ لاَ يَدْرِى لَعَلَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ فِى يَدِهِ ، فَيَقَعُ فِى حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ " (٢)

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال صلى الله عليه وسلم : " مَنْ أَشَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ فَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ تَلْعَنُهُ حَتَّى وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لأَبِيهِ وَأُمِّهِ " (٣)

المطلب الثانى :إباحة المحظورات للضرورة

قال تعالى: (إنمَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٧٣)) (البقرة:١٧٣).

قال ابن جرير: "فمن حلت به ضرورة مجاعة إلى ما حرمتُ عليكم من الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فلا إثم عليه في أكله إن أكله" (٤)

"وإنما حرم علينا هذه الخبائث ونحوها، لطفا بنا، وتنزيها عن المضر، ومع هذا (فَمَنِ اضْطُرَّ) أي: ألجئ إلى المحرم، بجوع وعدم، أو إكراه، (غَيْرَ بَاغٍ) أي: غير طالب للمحرم، مع قدرته على الحلال، أو مع عدم جوعه، (وَلا عَادٍ) أي: متجاوز الحد في تناول ما أبيح له، اضطرارا، فمن اضطر وهو غير قادر على الحلال، وأكل بقدر الضرورة فلا يزيد

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان باب (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما) الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا(٦|٢٥٢٠) برقم ٦٤٨١ ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة باب (إذا تواجه المسلمان بسيفيهما) (٨|١٦٩)برقم ٧٤٣٤

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الفتن باب قول النبي – صلى الله عليه وسلم- " من حمل علينا السلاح فليس منا " (٦|٢٥٩٢)برقم٦٦٦١ - ومسلم في كتاب البر والصلة والأدب باب النهي عن الإشارة بالسلاح إلى مسلم (٨|٣٤) برقم٦٨٣٤

(٣) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والأدب باب النهي عن الإشارة بالسلاح إلى مسلم (٨|٣٣) رقم ٦٨٣٢

(٤) تفسير الطبرى ٣|٣٢١

عليها، (فَلا إِثْمَ) عليه، وإذا ارتفع الإثم رجع الأمر إلى ما كان عليه، والإنسان بهذه الحالة، مأمور بالأكل، بل منهي أن يلقي بيده إلى التهلكة، وأن يقتل نفسه.

فيجب، إذًا عليه الأكل، ويأثم إن ترك الأكل حتى مات، فيكون قاتلا لنفسه، وهذه الإباحة والتوسعة، من رحمته تعالى بعباده، فلهذا ختمها بهذين الاسمين الكريمين المناسبين غاية المناسبة فقال: (إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

ولما كان الحل مشروطا بهذين الشرطين، وكان الإنسان في هذه الحالة، ربما لا ستقصي تمام الاستقصاء في تحقيقها - أخبر تعالى أنه غفور، فيغفر ما أخطأ فيه في هذه الحال، خصوصا وقد غلبته الضرورة، وأذهبت حواسه المشقة.

وفي هذه الآية دليل على القاعدة المشهورة: "الضرورات تبيح المحظورات "فكل محظور، اضطر إليه الإنسان، فقد أباحه له، الملك الرحمن. فله الحمد والشكر، أولا وآخرا، وظاهرا وباطنا". (١)

المطلب الثالث : تحريم الانتقاص من الحياة

إذا كان الإسلام يحمي الحياة فهو يحمي الإنسان من كل ما فيه انتقاص منها، سواء تمثل في الايذاء المعنوي كالسخرية والسب والإهانة والطعن في الأعراض والتهديد والترويع والترهيب ونحو ذلك ، أو في الإيذاء البدني، بالضرب أو الجرح أو الحبس أو التعذيب

وقد نهى القرآن عن الإيذاء المعنوي في غير موضع ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (١٢) ﴾(الحجرات١١-١٢)

(١) تيسير الكريم الرحمن(تفسير السعدى)١|٨١

وقـد قـررت شريعة القرآن القصاص فيما دون النفس، قال تعـالي ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنْفَ بِالأَنْفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ (سورة المائدة٤٥).

وليس أدل علي حرص الإسلام علي حماية حق الحياة وسلامة البدن في الإنسان، من أن إزهـاق روح حيـوان أو إيلامه ظلما يعتبر جريمة يدخل فيها الإنسان النار، فمن باب أولي يعتبر جريمة إزهاق روح الإنسان أو إيذاء بدنه ظلما، فقد قال – صلي الله عليه وسلم "دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعِمْهَا وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ" (١)

المطلب الرابع :التشريع الزاجر والعقوبة الرادعة

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا (٣٣) ﴾(الإسراء٣٣)

"فالقتـل بغـير حق جريمة عظمـي لأنه إفسـاد والله تعالى لا يحـب الفساد، وضرر واعتداء، وإخلال بالأمن، وإحداث للاضطراب في المجتمع، وسبيل لانقراض الإنسانية.

وبعد أن استثنى الله تعالى من تحريم القتل حالة القتل بالحق بقوله: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾أثبت الحق في تنفيذ القصاص بإشراف الدولة لولي الدم، مع تقييده بحصر القتل في القاتل نفسه دون غـيره، فقال: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً ﴾. أي ومن قتل ظلما وعدوانا بغـير حـق يوجب قتله، فقد جعلنـا لمن يلي أمره من وارث أو سلطـان حاكم عند عدم الوارث سلطـة على القاتل ومنحه الخيار بأحد أمرين: إما القصاص (القود) منه بعد حكم قضائي وبإشراف القاضي، وإما العفو عنه"(٢)

قـال تعالى: ﴿يـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِـبَ عَلَيْكُمُ الْقِصاصُ فِي الْقَتْلى الْحُـرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْـدِ وَالْأُنْثى بِالْأُنْثى فَمَـنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّباعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَداءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسانٍ ذلِكَ

(١) أخرجه البخاري فى كتاب بدء الخلق باب خمس من الدواب فواسق يقتلن في الحرم (٣|١٢٠٥) برقم ٣١٤٠

(٢) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج :د وهبة بن مصطفى الزحيلي ٥|٧١ط دار الفكر المعاصر – بيروت، دمشق ط الثانية، ١٤١٨ هـ

تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩) ﴾ (البقرة١٧٨-١٧٩)

"أي: ولكم في هذا الجنس من الحكم الذي هو القصاص، حياة عظيمة، وأي حياة؟. وذلك مما يؤدي إليه- القصاص بالقتل- من الردع عن القتل. فكم من رجل يريد أن يقتل فتمنعه مخافة أن يقتل من القتل. فكان في شرع القصاص سبب حياة النفسين على الأقل. فإذا أضفنا قضايا الثأر غير المعقول من قتل غير القاتل ثأرا كما هي عادتهم في الجاهلية عرفناكم في القصاص من حياة يا أُولِي الْأَلْبَابِ أي: يا أولي العقول والأفهام. دل ذلك على أن غير أولي العقول هم الذين لا يرون القصاص، وتالله إنهم لكذلك، وما أكثرهم في عصرنا، وما أكثرهم في بلادنا.

لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ: أي: لعلكم تنزجرون وتتركون محارم الله ومآثمه، ومنها القتل." (١)

قال القرطبي: "والمراد هنا- أي بقوله تعالى: لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ- القتل، فتسلمون من القصاص. ثم يكون ذلك داعية لأنواع التقوى في غير ذلك. فإن الله يثيب بالطاعة على الطاعة".(٢)

ويقول صاحب الظلال:

"إنه ليس الانتقام ، وليس إرواء الأحقاد . إنما هو أجل من ذلك وأعلى . إنه للحياة ، وفي سبيل الحياة ، بل هو في ذاته حياة ، ثم إنه للتعقل والتدبر في حكمة الفريضة ، ولاستحياء القلوب واستجاشتها لتقوى الله . .

والحياة التي في القصاص تنبثق من كف الجناة عن الاعتداء ساعة الابتداء . فالذي يوقن أنه يدفع حياته ثمناً لحياة من يقتل ، جدير به أن يتروى ويفكر ويتردد . كما تنبثق من

(١) الأساس في التفسير لسعيد حوّى (ت ١٤٠٩ هـ) ١|٣٩٧ط دار السلام – القاهرة ط السادسة، ١٤٢٤ هـ

(٢) الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت: ٦٧١هـ)تحقيق: هشام سمير البخاري ٢|٢٥٧ ط : دار عالم الكتب، الرياض ط : ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م

شفاء صدور أولياء الدم عند وقوع القتل بالفعل . شفائها من الحقد والرغبة في الثأر . الثأر الذي لم يكن يقف عند حد في القبائل العربية حتى لتدوم معاركه المتقطعة أربعين عاما كما في حرب البسوس المعروفة عندهم . وكما نرى نحن في واقع حياتنا اليوم ، حيث تسيل الحياة على مذابح الأحقاد العائلية جيلا بعد جيل ، ولا تكف عن المسيل . .

وفي القصاص حياة على معناها الأشمل الأعم . فالاعتداء على حياة فرد اعتداء على الحياة كلها ، واعتداء على كل إنسان حي ، يشترك مع القتيل في سمة الحياة . فإذا كف القصاص الجاني عن إزهاق حياة واحدة ، فقد كفه عن الاعتداء على الحياة كلها . وكان في هذا الكف حياة . حياة مطلقة . لا حياة فرد ولا حياة أسرة ، ولا حياة جماعة . . بل حياة . .

ثم - وهو الأهم والعامل المؤثر الأول في حفظ الحياة - استجاشة شعور التدبر لحكمة الله ، ولتقواه : ﴿ لعلكم تتقون ﴾ ." (١)

"وهذا السلطان لولي الدم مقيد بألا يسرف في القتل، أي فلا يسرف الولي في قتل القاتل بأن يمثل به، أو يقتص من غير القاتل، كعادة أهل الجاهلية والجاهلين اليوم الذين يقتلون الجماعة في الواحد تشفيا واستعلاء"(٢)

هذا عن القتل العمد أما القتل الخطأ فقد شرعت فيه الدية والكفارة يقول سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَئاً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَئاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللّهِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (ت ١٣٨٥هـ) ١|١٦٥ط دار الشروق - بيروت- القاهرة ط السابعة عشر - ١٤١٢ هـ

(٢) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج ١٥|٧٢

المطلب الخامس :الدعوة إلى وحدة الصف وجمع الكلمة ونبذ العصبية والفرقة

" كانت جزيرة العرب قبل الإسلام ساحة واسعة للقتل الجماعي واستباحة الدماء والأعراض والأموال ، وكانت القبائل العربية في صراع وحروب يستحل بعضها دماء بعض وأموال بعض وأعراض بعض وكان وراء هذه الحروب القيم الجاهلية التي ينشأ عليها الآباء والأبناء وكان الفخر والعصبية على لسان خطبائهم وشعرائهم "(١)

يقول عمرو بن كلثوم : (٢)

لنا الدنيا وما أضحى عليها
ونبطش حين نبطش قادرينا
بغاة ظالمين وما ظلمنا
ولكنا سنبدأ ظالمينا
إذا بلغ الرضيع لنا فطاما
تخر له الجبابر ساجدينا
ألا لا يجهلن أحد علينا
فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ويقول :

ونشرب إن وردنا الماء صفوا
ويشرب غيرنا كدرا وطينا

ويقول دريد بن الصمة : (٣)

(١) موقع قصة الإسلام http://islamstory.com مقال للدكتور :إبراهيم زيد الكيلاني بعنوان "حرمة الدماء في الإسلام" بتصرف

(٢) الأبيات من معلقة عمرو بن كلثوم وهي غير مرتبة،انظر ديوانه بتحقيق د:إميل يعقوب ط دار الكتاب العربي- بيروت ط الأولى١٤١١هـ-١٩٩١م

(٣) انظر ديوان دريد بن الصمة ،تحقيق د عمر عبد رب الرسول ص٦٢ ط دار المعارف د.ت

وما أنا إلا من غزية إن غوت
غويت وإن ترشد غزية أرشد

وجاء الإسلام فأشرقت الأرض بنور ربها فوحد هؤلاء الأشتات وربطهم برباط العقيدة والدين لا برباط التراب والطين وحرم العصبية (وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣)) (الأنفال ٦٣)،

وطبعي أن يحدث اجتماع المسلمين ووحدتهم غيظا في قلوب أعدائهم فيسعون للتحريش بينهم

والقرآن يدعو إلى نبذ هذه العصبيات المقيتة ويدعو إلى وحدة الصف وجمع الكلمة يقول سبحانه:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) ﴾(آل عمران١٠٢-١٠٣)

الخاتمة

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والآه وبعد: فهذا البحث "علاج القرآن الكريم للتساهل في حق الحياة" انتهى إلى عدة نتائج وتوصيات نعرض لأهمها فيما يلي:

أولا: نتائج البحث:

انتهى البحث إلى أن علاج القرآن الكريم لظاهرة التساهل في حق الحياة يتمثل في اتجاهين أحدهما مباشر والآخر غير مباشر والطريق المباشر تمثل في كفالة حق الحياة للجميع دون تمييز عن طريق بيان كرامة الإنسان عند خالقه سبحانه، وبيان حرمة الدماء وبشاعة القتل، وأن هذه الحرمة تشمل المسلمين كما تشمل غير المسلمين غير المحاربين، وتشمل الكبير كما تشمل الصغير بل والجنين ،وأن هذه الحرمة تمتد لتشمل حرمة قتل الإنسان نفسه فهي ليست ملكا له حتي يقتلها، وأن هذه الحرمة لا تسقط إلا بشروط بينها النبي ـــصلى الله عليه وسلم- وهى النفس بالنفس والثيب الزاني والتارك لدينه المفارق للجماعة

هذا عن الاتجاه المباشر أما الاتجاه غير المباشر فقد تمثل في سد الذرائع المؤدية إلى القتل عن طريق تحريم قتال المسلمين وحمل السلاح عليهم، وإباحة المحرمات للضرورة ،وتحريم الانتقاص من الحياة سواء كان هذ االانتقاص ماديا أومعنويا ،كما تمثل في التشريع الزاجر والعقوبة الرادعة، و أخبرا تمثل في الدعوة إلى وحدة الصف وجمع الكلمة ونبذ التعصب والفرقة.

توصيات البحث

يوصي البحث ب

١. ١-تربية الأمة وتوجيهها في محاضن التربية والتوجيه المختلفة التربية الإيمانية المانعة من ارتكاب جريمة القتل وتتمثل في عدة أمور منها:

- التربية على الخوف من الله
- التربية على عدم التعصب
- التربية على فقه الاختلاف
- التربية على التعايش السلمي بضوابطه الشرعية

٢. تكويـن لجنة من الحكمـاء في كل مدينة -ما أمكن - تعمل علـى حقن الدماء ومنع التحريش

٣. العدالة الناجزة دواء للنفوس وعصمة للمجتمعات

٤. طباعة القرآن في القلوب تمنع الغواية وتهدي من الضلالة

و الله من وراء القصد، و هو الموفق والهادي إلى سواء السبيل ،وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المصادر والمراجع

١. الأساس في التفسير لسعيد حوّى (ت ١٤٠٩ هـ) ط دار السلام – القاهرة ط السادسة، ١٤٢٤ هـ

٢. أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي لناصر الدين أبى سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت: ٦٨٥هـ) تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي ط دار إحياء التراث العربي بيروت ط الأولى ١٤١٨ه

٣. أيسر التفاسير للدكتور:أسعد محمود حومد ط دمشق ط الأولى١٤١٩ ه-٢٠٠٩م

٤. تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير) لأبى الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ) تحقيق: سامي بن محمد سلامة ط دار طيبة للنشر والتوزيع ط الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

٥. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج :د وهبة بن مصطفى الزحيلي ط دار الفكر المعاصر - بيروت، دمشق ط الثانية، ١٤١٨ هـ

٦. التفسير الوسيط للقرآن الكريم للدكتور: محمد سيد طنطاوي ط دار نهضة مصر ط الأولى١٩٩٧م

٧. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (ت: ١٣٧٦هـ) تحقيق :عبد الرحمن بن معلا اللويحق ط :مؤسسة الرسالة ط الأولى ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م

٨. جامع البيان في تأويل القرآن (تفسير الطبري) لمحمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت: ٣١٠هـ)تحقيق:أحمد محمد شاكر ط مؤسسة الرسالة ط الأولى ، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م

٩. جامع الصحيح (سنن الترمذي)لمحمد بن عيسى أبى عيسى الترمذي السلمي ط دار إحياء التراث العربي – بيروت د.ت

١٠. الجامع الصحيح (صحيح مسلم)لأبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري ٧|٧٧ ط دار الجيل بيروت د.ت

١١. الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد اللّه محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت: ٦٧١هـ)تحقيق: هشام سمير البخاري ٢ط : دار عالم الكتب، الرياض ط : ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م

١٢. لجامع الصحيح المختصر (صحيح البخاري) لمحمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي تحقيق : د. مصطفى ديب البغا ط دار ابن كثير ، اليمامة – بيروت ط ١٤٠٧ه – ١٩٨٧م

١٣. الجريمة والعقوبة فى الفقه الإسلامى-الجريمة-للشيخ محمد أبى زهرة ط دار الفكر العربي-القاهرة١٩٩٨م

١٤. الحلال والحرام في الإسلام ،د: يوسف القرضاوي ط المكتب الإسلامي ط الثالثة عشرة ١٤٠٠ه-١٩٨٠م

١٥. ديوان أبي الحسن على بن محمد التهامي ت٤١٦ ه تحقيق:د: محمد بن عبد الرحمن الربيع ط مكتبة المعارف الرياض ط الأولى ١٤٠٢ه-١٩٨٢م

١٦. ديوان الإمام الشافعي، تحقيق : محمد إبراهيم سليم ص ٤٠ ط مكتبة ابن سينا د،ت

١٧. ديوان دريد بن الصمة ،تحقيق د عمر عبد رب الرسول ط دار المعارف د.ت

١٨. ديوان عمرو بن كلثوم بتحقيق د:إميل يعقوب ط دار الكتاب العربي-بيروت ط الأولى١٤١١ه-١٩٩١م

١٩. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين محمود بن عبد الله

الحسيني الألوسي (ت: ١٢٧٠هـ) تحقيق على عبدالباري عطية ط دار الكتب العلمية بيروت ط الأولى ١٤١٥ه

٢٠. الروض الداني – (المعجم الصغير) لسليمان بن أحمد بن أيوب أبى القاسم الطبراني تحقيق : محمد شكور ط المكتب الإسلامي ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥ه – ١٩٨٥م

٢١. سنن أبي داود سليمان بن الأشعث ط : دار الكتاب العربي ـ بيروت د ت

٢٢. غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام لمحمد ناصر الدين الألباني ط المكتب الإسلامي ط الأولى ١٤٠٠ه–١٩٨٠م

٢٣. في ظلال القرآن لسيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (ت ١٣٨٥هـ) ١ط دار الشروق - بيروت- القاهرة ط السابعة عشر - ١٤١٢ هـ

٢٤. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل لأبى القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت ٥٣٨هـ) ط دار الكتاب العربي بيروت ط الثالثة ١٤٠٧ه

٢٥. لسان العرب لمحمد بن مكرم بن منظور ط دار صادر – بيروت ط الأولى د.ت

٢٦. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد لنور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي ط دار الفكر، بيروت - ١٤١٢ هـ

٢٧. المعجم الأوسط لأبى القاسم سليمان بن أحمد الطبراني تحقيق : طارق بن عوض الله بن محمد ،عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني ط دار الحرمين - القاهرة ، ١٤١٥ ه

٢٨. الموافقات لإبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (ت ٧٩٠هـ) تحقيق :أبى عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان ط دار ابن عفان ط: الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م

٢٩. موقع قصة الإسلام http://islamstory.com مقال للدكتور :إبراهيم زيد الكيلاني بعنوان "حرمة الدماء في الإسلام"

ال ديارا سياك.

الجنسية: عاجي.
الرتبة العلمية (المسمى الوظيفي): أستاذ الفقه المساعد.
التخصص: الفقه المقارن.
جهة العمل: جامعة الفرقان الإسلامية في أبيدجان- ساحل العاج.
البريد الإلكتروني:DIARRADSL@GMAIL.COM

المؤهلات العلمية:

دكتوراه في الفقه المقارن (الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة).

ماجستير في الفقه المقارن (الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة).

بكالوريوس من كلية الشريعة (الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة).

الإنتاج العلمي:

- الفروع الفقهية المندرجة تحت قاعدة "المظنة تُنزّل منزلة المئنة" جمعاً ودراسة.
- الأحكام الشرعية بين الوسائل والمقاصد.
- التدليل في مذهب الإمام مالك وأثره في التجديد الفقهي.
- التجديد وأثره في الخطاب الدعوي.
- تأصيل نكاح الكتابية في ضوء مقاصد الشريعة.
- مراعاة حال المستفتين بين التشدد والتساهل والانضباط والاضطراب.
- المحافظة على الجماعة في ضوء مقاصد الشريعة.
- تعزيز ثقافة الحوار والتعايش السِّلمي.

أبرز الأعمال والخبرات:

- أستاذ الفقه المساعد بكلية الشريعة بجامعة الفرقان الإسلامية.
- رئاسة لجنة التطوير والمبادرات بجامعة الفرقان الإسلامية (١٤٣٢-١٤٣٥هـ).
- عضو اللجنة الوطنية لرصد الأهلّة في ساحل العاج.
- نائب الأمين التنفيذي العام للمجمع الوطني للعلماء في ساحل العاج.
- خبرة في التدريس عن بُعد بجامعة المدينة العالمية.
- خبرة في الإشراف على فِرَق العمل وإدارة المجموعات.

أكل المال بغير حقّ
أسبابه، وعلاجه في ضوء الكتاب العزيز

إعداد

د. ديارا سياك

أستاذ الفقه المساعد بكليّة الشّريعة بجامعة الفرقان الإسلاميّة
في كوت ديفوار (ساحل العاج)

مقدمة

الحمد لله؛ القائل في محكم التنزيل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء: ٢٩]، والصلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين، وقدوةً للسالكين؛ نبيّنا محمّد ﷺ القائل: "لا يحلّ مال امرئ إلا بطيب نفس منه" (١)، وعلى آله، وصحبه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم، أمّا بعد:

فقد جعل الله تعالى المال زينة الحياة وقوامها واستمرارها على السواء، وحمّل الأفراد والمجتمعات مسؤولية حفظه، ورعايته من الضياع، فقال عزّ من قائل: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [النساء: ٥]، وذكر فَرْط حبّ الناس له، فقال سبحانه: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠]، ونبّه أنّ المال فتنة فقال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨]؛ فالمال فتنة قديمة حديثة، قال النبي ﷺ: "إنّ لكلّ أُمّة فتنة، وإنّ فتنة أُمتي المال" (٢)، فيمدح ويذم، يكون نعْمة لمن كسبه بطرق مباحة، وأنفقه بالمعروف، كما قال ﷺ: "نِعْمَ المالُ الصالح للمرء الصالح" (٣)، ويكون نِقْمة لمن يبذله في المحرمات، أو يجنيه بطرق غير شرعية، وبخاصّة في هذا العصر الذي انبسط فيه الدنيا على الناس، وتنوّعت طرق الحِيَل والخداع في المعاملات المالية على تعدُّدها، كما يلحظ في خدمات البنوك، من التأمينات المتنوّعة، والعروض المغْرية المشبوهة، وفي جوائز المسابقات المشروطة في وسائل الاتصال والإعلام، وذلك مقابل مبالغ معلومة أو مجهولة، كلّ ذلك ساعد في انتشار فتنة المال، ومَهّد للشيطان الطريق لإغواء

(١) خرّجه من حديث أبي حرة الرقاشي عن عمّه: الدار قطني في سننه، كتاب البيوع (٣/٢٦)، والإمام أحمد في مسنده (٥/٧٢)، والبيهقي في السنن الكبرى، باب من غصب لوحاً فأدخله في سفينة .. (٦/١٠٠)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٦/١٢٦).

(٢) خرّجه من حديث كعب بن عياض: الترمذي في جامعه، باب ما جاء أن فتنة هذه الأمة في المال (٤/٥٦٩)، والحاكم في المستدرك، كتاب الرقائق (٤/٣٥٤)، وأحمد في مسنده (٢٩/١٥)، وابن حبان في صحيحه (٨/١٧)، وصححه الحاكم على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، والألباني في صحيح الجامع الصغير (١/٤٣٠).

(٣) خرّجه من حديث عمرو بن العاص: الإمام أحمد في مسنده (٢٩/٢٩٩)، وابن حبان في صحيحه (٨/٦)، وصحّحه الألباني في غاية المرام ص (٢٦١).

الناس، بما يُزيّن لهم؛ ليتأوّلوا في استحلال أموال الأفراد والمؤسّسات، ويبرّروا أكل المال بغير حَقّ، بالاحتيال على أصحابه، ومنعه من مستحقيه.

وقد بيّن القرآن الكريم أحكام المال بياناً شافياً، وفصّلها أحسن تفصيل، فأوضح معالم كسب المال، وأوجه صرفه، وحذّر من مغبّة التعدّي عليه، وأكله ظلماً وعدواناً بغير حقّ شرعيّ، وذكر منفذ الخروج منه بعد وقوع الظلم فيه، ويأتي هذا البحث ليؤصّل حكم أكل المال بغير حقّ، ويُوضّح الأسباب المباشرة، والمؤدّية إليه، وعلاج هذه الظاهرة علاجاً وقائيّاً وواقعيّاً في ضوء نصوص الكتاب العزيز؛ الذي نزل ﴿تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

أهميّة الموضوع:

تظهر أهمية موضوع هذا البحث من جوانب عدّة، أذكر منها:

١. تعلّقه بالمال الذي هو قوام حياة الناس، وحفظه مَقْصَد ضروري من مقاصد الشريعة.
٢. كون أكل المال بغير حقّ ظاهرة اجتماعية، ومشكلة اقتصادية؛ ساهم في الإضرار بالأفراد والمجتمعات، وجرّ الويلات على الشعوب والدول.
٣. تَضمُّنه العلاج القرآني لظاهرة أكل المال بغير حقّ شرعيّ، وذلك في وقت عجزت القوانين الوضعية عن القضاء عليها.
٤. توضيحه الميزان الشرعي لأكل المال بغير حقّ.

أهداف البحث:

يسعى البحث لتحقيق الأهداف الآتية:

١. تأصيل حكم أكل المال بغير حقّ.
٢. توضيح الأسباب المؤدّية إلى أكل المال بغير حقّ، ومعرفة السبب مُمهِّدة لإيجاد الحلول.
٣. تقديم علاج ناجع لظاهرة أكل المال بغير حقّ في ضوء نصوص الكتاب العزيز.

مشكلة البحث وتساؤلاته:

تأتي مشكلة البحث في بيان مناسبة الحلول القرآنية لمشكلة أكل المال بغير حقّ شرعيّ مع تَعدُّد الحلول الوضعية المعاصرة لأكل المال بغير حقّ، فيجيب عن سؤالين أساسَين: ما أسباب أكل المال بغير حقّ؟ وما الحلّ الشرعي للمشكلة الاقتصادية المتعلقّة بأكل المال بغير حقّ؟

سبب اختيار الموضوع:

نظـراً لأهميـة الموضوع الظاهـرة، والتفاتـاً إلى الأهـداف المذكورة، ونظـراً لجدّته في عنوانـه، وصياغتـه، وبخاصة في إيجـاد حلول ناجعـة لأكل المال بغير حـقّ في ضوء نصوص الكتـاب العزيـز، المصدر الشرعـي الأول المقطوع بثبوتـه، المسلّم بما اشتمـل عليه مِن حلول لمشـكلات الحيـاة عند المسلمين كافّة، في وقـت طغى على المجتمعات استغـلال أموال النـاس بأسامي برّاقة مِن تأمين، واستثمار، وضرائب، وكفالة، ورعاية، وحقّ خدمة، آثرت الكتابة في هـذا الموضوع؛ لإبراز الحلول الشرعية من الكتاب العزيز في ظلّ عَجْز القوانين الوضعية عن حلـول المشـاكل الاقتصادية المتتابعة، ويأتي ذلك ضمن موضوعـات المؤتمر الدولي الأول عن توظيف الدراسات القرآنية في علاج المشكلات المعاصرة؛ الذي يُتيح فرصة للباحثين ليسهموا في إثراء موضوعاته، وتحقيق أهدافه، والله أسأل أن يوفقني للصواب فيه، وله الحمد والمنّة، ولتحقيق أهداف الموضوع رسمت خطة مناسبة، ومنهجاً واضحاً.

خطة البحث:

يتألّف البحث من مُقدّمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة:

المقدِّمة، وتتضمن الافتتاحية، وأهمية الموضوع، ومشكلة البحث وتساؤلاته، وأهداف البحث، وسبب اختياره، وخطّته، ومنهجه.

المبحث الأول: في بيان مفهوم "أكل المال بغير حقّ"، وحكمه، ومقصد الشارع من المال، وتحته أربعة مطالب:

المطلب الأول: تعريف الأكل، وسبب التنصيص عليه.

المطلب الثاني: تعريف المال، وبيان مقصد الشارع منه.

المطلب الثالث: تعريف الحقّ، وبيان أنواعه.

المطلب الرابع: مفهوم أكل المال بغير حقّ، وحكمه.

المبحث الثاني: في أسباب أكل المال بغير حقّ، وتحته مطلبان:

المطلب الأول: الأسباب المباشرة لأكل المال بغير حقّ، وتحته خمسة فروع:

- الفرع الأول: التعدّي والظلم.
- الفرع الثاني: الرِّبا.
- الفرع الثالث: الغشّ.
- الفرع الرابع: الرِّشوة.
- الفرع الخامس: الميسر والقمار.

المطلب الثاني: الأسباب المؤدية إلى أكل المال بغير حقّ، وتحته ثلاثة فروع:

- الفرع الأول: الجهل بصور أكل المال بغير حقّ.
- الفرع الثاني: ضعف الوازع الدِّيني مع الطمع والحرص.
- الفرع الثالث: ضعف الرقابة، وأمن العقاب.

المبحث الثالث: في علاج ظاهرة أكل المال بغير حقّ في ضوء الكتاب العزيز، وتحته مطلبان:

المطلب الأول: العلاج الوقائي لظاهرة أكل المال بغير حقّ في ضوء الكتاب العزيز، وتحته أربعة فروع:

- الفرع الأول: تعدّد أوجه كسب المال مِن بيع، وتجارة، وإجارة، وزراعة.
- الفرع الثاني: تقليل حقوق الله في المال.
- الفرع الثالث: إباحة أكل المال بالهبات، والعطايا، والوصايا.
- الفرع الرابع: إباحة مال الغير بالتراضي والإذن.

المطلب الثاني: العلاج الواقعي لظاهرة أكل المال بغير حقّ في ضوء الكتاب العزيز، وتحته أربعة فروع:

- الفرع الأول: الخروج من أكل المال بغير حقّ، والتوبة منه.
- الفرع الثاني: تشنيع أكل المال بغير حقّ.
- الفرع الثالث: تهديد آكل المال بغير حقّ بسوء العاقبة.
- الفرع الرابع: ترتيب الضمان والحدود على أكل المال بغير حقّ.

الخاتمة، وتشتمل أهم نتائج البحث، وتوصياته.

منهج البحث:

طبيعة البحث تقتضي عرضه وفق المنهج الاستقرائي الاستنباطي، وذلك بتتبع الآيات المشتملة على أكل المال بغير حقّ، مستنبطاً الأسباب والعلاج من خلال تفسير القرآن بالقرآن، وتأويله بالسنة المبينة، وتأصيل علماء التفسير، وتحريرهم، وتوجيههم، مع مراعاة قواعد البحث العلمي في توثيق النصوص من مصادرها الأصيلة، والمراجع المساندة لها عند التعذر أو للتنويع، وعزو الآيات القرآنية إلى سورها في المصحف الشريف، ببيان اسم السورة، ورقم الآية، وتخريج الأحاديث والآثار تخريجاً علميّاً؛ بالحكم على الأحاديث التي لم ترد في الصحيحين، أو أحدهما، وشرح غريب الكلمات، والتعريف بالمصطلحات العلمية بإيجاز، وضبط الكلمات المحتملة بالشكل لإزالة الالتباس، وتذييل البحث بقائمة للمصادر مرتبة ترتيباً هجائيّاً، والله الموفِّق، وعليه التكلان.

المبحث الأول

بيان مفهوم "أكل المال بغير حقّ"، وحكمه، ومقصد الشارع من المال.

وتحته أربعة مطالب:

المطلب الأول: تعريف الأكل، وسبب التنصيص عليه.

وتحته فرعان:

الفرع الأول: تعريف الأكل.

الأكل، مصدر أَكَل، أكلاً، ومأكلاً، قال ابن فارس: "الهمزة والكاف واللام باب تكثر فروعه، والأصل كلمة واحدة، ومعناها: التنقّص(١)، والأكل: إيصال ما يتأتى فيه المضغ إلى الجوف، ممضوغًا كان أم غيره (٢)، والأكل أيضاً: الطعمة؛ يقال: جعلته له أكلاً، أي: طعمة(٣)، والمأكل: الكسب، يقال أيضاً: فلانٌ أكل مالي وشربه، أي: أطعمه الناسَ(٤)، وأكل مالَ أخيه، أو أكَل حقَّ أخيه: استباحه، واغتصبه، وأخذه لنفسه دون وجه حقّ"(٥)، قال الشاعر:

من الآكلين الماء ظلماً فما أرى ... ينالون خيراً بعد أكلهم الماء

يريد قوماً كانوا يبيعون الماء؛ فيشترون بثمنه ما يأكلون، فاكتفى بذكر الماء الذي هو سبب المأكول من ذكر المأكول(٦)، وفلانٌ يستأكل الضعفاء، أي: يأخذ أموالهم؛ قال ابن

(١) مقاييس اللغة (١/١٢٢)؛ الصحاح للجوهري (٤/١٦٢٤)؛ معجم اللغة العربية المعاصرة (١/١٠٨).
(٢) التعريفات ص (٣٤).
(٣) لسان العرب (١١/٢٠) مادة "أكل".
(٤) الصحاح للجوهري (٤/١٦٢٥).
(٥) معجم اللغة العربية المعاصرة (١/١٠٧).
(٦) المحكم والمحيط الأعظم (٧/٨٦)؛ لسان العرب (١١/١٩).

بري: وقول أبي طالب:

وما ترك قوم، لا أبا لك، سيداً ... محوط الذمار غير ذرب مؤاكل

أي: يستأكل أموال الناس(١).

الفرع الثاني: سبب التنصيص على الأكل.

التنصيص على الأكل خرج مخرج الغالب، فليس المراد منه الأكل خاصة؛ لأن غير الأكل من التصرفات كالأكل في هذا الباب لكنه، لما كان المقصود الأعظم من المال إنما هو الأكل وقع التعارف فيمن ينفق ماله أن يقال: إنه أكله، فلهذا السبب عبر الله تعالى عنه بالأكل(٢).

وأيضاً، ثبت بشهادة الطرد والعكس أن ما يحرم لا يوقف تحريمه على الأكل دون غيره من التصرفات(٣)، قال ابن عاشور رحمه الله: "والأكل حقيقته إدخال الطعام إلى المعدة من الفم، وهو هنا استعارة للأخذ بقصد الانتفاع دون إرجاع؛ لأن ذلك الأخذ يشبه الأكل من جميع جهاته، ولذلك لا يطلق على إحراق مال الغير اسم الأكل، ولا يطلق على القرض والوديعة اسم الأكل، وليس الأكل هنا استعارة تمثيلية؛ إذ لا مناسبة بين هيئة آخذ مال غيره لنفسه، بقصد عدم إرجاعه وهيئة الأكل "(٤)، وقال الشاطبي رحمه الله: "وإن كان ذلك محرماً في غير الأكل؛ لأنّ أول المقاصد وأعظمها هو الأكل، وما سوى ذلك مما يقصد بالتبع، وما لا يقصد في نفسه عادة إلا بالتبعية لا حكم له"(٥).

فالتنصيص على الأكل من باب إطلاق الخاص مع إرادة العامّ، وهذا معهود من صنيع العرب، وقد تطلق العام مع إرادة الخاص، فالقسمة رباعية، ويعرف ذلك بالسياق والقرائن.

---

(١) لسان العرب (١٩/١١).
(٢) مفاتيح الغيب للرازي (٢٧٩/٥)؛ الكليات ص (١٦١).
(٣) مفاتيح الغيب للرازي (٧٢/٧)
(٤) التحرير والتنوير (١٨٧/٢).
(٥) الموافقات (٤٦٠/٣).

المطلب الثاني: تعريف المال، وبيان مقصد الشارع منه.

ويتضمن فرعين:

الفرع الأول: تعريف المال.

المال في اللغة: يطلق على كلّ ما يملكه الفرد أو تملكه الجماعة من متاع، أو عروض تجارة، أو عقار، أو نقود، أو حيوان، ويجمع على أموال(١)، وتذكر وتؤنث، قال حسان بن ثابت:

المالُ تُزْرِي بأَقوام ذوي حَسَب ... وقدْ تُسَوِّد غير السيِّد المالُ

قال ابن الأَثير رحمه الله: "المال في الأَصل: ما يُملك من الذهب والفضة، ثم أُطلِق على كلّ ما يُقْتَنَى، ويملَك مِن الأَعيان، وأَكثر ما يُطلق المال عند العرب على الإبل؛ لأَنها كانت أَكثر أموالهم"(٢)، وفي حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال: "سئل رسول الله ﷺ عن إعطاء السلطان؟ قال: "ما آتاك الله منه من غير مسألة ولا إشراف فخذه وتموّله"(٣)، أي: اجعله لك مالاً(٤).

والمال في الاصطلاح: "ما بقدره يكون قدر إقامة نظام معاش أفراد الناس في تناول الضروريات والحاجيات والتحسينيات بحسب مبلغ حضارتهم حاصلاً بكدح"(٥).

فلا يُعدّ الهواء مالاً، ولا ماء المطر والأودية، ويعدّ الماء المحتفر بالآبار مالاً، وما ينحته

(١) انظر: لسان العرب (٦٣٥/١١)؛ تاج العروس (٤٢٨/٣٠)؛ المعجم الوسيط (٨٩٢/٢).
(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٣٧٣/٣).
(٣) خرّجه الإمام أحمد في مسنده (١٩٥/٥)، وصحّحه الألباني في السلسة الصحيحة (٢٤٤/٥).
(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر (٣٧٣/٣).
(٥) التحرير والتنوير (١٨٧/٢).

المرء لنفسه في جبل مالاً" (١)، فالمال ما يميل إليه الطبع، ويمكن ادّخاره لوقت الحاجة" (٢).

فالمالية تثبت بتموّل الناس كافّة أو بعضهم، والتقوم يثبت بها بإباحة الانتفاع به شرعاً، فما يباح بلا تموّل لا يكون مالاً كحبّة حنطة، وما يتموّل بلا إباحة انتفاع لا يكون متقوماً كالخمر، وإذا عدم الأمران لم يثبت واحد منهما كالدم" (٣)، وقال الإمام الشافعي رحمه الله: "لا يقع اسم مال إلا على ما له قيمة يباع بها وتلزم متلفه، وإن قلّت وما لا يطرحه الناس، مثل الفلس، وما أشبه ذلك" (٤).

فمصطلح المال يتطوّر استعماله عبر الأزمنة، والأعراف والبيئات، قال ابن الأثير: "وقد تكرر ذكر المال على اختلاف مُسمياته في الحديث، ويفرق فيها بالقرائن" (٥).

الفرع الثاني: بيان مقصد الشارع من المال.

قصد الشارع إلى رواج المال وتداوله، ووضوحه، وحفظه، والمحافظة عليه، وإثباته، والعدل فيه (٦)، قال يوسف العالم: "والشريعة الإسلامية لها مقاصد في الأموال هي مبدأ التداول والوضوح، والعدل فيها، والمحافظة عليها من الاعتداء" (٧).

وهذا التقسيم يشير إلى أنّ حفظ المقاصد يكون من جانبي الوجود، والعدم(٨)، فتدخل المقاصد الثلاثة الأولى في الجانب الأول، وأما مقصد المحافظة على الأموال من الاعتداء فيدخل في الجانب الثاني، فعُدّ المال قوام الحياة واستمرارها على السواء، وحُمِّل مسؤولية حفظه، ورعايته من الضياع الأفراد والمجتمعات، قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ [النساء: ٥]، فأمر بالحجر على السفيه الذي لا يحسن التصرُّف في

(١) انظر: المرجع السابق، الموضع نفسه.
(٢) انظر: البحر الرائق (٥/٢٧٧)؛ رد المحتار (٥/٤).
(٣) انظر: المرجعين السابقين.
(٤) انظر: الأم (٥/١٧١).
(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/٣٧٣).
(٦) انظر: مقاصد الشريعة الإسلامية ص (١٧٥).
(٧) انظر: المقاصد العامة للشريعة ص (٤٩٥).
(٨) الموافقات (٢/٨).

مالـه، وأنزل أطـول آية في تنظيم المال دَيْناً وتجارة، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيـنَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُم بِدَيْـنٍ إِلَى أَجَـلٍ مُسَمًّـى فَاكْتُبُوهُ﴾ [البقـرة: ٢٨٢]، ونهى عن إضاعة المـال، وعن الإسراف والتبذير فيه، كما ذم النبي ﷺ الاحتكار.

ويُعـدّ المال وسيلةً مُهمّة لتحقيق مقاصـد شرعية أخرى، كالتأليف على الإسلام بإعطاء مَـن يُرجى إسلامه، أو يخاف شرّه دفاعاً عـن المسلمين(١)، وسدّ حاجة الفقراء والمساكين، بما أوجب الله فيه حقّاً ثابتاً، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ. لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [المعـارج: ٢٤، ٢٥]، وجاء في الحديث القدسي: أنّ الله عز وجل، قال: "إنّا أنزلنا المال لإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، ولو كان لابن آدم وادٍ لأحبّ أن يكون إليه ثانٍ، ولو كان له واديان لأحبّ أن يكون إليهما ثالث، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ثم يتوب الله على مَن تاب"(٢).

المطلب الثالث: تعريف الحقّ، وبيان أنواعه.

الحقوق في الإسلام منَح إلهية تستند إلى المصادر التي تستنبط منها الأحكام الشرعية، فـلا يوجد حق شرعي من غير دليل يدل عليه، فمنشأ الحق هو الله تعالى؛ إذ لا حاكم غيره، ولا تشريع سوى ما شرعه(٣)، ويشتمل هذا المطلب على فرعين:

الفرع الأول: تعريف الحقّ.

الحـق في اللغـة العربية له معـان متعدّدة تدور علـى معنى الثبوت والوجـوب، مثل قوله تعـالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِـمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[يس: ٧] أي ثبت ووجب(٤)، وتطلق كلمـة الحق على النصيب المقدّر(٥)، قال تعـالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَـقٌّ مَعْلُومٌ. لِلسَّائِلِ وَالْمَحْـرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤، ٢٥]، كما تطلـق على العدل في مقابلة الظلم(٦) مثل قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ [غافر: ٢٠].

---

(١) انظر: مقاصد الشريعة الإسلامية لليوبي ص (٢٨٥).

(٢) خرّجه من حديث أبي واقد الليثي: الإمام أحمد في مسنده (٢٣٧/٣٦)، والطبراني في المعجم الكبير (٢٤٧/٣)، قال الألباني: "وللحديث شواهد كثيرة معروفة فهو حديث صحيح". سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٨٢/٤).

(٣) الفقه الإسلامي وأدلته (٣٦٦/١).

(٤) انظر: غريب القرآن لابن قتيبة ص (٣٦٣).

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢٢٧/٨).

(٦) انظر: تفسير السمعاني (١٣/٥)؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٣٨/٧).

والمعنى القريب إلى أكل المال بغير حقّ، هو إطلاقه في مقابلة العدل، بغير عدل، أي: ظلماً.

وعرّف الحقّ في الاصطلاح بأنه: "اختصاص يُقرِّر به الشرع سلطةً أو تكليفاً" (١).

وهذا التعريف شامل لحقّ الله تعالى، وحقّ عباده، ونص على "السلطة" التي تكون لشخص كحق الحضانة والولاية على النفس، وتكون لشيء معين كحق الملكية، وأما "التكليف" فهو التزام على إنسان إما مالي كوفاء الدَّين، وإما لتحقيق غاية مُعينة كقيام الأجير بعمله.

الفرع الثاني: بيان أنواع الحق.

ينقسم الحقّ باعتبار صاحب الحق إلى ثلاثة أنواع: حق الله، وحقّ الآدمي، وحق مشترك: وهو ما اجتمع فيه الحقّان، ولكن قد يغلب حق الله أو حق الآدمي(٢).

أولاً: حق الله تعالى، وهو ما قصد به التقرب إلى الله تعالى وتعظيمه، وإقامة شعائر دينه، أو تحقيق النفع العام للمجتمع، وينسب إلى الله تعالى لعظم مكانته وشمول نفعه للناس، ومن هذه الحقوق التي يظهر دخولها في الأكل بغير حق: حقّ الله تعالى في الكفارات المالية من إطعام، وكسوة، وتحرير رقبة، فهذه حقوق متمحّضة لله تعالى ليس له مطالب من قبل الآدميين، وإن كانت متعلقة بهم، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ. فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ [المجادلة: ٣، ٤]، وقال: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المائدة: ٨٩].

وهذه الحقوق لا يجوز إسقاطها بعفو، أو صلح، أو تنازل، ولا يجوز تغييرها.

ثانياً: حق الآدمي، وهو ما يقصد منه حماية مصلحة الشخص، سواء أكان الحق عاماً

(١) هذا التعريف للأستاذ مصطفى الزرقا. انظر: المدخل إلى نظرية الالتزام في الفقه الإسلامي ص (١٠).

(٢) انظر: التقرير والتحبير (١١١/٢)؛ كشف الأسرار (١٣٦/٢)؛ التلويح على التوضيح (١٥١/٢).

كالحفـاظ علـى الأموال، وتحقيق الأمن، وقمع الجريمة، ورد العـدوان، أم كان الحق خاصاً، كرعاية حق المالك في ملكه، وحق البائع في الثمن، والمشتري في المبيع، وحق الشخص في بدل ماله المتلف.

وهذه الحقوق يجوز لصاحبها التنازل عنها، وإسقاطها بالعفو، أو الصلح، أو الإبراء، أو الإباحة، ويجرى فيها التوارث، واستيفاؤها منوط بصاحب الحقّ أو وليه، وهو ظاهر ما يُعنى بأكل المال بغير حقّ.

ثالثـاً: الحق المشترك، وهو الحقّ الذي يجتمع فيه الحقان: حقّ الله، وحق الآدمي، ومنه ما يغلب فيه حق الله تعالى، ومنه ما يغلب فيه حق الآدمي.

فمثال الأول: الزكاة الواجبة، والسرقة عند بلوغ الحاكم، فإنهّما وإن كانا حقين مشتركين إلا أنـه يغلـب حـق الله فيهما حيث لا يمكن التنـازل عن الزكاة، ولا عن حـق الله بإقامة حد السرقة بعـد بلوغه الإمام؛ لعموم النفع العائد للمجتمع، ومن الثاني: الصدقات المستحبات، ونفقـات الزوجات، فهما حقان مشـتركان، لكن حق الآدمي غالب فيهما من جهة الامتناع في الأول، والتنازل عنه في الثاني.

المطلب الرابع: مفهوم أكل المال بغير حقّ، وحكمه.

وتحته فرعان:

الفرع الأول: مفهوم أكل المال بغير حق.

يُـراد بأكل المال بغير حـقّ صرفه إلى ما ينافيه الحق(١)، وذلك بالتعدّي عليه بأيّ وجه مـن الأوجه المحرّمة التي لم يأذن بـه الشرع، سواء أكان أكلاً، أم تعطيلاً، أم منعاً، أم أخذاً، قـال ابن العربي رحمـه الله في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُـوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُـمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨] معنـاه: "ولا تأخذوا ولا تتعاطوا؛ ولما كان المقصـود من أخذ المال: التمتع به في شهوتي البطن والفرج، خص شهوة البطن؛ لأنها الأولى المثيرة لشهوة الفرج" (٢).

(١) الكليات ص (١٦١).

(٢) أحكام القرآن لابن العربي (١/١٣٨).

وعلى هذا؛ فالمعنى لا يأخذ بعضكم مال بعض، ويستولي عليه بغير حقّ، مستذرعًا بالأسباب الباطلة، والحيل الزائفة، وما إلى ذلك من وجوه التعدّي والظلم، قال الغزالي رحمه الله: "المال إنما يحرم إما لمعنى في عينه، أو لخلل في جهة اكتسابه" (١)، فتعاطيهما من أكل المال بغير حق، وفي تفسير المنار: "والمعنى العام لأكل أموال الناس بالباطل هو أخذها بغير وجه شرعيّ من الوجوه التي يبذل الناس فيها هذه الأموال بحقّ يرضاه الله عز وجل وهو أنواع" (٢)، وقال ابن كثير رحمه الله: "ينهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن أن يأكلوا أموال بعضهم بعضًا بالباطل؛ أي: بأنواع المكاسب التي هي غير شرعية؛ كأنواع الربا والقمار، وما جرى مجرى ذلك من سائر صنوف الحيل، وإن ظهرت في غالب الحكم الشرعي مما يعلم الله أن متعاطيها إنما يريد الحيلة على الربا" (٣).

فأشار إلى أوجه أكل أموال الناس بغير حقّ، وبالباطل من التعدي والنهب، والسرقة وقطع الطريق، والظلم، والخداع، والحيل، وعن بطريق اللهو بالقمار، والميسر بأنواعه، وعن طريق الرشوة، والربا، وعن طريق جحد الحقوق، وأكل المال على وجه البطر والإسراف (٤).

فجميع وجوه الاعتداء على المال باطل يجب اجتنابه، وذلك تحقيقاً للعدل في الكسب، ومنعاً للظلم فيه.

الفرع الثاني: حكم أكل المال بغير حق.

أكل المال بغير حق حرام بنص الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة، وهو كبيرة من كبائر الذنوب؛ لما رُتّب عليه من النار، وصَلّي الجحيم؛ فمن الكتاب قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء: ٢٩]، وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ

(١) إحياء علوم الدين (٩٢/٢). ونقل ابن خلدون عن المحقّقين من أهل الأدب والحكمة كالحريريّ وغيره بأن: "المعاش إمارة، وتجارة، وفلاحة، وصناعة". فيدخل هضم الحقوق في كل وجه من هذه الأوجه الأربعة. انظر: ديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون (٤٧٩/١).

(٢) تفسير المنار (٣٤٤/١٠).

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢٦٨/٢).

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٣٣١/٢)؛ لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن (١١٩/١)؛ النكت والعيون للماوردي (٢٤٨/١).

بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨]، أراد بالإثم هنا: الظلم والتعدي، وسمي ذلك إثماً لما كان الإثم معنى يتعلق بفاعله(١)، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، قال ابن جرير الطبري: "فنص تبارك وتعالى على تحريم أكل أموالنا بيننا في كتابه بالباطل"(٢).

ومن السنة قول الرسول ﷺ: "..فإنّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا.."(٣)، وقوله ﷺ: "...كل المسلم على المسلم حرام دَمه، وماله، وعِرضه"(٤)، فجعل حرمة مال المسلم كحرمة دمه سواء بسواء.

أما الإجماع فقد اتفق العلماء على تحريم أكل المال بغير حقّ، وممن نقل الإجماع في ذلك ابن جرير، وابن المنذر رحمهما الله، قال ابن جرير: "أجمع جميع الخاصة والعامة أنّ الله عز وجل حرم أخذ مال امرئ مسلم أو معاهد بغير حقّ إذا كان المأخوذ منه ماله غير طيب النفس بأن يُؤخذ منه ما أُخذ"(٥).

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١/٢٦٠).

(٢) اختلاف الفقهاء لابن جرير ص (١٦٩).

(٣) خرّجه من حديث عمرو بن الأحوص: الشيخان في صحيحيهما: البخاري في باب الخطبة أيام منى (٢/٦٢٠)، ومسلم في باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال (٣/١٣٠٥).

(٤) خرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: الإمام مسلم في صحيحه، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله (٤/١٩٨٦).

(٥) اختلاف الفقهاء لابن جرير ص (١٧٠)، وانظر: الإقناع لابن المنذر (٢/٧٠٦).

المبحث الثاني

أسباب أكل المال بغير حقّ.

الأسباب جمع السبب، وهو الحبل الذي يتوصل به إلى الماء، ثم استعير لكل ما يتوصل به إلى شيء؛ فقوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦]، أي الوصل والمودات(١)، وأسباب السماء: نواحيها، وجعلت فلاناً لي سبباً إلى فلان في حاجتي وودجاً أي: وصلة، وذريعة(٢).

وهي في الشريعة: عبارة عما يكون طريقاً للوصول إلى الحكم غير مؤثر فيه(٣).

فهناك أسباب مشروعة في الإسلام، وأسباب ممنوعة، والغاية لا تُبرر الوسيلة، قال ابن جرير رحمه الله: "وأوضح [يعني الله تعالى] المعاني التي يستحق بها آكل مال غيره اسم الآكل ظلماً وباطلاً، وما اللازم له من الأحكام في عاجل الدنيا، وفسره على لسان رسول الله ﷺ "(٤)، وبيانه في مطلبين:

المطلب الأول: الأسباب المباشرة لأكل المال بغير حقّ.

هناك أسبابٌ كثيرة لأكل المال بغير حَقٍّ، وقد نوّع القرآن التعبير عنه، فأطلق عليه: الباطل، وسماه: ظلماً، وسحتاً، وإثما مبيناً، وبهتاناً، وهو الكسب الحرام، والذي قد يُزيِّنه الشيطان للناس، فيُخيَّل به على ضعاف النفوس من الناس أنه لا بأس به، ومن هذه الأسباب ما هو ظاهر، ومنها ما يلحق بالظاهر، ومنها ما هو مستنبط(٥)، فمن الأسباب الواردة في

(١) لسان العرب (٤٥٩/١)؛ النهاية في غريب الحديث والأثر (٣٢٩/٢).
(٢) لسان العرب (٤٥٨/١)؛ مختار الصحاح ص (١٤٠).
(٣) التعريفات ص (١١٧).
(٤) اختلاف الفقهاء لابن جرير ص (١٦٩).
(٥) انظر: التحرير والتنوير (١٩٠/٢).

القرآن الكريم، والمبينة في السنة النبوية، ما هو موضّح في الفروع الخمسة الآتية:

الفرع الأول: التعدِّي والظلم.

قد يتوصل إلى أكل المال بغير حقّ بالتعدي والظلم فيه، والظلم يفسد الرضا في العقد، فإذا اشتملت المعاملة على ظُلم من أحد العاقدين للآخر أو لغيرهما، فإنها تكون محرمة، أما التعدّي فيكون بالسطو على مال الغير بمنعه منه، أو أخذه، ومنه أكل مال اليتيم، ومنع زكاة المال، والجور في التركة ومنع المواريث عن مستحقيها، يقول الله تعالى عن أكل أموال اليتامى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، ووجّهها الفخر الرازي قائلاً: "اعلم أنه تعالى أكّد الوعيد في أكل مال اليتيم ظلماً، وقد كثر الوعيد في هذه الآيات مرة بعد أخرى على من يفعل ذلك، كقوله: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء:٢] وقوله: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا﴾ [النساء:٩]، ثم ذكر بعدها هذه الآية مفردة في وعيد من يأكل أموالهم، وذلك كلّه رحمة من الله تعالى باليتامى؛ لأنهم لكمال ضعفهم وعجزهم استحقوا من الله مزيد العناية والكرامة، وما أشدّ دلالة هذا الوعيد على سعة رحمته وكثرة عفوه وفضله؛ لأنّ اليتامى لما بلغوا في الضعف إلى الغاية القصوى بلغت عناية الله بهم إلى الغاية القصوى" (١).

فأكل مال اليتامى مع الاستغناء عنه ظلم، وطريق منهي عن سلوكه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ٦].

كما توعّد الله تعالى من يمنع زكاة ماله بعذاب أليم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤].

ولما كان العرب لا تورّث النساء والصبيان، حيث كان الرجل منهم إذا مات وترك ذرية ضعافاً، وقرابة كباراً استبدّ بالمال القرابة الكبار(٢)، فنهى الله عن ذلك، وقال: ﴿لِلرِّجَالِ

(١) انظر: مفاتيح الغيب للرازي (٥٠٦/٩).

(٢) انظر: الجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي (١٧٤/٢)؛ أحكام القرآن لابن العربي (٤٢٦/١).

نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ [النساء: ٧]، وختم آيات المواريث بقوله: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [النساء: ١٤]، وقد تساهل الناس اليوم في منع الورثة من مال مورّثهم باسم العادة والعرف تارة، وباسم القانون والنظام تارة، فمنعوا المستحقين الشرعيين، وأعطوا المحجوبين اللسنين، وهو كسب محرم، قال تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا﴾ [الفجر: ١٩]، والأكل اللم، هو الاعتداء في الميراث، فيأكل ميراثه وميراث غيره(١).

فهذه أسباب محرمة لا يجوز سلوكها لاستحلال أموال الناس، فهي غير مشروعة.

الفرع الثاني: تعاطي الرِّبا.

من أخطر أسباب أكل المال بغير حقّ، تعاطي الربا، وهو فضل مال بلا عوض في معاوضة مال بمال(٢)، وينقسم إلى ربا النسيئة، وربا الفضل، فربا الفضل يكون في الأصناف المنصوص عليها(٣)، والملحقة بالمنصوص عليها، وربا النسيئة يكون بزيادة الأجل فيما يجب فيه التقابض.

وتعاطي الربا منهي عنه(٤)، منزوع الخير والبركة، قال الله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾[البقرة: ٢٧٦]، بل الربا من أشد الرزايا على المجتمعات؛ لذا شدد الله في تحريمه وأمرٍ بمجانبته بأنواعه، وتوعّد صاحبه بالحرب، ومن حاربه الله عز وجل فلا يسأل عن حاله؛ لأن الله إذا حارب العبد فقد يبتليه في نفسه وماله وأهله وولده، فلا تقر له عين في دنياه، ثم ما ينتظره في الآخرة قد يكون أشد وأعظم، وسواء كان مع الأفراد أم المؤسسات، فالربا رباً وإن اختلفت أسماؤه وهيئاته وطرق التعامل به، سواء

(١) انظر: جامع البيان في تأويل آي القرآن (٤١٥/٢٤).

(٢) انظر: البناية شرح الهداية (٢٦٠/٨).

(٣) وردت هذه الأصناف في حديث عبادة المشهور: "الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبر بالبر، والشعير بالشعير، والتمر بالتمر، والملح بالملح، مثلاً بمثل، سواء بسواء، يداً بيد، فإذا اختلفت هذه الأصناف، فبيعوا كيف شئتم، إذا كان يداً بيد". خرّجه مسلم في صحيحه، باب الصرف وبيع الذهب بالورق نقداً (١٢١١/٣).

(٤) نقل الإجماع على تحريمه العلماء. انظر: مراتب الإجماع لابن حزم ص (٨٩)؛ الإجماع لابن المنذر ص (٩٥).

سميّت فوائد، أم مكافآت، أم عطايا، فعند إنعام النظر في أغلب المعاملات المصرفية نجد وسم الربا فيها بادياً سواء ما كان منها في التأمينات بأنواعها، وما كان بإيداعات مثمرة فوائد سنوية، فإن العبرة في العقود بالمقاصد والمعاني، لا بالألفاظ والمباني(١)، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[البقرة: ٢٧٨]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٠]، فالربا حرام بكل أشكاله، وجميع تعاملاته، قليله وكثيره سواء، قال الله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وقد ذكر السرخسي -رحمه الله- أنّ لآكل الربا خمساً من العقوبات: الأول: التخبط، والثاني: المحق، وهو الهلاك والاستئصال، وقيل: ذهاب البركة والاستمتاع حتى لا ينتفع به، ولا ولده بعده، والثالث: الحرب، والرابع: الكفر، والخامس: الخلود في النار(٢). فيجب تجنب طريق الربا في كسب المال.

الفرع الثالث: الغشّ.

من أكثر طرق أكل المال بغير حقّ غش الناس والتدليس عليهم في المعاملات، ولاسيما في المعارض والمحلات التجارية، كمن يجعل طيب الطعام في الأعلى، والرديء في الأسفل، أو يخلط الماء باللبن، أو يزوّر السلعة التقليدية بالأصلية، وهذا أمر لا يجوز شرعاً ولا عرفاً، وقد ثبت أن رسول الله ﷺ مَرّ على صبرة طعام، فأدخل يده فيها، فنالت أصابعه بللاً، فقال: "ما هذا يا صاحب الطعام؟" قال أصابته السماء، يا رسول الله، قال: "أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس، من غش فليس مني"(٣).

ومن الغش إخفاء عيب السلعة، ففي حديث عقبة بن عامر الجهني، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "المسلم أخو المسلم، ولا يحل لمسلم إن باع من أخيه بيعاً فيه عيب أن لا يُبينه له"(٤).

---

(١) متفرعة على القاعدة الكبرى "الأمور بمقاصدها". انظر: الوجيز في إيضاح قواعد الفقهية الكلية ص (١٤٧).

(٢) المبسوط للسرخسي (١٢/١٠٩).

(٣) خرجه الإمام مسلم في صحيحه، باب قول النبي ﷺ: "من غشنا فليس منا" (١/٩٩).

(٤) خرّجه ابن ماجه في سننه، باب من باع بيعاً فليبينه (٢/٧٥٥)، والحاكم في المستدرك، كتاب البيوع (٢/١٠)، والبيهقي في السنن الكبرى، باب ما جاء في التدليس وكتمان العيب بالمبيع (٥/٥٢٣)، وصححه الحاكم على على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٥/١٦٥).

فمن عَلِم أنّ في سعلته عيباً وجب عليه أن يُبيِّنه لمن يشتريه؛ لأنّ هذا مِن حقّ المسلم على أخيه، ولا يجوز له أن يكتمه، فإن كتمه فهو آثم، وكسبه حرام.

ومنه أخذ نسَب مُعيّنة من أموال المتبرعين لبناء المساجد، وحفر الآبار دون إعلامهم بذلك، والواقع أن المتبرعين لو علموا بذلك ربما لم يرضوا به، كمن يقتطع عشرين بالمائة أو عُشر المبلغ بدون مقابل، فالمعاملات قائمة على البيان دون الكتمان.

ومنه تطفيف الكيل والميزان(١)، وقد نهى الله عنه ورتّب عليه الويل يوم القيامة، فقال عز من قائل: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ. الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ. وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ. أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ. لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [المطففين: ١-٥]، وقال في موضع آخر: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥]، وقال: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٥].

الفرع الرابع: الرِّشوة.

من أسباب أكل المال بغير حَقّ أخذ الرشوة، وإعطاؤها، وقد نهى الله عنه في كتابه، فقال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٨٨]، أي: ولا تُدلوا بها إلى الحُكّام، أي: لا تُرشوهم وتُصانعوهم فيحكموا لكم بالجَوْر(٢)، فنهى أن يدلي بها إلى الحكّام على سبيل الرشوة، وتوصلاً إلى اقتطاع أموال الناس(٣).

ومن الرشوة فرض الضرائب على دور السكنى، والبضائع والسلع في الأسواق دون مقابل خدمة، كما قال الشاعر:

---

(١) قال ابن جرير الطبري رحمه الله: "والمطفِّف: المقلّل حقّ صاحب الحقّ عما له من الوفاء والتمام في كيل أو وزن". وقال ابن العربي: "وقيل له المطفّف؛ لأنه لا يكاد يسرق في المكيال والميزان إلا الشيء الطفيف، مأخوذ من طف الشيء وهو جانبه". انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (٢٧٧/٢٤)؛ أحكام القرآن لابن العربي (٣٦٤/٤).

(٢) تفسير السمعاني (١٩٠/١).

(٣) تفسير الراغب الأصفهاني (٤٠٠/١).

أفي كـــل أســـــواق الـــعـــراق إتـــاوة ... وفي كـل مـا بـاع امـرؤ مـكـس درهـم[٢]

ولقد لُعن المتعاملون بالرشوة، فقد ثبت أنّ رسول الله ﷺ "لعن الراشي والمرتشي" (١)، قال الخطابي رحمه الله: "الراشي المعطي، والمرتشي الآخذ، وإنما يلحقهما العقوبة معاً إذا استويا في القصد والإرادة فرشا المعطي لينال به باطلاً، ويتوصل به إلى ظلم، فأمّا إذا أعطى ليتوصّل به إلى حقّ أو يدفع عن نفسه ظلماً؛ فإنه غير داخل في هذا الوعيد" (٢).

وكم مِن مُوظّف، وقاض، ومدير شركة، وعامل في مُؤسسة مؤتمن على الحقوق، كم منهم انغمس في أكل المال عن طريق الرشوة، بدعوى خدمة فريدة، أو عناية خاصّة، أو زيادة ساعات عمل، أو زاعماً استحقاق أكثر من الخدمة المطلوبة، ومن أشد أنواع الرشوة خطورةً، وأعظمها نكايةً بالأمة، الرشوة لإبطال حقّ، أو إحقاق باطل، فالرشوة فساد للمجتمعات، تدمير للحقوق، وما تُعاني الأمة اليوم من حروب مدمرة، وويلات مهلكة، وقحط وجدب، تبعات أكل المال بالرشوة وغيرها من الأسباب المحرمة.

الفرع الخامس: الميسر والقمار.

من أسباب أكل المال بغير حقّ التعامل بالميسر والقمار، وكان الرجل في الجاهلية يخاطر على أهله وماله، فأيهما قمر صاحبه ذهب بأهله وماله (٣)، والميسر هو القمار كلّه، واشتقاقه من اليسر؛ لأنه أخذ مال بسهولة مِن غير تعب (٤)، وأصل المقصد من الميسر، هو المقصد من القمار كله وهو الربح واللهو (٥)، فالميسر الضرب بالقداح على الأموال والثمار (٦)،

---

(١) خرجه من حديث عبدالله بن عمرو: أبو داود في سننه، باب في كراهية الرشوة (٣/٣٠٠)، والترمذي في جامعه، باب ما جاء في الراشي والمرتشي في الحكم (٣/٦١٥)، وأحمد في المسند (١١/٨٧)، وابن حبان في صحيحه (١١/٤٦٨)، والحاكم في المستدرك، كتاب الأحكام (٤/١١٥)، وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في غاية المرام ص (٢٦٣).

(٢) معالم السنن (٤/١٦١).

(٣) جامع البيان في تأويل آي القرآن للطبري (٤/٣٢٤).

(٤) لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن (١/٢١١).

(٥) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٢/٣٣١).

(٦) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢/١١٤)؛ المحرر الوجيز (١/٢٧٩).

ويمكن ضبط حقيقة القمار والميسر بأنّه: كل ما يترقب في بذل المال فيه غُنماً وغُرماً بدون عوض، قال الفقهاء: "القمار: أن يكون كل واحد من المتعاقدين (المقامرين) غانماً أو غارماً" (١)، أي إذا كسب أحدهما خسر الآخر.

وللقمار في هذا العصر أشكالٌ وصورٌ، منها ما يخفى على عَامَّة المسلمين، ومنها ما هو ظاهر لعموم الناس، وقد قامت شركات على القمار والميسر باسم اليانصيب، والجائزة الكبرى، والمسابقة الرابحة، كما أنّ التأمين التجاري صورة من صُوَر الميسر والقمار، كما قررت ذلك المجامع الفقهية والهيئات العلمية في العالم الإسلامي، جاء في أبحاث هيئة كبار العلماء: "عقد التأمين التجاري ضرب من ضروب المقامرة؛ لما فيه من المخاطرة في معاوضات مالية، ومن الغرم بلا جناية أو تَسبُّب فيها، ومن الغنم بلا مقابل أو مقابل غير مكافئ..." (٢).

ومنه بيع الغرر، ويوجد في المبيعات من جهة الجهل بتعيين المعقود عليه، أو تعيين العقد، ومن جهة الجهل بوصف الثمن والمثمون، أو بقدره، أو بأجله -إن كان هنالك أجل- ومن جهة الجهل بوجوده، أو تعذّر القدرة عليه (٣)، مثل بيع حبل الحبلة(٤)، وبيع ما لم يخلق، وبيع الملامسة(٥)،

والمنابذة(٦)، وبيع الحصاة(٧)، وبيع المضامين والملاقيح(٨)، وبيع الغرر محرم بنص الكتاب العزيز، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ

---

(١) انظر: مجلة مجمع الفقه الإسلامي (٤١٥/٢).

(٢) أبحاث هيئة كبار العلماء (٣٠٩/٤).

(٣) انظر: بداية المجتهد ونهاية المقتصد (١٦٦/٣).

(٤) أي: أن يبيع ما سوف يحمله الجنين في بطن الناقة على تقدير أن يكون أنثى، أو أن يبيعه إلى أجل ينتج فيه الحمل الذي في بطن الناقة. انظر: الفائق في غريب الحديث (٢٥١/١)؛ النهاية في غريب الحديث (٣٣٤/١).

(٥) بيع الملامسة: أن يقول الرجل للرجل: إذا لمست ثوبي، أو لمست ثوبك، فقد وجب البيع، أو يبتاعه ليلاً. انظر: الزاهر في معاني كلمات الناس (٣٠٩/٢)؛ بداية المجتهد ونهاية المقتصد (١٦٧/٣).

(٦) أن يقول البائع: إذا نبذت إليك الحصاة، فقد وجب البيع. انظر: الزاهر في معاني كلمات الناس (٣٠٨/٢).

(٧) أن يقول البائع: بعتك من السلع ما تقع عليه حصاتك إذا رميت بها، أو بعتك من الأرض إلى حيث تنتهي حصاتك. انظر: النهاية في غريب الحديث (٣٩٨/١).

(٨) المضامين: ما في أصلاب الفحول، والملاقيح: ما في رحم الأنثى من الأجنة. انظر: طلبة الطلبة ص (١١٠).

فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾[المائدة: ٩٠، ٩١]، ووجه الدلالة: أنّ الغرر من الميسر، وحرّم لما فيه من أكل المال بالباطل، ولما قد يسببه من العداوة والبغضاء بين المسلمين(١)، كما أنّ الانشغال بجمع الأموال عن طريق الحظّ والمقامرة يُؤدي إلى الصدّ عن ذكر الله وعن الصلاة، ويبدّد المال ويمحق بركته، كما أنه يُعوِّد المرء على الخمول والكسل، والكسب من غير كدّ ولا تعب، ويصرفه عن التفكير فيما ينفعه جرياً وراء الأوهام والسراب.

وهذا الجشع عائد إلى نظام الاقتصاد الرأسمالي الغاشم، وسبل الكسب المحرمة، وغياب التكافل الاجتماعي المبني على أداء الزكاة، والصدقات، والكفارات، والتعاون بين المسلمين، والإغراق في الربا، فإنّ كثيرًا من المقامرات يُموّل بالقروض الرِّبوية، فيكون تحريم الربا تجفيفاً لمنبع من منابع الميسر(٢).

فهذه المعاملات المبنية على القمار مهما تَعدَّدت مُسميّاتها، من أسباب أكل المال بغير حق.

المطلب الثاني: الأسباب المؤدية إلى أكل المال بغير حقّ.

الأسباب التي تؤدي إلى أكل المال بغير حقّ بالتعدي والظلم والربا والغش والرشوة والميسر وغيرها من الأسباب المباشرة متعددة، وبيانها في أربعة فروع:

الفرع الأول: الجهل بصور أكل المال بغير حقّ.

الجهل سبب كلّ انحراف، ومطية كلّ مخالفة؛ فهناك مَن يأكل أموال الناس بغير حقّ دون شعور منه، أو إدراك لحكمه الشرعي، كمن يتعامل ببعض صور الربا دون علم، أو يتعامل بالميسر والقمار دون وعي، وقد ثبت في الكتاب العزيز النهي عن الربا، وأكّد ذلك أحاديث كثيرة، والتي أوصلت صوره إلى سبعين نوعاً، أو يزيد، كما في حديث أبي هريرة رضي الله

(١) النكت والعيون (١/٢٧٧).

(٢) فتاوى اللجنة الدائمة (١٥/٢٥١)؛ فقه التدرج في تطبيق الاقتصاد الإسلامي ص (٣٠).

عنه قال: "الربا سبعون حوباً، أيسرها أن ينكح الرجل أمّه" (١)، وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢]، وفي حديث جابر رضي الله عنه: "لعن رسول ﷺ آكل الربا، وموكله، وكاتبه، وشاهديه، وقال: هم سواء" (٢)، وروى عبد الله بن عمرو رضي الله عنه: "أنّ نبي الله ﷺ نهى عن الخمر والميسر، والكوبة (٣)، والغبيراء (٤)، وقال: "كل مسكر حرام" (٥).

فيعدّ الجهل سبباً أساساً للوقوع في الأسباب المباشرة لأكل المال بغير حقّ؛ لذا حثّ الإسلام على التعليم والعمل والدعوة إليه، ومع كثرة وسائل التعليم وتنوعها، وقيام الدعاة بالبيان، يقل الجهل بهذه الأحكام، ولا يعذر المقدم على المعاملات المشبوهة دون سؤال أهل العلم، مع تيسر أسبابه.

الفرع الثاني: ضعف الوازع الدِّيني مع الطمع والحرص.

تقوى الله تعالى بإتيان أوامره، واجتناب نواهيه مفتاح السعادة في الدنيا والآخرة، وجُنَّة من أكل المال بغير حق؛ لذا يؤكد القرآن على التقوى والاستقامة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨]، ولا يخفى أنّ من ضعف إيمانه قلّ اتقاؤه لما يأتيه من المحرمات، وبخاصة المال الذي يُعدّ فتنة، قال تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا﴾ [الفجر: ١٩]، وقال النبي ﷺ: "ليأتين على الناس زمان لا يبالي المرء بما أخذ المال أمن حلال أم من حرام" (٦).

فيكون همّ من لا ورع في قلبه جمع المال بجميع السبل، وكل الوسائل، وشدّة الحرص على

---

(١) خرجه ابن ماجه في سننه، باب التغليظ في الربا (٢/٧٦٤)، والبزار في البحر الزخار (١٥/١٧٥)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢/١٧٩).

(٢) خرجه الإمام مسلم في صحيحه، باب لعن آكل الربا وموكله (٣/١٢١٩).

(٣) الكوبة: هي النرد في كلام أهل اليمن، وقيل: الطبل. انظر: غريب الحديث لأبي عبيد الهروي (٤/٢٧٨).

(٤) الغبيراء: هي السُّكُركة تعمل من الذرة شراب يعمله الحبشة. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/٩٦٧).

(٥) خرّجه الإمام أبو داود في سننه، باب النهي عن المسكر (٢/٣٥٣)، وأحمد في المسند (٢/١٥٨)، وصححه الألباني في السلسة (٤/٢٨٣).

(٦) خرّجه من حديث أبي هريرة: الإمام البخاري في صحيحه، باب قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[آل عمران:١٣٠] (٢/٧٣٣).

المــال، وجعله غاية يحمل المرء علــى جمعه بشتى الطرق، ومنع الإنفاق في وجهه، وذلك منهي عنه، ففي حديث مطرف عن أبيه قال: "أتيت النبي r وهو يقرأ ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١]، قــال: يقــول ابــن آدم: "مَالي مــالي"، قال: "وهل لك يــا ابن آدم من مالــك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت؟"(١).

وروى أبــو واقــد الليثي رضي الله عنه قال: كنا نأتي النبــي ﷺ إذا أنزل عليه فيحدّثنا، فقــال لنــا ذات يوم: "إنّ الله عز وجلّ قال: إنا أنزلنا المال لإقــام الصلاة، وإيتاء الزكاة، ولو كان لابــن آدم واد لأحــبّ أن يكون إليه ثان، ولو كان له واديان لأحبّ أن يكون إليهما ثالث، ولا يملأ جوف بن آدم إلا التراب، ثم يتوب الله على مَن تاب"(٢).

الفرع الثالث: ضعف الرقابة، وأمن العقاب.

إنّ من النــاس مَن يحمله ضعف الرقابة على أكل المال بغير حقّ، وإن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن(٣)، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَــيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]، وحث النبي ﷺ على الأمر بالمعروف والنهي عــن المنكــر، ففي حديث أبــي سعيد رضي الله عنه أنه سمع رســول الله ﷺ يقول: "مَن رأى منكــم منكراً فليغــيِّره بيده، فإن لم يستطــع فبلسانه، ومَن لم يستطــع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمــان"(٤)، وقــد كان لنا في رســول الله ﷺ أسوة حسنة في ذلك، فقــد ثبت أنّه ﷺ مَرّ على صبرة طعام، فأدخل يده فيها، فنالت أصابعه بللاً، فقال: ما هذا يا صاحب الطعام؟ ... مَنْ غش فليس مني"(٥).

ويترتــب على الرقابة مساءلــة متعاطي حق غيره بغير حق، ومن ثــم زجره بما يحد من فســاده، ويمنعه من التمادي فيه، بما في ذلك العقوبــات الشرعية زواجر، وجوابر، ومَن أمن العقوبــة أساء الأدب، لذا جاء الشارع الحكيــم بعقوبات رادعة للمعتدين على المال بغير حق،

(١) خرّجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق (٤/٢٢٧٣).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) البداية والنهاية لابن كثير (٢/١٠)؛ تفسير القرآن العظيم (٣/٧٤).

(٤) خرّجه الإمام مسلم في صحيحه، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان ..(١/٦٩).

(٥) سبق تخريجه.

بمــا يناســب كل حالة، من ذلك تضمــين الغاصب لما غصبه، وقطع يــد السارق، وحل عرض الغني المماطل، ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله r قال: "مَطْل الغني ظلم؛ فإذا أتبع أحدكم على مليء فليتبع"(١)، وجاء بيان ما عليه في حديث عمرو بن الشريد عن أبيــه عــن رسول الله ﷺ قال: "ليّ الواجد(٢) يُحل عِرْضــه وعقوبته"(٣)، أي أن لصاحب الدّيــن أن يذمّه ويصفه بسوء القضاء، ويحبس له حتى يؤدي الحق(٤)، وذلك لقطع السبيل إلى أكل المال بغير حق.

الفرع الرابع: البخل والشح.

إنّ جعــل المال غاية في نفسه، يحمــل صاحبه على التقصير في النفقات، ومنع مستحقيه منه، وهو تعدّ في المال، وقد ذم الله البخل في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤]، وقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى. وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى. فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل: ٨ - ١٠]، وقــال: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمــران: ١٨٠]، وروى عبــد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: "خطب رسول الله r فقال: "إيّاكــم والشح، فإنما هلك مَن كان قبلكم بالشّح، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا"(٥).

وقال الماوردي رحمه الله: "وينشأ عن الشحّ من الأخلاق المذمومة -وإن كانت ذريعة إلى كل مذمــوم- أربعة أخلاق ناهيك بها ذمّاً: الحرص، والشــره، وسوء الظن، ومنع الحقوق...

---

(١) خرّجــه الشيخــان في صحيحيهما: البخاري في بــاب في الحوالة (٧٩٩/٢)، ومسلم في بــاب تحريم مطل الغني وصحة الحوالة (١١٩٧/٣).

(٢) اللــي: المطــل، يقال: لَواه غَريمُه بدَيْنه يَلْويه لَيّاً، أي: مطله. انظر: غريب الحديث للهروي (١٧٤/٢)؛ النهاية في غريب الحديث والأثر (٥٧١/٤).

(٣) خرجــه الإمام أبــو داود في سننه، باب في الحبس في الدين وغــيره (٣٣٧/٢)، والنسائي في المجتبى من السنن، باب مطل الغني (٣١٦/٧)، وابن ماجه في سننه، باب الحبس في الدين والملازمة (٨١١/٢)، وأحمد في المسند (٢٢٢/٤)، وصححه ابن الملقن في البدر المنير (٦٥٦/٦)، وحسنه الألباني في إرواء الغليل (٢٥٩/٥).

(٤) انظر: شرح السنة للبغوي (١٩٥/٨)؛ النهاية في غريب الحديث والأثر (٤٣٩/٣).

(٥) خرجــه الإمام أبــو داود في سننه، بــاب في الشح (٥٣٠/١)، والحاكــم في المستدرك، كتــاب الإيمان (٥٥/١)، وأحمد في المسند (١٥٢/٢)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣٨٠/٥).

والخاتمة منع الحقوق؛ لأن نفس البخيل لا تسمح بفراق محبوبها، ولا تنقاد إلى ترك مطلوبها، ولا تذعن للحق، ولا تجيب إلى إنصاف، وإذا آل الشح إلى ما وصف من هذه الأخلاق المذمومة والشِّيَم اللئيمة لم يبق معه خير موجود، ولا صلاح مأمول" (١).

والبخل مَنهي عنه، وبالمقابل فإنّ الإنفاق دواؤه، ففي الحديث قول النبي ﷺ: "ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً" (٢)، قال القرطبي رحمه الله: "يعني الممسك عن النفقات الواجبات، وأما الممسك عن المندوبات، فقد لا يستحق هذا الدعاء، اللهم إلا أن يغلب عليه البخل بها، وإن قَلَّت في أنفسها؛ كالحبة، واللقمة، وما شاكل هذا، فهذا قد يتناوله هذا الدعاء؛ لأنه إنما يكون كذلك لغلبة صفة البخل المذمومة عليه، وقلَّ ما يكون كذلك إلا ويبخل بكثير من الواجبات، أو لا يطيب نفسًا بها" (٣).

(١) انظر: فيض القدير (١٢٥/٣).

(٢) خرّجه من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- الشيخان في صحيحيهما: البخاري في باب قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى...﴾ [الليل: ٥] (٥٢٢/٢)، ومسلم في باب في المنفق والممسك (٧٠٠/٢).

(٣) انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٧٦/٤).

المبحث الثالث

علاج ظاهرة أكل المال بغير حقّ في ضوء الكتاب العزيز.

الإسلام يفرض الأخلاق والقِيَم المثلى في كلِّ جانب من جوانب المال: في إنتاجه، واستهلاكه، وتوزيعه، وتداوله، ولا يقبل بحال أن تسير أيّ ناحية من هذه النواحي بمعزل عن الأخلاق، وقد قرن أوجه النهي عن أكل المال بغير حقّ في الكتاب العزيز بالبدائل الشرعية في الغالب، بل جعل الأصل في المعاملات والعادات الإباحة، وفيما يأتي الحل الوقائي الذي مهدته الشريعة للناس رحمة بهم، وهدى، وكذا العلاج الناجع عند الوقوع فيه خروجاً من الحرام ضرورة، وتحذيراً منه، وذلك في مطلبين:

المطلب الأول: العلاج الوقائي لظاهرة أكل المال بغير حقّ في ضوء الكتاب العزيز.

لعلاج ظاهرة أكل المال بغير حقّ من أجل الحدّ منه، أو تقليله جاءت الشريعة الإسلامية بحلول وقائية، من أهمّها: تعدد أوجه كسب المال من بيع، وتجارة، وإجارة، وزراعة، وتقليل حقوق الله في المال بحصرها في أموال خاصّة، وبلوغه نصاباً مُعيَّناً، وإباحة الهبات، والعطايا، والوصايا، وإباحة مال الغير بالتراضي والإذن، وبين يدي هذه الحلول الفقه في الدِّين، فإنّ الجهل مطية كلّ ظلم، لذا حث الله تعالى على التفقه في الدين ونشره، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]، وسيكون بيان هذا العلاج في أربعة فروع:

الفرع الأول: تَعدُّد أوجه كسب المال من بيع، وتجارة، وإجارة، وزراعة.

لقد أباح الله الطيبات من المآكل والمشارب، وحث على كسب المال بالعمل والسعي في مناكب الأرض، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك:١٥]، وقال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا

رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا للهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]، وقال في حلّ التجارة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، وقال سبحانه: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ﴾ [الجمعة: ١٠]، وقال: ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ﴾ [المزمل: ٢٠].

فجعل الأصل في المعاملات الإباحة، ومع تعدد أوجه كسب المال يجد المرء من بينها ما يغنيه عن الحرام المنحصر في عدد وقواعد.

الفرع الثاني: تقليل حقوق الله في المال.

ينحصر حقّ الله في مال العبد في نِسَب ضئيلة، وفي أموال مُعينة مما يُساعد في الادخار، والقيام بأوجه الإنفاق الأخرى في شؤون العبد، وهي متعدّدة ومتنوعة، ولا حجر عليه فيها ما دام الإنفاق في حدود الوسط بلا إسراف ولا تبذير، وينحصر حق الله تعالى في الزكاة، والصدقة، وفي الجهاد بالمال، وفي الكفارات المالية، مما يُخفّف الحاجةَ إلى أكل مال الغير، قال تعالى في حقّ الزكاة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، وقال في الصدقات المستحبات: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١]، وقال في الإنفاق في الدفاع عن الإسلام وإعلاء كلمة الله ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التوبة: ٨٨]، وقال في وجوب الكفارات المالية: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المائدة: ٨٩].

وفي ضبط الإنفاق في الأوجه الأخرى قال تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا. إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٦، ٢٧]، وقال عز وجل: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

وهذا مما يساعد المرء على إرشاد الإنفاق والادخار؛ لتلبية حاجاته، وبه يكفّ عن التعدّي على مال غيره؛ لاستغنائه بالحلال، وهذا حلّ وقائي.

الفرع الثالث: إباحة أكل المال بالهبات، والعطايا، والوصايا.

أباح الشارع الحكيم أكلَ المال هبات، وعطايا، ووصايا، بل ومواريث أيضاً، قال تعالى في الوصية: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ [النساء: ١١]، وقال سبحانه عن المواريث: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ [النساء: ١١]، وقال عن العطية: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [النساء: ٨]، وأباح الأكل عند الأقارب والأصدقاء، فقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ [النور: ٦١].

فهذه الأموال التي أبيحت للناس قبولها وأكلُها من دون جهد، ولا كسب ولا مقابل يُضيّق الحاجة إلى المال الحرام، فهو حلّ وقائي.

الفرع الرابع: إباحة مال الغير بالتراضي والإذن.

قد يحتاج المرء إلى مال غيره لحاجة نازلة، وظرف طارئ، وهو لا يبذله بدون مقابل، فأباح التبادل بالتجارة عنه رضاً، وعن طريق القرض، والإعارة، فنهى عن منع الماعون، وهذا يدلّ بمفهومه على وجوب بذله قال الله تعالى: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٧]، وقال في التجارة عن تراض: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، وقال عن القرض الحسن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقال عمّا يتنازل عنه المرأة من المهر: ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ [النساء: ٤]، وقالﷺ: "لا يحلّ مال امرئ إلا بطيب نفسٍ منه" (١).

وهذا الحلّ يفتح المجال أمام الناس للإفادة من أموال غيرهم إلى وقت معلوم، بطيب نفس منهم، ويسدّ الحاجة الداعية إلى التعدّي على الحقوق، وهو حلّ وقائي كذلك.

(١) سبق تخريجه.

المطلب الثاني: العلاج الواقعي لظاهرة أكل المال بغير حقّ في ضوء الكتاب العزيز.

العلاج الواقعي يُعدّ استدراكاً لما فات، وتوبةً من الخطأ، وخروجاً من ظاهرة أكل المال بغير حقّ، وذلك من خلال التنديد بتحريم كلّ معاملة مشتملة عليه، وقبول التوبة منه، وتشنيع هذا الكسب، وتهديد صاحبه بسوء العاقبة، وترتيب الضمان والحدود على تعاطيه، بيان ذلك في الفروع الآتية:

الفرع الأول: إتاحة فرصة الخروج من أكل المال بغير حقّ، والتوبة منه.

تضمنت آياتٌ كثيرة هذا الحل العلاجي في المعاملات غير المشروعة، بالتوجيه للتوبة منها، كما في قول الله تعالى في التوبة من الربا: ﴿وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٩]، وقوله: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وقال سبحانه في ترك أكل المال بغير حق، والتوجيه إلى البيع الحلال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، وفتح باب التوبة لمن ابتلي بقطع الطريق، فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٤]، وحثّ على التوبة من السرقة بقوله: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٩].

وهذا الحلّ علاج مفيد متاح لكلّ مُسلم مبتلىً بأكل المال بغير حقّ؛ فإنّ التوبة تجبّ ما قبلها، والله يغفر الذنوب جميعاً، فتجب المبادرة إلى هذا العلاج القرآني، والخروج منه، وردّ الحقوق إلى أصحابها، وبه تختفي هذه الظاهرة، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ [الزمر: ٥٣، ٥٤].

الفرع الثاني: تشنيع أكل المال بغير حقّ.

تضافرت الآيات الكريمات بتقبيح أكل المال بغير حقّ مما يجعل المسلم يرغب عنه، فقد صورته بصورة من مسه الجنّ، كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ

إلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وذكر أنه لا بركة فيه، فقال: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، ووصف الربا والرشوة بأنهما سحت، قال تعالى: ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٢]، قال الماوردي رحمه الله: "فيه تأويلان: أحدهما: الرُّشا. والثاني: الربا" (١)، وعدّ أكل مال اليتامى ذنباً عظيماً فقال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢]، ومثّل أكله في موضع آخر بأكل النار، فقال عز من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، وجَعَله من عمل الشيطان، فقال في تحريم الخمر والميسر: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠]، وذكر أنّه وسيلة من وسائل الشيطان في الإفساد بين المؤمنين، فقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١].

وهكذا يُقدِّم الإسلام علاجاً ناجعاً لأكل المال بغير حقّ؛ بقطع داء المداومة عليه، وذلك بتصويره تصويراً قبيحاً، شنيعاً، مؤذناً بالهلاك، والزوال، والعيش الضنك، مما يساعد في الإقلاع عنه، فيسلم المجتمع من هذه الظاهرة.

الفرع الثالث: تهديد آكل المال بغير حقّ بسوء العاقبة.

من الطرق المتبعة لعلاج ظاهرة أكل المال بغير حق تهديد صاحبه بسوء العاقبة، وسؤاله عنه يوم القيامة، وتخويفه بمغبّة التمادي فيه، كما في قول الله تعالى عن أكل المال بالباطل، قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ٣٠]، وقال رسول الله ﷺ: "لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره: فيم أفناه؟ وعن علمه: فيم فعل؟ وعن ماله: من أين اكتسبه، وفيم أنفقه؟ وعن جسمه: فيم أبلاه؟" (٢)، وجعل الإمضاء فيه حرباً من الله، وما يعلم جنود ربّك إلا هو، فقال تعالى: ﴿يَا

(١) النكت والعيون للماوردي (٢/٥٠).

(٢) خرّجه من حديث أبي برزة الأسلمي: الترمذي في جامعه، باب في القيامة (٤/٦١٢)، والطبراني في المعجم الأوسط (٢/٣٤٨)، والدارمي في سننه (١/٤٥٢)، وصححه الألباني في السلسلة (٢/٦٦٦).

أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩]، وقال سبحانه في تعاطي المال الربوي: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وجعل عاقبة أكل مال اليتيم دخول النار، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، ورتّب الويل على أكل المال بغير حقّ، وذلك بنقص المكيال والميزان، فقال: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١].

هذا العلاج القرآني يُبيِّن مغبّة أكل المال بغير حقّ، وهو ما يحذر منه المسلم، فإذا وقف على هذا المصير المؤلم سهل عليه الإقلاع عنه، وبه ينجو من هذه الظاهرة الخطيرة.

الفرع الرابع: ترتيب الضمان والحدود على أكل المال بغير حق.

من الحلول الواقعية لظاهرة التعدِّي على الأموال ظلماً إلزام متلف مال غيره بغير حق بضمانه، وفي ذلك يقول النبي ﷺ: "على اليد ما أخذت حتى تؤديه"(١)، وشرع الدفاع عن المال والقتال من أجله، حفاظاً عليه من الضياع، ففي حديث ابن عمرو رضي الله عنهما قال: "سمعت النبي ﷺ يقول: "من قتل دون ماله فهو شهيد"(٢).

ومنه إقامة الحدود، بقطع يد السارقين سرقة صغرى، وتنويع العقاب على قطاع الطرق بحسب جريمتهم السارقين سرقة كبرى(٣)؛ ردعاً للآكلين الأموال بغير حقّ، وزجراً لمن تُسوّل له نفسه الإقدام عليه، قال الله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا﴾[المائدة: ٣٨]، وقال في حدّ المحاربين الذين يقطعون الطريق ويأخذون أموال الناس ظلماً، قال فيهم: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٣٣].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) خرجه الشيخان في صحيحيهما: البخاري في باب من قاتل دون ماله (٨٧٧/٢)، ومسلم في باب الدليل على أن من قصد أخذ مال غيره بغير حق كان القاصد مهدر الدم في حقه..(١٢٤/١).

(٣) قال البابرتي رحمه الله: "إن قطع الطريق يسمى سرقة كبرى؛ لأن قاطع الطريق يأخذ المال سرّاً ممن إليه حفظ الطريق وهو الإمام الأعظم، كما أن السارق يأخذ المال سرّاً ممن إليه حفظ المكان المأخوذ منه، وهو المالك أو من يقوم مقامه". العناية شرح الهداية (٤٢٢/٥).

ففي الحدود كفارة الذنب، وحسم مادة الفساد بردع مَن أقيمت عليه من الإمضاء في مسبباتها، وكفّ الفساد عن المجتمع والناس بزجرهم عن الوقوع فيها، والنتيجة علاج ظاهرة أكل المال بغير حقّ في المجتمع، قال ابن حجر رحمه الله تعالى: "قال المازري ومن تبعه: "صان الله الأموال بإيجاب قطع سارقها، وخص السرقة لقلّة ما عداها بالنسبة إليها من الانتهاب والغصب، ولسهولة إقامة البينة على ما عدا السرقة بخلافها، وشدّد العقوبة فيها ليكون أبلغ في الزجر، ولم يجعل دية الجناية على العضو المقطوع منها بقدر ما يقطع فيه حمايةً لليد، ثم لما خانت هانت"(١).

(١)　انظر: فتح الباري (١٢/٩٨).

الخاتمة

الحمــد للّه؛ الــذي أعان على إكمال هذا البحث، أحمده على توفيقه، وأشكره على آلائه، وأصلّي وأسلّم على رسوله الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد: ففي ختام هذه الجولة العلمية توصل البحث إلى النتائج الآتية:

١. أنّ مصطلــح المــال يصــدق علــى كل مــا يقتنى ويملك مــن الأثمــان والأعيان المحترمة كالذهب والفضة والريالات والــدولارات والفرنكات، والإبل والشياه، والدور والأراضي.

٢. أنّ للشريعــة الإسلاميــة مقاصــد في الأموال تكمن في مبــدأ تداولها ورواجها، والوضوح فيها، والعدل، والمحافظة عليها من الاعتداء.

٣. أنّ أكل المــال بغير حــق، يكون بالاستيــلاء عليه بغير وجه شرعــيّ؛ سواء أكان أكلاً، أم تعطيــلاً، أم منعاً، أم أخــذاً، أم تبذيراً، مستذرعاً بالأسباب الباطلة، والحِيَل الزائفة، وإنما نُصّ على الأكل لكونه المقصد الأعظم من المال.

٤. أنّ أكل المــال بغير حقّ شامل لجميع الحقوق؛ سواء أكانت لله، أم للآدميين، أم مشتركة.

٥. أنّ أكل المــال بغير حقّ منهي عنه شرعاً، فهو محرّم وكبيرة من كبائر الذنوب، لمــا رتب عليه مــن الوعيد الشديد، وقد عــبّر عنه القرآن بالباطــل، والسحت، والظلم، والبهتان، والإثم المبين.

٦. أنّ أسبــاب أكل المــال بغير حقّ يتمثّل في التعدِّي والظلم، بــأكل أموال اليتامى، ومنــع الزكوات، والميراث، وفي تعاطي الربا بصوره المتعددة، وفي الغش بإخفاء عيــوب السلع، وتطفيف الكيل والميزان، وفي الرشوة أخذاً وإعطاءً لهضم حقوق المستحقين، وفي الغرر بأنواعه بما في ذلك القمار بأشكاله المتنوعة والمتمثلة في

المسابقات المغرية، والجوائز المشروطة.

٧. أن هناك أسباباً محركة لأكل المال بغير حقّ، هي الجهل بصوره، وضعف الوازع الديني مع الطمع والحرص، وضعف الرقابة، وأمن العقاب، والبخل والشح.

٨. أنّ القرآن العظيم تضمن حلولاً ناجعة ومتنوعة لظاهرة أكل المال بغير حقّ، حيث اشتمل على حلول وقائية وأخرى علاجية.

٩. أنّ الحلول الوقائية تحول دون أكل المال بغير حقّ بما اشتملت عليه مِن تعدد أوجه كسب المال من بيع، وتجارة، وإجارة، وزراعة، وجعل الأصل فيه الإباحة، والنهي عن الإسراف والتبذير اللذين قد يُحوِجان المرء إلى مال غيره، مع إباحة الهبات والعطايا والوصايا بدون مقابل منَ أصحابها، وإباحة مال الغير برضاه وإذنه، وحصر حقوق الله في أموال الناس في نِسَب ضئيلة لا تؤثر في ملكهم بحالٍ.

١٠. أنّ الحلول العلاجيّة لظاهرة أكل المال بغير حق تأتي في إتاحة فرصة الإقلاع عنه، والتوبة منه، وفي تشنيع أكل المال بالباطل، وتهديد آكله بسوء العاقبة، وفي ترتيب الضمان والحدود عليه؛ مما يساعد في الإقلاع عنه.

وأختم بتوصيتين:

أولاهما: إبراز الحلول الشرعيّة لظاهرة أكل المال بغير حقّ مِن خلال الموازنة بينها وبين الحلول الوضعيّة، والتي تبيّن عجزها مِن خلال الأزمات الاقتصادية العالمية المتتالية، وفي ذلك تعزيز موقف الشارع الحكيم، وكون حلّه الحل الناجع المناسب، ولا غرو فإنه من ربّ العالمين، خالق السموات والأرضين.

والأخرى: إعداد دراسة تبرز هذه الأسباب سبباً سَبباً مع العلاج القرآني لكل سبب.

ثبت المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.

٢. الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، لمحمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (ت:٣٥٤هـ)، ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (ت:٧٣٩هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

٣. أحكام القرآن، لأحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي (ت:٣٧٠هـ)، تحقيق: محمد صادق القمحاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٤. أحكام القرآن، للقاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الاشبيلي المالكي (ت:٥٤٣هـ)، تعليق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة: ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣م.

٥. إحياء علوم الدين، لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت:٥٠٥هـ)، دار المعرفة، بيروت.

٦. اختلاف الفقهاء، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت: ٣١٠ه)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٧. إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، لمحمد ناصر الدين الألباني (ت:١٤٢٠هـ)، إشراف: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية: ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م.

٨. الإقناع لابن المنذر، لأبي بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري (ت:٣١٩هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد العزيز الجبرين، الطبعة الأولى: ١٤٠٨ هـ.

٩. البحر الزخار، لأبي بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار (ت: ٢٩٢هـ)، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الأولى: ١٩٨٨م.

١٠. بداية المجتهد ونهاية المقتصد، لأبي الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن

رشـد القرطبي الشهير بابن رشد الحفيـد (ت:٥٩٥هـ)، دار الحديث، القاهرة، طبع سنة ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

١١. البنايـة شـرح الهداية، لأبي محمد محمود بن أحمد بـن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابـى الحنفى بدر الديـن العينى (ت: ٨٥٥هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠م.

١٢. التحريـر والتنويـر "تحرير المعنى السديد وتنوير العقـل الجديد من تفسير الكتاب المجيـد"، لمحمـد الطاهـر بن محمد بـن محمـد الطاهر بـن عاشـور التونسي (ت: ١٣٩٣هـ)، الدار التونسية، تونس، طبع سنة: ١٩٨٤هـ.

١٣. التصاريف لتفسير القرآن مما اشتبهت أسماؤه وتصرفت معانيه، ليحيى بن سلام بـن أبـي ثعلبة، التيمي البصري ثـم الإفريقي القـيرواني (ت: ٢٠٠هـ)، تحقيق: هند شلبي، الشركة التونسية للتوزيع، طبع سنة: ١٩٧٩م.

١٤. التعريفات، لعلي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت: ٨١٦هـ)، تحقيق: جماعـة من العلمـاء، دار الكتـب العلمية، بـيروت، لبنـان، الطبعـة الأولى: ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م.

١٥. تفسير الراغب الأصفهاني، لأبي القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهانى (ت: ٥٠٢هــ)، تحقيق ودراسة: د. محمد عبد العزيز بسيوني، كلية الآداب، جامعة طنطا، الطبعة الأولى: ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩م.

١٦. تفسـير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، لمحمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين القلموني الحسيني (ت:١٣٥٤هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، طبع سنة: ١٩٩٠م.

١٧. تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقـي (ت: ٧٧٤هـ)، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة، الطبعة الثانية: ١٤٢٠هـ -١٩٩٩م.

١٨. تفسـير القرآن، لأبي المظفر، منصور بن محمد بن عبـد الجبار ابن أحمد المروزى السمعاني التميمي (ت:٤٨٩هـ)، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.

١٩. تفسـير مقاتل بن سليمان، لأبي الحسن مقاتـل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخى

(ت: ١٥٠هــ)، تحقيـق: عبد الله محمود شحاته، دار إحيـاء التراث، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٢٣هـ.

٢٠. التفسـير الوسيط، للدكتور: وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ.

٢١. جامع البيان في تأويل آي القرآن، لمحمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت:٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى: ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

٢٢. الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري القرطبي (ت:٦٧١هــ)، تحقيـق: أحمـد الـبردوني، وإبراهيم أطفيش، دار الكتـب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية: ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

٢٣. الجواهـر الحسان في تفسير القرآن، لأبي زيد عبـد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبـي (ت: ٨٧٥هـ)، تحقيق: الشيخ محمد علي معوض، والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ.

٢٤. ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، لعبـد الرحمـن بـن محمد بن محمـد، ابن خلـدون أبو زيـد، ولي الديـن الحضرمي الإشبيلـي (ت: ٨٠٨هــ)، تحقيق: خليـل شحادة، دار الفكر، بـيروت، الطبعة الثانية: ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨م.

٢٥. سلسلـة الأحاديث الصحيحة وشيء مـن فقهها وفوائدها، لأبي عبد الرحمن محمد ناصـر الدين، ابن الحاج نوح بن نجاتـي بن آدم، الأشقودري الألباني (ت:١٤٢٠هـ)، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى.

٢٦. سنن ابن ماجه، لأبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت:٢٧٣هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي.

٢٧. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت: ٣٩٣هــ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطـار، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة: ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٧م.

٢٨. صحيـح البخاري، لمحمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ.

٢٩. صحيح مسلم، لمسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت:٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣٠. عالم التنزيل في تفسير القرآن، لأبي محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (ت: ٥١٠هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٢٠ هـ.

٣١. غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام، لمحمد ناصر الدين الألباني (ت: ١٤٢٠هـ)، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة: ١٤٠٥هـ.

٣٢. غريب القرآن، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت:٢٧٦هـ)، تحقيق: أحمد صقر، دار الكتب العلمية، طبع سنة: ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨م.

٣٣. قواطع الأدلة في الأصول، لأبي المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزي السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي (ت: ٤٨٩هـ)، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ-١٩٩٩م.

٣٤. الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، لأيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي

٣٥. (ت: ١٠٩٤هـ)، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٣٦. اللباب في علوم الكتاب، لأبي حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (ت:٧٧٥هـ)، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: ١٤١٩ هـ -١٩٩٨م.

٣٧. لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (ت:٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة: ١٤١٤هـ.

٣٨. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبد الحق بن غالب ابن عطية الأندلسي المحاربي (ت: ٥٤٢هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٢٢ه.

٣٩. المحكم والمحيط الأعظم، لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (ت: ٤٥٨ه)، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م.

٤٠. معالم السنن شرح سنن أبي داود، لأبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي (ت:٣٨٨هـ)، المطبعة العلمية، حلب، الطبعة الأولى: ١٣٥١ هـ - ١٩٣٢م.

٤١. معجم اللغة العربية المعاصرة، للدكتور: أحمد مختار عبد الحميد عمر (ت: ١٤٢٤هـ)، عالم الكتب، الطبعة الأولى: ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨م.

٤٢. مفاتيح الغيب، لأبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت: ٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة: ١٤٢٠ هـ.

٤٣. المفردات في غريب القرآن، لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت:٥٠٢هـ)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٢هـ.

٤٤. مقاييس اللغة، لأحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت:٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، طبع سنة: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٤٥. الموافقات، لإبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (ت:٧٩٠هـ)، تحقيق: أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، الطبعة الأولى: ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.

٤٦. النكت والعيون، لأبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (ت:٤٥٠هـ)، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٤٧. النهاية في غريب الحديث والأثر، لمجد الدِّين أبي السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (ت:٦٠٦هـ)، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، طبع سنة: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٤٨. الوسيط في تفسير القرآن المجيد، لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (ت: ٤٦٨هـ)، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، والدكتور أحمد محمد صيرة، والدكتور أحمد عبد الغني الجمل، والدكتور عبد الرحمن عويس، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤م.

حميد مسرار

أستاذ بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين وجدة

العنوان الإلكتروني: (HAMIDMESRAR@HOTMAIL.FR)

الدبلوم المحصل عليه :

١. الدكتوراه في فقه الأسرة سنة ٢٠١٢.
٢. عنوان الرسالة: نظرية الحق وتطبيقاتها في أحكام الأسرة
٣. دبلوم الدراسات العليا المعمقة ٢٠٠٦ تخصص: الفقه والأصول. عنوان الرسالة: دراسة تأصيلية للكتاب الثاني من مدونة الأسرة
٤. جائزة المهدي المنجرة للجودة في التعليم ٢٠٠٧ -٢٠٠٨
٥. دبلوم في التدريب القيادي والتنمية البشرية ٢٠١٣.
٦. الإجازة في الدراسات الإسلامية ٢٠٠٢.
٧. عنوان البحث: ابن رشد الجد و منهجه في شرح العتبية
٨. دبلوم مركز تكوين المعلمين ١٩٩٦.
٩. بكالوريا علوم تجريبية ١٩٩٤.

القيم القرآنية الحاكمة لبناء أسرة المكارمة ودورها في علاج العنف الأسري.

الدكتور: حميد مسرار

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين.

أمـا بعد، فـلا ينكر أحـد دور الأسرة في بناء مجتمـع الفضيلة، فهـي مصدر الأخلاق والقيـم، وهي عنوان التكافـل والتراحم. وإذ لا خلاف في مهمات الأسـرة وأدوارها المتعددة فإشكال القيم داخلها لا زال يثير أسئلة عدة من بينها :

ما سبب هذا التغير القيمي الذي تعرفه الأسر الإسلامية ؟.
لماذا تغيرت الأسرة من أسرة المكارمة إلى أسرة المشاحة ؟.

ما القيم القرآنية الحاكمة لبناء أسرة المكارمة وما دورها في علاج العنف الأسري ؟

لقد كان لمنظومة القيم الحداثية أثر بالغ في تغير كثير من القيم الأسرية تمثل في ظهور انقلابـات عدة علـى حد تعبير الدكتـور طه عبد الرحمـان حيث تحولت الأسـرة من أسرة المكارمـة إلى أسرة المشاحة وظهر الصراع بـين أفرادها وأصبحت المطالبة بالحقوق عنوان استقرارها، فغاب بذلك بعد المكارمة والتراحم الذي كان يلف وشائجها. مما أدى إلى ظهور أفـات مجتمعية تسللـت إليها، فعصفت باستقرارها وهدمت علاقـات المودة والرحمة فيها، فسـاءت إليهـا ولدورهـا في بناء مجتمـع الفضيلة. ومن بـين هاته الظواهـر: ظاهرة العنف الأسـري، حيـث تطالعنا بعض الدراسـات الميدانية التي قـام بها باحثـون في أقطار عربية وإسلامية بخطورتها وفشوها بألوان متعددة، فهذا عنف ضد الزوجة وأخر ضد الزوج وذاك عنف ضد الأبناء وأخر ضد الآباء.

وإننـا إذ لا ننكـر ذلك فالذي نخشاه هو اتهام الشرع وإلصـاق التهمة به، وعليه فإبراز أهم القيم القرآنية الحاكمة لبناء أسرة المكارمة كفيل بتصحيح كثير من التصورات الخاطئة بـل عـلاج كثير من الظواهر الأسرية التـي تفتك بلحمتها وتماسكها مـن مثل ظاهرة العنف الأسري ليتبين أهل النظر أن علاج ظاهرة العنف الأسري مرتبط ارتباطا وثيقا بإنشاء أسر شعارها: المكارمة لا المشاحة.

المبحث الأول

القيم القرآنية الحاكمة لبناء أسرة المكارمة علاج للعنف الأسري، دراسة المفاهيم.

القيم القرآنية الحاكمة :

القيم القرآنية الحاكمة هي المبادئ الدستورية القادرة على توليد المواد الدستورية والقواعد القانونية لتكون منطلقا لبناء الأحكام على ضوء المستجدات التي يعرفها الواقع وتعد مقياسا لسائر أنواع الفعل الإنساني ولجميع الآثار المترتبة عليه في الدنيا والآخرة، ولها حضور في سائر المفاهيم الأخرى، تزودها بالمعنى وتحدد وجهتها وقبلتها، وتسدد كثيرًا من آليات اشتغالها.

وقد حددها الأستاذ طه جابر العلواني في ثلاثة؛ وهي التوحيد والتزكية والعمران، واعتبرها كليات قطعية تنحصر مصادرها في المصدر الأوحد في كليته وإطلاقه وقطعيته وكونيته ألا وهو القران الكريم١.

ونوه إلى أن هذه القيم القرآنية لا زالت في حاجة إلى استكمال البحث وتعميق النظر كي تستوعب جميع الأحكام الشرعية بل تكون أساسا لكل اجتهاد قد تكون الأمة في حاجة إليه.

أسرة المكارمة :

الأسرة هي: الدرع الحصينة التي يحتمي بها الإنسان عند الحاجة ٢.

وتطلق في القران الكريم على الآل والأهل و العشيرة والرهط .

أما المُكارَمةُ فهي أَن تُهْدِيَ لإنسانٍ شيئاً ليكافِئَك عليه وهي مُفاعَلة من الكَرَم ٣.

---

(١) – مقاصد الشريعة افاق التجديد دار الفكر بيروت لبنان حوار مع الدكتور طه جابر العلواني ص ٦٥-١٣٩ط ١ ٢٠٠٢

(٢) – لسان العرب محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري ٤ /١٩دار صادر – بيروت

(٣) – لسان العرب١٢/٥١٠

وفي القران الكريم فالكرم إذا وصف الله تعالى به فهو اسم لإحسانه وإنعامه المتظاهر، نحو قوله: "إن ربي غني كريم"، [النمل/٤٠]، وإذا وصف به الإنسان فهو اسم للأخلاق والأفعال المحمودة التي تظهر منه، ولا يقال: "هو كريم حتى يظهر ذلك منه. والكرم لا يقال إلا في المحاسن الكبيرة، وأكرمها وأشرفها ما يقصد به وجه الله تعالى، فمن قصد ذلك بمحاسن فعله فهو التقي، فإن أكرم الناس أتقاهم، وكل شيء شرف في بابه فإنه يوصف بالكرم. والإكرام والتكريم: أن يوصل إلى الإنسان إكرام، أي: نفع لا يلحقه فيه غضاضة، أو أن يجعل ما يوصل إليه شيئا كريما، أي: شريفا"[1].

وعليه ، فأسرة المكارمة هي محضن الأخلاق والأفعال المحمودة بل وموئل النفع الذي يحصل لجميع أفرادها دون غضاضة لتكون بذلك الدرع الحصينة التي تجمع جميع أفراد الأسرة فتمنعهم من كل ما يعصف بهم من إشكالات قيمية ونوازل متجددة قد تفتك بهم وبلحمتهم .

العنف الأسري:

العنف الأسري: هو كل عنف يقع في إطار العائلة ومن قبل أحد أفرادها بما له من سلطة أو ولاية أو علاقة بالمجني عليه.[2]وقد يكون لفظيا أو جسديا أو جنسيا ضد فرد من أفراد الأسرة يمثل الطرف الأضعف فيها.

وللعنف الأسري أسباب يمكن إجمالها على الشكل الآتي :

أ – ضعف الوازع الديني: فغياب مراقبة الله تعالى تجعل المرء لا ينظر إلا إلى مصالحه الشخصية التي يريد تحصيلها بشتى الوسائل والطرق جائزة كانت أم محرمة ،لذلك كان النظر إلى المصالح الشخصية على حساب مصالح الأسرة طريقا مفضيا إلى العنف لا محالة

ب – التربية والتنشئة الاجتماعية: حيث إن غياب الاحترام والتقدير والتنشئة في بيئة

(١) – مفردات ألفاظ القرآن. الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني أبو القاسم دار القلم. دمشق ٢/٢٩٣

(2) (www. amanjordan. org/ aman- studies)-

عنيفة من العوامل الأساس لبروز هاته الظاهرة.

ج – غياب ثقافة الحوار والتشاور داخل الأسرة والتي تجعل من العلاقات الأسرية علاقات سلطوية لا قرار فيها إلا للأقوى.

د – سوء الاختيار وعدم التوافق بين الزوجين، إذ الاختلاف بينهما في الأسس والمقاصد المؤسسة لعلاقتهما سبب رئيس في تعنيف أحدهما الأخر بغية التخلص منه أو إظهار كراهيته له

هـ – الظروف الاقتصادية الصعبة: فلا شك أن الفقر وقلة اليد في بعض الأحيان وعدم الرضا بالوضع قد يكون رافدا من روافد العنف الأسري.

فأسباب العنف متعددة تشمل ما هو ذاتي واجتماعي واقتصادي، لذلك كانت آثاره عائدة على الفرد والمجتمع ومن بينها:

أ – نشوء العقد النفسية التي قد تتطور وتتفاقم إلى حالات مرضية أو سلوكيات عدائية أو إجرامية.

ب – تفكك الروابط الأسرية وانعدام الثقة وتلاشي الإحساس بالأمان.

ج – تهديد كيان المجتمع بظهور الانحراف والسرقة والقتل، وغيرها من المظاهر التي تفتك بلحمة المجتمع ونظام التكافل فيه.

ولما كانت أسرة المكارمة الخلية الأهم لتغيير كثير من المبادئ والأفكار والقيم ،ونظرا لأن القيم القرآنية الحاكمة تتأسس على قواعد كلية تضم في طياتها فروعا كثيرة.

فالسؤال العالق: ما دور القيم القرآنية الحاكمة المؤسسة لأسرة المكارمة في علاج ظاهرة العنف الأسري ؟

إن مفهوم الأسرة محوط بشبكة قيمية داعمة مؤطرة وموجهة، فالفرد في الأسرة، والأسرة في المجتمع، وهي دوائر تراتبية منفتحة على بعضها، يكون أدناها رافدًا لأعلاها،

وأعلاها خادمًا ومحافظًا على أدناها، وفي كل مستوى من هذه المستويات تتحدد وظائف ومسؤوليات، وتترتب حقوق وواجبات. فمفهوم الأسرة قائم أساسًا على فلسفة التكامل الوظيفي المراعي للخصوصيات والأدوار، تؤدي فيه كل دائرة وظيفتها الخاصة الذاتية، ووظيفتها العامة التشاركية والتفاعلية.(١)

لذلك فربط القواعد القرآنية الحاكمة بأسرة المكارمة قد يمكننا من علاج كثير من الاختلالات القيمية التي تعاني منها الأسرة بل إيجاد كثير من الحلول العملية لبعض الظواهر التي يعيشها المجتمع فتكون حينئذ مستوعبة للتطورات والإطار الصحيح الذي يجب أن يستحضر في أي اجتهاد قد يدعيه البعض في ظل عولمة لا تبقي في عالم القيم شيئًا ولا تذر .

وقبل الكشف عن القيم الحاكمة لبناء أسرة المكارمة و دورها في علاج العنف الأسري لا بد من بيان أهم مقوماتها التي ذكرت في القرآن الكريم، لتكون علامات وسمات لتلك الأسرة التي بناها الإسلام من خلال خطابه القرآني.

---

(١) – منظومة القيم في القرآن والبناء التكاملي لوظائف الأسرة د سعيد شبار، مجلة حراء العدد ٤٢

المبحث الثاني

مقومات أسرة المكارمة في القران الكريم.

إن الباحث عن مقومات أسرة المكارمة في القران الكريم ليجد لها تجليات كثيرة ونماذج وفيرة توضح بالملموس حث الإسلام عليها، بل حرصه على إنشائها وفق صفات المكارمة والتراحم.

فأسرة المكارمة لا تقوم على المطالبة بالحقوق فقط، بل تنظر إلى الأخلاق والقيم أساسا من أسس قوتها وشرطا من شروط بقائها واستمرارها، من هنا نفهم حضور العدل والإحسان والعفو والمودة والرحمة والتعاون والتكافل في أحكامها ولأجل توضيح ذلك نقف عند بعض المقومات بمزيد من الشرح.

العدل:

لقد خلق الله عز وجل السماوات والأرض بالعدل، وأرسل رسله لتحقيق العدل، وأرسى دعائم شريعته على أساس العدل، يقول ابن القيم: "فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها ورحمة كلها ومصالح كلها فكل مسالة خرجت عن العدل إلى الجور وعن الرحمة إلى ضدها وعن المصلحة إلى المفسدة وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة وإن دخلت فيها بالتأويل[1].

إن العدل هو إعطاء الحق إلى صاحبه. وهو الأصل الجامع للحقوق الراجعة إلى الضروري والحاجي من الحقوق الذاتية وحقوق المعاملات إذ المسلم مأمور بالعدل في ذاته قال تعالى: (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) ومأمور بالعدل في المعاملة وهي معاملة مع خالقه بالاعتراف له بصفاته وبأداء حقوقه؛ ومعاملة مع المخلوقات من أصول المعاشرة العائلية

(١) - إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية، تحقيق وتعليق عصام الدين الصبا بطي دار الحديث القاهرة ١٤٩/٣.

والمخالطة الاجتماعية وذلك في الأقوال والأفعال قال تعالى: (وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى)١.

وتأسيسا على ذلك، فقد أسس الخطاب القرآني العلاقات الأسرية على أساس العدل وجعله أصلا أصيلا في بناء أسرة المكارمة. فقد أعطى لكل ذي حق حقه ومنح الحقوق على أساس المساواة في المكافأة إن خيرا فخير وإن شرا فشر وجعل التوازن في الحقوق منهجا له.

والممحص في البناء الأسري يتبين له ذلك، حيث أعطى لكل فرد من أفراد الأسرة حقوقا تعينه على أداء مهمته بنجاح، فمنح الرجل حقوقا بصفته ابنا وزوجا وأبا ومنح المرأة حقوقا بصفتها بنتا وزوجة وأما، وأمر باستعمالها على الوجه المفضي لتحقيق مصالح الأسرة.

إن أسرة المكارمة تبتغي العدل في جميع أحكامها، بل تجعله مقصدا من مقاصدها، وهذا ما يضمن له أن يكون ركيزة أساسية في استقرارها. ولتحقيق العدل في العلاقات الأسرية، قرر الخطاب القرآني التساوي بين الرجل والمرأة في الكرامة الإنسانية وفي التكاليف وفي الحقوق والواجبات، وجعل أصل المساواة على النحو الذي يحقق مصلحة الأسرة، فنظرت إليه نظرة مغايرة لا تقوم على المماثلة التامة والمطابقة بل تقوم على التكامل وتوزيع الأدوار، ذلك بأن المساواة المقصودة ليست مطلقة بل هي مقيدة بأحوال يجري فيها التساوي٢.

فإذا كان من الظلم أن يستوي الخلق في التقدير ما داموا مختلفين ومتفاوتين في العمل والذكاء، فليس من العدل في شيء أن تتساوى المرأة والرجل في الحقوق المنوطة بهم في إطار الأسرة مع اختلاف في المواهب والأدوار التي يقوم بها كل واحد منهم.

إن نظرة الإسلام لمفهوم المساواة داخل مجال الأسرة يتأسس على مبدأ التكامل لا على التطابق والتماثل وخير مثال نستشهد به هو قوله تعالى: "ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف، وللرجال عليهن درجة"٣.

---

(١) - التحرير والتنوير ١/٢٣٥٦.

(٢) - نفسه، ص ١٥.

(٣) - سورة البقرة: ٢٢٦.

يقـول الشيخ رشيد رضا: "إن هذه الآية تعطي الرجـل ميزانا يزن به معاملة لزوجته في جميع الشؤون والأحوال وتقرر أن الحقوق بينهما متبادلة وأنهما أكفاء وأن ما من عمل تعمله المـرأة للرجل، إلا وللرجـل عمل يقابله إن لم يكن مثله في شخصه فهـو مثله في جنسه، فهما يتماثلان في الحقوق والأعمال كما أنهما يتماثلان في الذات والإحساس والشعور والعقل"١.

الإحسان:

الإحســان: هــو كل عمل طيب، و يشمل كل عمل و كل تعامــل، فيشمل محيط الحياة كلها في علاقات العبد بربه، و علاقاته بأسرته وعلاقاته بالجماعة، وعلاقاته بالبشرية جميعا.

وقد يقال على وجهين:

أحدهما: الإنعام على الغير، يقال: أحسن إلى فلان.

والثاني: إحسان في فعله، وذلك إذا علم علما حسنا، أو عمل عملا حسنا.

وقـد ورد الإحســان في القرآن الكـريم بتصريفاته سبعاً وثلاثين مـرة، معظمها جاءت تحمـل معــاني خير الجزاء على فعل الإحســان الذي يعني المعروف أو السلـوك الذي يرضاه العرف .

كما دل على معاني متعددة من بينها:

الإيمــان في قوله تعالى: "فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّــاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ"٢ ؛أي أنهم أحسنوا بإعلان إيمانهم فأثابهم الله تعالى. ٣ والصبر في قولـه تعــالى الله تعالى: "وَاصْبِرْ فَــإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِــنِينَ"٤. و الطاعة في قوله تعــالى: "وَنَادَيْنَــاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّــا كَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين"٥. والصدق في قولــه تعالى: "وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً

(١) – تفسير المنار، الشيخ محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة النشر ١٩٩٠ :م٢ /٣٠٢-٣٠٣.

(٢) – سورة المائدة: ٨٥.

(٣) – سورة الصافات : ٧٩ ـ ٨١.

(٤) – سورة هود: ١١٥.

(٥) – سورة الصافات: ١٠٤ ـ ١٠٥.

وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً" ١، والعمل الصالح، كما يدل ذلك عليه قوله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً"٢.

إن تعدد معاني الإحسان في القران الكريم تبين مركزيته في الخطاب القرآني، لذا فأسرة المكارمة لا يمكن أن تسير على منحى المكارمة إلا إذا أسست على الإحسان، فهو مؤشر حقيقي على التقوى الذي يحفظ بيضة الأسرة من التفكك بل هو أساس اكتمال البناء الأسري وضمان استقراره.

من هنا نفهم لماذا أوجب القران الكريم الإحسان في العلاقات الأسرية في جميع أحوالها سواء أثناء الارتباط وحتى عند الانفصال والافتراق، فنجاح البيت الأسري يستلزم حضور المودة والرحمة والتي من لوازمها الإحسان وتطبيق ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتبر الإحسان إلى الزوجة من تمام الإيمان فقال عليه السلام: "إن أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وألطفهم بأهله "٣. والإحسان إلى الأخوات والبنات سبيل دخول الجنة قال عليه السلام: "من كانت له ثلاث بنات أو ثلاث أخوات أو ابنتان أو أختان فأحسن صحبتهن و اتقى الله فيهن فله الجنة"٤.

والبر بالوالدين واجب لا يكتمل إلا بالإحسان فقال عز وجل: "وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا" ٥ .

وتطليق الزوجة والافتراق عنها أمر لا يخلو من الإحسان فقال عز وجل: "لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين"٦.

(١) - سورة النساء: ١٢٥.
(٢) ٢- سورة الكهف: ٣٠.
(٣) - مسند الإمام أحمد، باقي مسند الأنصار رقم :٢٣٥٣٦.
(٤) - مسند أحمد ،مسند بني هاشم ،عبدالله بن عباس ،رقم:٢٠٠٠
(٥) - سورة الإسراء: ٢٣-٢٤.
(٦) - سورة البقرة: ٢٣٦.

إن ربـط معاني الإحسان بمقاصد الأسرة و بمنظومة الحقوق الأسرية تؤكد أن لا تحقق لتلـك المقاصـد إلا إذا كان حاضرا بـل إلا إذا كان سلوكا يتمتع به كل أفـراد الأسرة فيجمله بأحســن حلة ويجعل من الأفـراد جنودا يسعى كل واحد منهم لإسعـاد الأخر بالإحسان إليه فيتحقق المقصود منها مودة ورحمة وسكنا.

٣- المودة والرحمة:

- المودة:

الـوُدُّ والـودَادُ: الحُبُّ والصَّدَاقة ثم استُعـير للتَّمَنِّي وقال ابنُ سيـدَه: الوُدُّ : الحُبُّ يكون في جَمِيـع مَدَاخِـل الخَيْر عن أَبي زَيْد ووَدِدْتُ الشيءَ أَوَدُّ وهـو الأُمْنِيَّة قال الفَرَّاءُ: هذا أَفْضَلُ الـكلام وقال بعضهم: وَدَدْتُ ويَفْعَلُ منه يَوَدُّ لا غَـيرُ ذكَر هذا في قوله "يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ" أَي يَتَمَنَّى . وفي المفردات: الوُدُّ : مَحَبَّةُ الشّيءِ وتَمَنِّي كَوْنه ويُسْتَعْمَل في كُلِّ واحدٍ من المَعْنيين[١].

يقول الإمام ابن القيّم رحمه الله: "وأمّا الودّ فهو خالص الحبّ وألطفه، وأرقّه وأصفاه، وهو من الحبّ بمنزلة الرأفة من الرحمة "[٢].

لقـد شـدد الخطاب القـرآني في بنائه الأسري علـى الروح التي تجمع بـين جميع أفراد الأسرة وتلف أواصره، فبناه على المودة والمحبة واعتبرها مقصدا عظيما لإنشاء الأسر فقال تعالى: "وَمِنْ آيَاته أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسكُمْ أَزْوَاجًا لتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَآيَات لقَوْم يَتَفَكَّرُونَ"[٣] فالمودة روح تجمع أفراد الأسرة وتجعل كل واحد منهم يتودد للأخر بقدر ما يقدمه له من خدمة أو إعانة أو مساندة في أوقات الرخاء أو الشدة ،وهي روح لا يتصـور غيابها داخل الأسرة فإذا غابت انتفى السكـن بل إن غياب السكن مؤشر حقيقي على غيابها، إذ لا معنى للمودة دون سكن نفسي يعود على الزوجين.

يقـول الشيخ محمّد رشيد رضا في تفسير قوله تعالى: "هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَـلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا"[٤]، وذلك أنّ المرء إذا بلغ سِنّ الحياة الزوجيّة يجدُ في نفسه

---

(١) - تـاج العروس من جواهر القاموس لأبي فيض السيد محمـد مرتضى الحسيني الواسطـي الحنفي، تحقيق مصطفى حجازي دار التراث ١٩٨٥/١٩٦٩. باب ودد .

(٢) ٣- روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم الجوزية دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط ١٩٨٣ ص ٣٤٦.

(٣) - سورة الروم: ٢١.

(٤) ٢- سورة الأعراف: ١٨٩.

اضطراباً خاصّاً لا يسكن إلاّ إذا اقترن بزوج من جنسه واتّحدا، ذلك الاقتران والاتّحاد الذي لا تكمل حياتهما الجنسيّة المنتجة إلاّ به"[1].

لقد راعى الإسلام المودة في الأسرة فخص لها من الأحكام ما يقويها ويحفظ ذكرها بدءا بأحكام الخطبة وانتهاء بأحكام الطلاق والعدة، وجاءت نصوص الشرع تؤكد ضرورة المعاشرة بالمعروف سواء أثناء قيام الحياة الزوجية أو حتى بعد انفصام عراها، قال تعالى: "الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان"[2]، ووجه الدلالة أن شأن الطلاق أن تكون كل مرة منه معقبة بإرجاع بمعروف أو ترك بإحسان أي دون ضرار في كلتا الحالتين[3].

- الرحمة:

صفة تبعث على حسن المعاملة[4]وخلق رفيع يجعل كلا من الزوجين يخشى ربه ويراعي ما عليه من حقوق تجاه زوجه. فالرحمة عنصر من أهم عناصر العشرة بين الزوجين وهي تبقى في حالات الرخاء والشدة وتكون أكثر وضوحا في حالات الشدة[5].

يقول الأستاذ عبد الحليم أبو شقة: "أما إذا فتر الحب فلا بد من الأصل الثاني الذي تقوم عليه الأسرة وهو الرحمة، وهنا يتأكد البحث في الحقوق حتى لا تضيع"[6].

لقد حرص الخطاب القرآني على إنشاء علاقات أسرية متينة لا يخترقها شيطان ولا يفك عقدها حاقد أو حاسد أو جبان، فأسسها على أساس التراحم واعتبره أساسا يقوم على رقة تقتضي الإحسان للمرحوم والعطف عليه والحنو، بل تقتضي إرادة المنفعة للغير وإعمار القلب بحب الخير والنفع والبدل والعطاء للآخرين[7].

---

(١) - تفسير المنار، رشيد رضا ٩/٤٣١.

(٢) - سورة البقرة، الآية٢٢٧.

(٣) - التحرير والتنوير، ٢/٣٣٤.

(٤) - التحرير والتنوير ، ١٠/٧٢.

(٥) - المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، يوسف حامد العالم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط ١٤١٢١, ١٩٩١، ص ٤١٣

(٦) - تحرير المرأة في عصر الرسالة عبد الحليم ابو شقة، ٥/١٦٣، دار القلم، الكويت ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

(٧) - التراحم بين الناس في السنة النبوية، عبد اللطيف الجيلاني منشورات مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث بالرابطة المحمدية للعلماء-الرباط، سلسلة دراسات وأبحاث(١)، الطبعة الأولى: ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م ، ص ١٧.

وعمـل علـى صيانة علاقـات الرحم والقرابة، فقال تعـالـى: "يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّـذي خَلَقَكُـمْ مِنْ نَفْس وَاحدَة وَخَلَـقَ منْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ منْهُمَا رِجَالًا كَثـيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا" ١، وتوعد كل من عمل على هدمها بأشد العقوبـات واعتبر أن قبول الأعمال آو ردها رهين بوصـل أو قطع العلاقات قال عليه الصلاة والسلام: "الرحم معلقة بالعرش، تقول: من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه الله"٢.

إن تربية النشء على قيم التراحم، وبناء أسر على صلة الأرحام، والعمل على صيانتها، يجعـل العلاقـات الأسرية علاقات متينة يسـود فيها التكافل بشتى أنواعـه. فتحصل حينئذ اللحمة الأخوية وتنبنى القرابة الترا حمية ولا شك أن ذلك ينمي أخلاق التسامح والإيثار في تحصيل الحقوق وهو ما يضمن الدوام والاستمرار.

و خلاصـة القول فلا بنـاء لأسرة المكارمة إلا بحضور المـودة والرحمة. فهما صفتان لا يتصور غيابهما، فإذا غابتا غاب السكن وانقلبت أحوال الأسرة إلى جحيم لا يطاق.

العفو:

العفـو هو التَّجـاوُزُ عن الذنب وتَرْكُ العقـابِ عليه وأَصلُه المَحْوُ والطَّمْسـ وهو من أَبْنية المُبالَغـة يقال عَفَا يَعْفُـو عَفْواً فهو عاف وعَفُوٌّ، قال الليث: "العَفْوُ عَفْوُ الله عز وجل عن خَلْقه، والله تعالى العَفُوُّ الغَفُور وكلُّ من اسْتحقَّ عُقُوبةً فَتَرَكْتَها فقد عَفَوْتَ عنه"٣.

و قد يأتي بمعنى الكثرة٤.

وقد ذكر العفو في القران الكريم خمسا و ثلاثين مرة بمعاني متعددة من بينها:

– الصفح و المغفرة و التجافي عن الذنب كما في قوله تعالى: "وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفوا الذي بيده عقدة النكاح وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير"٥.

(١) – سورة النساء الآية ١.
(٢) – صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها.
(٣) – لسان العرب ٧٢/١٥
(٤) – نفسه .
(٥) – سورة البقرة الآية ٢٣٧.

- الفضل من المال كما في قوله تعالى: "ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو"[1].

- الفضل الذي يجيء بغير كلفة كما في قوله تعالى: "خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين"[2] . فالخطاب موجه لرسول الله وأمته للاتصاف بجميع مكارم الأخلاق، أي أقبل من الناس في أخلاقهم وأموالهم بما أتى عفوا دون تكلف ولا تحرج[3] ، إن العفو من الركائز الأساس لقيام أسرة المكارمة، فالحياة الأسرية هي حياة قد يختلط فيها رغد العيش بنكده، والسعادة والمحبة بالخصام والتنافر، من هنا كان العفو والتسامح عما يحدث من زلات وهنات ومن عدم أداء الحقوق في بعض الأحيان مظنة لاستمرارها إذ التمسك بالحقوق دائما قد يؤول إلى ما لا يحمد عقباه بل إن قبول الميسور من أخلاق الناس قد يجعل العلاقات أكثر لحمة وارتباطا ذلك بأن الطباع تختلف وأحاديث النفس تفترق ومشاكل الحياة تتناسل، لذلك كان العفو ترياقا شافيا لكثير من المعضلات والأزمات الأسرية.

ولنتدبر قوله تعالى: "فنصف ما فرضتم إلا أن تعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح وأن تعفو أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير"[4].

يقول الشيخ الطاهر بن عاشور في شرح معنى العفو: "ومعنى كون العفو أقرب للتقوى، أن العفو أقرب للتقوى من التمسك بالحق، لأن التمسك بالحق لا ينافي التقوى لكنه يؤذن بتصلب صاحبه وشدته، والعفو يؤذن بسماحة صاحبه و رحمته و القلب المطبوع على السماحة و الرحمة أقرب إلى التقوى من القلب الصلب الشديد"[5].

فلا مناص للأسرة إن أرادت بناء أسرة المكارمة من العفو والتسامح و إلا فالتمسك بالحق دائما قد يؤدي إلى خصام وصدام يؤول إلى فراق وطلاق جعله الإسلام أبغض الحلال إلى الله

---

(١) - البقرة الآية ٢١٩.

(٢) - سورة الأعراف: ١٩٩ .

(٣) - صحيح البخاري كتاب التفسير باب الأعراف رقم: ٤٣٦٧

(٤) - سورة البقرة: ٢٣٧.

(٥) - التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، دار سحنون ٢/٤٦٤.

التكافل:

حرص الخطاب القرآني على بناء مجتمع يسود فيه القيم والأخلاق، ويتأسس على روابط متينة تصون لحمته وأخوته وتضامن أفراده في تحقيق الغاية من وجوده، فلا حصول لمقصد الاستخلاف إلا بالتضامن الاجتماعي الذي يجعل الفرد منخرطا في جماعته والجماعة ضامنة لمصالح الأفراد، لذلك كان المجتمع بحاجة إلى نظام التكافل باعتباره نظاما يضمن تضامن أبناء المجتمع فيما بينهم سواء أكانوا أفرادا أم جماعات بدافع من شعور وجداني عميق ينبع من أصل العقيدة ليعيش الفرد في كفالة الجماعة وتعيش الجماعة بمؤازرة الفرد[1]، ويهدف تجاوز معنى الإحسان والصدقة والبر إلى مقصد حفظ المجتمع في خلق التماسك الاجتماعي الذي يعصم المجتمع من كل ما يفتك به.

إن حصول التماسك الاجتماعي ومن ثم قوة المجتمع وقدرته على النمو وقدرة الإنسان فيه على التعمير يتطلب حتما حصول مجتمع التكافل والتضامن بأنواعه المختلفة وذلك لردم الهوة بين طبقاته ودرء التفرقة والاختلاف بين أفراده لئلا يؤول الأمر إلى تقاعس عن أداء وظيفة الأمة الحضارية قال تعالى: "وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ"[2].

لذلك فإن التكافل منهج إسلامي أصيل ينبع من أصل العقيدة ليمر عن طريق التزكية إلى مقصد الاستخلاف وشواهد ذلك في القران كثيرة من بينها:

- قوله تعالى: "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ"[3]، ذلك بأن وصف الأخوة يستدعي أن تبث بين الموصفين به خلال: الاتحاد والإنصاف والمساواة والصلة والنصح وحسن المعاملة، فيتقبلها جميع الأمة بالصدر الرحب سواء في ذلك الشريف والمشروف والقوي والضعيف[4].

- وقوله تعالى: "وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَان"[5].

(١) – التكافل الاجتماعي في الإسلام، عبد الله ناصح علوان، ص ٩، دار السلام.

(٢) – سورة آل عمران الآية ١٠٣.

(٣) – سورة الحجرات الآية ١٠.

(٤) – أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، الطاهر بن عاشور، ص ١٢١، الشركة التونسية للتوزيع.

(٥) – سورة المائدة: ٣.

لقد أمكن للإسلام أن يغرس معنى التكافل في نفوس المؤمنين وأمكن له أن يبني مجتمعا متراصا يحنو بعضه على بعض ويعين بعضه بعضا لينتفي بذلك هاجس الطبقية وينمحي بعد ذلك كل ما يشوش الأخوة الإيمانية.

إنه فعلا بناء مجتمعي متميز يسعى بتضامن أفراده إلى حمل أمانة الاستخلاف ومن ثم إلى بناء حضارة الإسلام الخالدة.

وبناء على ما سبق، فالأسرة هي الخلية الأولى التي يتعلم فيها معاني التكافل بل محضن الفعل التكافلي بشتى أنواعه، فقد يعجز الواحد من الزوجين عن القيام بأدوار الأسرة، بل قد يعجز عنها الزوجان معا إن لم يتدخل أفراد الأسرة القريبة والبعيدة، مساهمة منهم في حل مشاكلها وفض ما يحدث من خصام و صراع داخلها، بل وفيما يعترضها من صعوبات مادية قد تهوي بها إلى أسوار المحاكم وبؤس العيش، ولتلافي ما يهدم كيان الأسرة أمرنا الحق سبحانه وتعالى بالتعاون والتكافل فقال عز من قائل: "وتعاونوا على البر و التقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان"[1].

إن التعاون والتكافل في الأوقات الحرجة والصعبة سمتان ناصعتان من سمات أسرة المكارمة والتي حرص الإسلام على إنشائها لتكون أول خلية يتعلم فيها المرء قيم التكافل فتسود في المجتمع دون تكلف أو عناء.

(١) - سورة المائدة: ٣.

المبحث الثالث

القيم القرآنية الحاكمة لبناء أسرة المكارمة ودورها في علاج العنف الأسري

إذا كانت لأسرة المكارمة مقومات عديدة تدل بوضوح على القيم القرآنية المركوزة في أحكامها فلا شك أنها تقوم على قيم حاكمة يمكن أن تكون منطلقا لتأسيسها ويمكن إجمالها فيما يلي: وهي القيم الإيمانية، القيم الإنسانية، القيم التربوية وقيم الاستخلاف والتعمير.

لذلك فالسؤال الذي وجب بيانه هو كيف لهذه القيم الحاكمة أن تعالج ظاهرة العنف الأسري ؟

القيم الإيمانية لبناء أسرة المكارمة ودورها في علاج العنف الأسري.

يعتبر التوحيد أول مقاصد الشارع، وأصل القيم القرآنية الحاكمة، فهو يوضح حدود وأبعاد الدور الإنساني في هذا الوجود. وفي الوقت نفسه يحقق قدرة كبيرة على صياغة المفاهيم الضرورية لبناء فاعلية الإنسان.

إن مقتضى الإقرار بالتوحيد ينطلق من الإيمان بالله -سبحانه وتعالى- ربا وحاكما ومصدرا للتشريع ليكون موجِّه الأمة نحو البناء؛ والروح التي ترتقي بالإنسان لأداء دوره الحضاري، وعليه فالإيمان بالله تعالى إيمانا حقا يجعل شهود القيم حاضرا في مختلف الآيات، فيكون الفعل الإنساني فعلا منسجما مع الفطرة و سنن الكون فيحقق الإنسان ذاته السوية في أبعادها الفردية والجماعية، إن القيم الإيمانية تجعل مهمة الإنسان في هذا الكون مهمة غائية،فينطلق منها للقيام بدور الاستخلاف و التعمير قال تعالى : أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون ١ وعليه فالتعمير في المنظور الإسلامي لا يمكن أن يحقق مقاصده إلا من منطلق التوحيد.

(١)　- سورة المؤمنون ١١٥

وتأسيسا على ما سبق ، فالقيم الإيمانية ركيزة أساسية في أسرة المكارمة ، لتكون في منأى عن عدة إشكالات تعاني منها الأسر اليوم و التي تتجلى في عدم مراقبة الله عز وجل واستعمال الحقوق في غير المصلحة التي شرعت لها، ذلك بأن المنهج التديني يجعل الأفراد يستسلمون للأحكام استسلاما مؤسسا على العلم نابعا من الرضا و الحب راجين التواب و الجزاء الأخروي .وحضوره يجعل من الأدوار الملقاة على الأفراد أعمالا قاصدة مرتبطة بعالم الملكوت ،فتنتفي بذلك المصالح الفردية المحضة لترتبط بالمصالح الأخروية كذلك ،من هنا كان تغييب القيم الإيمانية مظنة للعنف الذي يروم صاحبه إلحاق الأذى والضرر المادي و المعنوي بالآخرين بغية تحقيق مصالح ذاتية و دنيوية محضة .وإذا كان من مقاصد تأسيس الأسر على قيم الإيمان دفع العنف ، فالإشكال الذي يثيره البعض و يعتبره عنفا هو إباحة الشرع هجر الزوجة و ضربها في حالة النشوز ، و الرد عليه أن نشوز الزوجة هو عصيان زوجها و الترفع عليه وإظهار كراهيته ، أي إظهار كراهية لم تكن معتادة[1] وهو تعد منها لا محالة، لذلك كان الهجر و الضرب ليس على الإطلاق بل لغرض الإصلاح و ابتغاء مصالح الأسرة فإذا ثبت أن الأزواج تجاوزوا الحد لضعف الوازع الديني تدخل ولي الأمر للضرب على أيديهم

يقول الشيخ الطاهر بن عاشور: "يجوز لولاة الأمور إذا علموا أن الأزواج لا يحسنون وضع العقوبات الشرعية مواضعها، ولا الوقوف عند حدودها أن يضربوا على أيديهم استعمال العقوبة ويعلنوا أن من ضرب امرأته عوقب كيلا يتفاقم أمر الإضرار بين الأزواج لاسيما عند ضعف الوازع"[2].

بل إن الضرب غير المبرح هو أخر الدواء لهدف استمرار العلاقة الزوجية لذلك اشترط الفقهاء شروطا تجعله دواء لا داء بل أكدوا أن عدم اللجوء إليه هو الأفضل تحصيلا للخيرية التي نص عليها الحديث ، يقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ولن يضرب خياركم"[3].

---

(١) التحرير و التنوير ٥/٤٤ الشيخ الطاهر بن عاشور دار سحنون تونس

(٢) – نفسه ٥/٤٤

(٣) – سنن البيهقي الكبرى كتاب القسم والنشوز باب ما جاء في ضربها ٧/٣٠٤ تحقيق : محمد عبد القادر عطا مكتبة دار الباز، مكة المكرمة ، ١٤١٤ ه.

إن القيم الإيمانية كفيلة بتجنيب الأسر هاجس العنف الذي قد يخلف أثارا مادية ومعنوية على جميع أفرادها، فمراقبة الله وتقواه دواء شاف من العنف الأسري فما على الأسر إلا بناء علاقاتها على البعد الإيماني حتى توثق الصلة به سبحانه وتدرأ كل عنف ناتج عن تغييبه في علاقاتها.

القيم الإنسانية لبناء أسرة المكارمة.

كرم الإسلام الإنسان وجعله خليفة في الأرض بما أودعه فيه من خصائص تميزه عن باقي المخلوقات قال تعالى: "وَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلا"[١].

يقول الشيخ الطاهر بن عاشور: "فالتكريم منظور فيه إلى تكريمه في ذاته والتفضيل منظور فيه إلى تشريفه فوق غيره على أنه فضله بالعقل الذي به استصلاح شؤونه ودفع الأضرار عنه وبأنواع المعارف والعلوم"[٢].

لقد اعتنى الخطاب القرآني بالإنسان عناية خاصة يقول الدكتور القرضاوي : "إن كل دارس للإسلام في كتابه و سنة رسوله يتبين له بجلاء أنه وجه عناية بالغة إلى الجانب الإنساني و أعطاه مساحة رحبة من رقعة تعاليمه و توجيهاته و تشريعاته"[٣].

وبالرغم من هذا الاهتمام، فقد شق على الباحثين تعريف الإنسانية، يقول الأستاذ عبود: "ولا تعريف للإنسانية سوى أنها الإنسانية، فالإنسانية غنية عن كل تعريف و أي تعريف لها يؤدي إلى غموض أكثر مما يؤدي على إلقاء الضوء عليها"[٤].

ومهما يكن من صعوبة التعريف فقد حاول بعض الباحثين الإحاطة بالمصطلح، فعرفها الفيروز أبادي "بأنها خلاف البهيمية وجملة الصفات التي تميز الإنسان أو جملة أفراد النوع

(١) – سورة الإسراء الآية ٧٠.

(٢) – التحرير والتنوير١٥/١٦٤.

(٣) – الخصائص العامة للإسلام يوسف القرضاوي ص ٥٧ ط٢، مؤسسة الرسالة ١٤٢١.

(٤) – الملامح العامة للمجتمع الإسلامي د عبد الغني عبود ٦٨/٩ ط١٩٧٩ دار الفكر العربي.

البشـري التـي تصدق عليها هـذه الصفات "[1]، والدكتور عبود "بأنهـا مجموعة من الملكات والمواهـب الفطرية التي تدرس منفصلـة إحداها عن الأخرى بغرض الدراسة وحدها ولكنها بطبيعتهـا متداخلـة ومتكاملة ومتفاعلة ليصـدر عنها مجتمعة ذلك السلـوك الكلي المعقد و المادي والروحي والنفسي والاجتماعي الذي به تعرف الشخصية في خارج إطارها المادي "[2] والـذي نخلص إليه بعد الجمع بين التعريفين أن الإنسانية هي مجموعة من المواهب والملكات التي تميز الإنسان عن غيره، مواهب تدل على طبيعته وحقيقته وصفته ودوره الذي أنيط به.

وعليه، فأحكام أسرة المكارمة هي أحكام إنسانية تهتم بالإنسان وتراعي كرامته تطبيقا لقوله تعالى: "ولقد كرمنا بني أدم وحملناهم في البر والبحر"[3].

وتكـريم الإنسان داخلهـا يستمد شرعيته من اعتبار كل من الرجل و المرأة نفسا واحدة، قـال عـز وجل: "ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجـا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة"[4].

يقـول الشيـخ محمد حسين فضـل الله: "هل في الإسلام في عمق المعنـى الإنساني الذي ينطلـق التشريـع منه رجل وامـرأة في عمق إنسانيـة الرجل والمرأة إننـي لا أرى أن هنـاك في العمق رجل وامرأة إنها نفس واحدة"[5].

ويؤكد ذلك الدكتور مصطفى بنحمزة بقوله: "وعلى هذا، الذكر لا يمكن أن يفاضل بينه وبين الأنثى إلا كما يمكنه أن يفاضل بين يده ورجله أو بين سمعه وبصره أو بين قلبه وكبده من أعضاء التي إن اختلفت وظيفة وعملا فإنها تتكامل في منحه فرصة الحياة"[6].

من هنا يتبين أن لا فرق بين المرأة والرجل إلا في الأدوار التي كلف كل واحد منهما القيام

---

(١) – البحر المحيط في التفسير أبو حيان الاندلسي١/٤، دار الفكر.
(٢) – الملامح العامة، د عبد الغني عبود ص٦٩.
(٣) – سورة الإسراء: ٧٠.
(٤) – سورة الروم: ٢١.
(٥) – قراءة جديدة لفقه المرأة الحقوقي محمد حسين فضل الله، ص ٢٠ دار التقلين، بيروت، لبنان.
(٦) – كرامة المرأة من خلال خصوصيتها التشريعية، مصطفى بن حمزة جامعة الصحوة الإسلامية، أكتوبر ١٩٩٨.

بها، ليتحقق التكريم الإلهي لهما بمعاني المودة والرحمة والإحسان والتي لا تجعل من الأدوار عبئا ثقيلا، بل تجعل منها أعمالا يتودد بها كل منهما لصاحبه تحقيقا لمفهوم الإنسانية الحقة. إن فعل المكارمة يستمد أساسه من البعد الإنساني بل هو تحقيق لإنسانية الإنسان الذي فضله سبحانه وتعالى على باقي المخلوقات.

إن الإنسانية داخل الأسرة لها تجليات كثيرة من بينها:

الاعتراف بالفطرة:

خلق الله تعالى الإنسان مزودا بفطرة هي مجمع الملكات و المواهب والمشاعر والأحاسيس، ففطرة الإنسان هي البنية التي خلق عليها الإنسان في بعديها المادي والروحي[1]

يقول الشيخ الطاهر بن عاشور: "الفطرة الخلقة أي النظام الذي أوجده الله في كل مخلوق، ففطر الإنسان هي ما فطر أي خلق عليه الإنسان ظاهرا و باطنا أي جسدا وعقلا"[2].

فإذا صرفت إلى الخير كان للفرد ولمجتمعه نصيب منها، وإذا صرفت اتجاه الشر كان له وللمجتمع كفل منها.

إن اعتراف البيت بالفطرة وتوجيهها والتعامل وفقها يجعل من البيت بيت مودة ورحمة وتسامح، واستقرار وسعادة، من هنا يتبين أهمية إبداء المحبة للأزواج وإرضاءهن بقدر الاستطاعة بل أهمية الرحمة بالأبناء والتجاوز عن الزلات. إن الاعتراف بالأحاسيس والمشاعر التي تخالج النفس البشرية - تلك النفس التي تحتاج إلى من يحنو عليها ويقدرها ويصون كرامتها – له أهمية قصوى في بناء أسرة المكارمة، لذلك نقول إن الاعتراف بالفطرة هو اعتراف بإنسانية الإنسان.

حرية الاختيار:

اعتبر الشرع الحرية مقصدا من مقاصده، وحذر من الاعتداء عليها لما في ذلك من استنقاص لإنسانية الإنسان وهدر لما يجب أن يقوم به من مهمة الاستخلاف والتعمير.

(١) - مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة، عبد المجيد النجار، دار الغرب الإسلامي، ط١ ٢٠٠٦ ص ٨٧.

(٢) - مقاصد الشريعة، الطاهر بن عاشور، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الأردن، ط٢ ١٤٢١/٢٠٠١، ص١٩٨.

وتأسيسا على ذلك جاء الخطاب القرآني بأحكام كثيرة تهدف إلى حفظ حرية الإنسان يقول الشيخ الطاهر بن عاشور: "إن استواء أفراد الأمة في تصرفهم في أنفسهم مقصد أصلي من مقاصد الشريعة وذلك هو المراد بالحرية"١.

وإذ جعل الخطاب القرآني الحرية مقصدا من مقاصده، فقد جعلها أصلا في تأسيس أسرة المكارمة، فلكل من الرجل و المرأة الحق في اختيار صاحبه حيث لا يجوز للأولياء منع بناتهن من الزواج بمن يكون صالحا لهن إعلانا بأن الحياة الزوجية هي حياة اختيار وليست حياة إجبار ودليل ذلك قوله تعالى: "ولا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك يوعظ به من كان منكم يومن بالله واليوم الأخر ذلكم أزكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون"٢.

بل إن لكل واحد منهما ذمته المالية الخاصة، والتي تتيح له التصرف في ماله أنى يشاء ،كما أن التعبير عن الرأي والمشاركة في تدبير الأسرة أمور لا تخلو منها أسرة المكارمة.

إن الحرية شرط أساس لضمان إنسانية الإنسان لذلك كانت شرطا أساسا لبناء أسرة المكارمة.

المشاركة في التعمير وترك بصمة الاستخلاف:

من أسس تكريم الإنسان وضمان إنسانيته، فهم الوجود وترك بصمة العمران، فالله سبحانه وتعالى لم يخلق الناس عبثا دون هدف بل كلفهم بمهمة التعمير الذي تتطلب التعاون والتكافل والاحترام والتقدير، قال تعالى: "أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون" ٣، لذلك كان التعمير بمختلف مستوياته ضامن لإنسانية الإنسان لما يضمنه له من تحقيق حمل الأمانة التي كلف بها قال تعالى: "إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا"٤.

---

(١) – نفسه ص٣٠٩

(٢) – سورة البقرة: ٢٣٢.

(٣) – سورة المؤمنون الآية ١١٥

(٤) – سورة الأحزاب: ٧٢

إن المتتبع لمعالم أسرة المكارمة يتبين له بالملموس دورها في التعمير وتحقيق مبدأ الاستخلاف، وهذا ما سنفصله في القيمة الرابعة من قيم أسرة المكارمة.

إن معاني الإنسانية المبثوتة في أسرة المكارمة تؤكد أن لا مكان للعنف فيها، ذلك بأن الاعتراف بالفطرة وترك حرية الاختيار في حدود القواعد الشرعية وترك بصمة العمران يجعل الأفراد يجدون حلولا لكل ما يعترض حياتهم من مشاكل قد تكون في غالب الأحيان رافدا من روافد العنف، لذلك فحل المشاكل التي قد تحدث عرضا بسبب الاختلاف في الرأي أو المصلحة الناتجة عن الطبيعة البشرية إنما يكون بوسائل الحوار أو الصلح الذي يختص بإزالة النفار بين الناس[1] خاصة في الأمراض الخفية التي لا يطلع عليها إلا من كان أقرب إليها وعارفا بما يدور فيها، وقد يصير الأمر إلى بعث الحكمين، لقوله تعالى: "وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما"[2].

فواجبهما أن ينظرا في أمر الزوجين نظرا منبعثا عن نية الإصلاح فإن تيسر الإصلاح فذلك وإلا صارا إلى التفريق وقد وعدهما الله بأن يوفق بينهما إذا نويا الإصلاح ومعنى التوفيق بينهما إرشادهما إلى مصادقة الحق والواقع فإن الاتفاق أطمن لهما في حكمهما بخلاف الاختلاف[3].

إن تدخل أفراد الأسرة القريبة والبعيدة للإصلاح هو اعتراف بمعاني الإنسانية وهو رد المياه إلى مجرياتها وعودة الحياة السعيدة إلى سابق عهدها وذلك بإيجاد نقاط التلاقي ودفع أوجه الاختلاف وحل كل ما يكدر الحياة الأسرية ولا شك أن استحضار معاني الإنسانية يؤسس لثقافة الاختلاف داخل الأسرة والتعامل معها بما يقتضي الاعتراف بفطرة الإنسان وحريته بل ومهمته في هذا الكون مما يجعل معاني الاحترام سائدة فينبذ العنف بكل تجلياته و يسود الحب والمودة.

(١) - مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني أبو القاسم١، /٥٨٧ دار النشر / دار القلم ـ دمشق.
(٢) - سورة النساء: ٣٥
(٣) - التحرير والتنوير ٤٧/٥.

القيم التربوية لبناء أسرة المكارمة.

تعد القيم الخلقية حجر الزاوية في الخطاب القرآني، فالمثل والكمالات الخلقية لها المقام الأول في التشريع وهذا ملاحظ في كثير من الأحكام الشرعية، حيث نجد مزاجين، الخلق والتشريع كما هو الشأن بالنسبة للعدل والإحسان والاقتضاء والتسامح١.

وعليه فالأحكام الشرعية لها جانبان، جانب أصولي وجانب أخلاقي، وهذا الوجه الأخلاقي كما أشار إلى ذلك الدكتور طه عبد الرحمان ينحصر في أوصاف ثلاثة:

١. المراقبة المعنوية عن طريق الوازع النفسي للإنسان.
٢. ضبط السلوك في باطن أعماله، الشيء الذي يعود بالصلاح أو الفساد عليه و على غيره.
٣. توسل الوجه الأخلاقي بالتعليل الغائي في بيان أحكامه وترتب بعضها على بعض.

إن اهتمام الشارع بالباعث النفسي والمبادئ الخلقية والمثل العليا، هدفه تطهير الباعث كي لا يحرك الإرادة إلى تحقيق غايات غير مشروعة تناقض مقاصد الشارع.

لذلك ارتبطت الأحكام الشرعية ببعدها المقاصدي ارتباطا وثيقا، إذ إن قبول الأعمال وترتب الثواب عليها يدور مع القصد وجودا وعدما، فكلما أحسن العبد مقصده وصح باعثه كان سببا لقبول عمله ومضاعفة أجره وكلما ساء قصده كان سببا في إحباط عمله قال صلى الله عليه و سلم: "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته لله ورسوله فهجرته لله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه"٢.

فالإمام الشاطبي في حديثه عن مقاصد المكلف في التكليف بين البعد الأخلاقي في مقاصد المكلف مشيرا إلى أهميتها في التصرفات والسلوكياتن حيث يقول: "الأعمال بالنيات

(١) – الحق و مدى سلطان الدولة في تقييده فتحي الدريني ص ٧٨.

(٢) – صحيح البخاري كتاب بدء الوحي باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رقم١.

والمقاصد المعتبرة في التصرفات من العبادات والمعاملات"[1].

ويظهر البعد الأخلاقي جليا في قصد المكلف من خلال موافقة قصد المكلف لقصد الشارع في التشريع: فكل من ابتغى في تكاليف الشريعة غير ما شرعت له فقد ناقض الشريعة وكل من ناقضها فعمله في المناقضة باطل، فمن ابتغى في التكاليف ما لم يشرع له فعمله باطل[2].

هذه القاعدة من شأنها أن تدفع المكلف وتوجهه نحو السلوك الأخلاقي السليم لعلمه أن التكاليف إنما وضعت في أساسها تحقيقا لمصلحة المكلف الخاصة والعامة دنيا وآخرة.

وتأسيسا على ذلك نقول إن البعد التربوي والأخلاقي أساس بناء أسرة المكارمة ، فهو أساس استقرارها والقانون والأحكام الشرعية المنظمة لها لا تعدو أن تكون علاجا لآفات استفحلت وتعذر علاجها بالموعظة الحسنة.

وما الجمع بين العدل والإحسان والاقتضاء والتسامح والمقاصة والعفو والدعوة إلى التعاون إلا دليل على ذلك، بل إن ختم الآيات القرآنية المنظمة للعلاقات الأسرية بقوله تعالى "إن الله كان عليكم رقيبا" و" إن الله كان على كل شيء شهيدا"، تأكيد صريح على ضرورة استحضار القيم الأخلاقية والتربوية داخل الأسرة.

لذلك، فالعنف الأسري هو هدم لغايات الشرع من الأسرة بإلحاق الأذى والضرر المادي والمعنوي، وهو أمر يخالف القيم الإسلامية الواجب سيادتها في الأسرة و التي تجعل الإنسان ينأى عن كل فعل يسيء إلى الآخرين، فلا إهانة للأزواج ولا تحقير بل هو احترام وتوقير، ولا إساءة للأبناء ولا تعنيف بل هو إكرام وتهذيب ولا عقوق للوالدين بل اعتراف بالفضل وبر وإحسان.

إنها الأخلاق الإسلامية والتي إن سادت في الأسرة لما وجد للعنف مكان يذكر، وعليه فحضورها والالتزام بها سبيل لسمو الأسر لا انحطاطها وفشو العنف فيها.

(١) – الموافقات للشاطبي ٢/٦٠٦.

(٢) – الموافقات ٢/٦١٥

٤- قيم التعمير لبناء أسرة المكارمة ودورها في علاج العنف الأسري.

ورد في القرآن الكريم ما يفيد الإعمار والتعمير، بألفاظ وعبارات متعددة مثل: "اسْتَعْمَرَكُمْ فِيها"، و(عَمَرُوها) أي الأرض، "عِمارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرام"، "أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي"، فهذه العبارات وغيرها كلّها تفيد تعمير الإنسان لمنطقة معينة بقصد العيش وعبادة الله -عزَّ وجلَّ-، كما في قوله تعالى: "هوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ" (هود:٦١)".[١]

إن الإنسان في إطار رؤية القرآن الكلية لا يسعى في قيامه بفعل العمران إلى إشباع إرادته الخلاقة، بل إلى الاستجابة لإرادة الله تعالى في الكون، والقيام بالربط بين الموجودات وتوجيه العلاقة بينها باتجاه تلبية مراد الله تعالى، وتأسيسا على ذلك تصير عملية إعادة البناء عبادة لله وطاعة له، ومنزلا لتحقيق تكامل هذا الإنسان الخليفة في كافة الأبعاد الروحية، والعقلية، والقلبية، وليست عملية غزو للطبيعة، ولا قهر لها[٢].

إن عملية العمران هي عملية شاملة تشمل الإنسان الفرد كما تشمل المجتمع كله وهذا ما يشير إليه الماوردي في كتابه أدب الدنيا والدين حيث يقول: "فَوَجَبَ سَتْرُ أَحْوَالِهَا، وَالْكَشْفُ عَنْ جِهَةِ انْتِظَامِهَا وَاخْتِلَالِهَا، لِنَعْلَمَ أَسْبَابَ صَلَاحِهَا وَفَسَادِهَا، وَمَوَادَّ عُمْرَانِهَا وَخَرَابِهَا، لِتَنْتَفِيَ عَنْ أَهْلِهَا شُبَهُ الْحَيْرَةِ، وَتَتَجَلِيَ لَهُمْ أَسْبَابُ الْخِيَرَةِ، فَيَقْصِدُوا الْأُمُورَ مِنْ أَبْوَابِهَا، وَيَعْتَمِدُوا صَلَاحَ قَوَاعِدِهَا وَأَسْبَابِهَا.

وَاعْلَمْ أَنَّ صَلَاحَ الدُّنْيَا مُعْتَبَرٌ مِنْ وَجْهَيْنِ: أَوَّلُهُمَا مَا يَنْتَظِمُ بِهِ أُمُورُ جُمْلَتِهَا. وَالثَّانِي: مَا يَصْلُحُ بِهِ حَالُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِهَا. فَهُمَا شَيْئَانِ لَاصَلَاحَ لِأَحَدِهِمَا إلاَّ بِصَاحِبِهِ؛ لِأَنَّ مَنْ صَلُحَتْ حَالُهُ مَعَ فَسَادِ الدُّنْيَا وَاخْتِلَالِ أُمُورِهَا لَنْ يَعْدَمَ أَنْ يَتَعَدَّى إلَيْهِ فَسَادُهَا، وَيَقْدَحَ فِيهِ اخْتِلَالُهَا؛ لِأَنَّ مِنْهَا مَا يَسْتَمِدُّ، وَلَهَا يَسْتَعِدُّ. وَمَنْ فَسَدَتْ حَالُهُ مَعَ صَلَاحِ الدُّنْيَا وَانْتِظَامِ أُمُورِهَا

(١) - علاقة الإيمان بالعمران في الرؤية القرآنية محمد المنتار مجلة التفاهم عدد ٤٣مجلة التفاهم ص ٣٣.

(٢) - نفسه، ص ٣٥.

لَمْ يَجِدْ لِصَلَاحِهَا لَذَّةً، وَلَا لاسْتِقَامَتِهَا أَثَرًا؛ لأَنَّ الإِنْسَانَ دُنْيَا نَفْسِه، فَلَيْسَ يَرَى الصَّلَاحَ إلاَّ إِذَا صَلَحَتْ لَهُ وَلَا يَجِدُ الْفَسَادَ إلاَّ إذَا فَسَدَتْ عَلَيْهِ؛ لأَنَّ نَفْسَهُ أَخَصُّ وَحَالَهُ أَمَسُّ"[١].

فصلاح الفرد وقدرته على التعمير هو صلاح للمجتمع، وصلاح المجتمع هو صلاح للفرد كذلك، لذلك اعتبر الماوردي أن ما تصلح به الدنيا قواعد أساسية هي: "دين متبع وسلطان قاهر، وعدل شامل وأمن عام وخصب دائم، وأمل فسيح، وأن ما يصلح حال الإنسان ثلاثة أشياء: نفس مطيعة وألفة جامعة و مادة كافية"[٢].

إن تحقيق الألفة الجامعة التي أشار إليها الماوردي تكون بأسباب خمسة هي الدين و النسب والمصاهرة والمودة والبر، فالدين يبعث على التناصر و يمنع من التقاطع والتدابر والنسب رابطة تبعث على الألفة لأن تعاطف الأرحام وحمية القرابة يبعثان على التناصر والألفة ويمنعان من التخاذل والفرقة و المصاهرة سبب ألفة بين القبيلتين وموالاة بين العشيرتين والمودة تكسب معادن الميل إخلاصا و مصافاة والبر عمل اجتماعي يوصل إلى القلوب ألطافا ويثنيها محبة وانعطافا.

إن الحديث عن الألفة الجامعة التي أشار إليها الماوردي هي صلب أسرة المكارمة فهي تروم تزكية النفس فقامت على قيم إيمانية وتربوية كما تنظر إلى دورها الاجتماعي فقامت على قيم إنسانية وعمرانية ولا شك أن ذلك يؤدي إلى ألفة جامعة فيتحقق للإنسان الصلاح فيعود على المجتمع حتما.

إن إصلاح الفرد داخل الأسرة ومن ثم في المجتمع يمكن الأمة من إقامة العمران، والإسهام في توجيه الحضارة الإنسانية، بل من صياغة أجوبة سديدة لمختلف ما يموج في الواقع من صراع فكري بين تيارات مختلفة تريد أن تبخس من البناء الأسري الإسلامي.

إن إصلاح الفرد داخل الأسرة و من ثم في المجتمع يمكن الأمة من إقامة العمران، والإسهام في توجيه الحضارة الإنسانية، بل من صياغة أجوبة سديدة لمختلف ما يموج في

---

(١) - أدب الدنيا والدين الماوردي تحقيق مصطفى السقا الهيئة العامة لقصور الثقافة القاهرة ٢٠٠٤ ص ١٥٨.

(٢) - أدب الدنيا والدين الماوردي ص ١٣٢.

الواقع من صراع فكري بين تيارات مختلفة تريد أن تبخس من البناء الأسري الإسلامي

إن تكريس مفاهيم التعمير داخل الأسرة يجعل من تدبير هذه المؤسسة تدبيرا يروم ترك بصمة العمران فينتقل الإنسان من التفكير و التموقع حول ذاته إلى التفكير في الأفراد المشاركين له في هذا الصرح ،بل في جميع أفراد المجتمع فيعاملهم بالرحمة و المودة و يعينهم في الأوقات الحرجة و الصعبة بل يبتغي الخير لهم في جميع الأحوال و الظروف

وعليه فالانتقال من مستوى التفكير في الذات إلى التفكير في الآخرين لا يجعل للعنف مكانا في الأسرة، ذلك بأن التربية على مفاهيم الاستخلاف و ترك بصمة العمران يجعل من الأفراد جنودا يسعى كل واحد لإسعاد الأخر بقدر ما يستطيع و لا شك أن ذلك يجعل المصلحة العامة أولى من المصالح الفردية فيتربى المرء على معاني التكافل و الرحمة التي تعد صلب أسرة المكارمة

إن فعل التعمير في مؤسسة الأسرة يمكنها من تغيير كثير من المفاهيم التي يحاول الفكر الحداثي تكريسها وذلك حتى لا ينتقل الحق إلى حظ لا يرى صاحبه إلا مصلحته والتفكير في البعد الأخروي إلى حرص على الدنيا وملذاتها و التفكير في الأمة إلى تفكير في الذات لا يتجاوزها

من هنا نقول إن العودة إلى مفاهيم الاستخلاف و التعمير كفيل بتجنيب الأسر هاجس العنف و خلق مفاهيم المكارمة

الخاتمة

إن حاجتنا إلى أسرة المكارمة -في عصر المطالبة بالحقوق و عصر الاستهلاك وكثرة الاستهلاك بل في عصر أصبح المركز يصدر قيمه للفروع- ماسة بل قد تزداد أهميتها إذا بنيت على أسسها و قيمها الحاكمة، فالقيم الإيمانية تجدد صلة الأسرة بالله تعالى وتجعل الوفاء بالعهد الذي أخذه الله تعالى عليها هدفا لها أما القيم التربوية فهي قيم تسمو بالإنسان إلى مدارج الكمال فتنطلق به إلى كمالات خلقية ما أحوج المجتمع إليها وأما القيم الإنسانية فهي قيم تعرف الإنسان بدوره في تناغم مع الكون و سننه ولا شك أن كل ذلك يؤول إلى قيم عمرانية نحن في أمس الحاجة إليها لتترك الأسرة بصمتها وتلعب دورها الحضاري المنوط بها .

إن أداء الأسرة لدورها الحضاري لن يتم إلا إذا بنيت على أساس المكارمة لا المشاحة ولا شك أن معرفة أهم مقوماتها لن يزيدنا إلا تمسكا بها و اعتزازا لإنشائها. فلا قيم الحداثة التي يسوقها أرباب الفكر الحداثي ولا قيم العولمة التي تطرق الأفكار عن طريق وسائل الإعلام بقادرة على إصلاح المجتمع الإسلامي، إنما هي قيمنا و أخلاقنا و التي لا تزيد أسرنا إلا قوة و منعة ، ولا شك أن الناظر لمقومات أسرة المكارمة من عدل وإحسان و عفو مودة ورحمة و تعاون ولقيمها الحاكمة من قيم إيمانية و قيم إنسانية وقيم تربوية وقيم عمرانية ليتبين له أهميتها في معالجة كثير من الظواهر و الآفات المجتمعية التي ابتليت بها كثير من الأسر الإسلامية.

إن المتدبر لظاهرة العنف ليجد لها أبعادا سياسية و اقتصادية واجتماعية لذلك كان علاج العنف من داخل الأسرة يرتكز أساسا على بناء أنموذج أسري قراني يروم المكارمة لا المشاحة ليتربى أفرادها على قيمها فينبذون العنف لا محالة، ذلك بأن أسس بناء أسرة المكارمة تنطلق من تربية الفرد داخليا فتجعله يرتبط بربه و يبتغي الخير لنفسه و لأسرته، كما لا تغفل عن تربيته ليكون فاعلا في مجتمعه فيتربى على معاني التكافل و التعاون و الذي

مـن لوازمهـا الصبر علـى الناس و تحمـل أذاهم، إن تأسيس الأسر على معـاني المكارمة التـي حرص القران الكـريم على تثبيتها داخل الأسرة هو انتقال الأسر من حال إلى حال من الارتباط بالدنيا و زخرفها إلى النظر إلى الآخرة و لوازمها ،فيبتعد الفرد عن أنانية بغيضة تنظـر إلى مصالح فرديـة أنية إلى مصلحة المجتمع، إن تبني مفاهيـم المكارمة الأسرية هو علاج للعنف الأسري ذلك بأن التربية على العقيدة السليمة والأخلاق تجعل الفرد إنسانيا فـيروم الخير للمجتمـع فيعمره، و لا شك أن ذلك ينمي كثيرا مـن قيم الحب و المودة عوض قيـم الكراهية و البغض المفضيـة للعنف لذلك نقول إن علاج العنف من داخل الأسرة ينطلق من إنشاء أسر شعارها المكارمة لا المشاحة و الحمد لله رب العالمين

قائمة المراجع

١. أدب الدنيا و الدين الماوردي تحقيق مصطفى السقا الهيئة العامة لقصور الثقافة القاهرة ٢٠٠٤

٢. أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، الطاهر بن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع.

٣. إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية،، تحقيق وتعليق عصام الدين الصبا بطي دار الحديث القاهرة

٤. البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي دار الفكر

٥. تاج العروس من جواهر القاموس لأبي فيض السيد محمد مرتضى الحسيني الواسطي الحنفي ، تحقيق مصطفى حجازي دار التراث ١٩٨٥/١٩٦٩

٦. تحرير المرأة في عصر الرسالة عبد الحليم أبو شقة، ٥/١٦٣، دار القلم، الكويت ١٤١هـ/١٩٩٠م.

٧. التحرير و التنوير الطاهر بن عاشور دار سحنون

٨. التراحم بين الناس في السنة النبوية، عبد اللطيف الجيلاني. منشورات مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث بالرابطة المحمدية للعلماء-الرباط، سلسلة دراسات وأبحاث(١)، الطبعة الأولى: ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م ،

٩. تفسير المنار، الشيخ محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة النشر١٩٩٠ :

١٠. التكافل الاجتماعي في الإسلام، عبد الله ناصح علوان دار السلام.

١١. - الحق ومدى سلطان الدولة في تقييده فتحي الدريني ط٢١٣٩٧/١٩٧٧ مؤسسة الرسالة بيروت.

١٢. الخصائص العامة للإسلام يوسف القرضاوي ط٢ مؤسسة الرسالة ١٤٢١

١٣. صحيح البخاري، لمحمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير اليمامة بيروت ط٣ ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠.

١٤. صحيح مسلم لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان ط٢ ١٩٧٢م.

١٥. في ضلال القرآن سيد قطب دار إحياء الثرات العربي بيروت ١٩٧١

١٦. قراءة جديدة لفقه المرأة الحقوقي محمد حسين فضل الله دار التقلين بيروت لبنان

١٧. كرامة المرأة من خلال خصوصيتها التشريعية مصطفى بن حمزة جامعة الصحوة الإسلامية أكتوبر ١٩٩٨

٨١. لسان العرب محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري ٤ /١٩دار صادر - بيروت

١٩. مسند الإمام أحمد بن حنبل تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون مؤسسة الرسالة١٤٢٠هـ ، ١٩٩٩م

٠٢. مفردات ألفاظ القرآن ـ نسخة محقق المؤلف / الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني أبو القاسم دار القلم ـ دمشق ٢/٢٩٣

٢١. مقاصد الشريعة أفاق التجديد دار الفكر بيروت لبنان حوار مع الدكتور طه جابر العلواني ط ١ ٢٠٠٢

٢٢. مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة عبد المجيد النجار دار الغرب الإسلامي ط١ ٢٠٠٦

٢٣. مقاصد الشريعة الطاهر بن عاشور دار الثقافة للنشر والتوزيع الأردن ط٢ ١٤٢١/٢٠٠١.

٢٤. المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، يوسف حامد العالم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط ١٤١٢١, ١٩٩١.

٢٥. الملامح العامة للمجتمع الإسلامي د عبد الغني عبود ط١٩٧٩ دار الفكر العربي

٢٦. الموافقات في أصول الشريعة، إبراهيم بن موسى اللخمي الشاطبي دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩١.

٢٧. مجلة حراء العدد ٤٢

٢٨. مجلة التفاهم العدد٤٣ وزارة الأوقاف والشؤون الدينية سلطنة عمان.

لخضر دلهوم

- الاسم : لخضر lakhdar
- اللقب :دلهوم DELHOUM
- تاريخ الميلاد : ١٥ /٠٩/١٩٦٨م
- العنوان الشخصي :حي زرهوني مختار مجمع عدل عمارة ٠٨ رقم ٥٦ المحمدية
- البريد الإلكتروني de.lakhdar15@gmail.com
- الجوال :٥٥. ٤٩. ٠٥ ٨٧. ٤٠ الثابت ٩٩. ٦٦. ٨٩. ٠٢١

- متحصل على شهادة البكالوريا شعبة العلوم سنة ١٩٨٨م
- شهادة الليسانس في العلوم الشرعية من المعهد الوطني العالي لأصول الدين الخروبة الجزائر العاصمة تخصص أصول الدين سنة ١٩٩٢م الدفعة الخامسة
- متحصل على شهادة الماجستير ببحث تحت عنوان "البراء في الإسلام مفهومه ،أنواعه وآثاره في بعض فروع الشريعة الإسلامية " بتقدير مشرف جدا مع تهنئة اللجنة .
- دكتوراه في قسم العقيدة ومقارنة الأديان بأطروحة تحت : فقه المعارضة في القرآن والسنة دراسة تحليلية تأصيلية
- ـ مقال في مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية ـ ١٤٣٦ هـ الموافق لـ:٢٠١٥ العدد التاسع بعنوان : الآراء السياسية للإمام مالك من خلال كتابه الموطأ،
- ـ مقال بعنوان : التطور المفاهيمي للبراء في مجلة مخبر العلوم الإسلامية السداسي الأول ٢٠١٥ العدد الخامس والعشرون
- ـ عضو مشارك في اللجنة الوطنية للمناهج في إعداد منهاج و برنامج العلوم الشرعية الخاص بالتعليم عن بعد .

الحلول القرآنية في التعامل مع المشكلات الداخلية

تقديم

الدكتور دلهوم لخضر

جامعة الجزائر

المقدمة :

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونصلي ونسلم على سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ أما بعد :

إن البحث عن إيجاد الحلول التي تعالج المشكل والأزمات هي من المهام التي تُنَاطُ بالدول والحكومات وهي تمارس عملها الميداني من أجل الرقي بالمجتمع ، وهو من أهم الوظائف التي تهتم بها مؤسسات الدولة بمختلف تخصصاتها .

وقد دعا قسم القرآن وعلومه بكلية الشريعة وأصول الدين بجامعة الملك خالد بالمملكة العربية السعودية إلى المؤتمر الدولي القرآني الأول توظيف الدراسات القرآنية في علاج المشكلات المعاصرة ، مشكورة على جدة الموضوع وأهميته

كما أنها طرحت مجموعة من المحاور للبحث والمناقشة ن اخترت منها المحور الثاني: توظيف الدراسات القرآنية في علاج المشكلات السياسية:نظرا لأهميته في العصر الحديث الذي اتهم فيه الإسلام بعجزه عن مواكبة تطورات عصر العولمة والتقدم ، وأنه عبارة عن مواعظ وشعارات بعيدة عن واقع الناس

أولا : أهداف البحث

١ ـ هذا البحث هو محاولة لإيجاد تصور حول موضوع إدارة الأزمات وحل المشكلات العملية والواقعية المتعددة الأوجه وهو من المواضيع التي يعتبر الغرب أن مناهجه وحدها هي الكفيلة بحل المشاكل والأزمات في العالم ، وأن الإسلام متمثلا في القرآن الكريم لا يملك رؤية ولا منهجا للتعامل مع المشاكل الحقيقية والواقعية لحياة الدول والمجتمعات.

٢ ـ معرفة أهداف ومبادئ ومناهج إدارة الأزمات وحل المشاكل في القرآن ، لأن الكثير من تصورات السياسيين ورجال الحكم تنطلق من مفاهيم سياسية وفكرية غربية ، لها تصورها الفكري ومنطلقاتها الأيديولوجية التي لها الأثر الكبير في الحكم على الكثير من القضايا السياسية والفكرية .

٣ ـ التأكيـد علـى مدنية الدولة في عهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين ، بوضع جملة من الآيات والأحاديث والآثار بين يدي الباحثين التي تؤكد أن التعامل مع المشاكل والأزمات بنظرة واقعيـة وإنسانيـة ـ والبحث عن حلول لها بمشاركة أفراد الأمة ويهتم بإدارة إختلافات أفراد المجتمع فيما بينهم بشكل يحقق دولة الحق والقانون .

ثانيا :ـ إشكالية البحث :

ـ وهـذا البحث يحـاول أن يتلمس أهم المناهج والطرق التـي انتهجها القرآن في مواجهة الخلافـات التي طـرأت داخل المجتمع في المدينة المنورة في أيام نزول القرآن على النبي ﷺ بأسلوب ومنهج شرعي .

ـ كما أنه يركز على أهم الحلول التي وضعها القرآن في التعامل مع المشكلات الداخلية سـواء كانـت هذه المشاكل بين أفراد المجتمع في شكل خلافـات سياسية أو إجتماعية أو مالية أو إدارية .

كيف تعامل القرآن مع مشاكل الدولة المسلمة وبعض الرعايا غير المسلمين ، أو بين دولة النبـي ﷺ في المدينة وبـين المنافقين الذين يمثلون جزء من المجتمع الذي يعارض في السر مناهج ومبادئ الدولة ،ولكنه في العلانية يظهر تأييده لها.

كيـف عالج القـرآن الكريم مشكلة التعامـل مع هذه الخلافات القبليـة ،وما هو المنهج القرآني في التعامل معها للخروج بتصور قرآني شرعي يواكب العصر ويوجد الحلول الواقعية للأزمات والمشاكل الداخلية والخارجية .

ثالثا ـ منهج البحث :

المنهج الذي سأسلكه في البحث هو المنهج التأصيلي التحليلي

ـ أمـا المنهـج التأصلي فوظفته في تتبع نصوص القرآن ، وجمعها مـن مظانها من أجل تحليلها واستنباط ما يمكن أن يخدم موضوع الدراسة

وأما المنهج التحليلي فوظفته في تحليل النصوص وقراءتها قراءة موضوعية قدر الإمكان بالاستعانـة برأي كبار علماء التفسـير القدامى والمتأخرين من أجل الوصول إلى الإجابة عن

التساؤلات المطروحة في إشكالية البحث .

وقد قسمت هذا البحث إلى أربعة مباحث أساسية كما يلي :

المبحث الأول : مفهوم بعض المصطلحات:ويتناول مفهوم بعض المصطلحات كمفهوم المشكلة ومفهوم الحل

المبحث الثاني :الحلول القرآنية في معالجة الأزمات الداخلية في قصة موسى u

المبحث الثالث : الحلول القرآنية في معالجة المشاكل الداخلية في عهد النبي محمد r

المبحث الرابع : الحلول القرآنية في حل مشاكل الأقليات الدينية .

وختمت البحث بخاتمة .وقائمة للمصادر والمراجع ، وفهرس للبحث

المبحث الأول

مفهوم بعض المصطلحات

الفرع الأول : تعريف المشكل و المشكلة :

أولا : تعريف المشكل في اللغة : المشكل : بضم الميم وكسر الكاف ، شكل الأمر بمعنى أشكل ، أي التبس فهو مشكل الملتبس ، وهو مالا يفهم حتى يدل عليه دليل من غيره ، ومنه الخنثى المشكل الذي ليس له آلة ذكر ولا آلة أنثى "١" و عند الأصوليين ما لا يفهم حتى يدل عليه دليل من غيره "٢"

ثانيا: تعريف المشكل في الإصطلاح : هي حالة من عدم الرضا أو التوتر تنشأ عن إدراك وجود عوائق تعترض الوصول إلي الهدف أو توقع إمكانية الحصول علي نتائج أفضل بالاستفادة من العمليات والأنشطة المألوفة علي وجه حسن وأكثر كفاية.

ويمكن تعريف المشكلة من منظور آخر علي أنها نتيجة غير مرضية أو غير مرغوب فيها تنشأ من وجود سبب أو عدة أسباب معروفة أو غير معروفة تحتاج لإجراء دراسات عنها للتعرف عليها حتى يمكن التأثير عليها ، كما تختلف المشكلات من حيث درجة حدتها أو تأثيرها.

(١) انظر تاج العروس من جواهر القاموس لمرتضى ، الزَّبيدي الناشر دار الهداية ٢٧١/٢٩ ـ ٢٧٦ ، و المحيط في اللغة للصاحب بن عباد ٢٥/٢ ،و سفار الفصيح لأبي سهل محمد بن علي بن محمد الهروي النحوي دراسة وتحقيق: أحمد بن سعيد بن محمد قشاش عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية الأولى، ١٤٢٠هـ باب إفعل بدون ترقيم ولا صفحة ،و النهاية في غريب الحديث والأثر لأبي السعادات المبارك بن محمد الجزري المكتبة العلمية - بيروت ، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م تحقيق : طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي ١٢٠٤/٢ ،ومعجم لغة الفقهاء ٢٥/٢ بتصرف

(٢) انظر المعجم الوسيط. موافق للمطبوع تأليف إبراهيم مصطفى. أحمد الزيات. حامد عبد القادر. محمد النجار دار الدعوة تحقيق / مجمع اللغة العربية ٤٩١/١

الفرع الثاني : تعريف الحل

أولا : تعريف الحل في اللغة : : وأصل الحل حل العقدة ومنه واحلل عقدة من لساني "١".

ثانيا تعريف الحل في الإصطلاح : هو عملية تفكيك المشاكل والعراقيل وجعلها سهلة لكل طرف مقبولة عنده "٢"

(١) انظر القاموس المحيط للفيروز أبادي ص:١٢٧٥ ، التوقيف على مهمات التعاريف لمحمد عبد الرؤوف المناوي دار الفكر المعاصر ، دار الفكر - بيروت ، دمشق الطبعة الأولى ، ١٤١٠ تحقيق : د. محمد رضوان الداية ص : ٢٩٣

(٢) انظر : تاج العروس من جواهر القاموس لمرتضى ، الزَّبيدي تحقيق مجموعة من المحققين دار الهداية ٣١٨/٢٨ ، و القاموس المحيط بتصرف ١٢٧٥ ،و المحكم والمحيط الأعظم لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي تحقيق عبد الحميد هنداوي دار الكتب العلمية ٢٠٠٠م بيروت ٥٢٨/٢ ، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي المكتبة العلمية بيروت ١٤٧/١ بتصرف

المبحث الثاني

الحلول القرآنية في معالجة الأزمات الداخلية في قصة

هـذا الجزء من البحث ليس الهدف من وراءه إعطاء الحلول الجاهزة لكل من تعترضه مشكلـة حضارية بقدر ما يهدف في الأسـاسـ إلى بيان أن القرآن الكريم اهتم بكيفية وضع استراتيجيـة واضحة لحل الأزمات ، بالاضافة إلى أنه يهدف إلى بيان إسهام القرآن الكريم في تربيـة المؤمنين على حل المشاكل كما يهـدف إلى وضع بين يدي الدارسين ملامح لكيفية العمـل على حـل أية مشكلة لها نفس الملابسات في العصـر الحديث . وفي الأخير يهدف إلى بيان دور القرآن في حل المشكلات التي تواجه الإنسان في كل زمان ومكان .

الفرع الأول : تعامل موسى u مع رفض قومه دخول الأرض المقدسة "١"

سميت الأرض المقدسة لما فيها من المعالم التي ذكرت في القرآن والكتب السماوية كبيت المقدس ، وجبل الطور كما روي عن ثور بن يزيد"٢" قال: قُدِّسُ الأرض الشام، وقدس الشام فلسطين، وقدس فلسطين: بيت المقدس، وقدس: بيت المقدس الجبل، وقدس الجبل: المسجد ، وقدسـ المسجد: القبة.واعلم أن البركة في الشام تشمل البركة في أمور الدين والدنيا ، ولهذا سميت: الأرض المقدسة"٣" .

فالمقطـع الموالي من القرآن الكريم يبين حدود ومواصفـات الأزمة الحضارية التي وجد موسى نفسه فيها وهي أزمة تتلخص في ضعف بعض أتباعه على تحمل أعباء التغيير في بيت

---

(١) تقـع القدس ضمن سلسلـة جبال الخليل وتتوسط المنطقة الواقعة بين البحـر المتوسط والطرف الشمالي بحر الميت ، وقد نمت هذه المدينة وتوسعت حدودها كثيرًا عما كانت عليه في العصور السابقة.

(٢) ثور بن يزيد الكلاعي، أبو خالد: من رجال الحديث، ويعد في الثقات.كان محدث حمص. وكان قدريا ، فأخزجه أهـل حمص لذلك من بلدهم، سحبا، وأحرقوا داره، فانتقل إلى المدينة.وتوفي في بيت المقدس سنة ١٥٣هـ انظر ميزان الاعتدال ١/ ١٧٣ وتهذيب التهذيب ٢/ ٣٦ وشذرات الذهب ١/ ٢٣٤

(٣) إسعـاد الأخصَّـا بذكرصحيح فضائل الشـام والمسجد الأقصى لأبي عبد الرحمن السلفـي المقدسي هشام بن فهمي بن موسى العارف ١/ ١٨

المقدس وتخليهم عنه في مرحلة حاسمة من مراحل دعوته ،بعد هجرتهم جميعا وهروبهم من بطش فرعون ، ومحاولة نشر دين التوحيد في بيت المقدس وإخراج من يعبد غير الله منها ، والتمكين لدينهم الجديد عبر تأسيس دولة لهم في بيت المقدس ولكن ضعف الإرادة والخوف من الموت والخوف من لحوق الأذى بهم جعلهم يتصرفون بشكل فض وغير لائق مع الله ومع نبيهم موسى عندما أمروه أن يذهب وحده مع الله لكي يقاتل القوم العماليق ، فإذا نجح جاءوا بعد ذلك لحضور الفتح والنصر

قال تعالى : [يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤)] المائدة ٢١ـــ ٢٤

هذا المشهد القرآني يبين أن نبي الله موسى u لما وصل إلى الأرض المقدسة وهي على الأرجح أريحا"١" واجه معارضة وترددا من طرف أتباعه وجنوده وخوفا بسبب ما رأوه من قوة العماليق"٢" فرفضوا الأمر الرباني والأمر العسكري النبوي وقابلوه بالخوف والتولي فكتب الله عليهم التيه"٣" أربعين سنة ، ولكن الذي يهمني في هذا الموقف هو أن موسى u لم

---

(١) هي أريحا بالفتح ثم الكسر وياء ساكنة والحاء مهملة والقصر وقد رواه بعضهم بالخاء المعجمة لغة عبرانية وهي مدينة الجبارين في الغور من أرض الأردن بالشام بينها وبين بيت المقدس يوم للفارس في جبال صعبة المسلك سميت فيما قيل بأريحا بن مالك بن أرفخشد بن سام بن نوح انظر الروض المعطار في خبر الأقطار لمحمد بن عبد المنعم الحميري تحقيق : إحسان عباس مؤسسة ناصر للثقافة - بيروت - طبع على مطابع دار السراج الطبعة : ٢ - ١٩٨٠ م ص :٢٥ ، و فضائل القدس لابن الجوزي ص : ١٠ ،والمواعظ والاعتبار المقريزي ٢٤٣/٣ ، و معجم البلدان ياقوت بن عبد الله الحموي أبو عبد الله دار الفكر — بيروت ٦٥/١

(٢) قال محمد بن اسحاق:كان البيت في زمن هود معروفا والحرم قائم فيما يذكرون والله أعلم وأهل مكة يومئذ العماليق وانما سموا العماليق لأن أباهم عملاق بن لاوذ بن سام إبن نوح وكان سيد العماليق فيما يزعمون يومئذ رجل يقال له بكر بن معاوية وهو الذي نزل عليه وفد عامر حين بعثوا إلى مكة يستسقون .انظر أخبار مكة لمحمد بن إسحاق بن العباس الفاكهي أبو عبد الله تحقيق د. عبد الملك عبد الله دهيشدار خضر ١٤١٤ بيروت ١٣٧/٥

(٣) هو الموضع الذي ضل فيه موسى، عليه السلام، مع بني إسرائيل، بين ايلة ومصر وبحر القلزم وجبال السراة

يكن موقفه هجرهم أو تركهم أو معاقبتهم ،بل كان العقاب خارجي وبقي موسى u مع جنوده بـل لحـق به التيه كما لحق بهم إلى أن أحدث الله بعد ذلك أمرا كان مفعولا وهو مجيء جيل آخر فتح بيت المقدس "١".

فبـين الله أن هـذا النوع من المشـاكل والنزاعات التي تضعـف الصف وتغضب الله هي مـن أهـم الأسباب التي تلحق الهزيمـة بالأمة وتستوجب التوبـة إلى الله منها . وأن المجتمع كلـه ينالـه من العقاب بحيث أن الله لم يستثـن ا حتى موسى u ومن وافق على دخول الأرض المقدسـة معهم بحيث كتب عليهـم التيه جميعا . وفيما يلي بيان لأهـم الحلول التي اقترحها القرآن لحل هذا الضعف الحضاري.

الفرع الثاني : الحلول القرآنية لحل أزمة ضعف الإرادة الحضارية

الدعـوات التـي تنشد التغيير الحضاري لا بد أن تكون لهذه الرغبة من إرادة قوية وعزم لا يتطـرق إليـه ضعف ، واستمراريـة لا ينتابها فتور من أجل تحمل مشـاق ومخاوف التغيير الحضـاري ، و هـذا المشـكل الذي يعبر عن ضعـف تحمل أعباء التغيـير الحضاري وجد في مرحلتـين المرحلـة الأولى في هجرة موسى u مـن مصر إلى الأرض المقدسـة فوجد صعوبة مـع بنـي إسرائيـل في انقيادهم للأمر بدخـول الأرض المقدسة ، والثانيـة في زمن داود u لما طالـب بنـو إسرائيل أن يرسل الله لهم ملكا يقاتلون تحت رايته كأنهم أرجعوا سبب ضعفهم الحضاري إلى عدم وجود كفاءات قيادية تمكنهم من تحمل هذا المشروع الحضاري الكبير ، وفيما يلي أهم الحلول التي عالج بها القرآن هذا الضعف في تحمل أعباء التغيير الحضاري :

أولاً : تبرأ موسى u إلى الله من عمل قومه

إن عدم موافقة القيادة على ما تراه من ضعف في مجتمعها من أهم الصفات التي يجب

أربعـون فرسخـاً في أربعين فرسخاً لما امتنعوا من دخول الأرض المقدسة، حبسهم الله تعالى في هذا التيه أربعين سنـة، كانـوا يسيرون في طول نهارهم، فـإذا انتهى النهار نزلـوا بالموضع الذي رحلوا عنـه، وكان مأكولهم المن والسلوى، ومشروبهم من ماء الحجر الذي كان مع موسى، u، ينفجر منه اثنتا عشرة عيناً، على عدد الأسباط، كل سبـط يأخذ منه ساقية، ويبعـث الله تعالى سحابة تظلهم بالنهار وعموداً من النور آثار البلاد وأخبار العباد القزويني ص : ٨١

(١) أنظر تفسير الطبري ١٦٧/١٠ والجامع لأحكام القرآن ١٢٣/٦

أن تتوفر في القائد الصادق الرسالي ، ذلك أن الكثير من القيادات التي تهدف إلى تحقيق نسبة كبيرة من الشعبية كثيرا ما تحرص على عدم مناقضة ما يتبناه المجتمع من أفكار وأخلاق حتى وإن كانت خاطئة ، ومتعارضة مع العقل والمنطق والدين ، وما قام به نبي الله موسىu له دلالة واضحة على أن القائد ليس له بالضرورة أن يداري قومه في كل المسائل ، وخاصة إذا تعلق الأمر بمسألة حساسة ومصيرية كمسألة دخول بيت المقدس وتحريرها من ظلم القوم العماليق ومن الشرك بالله قال تعالى : [قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥)] المائدة ٢٥

لذلك أعلن مخالفته لهم وتبرأه إلى الله من أعمالهم ودعوة الله أن يفصل بينه وبينهم بالحق ، وفي هذا تصريح منه u بأنه غير موافق على ما قاموا به ، بل وتهديد لهم بعقاب من الله ينزل عليهم بسبب دعوته عليهم .

ثانيا : تفويض أمره إلى الله للفصل .

هذا الموقف دقيق وحساس يتطلب الوقوف عليه لكي نتلمس منه ماقام به نبي الله موسى uفي أزمة خطيرة جعلته يجد نفسه مطالب بفتح الأرض المقدسة ، هذا الموقف متمثل في رغبة القيادة في المضي قُدُمًا في تحمل أعباء التغيير الحضاري ، مع تخلٍ وتقاعسٍ من أفراد الأمة على تحمل أوامر القيادة وأعباء التغيير الحضاري ، وهذا الموقف الخطير الذي كشف الخلاف الكبير بين طموحات القيادة وقدرات الأمة ، بحيث وجد نبي الله موسى uنفسه في موقف لا يحسد عليه هو بقاؤه تقريبا وحيدا مع أخيه هارونu ، وفي مثل هذه المواقف الخطيرة التي قد تعصف بالدول وتفكك المجتمعات نجد نبي الله موسىu طلب من الله أن يحكم بينه وبين ما وجده من نزاع واختلاف بينه وبين قومه من بني إسرائل ، أي أن التحاكم إلى الله في الفصل في خطورة ما يمر به المجتمع من أزمة تهدد وحدة الفئة المؤمنة والصالحة في العالم في ذلك الوقت أمر مطلوب وضروري لكي يتمكن المجتمع من ربط نفسه بمرجعيته من جهة ، وإعادة وحدته من جهة أخرى .

ثالثا : الاعتراف بوجود المشكل من صفات القائد الناجح :

كما يعطي القرآن إشارة إلى حقيقة النفسية التي يجب أن تكون عليها شخصية القائد

تجاه المشكلة التي تعترضه و هو الاعتراف بوجودها ،وعدم الإصرار على إنكارها ،أو إخفاءها ، لأن نبـي الله موسـى أعلـن أنه وصـل إلى حد أنـه لا يستطيع حمل غيره علـى الذهاب إلى مواجهة العماليق .

وهـذا في حد ذاته تعبير عن نضج قيادي كبـير جعلت من نبي الله موسى u يقدم بداية الحل للأزمة التي وقع فيها ، وهو الاعتراف بوجود أزمة لأن الكثير من القادة وهم يمارسون مهامهـم لا يعترفـون بوجود الخلل ، أو أن البطانة التي من حولهم تخفي عنهم وجود المشكلة ، فتنصـب جهودهـم نحو معالجـة أعراض الأزمات من أجـل إخفاءها علـى القيادة عوض مواجهتها والاعتراف بوجودها من أجل صرف الجهد والوقت في حلها .

رابعا : نزول العقاب الرباني

مـن الحلول التـي باشر القرآن تنفيذهـا لمعالجة مشكلة عصيان قـوم موسى u إصدار مجموعـة متكاملة مـن العقوبات التي تهـدف إلى إصلاح الخلل ولا تهـدف إلى الانتقام من المتسببين فيه كما يلي :

١ــ لُحُقُوقُ إسم الفسق على كل من رفض الاستجابـة لدخول بيت المقدس : وهي عقوبة شرعية تتطلب التوبة منها .

٢ ـ تحـريم دخول بيـت المقدس على الجيل الذي تمرد على القيـادة النبوية مدة أربعين سنـة : وهي عقوبة تربويـة هدفها العمل على تربية جيل جديـد يستطيع تحمل أعباء التغيير الحضـاري ، لأن صناعة الحضـارة تحتاج إلى صناع في مستوى المهمـة التي يراد تحقيقها ، لذلك حرص القرآن على إعطاء الوقت الكافي من أجل تربية جيل يستطيع حمل هذ المشروع .

وجـاء هذا الحـل في شكل تربـوي يقضي بتغيير أخطـاء الجيل السابـق بتربية الجيل اللاحق على أخلاق القوة والشجاعة في تحمل أعباء التغيير الحضاري

٣ : الحرص على الابقاء علـى وحدة بني إسرائيل مهما كانـت درجات عصيانهم لأمر موسى

وهذا من الحلول التي تبين أن الحفاظ على وحدة المجموعة الوطنية أمر في غاية الأهمية

وأنــه مــن أهم العناصر التي يجب أن ترُكز عليها استراتيجيــة القيادة التي تهدف إلى تغيير وإصــلاح الواقــع كما فعلــه موسى u بحيث لم نجـد المجتمع عزل الذين تخلفـوا ورفضوا بل عاشـوا في التيه موحدين علـى أن يقسم المجتمع إلى طائفة مستجيبـة لأمر الله وأخرى غير مستجيبة بل القرآن حرص على إبقاء النسيج الإجتماعي موحدا حتى يحدث التغيير التربوي دون الحاجة إلى تقسيم المجتمع الذي مطلوب منه أن يحمل أعباء هذا التغيير .

يمكن أن نستخلص من خلال تعامل القرآن مع مشكلة رفض قوم موسى u الملاحظات التالية

١ـ اعتماد أسلوب تربوي مع من تسبب في رفض أوامر موسى

٢.ـ الحفاظ على وحدة بني إسرائيل مجتمعين بالرغم من اختلافهم في المواقف

٣ ـ إصرار القـرآن على إحداث التغيير والإستمرار فيه ولـو طالت المدة حتى يأتي جيل آخر له مواصفات تؤهله لحمل المشروع ، وهذا الجيل لم يتحقق إلا بعد أربعين سنة .

الفرع الثالث : تعامل موسى مع المطالب التعجيزية لقومه .

القـرآن الكـريم يبين كيف تعامـل نبي الله موسى u مـع مطالب أتباعه غـير المعقولة، وكيـف كان يتعامـل معهم من أجل أن يصـل بهم إلى تحقيق عقيدة التوحيـد بالرغم من أن مطالبهم وصلت إلى حد الطلب من نبي الله موسى uرؤية الله جهرة"١" .

قـال تعالى : [وَإِذْ قُلْتُـمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٥) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَـا فِيـهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَـوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٤) ــــ إلى قوله ــــ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِـيَ قَـالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَـيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨) قَالُوا

(١) انظر تفسير الطبري ٢/٨١-٨٢.

ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩)] البقرة ٥٥ ـ ٦٩

قال تعالى : [وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨)] الرعد ١٣٨ "١"

وفيما يأتي بيان لكيفية تعامل الله مع مطالب قوم موسى التعجيزية:

أولا : الرفق والمرافقة في تحقيق التوحيد الخالص :

لم يرو لنا القرآن أية ردة فعل لنبي الله موسىuعلى غرابة ووقاحة ما طلبه قومه من رؤية الله جهرة، بل الجدير بالذكر أن في رواية مطولة ذكرها الطبري بأن الله أماتهم جميعا ولكن موسى uطلب من الله أن يعفو عنهم ويعيد إليهم أرواحهم ، بل إن الرواية تستمر إلى درجة أن السبعين نفر منهم الذين لم يعبدوا العجل سألوا موسى u أن يروا الله بعد أن سألوه أن يسمعوا كلام الله وهم قدخرجوا من توبة شاقة لكي يغفر الله لقومهم عبادة العجل ،و كان عقاب الله لهم أن عذبهم بالصاعقة ،ثم بينت الرواية أن موسى uهو من سأل الله أن يعيدهم إلى الحياة بعد موتهم بالصاعقة لأنه لا يمكن أن تقوم دعوة التوحيد إلا بوجود موحدين يعبدون الله وحده ، ولا تقام الشهادة على الناس إلا بوجود نفر من الموحدين يقيمون الشهادة على الناس "٢"

بالإضافة إلى المطالب التي تطالب باستبدال طعام الجنة بطعام الدنيا وإلى مطالب ظاهرة في الامعان في الجحود ونكران النعمة ،فكل هذه المطالب يمكن أن نصنفها في خانة المطالب الاجتماعية لأنها ركزت على جانب من جوانب الحياة الاجتماعية كالطعام والشراب تعامل معها نبي الله موسى

برفق ومرافقة بالرغم من كونها جاءت بعد معصية كان الأجدر أن تأتي بعدها التوبة والإنابة ولكن نبي الله موسى تعامل معها بواقعية ولين لأن بني إسرائل كانوا وحدهم الذين

(١) انظر تفسير الطبري ١٣/ ٨٠ ـ ٨١

(٢) انظر تفسير الطبري ٢/ ٨١ ـ ٨٢ والكشاف ٢/ ١١٢

يؤمنون بالله في ذلك الزمن وخلت الدنيا من موحد غيرهم فعمل على الحفاظ عليهم ومرافقتهم حتى يتمكن التوحيد من قلوبهم

الفرع الرابع : تعامل موسى مع عبادة قومه العجل .

قال تعالى :[فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ (٨٨) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (٨٩) وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (٩١) قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤) قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (٩٧)] طه ٨٨-٩٧ قد تتعرض أي دعوة إصلاحية مُعَارِضَةٌ للأوضاع إلى خلافات داخلية وانحرافات عقائدية خطيرة حتى في حياة المؤسس ولكن منهج التعامل مع هذا النوع من الانحرافات الخطيرة والحركات المضادة يتطلب من أصحابها دقة في التعامل وحزما في التصدي وحكمة في المعاقبة ، بحيث أن موقف موسى بعدما اكتشف مسألة العجل هو اتباع الخطوات التالية :

أولا :تأنيب قومه وأتباعه وتقريعهم ، وتذكيرهم وتنبيههم إلى وجوب الرجوع إلى الأصل وإلى المبادئ التي تعلموها وابتلاهم الله عليها وأظهر لهم المعجزات عليها"١"

ثانيا : الاستماع إلى حجة قومه في سبب تركهم التوحيد وأن ذلك كان بسبب الحفاظ على وحدة الصف أو حماية لغنائم حلي آل فرعون لأنهم كانوا مكلفين بحمايتها لأن الغنائم كانت محرمة عليهم ، أو لأنهم فتنوا بها ، المهم أن نبي لله حرص على التثبت ومعرفة المبررات قبل إصدار القرارات والعقوبات "٢" .

(١) أنظر الطبري ٦٦/٢ ،و تفسير الرازي ٤٥٣/١٠

(٢) أنظر تفسير الرازي ٤٥٤/١٠ والقرطبي ٢٣٣/١١

الفرع الخامس : التعامل مع رفض التعليمات العسكرية

نبي الله داود من الأنبياء الملوك الذين بعثهم الله ليمارس عملية الإصلاح والتغيير على مستوى الدولة حتى تكون قوة التغيير أنجع ، وهذا المقطع يبين فيه الله كيف تعامل طالوت مع رفض بعض من أتباعه الأوامر العسكرية التي وجهها لجنوده في قتال جالوت .

قال تعالى : [وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِه أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فيه سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٤٨)] البقرة ٢٤٨ كان بنو إسرائيل بعد موسى uعلى طريق الاستقامة مدة من الزمن، ثم أحدثوا الأحداث ، فسلط الله عليهم أعداءهم فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وأسروا خلقًا كثيرا وأخذوا منهم بلادًا كثيرة، وذلك أنهم كان عندهم التوراة والتابوت الذي كان في قديم الزمان حتى استلبه منهم بعض الملوك في بعض الحروب وأخذوا التوراة من أيديهم ولم يبق من يحفظها فيهم إلا القليل وانقطعت النبوة من أسباطهم ولم يبق من سبط"[١] "لاوي الذي يكون فيه الأنبياء إلا امرأة حامل من بعلها وقد قتل فأخذوها فحبسوها في بيت واحتفظوا بها لعل الله يرزقها غلامًا يكون نبيًّا لهم ،ولم تزل تلك المرأة تدعو الله عز وجل أن يرزقها غلامًا فسمع الله لها ووهبها غلامًا، فسمته شمويل: أي: سمع الله. ومنهم من يقول: شمعون وهو بمعناه، فشب ذلك الغلام ونشأ فيهم وأنبته الله نباتًا حسنًا فلما بلغ سن الأنبياء أوحى الله إليه وأمره بالدعوة إليه وتوحيده، فدعا بني إسرائيل فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكًا يقاتلون معه أعداءهم وكان الملك أيضًا قد باد فيهم فقال لهم النبي: فهل عسيتم إن أقام الله لكم ملكًا ألا تفُوا بما التزمتم من القتال معه وهكذا لما بعثه الله بدأوا في التململ والمراوغة ورفضوا الأوامر حتى انتهت القصة بفوز داود على جالوت"[٢]"

١ـ المجتمع له مسؤولية تحمل أعباء الإصلاح : لأن المجتمع عليه أن يعمل كل ما في

---

(١) السِّبْطُ وهو وَلد الوَلد ابن سيده السِّبْطُ ولد الابن والابنة ..وقيل الأَسباط خاصة الأَولاد وقيل أَولاد الأَولاد وقيل أَولاد البنات ..والسِّبْطُ من اليهود كالقبيلة من العرب وهم الذين يرجعون إِلى أَب واحد سمي سِبْطاً ليُفَرَّق بين ولد إِسمعيل وولد إِسحق وجمعه أَسْباط انظر لسان العرب ٣٠٨/١ ، والمعجم الوسيط ٤١٤/١

(٢) انظر تفسير الطبري ٢٩١/٥ فما بعد بتصرف ،والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٤٣/٣ بتصرف والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٤٨٤/٢

وسعه من أجل دفع ما به من ضُرٍ والعمل على الوقوف في وجه الاضطهاد الذي يعانيه ،لذلك نجـد القـرآن الكريم بين أن مجتمع بني إسرائيل هم من طلب من النبي u أن يبعث الله لهم ملـكا يقاتلـوا معه ، لأنهم شعروا بمرارة الإهانة و الذل الـذي أصبحوا فيه بعد ضياع موروث نبي الله موسى u المتمثل في التابوت ، فطلبوا من الله أن يرسل لهم قائدا يقاتلون معه من أجل استرجاع ما فاتهم من الأراضي والنفوذ والمكانة ، وتغيير ما كانوا عليه من الذل والمهانة بعد مـا كانـوا في عزة وقوة . قال تعالى : [لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْـه وَمِنْ خَلْفه يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (١١)] الرعد ١١

٢ ـ إرادة التغيـير وحدها لا تكفي بـل لا بد من القدرة على التغيير ،وقبول التغيير : هذا النصـ فيـه من فقه التغيير الحضاري أنـه لا يكفي في المجتمع أن تكون لـه طموحات وآمال للتغيير ،ومعارضة الواقع المعاش بل لا بد أن تقترن هذه الآماني بصدق الإرادة وصدق الإتباع والصـبر على متطلبات التغيـير و دواعيه وتضحياته ،حتى يتوج ذلـك بالنصر كما في قصة طالوت قال تعالى : [وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧)] البقرة ٢٤٧.

المبحث الثالث

الحلول القرآنية في معالجة المشاكل الداخلية في عهد النبي محمد ﷺ

سنة المصطفى ﷺ تُمثل المصدر الثاني من مصادر التشريع، والتطبيق العملي لأحكام القرآن وتشريعاته كما تبين تعامل النبي ﷺ مع الأحداث، وأهم الأساليب التي اتبعها لعلاج المشكلات التي اعترضت الدعوة، وسنتناول هنا أسلوبهr في حل الخلافات وكيف ترك المجتمع يعبر عن إختلافاته في إطار المعقول والتنافس المشروع، وهذا المطلب يحاول أن يبرز أهم التجاذبات داخل مراكز صناعة القرار في المدينة المنورة في عهد النبي محمد ﷺ .

الفرع الأول : حل مشكلة عودة عبد الله بن أُبي بن سلول بثلث الجيش

قال تعالى : [وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧)] آل عمران ١٦٧ قال القرطبي : " والإشارة بقوله [الَّذِينَ نَافَقُوا] هي إلى عبد الله بن أبّي بن سلول وأصحابه الذين انصرفوا معه عن نصرة النبّي rوكانوا ثلاثمائة. فمشى في أثرهم عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري"١"، أبو جابر بن عبد الله، فقال لهم: اتقوا الله ولا تتركوا نبيكم، وقاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا،.... فقال له ابن أبّي: ما أرى أن يكون قتال، ولو علمنا أن يكون قتال لكنا معكم. فلما يئس منهم عبد الله قال: اذهبوا أعداء الله فسيغني الله رسوله عنكم. ومضى مع النبي rواستشهد رحمه الله تعالى"٢".

وفيما يلي عرض لأهم الحلول التي برزت لي من هذا الموقف النبوي في التعامل مع الخلافات العسكرية التي تحمل خلفيات قبلية :

---

(١) هو عبد الله بن عمرو بن حرام الانصاري المدني والد جابر قتل يوم أحد كنيته أبو جابر انظر التاريخ الصغير تحقيق محمود ابراهيم زايد فهرس أحاديثه يوسف المرعشي المجلد الأول دار المعرفة بيروت لبنان ٤٧/١

(٢) الجامع لأحكام القرىن ٢٦٧/٤ الرجوع إلى كتب العسكرية والقوانين التي تنظم البتمرد العسكري

١ـ أولوية الحفاظ على وحدة النسيج الاجتماعي في مرحلة التأسيس على الصرامة العسكرية

من قواعد العمل العسكري هو عدم مناقشة الأوامر العسكرية ويعتبر أي خروج عن الأوامر العسكرية هو خروج عن القانون الذي يعاقب عليه ، ولكن نجد أن النبي r تعامل بنوع من الحكمة وعدم التسرع في الحكم على من رفض الأوامر العسكرية ، لأن التمثيل القبلي لعبد الله بن سلول كان كبيرا بحيث كان له تأثير في وحدة النسيج الاجتماعي لدولة النبي rلذلك حرص النبي ﷺ على مراعاة التوازنات القبلية ، وعدم معاقبة عبد الله بن أبي بن سلول وجيشه كان بسبب الحرص على الحفاظ على وحدة المجتمع وعدم تهديد الجبهة الداخلية ، وإدخالها في حرب أهلية نظرا للتركيبة البشرية لأفراد المجتمع في المدينة التي كان يغلب عليها الانتماء لقبيلة أبي بن سلول .

٢ ـ أولوية التركيز على تحقيق الأهداف الاستراتيجية :

لأن الاشتغال بعدة جبهات في وقت واحد يضعف المجهود ويشتت الطاقات ويسبب الخلافات، لذلك لم يعاقب النبي ﷺ أُبَي بن سلول عندما عاد بثلث الجيش، الأمر الذي يبعث على التساؤلات عن منهج النبي ﷺ في التعامل مع الخلافات العسكرية هل تركها خوفا من تطورها إلى مواجهة داخلية ، أم أن هدف النبي ﷺ من ترك تعنيف أو معاقبة أبي بن سلول ومن معه هو عدم صرف قدرات الجيش في معركة لا تحقق الهدف الإستراتيجي من خروجه للمعركة الحقيقية ، وهل هذا هو المنهج في التعامل مع التمردات الداخلية و الاكتفاء بتوجيه ملاحظات وتوبيخات كما وجهها القرآن لهم دون التمادي في معاقبتهم. أم أن للحاكم أن يجتهد في تشريع ما يراه محافظا على وحدة وسلامة الجيش ؟ ، مثل هذه التساؤلات تعمدت طرحها لأنها تحتاج إلى دراسة معمقة لكي نقف على حقيقة منهج النبي ﷺ في التعامل معها ولا يمكن أن نجد لها جوابا سريعا دون تعميق البحث .

٣ ـ عدم الاعتماد على قوة الأجنحة ومراكز القوة في بناء الدولة :

ومن جهة أخرى يمكن أن نلاحظ وجود أجنحة داخلية في المجتمع متمثلة في جناح عبد الله بن أبي سلول ومن معه من قبيلته، وما للتأثير القبلي من أثر كبير بسبب الحصانة غير المعلنة التي كان يتمتع بها خاصة في مرحلة بداية تأسيس دولة النبي r في المدينة ،

وكذلك للضغوط التي مارسها الأنصار من المؤمنين من قومه وعشيرته على النبي ﷺ و مراعاة النبي ﷺ لمشاعرهم ، الأمر الذي يحدد لنا مظهر من فقه تعامل النبي ﷺ مع وجود الأجنحة و الضغوطات الداخلية داخل المجتمع ، ويظهر ذلك جليا في عدم اعتماده في بناء إستراتيجيته العسكرية على جيش أبي بن سلول ، أو ما يمكن أن نسميه الجماعات الضاغطة"١" أو الأجنحة الداخلية ، ولكنه في نفس الوقت ترك لها المجال لكي تشعر بوجود مكان لها ضمن القوات المسلحة لدولة النبي ﷺ دون أن يكون لها تأثير يذكر في حجم القوات ، و لا يخفى على المختصين في الجانب العسكري مدى الدقة و قوة القيادة التي يجب أن تتوفر لكي تدير مثل هذه التناقضات ،وما تحمله من أفكار تشعر كل فرد في الدولة بمكانته فيها وفي قواتها المسلحة ، دون أن تتأثر هذه القوات بالصراعات أوالعرقيات والعصبيات وهنا نتلمس عبقرية النبي ﷺ في إدارة مثل هذا الصراع والنجاح فيه ببراعة واقتدار.

الفرع الثاني: تعامل النبي ﷺ مع رفض بعض الأعراب الاستجابة للنفير العام

كان لغزوة تبوك أعظم الأثر في بسط نفوذ المسلمين وتقويته في جزيرة العرب، فقد أخذت قبائل العرب في التوافد إلى رسول الله ﷺ بعد هذه الغزوة، فمنهم من وَفَدَ لإعلان إسلامه إما اقتناعاً، وإما رهباً و رغباً، ومن آثار هذه الغزوة ظهور حقيقة المنافقين ظهوراً جلياً، مع أمر الله عز وجل بالتشديد عليهم والتضييق، بحيث ظهر فريق منهم لم يستجب لإعلان النبي ﷺ النفير العام لمواجهة جيش الروم الذي بدأ يستعد لغزو النبي ﷺ بسبب ما رواه بعض علماء السيرة من إرسال بعض المنافقين الرسائل إلى ملك الروم ، وهذا الفرع يسلط الضوء على وجود هذا النوع من المشكلات الذي هو في ظاهره معارضة ولكنها غير شرعية ، وكما يبين كيف تعامل النبي ﷺ مع هذا العصيان العسكري كما يلي

(١) ١ الجماعات الضاغطة (اللوبي) :هي إطار تنتظم فيه مجموعة ذات مصالح ومنافع مشتركة وتستهدف التأثير على صناعة القرار من أجل توجيهه بما يتوافق ومصالحها وأغراضها .وهناك المجموعات المرتبطة بالأصول الدينية والعرقية كاليهود والسود وذوي الأصول اليابانية والأسبانية ، و جماعات المهن والبيئة ونقابات العمال واتحادات رجال الأعمال .وتستخدم هذه المجموعات مجموعة من أدوات النفوذ :; القوة المالية ، وتتوفر جماعات اللوبي على وضع شرعي من الناحية الواقعية والقانونية رغم أن عدداً من السياسيين والأكاديميين ينظرون إليها من منظور أخلاقي بازدراء ، وقد أخذت أشكال عمل اللوبي صيغاً أكثر دقة و تطوراً في السنوات الأخيرة أنظر مجلة البيان (١٤٤ ص : ٤٨) تصدر عن المنتدى الإسلامي

قال تعالى : [وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٠) ـــ إلى قوله ـ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٩٣) يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤)] التوبة ٨٩ ـ ٩٤

اختلف المفسرون في تحديد من هم الذين اعتذروا عن الخروج ولكن الفكرة الأساسية التي تعالجها الآية هي تخلف جماعة من الأعراب عن الخروج كما يلي : قال ابن عباس: هم الذين تخلفوا بعذر فأذن لهم النبي r. وقيل: هم رهط عامر بن الطفيل"١" قالوا: يا رسول الله، لو غزونا معك أغارت أعراب طيء على حلائلنا وأولادنا ومواشينا؛ فعذرهم النبي r وعلى قراءة التشديد في القول الثاني، هم قوم من غفار اعتذروا فلم يعذرهم النبي r لعلمه أنهم غير محقين، والله أعلم. وقعد قوم بغير عذر أظهروه جرأة على رسول الله r، وهم الذين أخبر الله تعالى عنهم فقال:[وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٠)] التوبة ٩٠ "٢"،وفيما يلي عرض للحلول القرآنية في معالجة هذا المشكل الداخلي :

١ ـ الصرامة في ضبط العلاقات بين المؤسسات بالتشريعات والقواعد القانونية : هذا المقطع يبين كيف عالج النبي ﷺ هذا النوع من التخلف العسكري عن واجب وطني وهو المشاركة في الجهد العسكري الذي يُبينُ من خلاله المؤمن حقيقة انتمائه وتضحيته ، فوجدنا أن النبي ﷺ حل المشكلة بالرجوع إلى القانون الذي يحدد من هو المعذور ومن هو غير المعذور ، فقبل النبيﷺعذر من اعتذر وعلق القرآن على الذين لا عذر لهم بأن وصفهم

(١) هو عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر العامري، من بني عامر بن صعصعة: فارس قومه، وأحد فتاك العرب وشعرائهم وساداتهم في الجاهلية. كنيته أبو علي. ولد ونشأ بنجد. ٧٠ قبل الهجرة وتوفي سنة ١١هـ وكان يأمر مناديا في (عكاظ) ينادي: هل من راجل فنحمله ؟ أو جائع فنطعمه ؟ أو خائف فنؤمنه ؟.انظر الأعلام للزركلي ، وأدرك الإسلام شيخا،٢٥٢/٣

(٢) أنظرتفسير الطبري٤١٧/١٤ـ ٤٢٠ والكشاف ٤٥٩/٢ تفسير القرطبي ٢٢٥/٨ ، ظلال القرآن ٥٦/٤

بالذين كذبوا الله ورسوله وهكذا ففضح القرآن المتخلفين ولم يرتب عليهم عقاب مادي دنوي

٢- إعطاء حق الحرية في الدفاع عن المواقف :والأهم من ذلك هو ما يلاحظ من أن المجتمع في المدينة بالرغم من عدم تجانسه لأنه كان خليطا من بدو وحضر ، ومقسم إلى قبائل وأعراق ، وكان هذا النسيج يشعر بحرية أن له الحق في أن يعلن عن مواقفه ويبرر تصرفاته دون خوف من ضغط المجتمع أو القيادة ، بالإضافة إلى أن القيادة النبوية في تلك المرحلة كانت تتيح الفرصة للناس للتعبير عن آرائهم والدفاع عنها وتبريرها دون الخوف من العقاب ، مما يبين حق حرية الرأي التي كانت مكفولة في مجتمع المدينة ، بحيث وجدنا أن الوفود كانت ترد على النبي ﷺ تشرح له سبب عدم استجابتها لنداء النفير العام

الفرع الثالث : تعامل النبي ﷺ مع عصيان فريق من الجيش

عصيان فريق من الجيش يمكن أن نعتبره مظهرا من مظاهر المعارضة الهدامة التي تعرض لها النبي ﷺ في بداية دعوته والأهم هو أن يأخذ القادة والزعماء العبرة من هذه المخاطر والأزمات التي لا تخلو منها فترة من حياة الدول وفيما يلي عرض لمنهج النبي ٢ في التعامل مع هذه الأزمات العسكرية الخطيرة

قال تعالى : [إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥)] آل عمران١٥٥ عن البراء بن عازب "١" قال:(لما كان يوم أحد ولقينا المشركين أجلس رسول الله ٢أناسا من الرماة وأمَّر عليهم عبدالله بن جبير "٢" وقال لهم: "لا تبرحوا من مكانكم إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا وإن رأيتموهم قد ظهروا علينا فلا تعينونا عليهم" قال: فلما التقى القوم وهزمهم المسلمون

(١) هو البراء بن عازب بن الحارث الخزرجي، أبو عمارة: قائد صحابي من أصحاب الفتوح.أسلم صغيرا وغزا مع رسول الله ٢خمس عشرة غزوة، أولها غزوة الخندق.ولاه عثمان على الري (بفارس) سنة ٢٤ ه، فغزا أبهر (غربي قزوين) وفتحها، ثم قزوين فملكها، وانتقل إلى زنجان فأفتتحها عنوة.سكن الكوفة واعتزل الاعمال. وتوفي سنة ٧١ انظر الاستيعاب ١/٢٧٨ برقم ٦١٨

(٢) عبدالله بن جبير الخزاعى. مختلف في صحبته وقال ابن عبد البر قيل ان حديثه مرسل.انظر تهذيب التهذيب لابن حجر ٥/١٤٧ برقم ٢٨٩ ، و ميزان الاعتدال في نقد الرجال لشمس الدين الذهبي تحقيق على البجاوي٢/٤٠٠ برقم ٤٢٤١

حتى نظرنا إلى النساء يشتددن في الجبل، وقد رفعن عن سوقهن قد بدت خلاخلهن فجعلوا يقولون: الغنيمة الغنيمة. فقال لهم عبدالله: أمهلوا ! أما عهد إليكم رسول الله r ألا تبرحوا، فانطلقوا فلما أتوهم صرف الله وجوههم وقتل من المسلمين سبعون رجلا...)"١".

قال الإمام القرطبي :قال تعالى : [وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢)] آل عمران ١٥٢ أي لم يستأصلكم بعد المعصية والمخالفة. والخطاب قيل هو للجميع. وقيل: هو للرماة الذين خالفوا ما أمروا به، واختاره النحاس. وقال أكثر المفسرين: ونظير هذه الآية قوله:[ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ] البقرة ٥٢ قال تعالى : [وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢)] آل عمران ١٥٢ بالعفو والمغفرة."٢"

ويتضح لنا منهج تعامل النبي ﷺ في إدارة هذه الأزمة كما يلي :

أولا : تغليب لغة المصالحة على لغة المعاقبة

هذا النص الذي بين أيدينا حافل بمجموعة من المعالم التي تبين منهج النبي ﷺ في التعامل مع نوع من معارضة أو عصيان فصيل من الجيش لأوامر القيادة وكيف تعامل النبي r مع هذه المخالفة بحيث أنه لم يثبت أنه تعرض لهم أو عنفهم بل إن القرآن الكريم يبين أنه الله عفا عنهم بالرغم من أن الله صرح أنهم كانوا يريدون الدنيا ، ولكن بين أن على القيادة أن ترافق القاعدة من أجل أن تعيدها إلى صفاء المبدأ ووضوح الرؤيا ، كما تجدر الإشارة على أن العناية الإلهية دائما تتدخل لكي تعاقب أو تلوم أو تجرم طائفة من الصف المؤمن ، كأنها إشارة إلى أن منهج التأديب والتعنيف ومواجهة الصراعات الداخلية من أهم أبجدياتها أن العقوبات تتم فيها من طرف جهة ثالثة لها كل الصلاحيات وبعيدة عن القيادة المركزية كمؤسسة القضاء المستقلة للأسباب التالية في نظري :

(١) أخرجه البخاري ١٠/٢٥٠

(٢) ٢ الجامع لأحكام القرآن أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي تحقيق : هشام سمير البخاري دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية لطبعة : ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م ٤/٢٣٧

١ ـ لكي تضمن النزاهة من جهة ولإبعاد الانتقادات والتمردات عليها

٢ ـ ومـن جهـة ثانية حتى تكـون بمثابة الجهة التي يلجـأ إليها دائما كمـا هو الحال مع قـوم موسى uفإنهم بالرغم ما تعرضوا له مـن عقاب ولعن وعذاب إلا أن الله ترك موسى u كمرجع لهم يوجهوا له طلباتهم ويحتضن انشغالاتهم.

ثانيا : المرافقة والمراقبة

في هذا النص نوع آخر من تدخل القيادة في مجريات صيرورة المعركة من أجل التخفيف مـن الضغـط النفسي علـى القواعد والجنـود من جهة ومن جهـة أخرى حفاظـا على قدرة القواعـد على الطاعة والاستجابـة للأوامر ومقابلة التحديات بنفسيـة غير مضطربة لذلك خفف الله على المؤمنين من خلال الرؤيا التي بشر بها نبيهr وأصحابه ومن خلال الشعور بأن عـدد الجهة المقابلة ليس بالقـوة الكبيرة حتى يحافظ على القـوة النفسية التي هي من أهم عوامـل الانتصار في الجيوش والحروب الحديثة وأن على القيادة أن تساعد أفرادها معنويا علـى حسـن الطاعة وتحمل أعباء المواجهة قال تعالى : [(٤٣) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ( ]٤٤ الانفال ٤٣ ـ ٤٤ .

ثالثا : اليقظة والحيطة لما يدور في الداخل والخارج

.قال تعالى : [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٩)] آل عمران ١٤٩

إن تفطـن أي قيادة إلى مكائد الكفار والمنافقـين في محاولة التخويف والتثبيط والنيل من العزائم خاصة في حالة الهزيمة أو معركة من المعاركة أمر له أهميته لذلك نجد القرآن يؤكد على عدم طاعتهم والاستماع إلى تثبيطهم ، وعدم الرضوخ إلى الضغوطات مهما كانت الظـروف لأنهـا تسبب ضبابية في الرؤيا حول المنهج والمبدأ الـذي التف حوله الأتباع من أول يـوم ممـا يمكن أن يكـون له أثر في تملمـل الصف وظهـور الجيوب والخلافـات ويمكن أن يؤدي إلى استمرار الطرف الأخر في ممارسة ضغوطاته للحصول على التنازلات على حساب المبادئ لكي ينخر الصف من الداخل ويزرع الشك في القواعد

الفرع الرابع : تعامل النبي ر مع مشكلة الحرب النفسية "١" في القرآن الكريم

أولا : إعطاء فرصة للتنفيس وتفريغ الضغط النفسي على الأتباع .

قال تعالى : [إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣) ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤) إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥)] آل عمران ١٥٣ـ ١٥٥

قال تعالى : [أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ] التوبة ١٦

قال القرطبي : " قال قتادة والسدي وأكثر المفسرين: نزلت هذه الآية في غزوة الخندق حين أصاب المسلمين ما أصابهم من الجهد والشدة، والحر والبرد، وسوء العيش، وأنواع الشدائد، وكان كما قال الله تعالى: [وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا]. وقيل: نزلت في حرب أحد "٢".

(١) انظر مجلة البحوث الإسلامية – مجلة دورية تصدر عن الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد – معها ملحق بتراجم الأعلام والأمكنة الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ٤٧٩/٢ المسجد والعسكرية ،١٦٧/٥ معادلة الحرب النفسية ، وانظر السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث لعلي محمد محمد الصلابي موقع المؤلف على الإنترنت ١٩٠/١ ، وانظر مجلة البيان (٢٣٨ عددا) تصدر عن المنتدى الإسلامي [رقم الجزء ، هو رقم العدد . ورقم الصفحة ، هي الصفحة التي يبدأ عندها المقال في العدد المطبوع]١٦٥ / ١٢١ الحرب النفسية ومفاهيم جديدة لممارسات قديمة محمد أحمد منصورتعد الحرب النفسية في العصر الحديث أخطر الحروب التي تواجه الحركات الإصلاحية ،موسوعة البحوث والمقالات العلمية جمع وإعداد الباحث في القرآن والسنة ، موضوع : الحرب النفسية بين المسلمين والمنافقين من خلال سورة التوبة،

(٢) تفسير القرطبي ٣٥/٣

إن تعرض أي دولة إلى اهتزازات نفسية وضغوطات كبيرة نتيجة ما يتلقونه من مواجهة حملة من الدعاية والحرب النفسية يتطلب من القائد أن يوجد نوع من التفريغ والتنفيس عن الضغط من خلال تفطنه للضغط النفسي الذي تتعرض له الفئة المصلحة و العمل على مساعدتها على التخفيف من وطأة الضغط ، لا أن تتجاهله باسم الاصطفاء و التمحيص فإن من فقه القيادة في التعامل مع هذا النوع من المشاكل هو مراعاة الحالة النفسية للأتباع ومرافقتهم لأنهم هم حملة المشروع في الأول والآخر وعلى كاهلهم تحمل الدولة ،لذلك نجد الاهتمام بمواجهة الحروب النفسية له أولوية كبيرة في القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ" (1)

وفيما يلي بيان لكيفية تعامل القرآن مع هذا النوع من المشاكل :

أولا : التذكير بتاريخ الأنبياء والمصلحين :

عملت القيادة النبوية على استيعاب الصدمة التي حلت بالصحابة ،فبين القرآن لهم أنهم ليسوا وحدهم في التاريخ الذين أصيبوا بالنكبات والهزائم ،فسنة التدافع تقضي أن يصطفى الله من الفئة المؤمنة طائفة صابرة ثابتة ، تأخذ العبرة ممن سبقها من الأمم وتتحمل الضغوطات لكي تتأهل لتحمل المسؤوليات.

ثانيا :التربية على عقيدة مبنية على أن النصر بيد الله"٢"

وهذا النص يبين كيف بلغت المحنة بالمؤمنين درجة شديدة وكيف تدخلت العناية الربانية لكي تثبت القلوب وتهدئ المخاوف وتزرع الأمل بالرغم من هول المعركة وشدة الطبيعة وضيق النفوس .

---

(١) انظر لمزيد من التفصيل حول مفهوم الحرب النفسية وأساليبها : " الموسوعة العربية العالمية أول وأضخم عمل من نوعه وحجمه ومنهجه في تاريخ الثقافة العربية الإسلامية. عمل موسوعي ضخم اعتمد في بعض أجزائه على النسخة الدولية من دائرة المعارف العالمية World Book International . شارك في إنجازه أكثر من ألف عالم، ومؤلف، ومترجم، ومحرر، ومراجع علمي ولغوي، ومخرج فني، ومستشار، ومؤسسة من جميع البلاد العربية." جاء في تعريف الحرب النفسية : " الحرب النفسية Psychological warfar الحرب النفسية نوع من الحرب يستخدم الدعاية بغرض التوصل إلى أهداف معينة. ويمكن استخدامها قبل الحرب لمنع وقوع قتال، أو أثناء حرب لكسبها. وتلجأ بعض الدول إلى الحرب النفسية لإقناع أعدائها بأنهم لن يكون باستطاعتهم إحراز النصر، وأن عليهم ألا يبادروا بالقتال. وتستخدم دول أخرى الحرب النفسية أثناء القتال لتقنع جنود العدو بأن أهدافهم جائرة ولن تتحقق، ولإضعاف ثقتهم في قادتهم. فالغرض منها هو تثبيط عزيمة العدو عن القتال."

(٢) انظر اللِّواء الرّكن مَحمُودٌ شيّت خَطَّابٌ المُجَاهدُ الَّذي يَحملُ سَيْفَهُ في كُتُبه لعبد الله بن محمود الطنطاوي دار القلم – دمشق، الدار الشامية – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م ١٤٦/١ ، وانظر كتاب: بين العقيدة والقيادة اللواء الرّكن محمود شيت خطاب دار القلم – دمشق، الدار الشامية – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨ م ١٢٥/١ ـ ١٢٩ ـ ٤٢٢ ـ ٤٢٥

وهنا نجد دور القائد كيف يقوي من عزائم المجموعة التي تحمل عبئ الأمر بالإصلاح وتنفيذه بأن يجعل لها ساعة يشحذ فيها الهمم ويبشر ولا يترك مكانا لليأس أو العجز ،لأن خطورة غفلة المصلحين عن مداواة سأم النفوس وخوف القلوب وشدة الظروف قد تهز الثقة وتضعف الهمة ، وهذا من أبجديات التعامل مع النفوس ومن فقه القرآن في معالجة المشاكل بالحوار وبعث الأمل لذلك نجد النبي r في غزوة الأحزاب عند حفر الخندق يثبت أصحابه كما روي عَن الْبَرَاء بْن عَازب قَالَ: لَمَّا أَمَرَنَا رَسُولُ اللّه r أَنْ نَحْفرَ الْخَنْدَقَ عَرَضَ لَنَا فيه حَجَرٌ لَا يَأْخُذُ فيه الْمعْوَلُ فَاشْتَكَيْنَا ذَلكَ إلَى رَسُول اللّه r، فَجَاءَ رَسُولُ اللّه r فَأَلْقَى ثَوْبَهُ، وَأَخَذَ الْمعْوَلَ وَقَالَ: "بسْم اللّه، فَضَرَبَ ضَرْبَةً فَكَسَرَ ثُلُثَ الصَّخْرَة" قَالَ: "اللّه أَكْبَرُ، أُعْطيتُ مَفَاتحَ الشَّام، وَاللّه إنِّي لَأُبْصرُ قُصُورَهَا الْحُمْرَ الْآنَ منْ مَكَاني هَذَا" قَالَ: ثُمَّ ضَرَبَ أُخْرَى وَقَالَ: "بسْم اللّه، وَكَسَرَ ثُلُثًا آخَرَ" وَقَالَ: "اللّه أَكْبَرُ، أُعْطيتُ مَفَاتحَ فَارسَ، وَاللّه إنِّي لَأُبْصرُ قَصْرَ الْمَدَائنَ الْأَبْيَضَ الْآنَ، ثُمَّ ضَرَبَ الثَّالثَةَ" وَقَالَ: "بسْم اللّه، فَقَطَعَ الْحَجَرَ" قَالَ: "اللّه أَكْبَرُ، أُعْطيتُ مَفَاتحَ الْيَمَنِ، وَاللّه إنِّي لَأُبْصرُ بَابَ صَنْعَاءَ" "[1]"

قال تعالى : [أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ] التوبة ١٦

ثالثا : الشورى في اتخاذ القرارات تقوي الثقة بين القيادة والقاعدة "[2]"

من معالم الحلول القرآنية هو أن أي مشروع للتغيير لا بد فيه من أن تقوم العلاقة بين

(١) الحديث أخرجه أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي في السنن الكبرى كتاب السير باب الخندق ١٥٤/٨ برقم ٢٢٠٧ حققه وخرج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي أشرف عليه: شعيب الأرناؤوط قدم له: عبد الله بن عبد المحسن التركي: مؤسسة الرسالة – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م

(٢) انظر البحر الرائق ٢٧٧/٦ ،لمبسوط للسرخسي دراسة وتحقيق:خليل محي الدين الميس دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م ١٣٧/١٦، والذخيرة لشهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي تحقيق محمد حجي الناشر دار الغرب سنة النشر ١٩٩٤م بيروت ٧٥/١٠ ،و الشرح الكبير لأبو البركات أحمد بن محمد العدوي ، الشهير بالدردير ٢١٢/٢ ،حاشية الدسوقي على الشرح الكبير محمد عرفه الدسوقي تحقيق محمد عليش الناشر دار الفكر مكان النشر بيروت ١٥٢/٤،الخرشي على مختصر سيدي خليل الناشر دار الفكر للطباعة بيروت ١٥٩/٣ ،و الأم لمحمد بن إدريس الشافعي دار المعرفة ١٣٩٣ بيروت ٢٠٣/٦ ،نهاية المطلب في دراية المذهب لأبي المعالي الجويني، حققه وصنع فهارسه: أ. د/ عبد العظيم محمود الدّيب دار المنهاج الطبعة: الأولى، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م، و العدة شرح العمدة لعبد الرحمن بن إبراهيم بن أحمد، أبو محمد بهاء الدين المقدسي تحقيق : صلاح بن محمد عويضة دار الكتب العلمية الطبعة الثانية، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، سراج الملوك الطرطوشي ص:٢٠ ـ ٤١ ـالشورى فريضة إسلامية عَلي محمد محمد الصَّلاَّبي دار ابن كثير – سوريا ١٣/١

القيادة والقاعدة على أساس الثقة والتطاوع والشورى والرحمة والاهتمام بشؤون القاعدة والرأفة بها ، لذلك نجد القرآن الكريم يوجه النبي r للاهتمام بمبدأ الشورى واعتبارها ملزمة للقيادة مهما كانت كفاءاتها بالرغم من أنه يمكن أن يكون في القواعد نوع من الضعف والذنب ولكنه لا يمكن أن يكون سببا لمنع القاعدة من حق ممارسة القيادة والمشاركة في اتخاذ القارات ، وهذا مما يعزز الثقة بين القيادة والقاعدة من جهة ويساهم في تبني القاعدة لأي حل أو موقف بقناعة واندفاع لأنها تعتبر نفسها مشاركة فيه

قال تعالى:[فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩)] آل عمران ١٥٩ ، قال ابن عطية: "والشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام؛ من لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب.هذا ما لا خلاف فيه.وقد مدح الله المؤمنين بقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ الشورى "١" .

رابعا: السرعة في الرد على الإشاعات التي تستهدف القيادة النبوية .

تعرض الأمة إلى إشاعات وأقاويل خاصة في الجانب المالي تعبير عن ضعف الانسان وتنازع حب التملك والغيرة في قلبه ، لذلك يصبح الرد على الإشاعة بعد الحرص الشديد على معرفتها ومعرفة مصادرها وتحييد الذين يخوضون فيها أمر مطلوب إلى درجة أن الله من فوق السبع الطباق أعلن براءة النبي r من إشاعة إختفاء قطعة من القطيفة من غنائم الجيش قال تعالى : [وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦١)] آل عمران ١٦١

قال ابن عباس وعكرمة وابن جبير وغيرهم: نزلت بسبب قطيفة حمراء فقدت في المغانم يوم بدر؛ فقال بعض من كان مع النبّي rلعل أن يكون النبي rأخذها" فنزلت الآية"٢"

كل هذا يؤكد على ضرورة اهتمام القيادة بمواجهة الإشاعة وتفنيدها حفاظا على الثقة بين أفراد الأمة وفي صدقية مشروع الأمة وصدقية تحمل القيادة له بإخلاص وتفان .

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٤٩/٤

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الحرف والقراءات ٥٥/٤ برقم ٣٩٧٣ وقال الألباني صحيح ، والنسائي في السنن الكبرى في كتاب الجنائز وَضْعُ الثَّوْبِ فِي اللَّحْدِ ٤٥٧/٢ برقم ٢١٥٠ ،

الفرع الخامس : الحوار أسلوب تعامل النبي r مع الخلافات القبلية .

تتعرض الدول في تسييرها لشؤونها لضغوطات كثيرة منها ضغط الصراعات القبلية التي تتغذى من التعصب. لذلك تعامل النبي r مع هذا النوع من المعارضة الداخلية التي اتخذت شكل نزاع قبلي باتخاذ جملة من الخطوات كما سنوضحه

علاج مشكلة العصبية القبلية

قال تعالى : [وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ] الحجرات: ٠٩ ،عن أنس، قال: قيل للنبيّ ﷺ: لو أتيت عبد الله بن أُبيّ، قال: فانطلق إليه وركب حمارا، وانطلق المسلمون، وهي أرض سبخة؛ فلما أتاه رسول الله ﷺ قال: إليك عني، فوالله لقد آذاني نتن حمارك، فقال رجل من الأنصار: والله لنتن حمار رسول الله r أطيب ريحا منك، قال: فغضب لعبد الله بن أُبيّ رجل من قومه قال: فغضب لكل واحد منهما أصحابه، قال: فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال، فبلغنا أنه نزلت فيهم[وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا]"١" .

من الملاحظ في النص هو ما حدث بين قبيلتي الأوس والخزرج من مشاحنات بسبب ما كان من عبد الله ابن أبي بن سلول ، ولكن الذي يهمنا في الحادثة هو تتبع أهم الأعمال التي قام بها النبي rلكي يحل هذه المشكلة التي كادت أن تتطور إلى نزاع مسلح بحيث اتخذ النبي مجموعة من الخطوات نوجزها فيا يلي :

أولا : الحصول على المعلومة في وقت مبكر :

علم النبي rبالمشكلة بعد لحظات من انطلاقها وهذا الأمر له أهميته في معالجة المشكلة في بدايتها حتى لا تتطور الأمور ، لذلك نجد أن النبي rهرع إلى عين المكان وأمرهم بالتحاكم إلى الكتاب والسنة ، لأن المجتمع لا يصبر على ظهور مشاكل تهدد أمنه الفردي والجماعي لذلك العلم بهذه المشاكل قبل استفحالها والعمل على تطويقها

(١) أنظر الجامع لأحكام القرآن ٢٩٢/٢٢ ، والجامع لأحكام القرآن ٣١٥/١٦

ثانيا : العمل على الفصل السريع والعادل بين المتنازعين :

بحيث أن النبي ﷺ عاب على الفريقين انسياقهما وراء نزعات هي في الأصل محل تحريم ، وهذا يؤكد على أن من وسائل الحل لفك النزاعات الداخلية هو السرعة في الإحاطة بالمشكل وتفكيكه والعمل على معالجته دون انتظار قد يكون سببا في تعفن الأوضاع وتحول المشكلة إلى صراع وخلاف وفرقة .

ثالثا : الهدوء والحكمة في معالجة المشكلة : فالملاحظ في موقف النبي X هو تبنيه لأسلوب هادئ ومتوازن في التعامل مع مثل هذه المشاكل وهذا الأسلوب مبني على منهج الحوار الدائم والمستمر مع كل مكونات الأزمة ومراعاة حال المجتمع وتوازناته القبلية والاجتماعية ، مما يؤكد على أن الحوار التوافقي والتصالحي هو منهج أصيل متأصل في دعوة النبي X

فمثل هذه القيادة التي لا تتحيز لطرف ، وتعمل على حل المشاكل بالحوار الهادئ والمسؤول كان له أثره في وصول مجتمع المدينة إلى هذا المستوى من الأمن والتعايش السلمي .

المبحث الرابع

الحلول القرآنية في حل مشاكل الأقليات الدينية .

الفرع الأول : تعامل النبي rمع مشكلة تعدي بعض الأقليات على المقدسات في القرآن الكريم

يفتخر الغربيون بمقدار الحرية والتسامح الذي يجدونه في بلدانهم ولكن هذا النص الذي سأورده يبين مدى الحرية التي كان اليهود يتمتعون بها وكيف كانوا يبدون بعض الآراء وإن كانت لا صلة لها بالحرية ولا بالعلم ولا بشيء آخر و لكن القرآن اكتفى بنقل ما تكلموا فيه دون أن يأمر الرسول rبمصادرة رأيهم كما يلي : :

قال تعالى : [لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ]آل عمران: ١٨١

قال أهل التفسير: "لما أنزل الله[مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا]: ٢٤٥ قال قوم من اليهود – منهم حيي بن أخطب"١" ؛ في قول الحسن. وقال عكرمة وغيره: هو فنحاص بن عازوراء – إن الله فقير ونحن أغنياء يقترض منا. وإنما قالوا هذا تمويها على ضعفائهم، لا لأنهم يعتقدون هذا؛ لأنهم أهل كتاب. ولكنهم كفروا بهذا القول؛ لأنهم أرادوا تشكيك الضعفاء منهم ومن المؤمنين، وتكذيب النبي r "٢"، وفقه تعامل النبي r مع هذا النوع من التعدي على أحكام واتفاقيات النبي r معهم يتمثل فيما يلي :

١ـ توجيه الرسائل إلى المتآمرين تفضح تآمرهم

وجه القرآن الكريم رسالة قوية لكل من اليهود الذين تكلموا في الذات الإلهية بهذه الوقاحة مفادها أن الله مطلع على ما يدور في مجالسكم وأنكم تحت الرقابة الدقيقة وأن

(١) هو حيي بن أخطب النضري، من الاشداء العتاة. كان ينعت بسيد الحاضر والبادي. أدرك الاسلام وآذى المسلمين، فأسروه يوم قريظة، ثم قتلوه الأعلام ٢٩٢/٢

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٩٤/٤

تحركاتكم محل رصد ومتابعة ، وأن أي تصرف يهدد أمن ووحدة أمة النبي r سيكون له عواقبه في الدنيا ويوم القيامة

٢ـ إعلام الرأي العام بما يدور في أروقة اليهود ومجالسهم الخاصة :

كما أن معالجة القرآن لتآمر بعض سكان المدينة من اليهود تمثل في إعلام الرأي العام في المدينة بما يتناولونه في مجالسهم الخاصة لكي يقطع الطريق أمام أي تشكيك أو تشويه ويحصن المجتمع من كل هذه التشكيكات التي يحاولون بثها في أوساط العوام ، لأن عدم إعطاء المعلومة يمكن أن يكون سببا في التباس الأمور على الملاحظين ، وقد يتحول المتآمر إلى ضحية إذا لم يتم وضع الأمور في نصابها ومشاركة المجتمع فيما يحاك ضده من مؤامرات لكي يكون هو صمام الأمان وخط الدفاع الأول ، ولا سبيل إلى تحقيق ذلك إلا بخطة إعلامية مدروسة وصادقة .

الفرع الثاني : حل مشكلة محاولة التقليل من هيبة القيادة في القرآن الكريم .

هذا المعلم يبين كيف يواجه القائد المعارضة التي تقلل من شأن القيادة والتي تستهزأ بها وكيف يربي الأمة على عدم الاستجابة لردود الأفعال ، وأن الدولة القوية هي التي تصنع الحدث ولا تتأثر بالأحداث .قال تعالى : [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤)] آل عمران ١٠٤ قال ابن عباس: كان المسلمون يقولون للنبي ﷺ: راعنا. على جهة الطلب والرغبة – من المراعاة – أي التفت إلينا، وكان هذا بلسان اليهود سبا، أي اسمع لا سمعت، فاغتنموها وقالوا: كنا نسبه سرا فالآن نسبه جهرا، فكانوا يخاطبون بها النبي r ويضحكون فيما بينهم، فسمعها سعد بن معاذ وكان يعرف لغتهم، فقال لليهود: عليكم لعنة الله! لئن سمعتها من رجل منكم يقولها للنبيr لأضربن عنقه، فقالوا: أولستم تقولونها؟ فنزلت الآية، ونهوا عنها لئلا تقتدي بها اليهود في اللفظ وتقصد المعنى الفاسد فيه. ...، "١" ، فالفقه في هذه الآية هو دعوة الأعيان و الحكام أن لا يكون رد فعلهم غير متناسب مع أية محاولة للنيل من هيبتهم لأن النبي r لم يهتم

(١) الجامع لأحكام القرآن ٥٧/٢ ، و انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٥٧/١) ، وتفسير المنار(٤١٠/١). وانظر: المبدع لابن مفلح الحنبلي(٣٠٧/١ـ٣٠٨) ، المجموع (٢٤٣/٥).

بتطــاول بعض يهود المدينة إلا بالقدر الذي تسد بــه أية ذريعة للحط من هيبة الدولة والدين ومن رموزه .

قــال تعــالى : [وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّــوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّــا لِـكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٠٨)] الأنعام ١٠٨ فمنع من سب آلهتهم مخافة مقابلتهم بمثل ذلك."١

والملاحظ في هذه الآية أن القرآن أمر المؤمنين أن يتفادوا مخاطبة النبيr بألفاظ يمكن أن تستعمل كذريعة يتخذها المغرضون وسيلة لشتم النبيr وأصحابة وبالتالي النيل من مقامه rومكانته ، وهذا منهج رباني سديد يربي المؤنين على عدم فتح الجبهة تلو الجبهة ، والاكتفاء بالتركيــز على تحقيــق الأهداف الرئيسيــة ، والاستعداد لمواجهة العــدو الظاهر الذي يشكل خطرا ظاهرا ومحققا على النبيr ودولته ، واجتناب المعارك الداخلية المضيعة للجهد والوقت والصارفة عن الهدف .

الفرع الثالث : تعامل الدولة مع المطالب غير المشروعة في القرآن الكريم .

عدم التنازل للمساومات والابتزاز

مــن أبــرز التوجيهات التي يوجهها القــرآن الكريم للدولة في كيفيــة التعامل مع مطالب المنافقــين والكفــار هو الحرص على عــدم التنــازل للمساومات والمراوغــات والتي تمثلت في محاولة إغراء النبيr بالتازل عن المبدا بالتلويح ببعض المكاسب في مقابل ذلك قال تعالى:[يَــا أَيُّهَــا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١)] الأحزاب ٠١ يمكــن أن نلخصــ التوجيهات التــي تبين كيفية تعامل الدولة مــع المطالب غير المشروعة كما يلي :

أولا : أن لكل معارضة الحق في المطالبة بما تراه من حقوقها المشروعة ولكن المشروع في نظــر المعارضة لا يمكن أن يكون دائما هــو المشروع في نظر الحق والقانون كمطالبة المنافقين بانصراف النبي ﷺ عن الفقراء والمستضعفين نظير قبول الإيمان """٢"

(١) الجامع لأحكام القرآن ٥٨/٢

(٢) انظر تفسير الطبري ٢٠٢/٢٠ تفسير القرطبي ١١٢/١٤ — ١١٤

ثانيا : الدولة تستمع إلى المطالب :يمكن للدولة أن تسمح بهامش للتعبير عن المطالب ولكن دون الاعتراف بمشروعية كل مطلب يرفع إليها "١"وعدم إهدار الوقت في إلغاء هذه المعارضة أو تكسيرها و الاكتفاء بأنه مطلب غير قابل للتحقيق.

الفرع الرابع : تعامل دولة النبي ﷺ مع الدعوة إلى التجويع والتشريد

قال تعالى : [هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (٧) يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨)] المنافقون ٠٧ ــ ٠٨ ، عن ابن عباس، قوله:[هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا]قال: لا تطعموا محمدًا وأصحابه حتى تصيبهم مجاعة، فيتركوا نبيهم"٢".

فهذا المقطع من الآية يبن حقيقة ما كان يدور ليس في كواليس بيوت وأندية المدينة ولكن داخل جيش النبي ﷺ وهو عائد من غزوة بني المصطلق عندما حدث ذلك التدافع حول مورد الماء وبدأ الأنصار يتنادون وبدأ المهاجرون يتنادون ، اغتنم المنافقون الفرصة وبدءوا يزرعون بذور التفرقة والدعوة إلى الاستهانة بالمهاجرين والدعوة إلى إخراجهم من المدينة عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ قَالَ كُنْتُ فِي غَزَاةٍ فَسَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيٍّ يَقُولُ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِهِ وَلَئِنْ رَجَعْنَا مِنْ عِنْدِهِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعَمِّي أَوْ لِعُمَرَ فَذَكَرَهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَدَعَانِي فَحَدَّثْتُهُ فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ وَأَصْحَابِهِ فَحَلَفُوا مَا قَالُوا فَكَذَّبَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَصَدَّقَهُ فَأَصَابَنِي هَمٌّ لَمْ يُصِبْنِي مِثْلُهُ قَطُّ فَجَلَسْتُ فِي

(١) أنظر الجامع لأحكام القرآن القرطبي قال : " وقيل، إنها نزلت فيما ذكر الواحدي والقشيري والثعلبي والماوردي وغيرهم في أبي سفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل وأبي الأعور عمرو "٢" بن سفيان، نزلوا المدينة على عبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين بعد أحد، وقد أعطاهم النبي ﷺ الأمان على أن يكلموه، فقام معهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح وطعمة بن أبيرق، فقالوا للنبي ﷺ وعنده عمر ابن الخطاب: ارفض ذكر آلهتنا اللات والعزى ومناة، وقل إن لها شفاعة ومنعة لمن عبدها، وندعك وربك. فشق على النبي ﷺ ما قالوا. فقال عمر: يا رسول الله ائذن لي في قتلهم. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (إني قد أعطيتهم الأمان) فقال عمر: اخرجوا في لعنة الله وغضبه. فأمر النبي صلى ﷺ أن يخرجوا من المدينة، فنزلت الآية." الجامع لأحكام القرآن ١٤/ ١١٤

(٢) أنظر جامع البيان في تأويل القرآن ٢٣/ ٤٠١

الْبَيْـتِ فَقَـالَ لِي عَمِّي مَـا أَرَدْتَ إِلَى أَنْ كَذَّبَكَ رَسُولُ اللَّهِ r وَمَقَتَكَ فَأَنْـزَلَ اللَّهُ قوله تعالى : [إِذَا جَـاءَكَ الْمُنَافِقُـونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ] فَبَعَـثَ إِلَيَّ النَّبِيُّ r فَقَرَأَ فَقَالَ إِنَّ اللَّهَ قَدْ صَدَّقَكَ يَا زَيْدُ"[1] ، فانظر إلى موقف النبي r من هذا الخبر إنه تغاضى عنهم واكتفى بتقوية معنويات الصحابي الذي اغتاظ لذلك ، وهذه إشارة في كيفة التعامل مع هذا النوع من المعارضة الداخلية وهي محاولة تحييد ما يمكن تحييده منهم وفضح ما يمكن فضحه دون تجاوزه إلى عقوبات جماعية أو محاولة إقصائهم .

أولا : الإحاطة بالخبر واستيعاب الموضوع

ومن فقه تعامل الدولة مع الدعوة العلنية إلى تجويع النبي r وأتباعه وحصارهم اقتصاديا وغذائيا أو الدعوة الصريحة للخروج عن الحاكم ، هو الحرص على الإحاطة الأمنية من خلال العلم بهذه الخطط والعمل على إجهاضها وفضح من يدعون لها إعلاميا وسياسيا واجتماعيا من أجل انفضاض الأتباع ويأسهم من النجاح .

ثانيا : البعد عن استعمال القوة المادية :

عدم مواجهة هذه الدعوات غير الواضحة المصدر بالقوة والعنف، لأن استعمال أسلوب القوة فيه عدة مخاطر منها أنه سبب لتشتيت الجهد ، وفتح لجبهة داخلية تؤثر على تماسك المجتمع ووحدته ، وتعطي الفرصة للقوى المتربصة من إيجاد موضع قدم لها من خلال استغلال هذه الفئة

ثالثا : نزع بعض الحقوق المتعلقة بالمشاركة في المجهود العسكري .

قال تعالى : [فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣) وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤) وَلَا تُعْجِبْـكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيـدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير بَاب قوله تعالى : [ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣)] المنافقون ٠٣ ، ١٨٤/٥ رقم ٤٥٢٠ ، وباب قوله [وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٥)] المنافقون ٠٥ ، حَرَّكُوا اسْتَهْزَءُوا بِالنَّبِيِّ r وَيُقْرَأُ بِالتَّخْفِيفِ مِنْ لَوَيْتُ ١٨٩/١٥ برقم ٤٥٢٤، وانظر الجامع لأحكام القرآن ١٢١/١٤

وَهُـمْ كَافِـرُونَ (٨٥)] التوبـة ٨٣ ـ ٨٥ "إن الدعـوات في حاجة إلى طبائـع صلبة مستقيمة ثابتة مصممة تصمد في الكفاح الطويل الشاق . والصف الذي يتخلله الضعاف المسترخون لا يصمد لأنهم يخذلونه في ساعة الشدة فيشيعون فيه الخذلان والضعف والاضطراب . فالذين يضعفون ويتخلفون يجب نبذهم بعيداً عن الصف وقاية له من التخلخل والهزيمة . والتسامح مع الذين يتخلفون عن الصف في ساعة الشدة ، ثم يعودون إليه في ساعة الرخاء ، جناية على الصف كله ، وعلى الدعوة التي يكافح في سبيلها كفاحه المرير"١" .

قـال الطبري : " عن ابـن عباس قال: قال رجل: يا رسول الله، الحر شديد، ولا نستطيع الخروج، فلا تنفر في الحرّ !وذلك في غزوة تبوك فقال الله:[قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُـونَ] التوبـة ٨١ ، فأمره الله بالخروج. فتخلف عنه رجـال، فأدركتهم نفوسهم فقالوا: والله مـا صنعنا شيئًا ! فانطلق منهم ثلاثـة، فلحقوا برسول الله ، فلما أتوه تابوا، ثم رجعوا إلى المدينة، فأنزل الله : [فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ] التوبة ٨٣ ، إلى قوله: [وَلَا تَقُمْ عَلَـى قَـبْرِهِ] التوبة ٨٤، فقال رسول الله : هلك الذين تخلَّفـوا، فأنزل الله عُذْرَهم لما تابوا، قـال تعالى : [لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِـيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِـنْ بَعْـدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١١٧)] التوبة ١١٧ "٢"

رابعا : فضح أعمال المنافقين وإفشال خططهم .

مـن الملاحـظ أن القرآن يركـز على بيان خطـط المنافقين وكيف يحاولـون كسر شوكة المسلمين بمختلف الوسائل وآخرها في هذا المقطع هو تدعيم قبيلة بني النظير معنويا وإرسال مـن يثبت عزمهم علـى المواصلة في محاربة النبي ، كما يلاحظ أيضـا أن القرآن يبين أنه

(١) في ظلال القرآن ٤/٥٧

(٢) انظـر تفسير الطـبري ١٤/٤٨٤ والجامع لأحكام القرآن للقرطبـي ١٦/٢٧١ ،وانظر مختصر اختلاف العلماء لابـن سلامة الطحـاوي اختصار عن الجصاص الرازي، تحقيق عبد الله نذير أحمـد، دار البشائر الإسلامية، ط٣: ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م، (١/٣٩٨)، رقـم ٣٧٢. وحاشيـة العـدوي على شرح أبـي الحسن لرسالة ابـن أبي زيد القيرواني، دار المعرفة بيروت (١/٢٧٣)، وروضة الطالبين وعمدة المفتين للإمام النووي، دار الفكر ، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م (٨/٨٠)، والمغنـي لابن قدامة، دار الكتاب العربي (٢/٤١٨)، والمحلى بالآثار لابن حزم الأندلسي، دار الفكر، (٥/١١٣).

مالم تكـن أدلة صريحة في مثل هذه الخيانة فعلى المسؤولين الاكتفاء بالتعميم والتشهير دون المعاقبة والقصاص

قال تعالى : [أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١٢) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٣) لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (١٤)] الحشر ١١ ـ ١٤

وهـم فيما ذُكـر عبد الله بن أبي ابن سلول، ووديعة ومالك، ابنـا نوفل، وسُوَيد وداعس، بَعَثوا إلى بني النضير حين نزل بهم رسول الله r، للحرب أن اثبتُوا وتمنَّعوا، فإنا لن نسلمكم، وإن قوتلتـم قاتلنـا معكـم، وإن خرجتم، خرجنا معكـم، فتربصوا لذلك مـن نصرهم، فلم يفعلـوا، وقذف الله في قلوبهـم الرعب، فسألوا رسـول الله r، أن يجليهم، ويكفّ عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة""[١]".

الفـرع الخامـس : تعامـل دولـة النبـيr مـع مشكلـة ازدواجية خطـاب المخالفين في القرآن الكريم

قـال تعـالى :[وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٨١)] النساء ٨١

"عـن ابن عبـاس"، وهم ناس كانوا يقولون عند رسول الله r: "آمنـا بالله ورسوله"، ليأمنوا علـى دمائهم وأموالهـم. وإذا برزوا من عند رسول r، خالفوا إلى غير ما قالوا عنده، فعابهم الله، فقال: "بيت طائفة منهم غير الذي تقول"، يقول: يغيرون ما قال النبيr"[٢]"

(١) انظر تفسير الطبري ٢٣/٢٨٩،

(٢) انظر تفسير الطبري ٨/٥٨٥

قال القرطبي : " قوله تعالى: [فأعرض عنهم] أي لا تخبر بأسمائهم،. وقيل: لا تعاقبهم. ثم أمره بالتوكل عليه والثقة به في النصر على عدوه. "١".

قد تتعامل الدول مع صنف من المعارضين لا يلتزمون بأخلاق الخلاف فيلجئون إلى تبني ازدواجية الخطاب ، من أجل تحوير فحوى الاتفاقيات والمعاهدات و التملص منها ومن الإلتزامات التي قطعوها على أنفسهم ، فإن منهج القرآن الكريم في التعامل مع هذا الصنف هو التركيز دائما على بيان ما يسرونه وفضحه أمام الرأي العام والخاص ، وهذا الذي عبر عنه العلماء بجهاد الحجة والبيان ، الذي يتطلب مشاركة العلماء والمثقفين والمصلحين في بيان صلاحية منهج الإسلام وعدله

الفرع السادس : تعامل النبي ﷺ مع الأقليات الدينية التي تشويش اليهود على استمرارية مشروع دولة النبي ﷺ

تعريف الأقلية في اللغة : ترجع لفظة أقلية إلى مادة قلل ولها ثلاثة معان: الأول القِلّة التي هي ضد الكثرة قال تعالى :[وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا] الأعراف ٨٦ "٢.والثاني الضعف والدونية "٣"

تعريف الأقلية في الاصطلاح هي :مجموعة من الأشخاص في الدولة ليست لها السيطرة أو الهيمنة، تتمتع بجنسية الدولة إلا أنها تختلف من حيث الجنس أو الديانة أو اللغة عن باقي الشعب، وتصبو إلى حماية ثقافتها وتقاليدها ولغتها الخاصة "٤"وهذا الفرع في كيفية تعامل القرآن مع هذه الأقليات الدينية بالمصطلح الحديث ، وفيما يلي بيان ذلك

قال تعالى : [وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢) وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن ٢٩٠/٦

(٢) ا نظر القاموس المحيط محمد بن يعقوب الفيروزآبادي ص ١٣٥٦

(٣) انظر لسان العرب ٥٣٧/١١

(٤) انظر الموسوعة الحرة على شبكة الأنترنات يوم ٢٠ نوفمبر ٢٠١٥ الساعة ١٢:١٤.

وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣)] آل عمران ٧٢ ـ ٧٣ عن السدي :"كان أحبارُ قُرَى عربيةَ اثني عشر حبرًا، فقالـوا لبعضهم: ادخلوا في دين محمـد أول النهار، وقولوا:"نشهـد أن محمدًا حقّ صادقٌ"، فـإذا كان آخر النهار فاكفروا وقولوا:"إنا رجعنا إلى علمائنـا وأحبارنا فسألناهم، فحدَّثونا أن محمدًا كاذب، وأنكم لستم على شيء، وقد رجعنا إلى ديننا فهو أعجب إلينا من دينكم"، لعلهم يشكّون، يقولون: هؤلاء كانوا معنا أوّل النهار، فما بالهم؟ فأخبر الله عز وجل رسوله r بذلك ."[١]"وفقه تعامل الدولة مع هذا النوع من المعارضة يمكن أن نوجزه فيما يلي

١ ـ : عمل الدولة على التفطن لمثل هذه المحاولات الماكرة والتصدي لها وفضحها

٢ـ : تبنـي استراتيجية إعلاميـة وفكرية : بين القرآن الكريم أنه على الدولة المسلمة أن تتبنـى خطـة ثنائية الأبعاد بعد الخطـة الأمنية الاستباقية التي تعمـل على العلم بما تخطط لـه هـذه الدوائر في الخفاء ، لمواجهة هذا التشويش والتشكيك غير المباشر في مبادئ الدين والدولـة ، الجمع بين المجابهة الإعلامية من خلال فضحها ، والمواجهة الفكرية والعقائدية و بيان بطلان ما أرادوه من التشكيكات

الفرع السابع : إجلاء من ينقض المعاهدات ويساهم في تهديم الدولة .

قـال تعالى : [هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَـرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُـمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَـذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُـونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (٢)] الحشـر ٠٢ "عـن الزهري[مِـنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ]قال: هـم بنو النضير قاتلهم النبي r حتى صالحهم على الجلاء، فأجلاهم إلى الشام، على أن لهم ما أقلت الإبل من شيء إلا الحلقـة، والحلقة: السلاح، كانوا من سبـط لم يصبهم جلاء فيما مضى، وكان الله Uقد كتب عليهم الجلاء، ولولا ذلك عذبهم في الدنيا بالقتل والسبي"[٢] .

فاليهـود لم يكونـوا من سكان المدينة المنورة ، وسبب إجلائهم هو ما كانوا يتعمدونه من فتنة وتحالف مع أعداء النبي ﷺ ، ونقضهم لما تعاهدوا به مع النبي ﷺ

(١) انظر الدرر المنثور في أسباب النزول للسيوطي ٦٢٥/٣ ، وتفسير الطبري ٥٠٧/٦ ، وتفسير المنار ٢٧٤/٣

(٢) انظـر تفسـير الطبري ٢٣ /٢٨٢ ، والجامـع لأحكام القـرآن ٢/١٨ ، وانظر القصة كاملـة مهذبة في التحرير والتنوير للطاهر بنن عاشور ٦٧/٢٨ ـ ٦٩

الخاتمة

وفي الختـام يمكن أن نقول بأن القرآن الكريم بقدر إهتمامه بإصلاح العقائد والعبادات التـي انحرفـت عنهـا الأمم ،فإنـه اهتم كذلـك بإصلاح المجتمـع والعمل علـى التفاعل مع مشكلاتـه الآنيـة ،وعمل على إيجـاد حلول تحقق الأمن والسلم في المجتمـع ، و تؤسس لعدالة قانونيـة مبنية على تسـاوي الناس أمام القانـون .ويَبرز ذلك في تعامل القـرآن مع الأقليات الدينية داخل المجتمع المسلم بكل موضوعية وواقعية وتأطير اختلافاتها بإطار قانوني ، أو في تعامـل القرآن مـع المشكلات الداخلية سواء كانت في شكل خلافـات قبلية أو تجاذبات داخل المجتمـع من خلال تنافس مختلـف القوى الحية فيه المجتمع وضبط هـذا التنافس بضوابط تحقـق الحيـاة المستقرة والآمنـة وتحمي المجتمع وثوابتـه في آن واحد ، مما يبـين أن القرآن الكريم صالح لحل مشكلات الإنسان في كل زمان ومكان،لأنه هداية رب الناس لكل الناس

ولذلك أوصي بما يلي :

١ ـ بحث مشكلة من المشاكل المعاصرة على حدى .

٢ ـ تناول ظاهرة بعينها بالدراسة سواء كانت فكرية ، أو سياسية أو ثقافية ، أو أجتماعية.

٣ ـ أسباب الضعف الحضاري في القرآن الكريم .

٤ ـ الأمن والسلم المدني في القرآن الكريم .

والحمد لله رب العالمين

قائمة المصادر والمراجع

١. أخبار مكة لمحمد بن إسحاق بن العباس الفاكهي أبو عبد الله تحقيق د. عبد الملك عبد الله دهيشدار خضر ١٤١٤ بيروت

٢. آثار البلاد وأخبار العباد القزويني

٣. البحر الرائق البحر الرائق شرح كنز الدقائق زين الدين ابن نجيم الحنفي دار المعرفة بيروت

٤. بين العقيدة والقيادة اللواء الرّكن محمود شيت خطاب دار القلم - دمشق، الدار الشامية — بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م

٥. تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي تحقيق : سامي بن محمد سلامة دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة : الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م

٦. تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) لمحمد رشيد بن علي رضا الهيئة المصرية العامة للكتاب : ١٩٩٠ م

٧. تفسير الرازي مفاتيح الغيب. فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠ م الطبعة : الأول

٨. تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش دار الكتب المصرية — القاهرة الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م

٩. تاج العروس من جواهر القاموس لمرتضى ، الزَّبيدي دار الهداية

١٠. تهذيب التهذيب لابن حجر

١١. حاشية العدوي على شرح أبي الحسن لرسالة ابن أبي زيد القيرواني، دار المعرفة بيروت .

١٢. حاشية الدسوقي على الشرح الكبير محمد عرفه الدسوقي تحقيق محمد عليش دار الفكر بيروت

١٣. جامع البيان في تأويل القرآن لمحمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، تحقيق : أحمد محمد شاكر مؤسسة الرسالة الطبعة : الأولى ، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م

١٤. سفار الفصيح لأبي سهل محمد بن علي بن محمد الهروي النحوي دراسة وتحقيق: أحمد بن سعيد بن محمد قشاش عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية الأولى، ١٤٢٠هـ

١٥. المغني لابن قدامة، دار الكتاب العربي .

١٦. سراج الملوك الطرطوشي

١٧. سنن النسائي لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي حققه وخرج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي أشرف عليه: شعيب الأرناؤوط قدم له: عبد الله بن عبد المحسن التركي: مؤسسة الرسالة — بيروت الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠ م

١٨. شذرات الذهب في أخبار من ذهب - ابن العماد

١٩. روضة الطالبين وعمدة المفتين للإمام النووي، دار الفكر ، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م

٢٠. فضائل القدس لابن الجوزي

٢١. في ظلال القرآن سيد قطب

٢٢. التوقيف على مهمات التعاريف لمحمد عبد الرؤوف المناوي دار الفكر المعاصر ، دار الفكر - بيروت ، دمشق الطبعة الأولى ، ١٤١٠ تحقيق : د. محمد رضوان الداية

٢٣. التحرير والتنوير ـ الطبعة التونسية الشيخ محمد الطاهر بن عاشور دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس - ١٩٩٧ م

٢٤. التاريخ الصغير تحقيق محمود ابراهيم زايد فهرس أحاديثه يوسف المرعشي دار المعرفة بيروت لبنان

٢٥. المعجم الوسيط : تأليف إبراهيم مصطفى ـ أحمد الزيات ـ حامد عبد القادر ـ محمد النجار دار الدعوة تحقيق مجمع اللغة العربية

٢٦. الروض المعطار في خبر الأقطار لمحمد بن عبد المنعم الحِميري تحقيق : إحسان عباس مؤسسة ناصر للثقافة - بيروت - طبع على مطابع دار السراج الطبعة : ٢ - ١٩٨٠ م

٢٧. الأعلام للزركليي لخير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي دار العلم للملايين

٢٨. الطبعة : الخامسة عشر - أيار / مايو ٢٠٠٢ م

٢٩. الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر

٣٠. الدرر المنثور في أسباب النزول للسيوطي .

٣١. الجامع لأحكام القرآن أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي تحقيق : هشام سمير البخاري دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م .

٣٢. الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م ١٦/١٣٧،

٣٣. الذخيرة لشهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي تحقيق محمد حجي الناشر دار الغرب سنة النشر ١٩٩٤م بيروت

٣٤. الشرح الكبير لأبو البركات أحمد بن محمد العدوي ، الشهير بالدردير

٣٥. الخرشي على مختصر سيدي خليل الناشر دار الفكر للطباعة بيروت

٣٦. الأم لمحمد بن إدريس الشافعي دار المعرفة ١٣٩٣ بيروت

٣٧. السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث لعلي محمد محمد الصلابي موقع المؤلف على الإنترنت

٣٨. اللِّواء الرّكن مَحمُودٌ شيْت خَطَّابٌ المُجَاهِدُ الَّذي يَحمِلُ سَيْفَهُ في كُتُبِه لعبد الله بن محمود الطنطاوي دار القلم - دمشق، الدار الشامية – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م

٣٩. المحكم والمحيط الأعظم لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي تحقيق عبد الحميد هنداوي دار الكتب العلمية ٢٠٠٠م بيروت

٤٠. العدة شرح العمدة لعبد الرحمن بن إبراهيم بن أحمد، أبو محمد بهاء الدين المقدسي تحقيق : صلاح بن محمد عويضة دار الكتب العلمية الطبعة الثانية، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م،

٤١. الشورى فريضة إسلامية عَلي محمد محمد الصَّلاَّبي دار ابن كثير - سوريا .

٤٢. المبدع شرح المقنع لإبراهيم بن محمد بن عبد الله بن محمد ابن مفلح، أبو إسحاق، برهان الدين

٤٣. دار عالم الكتب، الرياض ١٤٢٣هـ /٢٠٠٣م

٤٤. المبسوط للسرخسي دراسة وتحقيق:خليل محي الدين الميس دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان

٤٥. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي المكتبة العلمية بيروت

٤٦. المواعظ والاعتبار المقريزي ، و معجم البلدان ياقوت بن عبد الله الحموي أبو عبد الله دار الفكر – بيروت

٤٧. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي دار إحياء التراث العربي – بيروت تحقيق : عبد الرزاق المهدي لسان العرب لمحمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري دار صادر – بيروت الطبعة الأولى

٤٨. ميزان الاعتدال في نقد الرجال لشمس الدين الذهبي تحقيق على البجاوي

٤٩. مختصر اختلاف العلماء لابن سلامة الطحاوي اختصار عن الجصاص الرازي، تحقيق عبد الله نذير أحمد، دار البشائر الإسلامية، ط٣: ١٤١٧هـ ١٩٩٦م.

٥٠. معجم لغة الفقهاء

٥١. مجلة البيان (١٤٤ ص : ٤٨) تصدر عن المنتدى الإسلامي

٥٢. مجلة البحوث الإسلامية - مجلة دورية تصدر عن الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد - معها ملحق بتراجم الأعلام والأمكنة الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد المسجد والعسكرية معادلة الحرب النفسية .

٥٣. مجلة البيان (٢٣٨ عددا) تصدر عن المنتدى الإسلامي [رقم الجزء ، هو رقم العدد . ورقم الصفحة ، هي الصفحة التي يبدأ عندها المقال في العدد المطبوع] الحرب النفسية ومفاهيم جديدة لممارسات قديمة محمد أحمد منصور.

٥٤. نهاية المطلب في دراية المذهب لأبي المعالي الجويني، حققه وصنع فهارسه: أ. د/ عبد العظيم محمود الدّيب دار المنهاج الطبعة: الأولى، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

٥٥. المجموع شرح المهذب لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي

٥٦. المحلى بالآثار لابن حزم الأندلسي، دار الفكر.

٥٧. الموسوعة الحرة على شبكة الأنتترنات يوم ٢٠ نوفمبر ٢٠١٥ الساعة ١٢:١٤.

٥٨. الموسوعة العربية

٥٩. النهاية في غريب الحديث والأثر لأبي السعادات المبارك بن محمد الجزري المكتبة العلمية - بيروت ، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م تحقيق : طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي

أنيسة الكَركَاري

- الاسم واللقب: أنيسة الكَركَاري ANISSA EL GARGARI
- الجنسية: مغربية
- تاريخ الازدياد ومكانه: فاتح ديسمبر ١٩٧١، بشفشاون، المملكة المغربية.
- البريد الإلكتروني:Anissatetwan@gmail.com

المؤهلات العلمية:

- الدكتوراه في التفسير، جامعة عبد الملك السعدي، تطوان.
- دبلوم الدراسات العليا المعمقة في التفسير ومناهجه في الغرب الإسلامي، جامعة القرويين.
- الإجازة في أصول الدين، جامعة القرويين.

الأبحاث والمنشورات:

- القرآن الكريم والمدرسة الاستشراقية الفرنسية.
- درء التعارض بين القرآن الكريم والسنة النبوية: دراسة تحليلية.
- الإسلام والمسرح.
- فقهاء الصحابة والرؤية القرآنية.
- منهج ابن جُزَي في تفسيره.
- عمر بن الخطاب(رضي الله عنه) بعيون نسائية.
- أسماء بنت يزيد الأنصارية: نموذج الشخصية المتوازنة.
- أسماء بنت أبي بكر: الصابرة المثابرة.
- صحابيات بأرض فلسطين.
- زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم: نموذج الزواج الناجح.
- زواج فاطمة الزهراء بنت رسول الله وبوران بنت الحسن بن سهل: دروس وعبر.
- معالم التجديد في قضية المرأة بين الفقه المنحبس إلى الفقه الجامع.

وظيفة المرأة من خلال القرآن الكريم

الباحثة أنيسة الكَركَاري
أكاديمية طنجة تطوان للتربية والتكوين

بحث مقدم إلى المؤتمر الدولي:
توظيف الدراسات القرآنية في حل المشكلات المعاصرة
جامعة الملك خالد-كلية الشريعة وأصول الدين
محرم ١٤٣٨ - أكتوبر ٢٠١٦

مقدمة

هـل كانـت النساء بعد أن أنـزل الله فيهن قرآنا كمًّـا مهملاً صامتا محجـورا عليه، أم أصبحـت لهن شخصية مستقلة وإرادة فاعلـة بعد أن كان الرجال في الجاهلية لا يعدُّون لهن عـدًّا كما قـال عمر رضي الله عنه فيمـا رواه الإمام البخاري ((إنَّا كنـا في الجاهلية ما نعُدُّ للنساء أمرا حتى أنزل الله فيهن ما أنزل، وقسَّم ما قَسَّم))(١)؟

قبـل نـزول القرآن الكريم كان ميلاد البنت في الاسـرة الجاهلية مصيبة، فحبب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك المجتمع الرفق بالمرأة و احترامها. حاطها الشرع و كرمها صبية في حجر الوالدين و أوصى بها زوجا وصية مؤكدة و حث على برها حثا آكد. و أوضح أن كمـال المرأة الوظيفي في كتاب الله تعالى أمـا مسؤولة مربية حفظا لفطرة الله تعالى و نشرا لرسالة الإسلام لأن الأسرة القوية عماد الأمة القوية و الأم المربية الصالحة عماد الأسرة.

غرسـت التربية القرآنية النبويـة في المرأة القوة الإيمانية الإرادية والفضائل الأخلاقية كمـا الرجل ووعدهما القرآن الكريم سوية بالمراتب العالية في درجات الآخرة، قال تعالى ﴿ وَعَـدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي من تَحْتِهَـا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّـاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّـنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيـمُ ﴾ التوبة ٧٢.دخلت في الولاية العامة مع الرجل ، ولها فيها المسؤولية العظمى تأكيدا على مكانتها في واجب السهر على دين الله وحمل العبء ودعم البناء قال تعالى ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ التوبة ٧١، فأنتجت هذه التربية جيل الصحابيات الصالحات المجاهـدات الصانعـات مستقبل الأمة، و صنعت من الضعـف البشري بإذن الله تعالى القوة والكمال.

ثـم انحدر الزمان بالمرأة المسلمة وانحطت بانحطاط المجتمع وانتقاض عراه، فسد باب الاجتهـاد وانحبس الفقه الذي لم يجد للمرأة صلاحـا إلا بسجنها وتغييبها عن الانظار، ولم يتصـور للمـرأة إلا عفة وقائيـة فلسفتها سوء الظـن وضامنها القفل. فأسكتـت بعد إفصاح وأهانها تعسف الرجل في ممارسة الدرجة.

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير سورة التحريم ،باب تبتغي مرضاة أزواجك رقم ٤٦٢٩

وتمـر القرون من انحطـاط لانحطاط حتى غزتنـا الجاهلية واحتل ديارنـا الاستعمار، فوجـد المـرأة قعيدة البيت مقهـورة مغلقة عنها أبـواب العلم ،ألبسهـا زي التغريب والتمييع ودفعها للتمرد والانخراط في حزب المرأة العالمي بعيدا عن الدين.

إشكالية البحث:

تجـد المـرأة المسلمة اليـوم نفسها أمام عقبـة مزدوجة: خاذل عميق الجـذور في الفكر والتقاليـد والفقـه المنحبس الذي رسخ فيهـا على مر العصور الانحطاطيـة الشعور بالدونية والعجـز، وَبَتَر منها حاسة المسؤولية خارج نطاقهـا الضيق، وشعارات مزيفة تتغنى بالانعتاق من ربقة الدين يقودها دعاة التغريب والإباحية واللائكية، فما السبيل لكشف الغمة عن الأمة في شأن المرأة ؟ما العمل لتحرير إرادة المرأة واستعادة حافظيتها ؟

أهداف البحث:

يـروم البحـث إلى محاولـة التأصيل لوظيفة المـرأة والكشف عـن مسؤوليتها إلى جانب الرجل في بناء أمتها وصناعة المستقبل من خلال القرآن الكريم ، كما أطمح إلى فهم شمولي وفـق الرؤية القرآنيـة لسنة رسول الله صلـى الله عليه وسلم المتعلقة بالمـرأة .ليكون مفتاحا لرؤية تجديدية حول قضية المرأة ومظلوميتها ومهمتها .

منهج البحث:

سأتناول موضوع البحث إن شاء الله وفق منهجية تحليلية تقوم على عرض نصوص من القـرآن الكريم والسنة النبوية التي تتعلق ببعض قضايا المـرأة المسلمة، وتتبع آراء المفسرين وشراح الحديث ثم مناقشتها لتوضيح ما استشكل من مفاهيم ومعان.

خطة البحث:

سأعالج موضوع البحث وفق الخطة التالية:

المبحث الأول: التصور القرآني لمفهومي القِوامة والدَّرَجة

أولا: مفهوم القوامة

ثانيا: مفهوم الدرجة

المبحث الأول :

التصور القرآني لمفهومي القِوامة والدَّرَجة

أولا : مفهوم القوامة

من المسلم به ابتداء أن كلاًّ من الرجل و المرأة خلق الله و أنه سبحانه لا يريد ظلما بالعباد. فلماذا ميز الرجل بمهمة القوامة في قوله تعالى ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ النساء ٢٤، وكيف ينسجم هذا التفضيل والرجحان مع العدالة والحق؟

في اللغة جاء في لسان العرب "رجل قائم من رجال قوم و قيم و قيام..قد يجيء القيام بمعنى المحافظة و الإصلاح"[١].

سلك المفسرون مسلكين مختلفين في تحديد مهمة القوامة، مرده اختلافهم في تفسير الأفضلية في قوله تعالى "بما فضل الله بعضهم على بعض" فجاءت آراءهم كالآتي:

الاتجاه الأول : القوامة سلطة و سيادة مطلقة

يرى الإمام ابن كثير أن " الرجل قيم على المرأة، أي هو رئيسها وكبيرها والحاكم عليها ومؤدبها إذا اعوجت ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي : لأن الرجال أفضل من النساء، والرجل خير من المرأة؛ ولهذا كانت النبوة مختصة بالرجال وكذلك الملك الأعظم .... ﴿وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ أي من المهور والنفقات والكلف التي أوجبها الله عليهم لهن في كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، فالرجل أفضل من المرأة في نفسه ،وله الفضل عليها والإفضال"[٢]. القوامة عنده سيادة الرجل على المرأة لأنه أفضل منها بميزان الشرع.

(١) لسان العرب ابن منظور ١٢/ ٢٢٤،دار صادر ٢٠٠٣

(٢) تفسير القرآن العظيم أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير ٢/ ٢٥٦،حققه محمد حسين شمس الدين دار الكتب العلمية بيروت ط١، ١٤١٩

ويعلل الإمام ابن العربي أفضلية الرجل بقوله " المعنى هو أمين عليها يتولى أمرها، ويصلحها في حالها؛ قاله ابن عباس: وعليها له الطاعة .. قوله تعالى ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ المعنى: إني جعلت القوامية على المرأة للرجل لأجل تفضيلي له عليها، وذلك لثلاثة أشياء:

الأول : كمال العقل والتمييز.

الثاني : كمال الدين والطاعة في الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على العموم ، وغير ذلك.

الثالث : بذله المال من الصداق والنفقة ، وقد نص الله عليها هاهنا"[1]

ونجد الرأي نفسه للإمام الزمخشري مع مزيد من البيان و التفصيل فيقول : " يقومون عليهن آمرين ناهين، كما يقوم الولاة على الرعايا. وسموا قوّما لذلك. والضمير في بَعْضَهُمْ للرجال والنساء جميعاً، يعنى إنما كانوا مسيطرين عليهن بسبب تفضيل اللّهّ بعضهم وهم الرجال، على بعض وهم النساء. .. وقد ذكروا في فضل الرجال: العقل، والحزم، والعزم، والقوّة، والكتابة- في الغالب، والفروسية، والرمي، وأنّ منهم الأنبياء والعلماء، وفيهم الإمامة الكبرى والصغرى، والجهاد، والأذان، والخطبة، والاعتكاف، والشهادة في الحدود، والقصاص، وزيادة السهم، والتعصيب في الميراث، والحمالة، والقسامة، والولاية في النكاح والطلاق والرجعة، وعدد الأزواج، وإليهم الانتساب، وهم أصحاب اللحى والعمائم وَبِما أَنْفَقُوا وبسبب ما أخرجوا في نكاحهنّ من أموالهم في المهور و النفقات"[2].

فهل اللحية و العمامة فضل؟

يتضح من آراء المفسرين أن:

للرجل سلطة وسيادة مطلقة على المرأة لأنه يفضلها بكمال العقل و الدين وبأعمال اختص بها دون المرأة إضافة إلى النفقة.

(١) أحكام القران القاضي محمد بن عبد الله بن العربي الإشبيلي المالكي ١/٥٣٠ -٥٣١،راجعه محمد عبد القادر عطا دار الكتب العلمية بيروت ط٣، ١٤٢٤/٢٠٠٣

(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ،أبو القاسم محمود بن عمروالزمخشري١/٥٠٥ ،دار الكتاب العربي بيروت ط٣، ١٤٠٧

لو كان في المرأة نقص في العقل والدين مما يخرم مروءتها ويسلبها الإرادة لما استوت مع الرجل في الأفعال والجزاء كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ النساء ١٢٤

أما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فمسؤولية مشتركة بين الرجال و النساء لقوله تعالى ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ التوبة ٧١

ما رفعه الشرع عن المرأة من أحكام خص بها الرجل كالميراث و الإمامة الكبرى و الآذان... فقد علله بمقاصد سامية، ولا تحكم على المرأة بالدونية.

الاتجاه الثاني :القوامة رعاية و مسؤولية

يقول الإمام الطاهر بن عاشور "وقيام الرجال على النساء هو قيام الحفظ والدفاع، وقيام الاكتساب والإنتاج المالي، ولذلك قال: بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم أي: بتفضيل الله بعضهم على بعض وبإنفاقهم من أموالهم... فالتفضيل هو المزايا الجبلية التي تقتضي حاجة المرأة إلى الرجل في الذب عنها وحراستها لبقاء ذاتها... فهذا التفضيل ظهرت آثاره على مر العصور والأجيال، فصار حقا مكتسبا للرجال، وهذه حجة برهانية على كون الرجال قوامين على النساء فإن حاجة النساء إلى الرجال من هذه الناحية مستمرة وإن كانت تقوى وتضعف"[1]

القوامة إذن مسؤولية حماية المرأة وصيانتها وجلب المصالح لها كيفما كانت نسبتها إلى الرجل وقرابتها منه، وفي نفس السياق نجد الإمام القرطبي ينفي القوامة على الرجل إذا أخل بالنفقة فيقول مستنبطا من قوله تعالى ﴿وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ " أنه متى عجز عن نفقتها لم يكن قواما عليها، وإذا لم يكن قواما عليها كان لها فسخ العقد، لزوال المقصود الذي شرع لأجله النكاح"[2].

(١) التحرير و التنوير الطاهر ابن عاشور ٥/٣٨-٣٩ دار سحنون

(٢) الجامع لأحكام القران ٥/١٦٨

اعتمادا على كل ما سبق يمكن القول إن: القوامة مسؤولية ورعاية أوكلها الله تعالى للرجل، لما أودع فيه صفات فطرية كقوة العضل ورباطة الجأش وقدرة الكسب، وبالتالي فهي ليست ترجيحا لكفة الرجل وإنما تثقيل لميزانه بمثاقيل المسؤولية.

ثانيا : مفهوم الدرجة عند المفسرين

يدور نضال دعاة تحرير المرأة حول مطلب محوري هو المساواة و إنكار أن للرجال على النساء درجة كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾البقرة ٢٢٨.

إن الإيمان بدرجة الرجال على النساء إيمان بالقرآن والكفر بها كفر بالقرآن الكريم، فهذا يفصل ما بيننا وبين أعداء الدين. الدرجة للرجال على النساء مزية ثابتة بصريح القرآن، وإذا كانت الآية قد جاءت في سياق أحكام الطلاق، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما يقول الفقهاء. فما مضمون هذه الدرجة؟

جاءت الدرجة في الآية مجملة غير مبينة، والقرآن الكريم يفسر بعضه بعضا، فلا يختلف المفسرون في تفسيرها بما ذكره الله تعالى مفصلا في آية القوامة، كما يقول الإمام الشنقيطي "لم يبين هنا ما هذه الدرجة التي للرجال على النساء، ولكنه أشار لها في موضع آخر وهو قوله تعالى﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا﴾ " ١ .

يفسر الإمام ابن كثير الدرجة بقوله " أي في الفضيلة في الخلق والخلق، والمنزلة، وطاعة الأمر، والإنفاق، والقيام بالمصالح، والفضل في الدنيا والآخرة "٢، بعبارة موجزة هي مواطنة من الدرجة الثانية في الدنيا والاخرة، وهذا ما يعارض صدر الآية ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾، كما أن فضل الآخرة معياره العمل الصالح لا الجنس، والله تعالى ينظر إلى قلوب الناس محل العزم والعمل لا إلى صورهم وأشكالهم كما علمنا الحبيب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القران بالقرآن محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي ١/١٠٣،دار الفكر ١٩٩٥/١٤١٥

(٢) تفسير القران العظيم ١/٤٥٩

إن الدرجة كما يراها ابن العباس رضي الله عنهما فيما نقله الإمام ابن عطية مؤيدا "قال ابن عباس: تلك الدرجة إشارة إلى حض الرجال على حسن العشرة، والتوسع للنساء في المال والخلق، أي إن الأفضل ينبغي أن يتحامل على نفسه. وهذا قول حسن بارع"[١].

إذن الدرجة مسؤولية ورعاية ثابتة للرجل ليقود السفينة قيادة رحيمة أمينة ويجنب القافلة الفوضى، و ليست براءة تمنح له و تفويض كي يدوس المرأة تحت قدميه، وبالتالي تثبت الدرجة للرجال في الشأن الخاص في الحياة الزوجية، و في الشأن العام في الحياة السياسية والاجتماعية، كما يقول ابن عاشور "ويؤخذ من الآية حكم حقوق الرجال غير الأزواج لمساواتهم للأزواج في صفة الرجولة التي كانت هي العلة في ابتزازهم حقوق النساء في الجاهلية، فلما أسست الآية حكم المساواة والتفضيل بين الرجال والنساء الأزواج إبطالا لعمل الجاهلية، أخذنا منها حكم ذلك بالنسبة للرجال غير الأزواج على النساء، كالجهاد، وذلك مما اقتضته القوة الجسدية، وكبعض الولايات المختلف في صحة إسنادها إلى المرأة، والتفضيل في باب العدالة، وولاية النكاح، والرعاية، وذلك مما اقتضته القوة الفكرية، وضعفها في المرأة وسرعة تأثرها، وكالتفضيل في الإرث وذلك مما اقتضته رئاسة العائلة الموجبة لفرط الحاجة إلى المال، وكالإيجاب على الرجل إنفاق زوجه" [٢]

خلاصة القول: إن الدرجة والقوامة التي منحها الله تعالى للرجال على النساء بصريح القرآن هي في الواقع تثقيل لميزان الرجل بمثاقيل المسؤوليات، وتخفيف عن أعباء المرأة التي ندبها الشرع لمسؤولية جسيمة في البناء الأمة وصناعة المستقبل. مهمة الأمومة وصون الفطرة السليمة في النفوس والعقول لا تعهد الجسوم فقط.

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمان بن عطية الأندلسي، ٣٠٦/١ حققه عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية بيروت ط١، ١٤٢٢

(٢) التحرير و التنوير ٤٠٢/٢

المبحث الثاني:

المنظور القرآني للحافظية والخصوصية

أولا: مفهوم الحافظية

كلف الله تعالى النساء بمهمة الحافظية كما كلف الرجال بواجب القوامة جنبا إلى جنب في آية واحدة غير منفصلة فقال عز من قائل ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ النساء ٢٤.

أول ما يتبين من وظيفة المرأة في الآية الكريمة أنها حافظة للغيب، كلمتان توحي الأولى بمفهومها أن هناك ما يضيع إن لم تحفظه المرأة،كما توحي الثانية بأن هناك غيبا وحضورا؛ فما المراد بالحافظية؟

في اللغة يقول ابن فارس: الْحَاءُ وَالْفَاءُ وَالظَّاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى مُرَاعَاةِ الشَّيْءِ. يُقَالُ حَفِظْتُ الشَّيْءَ حِفْظًا.. وَالتَّحَفُّظُ: قِلَّةُ الْغَفْلَةِ. وَالْحِفَاظُ: الْمُحَافَظَةُ عَلَى الْأُمُورِ[1].

في كتاب الله وقف المفسرون عند نص الآية ودلالتها المباشرة وفسروا الحافظية على أنها الطاعة و ألا تأتي المرأة بما يكره الزوج في غيبته كما يقول القرطبي "ومقصوده الأمر بطاعة الزوج والقيام بحقه في ماله وفي نفسها في حال غيبة الزوج"[2]. لكن أتقتصر

(١) معجم مقاييس اللغة أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي ، كتاب الحاء مادة حفظ،٨٧/٢،حققه عبد السلام محمد هارون . دارالفكر ١٣٩٩/١٩٧٩

(٢) الجامع لاحكام القران أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري القرطبي١٦٨/٥، حققه أحمدالبردوني و إبراهيم أطفيش ط٢،١٣٨٤/١٩٦٤

حافظيتها على حقوق الزوج وعرضه؟ والنساء بفطرتهن يحفظن استمرار الجنس البشري بما هن محضن للأجنة وحضن التربية ومدبرات لضرورات معاش الاسرة. أتقف وتنتهي مسؤوليتها عند هذا الحد؟

بالرجوع إلى قوله تعالى ﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ نجد الإمام ابن عاشور يعطي للحفظ معنى شموليا فيقول الباء في بما حفظ الله للملابسة، أي حفظا ملابسا لما حفظ الله .. وحفظ الله هو أمره بالحفظ، فالمراد الحفظ التكليفي، ومعنى الملابسة أنهن يحفظن أزواجهن حفظا مطابقا لأمر الله تعالى، وأمر الله يرجع إلى ما فيه حق للأزواج وحدهم أو مع حق الله، فشمل ما يكرهه الزوج إذا لم يكن فيه حرج على المرأة، ويخرج عن ذلك ما أذن الله للنساء فيه، ..وكما أذن لهن النبيء أن يخرجن إلى المساجد ودعوة المسلمين"[1].

إذن يستنبط من الآية أن حافظية الصالحات القانتات في المجتمع المسلم لا تنحبس في شغل بيوتهن و إرضاء أزواجهن، إنما هي تحمل ما كلفها الشرع به من حفظ الفطرة السليمة، وهل يُرْضَعُ الدِّين -وهو رأس المقاصد وغاية الغايات- إلا من ثدي الأمهات الصالحات القانتات لا من المحجورات، العاجزات والمجهلات؟

خلاصة القول: إن الحافظية التي فرضها الله تعالى على المرأة في آخر الآية هي أخت ا القوامة التي فرضها على الرجل في أولها، وظيفة تجعل المرأة راعية ومسؤولة وحافظة للفطرة وحاضرة أقوى حضور في بيتها ومجتمعها كما كانت الصحابيات على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليست عضوا منكمشا عاجزا وكمًّا مُهْمَلاً ينتظر أن يفعل به.

ثانيا: مفهوم خصوصية المرأة

المرأة والرجل أكفاء في شريعة الله تعالى بميزان العدل، لا ترجح كفة أحدهما إلا بالتقوى كما يقول الله تعالى ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ النساء ١٢٤.

المرأة كما الرجل، لها استعداد فطري للعمل الصالح والترقي في مراتب الدين، لكن

(١) التحرير و التنوير ٤١/٥

الله تعالى يقول في موضع آخر من كتابه العزيز على لسان أم مريم ﴿ وليس الذكر كالأنثى ﴾ آل عمـران ٣٦ ، فالآية تنفي المشابهة بين الذكر و الانثـى ، فهل للمرأة خصوصية تميزها عن الرجل؟ أهي خصوصية طبيعة ووظيفة تنفرد بها المرأة و تميز سلوكها إلى الله أم هي دونية وعجز؟

يعلـق الامـام الطبري على الآية بقولـه " لأن الذكر أقوى على الخدمـة وأقوم بها ، وأن الأنثـى لا تصلـح في بعض الأحوال لدخول القدس والقيام بخدمة الكنيسـة ، لما يعتريها من الحيض والنفاس"[١] ، وهـذا يعنـي أنها مهمـة تخص الرجـال ولا تقدر عليهـا النساء ، لأن الاختلاف في الفطرة والخلقة الجسدية النفسية نتج عنه التفاوت في التكاليف والمهمات.

تُبَيِّن الآية أن للمرأة خصوصية تميزها عن الرجل، فتقسيم الوظائف بين المتخصصين مبدأ فطري وعقلاني، لكـن داعيات تحرير المرأة ينكرن مبدأ التخصص وضرورة التكامل، ويَأْبَيْنَ إلا أن تكون المرأة مثل الرجل، تزاحمه في كل المجالات لتصير بعد صراع ونضال مرير دمية مكدودة، كادحة قهرا وحاجة.

ليـس الذكـر كالأنثى خلقـة ووظيفة وعمـلا ، فالمرأة لديهـا استعداد فطـري للإحسان والرحمة لأن تَعَهُّدَ الحياة وبناء الإنسان ابنا وأبا وزوجا يتطلب من المعاناة والصبر ما تقدره المرأة حق قدره.

بعـد كل مـا سبق هل مـن دليل يحيل إمـاء الله قواعد البيـوت إلا ما كان مـن أحاديث نبوية متفرقة في أبواب مصنفات الحديث النبوي أسيء تأويلها ،سآتي على ذكرها في المبحث القادم إن شاء الله .

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣/٣٣٤

المبحث الثالث:

دفع إيهام سوء التأويل عن أحاديث نبوية في شأن المرأة

كثـيرة هـي أحاديث رسول الله صلـى الله عليه وسلم التي تحدث فيهـا عن بعض شؤون المـرأة وتلقتهـا أفهام الفقهاء والمفسريـن والمحدثين بشروحات وأحـكام بعيدة كل البعد عن المنهـج الرباني المتصف بالعدل و الرحمة، والذي ألفناه نموذ جا تطبيقيا في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فكيف نتعامل مع هذه الأحاديث النبوية؟

أنُضَعِّفُهـا ونردها لأنها تعارض ما قرره القرآن الكريم من قواعـد المساواة بين الرجل والمـرأة من حيـث الحقـوق والتكاليـف والجزاء والحسـاب؟ فهـي صحيحة عنـد البخاري ومسلـم وغيرهما، أم نقرأ الأحاديث ونفهم معانيهـا وفق مقاصد الوحي، وتوجيهات الشرع، وخصوصيـة الظرف، وسياق الحال، ووصل الجزئيات بالكليات؟ أم أن اتباع السنة الشريفة يستوجب أن نطبقها تطبيقا حرفيا، ونعطل علاقة تبعية السنة للكتاب؟

أولا: المرأة بين النقص والكمال

روى الإمـام البخاري عـن أبي موسى قال رسول الله صلـى الله عليه وسلم ((كمل من الرجـال كثـير ولم يكمل من النسـاء غير مريم بنت عمـران وآسية امرأة فرعـون وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام))[١]، فما معنى الكمال؟

يقصد به في اللغة كما ورد عند ابن فارس "كمل: الكاف والميم واللام أصل صحيح يدل على تمام الشيء، يقال : كمل الشيء وكمل فهو كامل أي تام"[٢]

(١) صحيـح البخـاري ،كتاب أحاديث الأنبياء باب قوله تعالى "و ضرب الله مثـلا للذين آمنوا امرأة فرعون" ،رقم ٣٤١١و صحيح مسلم باب فضائل خديجة رضي الله عنها و الترمذي و ابن ماجة في الأطعمة

(٢) معجـم مقاييـس اللغة،أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الـرازي ، كتاب الكاف مادة كمل ،١٣٩/٥ ،حققه عبد السلام محمد هارون . دارالفكر ١٣٩٩/١٩٧٩

ويرى الإمام النووي أن " لفظة الكمال تطلق على تمام الشيء وتناهيه في بابه، والمراد هنا التناهي في جميع الفضائل وخصال البر والتقوى"١.

إن حقيقة الكمال من خلال حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بلوغ المرأتين النهاية في جميع الفضائل التي تخص النساء، هذا ما اتفق عليه شراح الحديث والفقهاء، لكنهم اختلفوا في صيغة الحصر على رأيين:

أولا :كمال النبوة قبل زمان رسول الله صلى الله عليه و سلم، قال الحافظ ابن حجر "استدل بهذا الحصر على أنهما نبيتان لأن أكمل النوع الإنساني الأنبياء ثم الأولياء والصديقون والشهداء، فلو كانتا غير نبيتين لَلَزِم ألا يكون في النساء ولية ولا صديقة ولا شهيدة، والواقع أن هذه الصفات في كثير منهن موجودة، فكأنه قال ولم ينبأ من النساء إلا فلانة وفلانة، ولو قال لم تثبت صفة الصديقية أو الولاية أو الشهادة إلا لفلانة وفلانة .. وعلى هذا فالمراد من تقدم زمانه صلى الله عليه وسلم٢.

ثانيا: نموذج الكمال في الفضائل وبلوغ التمام في خصال الخير يقول القاضي عياض: وليس يشعر الحديث بأنه لم يكمل ولا يكمل ممن يكون في هذه الأمة غيرهما... إذا قلنا إنهما صديقتان لم يمنع أن يكمل من هذه الأمة غيرهما.٣

إذن يسوق لنا الحديث نموذجين ونوعيين للكمال على سبيل التأسي والاقتداء لا الحصر كما قال الإمام الصنعاني: "وليس في الاقتصار عليهما حصر للكمال فيهما٤. وهذا المعنى ينسجم مع ما جاء عند الترمذي عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " حَسْبُكَ مِنْ نِسَاءِ العَالَمِينَ: مَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ وَآسِيَةُ امْرَأَةُ

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج،أبو زكرياء محيي الدين بن شرف النووي،كتاب الصحابة باب فضائل خديجة ،١٩٨/١٥،دار إحياءالتراث العربي بيروت ط ٢،١٣٩٢ه

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ،ابن حجر العسقلاني كتاب أحاديث الأنبياء باب و ضرب الله مثلا امراة للذين آمنوا ، ٤٤٧/٦ ،صححه محب الدين الخطيب ،دار المعرفة،بيروت ١٣٧٩ه

(٣) إكمال المعلم بفوائد مسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضل خديجة أم المؤمنين ،٤٤٠/٧ ،تحقيق د يحيا إسماعيل دار الوفاء ط ١ ١٤٠٩ /١٩٩٨

(٤) التنوير شرح الجامع الصغير الصنعاني ،٢٣٩/٨، دار السلام الرياض ٢٠١١/١٤٣٢

فِرْعَـوْنَ"[١]. علـق عليه صاحب التحفة بقوله: "(حسبـك) أي يكفيك (من نساء العالمين) أي الواصلـة إلى مراتب الْكاملين في الاقتداء بهن وذكر محاسنهنّ ومناقبهنّ وزهدهنّ في الدنيا وإِقبالهن على الْعُقْبَى"[٢].

وبالرجـوع إلى كتـاب الله تعالى نجد ذكر مريم آسية في قوله تعالى ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِـي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِـي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ التحريم ١١-١٢. المثل والأسوة هنا للرجال والنسـاء كمـا يرى ابن عاشور "وجاء أحد المثلين للذين آمنـوا مثلاً لإخلاص الإيمان. والمثل الثاني لشدة التقوى فكانت امرأة فرعون مثلاً لمتانة إيمان المؤمنين ومريم مثلاً للقانتين"[٣].

يتضح مما سبق أن:

- الحديـث النبوي ذكر نماذج للكامـلات وموافقة لما ورد في القران الكريم حين ضرب المثل للمرأة المسلمة بمريم و آسية .

- الحديـث النبوي لا يقرر ندرة الخير وشحه في جنس النساء، و إنما يبين نماذج نوعية لصلاح المرأة وسلوكها الى الله. فلم مريم وآسية نموذجا ؟

الأولى طفلة كانت الكرامات تظهر على يدها، أعظمها لزوم العبادة، حتى تتعلم النساء أن الله عز وجل كما يصطفي من الرجال عبادا كما يصطفي من النساء إماء، وأن باب كرمه مفتوح للمرأة كما هو مفتوح للرجل.

الثانيـة مؤمنـة في بيت كافـر، حافظت على فطـرة نبي الله موسى وغذتهـا رغم البيئة الملوثة، ما ضرها فجور الزوج الكافر، لتوقن النساء أن المرأة لا يرفعها ولا يحطها إلا عملها، وأن الصلاح الأخروي ما هو وقف على من ولدهن صالحان و كفلهن وتزوجهن رسول.

(١) سنن الترمذي كتاب المناقب باب فضل خديجة رقم ح ٣٨٧٨ ،صححه الالباني

(٢) تحفة الاحوذي محمد بن عبد الرحمان المباركفوري ص٢٦٦/ ١٠ دار الكتب العلمية بيروت لبنان

(٣) التحرير التنوير ابن عاشور ٣٧٦/٢٩

ثانيا : المرأة ناقصة عقل ودين

عن أبي سعيد الخدري قال ((خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في أضحى أو فطر إلى المصلى فمر على النساء فقال: يا معشر النساء تصدقن فإني أريتكن أكثر أهل النار، فقلن وبم يا رسول الله؟ قال: تكثرن اللعن وتكفرن العشير، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن، قلن: وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله؟ قال: أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل؟ قلن: بلى قال: فذلك من نقصان عقلها، أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم؟ قلن بلى، قال: فذلك من نقصان دينها))[1]، وفي رواية مسلم: ((...فقالت امرأة منهن جزلة: وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار؟ قال" :تكْثِرْنَ اللَّعْن، وَ تكفُرنَ الْعشير...))[2]

اختلف في فهم الحديث بناء على اعتبارات متعددة، منها: الالتزام بحرفية النص، أو النظر للسياق العام، أو فهمه على ضوء القرآن.

يربط الإمام ابن حجر أول الحديث بآخره، ويعلل دخول النساء النار بقوله " (..من ناقصات) صفة موصوف محذوف.... وَيَظْهَرُ لي أَنَّ ذَلكَ منْ جُمْلَة أَسْبَاب كَوْنهنَّ أَكْثَرَ أَهْل النَّار، لأَنَّهُنَّ إذَا كُنَّ سَبَبًا لإذْهَاب عَقْلِ الرَّجُلِ الْحَازِم حَتَّى يَفْعَلَ أَوْ يَقُولَ مَا لَا يَنْبَغِي فَقَدْ شَارَكْنَهُ فِي الْإِثْمِ وَزِدْنَ عَلَيْه[3].

ثم يعتبر سؤال النساء دليلا عاما وجازما على نقصانهن إطلاقا فيقول: قُلْنَ: (وَمَا نُقْصَانُ ديننا)؟ كَأَنَّهُ خَفيَ عَلَيْهِنَّ ذَلكَ حَتَّى سَأَلْنَ عَنْهُ، وَنَفْسُ السُّؤَال دَالٌّ عَلَى النُّقْصَان، لأَنَّهُنَّ سَلَّمْنَ مَا نُسبَ إلَيْهِنَّ منَ الْأُمُور الثَّلَاثَة الْإِكْثَار وَالْكُفْرَان وَالْإِذْهَاب، ثُمَّ اسْتَشْكَلْنَ كَوْنَهُنَّ نَاقصَات. وَمَا أَلْطَفَ مَا أَجَابَهُنَّ به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ....لأَنَّ الاسْتِظْهَارَ بِأُخْرَى مُؤْذِنٌ بِقِلَّةِ ضَبْطِهَا وَهُوَ مُشْعِرٌ بِنَقْصِ عَقْلِهَا"[4].

---

(١) - صحيح البخاري ،كتاب الحيض باب ترك الحائض الصوم رقم الحديث ٢٩٨.

(٢) صحيح مسلم ،كتاب الإيمان باب نقصان الإيمان بنقص الطاعات و بيان إطلاق لفظ الكفر على غير الكفر بالله

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٤٠٦/١

(٤) المصدر نفسه ٤٠٦/١

وهنـــا يُطرح السؤال: هــل تدخل المرأة النار لأن بعقلها نقصا ولأنها مسؤولة عن معصية الرجـل؟ وهل هي ناقصة لأنها تســأل و السؤال بصيغة الاستفســار وليس الاستشكال؟ كيف والسائلــة كما جاء عند مسلم جَزْلَــةٌ " أي ذات عقل ورأي، والجزالة العقل والوقار" كما قال الامام النووي ١

استنبط بعض العلماء من الحديث فوائد تؤكد أفضلية الرجال وسفاهة النساء منها:

يقــول الإمــام النووي "من كثرت عبادته زاد إيمانــه و دينه ، و من نقصت عبادته نقص دينه.ثـم نقصــ الدين قد يكون ..علــى وجه هو مكلف به كترك الحائضــ للصلاة و الصوم ،فإن قيل :كانت معذورة فهل تثاب ...فالجواب أن ظاهر هذا الحديث أنها لاتثاب"٢

ويــرى الامام ابن حجر "وَلَيْسَ الْمَقْصُودُ بِذِكْرِ النَّقْصِ فِي النِّسَاءِ لَوْمَهُنَّ عَلَى ذَلِكَ ; لِأَنَّهُ مِنْ أَصْلِ الْخِلْقَةِ ، لَكِنَّ التَّنْبِيهَ عَلَى ذَلِكَ تَحْذِيرٌ مِنَ الِافْتِتَانِ بِهِنَّ ، وَلِهَذَا رَتَّبَ الْعَذَابَ عَلَى مَا ذَكَرَ مِنَ الْكُفْرَانِ وَغَيْرِهِ لَا عَلَى النَّقْصِ"٣.

و من فوائد الإمام ابن بطال "وفيه أن للعالم أن يكلم من دونه من المتعلمين بكلام يكون عليهــم فيــه بعض الشــدة و التنقيص في العقــل ...وفي الحديث ترك العتــب للرجل أن تغلب محبــة أهله عليه، لأن النبي صلى الله عليه وسلــم قد عذره بقوله: أذهب للب الرجل الحازم منكن، فإذا كن يغلبن الحازم فما الظن بغيره٤.

استنتج الإمام القرطبي " إنما كان النساء أقل ساكني الجنة لما يغلب عليهن من الهوى والميــل إلى عاجل زينة الدنيــا لنقصان عقولهن أن تنفذن بصائرهــا إلى الأخرى، فيضعفن عــن عمــل الآخرة والتأهــب لها، ولميلهن إلى الدنيــا والتزين بها ولها، ثم مــع ذلك هن أقوى أسباب الدنيا التي تصرف الرجال عن الأخرى لما لهم فيهن من الهوى والميل لهن، فأكثرهن

---

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم ، كتاب الإيمان باب نقصان الايمان بنقص الطاعات ٦٦/٢

(٢) المصدر نفسه ،٦٨/٢

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري٤٠٦/١ -٤٠٧

(٤) شــرح صحيــح البخاري لابن بطال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك ٤٢٠/١ ،تحقيق أبو تميم ياسر بن إبراهيم مكتبة الرشد الرياض السعودية،ط ٢، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م

معرضات عن الآخرة بأنفسهن صارفات عنها لغيرهن سريعات الانخداع لداعيهن من المعرضين عن الدين، عسيرات الاستجابة لمن يدعوهن إلى الأخرى وأعمالها من المتقين"١.

من خلال ما سبق يظهر أن المرأة جبلت على النقص وخفة العقل والسفاهة، فرفع العتب عن الرجل و عذر، ولم يلتمس لها العذر فصارت ناقصة دين لأنها لا تقرب الصلاة أيام الحيض امتثالا لأمر ربها. فلماذا تستوي مع الرجل في التكليف والحساب إذن؟

الواجب أن تفهم السنة النبوية على ضوء القرآن الكريم وتستصحب في فهم أحكامه العامة وتوجيهاته وليس اجتزاء أحاديث متفرقة من سياقها العام و فهمها فهما ضيقا، لأنه لا يستقيم أن يصدر هذا الحكم الجاهز على جنس النساء من نبي الرحمة الذي أوتي جوامع الكلم، ومفاتيح البلاغة، وهو الذي أحسن إلى المرأة أوصى بها خيرا كما تدل على ذلك السنة العملية.

إذا رجعنا إلى القرآن الكريم نجد قاعدة عامة في التفاضل يقول تعالى ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ النحل ٩٧، يعلق الإمام الطبري على الآية قائلا "من عمل بطاعة الله، وأوفى بعهود الله إذا عاهد، من ذكر أو أنثى من بني آدم، وهو مؤمن: وهو مصدق بثواب الله الذي وعد أهل طاعته على الطاعة، وبوعيد أهل معصيته على المعصية ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾"٢.

أما الامام ابن عاشور فيقول في تفسيره قوله تعالى﴿ مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى﴾" تبيين للعموم الذي دلت عليه (من) الموصولة، وفي هذا البيان دلالة على أن أحكام الإسلام يستوي فيها الذكور والنساء، عدا ما خصصه الدين بأحد الصنفين، وأكد هذا الوعد كما أكد المبين به".٣

(١) - كتاب الت:ذكرة في أحوال الموتي و الاخرة ابو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي باب ما جاء في أكثر أهل الجنة و أكثر أهل النار.٨١٨/١ ،تحقيق الصادق بن محمد إبراهيم ،مكتبة دارالمنهاج الرياض ط١ ،١٤٢٥

(٢) - جامع البيان عن تأويل آي القرآن محمد بن جرير الطبري.-١٧/٢٨٩ حققه محمود محمد شاكر دار المعارف مصر.

(٣) - التحرير و التنوير ٢٧٣/١٥ .

يتضح من كلام المفسرين أن الآية تساوي بين الذكر والأنثى في جزاء الأعمال شريطة الإيمان، ويتضمن خطاب الآية استعدادا فطريا للمرأة لطلب الكمال الإيماني والترقي في مراتب الدين كما الرجل، فلا ترجح كفة أحدهما إلا بالعمل الصالح.

وفي القرآن الكريم أيضا يتحدث الله تعالى عن بعض صفات الإنسان الطبع البشري فيقول ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ العاديات ٦، يفسرها الإمام ابن عاشور بقوله "والتعريف في الإنسان تعريف الجنس وهو يفيد الاستغراق غالبا، أي أن في طبع الإنسان الكنود لربه أي: كفران نعمته، وهذا عارض يعرض لكل إنسان على تفاوت فيه ولا يسلم منه إلا الأنبياء، وكُمَّل أهل الصلاح، لأنه عارض ينشأ عن إيثار المرء نفسه، وهو أمر في الجبلة لا تدفعه إلا المراقبة النفسية وتذكر حق غيره. وبذلك قد يذهل أو ينسى حق الله، والإنسان يحس بذلك من نفسه في خطراته، ويتوانى أو يغفل عن مقاومته، لأنه يشتغل بإرضاء داعية نفسه، والأنفس متفاوتة في تمكن هذا الخلق منها ، والعزائم متفاوتة في استطاعة مغالبته"[1].

يتضح، إذن، أن كفر النعمة خلق متأصل في الإنسان وطبع متعلق بالنفس البشرية عامة غير مخصوص بالأنثى فقط.

أما استدلالهم على قصور شهادة المرأة في آية الدَّين ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾، فالمقصد من الآية ليس التنقيص من عقل المرأة أو اتهامها لأن الشرع أجاز شهادتها دون الرجل في مواضع عدة، وإنما المقصد كما يقول الإمام ابن عاشور "وجيء في الآية بـ (كان) الناقصة مع التمكن من أن يقال: فإن لم يكن رجلان، لئلا يتوهم منه أن شهادة المرأتين لا تقبل إلا عند تعذر الرجلين كما توهمه قوم، وهو خلاف قول الجمهور، لأن مقصود الشارع التوسعة على المتعاملين، وفيه مرمى آخر وهو تعويدهم بإدخال المرأة في شئون الحياة، إذ كانت في الجاهلية لا تشترك في هذه الشئون فجعل الله المرأتين مقام الرجل الواحد وعلل ذلك بقوله ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾، وهذه حيطة أخرى من تحريف الشهادة، وهي خشية الاشتباه والنسيان لأن المرأة أعف من الرجل بأصل الجبلة بحسب الغالب، والضلال هنا بمعنى النسيان"[2].

(١) - التحرير و التنوير التنوير ٥٠٢/٣١

(٢) المصدر نفسه ١٠٩/٣

وبالرجوع إلى ما ذكر في مناسبة الحديث وقوله صلى الله عليه وسلم (في أَضْحى أَوْ فِطْرٍ) يتضح أن رسول الله عليه الصلاة والسلام كان في المسجد يعلم الصحابيات ويعظهن ويعالج الأخطاء اليومية، خاصة بعدما اشتكى المهاجرون لرسول الله تبدل أحوال نسائهم، كما عبر عن ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه، بقوله "وكنا معشر قريش نغلب النساء، فلما قدمنا على الأنصار إذا قوم تغلبهم نساؤهم. فطفق نساؤنا يأخذن من أدب الأنصار"١.

وفي يوم العيد يخص رسول الله النساء بالموعظة التي جاءت على صيغة تعجب من حال الضعيفة القليلة الخبرة بخصام الناس وشدائد الحياة التي تغلب الأقوياء، تعجب من قدرة الله الذي غَلَّبَ الضعيفات بلباقتهن وحب أزواجهن لهن فيطيعهن، كما يقول الامام العييني عندما سئل " أليس ذلك ذما لهن؟ قلت:لا و إنما هو على معنى التعجب بأنهن مع اتصافهن بهذه الحالة يفعلن بالرجل الحازم كذا و كذا"٢.

الحديث، إذن، كلمة رقيقة وجهها رسول الله إلى النساء، جاءت في صيغة تعجب و انبساط يوم العيد. وهل يُعْقَلُ أن يَغُمَّ نبي الرحمة المرأة و يحزنَها يوم الفرح بالله، وفي مناسبة السرور والبهجة، أو يسيء الظن ببنات آدم اللواتي أكرمهن الله تعالى على يديه، وهو الذي أمر النساء بالخروج ليشهدن معه العيد، كما روي عن أم عطية قالت ((قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :أخرجوا العواتق وذوات الخدور ليشهدن العيد ودعوة المسلمين وليجتنبن الحُيَّض مصلى الناس))٣، فإنما أخرجهن ليبشرهن بالخير ويكرمهن، وليعلم النساء أنهن ركيزة أساسية في التغيير وفي بناء حاضر ومستقبل الامة، وهو ذو القلب الرحيم صاحب الذوق الرفيع عليه أزكى الصلاة و التسليم.إذن ما الغرض من ذكر هذا الحديث ؟

ليس في الحديث حكم قاطع جازم ببوار جنس النساء بالنظر إلى ما أقره القرآن الكريم من مبادئ عامة تعدل بين الرجل و المرأة في العطاء والجزاء، فلو سبق عند الله في حقهن الهلاك فما الجدوى من التربية والتوجيه؟

---

(١) صحيح البخاري كتاب النكاح باب موعظة الرجل ابنته لحال زوجها رقم ٤٨٩٥

(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري بدر الدين العيني ٤٠٢/٣ كتاب الحيض باب ترك الحائض الصوم صححه عبد الله محمد عمر دار الكتب العلمية بيروت ط١ ١٤٢١/٢٠٠١

(٣) – سنن ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في خروج النساء في العيدين رقم ١٣٠٥.

جاء الحديث في سياق تعليمي لأن اجتماع النساء في العيد مناسبة للوعظ عبر التنبيه على بعض العيوب و الطباع المذمومة و التحفيز على البذل و العطاء، و ليس للفضيحة و سوء الظن بالمرأة.

ثالثا : أصل خلق المرأة

أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ((استوصوا بالنساء خيرا فإنهن خلقن من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيرا)) [1].

يُفَسِّرُ ظاهر الحديث مجمل القرآن، حيث قال الله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ الأعراف ١٨٩ ، بَينَّ أن حواء خلقت من ضلع آدم، غير أنّ بعض العلماء فهموا الحديث فهما حرفيا. فالمرأة عوجاء مطلق الاعوجاج في أصل خلقتها وطبعها، والرجل هو الاستقامة. وكأن رسول الله الذي أوتي جوامع الكلم لا يفهم حديثه إلا متحيزا ضد المرأة ومهينا لها وهو الذي أوصى بها وداری وأحسن إليها.

يقول الإمام ابن حجر " المعنى أن النساء خلقن مِنْ أَصْلٍ خُلِقَ مِنْ شيء معوج، وهذا لا يخالف الحديث الماضي من تشبيه المرأة بالضلع، بل يستفاد من هذا نكتة التشبيه، وأنها عوجاء مثله لكون أصلها منه ...قوله (وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه) ذكر ذلك تأكيدا لمعنى الكسر، إشارة إلى أنها خلقت من أعوج أجزاء الضلع مبالغة في إثبات هذه الصفة لهن...وفي الحديث ...سياسة النساء بأخذ العفو منهن والصبر على عوجهن ، وأن من رام تقويمهن فإنه الانتفاع بهن مع أنه لا غنى للإنسان عن امرأة يسكن إليها ويستعين بها على معاشه، فكأنه قال: الاستمتاع بها لا يتم إلا بالصبر عليها" [2]

أما الامام النووي فيرى أن " في هذا الحديث ملاطفة النساء والإحسان إليهن والصبر على عوج أخلاقهن واحتمال ضعف عقولهن، وكراهة طلاقهن بلا سبب وأنه لا يطمع باستقامتها" [3]

---

(١) صحيح البخاري كتاب النكاح باب الوصاة بالنساء رقم ٤٨٩٠ ، مسلم في كتاب النكاح باب الوصية بالنساء.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٢٥٤/٢

(٣) المنهاج شرح صحيح مسلم ،كتاب النكاح باب الوصية بالنساء،٥٧/١٠

و يستنبـط الإمـام ابن العربي منه " فضل الله تعالى الذكر علـى الأنثى من ستة أوجه؛ الأول: أنـه جعل أصلهـا وجعلت فرعه، لأنها خلقت منه، كما ذكر الله تعالى في كتابه. الثاني: أنها خلقت من ضلعه العوجاء"[1]

أما الإمام الشوكانيُّ فيؤكد أن " الفائدةُ في تشبيه المرأة بالضِّلع التنبيهُ على أنَّها معوَّجة الأخلاق، لا تستقيم أبدًا، فمن حاول حملَها على الأخلاق المستقيمة أفسدَها، ومَن تركَها على مـا هـي عليه من الاعوجاج انتفع بها، كما أنَّ الضِّلع المعوج ينكَسـر عندَ إرادة جعلِه مستقيمًا وإزالة اعوجاجه، فإذا تَرَكه الإنسانُ على ما هو عليه انتفعَ به"[2]

وهنـا يحق لنـا أن نتساءل: هل من العدل الإلهي أن يجبل المرأة على الاعوجاج في الطبع والخلق ثم يجعلها متساوية للرجل في التكليف والحساب وأمينة على الفطرة ؟ علما أن عموم القران الكريم كرم الإنسان بحسن الخُلُق والخلقة، امرأة كانت أم رجلا، وفق المبدأ القرآني "لقـد خلقنـا الإنسان في أحسن تقويم"[3].وبهـذه الرؤية القرآنية نفهم سنة رسول الله صلى الله عليه و سلم.

في هـذا الإطـار يقول الإمـام الشنقيطي" شامل لخلق الإنسان حسـا ومعنى، أي شكلا وصـورة وإنسانيـة... والإنسـان وإن كان لفظا مفـردا إلا أنه للجنس بدلالـة قوله: ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا"[4].

ويستفيـد ابن عاشور من الآية " أن الإنسان مفطور على الخير وأن في جبلته جلب النفع والصلاح لنفسه وكراهة ما يظنه باطلا أو هلاكا، ومحبة الخير والحسن من الأفعال"[5]

فالمرأة من المنظور القرآني مفطورة على خصال البر لا على الاعوجاج إذن. ومن التجني

(١) أحكام القران ٣٣٥/١

(٢) نيـل الاوطـار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأبرار" محمد بـن علي بن محمد الشوكاني،٢٤٤/٦ دار الحديث مصر ط١، ١٤١٣/١٩٩٣

(٣) سورة التين الآية ٤

(٤) أضواء البيان في إيضاح القرىن بالقرآن محمد الأمين الشنقيطي٦/٩،دارالفكر بيروت ١٤١٥/١٩٩٥

(٥) التحريرو التنوير ٤٢٢/٣١

على اللغة بلاغتها، و مقاصد الشرع وطبيعة المرأة أن يفهم الاعوجاج في الحديث سوء و خسة في المـرأة، ونقمـة وبلية على الرجـل تحملها. فهم لا يستقيم مع الرؤيـة القرآنية و لا مع سنة رسول الله العملية.

جملة القول في الحديث أن " الاعوجاج في الضلع كناية عن الاختلاف بين الرجل والمرأة في التركيبـة النفسيـة ...إن اختلاف نفسية المرأة وغلبة العاطفـة عليها إن غلب على الرجل المنطق العقلي مزية وتكامل، لا يصح أن نُنَقصها لمكان تركيبتها النفسية إلا لو صح أن نلومها علـى اختلاف تركيبها الجسمي. اعوجاجها الضلعي هو استقامتها، هو انحناء معنوي وحنو، هو عاطفة ورحمة"١.

الحديـث وصاة نبوية ومداراة مقصده الرفق بالمرأة وحسـن معاملتها تحقيقا للتساكن الذي أراده الله تعالى أن يعمَّ كما في قوله تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ الروم ٢١.

رابعا :التحذير من فتنة النساء

روى الإمـام مسلـم في صحيحه عـن أسامة بن زيد قال: قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم ((ما تركت بعدي فتنة هي أضر على الرجال من النساء))٢

كثـيرا مـا يستشهد الناس – الفقهاء منهم و العوام –بهـذا الحديث للتنقيص من قدر المرأة، فماذا تعني الفتنة؟

جـاء في مقاييـس اللغـة "فتن الفاء والتاء والنون أصل صحيح يـدل على ابتلاء واختبار ومـن ذلـك الفتنـة ... وفتنت الذهـب بالنار، إذا امتحنتـه .."٣.و هو مـا يتطابق مع المعنى القـرآني للكلمة، فالفتنة شدة ومصائب من فعـل الله تعالى المقضي المقدر، ومن فعل الناس

(١) تنوير المومنات عبد السلام ياسين ٢/١٩٦ط ١ ،١٩٩٦ مطبوعات الافق الدار البيضاء

(٢) صحيـح مسلـم كتاب الرقاق باب أكثر أهل الجنة الفقـراء و أكثر أهل النار، رقم٢٧٤٠ ،صحيح البخاري كتاب النكاح باب ما يتقى من شؤم المرأةح ٤٨٠٨ الترمذي كتاب الادب باب ما جاء في تحذير فتنة النساء

(٣) معجم مقاييس اللغة احمد بن فارس بن زكرياء مادة فتن ٤/٤٧٢

يصيبهم بأس الله تعالى ويظهر بينهم الفساد بما كسبت أيديهم. الفتنة اختبار له معنى وهي أنواع مختلفة حذر منها القران الكريم ونبه عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما سمي بأحاديث الفتن في تصنيفات المحدثين. يفتن الإنسان ذكرا أو أنثى بالمال وحب الشهوات و قسوة القلب ...كما تنزل الفتن التاريخية على ميعاد بين قدر الله وانحطاط العباد كما جاء في حديث أبي هريرة ((بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم))١، أشدها فتكا بأمة الإسلام اقتتال المسلمين فيما بينهم والتكالب على السلطة.

فما موقع فتنة النساء الواردة في الحديث من الفتن الأخرى؟

يرى الحافظ ابن حجر أن " الفتنة بالنساء أشد من الفتنة بغيرهن، ويشهد له قوله تعالى ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ﴾ آل عمران ١٥، فجعلهن من حب الشهوات، وبدأ بهن قبل بقية الأنواع إشارة إلى أنهن الأصل في ذلك... وقد قال بعض الحكماء : النساء شر كلهن وأشر ما فيهن عدم الاستغناء عنهن"٢

و يعلل المباركفوري قول رسول الله ((أضر على الرجال من النساء)) لأن الطباع كثيرا تميل إليهن، وتقع في الحرام لأجلهن، وتسعى للقتال والعداوة بسببهن، وأقل ذلك أن ترغبه في الدنيا، وأي فساد أضر من هذا؟٣.

يبدو أن المرأة أصل كل الفتن وأم كل البلايا التي تقع للرجل كما يستنتج الامام القرطبي مفسرا لقوله تعالى﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ﴾ "ففتنة النساء أشد من جميع الأشياء. ويقال: في النساء فتنتان ...فإحداهما أن تؤدي إلى قطع الرحم، لأن المرأة تأمر زوجها بقطعه عن الأمهات والأخوات، والثانية يبتلى بجمع المال من الحلال والحرام وذلك لينال رضاهن . . وروى عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((لا تسكنوا نساءكم الغرف ولا تعلموهن الكتاب)) . حذرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن في إسكانهن الغرف تطلعا إلى الرجال، وليس في ذلك تحصين لهن ولا ستر، لأنهن قد

---

(١) صحيح مسلم كتاب الإيمان باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل ظهور الفتن رقم١١٨

(٢) فتح الباري كتاب النكاح باب ما يتقى من شؤم المرأة ١٣٩/٩

(٣) تحفة الاحوذي عبد الرحمان المباركفوري ٥٣/٨ دار الكتب العلمية بيروت

يشرفـن علـى الرجال فتحـدث الفتنة والبـلاء... وفي تعلمهن الكتاب هـذا المعنى من الفتنة وأشد"١.

وهـل يعقـل أن تُتَّهم المرأة في كتاب الله تعالى؟ مع العلـم أن ميل الرجل إليها وتعلقه بها جعله الله تعالى مركوزا في الفطرة، والمقصد منه هو استمرار الإنسان كما يقول الامام ابن عاشـور "وضعه الله تعالى (أي الميل) لحكمة بقاء النـوع بداعي طلب التناسل، إذ المرأة هي موضـع التناسل، فجعل ميـل الرجل إليها في الطبع حتى لا يحتاج بقـاء النوع إلى تكلف ربما تعقبه سآمة"٢.

هـذا أول الأمر وثانيهما أن الفتنة لا تمنع بحبس المرأة وتواريها عن الانظار، إذ ليس في سنـة رسـول الله ما يدعو إلى سجن المرأة و تجهيلهـا لأن حديث ابن مسعود موضوع كما قال الإمام الألباني٣.

اعتمادًا على ما سبق نستنتج أن:

مـرام الحديث ومقصده التحذير من فتنة انحطاط تقع نتيجـة تغييب المرأة وتهميشها وتعطيلها عن أداء مهمتها حافظة في بيتها وفي مجتمعها.

فتنة النساء هي تجهيل المرأة لأن مكانة النساء في المجتمع ودرجتهن في التقوى ودركتهن في الانحطاط ،معيار لنهوض الأمة وسقوطها .فالمرأة إذا جهلت واستضعفت ركنت إلى الدنيا تمكر وتكيد لا شغل لها من أمر حاضر ومستقبل أمتها.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٨/٤-٢٩

(٢) التحرير و التنوير٣/١٧٩

(٣) سلسلـة الأحاديـث الضعيفـة و الموضوعـة محمـد ناصرالديـن الألبـاني ٣٠/٥ مكتـب المعـارف الرياض ط١، ١٩٩٢/١٤١٢

خاتمة

هـذه محاولة لإبـراز وظيفة المرأة المسلمة كمـا شرعها القرآن الكـريم وترجمها رسول الله صلـى الله عليه وسلم واقعا حيا لنفض غبار التقليـد ومسخ التغريب عن نساء الإسلام، فقادتني الدراسة إلى مجموعة من الخلاصات والنتائج أجمل الحديث عنها فيما يلي:

- تكامـل وظائف المرأة والرجـل وانسجام مسؤولياتهما "القوامـة والحافظية" مطلب شرعـي يجـب تحقيقه لنتخلص مـن الصراعـات ودعاوى النديـة الجوفاء التـي تتغنى بها المتحررات المغربات حبيسات الثقافة المادية العقلانية.
- ضـرورة فهـم نصوص السنة النبويـة وفق الرؤيـة القرآنية وباستحضـار مقاصد الشريعة بعيدا عن سوء التأويل وضيق الفهم.

ضـرورة التحرر من ذهنية التشدد والتضييق على المـرأة وسوء الظن بها واتهامها، لأن الرفق هو المنهاج الصالح للتغيير والإصلاح.

نبـذ التقليد ومساءلة فقه منحسر منحبس أهمل المـرأة وألجمها وأثقل كاهلها بموروث يعرقلهـا عن ممارسة حافظيتها كاملة، وشجع الرجل على التسلط وغمط الحق والتعسف في استعمال الدرجة والقوامة.

وفي الختـام أرجـو إيلاء قضية المـرأة المسلمـة اهتماما خاصا ينسجم مـع مكانتها في المجتمع الإسلامي وكثرة التحديات التي تواجهها، وذلك عبر الآتي:

محاولـة التجديد في قضية المرأة باجتهاد يبصر الأمـور في شمولها، ويستنبط الأحكام مـن أصولهـا، ويتتلمذ مباشرة للنموذج الصحابي، وبفقه يستفيـد من ذخائر أئمتنا دون أن يقف عندها وينحبس في أفقها.

الحرص على معالجة قضية المرأة في إطارها الشامل لا تنفصل عن الشأن العام، وتجنب اختزال قضيتها في نزاع حقوقي وصراع صرف مع الرجل.

رحـم الله تعـالى أئمة التفسير و علمـاء السنة و تقبلهـم في الصالحين والحمد لله رب العالمين.

ثبت المصادر والمراجع

١. أحكام القرآن، القاضي محمد بن عبد الله بن العربي الإشبيلي المالكي، راجعه محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت ط٣، ٢٠٠٣.

٢. أضـواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، دارالفكر، بيروت،١٩٩٥.

٣. إكمـال المعلم بفوائد مسلم، كتاب فضائـل الصحابة، باب فضل خديجة أم المؤمنين، تحقيق يحيى إسماعيل، دار الوفاء، ط ١، ١٤٠٩.

٤. التحرير و التنوير، الطاهر بن عاشور، دار سحنون،

٥. تحفة الأحوذي، محمد بن عبد الرحمان المباركفوري، دار الكتب العلمية.

٦. تفسيرالقـرآن العظيـم أبـو الفداء إسماعيل بـن عمر بن كثير ،حققـه محمد حسين شمس الدين دار الكتب العلمية بيروت ط ١٤١٩،١.

٧. تنوير المومنات، عبد السلام ياسين، مطبوعات الافق الدار البيضاء،١٩٩٦.

٨. التنوير شرح الجامع الصغير الصنعاني ،دار السلام الرياض ٢٠١١.

٩. جامـع البيان عـن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطـبري، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المعارف مصر.

١٠. الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري القرطبي، تحقيق أحمدالبردوني و إبراهيم أطفيش، ط ١٩٦٤،٢.

١١. سلسلة الأحاديث الضعيفة و الموضوعة محمد ناصرالدين الألباني.

١٢. سنن ابن ماجه.

١٣. سنن الترمذي، كتاب المناقب، باب فضل خديجة.

١٤. شـرح صحيـح البخاري، ابن بطال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك، تحقيق أبو

تميم ياسر بن إبراهيم مكتبة الرشد الرياض السعودية، ط ٢ ،١٤٢٣ه.

١٥. صحيح البخاري.

١٦. صحيح مسلم.

١٧. عمدة القاري: شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني، صححه عبد الله محمد عمر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠١.

١٨. فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، صححه محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩ه.

١٩. كتاب التذكرة في أحوال الموتى والآخرة، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، باب ما جاء في أكثر أهل الجنة وأكثر أهل النار، تحقيق الصادق بن محمد إبراهيم، مكتبة دار المنهاج، الرياض ط١ ،١٤٢٥.

٢٠. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو الزمخشري، دار الكتاب العربي بيروت ط ٣،١٤٠٧.

٢١. لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، ٢٠٠٣.

٢٢. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمان بن عطية الأندلسي، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١٤٢٢،١.

٢٣. معجم مقاييس اللغة أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، حققه عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٩٧٩.

٢٤. معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، حققه عبد السلام محمد هارون، دار الفكر ١٩٧٩.

٢٥. المنهاج: شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكرياء محيي الدين بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي بيروت ط ٢ ، ١٣٩٢ه.

٢٦. نيل الاوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأبرار، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار الحديث مصر ط١، ١٩٩٣.

د. نبيل بن محمد مرعي سعيد

- الجنسية: يمني.
- الحالة الاجتماعية: متزوج.
- محل وتاريخ الميلاد: اليمن، محافظة إب، ١٩٨١م.
- رقم الجوال: ٠٠٩٦٦٥٥٩١٩٠٢٨٠
- إيميل: nabiel-2009@hotmail.com

ثانياً: المؤهلات العلمية:

١. أستاذ مساعد في جامعة الملك خالد – قسم القرآن الكريم وعلومه.

٢. حاصل على درجة الدكتوراه في التفسير وعلوم القرآن الكريم بتقدير (ممتاز) من جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية في السودان بتاريخ ٢٩/٠٢/ ٢٠١٦م.

٣. حاصل على درجة الماجستير في التفسير وعلوم القرآن الكريم بتقدير (ممتاز) من جامعة أم درمان الإسلامية في السودان بتاريخ ٦/٨/ ٢٠١٣م.

٤. حاصل على تمهيد الماجستير بتقدير (ممتاز) من جامعة أم درمان الإسلامية في العام الدراسي ٢٠١٠م –٢٠١١م.

٥. حاصل على درجة البكالوريوس في التفسير وعلوم القرآن الكريم بتقدير (جيد جداً) من جامعة العلوم والتكنولوجيا، في اليمن- صنعاء عام ٢٠٠٩م.

٦. حاصل على إجازة برواية حفص عن عاصم من طريق الشاطبية.

٧. حاصل على شهادة تدريب في (ويندوز إكس بي، وورد إكس بي، وإكسل) من جامعة العلوم والتكنولوجيا بتقدير ممتاز في ٢٠٠٦م.

٨. حاصل على شهادة المدرب المعتمد TOT من جامعة الخرطوم في ٢٠١٦/١/٣م.

٩. باحث دكتوراه في الإعلام الإسلامي في معهد بحوث ودراسات العالم الإسلامي، جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان بعنوان: (الأساليب الإعلامية في القرآن الكريم والسنة النبوية وأثرها على وحدة المسلمين، دراسة تطبيقية على وسائل الإعلام الشفهية: الخطبة- المحاضرة- الندوة – الخاطرة).

ثالثاً: الخبرات العلمية:

خبرة في الإعداد للمؤتمرات والندوات العامة، وخبرة في التعامل مع الحاسب الآلي، وخبرة في الإدارة والسكرتارية، وخبرة في المحاسبة المالية والقانونية، وخبرة في كتابة تقارير ختامية للمشاريع.

رابعاً: الدورات:

تسع دورات تأهيلية في طرق تدريس القرآن الكريم وعلومه، وأربع دورات علمية في المجال التربوي، ودورة في فنون التعامل مع المراهقين، ودورة في فنون التعامل مع المجتمع، ودورة في الجودة في عرض التجويد، ودورة في دروس تطبيقية من التجويد، ودورة في تنظيم المعلومات بالخرائط الذهنية، ودورة في العام الدراسي دراسة وتقويم، ودورة في مهارات اكتشاف ورعاية الطلاب المتميزين.

خامساً: المهارات العلمية:

مهارة التوجيه التربوي، ومهارة الخطابة والإلقاء، ومهارة الحوار والإقناع، ومهارة الخط والرسم، ومهارة الرياضة البدنية.

أثر اتباع خطوات الشيطان على المشكلات الأسرية وعلاجها في ضوء القرآن الكريم
(جمعا ودراسة)

د. نبيل بن محمد مرعي سعيد

المقدمة :

الحمـدلله المبتـدئ بحمد نفسه قبـل أن يحمده حامد، وأشهـد أن لا إله إلا الله وحده لا شريـك لـه الرب الصمد الواحد، وأشهد أن محمد عبده ورسولـه، وصفيه من خلقه وخليله، صلى الله عليه وسلم وبعد:

فقـد اقتضت حكمة الله بأن جعل الإنسان يواجه عدواً مدى حياته، وحتى قيام الساعة، وهـذه العداوة أعلنها الله في كتابه، وحذر آدم وذريته منه، وأمرهم باتخاذه عدوًا، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ (١)، هذه العداوة لا يرجى زوالها، ولا يؤمل في انقطاعها بصدق وعد الله لإبليس في قوله: ﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ (٢).

هـذا العدو يسعى بشتـى وسائله إلى خراب الأسرة ودمارهـا، وصناعة المشكلات فيها، وتفكيكهـا، كمـا جاء في حديث أبي موسى الاشعري قال: إذا أصبح إبليس بث جنوده، فيقول: مـن أضل اليوم مسلمـا ألبسته التاج، قال: فيخرج هذا فيقـول: لم أزل به حتى طلق امرأته، فيقـول: أوشـك أن يتزوج. و يجيء هذا فيقول: لم أزل به حتى عـق والديه، فيقول: يوشك أن يبرهمـا. و يجيء هذا فيقول: لم أزل به حتى أشـرك، فيقول: أنت أنت ! و يجيء هذا فيقول: لم أزل بـه حتـى قتل، فيقـول: أنت أنت، و يلبسه التاج" (٣). ومـا نشهده اليوم من خلافات ومشـاكل أسريـة هي بسبب نزغات هـذا العدو، بل جميع المشـكلات المعاصرة لا شك أن من وراءها هذا العدو ، وفي صحيح مسلم من حديث جابر رضي الله عنه قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: إن الشيطان يحضر أحدكم عند كل شيء من شأنه(٤). وهذا ما أعلنه

(١) - سورة فاطر: ٦

(٢) - سورة الأعراف: ١٤-١٥

(٣) - أخرجـه ابـن حبان، باب بدأ الخلـق ١٤/ ٦٨، برقم ٦١٨٩، وصححه الألباني في صحيـح الترغيب والترهيب ٣١٧/٢، برقم ٢٤٤٩.

(٤) - أخرجـه مسلـم، باب استحباب لعق الأصابع والقصعة وأكل اللقمـة الساقطة بعد مسح ما يصيبها من أذى، ٣/ ١٦٠٧، برقم ٢٠٣٣

عـن أساليبـه : ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (١).

لقـد فصّل اللّه في كتابه خطـوات هذا العدو وكيفية مواجهتها، ﴿مَّـا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِـن شَيْءٍ﴾ (٢) ومن هذا المنطلق جاءت هذه الدراسة لبيان خطورة هذه العداوة ، وتفصيل خطـوات هذا العدو وأساليبـه ، ووسائل التحصين منه، لنتمكن من مواجهته في ضوء القرآن الكريم.

أهمية البحث:

تظهر أهمية الموضوع من خلال ارتباطه المباشر بكلام اللّه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

كمـا تكمـن أهمية هـذا الموضوع في بيـان خطوات الشيطـان وأثر اتباعها علـى الأسرة والمجتمـع في الماضـي والحاضر والمستقبـل، ولا يمكن الانتصـار إلا بعـد إدراك حقيقة هذا الخطر، وطبيعة الصراع مع هذا العدو والكشف عن أساليبه، وكيفية مواجهتها.

أهداف الدراسة:

١. بيان منهج القرآن الكريم في تفصيل خطوات الشيطان والتحذير من اتباعها.
٢. أثـر اتبـاع هـذه الخطـوات على مشـكلات الأسـرة كالقتـل والجرائـم الأخلاقية ومشكلات الطلاق.
٣. تبصير القارئ بوسائل التحصين من هذا العدو بحيث يتسنى له مواجهة خطواته، وصدها.

منهج البحث:

استخدمت في هذا البحث المنهج الاستقرائي الاستنباطي، وذلك باستقراء الآيات التي تحدثـت عـن الشيطان، ثم استنتاج الخطـوات وأثرها على مشـكلات الأسرة، وعلاجها من

(١) - سورة الأعراف: ١٦-١٧
(٢) - سورة الأنعام: ٣٨

خـلال تلك الآيات. وتشتمل الدراسة على التمهيد وفيه التعريف بالأثر والخطوات والشيطان والمشكلـة والأسـرة، ومبحثين، المبحث الأول: خطوات الشيطان كمـا يصورها القرآن وأثرها علـى الأسـرة، وفيه مطلبان: المطلـب الأول: خطـوات الشيطان في القـرآن الكريم. والمطلب الثاني: أثر خطوات الشيطان على الأسرة. والمبحث الثاني: وسائل القرآن الكريم في تحصين الأسرة من الشيطان، وفيه ستة مطالب. المطلب الأول: المحافظة على الذكر الوارد في القرآن الكريم. والمطلب الثاني: الإخلاص. والمطلب الثالث: التوبة. والمطلب الرابع: التسلح بالمفاهيم الإيجابيـة والقرآنيـة. والمطلـب الخامس: القول الحسـن. والمطلب السادسـ: علاج السحر بالرقية الشرعية. والخاتمـة، وفيها أهم النتائج والتوصيات، ثم فهرس الموضوعات، وقائمة بثبت مصادر مراجع البحث. ولقد حرصت على المشاركة به في المؤتمر الدولي الأول لتوظيف الدراسات القرآنية في علاج المشكلات المعاصرة، التي تنظمه جامعة الملك خالد بأبها ممثلة بكليـة الشريعة وأصـول الدين، شاكرين لهـم جهودهم لخدمة كتاب الله جـل وعلا، وإثراء الدراسات القرآنية بهذا المؤتمر المبارك.

التمهيد:

ويشتمل على التعريف بمصطلحات البحث (الأثر والخطوات والشيطان والمشكلة والأسرة).

تعريف الأثر: عرفه الخليل فقال: الأَثر: بقية ما ترى من كل شيء...وذهبت في إثرِ فلانٍ أي: استقَفيتُهُ (١)، وقال ابن منظور: الأثر: ما بقي من رسم الشيء(٢)، وقال الجرجاني: الأثر بمعنى: النتيجة، وهو الحاصل من الشيء(٣)، قلت والأثر هو العلامة على وجود شيء ما.

تعريف الخطوات: الخُطْوة بالضم ما بين القدمين والجمع خُطىً وخُطْوات وخُطُوات... وفي حديث الجمعة: رأَى رجلاً يَتَخَطَّى رِقاب الناس أَي يَخْطُو خَطْوة خَطْوة(٤). وفي الحديث: وكَثْرة الخُطَى إِلى المَسْاجِد(٥). وعرفها ابن عاشور: والخطوة- بضم الخاء-: اسم لنقل الماشي إحدى قدميه التي كانت متأخرة عن القدم الأخرى ، وجعلها متقدمة عليها(٦).

تعريف الشيطان: من شَطَنَ عنه بَعُدَ وأَشْطَنَه أَبعده، ... الشاطِنُ البعيد عن الحق(٧)، فهو بعيد عن كل خير. قال ابن قتيبة: وقد قرأ (لا تشطط) بضم التاء وكسر الطاء ، فمعناه لا تبعد عن الحق(٨). وعرفه ابن جرير فقال: والشيطان، في كلام العرب: كل متمرِّد من الجن والإنس والدوابِّ وكل شيء. وكذلك قال ربّنا جل ثناؤه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا

(١) - العين ٢٣٦/٨
(٢) - انظر: لسان العرب ٥٢/١
(٣) - التعريفات ٩/١
(٤) - انظر: لسان العرب ٥/ ١٠٧ وتهذيب اللغة ٢٠٦/٧
(٥) - أخرجه ابن ماجه في السنن، باب: المشي إلى الصلاة ٢٥٥/١ رقم ٧٧٦
(٦) - التحرير والتنوير: ١٨٧/١٨
(٧) - لسان العرب ٨/ ٨١
(٨) - تهذيب اللغة ٩/ ٤

شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴾(١)، فجعل من الإنس شياطينَ، مثلَ الذي جعل من الجنّ(٢). قلت والمقصود بالشيطان في هذا البحث هو تلك الحقيقة الغيبية التي أخبر الله عنها في كتابه، بأنه يرانا ولا نراه، خلقه الله من نار، ورفض أن يسجد لآدم لما أمره؛ فأبعده من رحمته.

تعريف المشكلة: أشكل الأمر: التبس.(٣)، ومنه قيل للأمر المشتبه مشكل. وأشكل علي الأمر إذا اختلط، وأشكلت علي الأخبار وأحكلت بمعنى واحد(٤). وعرفه الجرجاني: المشكل: هو ما لا ينال المراد منه إلا بتأمل بعد الطلب(٥). قلت والمشكل هو ما لا يفهم حتى يتم الفصل فيه بالدليل.

تعريف الأسرة: عشيرة الرجل وأهل بيته (٦). وعرفها الأزهري وابن منظور بأنها: الدرع الحصينة(٧)، وقيل هي: الدرع الحصينة وأهل الرجل وعشيرته والجماعة يربطها أمر مشترك (أسر) (٨) . قلت والأسرة هي التي تشتمل على الأقربين الأدنون من القبيلة بصفة عامة، والآباء والأبناء بصفة خاصة الذين يحتمي بهم الإنسان داخل المجتمع عند الحاجة. ولم يرد لفظ الأسرة في القرآن إلا بألفاظ أخرى عبرت عنها كالأهل والآل والعشيرة والفصيلة.

(١) - سورة الأنعام: ١١٢

(٢) - جامع البيان ١/١١١

(٣) - لسان العرب ٨/١١٩ ومختار الصحاح ١/١٦٨ والقاموس المحيط ١/١٠١٩

(٤) - لسان العرب ٨/١١٩

(٥) - التعريفات ١/ ٢١٥

(٦) - لسان العرب ١/١٠٤

(٧) - تهذيب اللغة ١٣/٤٣ ولسان العرب ١/١٠٤

(٨) - المعجم الوسيط ١/١٧.

المبحث الأول

خطوات الشيطان كما يصورها القرآن وأثرها على الأسرة، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: خطوات الشيطان في القرآن الكريم.

توطئة:

إن علاقة الإنسان بالشيطان علاقة عداء وبغضاء، وبيّن الله هذه العلاقة لأبينا آدم قبل أن يدخله الجنة، ثم بيّنها له للمرة الثانية وهو في الجنة، ثم أكد عليها للمرة الثالثة بعد أن أخرجه من الجنة، فقال الله له في المرة الأولى قبل أن يدخل الجنة: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ (١) وفي المرة الثانية قال الله معاتباً أبانا آدم عن استجابته لدعوة هذا العدو: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (٢)، وفي المرة الثالثة أعلنها الله بعد خروجه من الجنة وهبوطه إلى الأرض فقال: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ (٣)، ولقد ذكر الله جل وعلا في كتابه تفاصيل هذه العداوة ودقائقها، وبيّن أن العداوة تدور وفق خطوات ومراحل عدة فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ (٤)، وقوله عز وجل: ﴿لا تَتَّبِعوا خُطُوات الشيطانِ﴾ قيل: هي طُرُقه، أي لا تَسْلُكوا الطرق التي يدعوكم إليها(٥).

---

(١) - سورة طه: ١١٨-١١٩

(٢) - سورة الأعراف : ٢٢

(٣) - سورة البقرة: ٣٦

(٤) - سورة النور: ٢١

(٥) - لسان العرب ٥/ ١٠٧

وإليك أخي القارئ الكريم هذه الخطوات كما يصورها القرآن الكريم بالتفصيل(١):

الخطوة الأولى : النزغ

معنى النزغ: النَّزْغُ شبه الوَخْز والطعْن ونَزَغَه بكلمة نَزْغاً نخَسَه وطَعَن فيه(٢). ولقد ذكر الله النزغ في أكثر من موضع فقال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾(٣). وقال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ

---

(١) - قد تتساءل أخي القارئ عن سبب ترتيب الخطوات بهذه الكيفية، وهل قال بها أحد من قبل؟ وهل يمكن أن نقدم خطوة على أخرى أو نجمع خطوتين في خطوة واحدة؟ والجواب على هذه التساؤلات بما يأتي:

أولاً: ترتيب الخطوات بهذه الطريقة اجتهادي، وذلك بالنظر إلى معاني الكلمات الواردة في الآية التي تحدثت عن الشيطان وعمله، ولهذا جعلنا النزغ الخطوة الأولى قبل الوسوسة؛ لأن النزغ معناه الوخز والطعن، بينما الوسوسة حديث نفس، وبلا شك أن سرعة الطعن أقل زمناً من حديث النفس، فالطعن في لحظة أو ثانية، تقدر بسرعة النظرة، بينما حديث النفس قد يستغرق دقائق أو ساعات أو أيام، والقرينة الأخرى تكمن في أن حديث النفس لابد له من سبب ودافع، وسببه هنا النزغ، وسيتضح لك هذا من خلال قراءتك الخطوات جيداً، كما أننا جعلنا المس الخطوة الثالثة بعد الوسوسة، وذلك لوجود فرق في المدة الزمنية، وهذا الفرق يكمن في وجود انفعال مصاحب لحديث النفس، هذا الانفعال هو نتيجة جريان الشيطان في دمه، ومسه ملكاته من الداخل، إذ لا يقع الإنسان في الغضب والانفعال إلا بعد تفكير عميق — الوسوسة- فمن هذا القبيل جعلناها متأخرة، وكذلك الحال في الخطوة الرابعة الافتان، ففي النظر إلى معناه وتطبيقه على واقع أي مشكلة، ستجد أن الإعجاب في الشهوات لا يأتي بدون مقدمات، ومقدماته النظرة ثم حديث النفس، ثم مع حديث النفس التأوه — المس-، وذكرنا تفصيلها في أثر خطوات الشيطان على مشكلات الأسرة، بينما الخطوة الخامسة الاستحواذ، فهي بلا شك مرحلة نهائية وتعني انتصار وتغلب الشيطان عليه، وهذه الغلبة لا تكون إلا بعد أن تنقل به الشيطان من خطوة إلى خطوة أخرى حتى أنساه ذكر الله فوقع في الزلل، والخطوات الأخيرة من الهوى حتى الولاية مرتبة حسب النظر والبحث في المعاني كذلك كما سبق معنا في الخطوات الخمس الأولى، وخطوة الوحي والتنزيل جعلناها آخر شيء، وذلك انطلاقاً من قوله تعالى: (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم) فبعد تحقق الولاية أوحى إليه الشيطان.

ثانياً: قد يقول قائل هل من الممكن أن تتداخل هذه الخطوات مع بعضها أو نقدم خطوة على أخرى، والذي يظهر لي من خلال البحث أن خطوات الشيطان مرتبة وممنهجة، إذ من المستحيل أن يقع الإنسان في الإعجاب بامرأة من غير أن يراها ابتداءً ثم يفكر بها، أو يقع الإنسان في مصيبة قتل دون مقدمات لهذه المصيبة بدايتها من المهاترات الكلامية سواء كانت بقصد أو بغير قصد، ولعلك أخي القارئ بعد قراءتك لهذا البحث والتركيز في مفاهيمه ستجد الكثير على التساؤلات التي تخطر ببالك، وستكتشف أنك أمام عدو يدير معك معركة لحظية، لا يرجى فيها توقف أو هدنة أو مصالحة.

(٢) - لسان العرب ١٤/٢٣٥ والصحاح في اللغة ٤/١٣٢٧

(٣) - سورة فصلت: ٣٦

بـالله إنَّهُ سَميعٌ عَليمٌ﴾ (١)، وقال تعالى: ﴿وَقُل لِّعبَادي يَقُولُوا الَتي هيَ أَحْسَنُ إنَّ الشيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ للإنسَان عَدُواً مُّبيناً﴾ (٢)، وقال تعالى على لسان يوسف عليه السـلام: ﴿مـنْ بَعْد أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْني وبَيْنَ إخْوَتي إنَّ رَبِّـي لَطيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إنَّهُ هُوَ العَليمُ الحَكيـمُ﴾(٣). قـال الألوسي: النزغ والنسـغ والنخس بمعنى، وهو إدخـال الإبرة أو طرف العصـا أو مـا يشبه ذلـك في الجلد(٤). وقال ابـن عاشور: وإطلاق النزغ هنـا على وسوسة الشيطان استعارة: شبه حدوث الوسوسة الشيطانية في النفس بنزغ الإبرة ونحوها في الجسم بجامع التأثير الخفي(٥).

قلت ويتضح مما سبق أن النزغ عبارة عن غرس المعلومة بسرعة الطعنة وتقدر سرعتها خـلال لحظة – أقل من ثانية– أو ثانية، وأنت تحس بها وتدركها؛ فإذا قبلها الإنسان تصبح حديث نفس، وهي عبارة عن عدة كلمات مبنية بعضها على بعض، وتلك الخطوة الثانية!

الخطوة الثانية: الوسوسة:

معنى الوسوسة: الوَسْوَسَة والوَسْواس الصوت الخفي ... والوِسْواس حديث النفس(٦)، قـال أبوعبيـدة: والوَسْوَسَـة: مـا جـاء في التنزيل، وهـو ما يلقيـه الشيطـانُ في القلب(٧). والوسوسـة ذُكرت في أكثر من موضع فقال جل جلاله: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْديَ لَهُمَا مَـا وُوريَ عَنْهُمَا منْ سَوْءَاتهمَـا﴾(٨). وقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ برَبِّ النَّاس (١) مَلك النَّاس (٢) إلَـه النَّاسـ (٣) من شَرِّ الْوَسْوَاسـ الْخَنَّاس (٤) الَّذي يُوَسْوِسُـ في صُدُور النَّاس (٥) مـنَ الْجنَّة وَ النَّاسـ (٦)﴾(٩). قال السمعاني: الوسوسة: حَديث يلقيـه الشَّيْطَان في قلب

(١) – سورة الأعراف: ٢٠٠
(٢) – سورة الإسراء : ٥٣
(٣) – سورة يوسف : ١٠٠
(٤) – روح المعاني ٥٤٨/٩
(٥) – التحرير والتنوير ٢٢٩/٩
(٦) – لسان العرب ٢٠٧/١٥
(٧) – جمهرة اللغة ٢٠٥/١
(٨) – سورة الأعراف: ٢٠
(٩) – سورة الناس ١–٦

الْإِنْسَـان(١)، وبه قال البغوي(٢). وقـال القرطبي: والوسوسة: الصوت الخفي، والوسوسة: حديـث النفس(٣)، وهو قول الزمخشري(٤) والبيضـاوي(٥) والشوكاني(٦). وقال سعيد حوى: والوسوسة الكلام الخفي المكرر الملقى بغير اتئاد أى بعجلة(٧).

قلـت والوسوسـة: هي عبارة عن نمـو للنزغة حتى تصبح حديث نفسـ دون أي انفعال، ولشـدة خطر الوسوسة فقد أفرد الله فيها سورة كاملة، وسماها سورة الناس، واستعاذ منها بالربوبيـة والألوهيـة والأسماء والصفات، بينما شرور كافة المخلوقـات استعاذ منها بتوحيد الربوبية فقط فقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ (٢)﴾(٨) أي من شر جميع مـا خلق الله. والوسوسة هي المقدمـة الرئيسة لئن يتغلب عليك الشيطان، فإذا لم تدفع هذه الوسوسة بالاستعاذة فإنها ستنمو حتى تصل إلى المس، وهذه الخطوة الثالثة !

الخطوة الثالثة : المس.

معنـى المس: مَسكَ الشـيء بيَدِكَ، ثم استعـير للأخذ والضرب لأنهمـا باليد، واستعير للجمـاع لأنه لمس،... وقوله تعـالى: ﴿ولم يمسسني بشر﴾(٩). وقـال الزبيدي: والصواب: تناولته الأيدي، فهو على هذا في معنى مفعول، كأنه (مس حين تنوول باليد)(١٠).

ذكـر الله المسـ في كتابه في أكثر من آية فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ﴾(١١).

---

(١) – تفسيره ٢/١٧٠
(٢) – معالم التنزيل: ٤/٧٢٧
(٣) – الجامع لأحكام القرآن ٢٢/٥٨٠
(٤) – الكشاف ٤/٦٢٦
(٥) – تفسيره ٣/٨
(٦) – فتح القدير ٥/٧٠٧
(٧) – الأساس في التفسير ٤/١٨٦٩
(٨) – سورة الفلق : ١–٢
(٩) – لسان العرب١٤/٧٢ وتهذيب اللغة ١٢/٢٢٦
(١٠) – تاج العروس ١٦/٥٠٦
(١١) – سورة الأعراف : ٢٠١

وقـال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّـوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ (١)، قـال أبوحيان: النزغ من الشيطان أخف من مس الطائف من الشيطان لأن النزغ أدنى حركة والمس الإصابة، والطائف ما يطوف ويدور عليه، فهو أبلغ لا محالة(٢)، وقال سعيد حوى: أي لمسـة(٣). قال ابن عاشور: والمس: حقيقته وضع اليـد على جسم لاختبار ملمسه، وقد يطلق على الإصابة مجازًا مرسلا (٤).

قلت والمس هو عبارة عن حديث نفس يصاحبه انفعال، فتنتفخ الأوداج، ويبدأ بالهيجان، والهذيـان! هذا الانفعـال ناتج عن مس الشيطـان لملكاته الداخلية فانفعـل على ضوء ذلك، كمـا جاء في الحديث: (إن الشيطان يجـري من ابن آدم مبلغ الدم وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما) (٥). فإذا لم يدفع هذا المس بذكر الله والاستعاذة من الشيطان فينتقل إلى الإفتان وهذه هي الخطوة الرابعة!

الخطوة الرابعة: الإفتان

الإفتـان له معنيـان: الأول: التسخين، تقول: فتنـت الذهب، إذا أدخلتـه النار لتنظر ما جودتـه. أي سخنتـه، وقال الخليل: الفـتن: الإحراق. قال الله تعـالى: ﴿يَوْمَ هُـمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ (٦). والثاني: الإعجاب، والفِتْنةُ إعجابُك بالشيء(٧).

لقد ذكر الله الإفتان في أكثر من موضع منها قوله جل جلاله : ﴿يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَـانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّـنَ الجَنَّةِ﴾ (٨)، قال النيسابـوري: لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ وهي دعاؤه إلى الخطيئة بوجه خفي كما تشتهيه النفس(٩).

(١) – سورة ص: ٤١
(٢) – البحر المحيط ٤/٤٤٥
(٣) – الأساس في التفسير ٤/٢٠٧٣
(٤) – التحرير والتنوير ٩/٢٣٢
(٥) – أخرجه البخاري، باب التكبير والتسبيح عند التعجب ٨/ ٤٨، برقم ٦٢١٩
(٦) – سورة الذاريات: ١٣
(٧) – لسان العرب ١١/١٢٥
(٨) – سورة الأعراف: ٢٧
(٩) – إيجاز البيان عن معاني القرآن ١/٣٢٧

قال السعدي: بأن يزين لكم العصيان، ويدعوكم إليه، ويرغبكم فيه، فتنقادون له(١).

قلت والإفتان بمعنى التسخين يستخدمه الشيطان في جانب الخلاف مع الآخرين أو الشبهات بينما الإفتان بمعنى الإعجاب يستخدمها الشيطان في جانب الشهوات كما في قصة آدم، فتأمل!! ولذلك إذا لم يتراجع عن هذه الخطوة فإنه يدخل في طور الاستحواذ ، وهذه هي الخطوة الخامسة!!

الخطوة الخامسة : الاستحواذ

معنى الاستحواذ: استحوذ على كذا إذا حواه وأَحْوَذ ثوبه ضمه إليه(٢)، وفي الحديث: ما من ثلاثة نفر في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا استحوذ عليهم الشيطان، فعليك بالجماعة فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية(٣). وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾(٤)؛ أي ألم نغلب على أموركم ونستول على مودتكم. واستحوذَ عليه الشيطانُ إذا غَلبَ عليه(٥).

ذكر الله الاستحواذ في سورة المجادلة فقال: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾(٦).

قال ابن جرير: وأصل "الاستحواذ" في كلام العرب، فيما بلغنا، الغلبة، ومنه قول الله جل ثناؤه: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾، بمعنى: غلب عليهم(٧)، وبه

---

(١) - تيسير الرحمن ص٢٨٦

(٢) - لسان العرب ٢٦٢/٤ وتاج العروس ٢٣٨٨/١

(٣) - أخرجه الحاكم في المستدرك، باب في فضل الصلوات الخمس ٢١١/١، وسنن أبى داود، باب فِى التَّشْدِيدِ فِى تَرْكِ الْجَمَاعَةِ ١/ ٢١٤، برقم ٥٤٧، قال الشيخ الألباني : (حسن) انظر حديث رقم : ٥٧٠١ في صحيح الجامع.

(٤) - سورة النساء : ١٤١

(٥) - تهذيب اللغة ١٣٣/٥

(٦) - سورة المجادلة: ١٩

(٧) - جامع البيان ٢٦٠١/٤

قال السمعاني(١) والبغوي(٢) والزمخشري(٣). قال ابن عطية: اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطانُ معناه: تملكهم من كل جهة وغلب على نفوسهم(٤). وقال العلامة محمد الأمين: والاستحواذ: التغلب على الشيء والاستيلاء عليه(٥).

قلت والاستحواذ هو الاستيلاء التام على منافذ الفكر فلا يذكر الإنسان شيئًا، ولا ينظر للعواقب فأنساه ذكر الله، وعند هذه الخطوة لابد أن يصنع حدثاً شاء أم أبى، وهذا الحدث إما قولاً أو فعلاً.

ونتيجة هذه الخطوات الخمس الزلل! والزلل في اللغة معناه: زلق. وزللت يا فلان ...إذا زل في طين أو منطق(٦). والزَّلَّة: الخطأ؛ لأن المخطئ زلَّ عن نَهْج الصَّواب. وقد ذكر الله الزلل وأنه من نتاج عمل الشيطان في سعيه لإضلال الإنسان في أكثر من آية فقال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾(٧)، قال أبو السعود: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشيطان عَنْهَا﴾ أي أصدر زلَّتَهما أي زلَّقَهما وحملهما على الزلة بسببها ونظيره عن هذا ما في قوله تعالى: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ أو أزلهما عن الجنة بمعنى أذهبَهما وأبعدهما عنها يقال زلَّ عني كذا إذا ذهب عنك ويعضدُه قراءة أزالهما، وهما متقاربان في المعنى فإن الإزلالَ أي الإزلاق يقتضي زوالَ الزال عن موضعه البتة(٨).

قلت والزلل هو الانزلاق ومنه يقال فلان زل أي انتكس وسقط. وإلى هذه الخطوة وصل أبونا آدم مع إبليس في معركته الأولى فقال الله عنها: (فأزلهما الشيطان) أي أسقطهما فأخرجهما مما كانا فيه من النعيم، ولا زال الإنسان في دائرة السعة وفي مقدوره التوبة بسهولة، فآدم حينما اعترف بذنبه واستغفر من زلته تاب الله عليه.

---

(١) - تفسيره ٣٩٢/٥
(٢) - معالم التنزيل ٣٤٩/٤
(٣) - الكشاف ٣٧٣/٤
(٤) - المحرر الوجيز ٢٥٧/٨
(٥) - حدائق الروح والريحان ٤٤٠/٦
(٦) - لسان العرب ٥١/٧
(٧) - سورة البقرة: ٣٦
(٨) - إرشاد العقل السليم ٩١/١

فهـذه الخطوات الأولى للشيطـان في محاربة الإنسان ابتداء بنزغة وتنتهي بقتل نفس أو طـلاق أو غيره. وبعد هذه الخطوات الخمس تأتـي مرحلة أشد خطورة ، وذلك إذا تكرر منه هـذا الفعـل مرة بعد أخـرى ، ولم يتـب إلى الله فينتقل إلى ما يسمى بالهـوى ، وهو الخطوة السادسة.

الخطوة السادسة : الهوى.

قـال اللغويون: الهوى محبة الإنسان الشيء وغلبتـه على قلبه؛ قال الله عز وجل: (ونهى النفـس عن الهوى)؛ معنـاه نهاها عن شهواتهـا وما تدعو إليه من معاصـي الله عز وجل... واستهوته الشياطين: ذهبت بهواه وعقله(١).

ذكـر الله هـذه الخطوة في أكثر من موضع: فقال تعالى: ﴿قُـلْ أَنَدْعُو من دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَـا وَلاَ يَضُرُّنَـا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَـا اللّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَـيْرَانَ لَـهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَـا قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُـدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٢).

قـال الواحـدي: استمالته وزينت له هـواه(٣) وحمل الزمخشـري استهوته على أنه من الهوى الذي هو المودة والميل(٤).

وقـال ابن عاشور: والاستهواء استفعال، أي طلب هوى المرء ومحبته، أي استجلاب هوى المـرء إلى شيء يحاوله المستجلب... والعرب يقولون: استهوته الشياطين، إذا اختطفت الجن عقله فسيرته كما تريد(٥).

ومعنـى الهوى: الحب، ومنه قيل: وهذا الشيء أهوى إلي من كذا، أي أحب إلي. وقد ذم الله من اتبع هواه فقال تعالى: ﴿إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس﴾ وقال تعالى: ﴿وَاتْلُ

(١) – لسان العرب ١١٥/١٥ وتهذيب اللغة ٦/ ٢٥٨

(٢) – سورة الأنعام: ٧١

(٣) – الوسيط في تفسير القرآن المجيد١/٢٨٧

(٤) – الكشاف ٢/٣٠

(٥) – التحرير والتنوير ٧/٣٠١

عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١). وقال النبي صلى الله عليه وسلم: ثلاث مهلكات، ومنها: وهوى متبع (٢). والهوى لا يرضى لنفسه إلا أن يكون إلهاً قال الله: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ (٣).

قلت، فالقضية لم تعد مجرد نزغة خاطر أو وسوسة بل هي هوى، فتتقوى الفكرة بشكل أكبر فترى الآدمي في هذه المرحلة حيران، تكلمه وتجده معك بجسده فقط، لكنه في عزلة شعورية؛ لأن الهوى بداخله قاتله، وعنك شاغله، فتقول له: يا فلان! لكي يسمع لك، وبعدها يفوق فتسأله هل سمعت ما قلت لك؟ فيقول: لا ! مع أنه كان في الظاهر يسمع لك، ويحرك رأسه أيضاً فتظن أنه معجب بحديثك، وهو في الحقيقة يعيش في عالم آخر، إنه عالم الهوى الذي سيطر على عقله، وذهب بتفكيره! فتجده في حيرة وما أجمل هذا التعبير البليغ في القران الكريم! وقد وصف الله هؤلاء في موضع آخر فقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ﴾ (٤).

فإذا لم يتب من خطوة الهوى؛ فإنه ينتقل إلى خطوة أخرى أشد خطورة وهي التزيين!

الخطوة السابعة : التزيين :

معنى الزَّيْن : نقيضُ الشَّين(٥)، والزينة: ما يتزين به. ويوم الزينة: يوم العيد، وتَزَيَّنَتِ الأَرضُ بالنبات.

---

(١) - سورة الأعراف: ١٧٥-١٧٦

(٢) - أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ١/٤٧١، برقم ٣٨٩، قال الشيخ الألباني : (حسن) انظر حديث رقم : ٣٠٣٩ في صحيح الجامع

(٣) - سورة الجاثية: ٢٣

(٤) - سورة محمد: ١٦

(٥) - تهذيب اللغة ١٣/١٧٤

لقد ذكر الله هذه الخطوة في أكثر من موضع فقال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ﴾ (١) وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٢). قال ابن جرير: وعنى بقوله ﴿لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ لأحسننّ لهم معاصيك، ولأحببنها إليهم في الأرض(٣) وبه قال الثعلبي(٤) والخازن(٥). وقال الشوكاني: والتزيين منه إما بتحسين المعاصي وإيقاعهم فيها، أو بشغلهم بزينة الدنيا عن فعل ما أمرهم الله به فلا يلتفتون إلى غيرها(٦).

قلت ففي هذه الخطوة تنعكس مقاييس الإنسان وموازينه، فيرى المنكر معروفاً والمعروف منكراً، فيمارس المعصية وهو يتلذذ بها بل ويجاهر بها دون خجل أو حياء من أحد؛ لأن الشيطان لبسها عليه وزينها له.

فإذا قوي عليك في هذه الخطوة وأصبح يصدك متى ما أراد فهذا يعني أن الحكم أصبح له، والقرار بيده فيدخل الإنسان في خطوة أخرى تسمى الاقتران.

الخطوة الثامنة: الاقتران.

معنى القرين: صاحبك الذي يقارنك(٧). وقد ذكر الله هذه الخطوة في أكثر من موضع فقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ (٨)، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاءَ قَرِيناً﴾ (٩).

قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: ومن يكن الشيطان له خليلاً وصاحبًا، يعمل بطاعته، ويتبع أمره(١٠).

---

(١) - سورة النمل: ٢٤

(٢) - سورة الحجر: ٣٩

(٣) - جامع البيان ٤٨٩٥/٦

(٤) - الكشف والبيان ٣٤١/٥

(٥) - لباب التأويل في معاني التنزيل ٥٦/٣

(٦) - فتح القدير ١٨٠/٣

(٧) - لسان العرب ٨٩/١٢ وتهذيب اللغة ٨٩/٩

(٨) - سورة الزخرف: ٣٦

(٩) - سورة النساء: ٣٨

(١٠) - جامع البيان ٢٣٢٣/٢

قال القرطبي: والقرين: المقارن، أي الصاحب والخليل وهو فعيل من الإقران(١). وقال الخازن: يعني من يكن الشيطان صاحبه وخليله فبئس الصاحب وبئس الخليل الشيطان(٢).

قلت والقرين هو الصاحب الملازم لصاحبه في حياته، وجميع شؤونه، ففي هذه الخطوة يصبح القرار لكليهما، وكلاً منهما في طاعة الآخر، والعياذ بالله، فإذا قوي القرين على الإنسان أكثر فإنه يسوقه إلى خطوة يحسم معه القضية تماماً ويحدد له المصير، وتلك هي خطوة الولاية!

الخطوة التاسعة: الولاية

معنى الولاية: الوَليُّ: الصَّديق والنَّصير... والموالاة: ضد المعاداة، والولي: ضد العدو، ويقال منه تولاه. وقوله عز وجل: ﴿فتكون للشيطان وليًا﴾ (٣). وقد ذكر الله هذه الخطوة في أكثر من موضع ومنها قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ (٤) قال ابن كثير: ﴿أنه من تولاه﴾ أي: اتبعه وقلده(٥) وقال ابن عاشور: أي كتب عليه إضلال من تولاه. والتولي: اتخاذ ولي، أي نصير، أي من استنصر به(٦).

وقال الزحيلي: أي قضي على من اتبع الشيطان، وجعله وليًا ناصراً له أن يوقعه في الضلال، وأن ولايته له لم تثمر إلا الإضلال عن طريق الجنة، والهداية إلى النار، وإيصاله إلى جهنم(٧).

قلت والولاء هو المحبة والنصرة والتأييد، فتكون ولايته للشيطان، وهنا الخطر الحقيقي، وأمامه طريق واحد، وخط مباشر إلى جهنم وبئس المصير، والولاء لا يكون إلا لله أو للشيطان

(١) – الجامع لأحكام القرآن ٦/٣٢٠
(٢) – لباب التأويل في معاني التنزيل ١/٥٣٦
(٣) – لسان العرب ١٥/٢٨٣
(٤) – سورة الحج ٣-٤
(٥) – تفسير ابن كثير ٥/٣٩٤
(٦) – التحرير والتنوير ١٧/١٩٤
(٧) – التفسير المنير ٩/١٦٨

ولا يوجد ولاء ثالث بين الاثنين، ومعنى الولاية ضد العداوة، وأصل الولاية المحبة والقرب، وأصل العداوة البغض والبعد..

ونتيجة هذه الخطوات الضلال، والضَّلالُ والضَّلالةُ ضدُّ الهُدَى، وضَلَّ الشيءُ خَفيَ وغاب، يقال ضَلَلْت الشيءَ وضَلِلْته إذا جعلتَه في مكان ، ولم تَدْر أَين هو وأَضْلَلْته إذا ضَيَّعْته ﴿فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا﴾ (١) وقال تعالى: ﴿وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ (٢) نعوذ بالله من الضلال والغواية.

وبقي معنا خطوتان لمن هم أكثر ضلالاً وأشد كفراً وجحوداً، وهاتان الخطوتان تكون غالباً عند السحرة والمشعوذين؛ لأنهم يضرون باعتقاد الناس أما أصحاب المعاصي ، فيكتفي الشيطان بترقيتهم إلى مرتبة الولاية، ولقد جاء في الحديث: (من أتى عرافًا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة) (٣). إذا كانت هذه عقوبة الزائر فما بالك بالساحر ؟ كيف تكون عقوبته؟! هؤلاء السحرة يكرمهم الشيطان كرماً كبيراً فيوحي لهم؛ لأنهم أصلاً شياطين كما سماهم الله، ﴿شياطين الجن والإنس﴾، وهنا ندرك حقيقة تضحية المردة من الجن بأنفسهم في الملأ الأعلى، وهم يسترقون السمع ﴿فأتبعه شهاب ثاقب﴾؛ لأنه يعلم أنه بهذه التضحية يختصر جهداً كبيراً على نفسه، إذ إنه بهذه المعلومة الغيبية التي يعطيها لهذا الكاهن ، فيخبر الناس بأمر في المستقبل سيضل أمة من الناس بلحظة! وجعلنا خطوة الوحي بعد الولاية بدلالة قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾ فلا يمكن للشيطان أن يوحي له إلا إذا ضمن ولاءه له.

الخطوة العاشرة : الوحي

ومعنى الوحي: الإشارة، والكتابة، والرسالة، والإلهام، والكلام الخفي، وكل ما ألقيته إلى غيرك. يقال: وحيت إليه الكلام وأوحيت، وهو أن تكلمه بكلام تخفيه... وأوحى: كلمه بكلام يخفيه من غيره (٤).

(١) - سورة النساء: ٦٠

(٢) - سورة النساء: ١١٩

(٣) - أخرجه مسلم، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان ٤/ ١٧٥١، برقم ٢٢٣٠

(٤) - لسان العرب ١٧١/١٥ وتهذيب اللغة ١٩٢/٥

ذكر الله هذه الخطوة في أكثر من موضع في كتابه فقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾(١) وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾(٢).

قال السمعاني: أي: يلقي بعضهم إلى بعض(٣). وقال العليمي: أي: يوسوس ويلقي شياطين الجن إلى شياطين الإنس، وبالعكس.(٤) وقال التستري: أي يسر بعضهم إلى بعض، وقد يكون بمعنى الإلهام كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾(٥) يعني ألهم النحل(٦). وقال محمد رشيد رضا: يلقي بعضهم إلى بعض القول المزين المموه بما يظنون أنه يستر قبحه ويخفي باطله بطرق خفية دقيقة لا يفطن لباطلها كل أحد ليغروهم به. فالإيحاء: الإعلام بالأشياء من طريق خفي دقيق سريع كالإيماء(٧).

الخطوة الحادية عشرة: التنزيل.

معنى (نزل) النُّزُول الحلول وقد نَزَلَهم ونَزَل عليهم ونَزَل بهم يَنْزل نُزُولاً(٨). وقد ذكر الله حقيقة هذه الخطوة في كتابه فقال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾(٩). وجاء في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عباس، قال: أخبرني رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من الأنصار، أنهم بينما هم جلوس ليلة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم رمي بنجم فاستنار، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ماذا كنتم تقولون في الجاهلية، إذا رمي بمثل هذا؟" قالوا: الله ورسوله أعلم،

---

(١) - سورة الأنعام: ١١٢

(٢) - سورة الأنعام: ١٢١

(٣) - تفسيره ١٣٧/٢

(٤) - فتح الرحمن في تفسير القرآن ٤٥٢/٢

(٥) - سورة النحل: ٦٨

(٦) - تفسيره ٨٩/١

(٧) - تفسير المنار ٩/٨

(٨) - لسان العرب ٢٣٧/١٤

(٩) - سورة الشعراء: ٢٢١- ٢٢٣

كنا نقول ولد الليلة رجل عظيم، ومات رجل عظيم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا تبارك وتعالى اسمه، إذا قضى أمرًا سبح حملة العرش، ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم، حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء الدنيا" ثم قال: " الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم ماذا قال: قال فيستخبر بعض أهل السماوات بعضًا، حتى يبلغ الخبر هذه السماء الدنيا، فتخطف الجن السمع فيقذفون إلى أوليائهم، ويرمون به، فما جاءوا به على وجهه فهو حق، ولكنهم يقرفون فيه ويزيدون " (١). وعن عائشة، قالت: قلت: يا رسول الله إن الكهان كانوا يحدثوننا بالشيء فنجده حقا قال: "تلك الكلمة الحق، يخطفها الجني فيقذفها في أذن وليه، ويزيد فيها مائة كذبة" (٢).

قال قتادة: هم الكهنة، تسترق الجن السمع، ثم يأتون إلى أوليائهم من الإنس(٣).

قال ابن عطية: ويريد الكهنة لأنهم كانوا يتلقون من الشياطين الكلمة الواحدة التي سمعت من السماء، فيخلطون معها مائة كذبة، فإذا صدقت تلك الكلمة كانت سبب ضلالة لمن سمعها (٤).

قلت والتنزيل هو إعطاء معلومات غيبية مستقبلية، ويذهب ضحاياها كبار المردة، في سبيل الحصول على هذه المعلومات؛ نظراً لأهميتها في سهولة إضلال الناس، وبهذا نكون قد أدركنا خطورة هذه الخطوات، ونحن في الحقيقة أمام خيارين: إما أن نواجه هذه العدو بالوسائل المذكورة في القرآن، أو نقبل بالهزيمة، وما يترتب عليها من دمار للبيوت وخراب للأسر، وتفكيك للمجتمعات.

(١) - أخرجه مسلم باب: تحريم الكهانة وإتيان الكهان ٤/ ١٧٥٠ برقم ٢٢٢٩

(٢) - أخرجه مسلم باب: تحريم الكهانة وإتيان الكهان ٤/ ١٧٥٠ برقم ٢٢٢٨

(٣) - التفسير الوسيط للواحدي ٣/٣٦٥ ومعالم التنزيل ٣/ ٤٨٤

(٤) - المحرر الوجيز ٦/٥١١

المطلب الثاني: أثر اتباع خطوات الشيطان على الأسرة.

أخبر الله عز وجل ملائكته بخلق آدم عليه السلام، وبيّن لهم الحكمة من خلقه فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(١)، وهنا تكونت أول أسرة مسلمة بعد أن خلق الله لآدم زوجته حواء من ضلعه، وقال له: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾(٢) وحذرهما الله من اتباع خطوات الشيطان، وبيّن لهما حقيقة عداوته فقال تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾(٣)، إلا أن الشيطان استطاع أن يوقع آدم في ارتكاب ما نهاه الله عنه – أكل الشجرة- فأزله ولهذا قال الله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾(٤)، بعد أن جاء إبليس إلى أبينا آدم فنزغ فيه موضوع الشجرة وقال له: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَى﴾(٥)، فتلقى آدم هذه النزغة السريعة –شجرة الخلد- ولم يستعذ بالله منه، حتى أصبحت حديث نفس، والشيطان يعينه على ذلك؛ لأنه وجد في نفس آدم قبولاً للفكرة، ثم انتقلت الفكرة إلى حديث نفس صاحبه انفعال من آدم تجاه الشجرة، واقترب منها معجباً بها، فاستحوذ عليه من الشيطان فأنساه ما نهاه الله عنه، فأكل منها، فأزلهما الشيطان عنها، وأخرجه منها!

لقد أقسم الشيطان بعزة الله على إعلان حربه على آدم وذريته، وذكر وسائل هذه الحرب وأدواتها، وبيّن الله لنا خطواتها، وحذرنا من اتباعها، ولقد أكسب الله إبليس صفة الرؤية لبني آدم من غير أن يروه، وهي بلا شك صفة خطيرة؛ حيث إن صاحب هذه الصفة يمتلك مراقبة الآخرين، ويرصد حركاتهم، وهم لا يرونه فبهذا يكون متحكماً فيهم أشد تحكما، وتبقى هذه الصفة خطيرة على بني آدم إلا من استعصم بالله ؛ فإنه من دون شك سيعصمه من إبليس ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾(٦).

(١) – سورة البقرة: ٢٨

(٢) – سورة البقرة: ٣٥

(٣) – سورة طه: ١١٧

(٤) – سورة طه: ١١٥

(٥) – سورة البقرة: ١٢٠

(٦) – سورة الأعراف: ٢٧

لقد جاءت سورة النور لتعلمنا كيفية تهذيب الفرد والأسرة والمجتمع، وتربطهم بنور الله وتعاليمه السماوية التي تهدف إلى الحفاظ على هذه القيم، إنها قيم من نور الله الذي أشرقت له السماوات والأرض.

قال صاحب الظلال: هذه سورة النور.. يذكر فيها النور بلفظه متصلا بذات الله: "اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ" ويذكر فيها النور بآثاره ومظاهره في القلوب والأرواح ممثلة هذه الآثار في الآداب والأخلاق التي يقوم عليها بناء هذه السورة. وهي آداب وأخلاق نفسية وعائلية وجماعية، تنير القلب، وتنير الحياة ويربطها بذلك النور الكوني الشامل أنها نور في الأرواح، وإشراق في القلوب، وشفافية في الضمائر، مستمدة كلها من ذلك النور الكبير.

وهي تبدأ بإعلان قوي حاسم عن تقرير هذه السورة وفرضها بكل ما فيها من حدود وتكاليف، ومن آداب وأخلاق: "سُورَةٌ أَنْزَلْناها وَفَرَضْناها، وَأَنْزَلْنا فِيها آياتٍ بَيِّناتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ" .. فيدل هذا البدء الفريد على مدى اهتمام القرآن بالعنصر الأخلاقي في الحياة، ومدى عمق هذا العنصر وأصالته في العقيدة الإسلامية، وفى فكرة الإسلام عن الحياة الإنسانية(١). وقد نهانا الله عن اتباع خطوات الشيطان في هذه السورة فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاء وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢). قال ابن عاشور: ووقوعه عقب الآيات العشر التي في قضية الإفك مشير إلى أن ما تضمنته تلك الآيات من المناهي وظنون السوء ومحبة شيوع الفاحشة كله من وساوس الشيطان، فشبه حال فاعلها في كونه متلبسًا بوسوسة الشيطان بهيئة الشيطان يمشي والعامل بأمره يتبع خطى ذلك الشيطان(٣). وهنا ندر سر مناسبة هذه الآية لما قبلها وما بعدها، ومجيئها في سورة النور، وما ذاك إلا لنعلم خطورة موارد الجهل، وأسباب الفساد في الأسرة والمجتمع، فنهانا عن التمادي في هذه الموارد، والاستمرار في المشي وراء الداعي لها، وبيّن بأنه طريق للفحشاء والمنكر، داخل المجتمع والأسر، إنه طريق الشيطان الذي سيخرجنا

(١) - في ظلال القرآن ٤/ ٣٤٨٦

(٢) - سورة النور: ٢١

(٣) - التحرير والتنوير: ١٨/ ١٨٦

من النور إلى الظلام، وقوله: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ كقوله : ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (١).

ومن أولويات الشيطان اليومية التي يتعهدها خراب الأسرة، والتفريق بين المرء وزوجه، فقد جاء في الحديث عن جابر قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : " إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة يجيء أحدهم فيقول فعلت كذا وكذا، فيقول ما صنعت شيئًا، قال: ثم يجيء أحدهم فيقول ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته – قال – فيدنيه منه ويقول نعم أنت "(٢). كما أنه يحرص أشد الحرص على أن يجعل الناس في اقتتال دائم، وخلافات تعصف بالمجتمعات، وتنسف النسيج المجتمعي، وتعمل على تفكيك الأسرة الواحدة، كما جاء في حديث أبي موسى الأشعري قال: إذا أصبح إبليس بث جنوده، فيقول: من أضل اليوم مسلمًا ألبسته التاج، قال: فيخرج هذا فيقول: لم أزل به حتى طلق امرأته، فيقول: أوشك أن يتزوج. و يجيء هذا فيقول: لم أزل به حتى عق والديه، فيقول: يوشك أن يبرهما. و يجيء هذا فيقول: لم أزل به حتى أشرك، فيقول: أنت أنت ! و يجيء هذا فيقول: لم أزل به حتى قتل، فيقول: أنت أنت، و يلبسه التاج"(٣). وقوله: لم أزل به، تفيد أنه يعمل معه وفق خطوات كل خطوة تنقله إلى ما بعدها، حتى يطلق امرأته، أو يعق والديه، أو يشرك بالله، أو يقتل النفس التي حرم الله.

والطلاق وعقوق الوالدين وقتل النفس جميعها من مشكلات الأسرة التي يئن منها المجتمع المعاصر، وما ذلك إلا نتيجة اتباع خطوات الشيطان، وعدم التحصين منه.

إن أول جريمة قتل كانت داخل أسرة واحدة بين أخوين سببها تلك الخطوات الشيطانية بدافع الحسد، فذكرها الله في القرآن فقال: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِن

(١) – سورة النساء: ٨٣

(٢) – أخرجه مسلم ، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس ٤/ ٢١٦٧، برقم ٢٨١٣

(٣) – أخرجه ابن حبان، باب بدأ الخلق ١٤/ ٦٨، برقم ٦١٨٩، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٢/٣١٧، برقم ٢٤٤٩.

بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(١).

قال الأستاذ محمد رشيد: والدليل على محبة الأخوة، ووشيجة الرحم في نفس قابيل، وتنازعها مع حب العلو والرجحان على أخيه أو مساواته وحسده لتقبل قربانه دونه قوله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ... فهي تدل على أن قابيل كان يجد من نوازع الفطرة في نفسه الأمارة بالسوء مانعًا يصدها عما زينه له الحسد من قتل أخيه، وأنها ما زالت تأمره ويعصيها حتى حملته على طاعتها بعد جهد وعناء(٢).

ومثل هذا ما وقع ليوسف عليه مع إخوته، مع صلاحهم إلا أنهم أصيبوا بداء الحسد وهنا نزغ الشيطان بينهم، وقد قالها يوسف صراحة يوم أن رفع أبويه على العرش وخروا له سجداً، قال: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾(٣) فتأمل قوله: نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي.

إن هذه المشكلة التي عصفت بأسرة يعقوب كانت من أقسى المشكلات على يعقوب عليه السلام حتى ابيضت عيناه من الحزن، ولقد فطن يعقوب لكيد الشيطان منذ البداية فقال محذراً يوسف من حكاية رؤياه على إخوته: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾(٤).

قال الأستاذ محمد رشيد: فزين لهم الحسد أن يقتلوه أو يغربوه؛ ليجتمع الشمل، ويخلو لهم وجه أبيهم بالإقبال عليهم، ويكونوا بذلك قومًا صالحين بزوال سبب الشقاق والفساد فيهم(٥).

---

(١) - سورة المائدة: ٢٧- ٣٠

(٢) - تفسير المنار: ١٠/٢٠٥

(٣) - سورة يوسف: ١٠٠

(٤) - سورة يوسف: ٥

(٥) - تفسير المنار: ١٠/٢٠٥

ومثـل هذا ما حصـل لموسى عليـه السلام حينمـا استغاثه الذي من شيعتـه على الذي مـن عدوه فوكزه موسى فقضـى عليه فقتله، فقال: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾(١).

والمتأمـل في جميع المشكلات الأسرية من قتل أو طلاق أو عقوق أو جرائم أخلاقية، يجد يقيناً أن نزغات شيطانية هي التي دفعتها، وقامت بتفعيلها وعملت على تطويرها، وساعدها على ذلك جهل الناس بربهم، وحقيقة عدوهم.

إن الشيطـان يعلم تماماً كيفية تغيير هذا الإنسان، وكيف يصنع حدثاً إما قولاً أو فعلاً؛ فيسـوق الفكرة للإنسان عن طريـق خطوات ومراحل خطيرة جداً علـى الغافل حتى تكتمل، وإذا اكتملـت الفكـرة تخرج إلى حيز الفعل باللسان أو الجـوارح ، وهي شبيهه بالنطفة التي توضـع في رحـم المرأة، فتكون نطفة ثم علقة ثم مضغة ثـم عظاماً ثم يكسو العظم لحماً ثم ينشئـه خلقاً آخر، فيخرج إلى الحيـاة صارخاً متحركاً فتراه فعلاً ! وهكذا خطوات الشيطان مشابهـة لهذه المسألة؛ لأن من أسماء الله الواحـد، وقانونه واحد في الكون كله، فتبدأ بالنزغ ثـم الوسوسـة ثم المس ثـم الإفتان ثم الاستحواذ فيقـع الإنسان في الزلل، ثـم إذا استمر في معصيتـه، يدخـل في أطوار أخرى فيبـدأ بالهوى ثم التزيين ثم الاقـتران ثم الولاية فيحدث بذلك الضلال، ثم يدخل في أطوار خاصة لمن هم أكثر ضلالاً ، وهي الوحي والتنزيل.

وهنا سأتناول شرح تطبيقي على تأثير خطوات الشيطان في قضايا الشهوات أو الشبهات، ونأخـذ من كل قضية مثـالاً واحداً، ففي الشهوات نتناول مشكلة الزنـا، وفي الشبهات نتناول مشكلة القتل.

سبـق وأن تحدثنـا في المطلـب الأول عن خطوات الشيطـان، وذكرنـا أن أول خطوة هي النـزغ، وهنا في حـق الشهوات يكون النـزغ في النظرة الحرام، فقد جاء مـن حديث حذيفة رضـي الله عنه قال: النظرة سهم من سهـام إبليس مسمومة فمن تركها من خوف الله أثابه جل وعز إيمانًا يجد حلاوته في قلبه، هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه (٢). وعن عبد

(١) – سورة القصص: ١٥

(٢) – الحاكـم في المستـدرك، كتـاب الرقائق ٤/٣١٤، وقال هذا حديـث حديث صحيح الإسنـاد ولم يخرجاه، قال الألباني: (ضعيف جدا). السلسلة الضعيفة ٣/ ١٧٧.

الله بـن مسعود، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن النظرة سهم من سهام إبليس مسموم، من تركها مخافتي أبدلته إيمانًا يجد حلاوته في قلبه.

فلاحـظ هذه الوخزة المصحوبة بالسم من سهـام إبليس ماذا تصنع ؟ مع أن النظرة لا تستغـرق ثواني، ولكنها قاتلة لمشاعره إن لم يستعـذ بالله منها كما سيأتي في وسائل تحصين الأسرة، إن هذه النظرة بفضل الاستجابة لخطوات الشيطان تنتهي بكارثة والعياذ بالله، إنها نظـرة سريعة يعقبها مباشرة غض الطرف، ولكن القضية لا تنتهي إلا إذا استعذت بالله من الشيطان الرجيم.

بعـد الوخـز السريع من الشيطان عقب النظرة، يقول له الشيطان: إنها جميلة ! ثم يبدأ يحـدث نفسه بجمالها ومواصفاتها، وهذه الخطوة الثانية، وتسمى الوسوسة، فإذا لم يستعذ بـالله منها يدخل في الخطوة الثالثة – المس- فيصاحب حديث نفسه انفعالات داخلية؛ لأن النظرة مصحوبة بمس شيطاني بدأت تلامس ملكات جسده، وتجري في دمه فيتأوه شوقاً لها، تجد الناظر لها يحدث نفسه، وفجأه يخرج منه صوت بغير قصد، أو تتغير ملامح وجهه بغير شعور، فسيتمر على ذلك حتى يلج بوابة الإفتان، والإفتان في جانب الشهوات يعني الإعجاب الشديـد، فيخيل إليـه أنها أجمل امرأة وقع نظـره عليها؛ لأن النظـرة يديرها الشيطان من داخلـه ويغذيها من دمه، فيبدأ يتخيـل ملامح وجهها، وطولها وجسمها وشعرها، والشيطان يعينه على ذلك وهو لم يستعذ بل يستجب!

فيبدأ بخطوات فعلية ويقرر زيارة أهلها أو يرسل رسالة أو يتصل مباشرة، ويعبر عن ما في نفسه، وفجأة تجده قد جر أذياله ذاهباً إليها، وطارقاً بابها، فتفتح له وهنا يقع الاستحواذ عليه من الشيطان، فينسيه ذكر الله فيدخل بها عياذاً بالله، إنه كان فاحشة وساء سبيلا.

وإذا لم يتب من هذه الزلة وارتكبها أكثر من مرة ؛ فسوف يدخل في الخطوة السادسة – الهوى- وتصبح هذه الشهوات هواه، ومبتغاه، وغاية مناه، ثم يدخل في الخطوة الأشد خطراً منها وهي التزيين، فيرى أن ما هو عليه هي الحياة الحقيقية، ويجاهر بهذه المعصية مفتخراً، فتجـده أحيانًا يترك الصلاة ويتجه وراء شهواته، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيـل، ثم يدخل في الخطوة الثامنة وهي الاقتران، وهنـا يتلقى الأوامر بارتكاب الشهوات

ويتقبلهـا دون تردد؛ لأنه أصبح صاحباً وخليلاً للشيطـان، وأخيراً يدخل في الخطوة الأخيرة –الولاية– التي تهديه إلى عذاب السعير.

هـؤلاء عبـاد الشهوات لا يتورعون عـن أي جريمة، ولذلك يستخدمـون السحر من أجل التفريـق بين الزوج وزوجته، أو الإيقاع ببنـات المسلمين في فتنة الحب، لاستغلالهن في قضاء شهواتهم والعياذ بالله.

وأما في حق الشبهات والتي تنتهي بالقتل أو الطلاق، فتبدأ النزغة الشيطانية من كلمة، وهنـا ندرك قيمـة القول الحسن الذي أمرنـا الله به فقال: ﴿وَقُـل لِّعِبَادِي يَقُولُـواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَـنُ إِنَّ الشَّيْطَـانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَـانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ (١) ، فتأمل قوله: ﴿إن الشيطـان ينزغ بينهم﴾ ، فهـو لا يرحم، والنزغة قد تجد عقولاً تتقبلها، فأحياناً تختلج الأسرة جوانب عده من المزاح، فتزل اللسان بكلمة للأخ أو للزوجة، وهو غير قاصد.

وقد جاء في البخاري من حديث سليمان بن صرد أن رجلا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال استب رجلان عند النبي صلى الله عليه وسلم فغضب أحدهما فاشتد غضبه حتـى انتفـخ وجهه وتغير فقال النبي صلى الله عليه وسلم إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه الـذي يجد فانطلق إليه الرجل فأخبره بقـول النبي صلى الله عليه وسلم وقال تعوذ بالله من الشيطـان فقال أترى بي بأس أمجنـون أنا اذهب (٢) . وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليـه وسلـم قـال: لا يشير أحدكم علـى أخيه بالسلاح فإنـه لا يدري لعـل الشيطان ينزع في يـده فيقع في حفرة من النار (٣) . فتبدأ خطوات الشيطـان وفق الأطوار والمراحل التي سبق ذكرهـا، مع أن هذه الكلمة قد يزول أثرها بمجرد الاستعاذة بالله منها، إلا أنه تقبلها وانتقل للخطوة الثانية – الوسوسة– وهنا يتساءل مع نفسه عن قصد قائلها؟!

---

(١) – سورة الإسراء: ٥٣

(٢) – أخرجه البخاري، باب ما ينهى من السباب واللعن ٨/ ١٥، برقم ٦٠٨٤

(٣) – أخرجه البخاري، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم من حمل علينا السلاح فليس منا ٩/ ٤٩، برقم ٧٠٧٢، و أخرجه مسلم، باب النهي عن الإشارة بالسلاح إلى مسلم ٤/٢٠٢٠

وإنـه لشعور صعب عند تحليل المقاصد خصوصـاً إذا كانت هذه الكلمة جارحة، وتحمل انتقاصاً أو تعييراً أو طعناً في الأحساب والأنساب.

وينتقـل إلى الخطوة الثالثة – المس- فيجري الشيطان في دمه، ويعمل على تسخين هذه المشاعـر، وتأجيج هذه الكلمات، فيدخل في الخطـوة الرابعة ، وهي الإفتان، والإفتان في هذه الخطـوة المقصود به التسخين كما سبق ذكـره، وفي الحديث: "الغضب جمرة توقد في جوف ابـن آدم، ألا تـرى إلى حمـرة عينيـه وانتفـاخ أوداجه!"(١) ، وهـو غليـان دم القلب لطلب الانتقـام، وبالتـالي لابد أن يصنع حدثـاً ؛ ولذا تجده قد أخذ سلاحه، وهنـا يقع الاستحواذ عليـه من الشيطـان، فينسيه ذكـر الله فيذهب إليه ويقتلـه، ويزل بقدمه عـن الصراط ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(١) – مسند الإمام أحمد، باب: مسند أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ١٩/٣ برقم ١١١٥٩

المبحث الثاني:

وسائل القرآن الكريم في تحصين الأسرة من الشيطان

توطئة:

إن النظام الإسلامي يجعل الأسرة هي العمود الفقري الذي يقوم عليه المجتمع الإسلامي، وقد أحاطها الإسلام برعاية عظيمة في كل مراحل تكوينها، وقد استغرق تنظيمها وحمايتها وتطهيرها من فوضى الجاهلية جهدًا كبيرًا، وأحاطها كذلك بكلِّ المقومات اللازمة لإقامة هذه القاعدة الأساسية الكبرى للمجتمع المسلم(١).

ولكي نعرف أهمية وقيمة المحافظة على سلامة الأسرة من المشكلات والخلافات التي تعمل على تفكيكها تأمل معي قول الله تعالى لزوجات النبي صلى الله عليه وسلم اللاتي تسببن له في مشكلة داخل بيته، قال تعالى: ﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾(٢).

أراد الله أن يعلم البشرية أن سلامة الأسرة من المشكلات أهم من الانتصار على الأعداء؛ إذ إننا لم نجد خطاباً كهذا أعلن الله فيه كل المؤازرة والمناصرة لنبيه صلى الله عليه وسلم مع أن حياته كلها جهاد ضد أعداءه من المشركين.

قال صاحب الظلال: وحين نتجاوز صدر الخطاب، ودعوتهما إلى التوبة لتعود قلوبهما فتميل إلى الله، فقد بعدت عنه بما كان منها.. حين نتجاوز هذه الدعوة إلى التوبة نجد حملة ضخمة هائلة وتهديدا رعيبا مخيفا..

ومن هذه الحملة الضخمة الهائلة ندرك عمق الحادث وأثره في قلب رسول الله- صلى الله عليه وسلم- حتى احتاج الأمر إلى إعلان موالاة الله وجبريل وصالح المؤمنين. والملائكة

---

(١) - فقه الأسرة ٣/١

(٢) - سورة التحريم: ٤

بعد ذلك ظهير! ليطيب خاطر الرسول- صلى الله عليه وسلم- ويحس بالطمأنينة والراحة من ذلك الأمر الخطير! ولا بد أن الموقف في حس رسول الله- صلى الله عليه وسلم- وفي محيطه كان من الضخامة والعمق والتأثير إلى الحد الذي يتناسب مع هذه الحملة. ولعلنا ندرك حقيقته من هذا النص ومما جاء في الرواية على لسان الأنصاري صاحب عمر- رضي الله عنهما- وهو يسأله: جاءت غسان؟ فيقول لا بل أعظم من ذلك وأطول. وغسان هي الدولة العربية الموالية للروم في الشام على حافة الجزيرة، وهجومها إذ ذاك أمر خطير. ولكن الأمر الآخر في نفوس المسلمين كان أعظم وأطول! فقد كانوا يرون أن استقرار هذا القلب الكبير، وسلام هذا البيت الكريم أكبر من كل شأن. وأن اضطرابه وقلقه أخطر على الجماعة المسلمة من هجوم غسان عملاء الروم! وهو تقدير يوحي بشتى الدلالات على نظرة أولئك الناس للأمور. وهو تقدير يلتقي بتقدير السماء للأمر، فهو إذن صحيح قويم عميق(١). وفيما يأتي نتناول وسائل تحصين القرآن الكريم للأسرة المسلمة في المطالب الآتية:

المطلب الأول: المحافظة على الذكر الوارد في القرآن الكريم.

اتضح لنا مما سبق في المبحث الأول عند الحديث عن خطوات الشيطان أنه ما من خطوة للشيطان ذكرها الله في القرآن إلا ونبهنا للوسيلة التي نحصن أنفسنا بها، وأرشدنا إلى كيفية التعامل معها، وعلمنا كيف نحافظ على مصالحنا وما يصلح لنا في الدنيا والآخرة، وهذه الوسيلة، بل هذا الذكر الوارد في القرآن هو: الاستعاذة، ومعناها من عوذ: لاذ به ولجأ إليه واعتصم. ومعاذ الله أي عياذاً بالله(٢). ولذا نجد أن الله جل وعلا أمر عباده باللجوء إليه؛ ليدفع عنهم كيد الشيطان، ونزغاته، وهمزاته، ووساوسه، ونفخه ونفثه.

فعلاج أول خطوة للشيطان –النزغ- بالاستعاذة فقال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(٣)، بل أمرنا الله جل وعلا أن نستعذ به من

(١) - في ظلال القرآن ٦/٣٦١٦

(٢) - لسان العرب ١٠/٣٢٩

(٣) - سورة الأعراف: ٢٠٠

الشيطــان قبل حضوره ونزغه فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾(١).

فأنت إذا لم تستعذ بالله منها فإنها ستكون بمثابة البذرة ولابد من أن تثمر قولاً أو عملاً، كمــا سبق معنا في حديــث سليمان بن صرد والذي قال فيه النبي صلــى الله عليه وسلم: إني لأعلم كلمةً لو قالها لذهب عنه ما يجد لو قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم(٢).

وعــلاج الخطوة الثانية -الوسوســة - الاستعاذة، فقد أمرنــا الله أن نستعيذ بربوبيته، وأسمائــه وصفاتــه، وألوهيته من شرها؛ لخطورتها فقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاس (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾(٣).

وعــلاج الخطــوة الثالثة -المس- الاستعاذة فهي من قبيل ذكــر الله جل وعلا، فإذا هم مبصرون.

وبهــذا نجد أن الاستعاذة علاج لخطوات الشيطــان، ولقد حصنت الشريعة الإسلامية الأســرة في جميــع شؤونها، بل ندبت المرء من أجل تحصين ذريته أن يتعوذ من الشيطان عند إتيــان أهلــه فقد جــاء في الحديث: لــو أن أحدكم إذا أتــى أهله قال باســم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فقضي بينهما ولد لم يضره(٤).

وامــرأة عمــران حينما وضعت أنثى تعوذت بالله من الشيطــان لكي لا يضرها فقال الله علــى لسانها: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَــتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَــى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَــرْيَمَ وِإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِــنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾(٥)، ولذلك كان من هديه صلى الله عليه وسلم أن يؤذن في أذن المولود اليمنى وتقام الصلاة في اليسرى ؛ وذلك لطرد الشيطان عنه وتحصينه منه.

---

(١) - سورة المؤمنون: ٩٧-٩٨

(٢) - سبق تخريجه.

(٣) - سورة الناس: ١-٤

(٤) - أخرجه البخاري، باب التسمية على كل حال وعند الوقاع ١/٤٠، برقم ١٤١

(٥) - سورة آل عمران: ٣٦

وقد جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (صياح المولود حين يقع نزغة من الشيطان) (١) رواه مسلم، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم كل بني آدم يطعن الشيطان في جنبيه بإصبعه حين يولد غير عيسى ابن مريم ذهب يطعن فطعن في الحجاب(٢). وفي رواية: قال ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخًا من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها ثم يقول أبو هريرة واقرءوا إن شئتم ﴿ وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾(٣).

وتستخدم الاستعاذة رقية مشروعة، فقد جاء في حديث عثمان بن أبي العاص الثقفي، أنه شكا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعاً يجده في جسده منذ أسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ضع يدك على الذي تألم من جسدك، وقل باسم الله ثلاثًا، وقل سبع مرات أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر"(٤).

وقد وردت عدة صيغ للاستعاذة ومنها: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) لموافقتها الأمر الرباني في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾(٥). وما جاء في حديث سليمان بن صرد ، والذي قال فيه صلى الله عليه وسلم: إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) (٦). والصيغة الثانية: (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم) وهذه الصيغة وردت في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا قام إلى الصلاة استفتح ثم قال: (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه) (٧).

وبيّن الله في كتابه أن البعيد عن ذكره، والمعرض عن ربه، قرينه الشيطان، فيصرفه عن

---

(١) – أخرجه مسلم ، باب: فضائل عيسى عليه السلام ١٨٣٨/٤ برقم ٢٣٦٧

(٢) – أخرجه البخاري، باب صفة إبليس وجنوده ٤/ ١٢٥ ، برقم ٣٢٨٦.

(٣) – أخرجه البخاري، باب ﴿ وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم، ٦/ ٣٤، برقم ٤٥٤٨، و أخرجه مسلم، باب فضائل عيسى عليه السلام ١٨٣٨/٤ ، برقم ٢٣٦٦

(٤) – أخرجه مسلم، باب: استحباب وضع يده على موضع الألم ١٧٣٨/٤ برقم ٢٢٠٢

(٥) – سورة النحل: ٩٨.

(٦) – سبق تخريجه.

(٧) – سنن أبي داود ، باب من رأى الاستفتاح بسبحانك ٨٢/٢ برقم ٧٧٥.

الطريق المستقيم، وهو يظن أنه على الحق المبين فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ( ) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٧) ﴾(١) ذاك لأنهم اتبعوا خطواته، فتلقى منه ما يلائم أخلاقه، ويصده عن الهدى، والتقى، وهو يحسب أنه على الخير، قال ابن جرير: ويظن المشركون بالله بتحسين الشياطين لهم ما هم عليه من الضلالة، أنهم على الحق والصواب(٢).

قال الزمخشري: فإن قلت: كيف جاز أن يقيض لهم القرناء من الشياطين وهو ينهاهم عن اتباع خطواتهم؟ قلت: معناه أنه خذلهم ومنعهم التوفيق لتصميمهم على الكفر، فلم يبقَ لهم قرناء سوى الشياطين، والدليل عليه وَمَنْ يَعْشُ نقيض(٣).

المطلب الثاني: الإيمان.

قال ابن منظور: واتفق أهل العلم من اللغويين وغيرهم أن الإيمان معناه التصديق(٤)، وقال الراغب: ويقال لكل واحد من الاعتقاد والقول الصدق والعمل الصالح: إيمان. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ (٥)، أي: صلاتكم، ....قال تعالى: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾(٦)، قيل: معناه: بمصدق لنا، ...وجعل النبي صلى الله عليه وسلم أصل الإيمان ستة أشياء في خبر جبريل حيث سأله فقال: ما الإيمان؟ والخبر معروف(٧).

لقد حمى الله - سبحانه وتعالى- المؤمنين من وعيد الشيطان وتهديده في حربه على عباده بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾، أي أنه ليس للشيطان تسلط

(١) - سورة الزخرف: ٣٦-٣٨

(٢) - جامع البيان ٧٢٩١/٩

(٣) - الكشاف ١٩٦/٤

(٤) - لسان العرب ١٦٤/١

(٥) - سورة البقرة:١٤٣

(٦) - سورة يوسف: ١٧

(٧) - مفردات ألفاظ القرآن ص ٥٢ -٥٣

وتأثير على المؤمنين المتوكلين على الله ربهم، حيث إن دعوته لهم إلى الشرك والمعاصي غير مستجابة، ووسوسته لا تؤثَر فيهم، لاعتصامهم بالإيمان المتين، وإخلاصم العبادة لله رب العالمين، وتوكلهم عليه وحده في كل ما يعملون وما يتركون، واستعانتهم به على تحمل مشاق التكاليف ونزغات الشيطان، أو أنه كما قال الثورى: ليس له عليهم سلطان يوقعهم في ذنب لا يتوبون منه(١).

قال ابن جرير: فإنه يعني بذلك: أن الشيطان ليست له حجة على الذين آمنوا بالله ورسوله، وعملوا بما أمر الله به وانتهوا عما نهاهم الله عنه(٢).

إن صاحب الإيمان بالله، العارف بربه، الواثق به، المتوكل عليه، لا سبيل للشيطان عليه؛ نظراً لتسلحه بسلاح الإيمان، والاعتصام، والقرآن.

قال الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم : (إن أحدنا ليجد في نفسه ما لأن يحترق حتى يصير حممة أو يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتكلم به. قال: أو قد وجدتموه ؟ قالوا: نعم قال: ذاك صريح الإيمان وفي رواية قال: الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة) (٣)، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: فالشيطان لما قذف في قلوبهم وسوسة مذمومة تحرك الإيمان الذي في قلوبهم بالكراهة لذلك والاستعظام له فكان ذلك صريح الإيمان ؛ ولا يقتضي ذلك أن يكون السبب الذي هو الوسوسة مأمورًا به(٤). وهذه هي الحقيقة التي ينبغي أن ينتبه لها كل مؤمن فلا يقع في خطوات الشيطان.

إن المؤمنين يعلمون بأن الحفاظ على الأسرة يكمن في الدخول في الإسلام كافة، وذلك بتطبيق شرائعه، والالتزام بأحكامه، والوقوف عند حدوده، وخلاف ذلك ليس إلا اتباعاً لخطوات الشيطان، لذا جاء النداء الرباني لأهل الإيمان بالامتثال لهذا والالتزام ، وهو

(١) - التفسير الوسيط ٦٧٧/٥

(٢) - جامع البيان ٢٩٣/١٧

(٣) - أخرجه ابن حبان، باب: ذِكْرُ الْإِبَاحَةِ لِلْمَرْءِ أَنْ يَعْرِضَ بِقَلْبِهِ شَيْءٌ مِنْ وَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ بَعْدَ أَنْ يَرُدَّهَا مِنْ غَيْرِ اعْتِقَادِ الْقَلْبِ عَلَى مَا وَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ، ٣٦٠/١ برقم ١٤٧ وصححه الألباني.

(٤) - مجموع الفتاوى ٥٦٣/١٠

الدخـول في الإسلام كمنظومـة متكاملة، قال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِيـنَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً أي في الإسلام جميعًا وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ﴾ (١).

المطلب الثالث: الإخلاص.

لقـد استثنى الشيطـان المخلصين من معركته التي سيخوضها مـع ذرية آدم؛ لأنه يعلم بـأن كيده لا يعمل فيهم، وخطواته لا تقدر عليهم، ودعوته لصناعة المشكلات غير مستجابة، فـلا يقبلـون ظنونه وتلبيسـه ولا يستسلمون لنزغاتـه ووساوسه، قال الله تعـالى على لسانه: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إلا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (٢).

قـال ابن جرير: وَقَدْ قُرِئَ: ﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ﴾ ، فمن قرأ ذلك كذلك، فإنه يعني به: إلا من أخلص طاعتك، فإنه لا سبيل لي عليه(٣).

قـال ابن زنجلـة: قرأ ابن كثير وأبو عمـرو وابن عامر المخلصين بكسـر اللام في جميع القـرآن أي أخلصوا دينهم وأعمالهم من الرياء وحجتهم قوله: ﴿وأخلصوا دينهم﴾ وقوله: ﴿مخلصًـا له ديني﴾ فإذا أخلصوا فهم مخلصون، تقول: رجل مخلص مؤمن، فترى الفعل في اللفظ له.(٤).

قـال سعيد حوى: هـذا الشرط الذي قرره إبليس- اللعين- قـرره وهو يدرك أن لا سبيل إلى سـواه، لأنـه سنة الله أن يستخلص لنفسه من يخلص له نفسـه وأن يحميه ويرعاه. ومن ثـم كان الجـواب: ﴿هذا صِراطٌ عَلَـيَّ مُسْتَقِيمٌ× إِنَّ عِبـادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِـمْ سُلْطانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَـكَ مِنَ الْغاوِينَ﴾ (٥)، ...إِنَّ عِبادِي المخلصين لي ليس لك عليهم سلطان، ولا لك فيهم تأثير، ولا تملك أن تزين لهم، لأنك عنهم محصور، ولأنهم منك في حمى، ولأن مداخلك إلى

(١) – سورة البقرة: ٢٠٨

(٢) – سورة الحجر : ٣٩-٤٠

(٣) – جامع البيان ٦٨/١٤

(٤) – حجة القراءات ص ٣٥٨-٣٥٩ والتيسير في القراءات السبع ٣٢١

(٥) – سورة الحجر: ٤١-٤٢

نفوسهـم مغلقة وهم يعلقون أبصارهم بالله، ويدركون ناموسـه بفطرتهم الواصلة إلى الله، إنما سلطانك على من اتبعك من الغاوين الضالين(١).

وقـد بيّن النبي صلـى الله عليه وسلم عظمة النية وشرط قبـول الأعمال وصلاحها بها، فقال صلى الله عليه وسلم في الحديث المشهور الذي يرويه عمر بن الخطاب رضي الله عنه: قَـالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهَّ صَلَّى الله عَلَيْه وَسَلَّـمَ يَقُولُ: "إنمَّا الأَعْمَالُ بالنِّيَّات، وَإنمَّا لكُلِّ امْرئ مَـا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُـهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَـا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ" (٢).

قـال النووي: حديث صحيـح متفق على صحته، مجمع على عظـم موقعه وجلالته، وهو إحدى قواعد الإيمان وأول دعائمه،...وهو أحد الأحاديث التي عليها مدار الإسلام) (٣).

وبهـذا فالإخلاص يعد مـن أعظم وسائل التحصين من الشيطـان الرجيم، والتي أعلن عـن عجزه وإقراره في عهـده بأنه لا يقدر على مواجهة المخلصين، إنـه الوسيلة التي تتحطم أمامهـا آماله، وتتكسر عندهـا خطواته، ويختفي تماماً، هؤلاء المخلصـون هم القليل الذين استثناهـم في قولـه: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَـهُ إِلاَّ قَلِيلا﴾ (٤)، وليس هذا لزهـده فيهم، بل ليأسه منهـم؛ لأنهم أقبلـوا على الله بقلوبهم، وصدق نواياهم، وصـلاح أعمالهم، وسائر حركاتهم وسكناتهم، في مجتمعهم وأسرهم وبين أقاربهم وأبنائهم، ولقد عهد الله على نفسه في كتابه، وأكد ذلك بقوله: هذا صِراطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ× إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ.

والشيطـان يحرص تمامـاً على أن يصد الإنسان ويصرفه عن الإخلاص في تعامله تجاه أهله وأسرته، ومن هذا المنطلق جاءنا الهدي النبوي بهذا التوجيه العظيم، في الحديث الذي يرويـه ابْن عَبَّاسٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: "خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِه، وَأَنَا خَيْرُكُمْ

(١) – الأساس في التفسير ٢٨٨١/٦
(٢) – أخرجه البخاري، باب: كَيْفَ كَانَ بَدْءُ الوَحْيِ إِلَى رَسُولِ اللَّهَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٦/١ برقم ١
(٣) – المجموع شرح المهذب ١٦/١
(٤) – سورة الإسراء : ٦٢

لِأَهْلِي" (١)، إن هذه الخيرية التي ذكرها رسول الله ليست إلا في أهل الإخلاص؛ لأنهم مخلصون في تعاملهم مع أهاليهم بأخلاق كريمة في موطن انعدام رؤية الناس.

ولئن كان الإنسان في مقدوره أن يكون صاحب أخلاق مع زملائه، ويتعامل بمروءة وتسامح خارج بيته، فمن الصعب عليه أن يكون كذلك داخل بيته، والفرق بين الحالتين تعود للفرق بين من يتعامل ، وهو يطلب رؤية الخلق، ومن يتعامل ، وهو يطلب رؤية الخالق.

إن المخلصين لا يطلبون رؤية أحد سوى الله، ولهذا هم أصحاب الخيرية مع أهاليهم، وأصحاب الكرم والصدق والبر والصلة والتسامح والتغافر والعفو والصفح والصبر تجاه أسرهم؛ لكونهم يعلمون أن التعامل بغير هذا النهج ليس إلا استجابة لخطوات الشيطان الماكرة وأساليبه الخبيثة.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ× لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٢)، وتأمل قوله تعالى: (ومحياي) أي: الحياة كلها لله، حياتك مع أسرتك ومع مجتمعك لابد أن تكون وفق ما يرضي الله، وبعيدة عما يسخطه، ويوجب عقوبته.

ومما لا شك فيه أن المشكلات الأسرية لا تتمكن إلا من قلوب الغاوين، بينما المخلصين ليس لديهم وقت يصرفونه في التفكير بالأهداف التافهة، والمشكلات السخيفة، والتي لا تأتي إلا بالقطيعة والشقاق والنفاق وسوء الأخلاق والطلاق والفراق والقتل والفساد.

إن نصيب الشيطان من الإنسان بقدر بعده عن الإخلاص، فكلما ابتعد عن الإخلاص اقترب منه الشيطان، واستحوذ عليه، واستهواه وزين له عمله، واتخذه خليلاً وتولاه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ومن لم يكن خالصًا لله عبدا له قد صار قلبه معبدا لربه وحده لا شريك له بحيث يكون الله أحب إليه من كل ما سواه ويكون ذليلا له خاضعا وإلا استعبدته الكائنات واستولت على قلبه الشياطين وكان من الغاوين إخوان الشياطين وصار فيه من

(١) - أخرجه ابن ماجه في سننه، باب حسن معاشرة النساء ١/٦٣٦ برقم ١٩٧٧

(٢) - سورة الأنعام: ١٦٢

السوء والفحشاء ما لا يعلمه إلا الله ، وهذا أمر ضروري لا حيلة فيه ؛ فالقلب إن لم يكن حنيفًا مقبلاً على الله معرضًا عما سواه وإلا كان مشركًا (١).

المطلب الرابع: التوكل:

والتوكل من التوكيل، وقد عرفه الراغب بقوله: أن تعتمد على غيرك وتجعله نائبًا عنك (٢)، ومن أسماء الله الوكيل، وهو المتكفل بأرزاق خلقه، قال ابن منظور: هو المقيم الكفيل بأرزاق العباد، وحقيقته أنه يستقل بأمر الموكول إليه. وفي التنزيل العزيز: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ (٣) ... والمتوكل على الله: الذي يعلم أن الله كافل رزقه وأمره فيركن إليه وحده ، ولا يتوكل على غيره (٤). وكما حمى الله - سبحانه وتعالى- المؤمنين من وعيد الشيطان وتهديده في حربه على عباده، فإنه حمى معهم المتوكلين عليه، فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ قال ابن جرير: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يقول: وعلى ربهم يتوكلون فيما نابهم من مهمات أموره (٥).

والمتوكلون على ربهم لا سبيل للشيطان عليهم؛ لأنهم يدركون الفرق بين وعد الله ووعد الشيطان، وما تدعو له نزغات الشيطان ووساوسه، وما تدعو إليه أوامر الله جل جلاله، ويعلمون ما يريد الله وما يريد الشيطان، ولذا يستحيل أن يتخذوا الشيطان ولياً من دون الله، وهم يعلمون عداوته، فبئس للظالمين بدلاً.

إن من أكبر وأخطر مداخل الشيطان على الإنسان هو تخويفه من الفقر، وبالتالي يأمره بالفحشاء ، وهو أن يلجأ الإنسان إلى أكل المال الحرام بالحصول عليه بوسائل غير مشروعة كالسرقة والربا والرشوة، ولو أنه توكل على الله، وأجمل في طلب الرزق لجاءه حلالاً طيباً، وقد بيّن الله في كتابه بأن الخوف من الفقر هو نتيجة استجابة للشيطان فقال: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ

(١) - مجموع الفتاوى ٢١٦/١٠

(٢) - مفردات ألفاظ القرآن ٦٨٧

(٣) - سورة الإسراء: ٢

(٤) - لسان العرب ١٥/ ٢٧٢

(٥) - جامع البيان ٢٩٣/١٧

يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (١)، بينما وعد الله مختلف تماماً، إن وعده كان مأتياً بالمغفرة والفضل، فهو واسع عليم.

لقد أمرنا الله أن لا نأكل إلا طيباً حلالاً، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ (٢). إذ أن الوسائل المحرمة في الحصول على الرزق ليست إلا استجابة لخطوات الشيطان، قال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٣). وقوله : (حلالاً طيبًا) خرجت به المحرمات التي ثبت تحريمها في الكتاب والسنة، ومثله قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٤)، فالمؤمن يعلم بأن أكل المال الحرام من أسباب مشاكل الأسرة وخرابها، ووسائل تفكيكها، ولذا حذرنا الله من اتباع خطوات الشيطان في هذه الجزئية، قال الفضيل: إني لأعصي الله عز وجل فأعرف ذلك في خلق دابتي وجاريتي(٥). وما نلحظه اليوم من عقوق متفشي، وخصومات بين الزوجين لا تنتهي، وقطيعة للأرحام، ومن أسباب ذلك أكل المال الحرام.

إن المتوكل على الله لا يخشى على رزقه؛ لعلمه بأن الرزاق هو الله، ولا يخشى من أحد على رزقه؛ لعلمه بأن الضار هو الله، وأن رزقه قد قسمه الله ، وهو في بطن أمه، وجعله في اللوح المحفوظ وليس بمقدور أحداً أن يصعد إلى السماء ويأخذ اللوح المحفوظ فينقص من رزقه مثقال ذرة، مهما علا شأنه وعز سلطانه، فيعيش مطمئناً على رزقه، متوكلاً على الله وحده، ولذلك نجد أن التوكل على الله علاج لصد هجمات الشيطان وخطواته.

المطلب الخامس: التوبة.

إن أول توبة أعلنت هي توبة آدم بعد أن أزله الشيطان وأخرجه من الجنة، فأقبل على

(١) – سورة البقرة: ٢٦٨
(٢) – سورة البقرة: ١٧٢
(٣) – سورة البقرة: ١٦٨
(٤) – سورة الأنعام: ١٤١
(٥) – صيد الخاطر ص ٦٦ ونقله ابن القيم الجوزية عن بعض السلف، انظر: الداء والدواء ص ٥٤.

الله بقلبه، وقال مناجياً ربه: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (١)، وهذه هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه في قوله: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (٢)، فقبل الله توبته، وغفر له، فهو سبحانه كثير التوبة على عباده، رحيمٌ بهم.

قال الراغب الأصفاني: التوب: ترك الذنب على أجمل الوجوه، وهو أبلغ وجوه الاعتذار، فإن الاعتذار على ثلاثة أوجه: إما أن يقول المعتذر: لم أفعل، أو يقول: فعلت لأجل كذا، أو فعلت وأسأت وقد أقلعت، ولا رابع لذلك، وهذا الأخير هو التوبة، والتوبة في الشرع: ترك الذنب لقبحه والندم على ما فرط منه، والعزيمة على ترك المعاودة، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالإعادة، فمتى اجتمعت هذه الأربعة فقد كملت شرائط التوبة. وتاب إلى الله(٣). ووردت التوبة بمعنى الرجوع في قوله : ﴿وتوبو إلى الله﴾ وبمعنى الندامة في قوله: ﴿ فإن تبتم فهو خير لكم﴾.

لقد أمر الله عباده بالتوبة والإنابة إليه فقال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً﴾ (٤)، هذا النداء في سورة التحريم، السورة التي جاءت لتعالج أهم مشكلة حصلت داخل أعظم أسرة وأطهر بيت عرفه التاريخ، إنه بيت النبوة، فيها دلالة على أنها وسيلة من وسائل تحصين الأسرة المسلمة، بل جاء الخطاب الرباني في هذه السورة مباشراً لحفصة وعائشة على طريقة الالتفات ليكون أبلغ في معاتبتهما فقال تعالى: ﴿إِنْ تَتُوبا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما﴾ (٥)، والمراد بالتوبة هنا هي التوبة النصوح.

وفي الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون) (٦).

---

(١) – سورة الأعراف : ٢٣

(٢) – سورة البقرة: ٣٧

(٣) – مفردات ألفاظ القرآن ١١٤

(٤) – سورة التحريم: ٨

(٥) – سورة التحريم: ٤

(٦) – سنن الترمذي، باب:٤٩، ٦٥٩/٤ برقم ٢٤٩٩ وحسنه الألباني.

وإذا كان الشيطـان يحضر عند سكرات مـوت الآدمي، وفي لحظاته الأخيرة يحاول معه على أن يضله، ويمنعه من نطق كلمة التوحيد، كما قال الله: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزاتِ الشَّياطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ (١). في هذه اللحظات يتمنى الغاوون العودة إلى الدنيا لكي يعملوا صالحًا، ولكن هيهات كما قال الله تعالى: ﴿حَتَّى إذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قـالَ رَبِّ ارْجِعُـونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهـا كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها وَمِنْ وَرائِهِمْ بَـرْزَخٌ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (٢)، إن هـذا التسويف بالتوبة من أساليب الشيطان ليلحق الإنسان في ركـب المسرفـين، وما عليك إلا أن تبادر فورًا بالتوبة من جميع الذنوب والمعاصي والهفوات والزلات.

إن أعظـم المشـكلات الأسرية والجرائم الأخلاقية من قتل وزنـا، تعالج بالتوبة والعودة إلى الله: قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَـقِّ وَلا يَزْنُـونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أَثاماً (٦٨) يُضاعَفْ لَهُ الْعَذابُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهانـاً (٦٩) إِلاَّ مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صالِحـاً فَأُولئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (٧٠) وَمَنْ تابَ وَعَمِلَ صالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتاباً (٧١)﴾ (٣).

وَجاء في الْبُخَارِيُّ من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ نَاسًا مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ كَانُوا قَـدْ قَتَلُـوا فَأَكْثَرُوا، وَزَنَوْا فَأَكْـثَرُوا، فَأَتَوْا مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّـمَ فَقَالُوا: إِنَّ الَّذِي تَقُولُ وَتَدْعُـو إِلَيْـهِ لَحَسَنٌ لَوْ تُخْبِرُنَا أَنَّ لِمَا عَمِلْنَا كَفَّارَةٌ فَنَـزَلَ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ وَلا يَقْتُلُـونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ [الفرقـان: ٦٨] ونزل قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ [الزمر: ٥٣] (٤).

إن التوبة حصن منيع للإنسان من خطوات الشيطان، وعلاج لكل الأدواء، وسبب لسعادة الأسرة، وصلاح المجتمعات : ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٥).

(١) – سورة المؤمنون: ٩٧–٩٨

(٢) – سورة المؤمنون ٩٩–١٠

(٣) – سورة الفرقان: ٦٨–٧١

(٤) – أخرجه البخاري باب: قوله: يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم، ١٢٥/٦ برقم ٤٨١٠

(٥) – سورة آل عمران: ١٠١

المطلب السادس: التسلح بالمفاهيم القرآنية، والإيجابية.

سبق وأن تكلمنا بأن الشيطان ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، وهذا ما ثبت في القرآن الكريم، ومن هذا المنطلق فأهل الإيمان والمتوكلون على الله هم وحدهم أصحاب المفاهيم القرآنية والإيجابية، فلا سبيل للشيطان على هؤلاء ولا سلطان.

بينما الجاهلون بالله وبحقيقة عدوهم هم الذين يتربع الشيطان على عروشهم، ويدمر حياتهم وبيوتهم وأسرهم، قال الله: ﴿إِنمَّا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾(١).

وفي صحيح مسلم من حديث جابر رضي الله عنه قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: إن الشيطان يحضر أحدكم عند كل شيء من شأنه حتى يحضره عند طعامه فإذا سقطت من أحدكم اللقمة فليمط ما كان بها من أذى ثم ليأكلها ولا يدعها للشيطان، فإذا فرغ فليلعق أصابعه فإنه لا يدري في أي طعامه تكون البركة. (٢).

والشاهد من هذا الحديث هو قوله صلى الله عليه وسلم: إن الشيطان يحضر أحدكم عند كل شيء من شأنه. ولذا نجد أصحاب المفاهيم القرآنية والإيجابية في غاية الحذر من الشيطان؛ لعلمهم يقيناً أنه يترصدهم في جميع شؤونهم، ولدقة هذا المفهوم العميق بيّن النبي صلى الله عليه وسلم أن الشيطان قد يؤذيك في اللقمة إذا سقطت من يدك، ولهذا قال: فليمط ما كان بها من أذى ثم ليأكلها ولا يدعها للشيطان.

فكيف بحياتك العامة مع أطفالك وأسرتك، كيف سيكون أذاه لك؟! لا يمكن أن يتخلى عنك، فهو يعمل في كل اتجاه، وعلى جميع الجبهات، يتربص بك الشر والفساد.

قال الطاهر ابن عاشور عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾: إشارة إلى أن الفزع إلى الله من الشيطان، عند ابتداء إلمام الخواطر

(١) - سورة النحل: ١٠٠

(٢) أخرجه مسلم، باب استحباب لعق الأصابع والقصعة وأكل اللقمة الساقطة بعد مسح ما يصيبها من أذى، ٣/ ١٦٠٧، برقم ٢٠٣٣

الشيطانية بالنفس، لأن تلك الخواطر إذا أمهلت لم تلبث أن تصير عزما ثم عملا (١).

وقال أبو حيان: هنا جاءت الجملة خبرية في ضمنها الشرط ، وجاء الخبر تذكروا فدل على تمكن مس الطائف حتى حصل نسيان فتذكروا ما نسوه ، والمعنى تذكروا ما أمر به تعالى وما نهى عنه، وبنفس التذكر حصل إبصارهم فاجأهم إبصار الحق والسداد فاتبعوه وطردوا عنهم مس الشيطان الطائف(٢).

هؤلاء مبصرون لنزغات الشيطان، ويعرفون مداخله، وبالتالي يواجهونه بالفهم القرآني الإيجابي الذي يربطهم بربهم، فإذا نزغ الشيطان لهم قضية ثأر واقتتال تذكروا بأنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعًا، وتذكروا بأنه : ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (٣).

وتذكروا الرجل الإيجابي المؤمن الذي تقبل الله منه ، وهو يدافع أخاه بقوله : ﴿ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ﴾ (٤)، فيستعيذوا بالله من الشيطان ويفوضوا أمرهم لله وتنتهي قضيتهم عند هذا الفهم الإيجابي.

قال سعيد حوى في قوله تعالى: لَئِنْ بَسَطْتَ. أي: مددت إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي ما أَنَا بِباسِطٍ. أي: بماد يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ. أي: لا أقابلك على صنيعك الفاسد بمثله فأكون أنا وأنت سواء في الخطيئة، ثمّ بيّن علّة امتناعه عن القتل بقوله: ﴿إِنِّي أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِينَ﴾ (٥).

قال محمد المكي: فهذه القصة التي حكاها القرآن الكريم تصف لنا نموذجين من البشر تمكنت من أحدهما روح الاعتداء، كما تمكنت روح الطيبوبة من الآخر، وهما وجها لوجه، دون رادع يردع الأول من الثاني:

(١) – التحرير والتنوير ٢٣٢/٨-٢٣٣
(٢) – البحر المحيط ٤٤٥/٤
(٣) – سورة النساء: ٩٣
(٤) – سورة المائدة: ٢٨-٢٩
(٥) – الأساس في التفسير ١٣٥٩/٣

النموذج الأول: نموذج الإنسان النزاع إلى الشر، الميال إلى العدوان، المصر على الأذى، المتعدي للحدود.

النموذج الثاني: نموذج الإنسان النزاع للخير، الميال إلى الإنصاف، الحريص على الإحسان، المتمسك بالتقوى(١).

وقال أبو السعود: فيه من إرشاد قابيل إلى خشية الله تعالى، على أبلغ وجه وآكده، ما لا يخفى. كأنه قال: إني أخافه تعالى إن بسطت يدي إليك لأقتلك، أن يعاقبني. وإن كان ذلك مني لدفع عداوتك عني. فما ظنّك بحالك وأنت البادئ العادي؟ وفي وصفه تعالى بربوبيّة العالمين تأكيدًا للخوف. قيل: كان هابيل أقوى منه. ولكن تحرّج عن قتله واستسلم خوفًا من الله تعالى. لأن القتل للدفع لم يكن مباحا حينئذ. وقيل: تحريًا لما هو الأفضل.

وإذا نزغ لهم الشيطان فكرة السحر للوصول إلى أطماع شهوانية، أو تفكيك أسرة مؤمنة، أو لغرض التفريق بين زوجين، تذكروا قول الله: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ﴾(٢) فيقفون عند هذا الحد؛ لعلمهم يقيناً أن الضار والنافع هو الله وأن ما يقومون به ويتعلمونه يضرهم ولا ينفعهم فلا يمكن أن يقبلوا الضرر على أنفسهم.

إن هذه المشكلة من أبرز المشكلات المعاصرة التي تدمر الأسر وتفكك المجتمعات ولا يقوم بها إلا الجاهل بربه، المتبع للشيطان.

إن صاحب الفهم الإيجابي القرآني إذا اختلف مع زوجته فلا يمكن أن يقبل بتطوير الخلاف إلى حد الطلاق؛ لفهمه بدور الشيطان وحظه من توسيع الخلافات الأسرية، ويستحضر في خاطره أن الخلافات الأسرية لم يسلم منها بيت النبوة، ومع ذلك يؤمنون بالحلول لأي مشكلة بالمعروف ، ويسود التفاهم، ويعم الوفاق، والوئام.

إنهم يعلمون أن الطلاق معول هدم للأسرة وتفكيكها، وهذه المشكلة يقدم عليها اليوم

(١) - التيسير في أحاديث التفسير ٤٨/٢

(٢) - سورة البقرة: ١٠٢

الكثير من أهل الجهل والظلم؛ نظرًا لعدم إدراكهم المفاسد المترتبة بسبب الطلاق على الأسرة والأولاد خصوصاً.

الشخص الإيجابي يعلم تمامًا أن للطلاق أحكامه، وأسبابه، وأن الله أمر عباده بتقوى الله في كل آية في سورة الطلاق حتى لا يتساهل به أحد، ويتعد حدود الله.

إن الرجل الإيجابي وصاحب الفهم القرآني لا يمكن أن يقدم على أي جريمة أخلاقية، لعلمه بأنها من حدود الله، وثقته بأن ﴿مَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ وإدراكه بأن الاقتراب منها فيه دمار لمستقبله في الدنيا والآخرة قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً﴾ (١).

المطلب السابع: القول الحسن.

لقد أمر الله عباده بالقول الحسن؛ لأن الشيطان ينزغ بينهم، ويلقي بينهم بالفساد، ويوقع بينهم الشحناء، إذ النزغ إيقاع الشر، وإفساد ذات البين، فيوقع الشيطان الشر والمشكلات والمخاصمة والمقاتلة فقال تعالى: ﴿وَقُل لِعبادي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ (٢)، والقول الحسن المقصود به الكلمة الطيبة في مخاطباتهم مع بعضهم، وإذا كان الله يأمرنا بأن لا نجادل أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن فقال تعالى: ﴿وَلا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (٣)، فمن باب أولى إخواننا المسلمين، والأولى من هذا كله الأقربون، حفاظاً على الأرحام، فالسب والشتم والأذى ليس من القول الحسن في شيء، بل هو طريق إلى تهييج الشر، ووقوع المخاصمة والمقاتلة.

قال محمد المكي: أي يختاروا الكلمة التي هي أحسن على الكلمة التي هي دونها حسنًا، في جميع مخاطباتهم وعلاقاتهم مع الناس، ولو كان المخاطبون مشركين أو كتابيين، فما بالك بإخوانهم المؤمنين. وعرض كتاب الله في هذا السياق مثالاً من أمثلة الكلمة التي هي

---

(١) - سورة الإسراء: ٣٢

(٢) - سورة الإسراء: ٥٣

(٣) - سورة العنكبوت: ٤٦

أحسن، لتكون نموذجًا للأسوة والإقتداء، وهذا المثال هو قوله تعالى على لسان عباده المؤمنين لمخالفيهم في العقيدة والدين: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ آية معترضة بين قوله " التي هي أحسن " وقوله " ربكم أعلم بكم " جيء بها مبالغة في تحذير المؤمنين من فلتات اللسان، التي تعد من أخطر مصايد الشيطان، لأنها توغر صدر الإنسان على أخيه الإنسان ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾(١).

قال السعدي: وهذا أمر بكل كلام يقرب إلى الله من قراءة وذكر وعلم وأمر بمعروف ونهي عن منكر وكلام حسن لطيف مع الخلق على اختلاف مراتبهم ومنازلهم، وأنه إذا دار الأمر بين أمرين حسنين ؛ فإنه يأمر بإيثار أحسنهما إن لم يمكن الجمع بينهما، والقول الحسن داع لكل خلق جميل وعمل صالح ؛ فإن من ملك لسانه ملك جميع أمره(٢).

وقال صاحب الظلال في قوله: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ على وجه الإطلاق وفي كل مجال. فيختاروا أحسن ما يقال ليقولوه..بذلك يتقون أن يفسد الشيطان ما بينهم من مودة. فالشيطان ينزغ بين الإخوة بالكلمة الخشنة تفلت، وبالرد السيّء يتلوها فإذا جو الود والمحبة والوفاق مشوب بالخلاف ثم بالجفوة ثم بالعداء. والكلمة الطيبة تأسو جراح القلوب، تندّي جفافها، وتجمعها على الود الكريم(٣).

إن القول الحسن، والكلمة الطيبة تقطع الطريق أمام مداخل الشيطان وخطواته، فيعجز عن تحقيق أهدافه، وإيقاعه الفساد بين الناس، ولذا فالكلمة الطيبة من أهم وسائل تحصين القرآن للأسرة المسلمة، وقال تعالى في موضع آخر: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾(٤)، وذلك في مخاطبتهم بما تطيب به نفوسهم؛ وعدم الإساءَة إليهم بالقول والخشونة؛ فإن الفظاظة والغلظة لا تليق بأخلاق المسلمين، وهذا الأمر بالقول الحسن للناس جاء مقروناً

(١) - التيسير في أحاديث التفسير ٣/٣٩٦-٣٩٧

(٢) - تيسير الرحمن ص ٤٦٠

(٣) - في ظلال القرآن ٤/٢٢٣٤

(٤) - سورة

بعبادة الله والإحسان إلى الوالدين، والأقربين، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ولم يكن أمراً فحسب، بل ميثاق وعهد أخذه الله على بني إسرائيل؛ لأهميته، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ﴾ (١)، وقد أمر الله نبيه موسى عليه السلام في أن يخاطب فرعون بالقول الحسن واللين، فقال الله له: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا﴾ (٢) وبيّن الحكمة من هذا الخطاب فقال: ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾؛ ليكون أوقع عليه في نفسه، وأقرب إلى قلبه، ومفهوم المخالفة أن الخشونة في القول تدعو للعناد والاستكبار والنفور ، ويعينه الشيطان على ذلك.

لقد أمرنا الله أن ندفع بالحسنى فقال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٣).

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: فهذه ثلاث آيات ليس لهن رابعة في معناها ، وهو أن الله تعالى يأمر بمصانعة العدو الإنسي والإحسان إليه ليرده عن طبعه الطيب الأصل إلى الموالاة والمصافاة ، ويأمر بالاستعاذة به من العدو الشيطاني لا محالة إذ لا يقبل مصانعة ولا إحساناً ، ولا ينبغي بغير هلاك ابن ادم لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم من قبل اهـ.

المطلب الثامن: علاج السحر بالرقية الشرعية.

تناولنا في المطلب الأول من المبحث الأول الحديث عن خطوات الشيطان، وذكرنا خطوتين لمن هم أكثر ضلالاً وبعداً عن الله، وهاتان الخطوتان – الوحي والتنزيل- خاصة بالسحرة والمشعوذين والكهان والعرافين، ولذا نجد الكثير من الأسر تعاني من مشاكل كبيرة بسبب هؤلاء، هذه المشكلات قد تصل إلى حد الدمار للبيوت وإحراقها وإغراقها بالفساد والإفساد،

(١) – سورة البقرة: ٨٣

(٢) – سورة طه: ٤٤

(٣) – سورة فصلت: ٣٤- ٣٦

وهذا هو الهدف الأكبر للشيطان، بالإضافة إلى صرف الناس عن توحيد الله، والإشراك به، والشيطان لا يقدم هذه الخدمات للساحر إلا بعد تأكده من حقيقة ولائه له.

معنى السحر: الأُخْذَةُ. وكلُّ ما لَطُفَ مَأْخَذُهُ ودَقَّ فهو سِحْرٌ...وسَحَرَهُ أيضاً: بمعنى خَدَعَهُ(١).

وقال ابن فارس: قال قوم: هو إخراج الباطل في صورة الحقِّ، ويقال هو الخديعة(٢). وفي الحديث: (إن من البيان لسحرًا) (٣) لما فيه من استمالة القلوب والتأثير في الآخرين حتى يحقق المطلوب.

وهنا يتساءل البعض هل السحر حقيقة في الخارج أم أنه مجرد خيال؟ واستدل من يقول بأنه مجرد خيال بقوله تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ (٤)، ونقل الشوكاني الإجماع على أنه حقيقة وقال: لم يخالف في ذلك إلا المعتزلة وأبو حنيفة(٥).

والواقع المشاهد أن السحر حقيقة بدلالة تفريقه بين المرء وزوجه كما قال الله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ (٦).

وعلاج السحر بالرقية الشرعية(٧)، والإكثار من قراءة القرآن ففيه شفاء كما قال

---

(١) - الصحاح ٦٧٩/٢ ولسان العرب ٤/ ٣٤٨

(٢) - معجم مقاييس اللغة ١٣٨/٣

(٣) - أخرجه البخاري باب: الخطبة، ١٩/٧ برقم ٥١٤٦

(٤) - سورة طه: ٦٦

(٥) - فتح القدير ٤٣٩/٣

(٦) - سورة البقرة: ١٠٢

(٧) - كما فصّل ذلك الإمام ابن باز في مجموع فتاويه فقال رحمه الله تعالى: ومن علاج السحر بعد وقوعه أيضًا ، وهو علاج نافع للرجل إذا حبس من جماع أهله أن يأخذ سبع ورقات من السدر الأخضر فيدقها بحجر أو نحوه ويجعلها في إناء ويصب عليه من الماء ما يكفيه للغسل، ويقرأ فيها آية الكرسي و ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ و ﴿قل هو الله أحد﴾ و ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾ و ﴿قل أعوذ برب الناس﴾ وآيات السحر التي في سورة الأعراف، وهي قوله سبحانه: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ والآيات التي في سورة يونس وهي قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ

تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَاراً﴾(١)، وخاصة سورة البقرة فقد جاء في حديث أبي أمامة الباهلي، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: "اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه، اقرءوا الزهراوين البقرة، وسورة آل عمران، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فرقان من طير صواف، تحاجان عن أصحابهما، اقرءوا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة". قال معاوية: بلغني أن البطلة: السحرة.(٢).

وكذلك المعوذات لها تأثير كبير في إبطال السحر ، فقد قال ابن كثير: أَنْفَعُ مَا يُسْتَعْمَلُ لإِذْهَابِ السِّحْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِه في ذهاب ذَلِكَ وَهُمَا الْمُعَوِّذَتَانِ، وَفِي الْحَدِيثِ: "لَمْ يَتَعَوَّذِ المتعوذ بِمِثْلِهِمَا"(٣)، بالإضافة إلى الدعاء والالتجاء إلى الله تعالى بشفاء المسحور، فقد قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّه بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿وَإِذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾(٥).

مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ والآيات التي في سورة طه ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾، وبعد قراءة ما ذكر في الماء يشرب منه ثلاث مرات ، ويغتسل بالباقي وبذلك يزول الداء إن شاء الله، وإن دعت الحاجة لاستعماله مرتين أو أكثر فلا بأس حتى يزول الداء، ومن علاج السحر أيضاً ، وهو من أنفع علاجه بذل الجهود في معرفة موضع السحر في أرض أو جبل أو غير ذلك، فإذا عرف واستخرج وأتلف بطل السحر هذا ما تيسر بيانه من الأمور التي يتقى بها السحر ويعالج بها والله ولي التوفيق. وأما علاجه بعمل السحرة الذي هو التقرب إلى الجن بالذبح أو غيره من القربات فهذا لا يجوز؛ لأنه من عمل الشيطان بل من الشرك الأكبر، فالواجب الحذر من ذلك، كما لا يجوز علاجه بسؤال الكهنة والعرافين والمشعوذين واستعمال ما يقولون؛ لأنهم لا يؤمنون ، ولأنهم كذبة فجرة يدعون علم الغيب ويلبسون على الناس. انظر: مجموع فتاوى ابن باز ٣/٢٧٨-٢٧٩.

(١) – سورة الإسراء: ٨٢

(٢) – أخرجه مسلم، باب: فضل قراءة القرآن وسورة البقرة، ١/٥٥٣ برقم ٨٠٤

(٣) – تفسير ابن كثير ١/٢٥٦

(٤) – سورة الأنعام: ١٧

(٥) – سورة الشعراء: ٨٠

إن هــذا الــداء الشيطــاني الــذي يستخدمه عدو الله لإيــذاء الناس، وتفكيــك الروابط الأسريــة، لا عــلاج له إلا بالعودة إلى كتاب الله تعالى الذي يقطع كيده، ويبطل سحره، ويزيل أثره بإذن الله تعالى.

نســأل الله أن يرزقنا الإيمان والتقوى وصلــى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

الخاتمة

وفي ختام هذه الدراسة عن أثر اتباع خطوات الشيطان على مشكلات الأسرة، وعلاجها في ضوء القرآن الكريم توصلت إلى جملة من النتائج والتوصيات كما يأتي:

أهم النتائج:

أولاً : أن للشيطان خطوات ممنهجة لها أثرها على مشكلات الأسرة؛ بدءاً بالأدنى ووصولاً عند آخر خطوة، وهي حسب الترتيب كما يأتي: النزغ، والوسوسة، والمس، والإفتان، والاستحواذ، ومجموع هذه الخطوات الخمس نتيجتها الزلل، ثم خطوات أخرى لمن هم أكثر بعداً عن الله، وهي: الهوى، والتزيين، والاقتران، والولاية، وإذا ضمن الشيطان ولاء الآدمي له فسيقدم له خدمات عن طريق الخطوتين الأخيرتين وهي: والوحي والتنزيل، وهاتان الخطوتان خاصتان بالسحرة والمشعوذين والكهان والعرافين، الذين يستخدمون السحر لتفكيك الأسرة والمجتمع.

ثانيًا: أن للقرآن منهجًا عامًا في علاج هذه الخطوات، وكيفية التصدي لها، وذلك من خلال المحافظة على الأذكار الواردة في القرآن الكريم، والإيمان وإخلاص العبادة لله والتوكل عليه، والتوبة إليه، والتسلح بالمفاهيم الإيجابية، والقرآنية، والقول الحسن، مع الإهتمام بالعلاج المباشر بالرقية الشرعية للمصابين بالسحر.

التوصيات:

أولاً: تقوى الله جل وعلا في السر والعلن، ففيها الفتح المبين لمعرفة أسرار وكنوز القرآن العظيم.

ثانيًا: إخلاص العمل لله، فهو من أعظم وسائل التحصين من الشيطان الرجيم.

ثالثاً: أوصي المؤسسات التعليمية والمعلمين وطلبة العلم بعقد دورات وندوات للتدبر في كتاب الله جل وعلا، وخاصة في المواضيع التي تبصرهم بحقيقة عدوهم، وخطره على حياتهم وأسرهم ومجتمعهم، وكيفية مواجهته ومقاومته.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، والله أعلم وفوق كل ذي علم عليم.

المراجع والمصادر

١. الأساس في التفسير، لسعيد حوّى- دار السلام – القاهرة، الطبعة: السادسة، ١٤٢٤ هـ

٢. إيجاز البيان عن معاني القرآن للنيسابوري أبو القاسم- دار الغرب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٥ هـ

٣. البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الثانية ٢٠٠٧م- ١٤٢٨هـ.

٤. البيهقي في شعب الإيمان، للبيهقي- دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠

٥. تاج العروس من جواهر القاموس، لمحمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني ، أبو الفيض - دار الهداية.

٦. التحرير والتنوير لابن عاشور، دار سحنون- تونس.

٧. كتاب العين لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي- دار ومكتبة الهلال.

٨. تفسير ابن كثير لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير- دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٩ هـ

٩. تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

١٠. تفسير القرآن، لأبي المظفر، منصور السمعاني- دار الوطن، الرياض – السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م

١١. تفسير المنار لمحمد رشيد رضا، دار إحياء التراث العربي، بيروت- الطبعة الأولى.

١٢. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، للزحيلي، دار الفكر- دمشق، ط ١٢ – ٢٠١٤م.

١٣. تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن للعلامة محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي، دار طوق النجاة، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م

١٤. تهذيب اللغة، لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، دار النشر : دار إحياء التراث العربي - بيروت - ٢٠٠١م

١٥. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى : ١٣٧٦هـ)، مؤسسة الرسالة، الطبعة : الأولى ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م

١٦. التيسير في أحاديث التفسير لمحمد المكي الناصري- دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م

١٧. التيسير في القراءات السبع لأبي عمرو الداني، مكتبة الصحابة- الشارقة، الطبعة الأولى ٢٠٠٨م.

١٨. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر الطبري، دار السلام- القاهرة، الطبعة الثانية ، ١٤٢٨،هـ، ٢٠٠٧م.

١٩. جامع العلوم والحكم لأبي الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي- دار المعرفة – بيروت، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨ه

٢٠. الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى- ١٤٣٤هـ، ٢٠١٣م.

٢١. جمهرة اللغة لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٨٧م

٢٢. حجة القراءات لابن نجلة، مؤسسة الرسالة، بيروت- الطبعة الخامسة ١٩٩٧م.

٢٣. سنن ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، دار الفكر – بيروت.

٢٤. سنن أبي داود، لأبي داود سليمان بن الأشعث الأزدي- المكتبة العصرية، صيدا – بيروت

٢٥. سنن الترمذي لمحمد بن عيسى الترمذي-شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م

٢٦. الصحاح في اللغة لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفرابي.

٢٧. صحيح ابن حبان لمحمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي -ةمؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

٢٨. صحيح البخاري، لمحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله- دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى ١٤٢٢هـ

٢٩. صحيح مسلم، لأبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري- دار الجيل بيروت + دار الأفاق الجديدة ـ بيروت.

٣٠. صيد الخاطر، لابن الجوزي- دار القلم – دمشق الطبعة: الأولى، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

٣١. غرائب القران ورغائب الفرقان لنظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري- دار الكتب العلميه – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٦ هـ

٣٢. فتح الرحمن في تفسير القرآن لمجير الدين بن محمد العليمي المقدسي الحنبلي، دار النوادر (إصدَارات وزَارة الأوقاف والشُؤُون الإِسلامِيّة - إدَارَةُ الشُؤُونِ الإِسلاَمِيّةِ)، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م.

٣٣. فتح القدير لمحمد بن علي الشوكاني، دار الوفاء – المنصورة، دار ابن حزم – بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م.

٣٤. فقه الأسرة لأحمد علي طه ريان.

٣٥. في ظلال القرآن، لسيد قطب، دار الشروق – القاهرة، ط٣٦- ٢٠٠٧م.

٣٦. الكشاف للزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت- ط١- ٢٠٠٦م

٣٧. الكشف والبيان عن تفسير القرآن، لأحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي- دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٢٢، هـ - ٢٠٠٢ م.

٣٨. لباب التأويل في معاني التنزيل لعلاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبو الحسن، المعروف بالخازن- دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٥ هـ

٣٩. لسان العرب لابن منظور، دار صادر- بيروت الطبعة السادسة ٢٠٠٨م.

٤٠. مجموع الفتاوى لتقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني - دار الوفاء، الطبعة : الثالثة ، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥م.

٤١. المجموع شرح المهذب لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي - دار الفكر.

٤٢. مجموع فتاوى العلامة عبد العزيز بن باز رحمه الله، أشرف على جمعه وطبعه: محمد بن سعد الشويعر.

٤٣. المحرر الوجيز لابن عطية، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في قطر، ط٢- ٢٠٠٧م.

٤٤. المستدرك على الصحيحين، للإمام الحافظ أبو عبد الله الحاكم النيسابوري -دار المعرفة – بيروت.

٤٥. معالم التنزيل، لأبي محمد البغوي، دار طيبة- الرياض، الإصدار الثاني، ط٢- ٢٠٠٦م.

٤٦. المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة لإبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار) دار الدعوة

٤٧. معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، - دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٤٨. مفاتيح الغيب للإمام فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة : الأولى،١٤٢١هـ - ٢٠٠٠ م

٤٩. مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني، مكتبة فياض، مصر ٢٠٠٩م.

٥٠. الموسوعة العقدية إعداد مجموعة من الباحثين بإشراف الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف.

٥١. الوسيط في تفسير القرآن المجيد، لأبي الحسن الواحدي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م

محمود محروس محمود إبراهيم .

- تاريخ الميلاد : ٢ /٧ / ١٩٧٤ .
- الحالة الاجتماعية : متزوج وله ابن .
- العنوان : محافظة سوهاج – مدينة ناصر - جزيرة محروس .
- رقم جواز السفر : A ٠٢٥٩٦١٨٣ صادر في ٢٠١١/١/٦ م
- المحمول : ٠١١٢٣٥٠٩٥٦٣ / ٠٠٢
- البريد الالكتروني : drmmm5000@gmail.com

ثانيًا : المؤهلات العلمية :

- الدكتوراه فى الآداب- لغة عربية – نحو وصرف – كلية الآداب جامعة عين شمس سنة ٢٠٠٧ بتقدير مرتبه الشرف الأولى .
- الماجستير فى الآداب- لغة عربية - نحو وصرف بتقدير ممتاز - كلية الآداب جامعة عين شمس سنة ٢٠٠٣.
- دبلوم السنة التمهيدية للماجستر فى الآداب قسم اللغة العربية -كلية الآداب جامعة عين شمس ١٩٩٧ م .
- ليسانس الآداب فى اللغة العربية - جامعة جنوب الوادى ١٩٩٦ م .

ثالثًا : الأبحاث المنشورة :

- اسم اللّه "الرحمن" في القرآن الكريم – جمعٌ و دراسة ، بحث محكَّم ، بمعرفة اللجنة العلمية للمؤتمر الدولي عن الرحمة في الإسلام ، قسم الدراسات الإسلامية ، جامعة الملك سعود بالرياض
- حول مفهوم الضرورة الشعرية ، مجلة كلية الآداب ، جامعة سوهاج ، العدد ٣٨ ، مارس ٢٠١٥ م .
- دلالات "مِنْ" الداخلة على الظروف غير المتصرفة في القرآن الكريم ، المؤتمر الدولي : " الأدب و الترجمة و اللغة " ، كلية الآداب ، جامعة حلوان ، ديسمبر ٢٠١٥ م .

- رابعًا : المؤتمرات التي شارك فيها بالحضور :
- مؤتمـر " اللغـة العربية ؛ الأزمـة – التحديـات – الهوية " ، كليـة الآداب بالوادي الجديد ، جامعة أسيوط ، ابريل ٢٠١٥ م .
- المؤتمر الدولـــي : " الأدب ، و الترجمة ، و اللغة " ، كلية الآداب ، جـامعة حلوان ، ديسمبر ٢٠١٥ م .

ردود الشيخ الشعراوي على شُبَه المشككين اللغوية في تفسيره – عرض و دراسة

إعداد

د . محمود محروس محمود إبراهيم

دكتوراه العلوم اللغوية (النحو و الصرف)

جامعة عين شمس

١٩٩٥

المقدمة

أهمية البحث :

إنَّ حمــلات التشكيــك في الإسلام ، تزداد شراسة هــذه الأيام ، و ما فتأت تستهدف كل ركــن مــن أركانه ، فلا تتوقف عن النيل من أعلامــه ، بل و يتطاولون على الصحب الكرام – رضي الله عنهم أجمعين – ثم يتطاولون على مقام النبوة ، ثم على كلام رسول الله ﷺ، بل لا يتورعـــــون عن الـــطعن في القرآن الـــــكريم (يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَ يَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) [التوبة : ٣٢] .

و مــع أنَّ تلــك الهجمــات لا تعــدو كونهــا شبهات سطحيــة سخيفة معــادة إلا أنه قد أُشْرِبها غـيرُ قليلٍ من أبناء المسلمين ، و لقد قيَّض الله جلةً من العلماء في كل زمان للرد على هؤلاء الحاقدين ، و لعل من أبرزهم في هذه الأزمان فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي ، المتوفــى سنــة ١٤١٩ هـ/ ١٩٩٨ م – رحمــه الله – ، فقد أنقذ الله به من براثن التشكيك كثيراً من المسلمين ؛ و لقد رأينا رأي العين كيف تابتْ على يديه أعدادٌ من عصاة المسلمين ، و كيف أسلم على يديه لفيفٌ من أهل الديانات الأخرى .

إنَّ جميــع المصنفــات التي تحمل اسم الشيخ – رحمــه الله – تـــــكاد تكون ردوداً علــى شبـــــهــات المشككين في شتى جوانــب الدين الإسلامي الحنيــف و دفاعًا عنه ، و لعل أبرزها في ذلك تفسيره الشـــــــــهير المســـــمى بــــ " الخواطر الإيمانية " ؛ فقد وضع الله لــه القبــول لدى عامة المسلمين و خاصتهم ، بل عند قرائه من غير المسلمين أيضًا ، فتبوأ مكانــة عليمة مرموقة بين كتــب التفسير ، و حوى ردوداً علميةً رصينةً على مختلف أنواع شبه أعــداء هــذا الدين ، في أسلوب يتسم بالبساطة و العمق في آن واحد . و كان للرد على شبهات المشككــين اللغويــة نصيبٌ وافر في هــذا التفسير ، و من ثَــمَّ كان استعراضُهــا ، و دراستها ، واستخلاص منهج الشيخ في رد الشبهات اللغوية منها – موضوعًا لبحثنا هذا .

أهداف البحث :

و هــذا البحث يهدف إلي إلقاء الضوء على ردوده على صنف من أصناف شبه المشككين في هذا الدين ، هو الشبه اللغوية ؛ لِمَا لهذه الردود من قيمة و تأثير . كما يهدف إلى تحديد ما

كان من هذه الردود مما وافق فيه الشيخ رحمه الله – لغيرِه من العلماء ، و ما كان الشيخُ غيرَ مسبوقٍ إليه ، تأصيلاً لردود الشيخ ، و وقوفًا على مصادره في الرد ، ليفيد منها السائرون على دربه من أهل العلم ، و لهذا الغرض أيضًا يطمح البحث إلى استخلاص منهج الشيخ في هذه الردود .

منهج البحث :

يقوم البحث على استقراء تلك الردود استقراءً تامًّا ، في تفسيره "الخواطر الإيمانية" ، و تحليلها ، و استخلاص منهج الشيخ في الرد على المشككين من خلالها . و في سبيل ذلك التزم البحث بألا يختار إلا ما نص الشيخ نصًّا على أنه شبهة . و أن يكتفي بعرض طريقة تناول الشيخ للشبهة في عدد من الشبه الأُوَلِ في كل مطلب ، كأمثلة ، و ليس في كل الشبه ؛ درءًا للإطالة .

و دراستنا لكل شبهة تتمثل في أربعة عناصر :

- الأول : تحديد الشبهة استقاءً من كلام الشيخ .
- الثاني : دراسة حل الشبهة عند سابقي الشيخ ؛ لتحديد موقع رد الشيخ بين ردود العلماء قبله .
- الثالث : عرض طريقة تناول الشيخ للشبهة ، و اقتصرنا على بعض الشبه أول كل مطلب كأمثلة .
- الرابع : عرض نص موجز من كلام الشيخ يوضح حله للشبهة .

خطة البحث :

يقع البحث في مقدمة ، و أربعة مطالب ، و خاتمة .

المقدمة : للحديث عن أهمية البحث ، و منهجه ، و خطته .

المطلب الأول : الردود على الشبه المتعلقة بدلالة بعض المفردات ، و فيه ثماني شُبَه .

المطلب الثاني : الردود على الشبه المتعلقة بصيغ بعض المفردات ، و فيه أربع شُبَهٍ .

المطلب الثالث : الردود على الشبه المتعلقة بالضمائر و ما تعود عليه ، و فيه أربع شُبَه .

المطلب الرابع : ردودٌ على الشبه المدعية وجود أخطاء نحوية في بعض الجمل ، و فيه ست شُبَهٍ .

الخاتمة : أهم نتائج البحث ، و توصياته .

المطلب الأول : الردود على الشبه المتعلقة بدلالة بعض المفردات

الشبهة الأولى : كيف يطلب القرآن مقاطعة الآباء غير المسلمين ، ثم يطلب مصاحبتهم بالمعروف ؛ ففي الحالة الأولى يقول : (قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَ أَبْنَآؤُكُمْ وَ إِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقترفتموها وتجارة تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ومساكن تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ الله وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حتى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ والله لاَ يَهْدِي القوم الفاسقين) [التوبة: ٢٤] ، و يقول : (لاَّ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ الله وَرَسُولَهُ وَلَوْ كانوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ) [المجادلة: ٢٢] . و في الحالة الثانية يقول : (وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) [العنكبوت : ٨] ، و يقول : (وَإِن جَاهَدَاكَ على أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدنيا مَعْرُوفاً) [لقمان: ١٥] ؟!

و منشأ هذه الشبهة هو الخلط بين معنى المودة ، و معنى المعروف ، و حلُّها في بيان الفرق بينهما ؛ فالمودة هي المحبة ، و هي تقتضي الموالاة و المناصرة الناتجة عن ميل القلب (١) ، و هي لا تجوز مع الكافر كائنًا مَنْ كان ، فالشرع ينهى عن موالاة الكفّار وعن مظاهرتهم ، أما المعروف ، فيقتضي مصاحبة الوالدين الكافرين و رَدَّ جميلهما وفق ما يرضاه الشرع و العقل دون ميلٍ من القلب (٢) ، و هو مما أباحه الشرع ، و على هذا التفصيل فلا تناقض و لا تعارض بين ما ذكروه من آيات .

(١) - ينظر في هذا المعنى : أبو هلال العسكري : معجم الفروق اللغوية "حبب" ، ص ١٧٤ ، و الراغب : مفردات القرآن " ودد " ، وابن منظور : اللسان "ودد" .

(٢) - ينظر في هذا المعنى : الراغب : مفردات القرآن " ودد " ، وابن منظور اللسان "ودد" .

و قـد تنـاول الشيخ – رحمه الله – هذه الشبهة في ثلاثة مواضع من تفسيره ١ ، وقد كان تناوله لها في المواضع الثلاث متقاربًا ، على النحو التالي :

يمهـد لعرضـ الشبهة بشرح الفرق بين المـودة و المعروف ، يقول في الموضع الأول على سبيـل المثـال : ((و الـود معناه ميل القلب إلى من يحبه. ، والـود يختلف عن المعروف ؛ أنت تصنع معروفا فيمن تحب ومن لا تحب ، ولكنك لا تود إلا من تحب)) ٢ .

ثـم يذكـر أصحـاب الشبهة و أنها لبعض المستشرقين و يوضـح وجه الإشكال فيها . ثـم يبـدأ في الرد المفصـل المؤيد بأمثلة من الحياة اليومية، و منـه في الموضع الثاني : ((ولم يفطن هؤلاء إلى أن هناك فارقاً بين الود والمعروف ، فالود هو عمل القلب، فأنت تحب بقلبك ، ولكـن المعروف ليس من عمل القلب لأنك قد تصنـع معروفاً في إنسان لا تعرفه، وقد تصنع معروفـاً في عـدوك حين تجده في مأزق ، ولكنك لا تحبه ولا تـوده .إذن: فالمنهي عنه أن يكون بينك وبين من يحادون الله ورسوله حب ومودة، أما المعروف فليس منهيا عنه ؛ لأن الله يريد للنفسـ الإيمانية أن تعترف بفضل الأبوة ، فـإن وجدتَ أباك وهو غير مؤمن في مأزق فاصنع معـه معروفـاً وساعده، لكن عليك ألا تطيعه فيما يغضب الله؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يربـي في النفسـ الإيمانية أن تحـترم من له فضل عليهـا. والأب والأم من أسباب الوجود الفرعـي في الحياة، لذلك جاء الأمر بمصاحبتهما بالمعروف في الدنيا، شرط ألا نقبل منهما دعوتهما للكفر إن كانا من أهل الكفر، لأن إيمانك بالله لا بد أن يكون هو الأقوى ..وذلك حتى لا يكون مقياس الحب هو النسب أو القربى ، وإنما يكون القرب من الله سبب الحب ، والبعد عن الله سبب الكره . فقضية الإيمان تَجُبُّ قضية العاطفة)) ٣

(١) – الأول :استطـرادًا عنـد شـرح معنى الفعل "يود" من قوله تعالى : ﴿ مَا يَـوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَـزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ [البقـرة : ١٠٥] . الثاني : عند تفسير قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ [التوبـة : ٢٤] . الثالث : عند تفسـير قولـه تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [العنكبوت : ٨] .

(٢) – الشعراوي : الخواطر الإيمانية ٥٠٣/١ .

(٣) – الشعراوي : الخواطر الإيمانية ٤٩٩٠/٨ .

و لا أعرف أحدًا غير الشيخ تكلم عن الفر بين دلالة الود و دلالة المعروف بهذه الدقة مع الوضوح و البساطة ، و إن كان أحد معاصري الشيخ قد تناول الرد على هذه الشبهة بما يقارب كلام الشيخ ، يقول فضيلة الأستاذ الشيخ محمد الأمين الشنقيطي : ((وَجْهُ الْجَمْع بَيْنَهُمَا أَنَّ الْمُصَاحَبَةَ بِالْمَعْرُوفِ أَعَمُّ مِنَ الْمُوَادَّةِ ؛ لأَنَّ الإِنْسَانَ يُمْكِنُهُ إِسْدَاءُ الْمَعْرُوفِ لِمَنْ يَوَدُّهُ وَمَنْ لا يَوَدُّهُ ، وَالنَّهْيُ عَنِ الأَخَصِّ لا يَسْتَلْزِمُ النَّهْيَ عَنِ الأَعَمِّ ، فَكَأَنَّ اللهَ حَذَّرَ مِنَ الْمَوَدَّةِ الْمُشْعِرَةِ بِالْمَحَبَّةِ وَالْمُوَالاةِ بِالْبَاطِنِ لِجَمِيعِ الْكُفَّارِ يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الآبَاءُ وَغَيْرُهُمْ ، وَ أَمَرَ الإِنْسَانَ بِأَنْ لا يَفْعَلَ لِوَالِدَيْهِ إِلاَّ الْمَعْرُوفَ ، وَفِعْلُ الْمَعْرُوفِ لا يَسْتَلْزِمُ الْمَوَدَّةَ ؛ لأَنَّ الْمَوَدَّةَ مِنْ أَفْعَالِ الْقُلُوبِ لا مِنْ أَفْعَالِ الْجَوَارِحِ)) [1] .

الشبهة الثانية : القرآن يتحدث عن أشياء لا تعرفها الناس ، و يُشَبِّهُ بعضَها ببعض ، كما تحدث عن شجرة الزقوم ، فقال : ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ [الصافات : ٦٤ ، ٦٥] ، فما شجرة الزقوم ؟ و كيف تنبت في النار ؟ و ما رءوس الشياطين ؟

هذه من أقدم الشبه و الجواب عنها في العنصرين التاليين : العنصر الأول : بالنسبة لماهية شجرة الزقوم ، فالقرآن الكريم عرف البشر ما يعنيهم من شجرة الزقوم ، فقال الله تعالى : ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ ، وقال : ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴾ [الدخان : ٤٣ – ٤٦] ، و الذي أخبرنا عنها سبحانه هو القادر على أن ينبتها في النار ، و يحييها فيها [2] . العنصر الثاني : فيما يتعلق برؤوس الشياطين و حكمة تشبيه شجرة الزقوم بها ، فللعلماء فيها ثلاثة أقوال : ((الأَوَّلُ : أَنَّ النَّاسَ لَمَّا اعْتَقَدُوا فِي الْمَلائِكَةِ كَمَالَ الْفَضْلِ فِي الصورة والسيرة واعتقدوا فِي الشَّيَاطِينِ نِهَايَةَ الْقُبْحِ وَالتَّشْوِيهِ فِي الصُّورَةِ وَالسِّيرَةِ، فَكَمَا حَسُنَ التَّشْبِيهُ بِالْمَلَكِ عِنْدَ إِرَادَةِ تَقْرِيرِ الْكَمَالِ وَالْفَضِيلَةِ ... فَكَذَلِكَ وَجَبَ أَنْ يَحْسُنَ التَّشْبِيهُ برؤوس الشَّيَاطِينِ فِي الْقُبْحِ وَتَشْوِيهِ الْخِلْقَةِ، وَالْحَاصِلُ أَنَّ هَذَا مِنْ بَابِ التَّشْبِيهِ لا بِالْمَحْسُوسِ بَلْ بِالْمُتَخَيَّلِ، كَأَنَّهُ قِيلَ إِنَّ أَقبح الأشياء في الوهم والخيال هو رؤوس الشَّيَاطِينِ فَهَذِهِ الشَّجَرَةُ

---

(١) – محمد الأمين الشنقيطي : دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب ١٨٢ .

(٢) – هذا المعنى نقله الطبري عن ابن مجاهد ، و الحسن البصري ، و قتادة ، في تفسيره جامع البيان ٥٣/٢١ .

تُشْبِهُهَا فِي قُبْحِ النَّظَرِ وَتَشْوِيهِ الصُّورَةِ، وَالَّذِي يُؤَكِّدُ هَذَا أَنَّ الْعُقَلَاءَ إِذَا رَأَوْا شَيْئًا شَدِيدَ الِاضْطِرَابِ مُنْكَرَ الصُّورَةِ قَبِيحَ الْخِلْقَةِ، قَالُوا إِنَّهُ شَيْطَانٌ، وَإِذَا رَأَوْا شَيْئًا حَسَنَ الصُّورَةِ وَالسِّيرَةِ، قَالُوا إِنَّهُ مَلَكٌ ...وَ الْقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّ الشَّيَاطِينَ حيات لها رؤوس وَ أَعْرَافٌ ، وَ هِيَ مِنْ أَقْبَحِ الْحَيَّاتِ ، وَ بِهَا يُضْرَبُ الْمَثَلُ فِي الْقُبْحِ، وَالْعَرَبُ إِذَا رَأَتْ مَنْظَرًا قَبِيحًا قَالَتْ كَأَنَّهُ شَيْطَانُ الْحَمَاطَةِ، وَالْحَمَاطَةُ شَجَرَةٌ معينة ، والقول الثالث: أن رؤوس الشَّيَاطِينِ، نَبْتٌ مَعْرُوفٌ قَبِيحُ الرَّأْسِ ، وَ الْوَجْهُ الْأَوَّلُ هُوَ الْجَوَابُ الْحَقُّ)) ١.

و قد تناولها الشيخ استطرادًا عند تفسير قوله تعالى: ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴾ [الأعراف : ١٠٧] ، و خلاصة رده : ((أنتم لا تعلمون لغة العرب كملكة ، بل عرفتموها صناعة، و لم تتفهموا حقيقة أن القرآن جاء على لغة العرب ، و قد تخيلت لغة العرب أشياء رأت فيها البشاعة والقبح....إذن التشبيه قد يكون للأمر المُتَخَيَّل في أذهان الناس ، و الأصل في التشبيه أن يلحق مجهولاً ليُعلم ، و شجرة الزقوم لا نعرفها، و رءوس الشياطين لم نرها ، و هكذا أَلْحَقَ الله مجهولاً بمجهول ، و لماذا لم يأت بها في صورة معلومة؟ لأنه – سبحانه – يريد أن يشيع البيان ، و يعمم الفائدة و يربيها ؛ لأن الإخافة تتطلب مخيفاً ، و المخيف يختلف باختلاف الرائين ، فقد يوجد شيء يخيفك ، و لكنه لا يخيف غيرك.... و لقد قال الله في صورة شجرة الزقوم (طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشياطين) ؛ ليتخيل كل سامع ما يخيفه من صورة الشيطان ، فتكون الفائدة عامة من التخويف من تلك الشجرة)) ٢ .

الشبهة الثالثة : القرآن كرر كلمة "الناس" في آخر سُوَره خمس مرات بلا فائدة .

هذه من الشبه القديمة ، و سبب وقوعهم فيها ، أنهم ظنوا أن معنى كلمة الناس واحدًا في هذه المرات ، و لم يفطنوا إلى اختلاف دلالة "الناس" في كل مرة ، و لا إلى فوائد ذلك التكرار ، و الجواب عنها فيما يلي : أولاً : إضافة كلمة "رب" إلى "الناس" دون غيرهم من المخلوقات ؛ لأن الاستعاذة في هذه السورة إنما هي من شرٍّ مصبُّه إلى الناس ، فناسب

---

(١) – هذا كلام الرازي في مفاتيح الغيب ٣٣٧/٢٦ . و ينظر في هذه الشبه أيضًا : ابن قتيبة : تأويل مشكل القرآن٢٢٤ ، ٢٢٥ ، و ابن جرير الطبري : جامع البيان ٥٢/٢١–٥٤ ، و أبو إسحق الثعلبي : الكشف و البيان ١٤٦/٨ ، و الزمخشري : الكشاف ٤٦/٤ ، و ابن الجوزي : زاد المسير ٥٤٣/٣ .

(٢) – الشعراوي : الخواطر الإيمانية ٤٢٨١/٧ – ٤٢٨٣ .

ذلك أن ينادَى المستعاذ به بصفة أنه ربُّ المستعيذ و المستعاذ منه ؛ كَمَا يُقَالُ لِمَوْلَى الْعَبْد: يَا مَوْلَى فُلَانٍ كُفَّ عَنِّي عَبْدَكَ . ثانيًا : "مَلك النَّاس" عَطْفُ بَيَانٍ على "رَبِّ النَّاس" ، وَ كَذَلِكَ "إله النَّاس" ؛ فَتَكْرِيرُ لَفْظ النَّاس دُونَ اكْتِفَاء بضَميره ؛ لأَنَّ عَطْفَ الْبَيَانِ يَقْتَضي الْإِظْهَارَ لِيَكُونَ الاسْمُ الْمُبَيِّنُ (بكَسْر الْيَاء) مُسْتَقِلًّا بِنَفْسِه ؛ لأَنَّ عَطْفَ الْبَيَانِ بِمَنْزِلَة عَلَم لِلاسْم الْمُبَيَّنِ (بِالْفَتْح) ١. ثالثًا : تكرار كلمة الناس خمس مرات ؛ لأنّ لها في كل مرة معنًى غير معناها في سابقتها ؛ فالمُرَاد بالأولى الأَطْفَال وَمعنى الربوبية يدل عَلَيْه ، وَ بالثَّانية الشبَّان وَلَفظ المَلك المنبئ عَن السياسة يدل عَلَيْه ، و بالثالثة الشُّيُوخ وَ لَفظ إِلَه المنبئ عَن الْعبَادَة يدل عَلَيْه ، و بالرابعة الصالحون و الأبرار والشيطان مولَعٌ بإغوائهم ، و بالخامسة المفسدون و الأشرار وَ عطفُهُ على المتعوَّذ منْهُم يدل على ذَلك ٢. رابعًا : من فوائد تكرار "الناس" أنّ في إِرْشَاد النَّبي r لأَنْ يَتَعَوَّذَ باللَّهَّ رَبِّه منْ شَرِّ الْوَسْوَاس الَّذي يُحَاوِلُ إفْسَادَ عَمله r وَ إفْسَادَ إرشاده للناس - في هَذَا الأَمْر إيمَاءً إلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُعيذُهُ r منْ ذَلكَ فعَاصِمُهُ في نَفْسه منْ تَسَلُّط وَسْوَسَة الْوَسْوَاس عَلَيْه ، وَمُتَمِّمٌ دَعْوَته حَتَّى تَعُمَّ في النَّاس جميعًا ٣ . خامسًا : و من فوائد هذا التكرار أيضًا أنّ ((أَوْصَافُ اللَّهَّ بالنِّسْبَة إلَى النَّاس قد رُتِّبَتْ تَرْتيبًا مُدَرَّجًا فَإِنَّ اللَّهَّ خَالقُهُمْ، ثُمَّ هُمْ غَيْرُ خَارجينَ عَنْ حُكْمه إذَا شَاءَ أَنْ يتَصَرَّف في شؤونهم، ثُمَّ زِيدَ بَيَانًا بوَصْف إلَهيَّته لَهُمْ ليَتَبَيَّنَ أَنَّ رُبُوبيَّتَهُ لَهُمْ وَحَاكميَّتَهُ فيهمْ لَيْسَتْ كَرُبُوبيَّة بَعْضهمْ بَعْضًا وَحَاكميَّة بَعْضهمْ في بَعْض . وَفي هَذَا التَّرْتيب إِشْعَارٌ أَيْضًا بمَرَاتب النَّظَر في مَعْرِفَة اللَّهَّ تَعَالَى فَإن النَّاظر يعلم بادئ ذي بَدْء بأَنَّ لَهُ رَبًّا يسبب مَا يَشْعُرُ به منْ وُجُود نفسه، وَنعْمَة تَرْكيبه، ثُمَّ يَتَغَلْغَلُ في النَّظَر فَيَشْعُرُ بأَنَّ رَبَّهُ هُوَ الْمَلكُ الْحَقُّ الْغَنيُّ عَن الْخَلْق، ثُمَّ يَعْلَمُ أَنَّهُ الْمُسْتَحقُّ للْعبَادَة فَهُوَ إلَهُ النَّاس كُلِّهِمْ)) ٤

و قد تناولها الشيخ استطرادًا عند تفسير قوله تعالى : (أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ) [يونس : ٢] ، على النحو التالي : بدأ بعرض الشبهة ووجه

---

(١) - في أولاً ، و ثانيًا ينظر : الزمخشري : الكشاف ٨٢٣/٤ ، و ابن عاشور التحرير و التنوير ٣٠ / ٦٣٣ .

(٢) - ينظر في هذا المعنى : الخطيب الإسكافي : درة التنزيل ١٣٧٤/٢ ، و الكرماني : البرهان ٢٥٨ ، و ابن جماعة : فتح الرحمن ٦٣٤ .

(٣) - ينظر في هذا المعنى : ابن عاشور : التحرير و التنوير ٣٢/٣٠ .

(٤) - ابن عاشور التحرير و التنوير ٦٣٢/٣٠ ، ٦٣٣ بتصرف يسير .

الإشكال فيها ، و أشار إلى أصحابها ، ثم مهد للحل بأمثلة لآيات وردت فيها كلمة الناس بمعانٍ مختلفة ، ثم بدأ في الرد بشكل مفصل ، بدأه بتمهيد مهم ، قال: ((وهذا الجمع من المستشرقين فهموا أن معنى كلمة "الناس" في كل آية من آيات هذه السورة هو معنى واحد. ولكنهم لم يتمتعوا بملكة اللغة ؛ لم يلتفتوا إلى أن معنى كلمة "الناس" في كل موقع هو معنى مختلف وضروري؛ لأن الحق سبحانه أراد بكل كلمة في القرآن أن تكون جائية لمعناها ، وأن يكون كل معنى جاذباً للكلمة المناسبة له)) ١ . ثم بعد استطراد طويل يُجْمِلُ ما فصله بقوله : ((و "الناس" في الآية الأولى هم المربوبون ، والناس في الآية الثانية هم "المملوكون للّه" ... وتأتي "الناس" في الآية الثالثة: ... لتؤكد أن الحق هو الإله المعبود بحق ، و هو الذي يقيك مما ستأتي به الآية الرابعة : (مِن شَرِّ الوسواس الخناس) ، والآية الخامسة:(الذى يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ الناس))) ٢ .

الشبهة الرابعة : أنتم تقولون : إنّ كلمة "عِبَاد" لِمَا فيها من معنى العبودية لله لم ترد في القرآن إلا وصفًا للصالحين المتقين ، و نحن قد وجدناها مستعملة في القرآن وصفًا للعصاة في قوله تعالى : (أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السبيل) [الفرقان: ١٧] .

و حل هذه الشبهة أن هذه الآية تتحدث عن مشهد من مشاهد الآخرة ، و فيها يكون الخلق كلهم عبادًا لله . و قد تناولها الشيخ – رحمه الله - عند تفسيره لكلمة "عبدنا" من قوله تعالى (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ) [البقرة : ٢٣] ، على النحو التالي :

بدأ ببيان الفرق بين " العباد" ، و "العبيد" ، فقال : ((الله جل جلاله. له عبيد وله عباد ،كل خلق الله في كونه عبيد لله سبحانه وتعالى ، لا يستطيعون الخروج عن مشيئة الله أو إرادته ، هؤلاء هم العبيد ، و لكن العباد هم الذين اتحدت مراداتهم مع ما يريده الله سبحانه وتعالى ، تخلوا عن اختيارهم الدنيوي ليصبحوا طائعين لله باختيارهم ، أي أنهم تساووا مع

(١) – الشعراوي الخواطر الإيمانية ٩/ ٥٦٦٤ .
(٢) – الشعراوي : الخواطر الإيمانية ٩ / ٥٦٦٨ .

المقهورين في أنهم اختاروا منهج الله وتركوا أي اختيار يخالفه ، هؤلاء هم العباد، وإذا قرأت القرآن الكريم تجد أن الله سبحانه وتعالى يشير إلى العباد بأنهم الصالحون من البشر)) ١

ثم يعرض الشبهة و يبين وجه الإشكال فيها ، و يشير إلى أصحابها و غرضهم . ثم يبدأ في الرد عليهم ، فيقول مخاطبًا أصحابها من المستشرقين : ((نقول: إنكم لم تفهموا أن هذا ساعة الحساب في الآخرة، وفي الآخرة كلنا عباد لأننا كلنا مقهورون فلا اختيار لأحد في الآخرة وإنما الاختيار البشري ينتهي ساعة الاحتضار، ثم يصبح الإنسان بعد ذلك مقهوراً ، فنحن جميعا في الآخرة عباد ولكن الفرق بين العبيد والعباد هو في الحياة الدنيا فقط. والعبودية هي أرقى مراتب القرب من الله تعالى. لأنك تأتي إلى الله طائعاً. منفذاً للمنهج باختيارك)) ٢ .

و لم أقف على طول المطالعة و البحث على هذه الشبهة و لا على حلها إلا عند الشيخ الشعراوي- رحمه الله- ، أما هذا التفريق بين دلالة "العباد" ودلالة "العبيد" فالشيخ موافقٌ فيه لا ابن عطية ، الذي يَطّرُدُ هذا التفريقَ على الفصيح من كلام العرب ، ولا يقصره على القرآن الكريم فقط ، يقول ابن عطية : ((و الذي استقريتُ في لفظة "العباد" ، أنه جمع "عبد" ؛ متى سِيقتْ اللفظةُ في مضمار الترفيع والدلالة على الطاعة دون أن يقترن بها معنى التحقير وتصغير الشأن ....و أما "العبيد" فيستعمل في التحقير...و منه قول الله تعالى: (وَما رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ)[فصلت: ٤٦] ؛ لأنه مكان تشفيق و إعلام بقلة انتصارهم ومقدرتهم، وأنه تعالىً ليس بظلّام لهم مع ذلك، ولما كانت لفظة العباد تقتضي الطاعة لم تقع هنا .... فهذا النوع من النظر يسلك به سبل العجائب في ميزة فصاحة القرآن العزيز على الطريقة العربية السليمة)) ٣ .

الشبهة الخامسة : في قوله تعالى : (أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ

(١) - الشعراوي : الخواطر الإيمانية ١/١٩٤ .

(٢) - الشعراوي : الخواطر الإيمانية ١/١٧٥ .

(٣) - ابن عطية : المحرر الوجيز ١/٤٦١ . و وافقه أبو حيان في البحر المحيط ٣/٢٣٠ .

) [النمل : ٦٠] كيف يَعيبُ اللّهُ على الناس أنهم يعدلون ؛ هل العدلُ شيء يُعاب ؟

و حَلُّ هذه الشبهة أن العدل هنا من : "عدل عُدُولاً" ، بمعنى : جَارَ ، أو من : "عدل عِدْلاً" بمعنى : ساوى أو ماثَل ، و ليس من : "عدل عَدْلاً" التي بمعنى : قضى بالحق ١ .

و قد تناولها الشيخ استطرادًا في سياق تعداد نعم اللّه عند تفسير قوله تعالى : (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)[آل عمران : ١٥٠] و خلاصة رده: ((العدل هنا بمعنى العدول عن الحق أو الَميل عنه)) ٢. و كلام الشيخ هنا هو محل اتفاق من اللغويين و المفسرين قبله ٣ .

الشبهة السادسة : القرآن يقصر الخلق على اللّه وحده ، فيقول : (هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ) [فاطر : ٣]، و (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) [الزمر :٦٢] ، وفي مواضع أخرى يثبت الخلق لغيره ، فيقول على لسان عيسى بن مريم عليه السلام (وَرَسُولاً إِلى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أني أَخْلُقُ لَكُمْ مِّنَ الطين كَهَيْئَةِ الطير فَأَنفُخُ فيه فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ الله) [آل عمران: ٤٩] ، (فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الخالقين) [المؤمنون: ١٤]

و حَلُّ هذه الشبهة أن الخلق المقصور على اللّه وحده هو الخلق المطلق ، و هو الخلق بمعنى الإيجاد من العَدَم ، أما الخلق الذي يجوز إطلاقه على غير اللّه عز و جل ، فهو الخلق بمعنى التقدير و التصوير و الصُّنع ، وهو المقصود في آيتي آل عمران ، و المؤمنون ٤ .

و قد تناولها الشيخ عند تفسيره لقوله تعالى : (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ) [الفرقان : ٣] ، ومن رده قوله قاصدًا المستشرقين : ((وللردِّ على

(١) - ينظر في تصاريف هذه المادة : الراغب : المفردات ، و ابن منظور : اللسان ، الزبيدي : تاج العروس ، الكل في : مادة عدل .

(٢) - الشعراوي : الخواطر الإيمانية ١٩٤٩/٤ ،

(٣) - ينظر على سبيل المثال : الخطيب الإسكافي : درة التنزيل ٩٨٣/١ ، و الزمخشري : الكشاف ٤/٣ .

(٤) - ينظر في هذا المعنى : ابن جرير الطبري : جامع البيان ١٩/١٩ ، و الباقلاني : الانتصار ٧٣٨/٢ ، ٧٣٩ ، ابن جُزَيَ : التسهيل ٤٩/٢ ،و ابن الجوزي : زاد المسير٢٥٧/٣ ،و أبو حيان : البحر المحيط ٥٥٢/٧ ،و ابن القيم : شفاء العليل ١٣١ ، و الشنقيطي : أضواء البيان ٥٢٣/٥ ، ٨/٦ . وفي المعنى اللغوي للخلق ينظر : الجوهري : الصحاح ، مادة "حلق" .

هــؤلاء نقول: تعالـوْا أولاً نفهم معنى الخَلْـق، الخَلْق: إيجاد لمعدوم ... لكـن الحق سبحانه و تعالى يُوجِد من معدوم : معدوماً من معدوم ، و يُوجده على هيئة فيها حياة و نمو و تكاثر من ذاته ... لكنه سبحانه أحسنُ الخالقين ، و وَجْه الحُسْن أن الله تعالى خلق من لا شيء ، و أنت خلقـتَ مـن موجود ، الله خلق خَلْقاً فيــه حياة و نمو و تكاثر ، و أنت خلقـتَ شيئاً جامداً على حالته الأولى ، و مع ذلك أنصفك ربك)) ١ .

الشبهــة السابعــة : ماللقرآن مرة يخبر عن عصا موسى بأنهــا ثعبان ، فيقول : ﴿ فَأَلْقَى عَصَــاهُ فَــإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴾ [الأعراف : ١٠٧ ، الشعراء :٣٢] ، ومرة بأنها حية ، فيقول : ﴿ فَأَلْقَاهَــا فَــإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴾ [طه : ٢٠] ، ومرة بأنها جان فقال :﴿ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾[النمل : ١٠] ، فهي أي شيء مما سبق ؟!

و هي من الشبه القديمة ، و سببها عدم إدراك العلاقة الواضحة بين مدلولات ألفاظ " الثعبان" ، و "الحية" ، و "الجان" ، و قد وضَّح العلماءُ العلاقةَ بين هذه الألفاظ و حلوا الشبهــة فقالــوا : ((أَمَّا الْحَيَّةُ فَاسْمُ جِنْسٍ يَقَعُ عَلَى الذَّكَـرِ وَالْأُنْثَى وَالصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ ، وَ أَمَّا الثُّعْبَــانُ وَ الْجَانُّ فَبَيْنَهُمَا تَنَافٍ لِأَنَّ الثُّعْبَانَ الْعَظِيمُ مِنَ الْحَيَّاتِ وَ الْجَانَّ الدَّقِيقُ وَ فِيهِ وَجْهَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهَا كَانَتْ وَقْتَ انْقِلَابِهَا حَيَّةً صَغِيرَةً دَقِيقَةً ثُمَّ تَوَرَّمَتْ وَتَزَايَدَ جِرْمُهَا حَتَّى صَارَتْ ثُعْبَانًــا ، فَأُرِيـدَ بِالْجَانِّ أَوَّلُ حَالِهَا ، وَ بِالثُّعْبَانِ مَآلُهَا . وَ الثَّانِي : أَنَّهَا كَانَتْ فِي شَخْصِ الثُّعْبَانِ وَسُرْعَةِ حَرَكَةِ الْجَانِّ)) ٢ .

و قــد تناولهــا الشيــخ عند تفسـير آية الأعراف ، و مــن رده : ((إن هناك فارقاً بين مختلفات تتناقض ، و مختلفات تتكامل ، فهي ثعبان مرة ، و هي حية مرة ثانية ، و هي جان ؛ لأن الثعبــان هــو الطويل الخفيف الحركة ، و الحية هي الكتلة المخيفة بشكلها و هي متجمعة ، و الجان هو الحية المرعبة الشكل . فكأنها تمثلت في كل مرة بمثال يرعب من يراه ، و كل مرة لها شكل ؛ فهي مرة ثعبان ، و مرة حية ، و ثالثة جان ، أو تكون ثعباناً عند من يخيفه الثعبان ، و تكــون حيــة عند من تخيفــه الحية ، و تكون جاناً عند من يخيفه الجــان ، و لذلك تجد أن

(١) – الشعراوي : الخواطر لإيمانية ١٧/١٠٣٦٢ ، ١٠٣٦٣ .
(٢) – الرازي : مفاتيح الغيب ٢٢/٢٧ ، و ينظر في هذا المعنى : الباقلاني : الانتصار ٢/٦٢٣ ، ٧٣٤ .

إشاعة الإبهام هو عين البيان للمبهم)) ١ .

الشبهة الثامنة : كيف يقول القرآن مخاطبًا محمدًا ﷺ (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفيل) [الفيل: ١] ، و الرسول لم ير هذه الواقعة ؛ لأنه كان طفلا عمره أيامٌ أو شهور ؛ فقد ولد في عام الفيل الذي وقعتْ فيه هذه الحادثة ؟

حَلُّ هذه الشبهة هو أن "رأى" هنا هي العِلْمية التي هي من أفعال القلوب ، لا البصرية ٢. و كلُّ (أَلَمْ تَرَ) في كتاب الله ((فهو من رؤية القلب و العِلْم ، لا من رؤية العين)) ٣ .

و قد تناولها الشيخ استطرادًا ، عند تفسيره لقوله تعالى (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) [الفاتحة : ٥] ، في سياق تعليم المؤمنين أنه يجدر بهم أن يعبدوا ربهم كأنهم يرونه ، و قد جاء رده في أسلوب يخاطب القلب و العقل معًا ، دون الخوض في مصطلحات نحوية و لا غيرها . و منه : ((إن هذه قضية من قضايا الإيمان ، فما يقوله الله سبحانه وتعالى هو رؤية صادقة بالنسبة للإنسان المؤمن، فالقرآن هو كلام متعبد بتلاوته حتى قيام الساعة ، و قول الله : (أَلَمْ تَرَ) معناها ان الرؤية مستمرة لكل مؤمن بالله يقرأ هذه الآية ، فما دام الله تبارك وتعالى قال:(أَلَمْ تَرَ) فأنت ترى بإيمانك ما تعجز عينك عن أن تراه ، هذه هي الرؤية الايمانية، وهي أصدق من رؤية العين ؛ لأن العين قد تخدع صاحبها ، و لكن القلب المؤمن لا يخدع صاحبه أبدا)) ٤ .

المطلب الثاني : الردود على الشبه المتعلقة بصيغ بعض المفردات

الشبهة الأولى : القرآن بنفي عن الله المبالغةَ في الظلم ، و لكنه لا ينفي عنه أصل الظلم ؛ فهو الذي يقول : (ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ) [آل عمران : ١٨٢ ، و الأنفال :٥١] .

(١) – الشعراوي : الخواطر الإيمانية ٧/٤٢٨٠ .

(٢) جلة (فَعَلَ رَبُّكَ) سدت مسد مفعولي الفعل(تَرَ)؛ إذ علقته (كَيْفَ) عن العمل .

(٣) – ابن خالويه : إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ، ص ١٩١ . و ينظر في حل هذه الشبهة : الرازي : مفاتيح الغيب ٣٢/٢٨٩ .

(٤) – الشعراوي : الخواطر الإيمانية ١/ ٧٧ .

و للعلماء في حل هذه الشبهة خمسة أجوبة ١ : الأول : إنما استُعملت صيغة المبالغة "ظلام" هنا لكثرة العباد ، لا لكثرة الظلم ، فخلق الله لا يحصون كثرةً فظلمهم – لو حصل – لا يوصف به إلا ظلام . الثاني : استعمال صيغة المبالغة هنا للإشارة إلى شدة العذاب ، فشدة العذاب من شدة المعذِّب ، و الله سبحانه و تعالى – لو عذب الناس و هم غير مذنبين لكان ظلامًا ؛ لأنه في هذه الحالة عذب مظلومين عذابًا شديدًا . الثالث : أَنَّهُ إِذَا نَفَى الظُّلْمَ الْكَثِيرَ انْتَفَى الظُّلْمُ الْقَلِيلُ ضَرُورَةً ؛ لِأَنَّ الَّذِي يَظْلِمُ إِنمَّا يَظْلِمُ لانْتِفَاعِه بالظُّلْمِ، فَإِذَا تَرَكَ الظُّلْمَ الْكَثِيرَ مَعَ زِيَادَةِ نَفْعِه فِي حَقِّ مَنْ يَجُوزُ عَلَيْهِ النَّفْعُ وَالضُّرُّ، كَانَ لِلظُّلْمِ الْقَلِيلِ الْمَنْفَعَةِ أَتْرَكَ . الرابع : "ظلام" هنا إنما تدل على النسب ؛ مثل : عطار لمن حرفته العطارة ، و نجار لمن حرفته ، حداد لمن ينسب إلى حرفة الحدادة .... ، أي أن الله ليس بمنسوبٍ للظلم ٢. الخامس : أنّ "ظلام" هنا إنما هي اسم فاعل لا صيغة مبالغة .

و قد تناول الشيخ هذه الشبهة عند تفسيره لقوله تعالى : (ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ) [آل عمران : ١٨٢] ، و كان تناوله على النحو التالي : بينَّ أن هذه الشبهة إنما هيَ لخصوم الإسلام من المستشرقين ، و أن سببها إما لعجزهم عن فهم مرامي الألفاظ في اللغة العربية ، و إما الرغبة في غش مَن لا يملكون رصيداً لغوياً يفهمون به مرامي الألفاظ في اللغة العربية ، و يبشر بأن هذه الشبهات إنما تنبه العلماء إلى بعض مواضع إعجاز القرآن . ثم عرض وجه الإشكال في هذه الشبهة عرضًا مفصلاً شرح فيه صيغ المبالغة ، و الفرق بين دلالتها و بين دلالة اسم الفاعل ، مع التمثيل بأمثلة عديدة ،

---

(١) – ينظر في هذه الأجوبة على سبيل المثال :
الزمخشري ، وحاشية ابن المنيِّر عليه : ٢/٢٢٩ ، و ٤/٣٨٨ ، وقد اختار الزمخشري الجواب الأول و الثاني ، و استحسنهما ابن المنيِّر .
و الرازي : مفاتيح الغيب ٩/٤٤٨ و قد اقتصر الرازي على الجواب الثاني فقط .
و أبو البقاء العكبري في التبيان ١/ ٣١٦ ، و قد ذكر هذه الأجوبة مجتمعة عدا الثاني .
و أبو حيان : البحر المحيط ٣/٤٥٦ ، ٤٥٧ ، و قد ذكرهم جميعًا عدا الرابع .
و الشيخ زكريا الأنصاري : فتح الرحمن ١٠١ و اختار الأول ، و الرابع .

(٢) – نسبه للمحققين من النحاة ابنُ مالك في شرحه لكافيته ٤/١٩٦٣ .
و دلالة "فَعَّال" على النسب قياسية عند المبرد ، و بعض البصريين ، خلافًا لسيبويه و بعض الكوفيين . الشيخ خالد : شرح التصريح ٣/٦١٣.

أكثرها من الحياة اليومية ؛ عرضًا يجعل المستمع يعيش في هذه المشكلة ، و يفكر في حلها ، كما لو كانت مشكلة شخصية له . ثم يبدأ في الرد ، معرِّضًا بـغباء أصحاب هذه الشبهة ، جامعًا بين الجواب الأول و الثاني من الأجوبة السالفة الذكر ، فيقول : ((و لم يفهم المستشرقون لماذا تكون المبالغة هنا: إن الحق قد قال: إنه ليس بظلاَّم للعبيد ، ولم يقل إنه ليس بظلام للعبد ، و معنى ذلك أنه ليس بظلام للعبيد من أول آدم إلى أن تقوم الساعة ، فلو ظلم كل هؤلاء - والعياذ بالله - لقال إنه ظلام ، حتى ولو ظَلَمَ كُلَّ واحدٍ أيسرَ ظلم ؛ لأن الظلم تكرر ، و ذلك بتكرر مَنْ ظُلم ، و هم العبيد ، فإن أريد تكثير الحديث فليفطنً الغبيُّ منهم إلى أن الله قال: ﴿وَأَنَّ اللَّه لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ ولم يقل إنه ليس بظلام للعبد . و إذا كان الظالم لا بد أن يكون أقوى من المظلوم ، إذن فكلُّ ظُلْمٍ يَتِمُّ تكييفه بقوة الظالم ، فلو كان الله قد أباح لنفسه أن يظلم فلن يكون ظالماً ؛ لأن عظم قوته لن يجعله ظالماً بل ظَلاَّما)) [1] .

لعل الشيخ تأثر باختيار الزمخشري للجوابين الأولين ، حيث قال : ((فإن قلتَ : كيف قال بظَلاَّم على لفظ المبالغة ؟ قلتُ : فيه وجهان ؛ أحدهما : أن يكون من قولك: هو ظالم لعبده، و ظلام لعبيده. و الثاني: أن يراد : لو عذبتُ مَنْ لا يستحق العذاب لكنتُ ظلاَّمًا مُفْرِطَ الظلم ، فَنَفَى ذلك))[2] . و لعله متأثر أيضًا باستحسان ابن المنيِّر لهما ، حيث قال : ((و بهذه النكتة يجاب عن قول القائل : نَفْيُ الأدنى أبلغُ من نفي الأعلى ، فلِمَ عدل عن الأبلغ و المراد تنزيه الله تعالى وهو جديرٌ بالمبالغة ؟ فهذان الجوابان عتيدان في هذا السؤال)) [3] . و لعل الشيخ لاحظ أنه لا تعارض بينهما ، فجمع بينهما في قول واحد .

الشبهة الثانية : القرآن تارةً ينسب إلى الملأ من قوم فرعون أنهم نصحوا فرعون بأن يحضر إليه كل ساحر عليم ، فيقول : ﴿قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢)﴾ [الأعراف : ١٠٩ – ١١٢] ، و تارة أخرى

---

(١) - الشعراوي : الخواطر الإيمانية ٣/١٩١٤ .

(٢) - الزمخشري : الكشاف ٣٨٨/٤ ، و ينظر في الكشاف أيضًا ٢٢٩/٢ ، و إنما اخترنا الاقتباس من الموضع الأول مع تأخره ؛ لأنه الأوضح .

(٣) - ابن المنيِّر : حاشيته على الكشاف ٢٢٩/٢ .

بنسب إليهم أنهم نصحوه بإحضار كل سحّار عليم فيقول : ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧) ﴾[الشعراء : ٣٤ – ٣٧] . فماذا قالوا ؛ ساحر ؟ أم سحَّار ؟

و الحل في غاية الوضوح ، فالقرآن يَقُصُّ علينا خبرَ ملأٍ ، أي : جمعٌ من أعيان قوم فرعون ، فمنهم مَنْ قال ساحر ، و منهم من قال : سحّار . لكن منشأ هذه الشبهة -كما يفهم من كلام الشيخ – يكمن في جهل أصحابها بالعلاقة المعنوية و الاشتقاقية بين الكلمتين ، و بأنّ "سحّار" مبالَغة في "ساحر" ، و أن الكلمتين من مادة و احدة ، و اعتقادهم أنّ الكلمتين لا علاقة بينهما ، و كأنّ كل واحدة منهما لها دلالة تختلف تمامًا عن دلالة الأخرى .

لذلك رد عليهم الشيخ ردًّا بين غرضهم منها و هو التشكيك في القرآن الكريم ، و اتهمهم فيه بعدم القدرة على التفريق بين ساحر و سحار ؛ لذلك بسط القول في بيان معنى صيغة المبالغة ، و أنها تفيد المبالغة في الكم (كثرة تعاطي السحر) ، و الكيف (شدة السحر) معًا ، فقال عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾[الأعراف : ١١٢] – قال : ((و لأن المستشرقين يريدون أن يشككونا في القرآن قالوا : و لماذا قال في سورة الشعراء: (يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ) ، و كان هؤلاء المستشرقين يريدون أن يفرقوا بين (سَاحِرٍ عَلِيمٍ) ، و (سَحَّارٍ عَلِيمٍ) ؛ و لأنهم لا يعرفون اللغة لم يلتفتوا إلى أن "سحّار" تفيد المبالغة من جهتين ؛ فكلمة "ساحر" تعني أنه يعمل بالسحر، و "سحّار" تعني أنه يبالغ في إتقان السحر ، و المبالغات دائماً تأتي لضخامة الحدث ، أو تأتي لتكَرُّر الحدث. ف "سحّار" تعني أن سحره قوي جدًّا ، أو يسحر في كل حالة ، فمن ناحية التكرار هو قادر على السحر، ومن ناحية الضخامة هو قادر أيضاً ، و مادام القائلون متعددين ، فواحدٌ يقول : ساحر ، و آخرُ يقول : سحَّار ، و هكذا ، و القرآن يغطّي كلَّ اللقطات)) ١ .

(١) – الشعراوي : الخواطر الإيمانية ٤٢٨٨/٧ .

و أسلاف أصحاب هذه الشبهة كانوا أكثر عمقًا منهم ، فإنهم لم يسألوا عما سأل عنه هؤلاء ، و إنما كان سؤالهم عن علة اختصاص أحد الموضعين بساحر ، و الآخر بسحّار ، فأجاب عنه علماء الإسلام ١ .

الشبهة الثالثة : القرآن يقول : ﴿ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ [الروم : ١٩] ، و في موضع آخر يقول : ﴿ يُخْرِجُ الحي مِنَ الميت وَ مخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الحي ﴾ [الأنعام : ٩٥] ، فأتى باسم الفاعل بدلاً من الفعل المضارع ، فإنْ كانت إحداهما بليغة فالأخرى غير بليغة .

هذه من الشبه القديمة ، و قد أجاب عنها العلماء قديمًا بما حاصله أن الله سبحانه عندما يعبر عن إخراج الميت من الحي في عموم القرآن يستخدم الفعل المضارع فيقول : تُخرج أو يُخرج ٢ ، إلا في موضع واحد في سورة الأنعام استخدم اسم الفاعل "مخرج" ٣ ، و تعليل ذلك أن موضع آية الأنعام تميز عن غيره بأنه مبنيٌّ على اسم الفاعل : إن الله فالق ......و مخرج ، حتى الآية التي بعدها هي الأخرى مبنية على اسم الفاعل : فالق الإصباح ، ذلك أمرٌ لا يوجد في المواضع الأخرى ، فتحتم هنا الإتيان باسم الفاعل ، و امتنع الفعل ، و اسم الفاعل "مخرج" هنا معطوف على اسم الفاعل "فالق" ، لا على الفعل المضارع "يخرج" ، و الفعل المضارع "يخرج" الواق بينهما هو تفسير و بيان لمعنى فالق ، و يفيد التجدد و

---

(١) - ينظر في ذلك على سبيل المثال : الزمخشري : الكشاف ٢/ ١٣٩ ، و الكرماني : البرهان ١٢٧ ، و أبو حيان : البحر المحيط ١٣٢/٥ . و حاصل ما قالوه أنه أتيَ بـ "سحّار" في آية الشعراء لتناسب وصف فرعون لموسى بقوله : إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ .

و من أجمل ما قرأتُ في ذلك تعليلَ الزمخشري لورود سحّار في سورة الشعراء ، حيث قال عن الملأ أنهم نُقل عنهم أنهم قالو ذلك في هذا الموضع ؛ لأنهم ((عارضوا قوله[فرعون] : إن هذا لساحر، بقولهم: بكل سحَار، فجاءوا بكلمة الإحاطة وصفة المبالغة ، ليطامنوا من نفسه ، ويسكّنوا بعضَ قلقه)) الزمخشري : الكشاف ٣١١/٣ . لله در الزمخشري ؛ فهذا حال المحيطين بالفراعنة في كل زمان ؛ لا يتكلمون إلا بما يريد أن يسمعه ملوكهم . و يقوي هذا التعليل أنّ القراء مجمعون على سحّار في هذا الموضع . ينظر في هذا الإجماع : ابن عطية : المحرر الوجيز ٤٣٨/٢ ، أبو حيان : البحر المحيط : ١٣٢/٥ .

(٢) - قال تعالى : ﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : ٢٧] ، وقال : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس : ٣١] ، وقال : ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ [الروم : ١٩] .

(٣) - قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [الأنعام : ٩٥ ، ٩٦] .

استحضـار الصـورة ، لذلك لا يصح أن يحل محله اسم الفاعل ١ . ثبت بهذا أن موضع آية الأنعام لا يصح فيه إلا اسم الفاعل ، و بقية المواضع لا يستساغ فيها إلا الفعل المضارع .

وقـد تناولهـا الشيخ استطرادًا عند تفسيره لقوله تعالى : (تُولِجُ الليل في النهار وَتُولِجُ النهـار في الليـل وَتُخْرِجُ الحي مِنَ الميت وَتُخْرِجُ الميت مِنَ الحـي وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) [آل عمـران: ٢٧] ، و كان رده موافقـًا للخطيـب الإسـكافي ، و الكرماني ، و الزمخشري ، و خلاصته : ((إنّ الذين بحثوا هذا البحث نظروا نظرة سطحية في المقابلة الجزئية في الآية، وهـي: (يُخْـرِجُ الحي مِنَ الميت) و قال: (وَمُخْرِجُ الميـت مِنَ الحي) نسوا أنه سبحانه قال إنه (يخـرج الحـي من الميت)؛ لبيان أن الله فالق الحب والنـوى ليخرج الحي من الميت أي أن الله فلق وشق الحب والنوى لأجل أن يخرج الحي من الميت ، ثم قال: (وَمُخْرِجُ الميت مِنَ الحي) هو مقابـل لفالق فلا تأخذها مقابلة للجزئية في الآية .. و هو سبحانه فالق الحب والنوى أي قبل أن يوجـد الحـب والنوى الذي يفلقه ، ومخرج الحي من الميت هو صفـة ثابتة في ذاته قبل أن يوجد متعلِّقها . وله صفة – أيضاً – بعد أن يوجد المتعلق، فإن أراد الصفة قبل أن يوجد المتعلَّق جاء بالاسم: "فالق ومخرج" . وإن كان يريد الصفة بعد أن توجد، يقول: "يخرج")) ٢ .

الشبهـة الرابعة : كيف يطلب منا القرآن أن نَعُدَّ الشيء المفرد و نُحصيه ، فيقول : (وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ الله لاَ تُحْصُوهَا) [إبراهيم : ٣٤ ، النحل : ١٨] ؟!!

و للعلماء في حلها أقوالٌ : أحدها : أنّ "نعمة" اسم مصدر ، يُقَالُ: أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْه، يُنْعِمُ إِنْعَامًا وَ نِعْمَةً ، كَقَوْلِك : أَنْفَقْتُ عَلَيْه إِنْفَاقًا وَنَفَقَةً ٣ .الثاني : أنها اسم جنس يدل على الكثرة ٤ .

---

(١) – ينظر في هذا المعنى : الخطيب الإسكافي : درة التنزيل ٥٢٧/٢ ، و الكرماني : البرهان ١١٠ ، و الزمخشري ، و ابن المنير عليه ٤٧/٢ ، و ابن الزبير الغرناطي : ملاك التأويل ٨٠/١ ، و ابن جماعة : كشف المعاني ١٦٣ .

(٢) – الشعراوي : الخواطر الإيمانية ٣٨٠٥/٦ ، ٣٨٠٦ . كما تناولها عند تفسيره لقوله تعالى : (وَيُخْرِجُ الميت مِنَ الحي) [الروم : ١٩] في الخواطر الإيمانية ١١٣٤٥/١٨ ، ١١٣٤٦ .

(٣) – ينظـر في هـذا القول : الـرازي : مفاتيح الغيب ٩٩/١٩ ، وفي اللسان "نعم" ٥٨١/١٢ : ((والنِّعْمَةُ، بالْكَسْر: اسمٌ مِنْ أَنْعَمَ اللَه عَلَيْه يُنْعِمُ إنْعاماً ونِعْمَةً، أُقيم الاسمُ مُقامَ الإنْعَام، كَقَوْلكَ: أَنْفَقْتُ عَلَيْه إنْفاقاً ونَفَقَةً بمَعْنًى وَاحد)) .

(٤) – ينظـر في هـذا القول : ابـن عطية : المحرر الوجيز ٣٩٣/١ ، ٣٨٥/٣ ، و أبو حيـان : البحر المحيط ٤٤١/٦ ، يقـول الراغـب في المفردات "نعم" : ((والنِّعْمَةُ للجنْس تقال للقليل والكثير ، قال تعالى: (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها) [النحل: ١٨] ، (اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ)[البقرة:٤٠] ، (وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي) [المائدة: ٣] ، (فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ)[آل عمران: ١٧٤])) .

الثالث : أنها اسم مفرد حقيقةً ، و أنّ إفراد النعمة من باب التنبيه بالأدْنى على الأعلى ، بمعنى أنَّ الإنسانَ لا يستطيع إحاطة جزئيات النعمة الواحدة ، فما بالك بما هو أكثر [1] . و هو اختيار الشيخ الشعراوي .

و قد تناولها الشيخ عند تفسيره معنى النعمة من قوله تعلى : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ) [الأحزاب : ٩] ، و جاء رده ، مفصلاً ما ذكرناه من الجواب الثالث ؛ فقد قال مخاطبًا أصحاب الشبهة من المستشرقين : ((نقول : الذي تروْنه نعمة واحدة ، لو تأملتُم فيها لوجدتم بداخلها نِعَماً متعددة تفوق العَدَّ.... و لك أنْ تأخذ نعمة واحدة من نِعَم الله عليك، ثم تتأمل فيها و في عناصرها و مُكوِّناتها و فوائدها وصفاتها، و سوف تجد في طيَّات النعمة الواحدة نِعَماً شتَّى)) [2] .

المطلب الثالث : الردود على الشبه المتعلقة بالضمائر و ما تعود عليه

الشبهة الأولى : كيف يعود ضمير المفرد على المثنى في القرآن في أكثر من موضع : مثل : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ) [الأنفال: ٢٠] لماذا لَمْ يقل : عنهما ؟ و مثل : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ) [الأنفال: ٢٤] ، لماذا لَمْ يقل : دعواكم ؟ ، و مثل : (يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ) [التوبة: ٦٢] ، لماذا لم يقل : يرضوهما ؟

هذه من الشبه القديمة ، وللعلماء أجوبة منها [3] : الأول : عودة ضمير المفرد على الاثنين المتعاطفين بالواو – من سنن العرب في كلامها [4] . و القرائن وحدها هي التي تحدد على أيهما يعود الضمير ، فإن لم توجد قرينة تَعَيَّنَ عوده على المتأخر منهما [5] . الثاني : إفراد

(١) – ينظر في هذا القول : السيوطي : معترك الأقران ٣١٥/١ .

(٢) – الشعراوي : الخواطر الإيمانية ١١٩٥٦/١٩ .

(٣) – ينظر في هذه الأوجه : الرازي ؛ محمد بن أبي بكر الحنفي : أنموذج جليل ١٥٥ ، ١٥٦ .

(٤) – ينظر في هذا المعنى : ابن فارس : الصاحبي : ١٦٦ ، ابن قتيبة : تأويل مشكل القرآن ١٧٠ – ١٧٧ ، و الثعالبي : فقه اللغة ٢٣٦ ، و الزركشي : البرهان ٣ / ١٢٧ ، ١٢٨ .

(٥) – ينظر في هذا المعنى : أبو حيان : الارتشاف ٢٠٢٠/٤ .

الضمير و عودته لرسول لله r للإشارة بذلك إلى أنّ إثم مَنْ تولى عن الرسول r كمَنْ تولى عن الله تعالى ، و أن دعوة الرسول كدعوة الله ، و أن إرضاء الرسول إرضاءٌ لله [1] ، و هذا اختيار الغالبية العظمى ممن وقفنا على كلامهم في هذه المسألة . الثالث : إفراد الضمير و عودته لله وحده للإشارة إلى أنّ وجوب طاعة الرسول r ، و اتباعه ، حرمة التولي عنه ، و غيرها من الحقوق إنما هي تبع لما لله منها ، و ليست مستقلة له r ؛ فنحن نعبد الله وحده ، و فيه تنزيهٌ لاسم الله أن يُذكر مع غيره في صيغة تشرك بينهما ؛ فقد كره النبي r أن يجمع مع الله غيرُه في ضمير واحد ، فقد لام r القائل : من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى قائلاً له : بِئْسَ الخَطِيبُ أَنْتَ ، قُلْ: وَ مَنْ يَعْصِ اللّه وَرَسُولَهُ [2].

و قد تناولها الشيخ عند تفسيره لقوله تعالى : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ) [الأنفال : ٢٤] ، على النحو التالي : أوضح وجه الإشكال في هذه الشبهة في هذه الآية و في نظيراتها . ثم علق على كلام أصحابها من المستشرقين بقوله : ((لأنك استقبلت القرآن بغير ملكة العربية ، فلم تفهم ، ولو وجد الكفار في أسلوب القرآن ما يخالف اللغة لما سكتوا، فهم المعاندون ، ولو كانوا جربوا في القرآن كلمة واحدة مخالفة لأعلنوا هذه المخالفة ، وعدم إعلان الكفار عن هذه الشبهات التي يثيرها الأعداء، يدل على أنهم فهموا مرمى ومعنى كل ما جاء بالقرآن)) [3] . ثم يبدأ في تفسير الآية بعد ذلك بإطناب شديد يركز فيه على معنى المنهج الذي هو الدين و على معنى الإحياء بهذا المنهج ، و يلمح أثناء ذلك إلى الرد إلماحًا ، يفهم منه أنه يختار الجواب الثاني من الأجوبة سالفة الذكر ، الذي هو فول أكثر المفسرين ، حيث يقول ((فإذا ما قال الله : يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول المبلغ عن الله لأنه سيدعوكم لما يحييكم فعلينا أن نستجيب للدعوة . الداعي

(١) - ينظر في هذا المعنى :ابن جرير الطبري :جامع البيان/٤٦٥ ، و الزمخشري : الكشاف ٢٠٩/٢ ، ٢١٠ ، و ابن الجوزي : زاد المسير ٢/ ١٩٨ ، ١٩٩ ، و الرازي : مفاتيح الغيب ٤٦٩/١٥ ، و أبو حيان : البحر المحيط ٥ /٢٩٩ ، ٣٠١ ، و البيضاوي : أنوار التنزيل ٥٤/٣ ، والألوسي : روح المعاني ٣٣١/٣ ، و ابن عاشور : التحرير و التنوير ٢١١/٩ .

(٢) - ينظر في هذا المعنى : أبو حيان : البحر الحيط ٥/ ٢٩٩ ، والشيخ زكريا الأنصاري : فتح الرحمن ٢١٧ ، ٢١٨ ، و الحديث أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الجمعة ، باب تخفيف الصلاة و الخطبة رقم ٨٧٠ .

(٣) - الشعراوي : الخواطر الإيمانية ٨ / ٤٦٤٢ .

- إذن - هـو الله تعـالى وقد سبقت نعمه عليك قبـل أن يكلفك، وهو سبحانه قد أرسل رسولاً مؤيـداً بمعجـزة لا يستطيع واحد أن يأتـي بها، ويدعو كل إنسان إلى مـا فيه الخير، ولا يمنع الإنسان من الاستجابة لهذا الدعاء إلا أن يكون غبيا)) ١ .

الشبهـة الثانيـة : في القرآن كيف يعود ضمير جمع المذكر على المثنى المؤنث ، في قوله : (وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ المؤمنين اقتتلوا) [الحجرات: ٩] ، ألم يكن من الأحسن أن يقول : اقْتَتَلَتَا ؟!!

هـذه مـن الشبه القديمـة ، و جوابها أن هذا من الحمل علـى المعنى دون اللفظ ؛ لأنّ الطائفة كما يقول اللغويون اسم جمع ، معناها : الجماعة من الناس ، فالله سبحانه و تعالى ((قَـالَ: اقْتَتَلُـوا ، وَلَمْ يَقُـلْ اقْتَتَـلَا ، وَقَالَ : فَأَصْلِحُـوا بَيْنَهُما ، وَلَمْ يَقُلْ : بَيْنَهُـمْ ؛ ذَلكَ لأَنَّ عِنْـدَ الاقْتِتَـال تَكُونُ الْفِتْنَةُ قَائِمَةً ، وَكُلُّ أَحَد برَأْسه يَكُونُ فَاعـلًا فعْلًا ، فَقَالَ : اقْتَتَلُوا ، وَعِنْدَ الْعَـوْد إِلَى الصُّلْـح تَتَّفقُ كَلِمَةُ كُلِّ طَائفَة ، وَإِلَّا لَمْ يَكُنْ يَتَحَقَّـقُ الصُّلْحُ ، فَقَالَ: بَيْنَهُما لِكَوْنِ/ الطائفتين حينئذ كنفسين)) ٢.

و قـد تناولها الشيخ – رحمـه الله –استطرادًا ضمن رده للشبهة السابقة ، و الجامع بينهمـا أن الحمـل على المعنى هو الذي يجيز مخالفة ظاهر اللفظ فيما تعود عليه الضمائر ، ومـن خلاصـة رده : ((إنَّ "طائفتان" هي مثنى طائفة ، و الطائفة لا تُطْلَقُ على الفرد ، إنما تطلـق علـى جماعة ، مثلما نقول : المدْرَسَتان اجتمعـوا ؛ و صحيح أن المَدْرسة مفرد ، لكن كل مدرسـة بهـا تلاميذ كثـيرون ، وكذلك "طائفتان" ، معناهـا أن كل طائفة مكونة من أفراد ، وحـين يحدُث القتال فهو قتال بين جمـع وجمع ؛ لذلك كان القرآن الكريم دقيقاً حين قال : (وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ المؤمنين اقتتلوا) ، و لم يقل القرآن الكريم : وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلا ؛ لأن هـذا القـول لا يعبر بدقة عن موقف الاقتتال لأنهـم كطائفتين ، إن انتهوا فيما بينهـم إلى القتـال ، فسـاعة القتال لا يتحيز كل فرد لفرد ليقاتله ، وإنما كل فرد يقاتل في كل أفراد الطائفة الأخرى ، و هكذا يكون القتال بين جمع كبير من أفراد الطائفتين)) ٣.

(١) - الشعراوي : الخواطر الإيمانية ٨ / ٤٦٤٦ .

(٢) - الرازي : مفاتيح الغيب ٢٨ / ١٠٥ .

(٣) - الشعراوي : الخواطر الإيمانية ٤٦٤٣/٨ .

و تأكيدًا لرده يوضح الشيخ عدولاً آخر عن الظاهر فيما يعود عليه الضمير في نفس الآية ، كأنه يريد أن يقوي حجته ، و يشعر السامع بمدى سطحية أصحاب هذه الشبهة ، فيقول : ((و بعد ذلك يواصل الحق تبارك وتعالى تصوير الموقف من الاقتتال بدقة فيقول سبحانه : (فَقَاتِلُواْ التي تَبْغِي حتى تفيىء إلى أَمْرِ اللّه فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا)[الحجرات: ٩] ، وهنا يقول سبحانه وتعالى: (فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا) ، ولم يقل : أصلحوا بينهم ، و هكذا عدل عن الجمع الذي جاء في الاقتتال إلى المثنى ؛ لأننا في الصلح إنما نصلح بين فئتين متحاربتين ، و نحن لا نأتي بكل فرد من الطائفة لنصلحه مع أفراد الطائفة الأخرى ، و يمثل كل طائفة رؤساؤها ، أو وفد منها ، و هكذا استخدم الحق المثنى في مجاله ، واستخدم الجمع في مجاله ، وسبحانه و تعالى منزهٌ عن الخطأ)) ١ .

الشبهة الثالثة : القرآن يعيد ضمير الجمع على المثنى ، في قوله : (فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ) [النمل: ٤٥] ، هلاَّ قال : فريقان يختصمان ؟!

و حل هذه الشبهة واضح كالتي قبلها ، و هو أنّ الفريق اسم يدل على جماعة من الناس ، مثل الطائفة ، فعاد الضمير على الفريقين بصيغة الجمع ، فقيل : يختصمون ، مراعاةً للمعنى ٢ ؛ وقياسًا على كلام الشيخ في الشبهة السابقة أقول – و اللّه أعلم – ليُبَيِّنَ أنّ كل فرد من أفراد أحد الفريقين كان غلى خصومة مع أفراد الفريق الآخر . وقيل : استُخدم ضمير الجمع هنا مراعاةً للفواصل ٣ .

و خلاصة رد الشيخ : (فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ) ، أي: مؤمنون وكافرون(يَخْتَصِمُونَ) ؛ لأن كل فرد في هذه الجماعة يقف في مواجهة فرد من الجماعة الأخرى)) ٤ .

(١) – الشعراوي : الخواطر الإيمانية ٤٦٤٣/٨ . و ينظر : الزمخشري : الكشاف ٢٦٨/٢ ، ٤ / ٣٦٤ ، و الرازي : مفاتيح الغيب : ١٠٥/٢٨ . وكلام الشيخ هنا سبق أن ذكره بتمامه استطرادًا ، دون ذكر لشُبَه ، عند شرح معنى الطائفة عند تفسير قوله تعالى : (وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ)[آل عمران : ١٥٤] ، و هناك ذكر معنىً طريفًا دقيقًا لهذه الكلمة ، لم أقف عليه لغيره ، و هو أنها تدل على جماعة من الناس ((لها مواصفات خاصة هي التي تجمعها على فكرة واحدة كأنهم يطوفون حولها ، إنها ليست مطلق جماعة لكنها جماعة تدور حول فكرة واحدة)) – في الخواطر الإيمانية ١٨٣٥/٣ .

(٢) – ينظر في هذا المعنى : أبو حيان : البحر المحيط ٢٤٨/٨ .

(٣) – ينظر في هذا المعنى : الألوسي : روح المعاني ٢٠٥/١٠ .

(٤) – الشعراوي : الخواطر الإيمانية ١٠٧٩٥/١٧ .

الشبهة الرابعة : ما للقرآن يعود فيه ضمير المثنى المؤنث على الجمع المؤنث ، في قوله : (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا) [الأنبياء : ٣٠] ، هلا قال : السماوات و الأرض كنّ رتقًا ؟!

واضحٌ أنّ السماوات جنس أو نوع ، و الأرض جنس أو نوع آخر ، فاستُعمل معهما ضمير المثنى حملاً على المعنى ١ .

و قد فند الشيخ هذه الشبهة قال : ((و قد كان للمستشرقين كلام حول قوله تعالى: (كَانَتَا رَتْقاً) ، قالوا: السماوات جمع ، والأرض كذلك جنس لها جمع ، فالقاعدة تقتضي أنْ نقول : كُنَّ رتقاً بضمير الجمع ، و صاحب هذا الاعتراض لم يَدْر أن الله سبحانه و تعالى نظر إلى السماء كنوع و الأرض كنوع ، فالمراد هنا السماوية والأرضية وهما مُثنَّى)) ٢ . ثم أخذ يوضح كلامه ، فمثل بالشبهة قبل السابقة .

المطلب الرابع: الردود على الشبه المدعية وجود أخطاء نحوية

الشبهة الأولى : وردتْ كلمة "البر" في القرآن مرتين بعد "ليس" ، و كانت منصوبة في إحداهما و مرفوعة في الأخرى ؛ كانت منصوبة في قوله : (لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) [البقرة : ١٧٧] ، و كانت مرفوعة في قوله : (وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى) [البقرة : ١٨٩] ، فإن كان النصب في إحداهما صحيح فهو في الأخرى خطأ ، و إن كان الرفع في إحداهما صحيح فهو في الثانية خطأ .

و حَلُّ هذه الشبهة هو أن نصب "البر" في الموضع الأول على اعتبار أنه خبر "ليس" مقدمٌ على اسمها ، و اسمها هو : "أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ " - و نصب "البر" هنا هو قراءة حمزة و حفص عن عاصم - و تقديم خبر "ليس" على اسمها يكثر في كلام العرب إذا كان

---

(١) - ينظر في هذا المعنى : الزمخشري : الكشاف ١١٣/٢ ، و ابن عطية : المحرر الوجيز ٨٠/٤ ، و أبو حيان : البحر المحيط ٤٢٤/٧ .

(٢) - الشعراوي : الخواطر الإيمانية ١٥/ ٩٥١٨ .

الخبر مصدرًا مؤولاً من "أنْ" المصدرية و الفعل المضارع - كما ههنا - و نكتة تقديم الخبر هنا هي أنّ أَمْرَ اسْتِقْبَالِ الْقِبْلَةِ هُوَ الشُّغْلُ الشَّاغِلُ للمخاطَبين ، فَإِذَا ذُكِرَ خَبَرُهُ قَبْلَهُ ، تَرَقَّبَ السَّامِعُ الْمُبْتَدَأَ ، فَإِذَا سَمِعَهُ تَقَرَّرَ في عِلْمِه . و يجوز رفع "البر" هنا — و هو قراءة الجمهور - ؛ لأَنَّ الْبِرَّ أَمْرٌ مَشْهُورٌ مَعْرُوفٌ لِأَهْلِ الْأَدْيَانِ مَرْغُوبٌ لِلْجَمِيعِ فَإِذَا جُعِلَ اسما لـ "ليس" أَصْغَتِ الْأَسْمَاعُ إِلَى معرفة الْخَبَرِ .

بينما رُفِع "البر" في الموضع الثاني على اعتبار أنه اسم "ليس" ، و الخبر هو : "بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ.." و هو مصدر مؤول في محل جر بالباء الزائدة ، وفائدة دخولها على الخبر هنا تَأْكِيدِ النَّفْي بِـ "لَيْسَ" ، وَمُقْتَضَى تَأْكِيد النَّفْي أَنَّ العرب كَانُوا يَظُنُّونَ ظَنًّا قَوِيًّا أَنَّ إتيان البيوت من ظهورها هو نوعٌ مِنَ الْبِرِّ - فَلِذَلِكَ كَانَ لابد أَنْ يُؤَكِّدَ نَفْيُ هَذَا الظَّنِّ . فالغرض هنا هو نفي جنس البر عن إتيان البيوت من ظهورها ، لذلك لا يجوز هنا إلا رفع "البر" ١.

و قد تعرض الشيخ - رحمه الله- لهذه الشبهة عند تفسيره لقوله تعالى : (وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى)[البقرة : ١٨٩] ، و كان تناوله لها على النحو التالي : شَرَحَ معنى الآية مبيناً نزولها . ثم تكلم عن إعراب "البر" في الموضعين . ثم عرض الشبهة ، و وجه الإشكال فيها .

ثم بدأ في الرد مخاطبًا المستشرقين أصحاب الشبهة ، فشرح متى يتقدم الخبر المفرد على المبتدأ و متى يتأخر عنه فقال : ((نقول: " زيد مجتهد" ، هذا إذا كنا نعلم زيداً ونجهل صفته ، فجعلنا زيداً مبتدأ، ومجتهداً خبراً. لكن إذا كنا نعرف إنسانا مجتهداً و لا نعرف من هو؛ فإننا نقول: "المجتهد زيد")) ٢ . ثم استأنف الرد قائلاً : ((إذن فمرة يكون الاسم معروفاً لك فتلحق به الوصف، ومرة تجهل الاسم و تعرف الوصف فتلحق الاسم بالوصف . وهذا سر اختلاف الرفع والنصب في كلمة "البر" في كل من الآيتين. و نقول للمستشرقين : إن لكل كلمة في القرآن ترتيباً و معنى ، فلا تتناولوا القرآن بالجهل ، ثم تثيروا الإشكالات

(١) - ينظر في هذه المعاني : ابن عاشور : التحرير و التنوير ٢/ ١٢٩ ، ١٩٧ — ١٩٩ .

(٢) - الشعراوي : الخواطر الإيمانية ٢/٨١٤ .

التي لا تقلل من قيمة الكتاب و لكنها تكشف جهلكم)) ١. و الرد هنا كان في حاجة لمزيد من البسط ليشفي الغليل .

الشبهة الثانية : هناك خطأ في القرآن ، هو أن كلمة "كل" وردت منونة ، في قوله : ﴿ وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [هود: ١١١]

أصحاب هذه الشبهة يعرفون أن "كل" ملازمة للإضافة ، و لا يعرفون أعمق من ذلك ، و جواب الشبهة أنكم لو تعمقتم في دراسة اللغة أكثر لعلمتم أن المضاف إليه - سواء أكان مفردًا أو جملة أو أكثر - قد يحذف و يعوض عنه بالتنوين ، كما حدث هنا ، و التقدير : و إنّ كلهم و الله ليوفينهم ربك أعمالهم ٢ .

و قد تناولها الشيخ على النحو التالي :شَرَحَ معنى الآية و علاقتها بما قبلها .ثم مهد لعرض الشبهة بحديث طويل عن افتقاد أصحاب هذه الشبهة للحِسِّ اللغوي ، الذي كان يتمتع به عرب الجاهلية الذين لم يعترض أحد منهم على فصاحة القرآن. بينما لا يكف هؤلاء عن الطعن في القرآن .ثم تكلم عن التوكيد بـ "إنّ" ، و عن مراتب الإنكار في الكلام و طريقة الرد ، كما هو مبسوط في علم المعاني . و عن أنواع التنوين .ثم عرض الشبهة و وجه الإشكال فيها . ثم انتهى إلى الرد ، فقال : ((و هم لم يعرفوا أن التنوين يغني عن جملة، فساعة تسمع أو تقرأ التنوين ، فاعلم أنه عِوَضٌ عن جملة ، مثل قول الحق سبحانه: ﴿فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الحلقوم وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٣٨٤] . و "كلاً" في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها توجز أن كلاً من الطائع المؤمن ، والعاصي الكافر ، سوف يلقى جزاءه ثواباً أو عقاباً)) ٣ .

الشبهة الثالثة : القرآن لا يراعي قواعد النحو ، فلم يذكر خبر كان في قوله : ﴿ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ ﴾ [البقرة : ٢٨٠] .

و الحل واضح ، فـ "كان" هنا هي التامة ، التي معناها "وُجِد" ، فهي تكتفي

(١) - الشعراوي : الخواطر الإيمانية ٢/٨١٤ .

(٢) - ينظر في هذا المعنى : الزمخشري : الكشاف ٢/٤٣٣ .

(٣) - الشعراوي : الخواطر الإيمانية ١١/٦٧٠٤ .

بمرفوعها عـــن الخـبر شأنها في ذلك شأن أي فعل لازم ، و ليستْ بالناقصة التي يبحث عنها أصحاب هذه الشبهة ١ .

و قـد تناولهـا الشيـخ على النحو التالي : شَرَحَ معنـى الآية . ثم شرح و جه الإشكال فيهـا ، مـع الحديث عن أصحابهـا ، فقال : ((هنا قضيـة يثيرها بعض المستشرقين الذين يدعون أنهم درسوا العربية ، لقد درسوها صناعة ، و لكنها عَزَّتْ عليهم ملكةً ؛ لأن اللغة ليست صناعـة فقـط ، اللغة طبـع ، و اللغة ملكة ، اللغة وجدان)) ٢ . ثـم اخذ يرد عليهم ، و رده في هذه الحالة شرحٌ وافٍ لمعنى تمام "كان" ، لمعنى نقصانها ، و لما يترتب على كلٍّ من أحكام ٣ .

الشبهـة الرابعـة : كيف يقول القرآن (أتى أمر الله) باستخدام الفعل الماضي ، ثم ينهى عن الاستعجال فيقول : (فلا تستعجلوه) ؟!

و هذه من الشبه القديمة ، و للعلماء عليها جوابان ٤ : الأول : استخدام الفعل الماضي هنا للتعبير عن المستقبل هو من أساليب القرآن ، و من أساليب كلام العرب ٥ ؛ ليفيد الدلالة علـى تحقق الحـدث (إتيان أمر الله) ، فهو من باب إِجْرَاءً لِمَا يَجِـبُ وُقُوعُهُ و لم يقع مَجْرَى الْوَاقِعِ . الثاني : الإشارة إلى أن الله كتب ذلك أزلاً ، فهو واقع لا محالة .

و قـد تناولهـا الشيخ عند تفسير قوله تعـالى : (وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا) [مريم : ٢١] ، و خلاصـة رده: ((هـذه قضية منتهية لا شكّ فيها ولا جدالَ ، فليس هناك قوة أخرى تعارضها أو تمنع حدوثها ؛ لذلك جاءت بصيغة الماضي و هي في الواقع أمر مستقبل)) ٦ .

(١) – لم يشذ عن ذلك إلا بعض الكوفيين، قال أبو حيان في البحر المحيط ٧١٦/٢ : ((وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ: ذُو عُسْرَة ، عَلَـى أَنَّ: "كَانَ" تَامَّـةٌ ، وَهُوَ قَوْلُ سِيبَوَيْه، وَأَبِي عَليّ . وَأَجَازَ بَعْضُ الْكُوفِيِّينَ أَنْ تَكُونَ: "كَانَ" نَاقِصَةً هُنَا . وَ قُدِّرَ الْخَبَرُ: وَ إِنْ كَانَ مِنْ غُرَمَائِكُمْ ذُو عُسْرَة ، فَحُذِفَ الْمَجْرُورُ الَّذِي هُوَ الْخَبَرُ، وَقُدِّرَ أَيْضًا : وَ إِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ لَكُمْ عَلَيْهِ حَقٌّ . وَحَذْفُ خَبَرِ كَانَ لَا يَجُوزُ عِنْدَ أَصْحَابِنَا [البصريين] ، لَا اقْتِصَارًا وَلَا اخْتِصَارًا)) .

(٢) – الشعراوي : الخواطر الإيمانية : ٣ / ١٢٠٤ .

(٣) – الشعراوي : الخواطر الإيمانية : ٣ / ١٢٠٥ .

(٤) – ينظر في هذين الجوابين : الرازي : مفاتيح الغيب ١٨٦/١٩ .

(٥) – ينظر في هذا المعنى : ابن قتيبة : تأوي مشكل القرآن ١٨٠ ، و الزركشي : البرهان في علوم القرآن ٣/ ٣٧٢.

(٦) – الشعـراوي : الخواطـر الإيمانيـة ٩٠٦٢/١٥ . و قد تناول الشيخ هذه الشبهـة بنفس الطريقة ، و لكن بشكل أكثر بسطًا عند تفسير آية [المائدة : ١١٦] في الخواطر الإيمانية ٣٤٦٩/٦ .

الشبهة الخامسة : القرآن يخالف قواعد النحو ، فيحدث فيه جواب الشرط في زمن سابق على زمن فعل الشرط ، مع أن الجواب مترتب على الشرط و ناتج عنه ، فيقول : (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ) [آل عمران : ١٨٤].

و الجواب : صحيحٌ أنّ تكذيب الرسل - الذي تدعون أنه جواب الشرط – سابقٌ على تكذيب نبينا ﷺ ، إلا أنه ليس هو الجواب ،بل هو دليل الجواب ، و ممهد له ، و الجواب محذوف تقديره : فلا تحزن ؛ أي فإن كذبوك فلا تحزن ، فقد كذب رسل من قبلك ١ .

و قد تناولها الشيخ على النحو التالي : شرح العلاقة التلازمية بين الشرط و جوابه . ثم مهد لعرض الشبهة بسؤال : فإذا كان الجواب قد حصل قبل الشرط فما الحال؟ ثم عرض الشبهة و وجه الإشكال فيها ، و أشار إلى أصحابها بأنهم بعض السطحيين من أدعياء الإسلام أو من المستشرقين .ثم شرع يرد بقوله : ((لقد جاء الحق بهذه الآية ليقول لرسول الله ﷺ : فإن كذبوك فلا تحزن ، فقد سبقك أن كَذّب قوم رسلَهم ، إنها علة لجواب الشرط ، كأنه يقول: فإن كذبوك فلا تحزن . إذن فمعنى ذلك أن المذكور ليس هو الجواب، إنما هو الحيثية للجواب)) ٢ . ثم يوضح أكثر بضرب مزيد من الأمثلة من الحياة اليومية ٣ .

الشبهة السادسة :كيف يجعل القرآن زمن جواب الشرط سابقًا على زمن الشرط ، فقال : (إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ) [التوبة : ٤٠] ؟!

و هذه كسابقتها ، و حلها كحلها ، و هو أن ما تعتقدونه جوابًا للشرط ، من قوله تعالى : فَقَدْ نَصَرَهُ الله ، إنما هو دليل الجواب ، و الجواب محذوف تقديره ، فسينصره الله ، أي فسينصره الله ، بدليل أنه : قَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ ٤ .

و خلاصة رد الشيخ – رحمه الله - : ((إن المعنى: إلا تنصروه فسينصره الله. بدليل أنه قد نصره قبل ذلك. وهذا ليس جواب شرط، وإنما دليل الجواب، فحين يكون دليل الجواب ماضياً، فهو أدل على الوثوق من حدوث الجواب ...)) ٥ .

---

(١) – ينظر في هذا المعنى : أبو حيان : البحر المحيط ٤٥٩/٣ ، و السيوطي : نواهد الأبكار ٢٥٤/٢ .

(٢) – الشعراوي : الخواطر الإيمانية ١٩٣١/٣ .

(٣) – الشعراوي : الخواطر الإيمانية ١٩٣٢/٣ .

(٤) – ينظر في هذا المعنى : الزمخشري : الكشاف ٢٧٢/٢ ، و الرازي : مفاتيح الغيب ٤٩/١٦ ، و أبو حيان : البحر المحيط ٤٢٠/٥ ، و البيضاوي : أنوار التنزيل ٨١/٣

(٥) – الشعراوي : الخواطر الإيمانية ٥١٢٤/٨ .

الخاتمة

و بعد ، فقد توصل البحث للنتائج الآتية :

الشيخ ينطلق في ردوده على هذه الشبه من منطلق أنها وسائل لإظهار جوانب من إعجاز القرآن الكريم .

الشيخ في جميع ردوده يسير وفق ما ترتضيه أصول التفسير المعتبرة ، و ضوابط الشريعة ، و قواعد اللغة العربية .

الشيخ يستعين بثقافة موسوعية ، و بمصادر متنوعة للمعرفة على رأسها فيما يتعلق بموضوع البحث كتابا الزمخشري و الرازي : الكشاف و مفاتيح الغيب .

الشيخ عرض شبهات و رد عليها ، لم نقف عليها عند غيره .

الشيخ يقدم تفسيرات لمعاني بعض المفردات القرآنية بشكل لم يسبق إليه .

إن كان للعلماء أقوال متعددة في حل الشبهة ، فإنه يختار رأي الجمهور أو ما يراه الأقوى و الأظهر و الأبعد عن التكلف ، و إن كانت الشبهة جديدة فإنه يرد عليها في ضوء الثوابت اللغوية و الشرعية .

لا يشغل المتلقي بذكر أقوال العلماء في المسألة ، و لا بإثبات صحة رأي أو ضعف آخر ، و إنما يجعل جُلَّ اهتمامه في شرح و توضيح ما يراه صوابًا .

لا يسأم من تكرار الكلام عن الشبهة الواحدة بنفس البسط و التفصيل ، و أحيانًا بشيء من الإيجاز حسب الأحوال في أكثر من موضع من تفسيره ، كلما دعت الحاجة ، و لا يكتفي بالإحالة ، و لا بالإشارة ؛ توكيدًا للمعنى ، و استخدامًا لنفس سلاح الخصم ، الذين لا يملون من تكرار عرض الشبه بلا كلل في كل مناسبة بل ، و بلا مناسبة .

و مــن نتائــج هذه الدراسة تحديد منهج الشيــخ الشعراوي – رحمه الله – في ردوده على شبــه المشككــين اللغوية ، و الذي يتمثل في النقاط الأساسيــة التالية ، و التي قد يَزيد عليها – رحمه الله – أو يَنْقُصُ منها أو يُقَدِّمُ فيها أو يُؤَخِّر ، حسب مقتضيات الأحوال :

إن كان توضيح الشبهة يحتاج إلى شرح معاني كلمات أو مصطلحات ، فإنه يمهد بتوضيح ذلك بشكل مبسط بالاستعانة بالأسلوب السهل ، و بالأمثلة المتنوعة ، سواء أكانت من القرآن أم مــن السنة أم مــن التاريخ أم من الحياة اليومية ؛ بطريقة تجعل غير المتخصص لا يشعر بصعوبةٍ للكلمات ، و لا بجفافٍ للمصطلحات ، و لا بمللٍ من الحديث .

يعرض الشبهــة ، و يشرح وجه الإشكال فيهــا شرحًا وافيًا أمينًــا ، كأنه يتحدث بلسان أصحابها .

يشير إلى أصحابها ، و أنهم بعض المستشرقين أو المشككين أو السطحيين من المستغربين.

يوضــح سبب وقوعهم في هذه الشبهة ، و هو إمــا الجهل بأسرار اللغة العربية أو الحقد على الإسلام ، كما ينص على غرضهم منها ، وهو دائمًا الحرب على هذا الدين .

يبــدأ في حل الشبهة معتمدًا على العبارة الواضحة ، و على مختلف أواع الأمثلة ، و منها عرضــ شبه مماثلة و الرد عليها ، كما يعتمد علــى الإجمال بعد التفصيل كلما طال الكلام ، و بعــد كل إجمال قد ينــوع في الأسلوب ، ثم يُجْمِلُ مرةً أخرى ، إن تطلب الأمر ، ليصل المعنى إلى السامع مهما كان نصيبه من العلم .

و ختامًا ، فالبحث يوصي المتصدين للدفاع عن هذا الدين ضد شبه المشككين بمختلف أنواعهــا باتبــاع منهج الشيخ و بدراسة إنتاجه العلمي ، ففيــه ذخيرة من الردود العلمية على المشككين في الدين من كل نواحيه .

المراجع

١. - الألوسي ، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني (المتوفى: ١٢٧٠هـ) : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، تحقيق : علي عبد الباري عطية ، دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ .

٢. - الباقلاني ، محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم، القاضي أبو بكر الباقلاني المالكي ، ت سنة ٤٠٣ هـ : الانتصار للقرآن ، تحقيق : د. محمد عصام القضاة ، دار الفتح - عَمَّان، دار ابن حزم – بيروت ، ط١ ، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م .

٣. - البيضاوي : ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، تحقيق : محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي – بيروت ،الطبعة الأولى ، ١٤١٨ هـ .

٤. - الثعالبي ، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي ، ت٤٢٩ه : فقه اللغة وسر العربية ، تحقيق : عبد الرزاق المهدي ، دار إحياء التراث العربي ، ط١ ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م .

٥. - الثعلبي : أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق ، ت سنة ٤٢٧هـ : الكشف والبيان عن تفسير القرآن ، تحقيق أبي محمد بن عاشور ، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان ، ط١ ، ١٤٢٢، هـ - ٢٠٠٢ م

٦. - ابن جرير الطبري ، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ) : جامع البيان في تأويل القرآن ، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م .

٧. - ابن جُزي ، أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي

الغرناطي (المتوفى: ٧٤١هـ) : التسهيل لعلوم التنزيل ، تحقيق: د . عبد الله الخالدي ، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت ،الطبعة الأولى - ١٤١٦ هـ .

٨. - ابن جماعة ، أبو عبد الله، محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني الحموي الشافعي، بدر الدين (المتوفى: ٧٣٣هـ) : كشف المعاني في المتشابه من المثاني ،تحقيق: الدكتور عبد الجواد خلف ، دار الوفاء ـ المنصورة ،الطبعة الأولى، ١٤١٠ هـ .

٩. - ابن الجوزي ، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي ، ت سنة ٥٩٧هـ : زاد المسير في علم التفسير ، تحقيق : عبد الرزاق المهدي ، دار الكتاب العربي – بيروت ، ط١ ، ١٤٢٢ هـ .

١٠. - الجوهري ، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي ، ت ٣٩٣هـ : الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين – بيروت ، ط ٤ ، ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٧ م .

١١. - أبو حيان ، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ) :

١٢. ارتشاف الضرب من لسان العرب ، تحقيق : د . رجب عثمان محمد ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ط١ ، ١٤١٨ ه – ١٩٩٨ م .

١٣. البحر المحيط في التفسير ، تحقيق : صدقي محمد جميل ، دار الفكر – بيروت ، ١٤٢٠ هـ

١٤. - ابن خالويه ، الحسين بن أحمد بن خالويه، أبو عبد الله (المتوفى: ٣٧٠هـ) : كتاب إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ، مطبعة دار الكتب المصرية (١٣٦٠هـ -١٩٤١م) .

١٥. - الشيخ خالد الأزهري ، خالد بن عبد الله بن أبي بكر بن محمد الجرجاويّ الأزهري، زين الدين المصري، (المتوفى: ٩٠٥هـ) : شرح التصريح على التوضيح أو

التصريح بمضمون التوضيح في النحو، دار الكتب العلمية -بيروت-لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م

١٦. - الخطيب الإسكافي ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني المعروف بالخطيب الإسكافي (المتوفى: ٤٢٠هـ) : درة التنزيل وغرة التأويل ، دراسة وتحقيق وتعليق: د . محمد مصطفى آيدين ، جامعة أم القرى، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.

١٧. - الراغب الأصفهاني ، أبو القاسم الحسين بن محمد (المتوفى: ٥٠٢هـ) : المفردات في غريب القرآن ، تحقيق: صفوان عدنان الداودي ، دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت ، الطبعة الأولى - ١٤١٢

١٨. - الرازي ، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ) : مفاتيح الغيب ، دار إحياء التراث العربي – بيروت ،ط ٣ ، ١٤٢٠ هـ .

١٩. - الرازي الحنفي ، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي ، ت ٦٦٦هـ : أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل ، تحقيق: د. عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودى ، دار عالم الكتب المملكة العربية السعودية – الرياض ، ط١ ، ١٤١٣ ه . - الشيخ زكريا الأنصاري ، زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري، زين الدين أبو يحيى السنبكي (المتوفى: ٩٢٦هـ) : فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن ، تحقيق: محمد علي الصابوني ، دار القرآن الكريم ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى، ١٤٠٣ هـ .

٢٠. - الزَّبِيدي ، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني ، أبو الفيض ، الملقّب بمرتضى الزَّبيدي ، ١٢٠٥هـ : تاج العروس من جواهر القاموس ، مجموعة من المحققين ، دار الهداية .

٢١. - ابن الزبير الغرناطي ، أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، أبو جعفر (المتوفى: ٧٠٨هـ) : ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه

اللفظ من آي التنزيل ، وضع حواشيه: عبد الغني محمد علي الفاسي ، دار الكتب العلمية، بيروت .

٢٢. - الزمخشري ، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ) : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، دار الكتاب العربي – بيروت ، ط٣ - ١٤٠٧ هـ .

٢٣. - الزركشي ، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي ، ت ٧٩٤هـ : البرهان في علوم القرآن ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي – القاهرة ، ط١، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م .

٢٤. - السيوطي ، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ) :

٢٥. معترك الأقران في إعجاز القرآن ،دار الكتب العلمية - بيروت – لبنان ،ط١، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .

٢٦. نواهد الأبكار و شوارد الأفكار = حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي ، جامعة أم القرى ، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٥ م .

٢٧. - الشعراوي ، محمد متولي الشعراوي ، ت ١٤١٨سنة هـ : الخواطر الإيمانية ، مطابع أخبار اليوم ، ١٩٧٧ م .

٢٨. - الشنقيطي ، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي ،ت سنة ١٣٩٣هـ

٢٩. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت – لبنان ، ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥ مـ .

٣٠. دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب ، مكتبة ابن تيمية - القاهرة ، ط١ ، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م ،

٣١. - ابـن عاشـور ، محمـد الطاهر بـن محمد بن محمـد الطاهر بن عاشـور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ) : التحرير والتنوير ، الدار التونسية للنشر – تونس ، ١٩٨٤ هـ

٣٢. - ابـن عطيـة ، أبو محمد عبـد الحق بن غالب بـن عبد الرحمن بن تمـام بن عطية الأندلسـي المحاربـي (المتوفى: ٥٤٢هـ) : المحـرر الوجيز في تفسير الكتـاب العزيز ، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد ، دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة الأولى - ١٤٢٢ هـ .

٣٣. - ابـن فارس ، أحمد بن فارس بن زكريـاء القزويني الرازي ، أبو الحسين ، ت٣٩٥هـ : الصاحبـي في فقه اللغة العربية ومسائلهـا وسنن العرب في كلامها ، الناشر: محمد علي بيضون ، ط١ ، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م .

٣٤. - الفيروزآبـادي ،مجد الديـن أبو طاهر محمد بـن يعقوب الفيروزآبـادى (المتوفى: ٨١٧هـ) : بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، تحقيق :محمد علي النجار ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة .

٣٥. - ابـن قتيبـة ، أبو محمد ، عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، الدينوري ، ت ٢٧٦هـ : تأويل مشكل القرآن ، تحقيق : إبراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان .

٣٦. - ابـن القيم ، محمد بن أبي بكر بن أيـوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية ت ٧٥١هـ :

٣٧. الداء و الدواء ، دار المعرفة – المغرب ، ط١ ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م .

٣٨. شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ، : دار المعرفة، بيروت، لبنان ، ط١ ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .

٣٩. مـدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، تحقيق : محمد المعتصم بالله البغدادي ، دار الكتاب العربي – بيروت ، الطبعة الثالثة، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م .

٤٠. - الكرماني ، محمود بن حمزة بن نصر ، أبو القاسم برهان الدين الكرماني (المتوفى:

نحو ٥٠٥هـ) : البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان ، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا ، مراجعة وتعليق: أحمد عبد التواب عوض ، دار الفضيلة .

٤١. - ابن مالك ، محمد بن عبد الله، ابن مالك الطائي الجياني ، أبو عبد الله، جمال الدين (المتوفى: ٦٧٢هـ) : شرح الكافية الشافية ، تحقيق : د . عبد المنعم أحمد هريدي ، جامعة أم القرى - مكة المكرمة ، الطبعة الأولى

٤٢. - ابن منظور ، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي(المتوفى: ٧١١هـ) : لسان العرب ، دار صادر – بيروت ، ط٣ - ١٤١٤ هـ .

٤٣. - أبو هلال العسكري ،أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ) : معجم الفروق اللغوية ، رتبه على حروف المعجم و حققه: الشيخ بيت الله بيات، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بـ "قم" ، ط١، ١٤١٢هـ .

مختار محمود أحمد عطا اللّٰه

- الاسم : مختار محمود أحمد عطاالله
- تاريخ الميلاد : ٢٦/١١/١٩٦٣م
- الجنسية : مصري
- الوظيفة الحالية : أستاذ العقيدة بقسم الدراسات الإسلامية بكلية الآداب جامعة الملك فيصل
- البريد الإلكتروني : dratallah40@hotmail.com
- هاتف: ٠٥٦٦٧١٠٨٨٨

- – مدير مركز البحوث والدراسات الإسلامية بجامعة القاهرة من ٢٠١٠-٢٠١٢م.
- – رئيس وحدة ضمان الجودة بكلية دار العلوم من عام ٢٠٠٩ - ٢٠٢١م.

الخبرات في الجامعات

- محاضر بجامعة الإمارات العربية المتحدة وكليات التقنية العليا بالعين
- أستاذ زائر لجامعة زايد بالفصل الدراسي الثاني ١٩٩٧م.
- استشاري زائر لجامعة السلطان قابوس بمسقط بالفصل الدراسي الثاني ١٩٩٨م.
- أستاذ مساعد بكلية الآداب – جامعة السلطان قابوس من ١٩٩٩ حتى ٢٠٠٦م.
- أستاذ بقسم العقيدة بكلية أصول الدين – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض في العام الجامعي ٢٠٠٧/٢٠٠٨ م.
- أستاذ للعقيدة الإسلامية بكلية الآداب جامعة الملك فيصل بالمملكة العربية السعودية من العام الجامعي ٢٠١٢/٢٠١٣ م، وحتى الآن.

المؤلفات:

له أكثر من عشرين بحث علمي في التخصص منشورة في المجلات العلمية المحكمة، وفي أعمال مؤتمرات علمية متخصصة إقليمية وعالمية، وله نحو عشرين كتاب في التخصص، منها (اليقين في العقيدة وطرق الوصول إليه) و (مقارنة الأديان في الفكر الإسلامي) و (صيغ الاستدلال في القرآن الكريم).

النشاط العلمي:

شارك في العديد من المؤتمرات العلمية المتخصصة في العالم العربي والغربي، وأشرف وناقش العشرات من رسائل الماجستير والدكتوراه في التخصص في كثير من الجامعات العربية والإسلامية، وشارك في تصميم برامج تعليمية للدراسات العليا والبكالوريوس في جامعات عربية عديدة.

ضوابط المعرفة في القرآن الكريم
وأثرها في تحقيق الأمن الفكري

إعداد

الأستاذ الدكتور: مختار محمود عطاالله

أستاذ العقيدة بقسم الدراسات الإسلامية
كلية الآداب - جامعة الملك فيصل

٢٠٣٣

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، أشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته واهتدى بهديه إلى يوم الدين.

وبعد ،،

فإذا كان (الأمن الفكري) غاية يسعى لإدراكها العلماء والباحثون في العلوم الاجتماعية والنفسية والأمنية ليتحقق في عقلية الفرد المسلم؛ فإن ضوابط المعرفة التي من شأنها أن ترشد مدخلات الفهم الإنساني سيكون لها دور كبير في بلوغ تلك الغاية.

وبالنظر في مظان التأسيس لضوابط المعرفة الإنسانية المتاحة أمام المربين نجد المنطق بأنواعه، والفلسفة بمدارسها، ومناهج الفكر الحديثة بسياقاتها، ونجد -قبل ذلك كله -القرآن الكريم بعطاءاته التي لا تنفد، ومن تلك العطاءات ما تفيد في مجال التأسيس لمعرفة إنسانية رشيدة مضمونة عصمتها من الزلل.

إن الآيات القرآنية الكريمة التي تناولت موضوعات المعرفة اشتملت على توجيه نحو أدوات اكتساب المعرفة الصحيحة، وأنماط التفكير العلمي وخصائصه، وأيضا نبهت إلى مثالب التفكير ومغالطاته، فيما لو وضع في أطر مقصودة لكوّن ضوابط للمعرفة لدى الفرد من شأنها أن تقضي تماما على استعداداته العقلية والنفسية لتقبل الآراء الشاذة والع قائد الباطلة والأحكام التعسفية.

أهداف البحث: يهدف البحث إجمالا إلى:

التأكيد على فاعلية الدراسات القرآنية في معالجة القضايا المعاصرة.

الإسهام في تقديم الحلول العلمية المنبثقة من الفكر الإسلامي الخالص لمشكلة الاختراق الفكري.

توظف ضوابط المعرفة القرآنية في واحدة من أهم المجالات التي تستطيع العمل فيها، وهو هداية الإنسان في واحد من أهم مكوناته، وهو عقله.

مشكلة البحث:

ومن هنا أمكن صياغة مشكلة هذا البحث في التساؤل الرئيسي التالي: كيف يمكن لضو ابط المعرفة في القرآن الكريم رفع الكفاءة العقلية والنفسية لدي المسلم ليحقق الأمن الفكر ي لنفسه باعتباره المسئول الأول عما يرتضيه لنفسه من المعارف؟

تساؤلات الدراسة: وقد تفرع عن هذا التساؤل الرئيسي عدة أسئلة فرعية أخرى تمثل الإجابة عن كل منها خطوة للأمام نحو الوصول إلى إجابة عن التساؤل الرئيسي الذي يعبر عن مشكلة البحث، ويتجسد كل سؤال منها في بحث من مباحث الدراسة. وهذه الأسئلة هي:

ما المخاطر المتصلة بآليات التفكير لدى الفرد المهددة للأمن الفكري؟

العناصر المتصلة بآليات التفكير لدى الفرد المحققة للأمن الفكري؟

ضوابط المعرفة في القرآن الضامنة لتحقيق الأمن الفكري؟

ما المعالم المنهجية القرآنية التي يجب على الفرد الالتزام بها لحصول معرفة علمية لديه؟

ما الآفات المنهجية التي حذر القرآن منها، والتي يجب على الفرد اجتنابها لكي يضمن سلامة التفكير عنده؟

الفروض العلمية: لما كانت الفروض العلمية إجابات متوقعة عن تساؤلات الدراسة بناءً على الدراسة الاستطلاعية للموضوع؛ فإني أفترض ما يلي:

أن الاختراق الفكري الذي هو نقيض الأمن الفكري له عدة مداخل تعمل بحيل معرفية تخفى على الناس إلا من اتخذ من القرآن الكريم قاعدة له.

أن في القرآن الكريم من ضوابط المعرفة المؤسسة للتفكير العلمي لدى الفرد ما يكفي عند التزامها لتربية عقلية علمية قادرة على تحقيق الأمن الفكري وترسيخ مناهجه.

أن في القرآن الكريم من ضوابط المعرفة المحذرة من مثالب التفكير لدى الفرد ما من شأن التنبُّه إليها أن يهيئ بيئة علمية مناسبة لنمو التفكير العلمي والناقد، بما يضمن التحصن ضد الاختراق الفكري.

منهج لدراسة: وللتحقق من صدق هذه الفروض ولمناسبة المادة العلمية المجموعة وللتوافق مع أهداف البحث اخترت المنهج التحليلي والمنهج الاستنباطي في معالجة الموضوع. فأما التحليل فهو أداة منهجية لا غنى عنها في دراسة مثل هذه الموضوعات، وقد أفادني في مرحلة التقعيد لضوابط المعرفة في القرآن، وفي مرحلة تحديد خصائص الأمن الفكري منظوراً إليها من زاوية أدوات الوصل إليه. وأما الاستنباط فقد أفاد في مرحلة تطبيق الضوابط على الخصائص، واستخراج مواطن التأثير في البناء العلمي المطلوب في الفرد لتحقيق الأمن الفكري.

أهمية البحث: يمكن إجمال مبررات إعداد البحث فيما يلي:

تجميع ضوابط المعرفة في القرآن الكريم نحو تأسيس التفكير العلمي لدى المسلم وتنمية تفكيره النقدي على نحو يجعله جديرا بتأمين نفسه فكريا ضد هيمنة الأفكار الضالة والآراء المنحرفة.

تحديد ملامح الاختراق الفكري المتصلة بآليات غزوها المعرفي للفرد المسلم وبيان خطورة كل ملمح منها ودورها في استسلام الفرد للفكرة الشاذة وتقبله لها.

استغلال الحكمة القرآنية والقيم العلمية فيها في تعليم المسلم كيفية تحصين نفسه من الاختراق الفكري.

الإسهام إلى جانب الجهود الكثيرة المبذولة في إيجاد بيئة معرفية تتسم بالعلمية لتساعد على القضاء على ظاهرة الاستلاب الفكري لدى الشباب المسلم باعتبارها من الظواهر السلبية والخطيرة في المجتمع.

الدراسات السابقة: لقد تعددت الدراسات التي تناولت مشكلات الأمن الفكري منذ بزوغ ظواهر الانحراف الفكري بنوعيه: الغالي والمفرِّط، وتعددت الدراسات التي تناولت ضوابط المعرفة في القرآن الكريم، غير أنه لا توجد بحسب علمي دراسة عالجت مشكلة بحثي هذا، وهي بيان فاعلية ضوابط المعرفة في القرآن الكريم في وقاية المسلم من الانحراف الفكري وتحقيق الأمن الفكري لديه.

ومن الدراسات التي أفادت في الجانب الأول الخاص بالأمن الفكري:

دراسة (السديس ١٤٢٦هـ): الشريعة الإسلامية ودورها في تعزيز الأمن الفكري، حيث أكد على أن تكون ضوابط الأمن الفكري نابعة من الشريعة الإسلامية، وهو ما يعد أساسا انطلق منه بحثي عن تلك الضوابط في القرآن الكرين من الزاوية المعرفية.

دراسة (اللويحق ٢٠٠٥ م): الأمن الفكري ماهيته وضوابطه، حيث أكد على أن حفظ العقل كواحد من مقاصد الشريعة الإسلامية هو المقصد الذي تنتمي إليه إشكالية الأمن الفكري عند معالجتها من الوجهة الشرعية، وهو ما عمل البحث على تطبيقه من خلال تحصين العقل الفردي ضد الاختراق الفكري استعانة بضوابط المعرفة في القرآن الكريم.

دراسة (السحيباني ١٤٣٠ه): الانحراف الفكري وأثره في الأمن في ضوء القرآن الكريم. ودراسة (فارس ١٤٣٣): الأمن الفكري في الشريعة الإسلامية، فقد أكدا على ما سبق ذكره عند اللويحق.

أما الجانب الثاني المتصل بضوابط المعرفة في القرآن الكريم فإن دراستي المعنونة بـ (تنمية التفكير العلمي لدى الفرد في ضوء الهدي القرآني وأثرها في مواجهة الإشاعة) قد أغنت في بلورة كثير من الضوابط والمعالم المنهجية القرآنية المؤسسة لمعرفة إنسانية رشيدة، فهي بمثابة الآلة التي تصلح للتوظيف في معالجة كثير من المشكلات الفكرية والعلمية.

وقد لوحظ أن الدراسات التي تناولت الأمن الفكري انصبت على مفهومه ونشأته وخطورة فقدانه على الفرد والمجتمع وسبل مواجهة الانحراف الفكري، والمؤسسات التي يجب أن تقوم بهذا، غير أنها لم تعرض لتأسيس التفكير العلمي لدى الفرد وتنميتها، وخاصة في ضوء الهدي القرآني، وهي التي أرى أنها واحدة من أهم مقوماته الشخصية المسلمة المعينة له على تحقيق الأمن الفكري والوقاية من الاختراق الفكري.

التمهيد:

سوف نضع في هذا التمهيد المفاهيم الإجرائية التي سيعتمدها البحث للألفاظ والمصطلحات المركزية التي سترد فيه؛ طلباً لالتقاء الرؤى وتقارب الأفهام:

ضوابط المعرفة

هي المعالم المنهجية التي تضع الإنسان في الإطار الفكري والاستدلالي الصحيح. وتتناول تلك الضوابط أدوات الفهم الإنساني وآليات الإدراك عنده ووسائل المعرفة ومصادرها وحدودها ومجالاتها وغاياتها؛ بما يضمن له إذا راعاها أن يكتسب عقلية علمية ناضجة قادرة على التمييز الدقيق بين الحق والباطل.

ضوابط المعرفة في القرآن الكريم

التوجيهات القرآنية في مجال تحصيل المعرفة، التي تناولت مسؤولية الفرد عما يكسبه من معارف، ووضعت منهجية سليمة لاكتساب المعرفة تضمن له أمنا فكريا وسلامة في الاستنباط وصحة في الاعتقاد. [١]

الأمن الفكري

على الرغم من كثرة التعريفات التي قدمها الباحثون للأمن الفكري [٢]؛ إلا أن البحث

---

(١) انظر في ذلك:
- ابن تيمية، نقض المنطق، ص ٢٠٢.
- ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ٩٢/١.
- ابن سينا، البرهان من كتاب الشفاء، ص ٢١. وراجع الدكتور مختار عطا الله، تنمية التفكير العلمي لدى الفرد في ضوء الهدي القرآني وأثرها في مواجهة الإشاعة، بحث مقدم إلى المؤتمر الدولي للإعلام والإشاعة
- المخاطر المجتمعية وسبل المواجهة، جامعة الملك خالد – كلية العلوم الإنسانية، قسم الإعلام والاتصال، ذو القعدة ١٤٣٦هـ = سبتمبر ٢٠١٤م ص ١

(٢) انظر بعض التعريفات في المراجع الآتية:
- الصقعي، أبعاد تربوية وتعليمية في تعزيز الأمن الفكري، ص٧.
- الحارثي، إسهام الإعلام التربوي في تحقيق الأمن الفكري، ص١٠.
- المالكي، الأمن الفكري: مفهومه وأهميته ومتطلبات تحقيقه، ص٢٤.

سـوف يعتمد التعريـف الآتي باعتباره تعريفـاً إجرائياً يتسم بالشمـول ويركز على الجوانب المستهـدف علاجهـا في البحث وهو: "حالة من صحة الفكر وسلامتـه ناتجة عن زوال جميع مهـددات المنظومة العقديـة والفكرية والقيمية، وكـذا طرائق تفكير الفـرد باعتباره الجهة المقصودة."(١)

(١) الحارثي، إسهام الإعلام التربوي في تحقيق الأمن الفكري، ص١٥. (بتصرف).

المبحث الأول

المخاطر المتصلة بآليات التفكير لدى الفرد المهددة للأمن الفكري:

نرصد هنا أبرز الأجواء الفكرية التي يتطلبها الاختراق الفكري [1] ليتمكن من النفاذ للعقل المسلم، وبها نستطيع أن نتبين كيف يمكن لضوابط المعرفة في القرآن الكريم أن تزهق هذه المداخل، وتحصن العقل ضدها محققة له الأمن الفكري.

الاغترار بالعقل والغلو في توظيفه:

فالعقل وسيلة معتمدة في الشريعة الإسلامية وكذلك في كل المذاهب الفكرية القديمة والحديثة، غير أن الشريعة الإسلامية أعطت للعقل حقه في الاستدلال، ومنعته من الولوج فيما هو خارج نطاق إمكانياته التي أتاحها الله له.

ومن المخاطر التي تعتري العقل وتجعله عرضة للاختراق الفكري خفاء هذه الحقيقة عنه، مما يغريه بتوظيف عقله في الغيبيات التي لا طريق إلى العلم بها سوى الوحي المعصوم، فينال هذا الخطأ المنهجي من قدسية الغيبيات بإصراره على إخضاعها للبحث العقلي، فينزلق نحو ما يجره إليه المضللون من الفلاسفة العلمانيين.

ومن هنا جاء القرآن حاسما في هذا الأمر، وذلك حين قال عز وجل: " وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً" الإسراء ٨٥ لأن النظر فيما لا طاقة للعقل به ولا طائل وراءه طريق للضلال وللاختراق الفكري، لأنه كما يبين أحد الباحثين "مظنة الدخول في الجدل العقيم، وتبديد الأوقات وإهدار الجهود مع ترك

(١) يفضل الباحث (الاختراق الفكري) للتعبير عن نقيض الأمن الفكري دون الانحراف الفكري أو التطرف الفكري أو الغزو الفكري أو غيرها، وذلك انسجاما مع الهدف من البحث وهو إيجاد آلية من القرآن الكريم تحصن المسلم ضد الاختراق الفكري بغض النظر عن مصدره وغاياته وموضوعاته، وتساعد بالتالي في تحقيق الأمن الفكري.

الضروري من الأمور"[1]

اتباع الهوى ونبذ الموضوعية:

من الثابت شرعا أن اتباع الهوى طريق للضلال، قال تعالى: "فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" القصص ٥٠ وقال تعالى: "يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ" ص٢٦ ومن الثابت وفق المنهج العلمي أن اتباع الهوى المناقض للموضوعية العلمية طريق للخطأ في الاستدلال، والانحراف عن الوصول للنتائج العلمية المبرهنة.

وفي مثل هذا الإطار الفكري يكون المرء هدفا سهلا للاختراق الفكري، وحالة تفكيرية لا تتمتع بالأمن الفكري، ويعلل أحد الباحثين هذا بقوله: "ولما كان اتباع الهوى سببا رئيسيا في البعد عن كتاب الله وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم- فقد ورد النهي من الله سبحانه وتعالى عنه؛ لوضوح أثره في الميل عن الحق، فمن تلك الآيات قوله تعالى: "وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ" البقرة ١٢٠ والظلم إما أن يكون ظلما للنفس، أو ظلما للغير، فالظلم للنفس بعدم الالتزام بالأوامر والنواهي، والظلم للغير بالتعدي على حقوقهم، أو الحكم عليهم بحكم لا يمت إلى الشرع بصلة، وكلا الأمرين منهي عنهما." [2]

التأويل الباطل للنصوص:

وهو أن يعمد المرء إلى النص الشرعي الذي ثبتت يقينيته ثبوتا ودلالة، ثم يحرف مفهومه عما أراده الله به كما فهمه السلف الصالح، ويسمي هذا تأويلا، وليس هذا بتأويل، وإنما هو تحريف، من أهم نتائجه جعل المتأول عرضة للاختراق الفكري، وذلك لأنه طوّع

(١) تربان، الأمن الفكري، ص١٨.
(٢) فارس، الأمن الفكري في الشريعة الإسلامية، ص٩٦.

النص لهواه، ووظفه للتأكيد على مذهبه، ولم يجعله أصلا يصوب في ضوئه مذهبه ورؤاه.

ومن نتائج ذلك أن "المتأمل في حال الأمة الإسلامية يستشعر ما جره عليهم سوء الفهم والتأويل من شقاق وخلاف واقتتال وكلفهم من دماء وعداوات، فالفرق الضالة لوت أعناق النصوص، وأولتها بشكل أفقدها معناها، ومكن لهذه الفرق لخداع السذج من الناس واستمالتهم ليصبحوا معاول هدم في جسد الأمة." (١)

تعزيز روح الحدة والتطرف:

وهذا أحد أهم السبل التي يتهيأ بها المرء ليكون فريسة سهلة للاختراق الفكري، لأنه خروج عن الاعتدال في تكييف الفكرة بزيادة غير مبرهنة برهانا شرعيا، فإذا استمرأ المسلم منهجية التزيد على معطى النص الشرعي كان في إطار خارج عن مناطق الأمن الفكري.

تغذية روح الإحباط:

فالمحبط فريسة للغزو الفكري، لأن الإحباط من شأنه أن يدفع صاحبه للبحث عما يخرجه من يأسه بغض النظر عن كونه حقا أو باطلا، وهنا ينتهز الفرصة أولئك الغزاة المحملون بأفكار هدامة سواء كانوا من الأمة أو من أعدائها. فقد أثبتت الدراسات التي أجريت على عينة من الشباب المتطرف أن "انعدام تحقيق الذات لدى الفرد، أو تحقيق القدر الملائم من تقدير الذات يلجئان الفرد إلى جماعات أيا كان نوعها يجد في إطارها ما يحقق له ذاته ويضمن له تقديرها." (٢)

التعصب:

التعصب يؤدي بالضرورة إلى تعطيل العقل وإزهاق التفكير العلمي، ولذلك فمن نتائجه: " البعد عن كتاب الله الذي هو انحراف فكري وخروج عن المنهج الوسط." (٣)

---

(١) عبد العزيز، الأمن الفكري ودوره في مواجهة ظاهرة التطرف في المجتمعات الإسلامية، ص١٧.

(٢) تربان، الأمن الفكري، ص١٨.

(٣) فارس، الأمن الفكري في الشريعة الإسلامية، ص٩٩. وراجع: حريز، واقع الأمن الفكري، ص٨٩ وص٩٠.

التزهيد في علماء الشريعة:

وبه تتهيأ أجواء فكرية تمنع العقل المسلم من التمتع بالأمن الفكري، فإن فقدان الثقة في العلماء وسوء الظن بهم طريق واضح للضلال والوقوع في براثن الاختراق الفكري، وخاصة عندما يتدابر المسلم عنهم في "النوازل والمستجدات التي يتطلب النظر فيها إلى فهم دقيق واستنباط صحيح، وكذا الأخذ والتلقي عن أنصاف أرباع وأثمان المتعلمين، الخائضين في أم ور الشريعة والإفتاء تحليلا وتحريما، وهم ليسوا من ذلك في ورد ولا صدر، فأصبحت نسبة ل ا يستهان بها من الشباب عاجزة عن مشائخ البلاد الكبار، زاهدة فيما عندهم ووجدت أو أوجدت فجوة بينهم وبين علمائهم، في مخالفة مُؤْذنَة بالخطر؛ لقول الله – تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾[1]

---

(١) الغيث، الأمن الفكري حقيقته وسبل تحصيله، محاضرة منشورة في المصدر الآتي:
http://www.assakina.com/mohadrat/20130.html،
ص١٢. والآية من سورة النساء، رقم ٨٣.

المبحث الثاني

العناصر المتصلة بآليات التفكير لدى الفرد المحققة للأمن الفكري

المستهدف في هذا المبحث رصد أهم الأسس التي توجد بيئة عقلية خصبة لدى الفرد لتسمح بنمو التفكير العلمي وتفعيل أثره في تحقيق الأمن الفكري؛ فمن ذلك:

١-الحث على التفكير الناقد: ويقصد بذلك زيادة نشاط المصفاة العقلية العامة عنده في ترشيح وترشيد كل ما يلقى إلى الوعي من مقولات. والنقد بهذا المفهوم يكسب الفرد القدرة على تمييز الصواب من الخطأ مما يستقبله في وعيه، والعقلية الناقدة إذا قامت بعملية التمييز هذه تتقبل الصواب ويتحقق فيه عندها اليقينُ العلمي القائم على البرهان، وبالتالي ترفض الخطأ رفضا مبررا، وهي بذلك علمية فيما تأخذ وفيما ترد[١].

وباعتبار الأمن الفكري طالبا للتعليل والبرهنة والتدليل طلب الغايات الكبرى في ه ذا الباب؛ تبرز أهمية الروح النقدية لتحقيقه والوصول إليه، لأن التفكير الناقد سد منيع ضد الاختراق الفكري لاتصافه "بالحساسية للموقف ولاشتماله على ضوابط تصحيحية ذاتية. [٢]

٢-تنمية الشعور بالاستقلالية في التفكير والمنهج: ويأتي هذا العنصر ضرورة لاستيفاء ما قبله، لأن التفكير الناقد يتطلب مثل هذا الشعور الذي بدوره يكسب صاحبه ثقة في النفس تجعله أهلا للتمتع بالأمن الفكري، ويعد هذا الشعور فضلا عن هذا "من الوسائل الوقائية ل حماية الأمن الفكري، شريطة أن يكون مستمدا من الكتاب والسنة...لأن المتأمل في تاريخ ال أمة الإسلامية، يجد أن عزها ومجدها في تمسكها بدينها وحكمها وتحاكمها إلى كتاب ربه

(١) عطا الله، تنمية التفكير العلمي لدى الفرد في ضوء الهدي القرآني وأثرها في مواجهة الإشاعة، ص٨.

(٢) انظر: جروان، تعليم التفكير. مفاهيم وتطبيقات، ص ٥٩. نقلا عن: الصقعي، أبعاد تربوية وتعليمية في تعزيز الأمن الفكري، ص٢٤.

ا وسنة نبيها – صلى الله عليه سلم – فكلما اشتد التمسك بهذين المصدرين الكتاب والس نة وتحكيمهما؛ زادت أمة الإسلام تقدما وقوة وازدهارا، وكلما بعدت عن الكتاب والسنة؛ ت خلفت وأصبحت في مؤخرة الركب، وساد الانحراف الأمني والفكري في البلاد." [١]

٣-ضرورة تحقق الاتزان النفسي: بالإضافة إلى الشعور بالثقة في النفس يتطلب الأمن الفكري توازنا نفسيا لدى الفرد المسلم المستهدف من قبل أصحاب الأفكار الضالة والمنحرفة ومروجيها، فإنه بحاجة ماسة-ليتيح الفرصة للتفكير الناقد للعمل-إلى الاتزان النفسي المتمثل في الوسطية بين الانبهار والانغلاق، والذي يتصل بالنشاط النفسي إزاء تلك الأفكار اتصالاً وثيقاً. ولا شك في أن الاتزان النفسي والاتزان الانفعالي يكوِّنان معاً عاملاً مهماً لجعل الشخصية المفكرة قادرة على توظيف التفكير العلمي والناقد. فهما من السمات التي يتميز بها من يتصف بقوة الشخصية وبصحة نفسية جيدة. وتظهر وقت التعامل مع الضغوط والأزمات. [٢]

٣-تنمية روح الحوار وتقبل الآخر: وهذا العنصر شرط كذلك في التمكن من ممارسة التفكير الناقد، لأن ادعاء الفرد احتكار الحقيقة والفضيلة من شأنه أن يحمله على احتقار المخالفين له من أبناء ملته، وعندئذ لا يرى جدوى من الحوار معه، فيتسلط عليه الانغلاق الفكري الذي هو بدوره من أهم مسببات فقد الأمن الفكري.

إن أهمية الحوار ليست وقفا على تشجيع التفكير الناقد، وإنما تمتد لتشمل تعويد الفرد على رفض التعصب والتمسك بوجهة نظر مسبقة "لأن التمسك بوجهة النظر السابقة يتنافى مع منهجية الحوار في تبادل الأفكار وتداول الطروحات وسماع الرأي الآخر، وقد أكد القرآن الكريم على هذا المفهوم بصراحة واضحة وأرشدنا إلى الأخذ بهذا المبدأ عندما وجه الرسول

---

(١) الغيث، الأمن الفكري حقيقته وسبل تحصيله، محاضرة منشورة في المصدر الآتي:
http://www.assakina.com/mohadrat/20130.html، ص14.

(٢) يوسف محمود، من سمات المربي الفعال الاتزان الانفعالي، موقع صيد الفوائد. المصدر:
www.saaid.net/aldawah/44.0/htm))

صلى الله عليه وسلم بأن يقول للمشركين في محاورته لهم: "قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ" سبأ ٢٤ وفي هذا غاية الابتعاد عن التعصب، وكمال الرغبة في البحث عن الحقيقة أنى كانت."[1] ؛ لأن افتراض الرسول أن يكون هو الذي في ضلال مبين -على ما هو عليه من يقين -آية في الموضوعية والأخذ بمبدأ التجرد والنفور من الغرور والانغلاق.

(١) عاشور، ضوابط الحوار مع الآخر، ص٩٣.

المبحث الثالث

ضوابط المعرفة في القرآن الضامنة لتحقيق الأمن الفكري

نستعرض في هذا المبحث ضوابط المعرفة التي أرشد إليها القرآن الكريم لاكتساب آليات التفكير العلمي، وتهيئة العقل لتقبلها وخلق البيئة العلمية المناسبة لازدهار مثل هذا النوع من التفكير. ونكون بذلك خطونا إلى الأمام خطوة في طريقنا للوصول إلى تقرير القواعد المنهجية للتفكير العلمي في القرآن الكريم، وبيان كيفية توظيفها لتحقيق الأمن الفكري، وإكساب المسلم القدرة على مواجهة الاختراق الفكري.

١-الدعوة إلى التدرج في تحصيل اليقين: يتجلى هذا المبدأ في أشرق صور الإنسان الباحث عن الحق الساعي إليه من خلال صورة النبي إبراهيم عليه السلام في سعيه الحثيث للوصول إلى الحق متدرجاً مع مخالفيه في تحصيل اليقين بوحدانية الله عز وجل. وذلك في موقفه من عبادة قومه للأوثان، والانتقال بهم إلى التوحيد وفق خطوات متدرجة. قال تعالى: "وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾"[١]. قال فخر الدين الرازي "فمال إلى طريق به يستدرجهم إلى استماع الحجة ،وذلك بأن ذكر كلاماً يوهم كونه مساعداً لهم على مذهبهم بربوبية الكواكب، مع أن قلبه- صلوات الله عليه- كان مطمئناً بالإيمان، ومقصوده من ذلك أن يتمكن من ذكر الدليل على إبطاله وإفساده وأن يقبلوا به."[٢]

(١) سورة الأنعام، الآيات من ٧٥ إلى ٧٩.

(٢) الرازي، مفاتيح الغيب، ٤/٢٢٢

٣- الدعوة إلى الخروج من الضغط الاجتماعي: لقد دعا القرآن إلى الابتعاد عن الأجواء الانفعالية التي تبعد الإنسان عن صفو التفكر؛ حتى لا يخضع في قناعاته للجماعة التي يفكر بمعيتها، الأمر الذي يفقد الفرد استقلاله الفكري، فيصبح ظلا باهتا للجماعة. قال تعالى: "قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾"[١] يقول صاحب الظلال: "إنها دعوة إلى القيام لله، بعيداً عن الهوى، بعيداً عن المصلحة، بعيداً عن ملابسات الأرض، بعيداً عن الهواتف والدوافع التي تشتجر في القلب، فتبتعد به عن الله، بعيداً عن التأثر بالتيارات السائدة في البيئة، والمؤثرات الشائعة في الجماعة."[٢]

٤- إيثار الحق على الحق: لقد جعل القرآن الكريم طلب الحق غاية الغايات واسترخص في سبيله الصلات التي تربط الإنسان بغيره. قال تعالى: "قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾"[٣]

ويضرب المثل والقدوة بإبراهيم عليه السلام وأصحابه من المؤمنين؛ لأنهم آثروا الحق الذي هو التوحيد على الخلق الذين هم أهلهم وقومهم. قال تعالى: "قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾"[٤]

والمقصود هو الاتصاف بالتجرد لطلب الحقيقة، والابتعاد عن الولاءات المعرفية المزيفة والتي كل مستندها المجاملةُ وكسب الود ولو على حساب الحق والحقيقة.

---

(١) سورة سبأ، الآية ٤٦.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن ،٦/١٢٥.

(٣) سورة التوبة، الآية ٢٤.

(٤) سورة الممتحنة، الآية ٤.

إن هــذه الصفة في الإنســان تجعله يؤثر الحق والثواب من الأقوال على ما سواهما من علاقــات اجتماعية أو حسابات سياسية أو مطالب مادية. وعندئذٍ يجد التفكير العلمي عقلاً خالياً من المضادات غير الموضوعية فيسري في العقل بثبات.

المبحث الرابع

المعالم المنهجية القرآنية في تنمية التفكير العلمي

هذا المبحث هو المقصود رأسا في بحثنا هذا، وقد لاحظنا عند حصرنا لهذه المعالم خلوص بعضها للتأثير في بناء عقلية علمية قادرة على مواجهة الاختراق الفكري، وهو الوجه الذي يعنينا هنا، وقد أسفر البحث فيها عن نوعين من المعالم:

النوع الأول: معالم يجب التزامها.

١ـ تدريب العقل على النظر والاستدلال: دعا القرآن الكريم إلى النظر في الكون والأنفس، وامتدح الذين يتفكرون ويعقلون ويؤمنون ويوقنون، وقد اتسع ميدان الاستدلال وفق النهج القرآني ليشمل العقائد والأخلاق وسائر الأقوال، يقول ابن تيمية: "فالغرض أن من نظر في دليل يفيد العلم وجد نفسه عالمة عند علمه بذلك الدليل، كما يجد نفسه سامعة رائية عند الاستماع للصوت والترائي للشمس أو الهلال أو غير ذلك. والعلم يحصل في النفس كما تحصل سائر الإدراكات بما يجعله الله من الأسباب."[١]

فأمر الله تعالى الإنسان بتحمل المسؤولية عن أدوات المعرفة فيه، قال تعالى: "وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾"[٢] وأمره بالتثبت قبل الاعتقاد، قال تعالى: "هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾"[٣] وإجمالا: أمره بالتدبر والتأمل في نواميس الكون وسننه.

(١) ابن تيمية، نقض المنطق، ص ٧٩.

(٢) سورة الإسراء، الآية ٣٦.

(٣) سورة الكهف، الآية ١٥.+

تطبيق هذا المعلم على الأمن الفكري:

بالنظر إلى خصائص الاختراق الفكري نجد أنه يتخذ من التعصب طريقا لتعطيل التفكير العقلي والاستدلال المنطقي، كما سبق بيانه، ومن هنا فإن المسلم إذا التزم هذا المعلم؛ فدرب عقله على النظر والاستدلال، تكونت لديه القدرات النقدية القادرة على كشف زيف الأفكار الشاذة الدخيلة، ومن ثم الوصول للأمن الفكري.

اعتبار البرهان المبرر الوحيد لقبول الأفكار أو ردها

فإن القرآن الكريم يعلمنا أن نأخذ بالبرهان وأن نرد به، وأن ذلك آية المصداقية في المعلومات، والتمييز بين المغالطات واليقينيات؛ فإن الله تعالى قد طالب الخصوم بالبرهان فقال تعالى "أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾"[(١)] وقال تعالى كذلك: "أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾"[(٢)] ففي هذين النصين "يأمر الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بأن يطالب المشركين بتقديم برهانهم على ما يدعون، ويشمل البرهان في مثل هذا الادعاء البرهان العقلي، والبرهانَ النقلي عن رسول الله، أما آية (النمل) فتطالب بتقديم البرهان بشكل عام عقليا كان أو نقليا".[(٣)]

تطبيق هذا المعلم على الأمن الفكري:

نلاحظ أن مطالبة القرآن بالبرهان لا تقتصر على المواقف ذات الطبيعة العملية، وإنما كذلك على تلك التي تتعلق بالأفكار والعقائد، فقد طالب بالبرهان أصحاب المقولات الزائفة، ومنها ادعاء أهل الكتاب وإشاعتهم أنهم أصحاب الجنة وحدهم. فقال تعالى: "وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾"[(٤)]

(١) سورة النمل، الآية ٦٤.
(٢) سورة الأنبياء، الآية ٢٤.
(٣) حبنكه، ضوابط المعرفة، ص٣٦٦.
(٤) سورة البقرة، الآية ١١١.

وبالنظر في خصائص الاختراق الفكري نجد أنه يرتكز في نفاذه لعقل المسلم الم ستهدف إلى إبعاده عن الموضوعية وتشجيعه على تحكيم الهوى، فيأتي هذا المعلم ليوجب عليه الأخذ بالبرهان وحده، فتزرع في عقله وفي قلبه النزوع الضروري نحو إقامة البرهان على الأفكار الموجهة إليه. ولا شك أن التزام هذا المعلم سيحصن المسلم ضد الاختراق الفكري، بما يحقق لديه الأمن الفكري.

اصطحاب البصيرة في مساراتنا في الحياة

فالقرآن الكريم يجعل الإدراك التام الكامل الحاصل في القلب المستقر في النفس قائداً يقود الواعين لمسالكهم في الحياة؛ فلا يفعلون شيئاً إلا وفق هذه البصيرة. ومثاله مجالُ الدعوة إلى الله، كما قال تعالى: "قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾"(١)

وقد مثل القرآن الكريم لبيان أهمية التبصر قبل الاتباع بحال الكافر الذي يتخلى عن هذا المعلم باتباعه للشيطان في كفره، قال تعالى: "كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾"(٢)

وصور لنا القرآن أن الاحتجاج بالاتباع في الآخرة لا ينجي من تحمل المسئولية عن نتائج تغييب البصيرة، فقال تعالى: "إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾"(٣)

تطبيق هذا المعلم على الأمن الفكري:

بالنظر في خواص الاختراق الفكري نجد أنه يغري المسلم بتبني الأفكار الموجهة بما تتضمنه من معلومات بذريعة موافقتها لهواه وتحقيقها لأمنياته مع سهولة تبنيها والسير بمقتضاها. فيأتي هذا المعلم الذي يقرر ضرورة التبصر فيما نسير فيه من مسارات حياتنا

---

(١) سورة يوسف، الآية ١٠٨.

(٢) سورة الحشر، الآية ١٦.

(٣) سورة البقرة، الآيتان ١٦٦و١٦٧.

لتبين للمسلم أنه لا فلاح ولا فوز في نهاية طريق الأفكار المضللة، وإنما عاقبتها خسر وعوائدها عليه وعلى مجتمعه غير محمودة. فإذا علم هذا اتخذ من التدابير المبصِّرة له بالعاقبة المنيرة له طريقه، وهذا من شأنه أن يحصنه ضد الاختراق الفكري، ومن ثم يحقق لديه الأمن الفكري.

الاعتماد على العلم اليقيني

يمكن القول بأن إحدى المهام الكبرى للقرآن الكريم صياغة الحياة على أساس اليقين، بدأً من الإيمان بالله الواحد التي لابد أن تكون عقيدة يقينية، ومروراً بالتصور الذي ينشئه القرآن في نفوس المؤمنين للكون والحياة والآخرة، فلابد أن يبني على اليقين، وانتهاءً بما يتبناه الإنسان من أفكار وآراء، حيث لابد في ذلك من اليقين.

لقد "جعل القرآن الكريم اليقين مصدراً أسمى لحياة المؤمن، فاليقين هو الغرض من الآيات التي ينزلها ويعرضها. قال تعالى: "وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾"[1] كما جعل آيات المعروضة في الكون طريفا بالنظر فيها إلى اليقين. قال تعالى: "وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾"[2] وقال سبحانه: "اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾"[3] كما جعل القرآن ما يأتي من عند الله من أخبار الأمم الماضية هو الخبر اليقين، وهو العلم الحقيقي. قال تعالى: "وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾"[4]

---

(١) سورة البقرة، الآية ١١٨.

(٢) سورة الذاريات، الآية ٢٠.

(٣) سورة الرعد، الآية ٢.

(٤) سورة النساء، الآية ١٥٧. وانظر: كردي، نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة، ص١٩٢.

تطبيق هذا المعلم على الأمن الفكري:

إن أحاديـة النظرة التي يتطلبها الاختراق الفكري، تحـول دون المسلم واليقين العلمي الـذي هو مطلب إسلامي دائم، فيأتي هذا المعلم القرآنية لتمع توافر هذا المطلب، فيتحصن المسلم ضد الاختراق الفكري ويتحقق لديه الأمن الفكري.

تحمل المسئولية عن وسائل المعرفة الموهوبة له من الله تعالى:

حمَّل القرآن الإنسانَ المسئولية عن جميع وسائل المعرفة من سمع وبصر وفؤاد[١]، وذلك في قولـه سبحانـه وتعـالى: "وَلَا تَقْـفُ مَـا لَيْسَ لَـكَ بِـهِ عِلْـمٌ إِنَّ السَّمْـعَ وَالْبَصَـرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾"[٢]

ويوجه القرآن الكريم – في باب ضبط توظيف الحواس– إلى ضرورة مراعاة المعطى العقلي في المعرفة الحسية، فإن هذه الحواس لا تكون مصدرا مستقلا، ولكنها مهمة للمعرفة العقلية؛ لأن تعطيلها يؤدي إلى تعطيل العقل، قال تعالى: "وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾"[٣]، بل إن العقل يحول المعرفة الحسية الى معرفـة مجـردة. مما يدل على ذلـك قوله تعالى: "وَاللَّـهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُـونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُـونَ شَيْئًـا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْـعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُـمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾"[٤]، فتكون مسؤولية المسلم شاملة للحواس والعقل معا.

تطبيق هذا المعلم على الأمن الفكري:

إذا نظرنا للاخـتراق الفكري وجدنا أنه يعتمـد على توظيف وسائل المعرفة بحيث يقع الإنســان في أحاديـة الرؤيـة التي هي مـن متطلباته والتي تتأتـى من إهمــال وسائل المعرفة الإنسانيـة بسبب عـدم الإحساس بالمسؤولية عنهـا، فيأتي هذا المعلم لتفـوت على الاختراق

(١) انظر: سعد الله (علي غانم)، الخطاب الاستثاري للحواس في القرآن الكريم، ٢١ وما بعدها.

(٢) سورة الإسراء، الآية ٣٦.

(٣) سورة الأنعام، الآية ١٧٩.

(٤) سورة النحل، الآية ٧٨.

الفكري إحدى وسائله في التغرير بالمسلم.

إحكام أعمال العقل الاستنباطية والاستدلالية

وجه القرآن الكريم إلى قيمة العقل العليا لعمليات التعقل التي تميز بين الحق والباطل، وعبر عنها ألفاظ مثل (يعقلون، وتعقلون، ويعقلها، وعقلوا، ونعقل) ومدح سبحانه وتعالى من لهم عقل، فوصفهم بأنهم (أولو الألباب، وأولو النهي).

ويلاحظ بعض الباحثين أن "التعقل-في القرآن -وظيفة عامة لكل أنواع الإدراك ولجميع عمليات التفكير والنظر والفقه والتدبر والتذكر"[1] غير أن الآيات التي ورد فيها ذكر أعمال العقل تشير إلى أدوار كثيرة، نخص بالذكر منها ماله صلة بمقاومة الاختراق الفكري:

١- يرتقي الإنسان إلى أنه يكون مخلوقاً مميزاً بقدرة استنتاج المعاني من النظر في الأشياء، كما علمنا الله تعالى ذلك في الاستدلال على البعث. قال تعالى: "أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾"[2]

٢- يبني الإنسان معارفه المركبة والعميقة على الحقائق سواء منها الواقعي أو البديهي ،قال تعالى: "وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾"[3]

٣- يستفيد من تجارب الآخرين وخبراتهم ،فإن من روافده المعرفية المتعددة سماع

(١) كردي، نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة، ص ٦٣١.

(٢) سورة يس، الآيات من ٧٧ إلى ٨٣.

(٣) سورة يونس، الآيتان ١٥ و١٦.

قصص السابقين والاعتبار بها[1] ،وتأسيس المواقف على الدروس المستفادة منها. قال تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾"[2] وقال: "أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى ﴿١٢٨﴾"[3]

٤-يستنبط الإنسان مقابلات المعاني وعكوسها، فيدرك النقيض وما هو داخل فيه متى عرف نقيضه، ويدرك العكس متى عرف الأصل [4] ولذلك نعتمد في نفينا لبشرية القرآن على خلوه من التناقض باعتباره سمة مطردة في مصنفات البشر. قال تعالى: "أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾"[5]

تطبيق هذا المعلم على الأمن الفكري:

ذكرنا من بين المخاطر المهددة للأمن الفكري اعتماد أصحاب الفكر الدخيل على تشجيع السلم على الخروج عن الفهم الصحيح لمراد الله من كلامه وكلام نبيه عن طريق التأويل الباطل للنصوص الشرعية الذي يعتمد على القول بغير بينة ولا برهان؛ فيأتي هذا المعلم القرآني الذي يدعو المسلم لكي يحكم عمل العقل وينشط قدراته الذاتية على التمييز، وعلى تأسيس المعرفة اليقينية على المقدمات الصحيحة، وهذا من شأنه أن يعينه على التخلص من التأويل الباطل لمجافاته لليقين الذي نتعلمه من السف منهجا ومعاني، ومن شأن هذا اليقين أن يحميه من الاختراق ويحقق له الأمن الفكري.

اعتبار التفكر الوظيفة الإدراكية العليا في العقل

لقد جعل القرآن الكريم (التفكر) مطلباً شرعياً وإنسانياً في الوقت نفسه. والتفكر وظيفة للجهة المدركة في الإنسان، وهو يركز على ما يركز عليه التعقل من أمور في تحصيل

(١) انظر: كردي، نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة، ٥٣٣، وما بعدها.

(٢) سورة يوسف، الآية ١٠٩.

(٣) سورة طه، الآية ١٢٨.

(٤) انظر: حبنكه، ضوابط المعرفة، ص ١٣٢.

(٥) سورة النساء، الآية ٨٢.

المعرفة، ولكنــه يتميز بالدقــة ويحتاج لعمليات دقيقة في استنتــاج العلم، ويحتاج للصحة في الحواس واليقظة في الفطرة للعلم الضروري ويحتاج كذلك للتذكير.[1]

ومــن الآيات الدالة علــى هذه الدقة في إعمال العقل بالتأمــل والتفكير قوله تعالى: "ثُمَّ كُلِــي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِــي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَــرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾"[2]

إن مــن شــأن تمتع الإنسان بهــذه المهارة التــي يدعو إليهــا القرآن الكــريم أن تجعله كمــا يذكر الباحثون "يبنــي معرفته الاجتماعية عن طريق تفكــيره، ولا يسمح لنفسه في بناء معرفتــه بواسطة الغير أو عن طريــق إدراكات هذا الغير. هذا الفعل المعــرفي غالباً ما يتعبه ويجهده؛ لأنه صعب وشامل، ولكنه مثمر ومنتج بالنسبة له."[3]

تطبيق هذا المعلم على الاختراق الفكري

ويقضي هذا المعلم بدوره علــى المخاطــر المترتبــة علــى مــا يعمــد إليــه الغــزاة مــن بــث روح الإحبــاط مما ينتــج شخصيــة مسلوبة الطاقــة التفكيريــة مستسلمة لمــن يريد أن يضللها؛ فإن اعتبار التفكر أداة التلقي العليا من شأنه أن تبرز لدى المسلم المستهدف مواطن الخطأ والفحش فيما يقدم إليه من أفكار.

النوع الثاني: هذا معالم مانعة من مثالب التفكير

ويقصــد بها العــادات الخاطئة عند التفكــير والتي تخرجه عن كونــه علمياً مضمونة نتائجــه المعرفيــة إلى كونه أعــوج يؤدي إلى وقــوع الإنسان في الخطأ عنــد اكتسابه للمعرفة. فهي مذكورة في القرآن الكريم في مواضع الذم، ومطلب القرآن فيها الابتعاد عنها والتخلص منها؛ لينفســح المجال للتفكير الصحيح، حيث إنها بمثابة العقبات التي تقف في طريق تنمية التفكير العلمي وتفعيله.

---

(١) انظــر: الغزالي، روضة الطالبين، ضمن مجموعــة القصور العوالي من مؤلفات الغزالي، ٤/١١٦ و١١٧. وراجع: كردي، نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة، ص ٦٣٤.

(٢) سورة النحل، الآية ٦٩.

(٣) العمر، علم اجتماع المعرفة، ص ٧٢.

اجتناب التقليد باعتباره آفة معرفية من جهة المصدرية

مـن أهم معطِّلات العقول عـن العمل بآليات التفكير والتدبـر والتأمل (التقليد) فهو الموقف المواجه للنظـر العقلـي والمضـاد له، ولذلـك وجدنا القـرآن الكـريم يرفضه كطريق للعلـم ،وينبـه الى فساده ،وينعي علـى الذين اتخذوه مصدراً فقـال: "أَمْ آتَيْنَاهُـمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِـه فَهُـم بِـه مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُـوا إِنَّـا وَجَدْنَـا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّـةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾"[1] فهم يتبعونهم دون تمييز أو فحص لما كانوا عليه .

وفي مجـال ترديد ما يقوله الآخرين تقليداً لها بعقليـة الببغاء يعطل المقلدون عقولهم التـي وهبهـم الله تعالى إياها، وقـد تحدث القرآن الكـريم عنهم بما يظهـر فساد مسلكهم فقال: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾"[2]

والمقصود من التقليد في مقامنا هنا بيان مناقضته للتفكير العلمي فهو:

لا يصلح أن يكون طريقاً لعلم صحيح.

يؤدي إلى انكار مبادئ العقل وجحد الضرورة.

المدخل الأكبر للفساد في العقائد والآراء.

لا يأمن المقلد خطأ من قلده. [3]

---

(١) سورة الزخرف، الآيتان ٢١ و٢٢.

(٢) سورة البقرة، الآيتان ١٧٠ و١٧١.

(٣) انظر في ذلك:

- ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل، ١/ ٨٠.
- الفارابي، الجمع بين رأيي الحكيمين، ص٣ وص٤.
- القاضي عبد الجبار ن المغني في أبواب التوحيد والعدل، ١٢/ ١٢٣ – ١٢٦.
- الجاحظ، الحيوان، ٥/ ٣٢٧ – ٣٢٨
- مختار عطا الله، اليقين في العقيدة وطرق الوصول إليه، ص٣٢.

تطبيق هذا المعلم على الأمن الفكري:

إن الاختراق الفكري يعتمد على إخضاع المسلم للأفكار المدسوسة بمنعه من النظر فيها باعتبارها من مصدر موثوق تجب طاعته ويعد تقليده عملا صائبا، فيأتي هذا المعلم ليحميه من هذا المنزلق الخطير.

اجتناب اتباع الهوى باعتباره آفة معرفية من جهة المدخل

لقد جاء القرآن الكريم محذراً من اتباع الهوى، ومن اتباع من يتبع هواه. قال تعالى في الأولى: "قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾"[١] وقال تعالى في الثانية: "وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾"[٢] وقال: "وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾"[٣]

فإن من عقبات التفكير العلمي الكؤود الرجوع الى هوى النفس وميولها ورغباتها في الأخذ والرد، فلا مكان للنقد الموضعي –إذن –ولا للفحص والتأمل في صحة المنقول أو خطئه. وقد يجزم المرء بصحة ما لا دليل لديه على صحته إلا لأنه وافق هواه، وهي آفة منتشرة جداً، بل إن ابن تيمية يجعل ذلك أكثرية بين الناس. يقول ابن تيمية: "فمن حاسب نفسه على ما يجزم به وجد أكثر الناس يجزمون بما لا يجزم به إنما جزمهم لنوعٍ من الهوى"[٤].

والمقصود من التحذير من آفة الهوى في مقامنا هذا هو أنه يصد عن الحق ويمنع العلم به فضلاً عن اتباعه قال تعالى: "يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ

(١) سورة القصص، الآيتان ٤٩ و٥٠.

(٢) سورة الأنعام، الآية ١١٩.

(٣) سورة الكهف، الآية ٢٨.

(٤) ابن تيمية، نقض المنطق، ص ٢٦ وص٢٧.

النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾"(١)

تطبيق هذا المعلم على الأمن الفكري:

ذكرنا سلفا أن اتباع المسلم القول وتصديقه وترويجه وترديده لمجرد أنه وافق هواه وغازل رغباته سبب رئيسي في تعريض المسلم نفسه للاختراق الفكري، فيأتي هذا المعلم لينبهه إلى مثلبة يجب اجتنابها لينجو من الاختراق الفكري.

اجتناب التعميم غير المبرر باعتباره آفة معرفية من جهة التحكُّم

من آليات التحكم غير المبرر بإصدار أحكام لا تستند الى ما يسوغ إصدارها (التعميمُ) الذي هو سحب حكم شيء على أشياء أخرى بدعوى مشاركتها له في مناط الحكم دون إثبات ذلك، بل لمجرد التوهم والادعاء. وقد بين لنا القرآن الكريم- وفي سياق الحديث عن أعدائه- أن التعميم مناف للعدل مناقض لطلب الحق، فقال تعالى عن أهل الكتاب: "لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾"(٢) ،وقال عن الأعراب: "الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾"(٣)

والمقصود من التحذير من آفة التعميم في مقامنا هذا بيان أنه طريق للادعاء الكاذب، وقد حدد الباحثون أنواعا كثيرة للتعميم يهمنا منها هنا:

تعميم الأحكام استنتاجاً من بعض الحالات الخاصة أو العارضة.

تعميم الحكم في كل الأحوال مع أنه لا يصدق إلا في بعضها.

---

(١) سورة ص، الآية ٢٦.

(٢) سورة آل عمران، الآية ١١٣.

(٣) سورة التوبة، الآيات من ٧٩ إلى ٩٩.

تعميم الحكم الذي لا يصدق إلا بشرط على ما لا يتوفر ذلك الشرط فيه.

جمع عدة مسائل في مسألة واحدة والحكم علها جميعاً استدلالاً ببعضها، ويلتبس التعميم هنا حينما تكثر المسائل المشاركة في الحكم وتقل المسائل المخالفة في الحكم. [1]

تطبيق هذا المعلم على الأمن الفكري:

إن التعميم خاصية فكرية سلبية ضارة توقع من يتصف بها في الأحكام الباطلة على العلماء من جهة وعلى بعض الأفكار المستندة عن الحق من جهة أخرى، فيأتي هذا المعلم ليمنع المسلم من الوقوع فيها، فيتحصن من مثل هذه الأحكام، فينجو من الاختراق الفكري، ويتحقق لديه الأمن الفكري.

(١) انظر: حبنكه، ضوابط المعرفة، ص ٣١٠.

الخاتمة

لقد طرح هذا البحث إحدى إشكاليات العمل العلمي الهادف إلى تحقيق الأمن الفكري، وهي المتصلة بشخصية المسلم المستهدف من قبل التيارات الخارجة عن المنهج القويم لأهل السنة والجماعة، من حيث بناؤها العلمي السليم الذي يستطيع المساعدة في تحقيق هذا الهدف، انطلاقاً من عقلية الفرد نفسه، باعتبارها مركز التوجيه للفرد في سلوكه وعلاقته بغيره. وعالج هذا البحث هذه الإشكالية في ضوء الهدى القرآني الكريم، وحدد المنهج التحليلي والمنهج الاستنباطي في التحقق من صحة الفروض العلمية التي افترضها إجابات عن أسئلة الدراسة. ومن خلال الدراسة استطاع البحث أن يخرج ببعض النتائج والمستخلصات أسجلها فيما يلي:

نتائج البحث:

١. أن الأمن الفكري يمكن تحقيقه، انطلاقاً من ضوابط المعرفة في القرآن الكريم، ع ن طريق التزام المعالم المنهجية القرآنية في التفكير العلمي لطلب البرهان والاست دلال وإعمال العقل والتفكير.

٢. أن توفير الأجواء العلمية وإنشاء البيئة العلمية وفق توجيهات القرآن الكريم من شأنه أن يتيح الفرصة للعناصر الفاعلة من التفكير العلمي لكي تعمل في مواجهة الاختراق الفكري عن طريق التكوين الواعي للفرد.

٣. أن تقرير القرآن الكريم مسئولية الفرد الشرعية عن أدوات المعرفة فيه من شأنها أن تنمي وعي المسلم نحو اتخاذ التدابير اللازمة لتجنب الانزلاق إلى الأفكار الضالة والآراء الشاذة.

٤. أن التعقل والتفكر والتدبر وضبط المعرفة في وسائلها ومجالاتها وغاياتها جعلها القرآن الكريم خلقاً مركزياً في الحياة المعرفية للفرد عموماً، وهي نفسها يمكن تفعيلها بخصوص تحقيق الأمن الفكري.

التوصيات

يوصي الباحث بعد معالجته لموضوع البحث بالآتي:

١. أن يبذل الباحثون المزيد من الجهد في إبراز وتفعيل الوسائل التي تساعد على بناء عقلية علمية ومجتمع علمي باعتبار ذلك واحدا من أهم عوامل القضاء على جميع السلبيات المعرفية في المجتمع المسلم، وبخاصة ما يتصل بالغزو الفكري.

٢. أن يتم تضمين المقررات الدراسية في مختلف المراحل التعليمية مقررا يختص بتعليم الطالب آليات التفكير العلمي وحل المشكلات، وذلك في سبيل بناء شخصية علمية قادرة على مواجهة ما يستهدفه من أفكار شاذة وآراء ضالة. فضلا عن الإسهام الفعال في بناء الحياة الاجتماعية بناءً سليمًا.

٣. أن تتضمن المناهج الدراسية المتعلقة بالعلوم الإسلامية بعض الدروس التي تستخرج القيم العلمية من القرآن الكريم، وتزويد الدارس بها باعتبارها مطلبا دينيا.

٤. أن تنشئ جامعة الملك خالد مركزا لدراسات الأمن الفكري، يختص بالتصدي لتحقيق الأمن الفكري لدى منسوبيها من الشباب، وتقدم من خلاله خدمة عظيمة للمجتمع الخارجي.

المراجع والمصادر

١. ابن تيمية:

٢. درء العقل والنقل ، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم ، جامعة الإمام محمد بن سعو د الإسلامية ، الرياض ، ط١ ،١٤٠٠ه =١٩٨٠م .

٣. نقض المنطق ، تحقيق البلح محمد حمزة وسليمان الضبع ، السنة المحمدية ، القاهر ة ، ط١٣٧٠،١ه = ١٩٥١م .

٤. البعراتي (بناصر) ، الاستدلال والبناء. بحث في خصائص العقلية العلمية ، دار الأ مان ، الرباط، ط١ ، ١٩٩٩م .

٥. تربان (د. كمال محمد) ، الأمن الفكري ، بحث منشور بأكاديمية فلسطين للعلوم الأمنية ، ١٤٣٣هـ= ٢٠١٢م .

٦. الرازي (الإمام فخر الدين أبو عبدالله محمد بن عمر بن حسين القدسي) ، مفاتيح الغيب "التفسير الكبير" ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٤٢٥ه = ٢٠٠٤م .

٧. الجاحظ ، الحيوان ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، القاهرة ، ١٣٥٦ه = ١٩٣٨م.

٨. الحارثي (زيد) ، إسهام الإعلام التربوي في تحقيق الأمن افكري ، رسالة ماجستير بإشراف الدكتور محمد الوذنياني ، كية التربية ، جامعة أم القرى ، سنة ١٤٢٩هـ.

٩. حريز (محمد الحبيب) ، واقع الأمن افكري ، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية ، سنة ٢٠٠٥م.

١٠. ابن حزم ، الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم نصر ، و

الدكتور عبد الرحمن عميرة ، نشر شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع ، الرياض ، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ، ١٤٠٢هـ =١٩٨٢م.

١١. زكريا (فؤاد) ، التفكير العلمي ، مكتبة مصر ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٨٨م.

١٢. السحيباني (د. عبد الحميد عبد الرحمن) ، الانحراف الفكري وأثره في الأمن في ضوء القرآن الكريم ، مجلة العدل ، العدد ٤١ ، محرم سنة ١٤٣٠هـ.

١٣. سعد الله (علي غانم) ، الخطاب الاستثاري للحواس في القرآن الكريم ، دار الكتاب الثقافي ، الأردن ، ١٤٣٣ه=٢٠١٢م.

١٤. ابن سينا ، البرهان من كتاب الشفاء، تحقيق الدكتور عبد الرحمن البدوي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٤م.

١٥. الشرقاوي(د.محمد عبد الله) ، تأملات حول وسائل الإدراك في القرآن الكريم ، ال رياض ، ط١ ، ١٩٨٢م.

١٦. أبو صفية (عبد الوهاب) ، أعمال سياقية منضبطة أو قريبة من الانضباط ، دار عم ار ، عمان، الأردن ، ط١ ، ١٤٣٣ه = ٢٠١٢م.

١٧. الصقعي (مروان صالح) ، أبعاد تربوية وتعليمية في تعزيز الأمن الفكري ، بحث مقدم للمؤتمر الوطني الأول للأمن الفكري. المفاهيم والتحديات ، في الفترة من ٢٢-٢٥ جمادى الأول سنة ١٤٣٠هـ ، كرسي الأمير نايف بن عبد العزيز لدراسات الأمن الفكري ، جامعة الملك سعود.

١٨. عبد الجبار (القاضي) ، المغني في أبواب التوحيد والعدل ، تحقيق جماعة من العلما ء ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر والتوزيع ، القاهرة.

١٩. عبد العزيز (د. نفيسة بنت إبراهيم) ، الأمن الفكري ودوره في مواجهة ظهرة التطرف في المجتمعات الإسلامية ، بحث مقدم للمؤتمر الوطني الأول للأمن الفكر ي. المفاهيم والتحديات ، في الفترة من ٢٢- ٢٥ جمادى الأول سنة ١٤٣٠هـ ، كرسي

الأمير نايف بن عبد العزيز لدراسات الأمن الفكري ، جامعة الملك سعود.

٢٠. عبد القوي (د. علي سامي) ، علم النفس البيولوجي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط٢ ، ١٤١٧ه = ١٩٩٧م.

٢١. عطاالله (أ.د مختار محمود):

٢٢. التقين في العقيدة وطرق الوصول إليه ، دار الهاني ، القاهرة ، ٢٠٠٩م .

٢٣. تنمية التفكير العلمي لدى الفرد في ضوء الهدي القرآني وأثرها في مواجهة الإشاعة ، بحث مقدم إلى المؤتمر الدولي للإعلام والإشاعة: المخاطر المجتمعية وسبل المواجهة ، جامعة الملك خالد – كلية العلوم الإنسانية ، قسم الإعلام والاتصال ، ذو القعدة ١٤٣٦ه = سبتمبر ٢٠١٤م

٢٤. العمر (أ.د معن خليل) ، علم اجتماع المعرفة ، دار الشروق ، الأردن ، ط١ ، ٢٠٠٧م.

٢٥. الغزالي ، روضة الطالبين ، ضمن مجموعة القصور العوالي من مؤلفات الغزالي ، مكتبة الجندي ، القاهرة ،١٩٧٢م .

٢٦. الغيث ، إبراهيم بن عبد الله ، الأمن الفكري حقيقته وسبل تحصيله محاضرة، منشورة في المصدر الآتي:

http://www.assakina.com/mohadrat/20130.html

٢٧. الفارابي ، الجمع بين رأي الحكيمين ، ضمن (المجموع من مؤلفات أبي نصر الفارابي) ، مطبعة السعادة ، مصر ، ط١ ،١٣٢٥ ه = ١٩٠٧م .

٢٨. فارس (رامي تيسير) ، الأمن الفكري في الشريعة الإسلامية ، رسالة ماجستير بإشراف الدكتور ماهر أحمد الساسي ، كلية الشريعة والقانون ، الجامعة الإسلامية ، غزة ، سنة ١٤٣٣هـ= ٢٠١٢م.

٢٩. قطب (سيد) ، في ظلال القرآن ن دار الشروق ، القاهرة ، ط٩ ، ١٤٠٠ه = ١٩٧٩م .

٣٠. النصري (د. هاني يحي) ، الفكر والوعي بين الجهل والوهم والحرية ،المؤسسة الجا معية للدراسات والنشر ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٤١٨ه = ١٩٩٨م .

٣١. اللويحـق(د. عبد الرحمن بن معلا) ، الأمن الفكري. ماهيته وضوابطه ، نشر جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية ، سنة ٢٠٠٥م.

٣٢. المالكـي (د. عبـد الحفيـظ بـن عبـد اللّه) ، الأمـن الفكـري. مفهومـه وأهميتـه ومتطلبات تحقيقـه ، مجلة البحـوث الأمنية ، كلية الملك فهد ، العـدد ٤٣ ، أغسطس ٢٠٠٩م.

٣٣. المجـدوب (د. أحمـد علـي) ، الأمـن الفكـري والعقائـدي. مفاهيمـه وخصائصـه وكيفية تحقيقـه ، نشـر جامعـة نايف العربيـة للعلـوم الأمنية، الرياضـ، ١٤٠٨هـ= ١٩٨٨م.

٣٤. الهماش (متعب) ، إستراتيجية تعزيز الأمن الفكري، بحث مقدم للمؤتمر الوطني ال أمل للأمن الفكري. المفاهيم والتحديات ، في الفترة مـن ٢٢- ٢٥ جمادى الأول سن ة ١٤٣٠هـ ، كرسي الأمير نايف بن عبد العزيز لدراسات الأمن الفكري ، جامعة المل ك سعود.

٣٥. يوسف محمود ، من سمات المربي الفعال الاتزان الانفعالي ، موقع صيد الفوائد www.saaid.net/aldawah/44.0/htm

مها بنت عبد الله بن محمد الهَدَب.

- الدولة: المملكة العربية السعودية، الرياض.
- البريد الإلكتروني: hadab٢٥٩@gmail.com

المؤهلات العلمية:

- بكالوريوس في القرآن الكريم وعلومه بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلية أصول الدين، قسم القرآن الكريم وعلومه.
- ماجستير في القرآن الكريم وعلومه بتقدير ممتاز من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلية أصول الدين، قسم القرآن الكريم وعلومه.
- دكتوراه في القرآن وعلومه بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى، من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلية أصول الدين، قسم القرآن الكريم وعلومه.
- التخصص الدقيق: القرآن الكريم وعلومه (رسم المصاحف).
- المسمى الوظيفي: أستاذ مساعد في كلية أصول الدين (قسم القرآن وعلومه) بجامعة الإمام محمد بن سعود.

الأبحاث والمنشورات:

- كتابة القرآن الكريم بغير الرسم العثماني دراسة تاريخية موضوعية (مطبوع).
- اختيارات ابن نَجاح (ت٤٩٦هـ) - رحمه الله - في رسم المصحف الشريف وضبطه: جمعاً ودراسة.

الجوائز العلمية:

جائزة الجمعية العلمية للقرآن الكريم وعلومه (تبيان) للتميز البحثي في الدراسات القرآنية (لعام ١٤٣١-١٤٣٢هـ).

جائــزة المستوى الأول علــى مستوى مدينة الرياض في مسابقة حفظ القرآن الكريم التي أقيمت تحت إشراف وزارة التعليم (الرئاسة العامة لتعليم البنات سابقاً).

المشاركات والخبرات:

- المشاركة في تحكيم بحوث ندوة (طباعة القرآن الكريم ونشره بين الواقع والمأمول) في مجمــع الملك فهد لطباعة المصحف الشريــف في المدينة المنورة خلال المدة (٣-٥/٢/ ١٤٣٦هـ).
- عضــو لجنة تحكيم مسابقة حفظ القــرآن الكريم وتجويده لطلاب وطالبات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية للعام ١٤٣٦-١٤٣٧هـ.
- مدربة معتمدة في مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني.
- دورات متعددة في مجال الجودة والاعتماد الأكاديمي.
- عضــو اللجنة العليا للتطوير والجودة في كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

منهج القرآن الكريم في علاج الشائعة في ضوء آيات حادثة الإفك

إعداد

د. مها بنت عبد الله الهدب

الأستاذ المساعد في قسم القرآن الكريم وعلومه بكلية أصول الدين
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين الذي جعل القرآن تبياناً لكل شيء، والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن الشائعات من أخطر المشكلات التي تُصيب المجتمع، وتُستعمل في كل أحواله: في السلم والحرب، وتُحدِث شروخاً في المجتمع الإسلامي، فتصدِّع بنيانه، وتعرضه للتفكك والتشاحن، وهي ليست وليدة هذا العصر وإن كانت أكثر انتشاراً من ذي قبل؛ خاصة مع وجود وسائل الاتصال المتنوعة وكثرتها، وإلا فهي موجودة قديماً وقد عانى منها النبي ٢، وبيته الكريم، ومجتمع الصحابة، وقصة الإفك شاهد على ذلك.

وقد بين القرآن الكريم كيفية التعامل مع الشائعات وعلاجها، ورسم منهجاً واضحاً وفريداً في التعامل مع هذه المشكلة، وخاصة في الشائعات التي تمس الأعراض؛ لمساسها بنواة المجتمع وهي الأسرة، وكان من الضروري إبراز هذا المنهج القرآني؛ لأنه منهج متكامل وعلاج ناجع يحتاجه المجتمع في كل حين، وهذا الأدب القرآني الفريد درس لكل المجتمعات الإنسانية؛ هدفه الحفاظ على المجتمع من كل ما يضره.

ومن هنا كانت المشاركة بهذا البحث في المؤتمر الدولي القرآني الأول لتوظيف الدراسات القرآنية في علاج المشكلات المعاصرة، وعنوانه: (منهج القرآن الكريم في علاج الشائعة في ضوء آيات حادثة الإفك).

أهمية الموضوع:

الاتجاه بالدراسات القرآنية إلى معالجة القضايا الحية التي تمس المجتمع.

خطورة الشائعة على المجتمع باعتبارها نوعاً من الحرب النفسية التي تزعزع أمنه، وتنال من الشخصيات المهمة فيه لأغراض عدائية.

انتشار الشائعات في هذا العصر خاصة مع وجود وسائل التواصل الاجتماعي.

ضرورة معرفة كيفية التصدي للشائعات المنتشرة عبر وسائل التواصل الاجتماعي باتباع منهج القرآن الفريد في علاج الشائعات.

أهداف البحث:

بيان مفهوم الشائعة، واستعمال القرآن له.

دراسة الآيات التي نزلت في شائعة الإفك دراسة موضوعية.

تأصيل المنهج في علاج الشائعات وخاصة المتعلقة بالأعراض من خلال القرآن الكريم.

إبراز مزايا منهج القرآن في علاج الشائعات.

ربط هذا المنهج بمشكلة الشائعات في هذا العصر.

خطة البحث: يتكون البحث من مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة.

التمهيد: وفيه تعريف موجز بحادثة الإفك.

المبحث الأول: مفهوم الشائعة وأنواعها وأركانها، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: مفهوم الشائعة وورودها في القرآن.

المطلب الثاني: أنواع الشائعات.

المطلب الثالث: أركان الشائعة.

المبحث الثاني: منهج القرآن الكريم في علاج الشائعة في ضوء آيات حادثة الإفك، وفيه ثمانية مطالب:

المطلب الأول: تكذيب الشائعة.

المطلب الثاني: العناية بمن مسته الشائعة.

المطلب الثالث: تقديم حسن الظن.

المطلب الرابع: التأكيد على ضرورة التثبت والتروي.

المطلب الخامس: التحذير من التهاون في نقل الشائعة.

المطلب السادس: التأكيد على مسؤولية الفرد في إيقاف الشائعة.

المطلب السابع: ترتيب العقوبات النفسية والشرعية.

المطلب الثامن: وجوب أخذ العظة من التجارب.

المبحث الثالث: مزايا المنهج القرآني في علاج الشائعات.

منهج البحث: سأسلك في هذا البحث المنهج الاستقرائي الموضوعي، مع العناية بالإجراءات الفنية المتبعة في البحوث العلمية.

التمهيد

حادثة الإفك

إن حادثة الإفك مشهورة ثابتة في الصحاح والسنن والمسانيد، رُوِّجت فيها شائعة اتهام أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بالزنا، وحاصل هذه الحادثة: أن النبي r كان في بعض غزواته ومعه زوجته عائشة الصديقة بنت الصديق، فانقطع عقدها فانحبست في طلبه ورحلوا بجملها وهودجها فلم يفقدوها؛ لخفة وزنها، ثم استقل الجيش راحلاً، فجاءت مكانهم، وعلمت أنهم إذا فقدوها رجعوا إليها، لكنهم استمروا في مسيرهم، وكان صفوان بن المعطل السلمي t من أفاضل الصحابة قد بقي في أخريات القوم ونام، فرأى عائشة رضي الله عنها فعرفها، فأناخ راحلته، فركبتها من دون أن يكلمها أو تكلمه، ثم جاء يقود بها بعد ما نزل الجيش في الظهيرة، فلما رأى بعض المنافقين الذين في صحبة النبي r في ذلك السفر مجيء صفوان بها في هذه الحال، أُشيع ما أُشيع ووشى الحديث الذي فيه اتهام أم المؤمنين بالزنا، وتلقفته الألسن، حتى اغتر بذلك بعض المؤمنين، وصاروا يتناقلون هذا الكلام، وانحبس الوحي مدة طويلة عن الرسول r، وبلغ الخبر عائشة بعد ذلك بمدة، فحزنت حزناً شديداً، فأنزل الله براءتها في سورة النور، ووعظ المؤمنين، ووصاهم بالوصايا النافعة(١)، وقد أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما وغيرهما سياق هذه القصة عن عائشة رضي الله عنها وأرضاها.(٢)

الزمان: غزوة المريسيع في شعبان من السنة الخامسة للهجرة. (٣)

السورة التي ورد فيها ذكر الحادثة: سورة النور.

آيات حادثة الإفك: عشر آيات من هذه السورة الكريمة، من قوله تعالى:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ

---

(١) ينظر: تيسير الكريم الرحمن: للسعدي ص ٥٦٣.

(٢) أخرجها البخاري في صحيحه (كتاب المغازي، باب حديث الإفك، ٥/ ١١٦-١٢٠، ح (٤١٤١))، ومسلم في صحيحه (كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف، ٤/ ٢١٢٩-٢١٣٦، ح (٢٧٧٠)).

(٣) ينظر: المغازي: للواقدي (١/٤٠٤)، والسيرة النبوية: لابن كثير (٤/٤٣١).

مِّنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ النور: ١١، (١)، وذهب بعضهم إلى أنها ثماني عشرة آية(٢)، وقيل: ست عشرة آية(٣)، واعتمد هذا البحث على القول الأول وهو الأكثر، وأنها عشر آيات.

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم: لابن كثير (٦/ ١٩)، وزاد المسير: لابن الجوزي (٣/٢٨٢)، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: للشنقيطي (٥/ ٤٨٦)، المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة: للمزيني (٢/ ٧٤٩).

(٢) ينظر: الكشاف: للزمخشري (٣/٢١٧).

(٣) ينظر: المحرر الوجيز: لابن عطية (٤/١٦٨).

المبحث الأول

مفهوم الشائعة وأنواعها وأركانها

المطلب الأول: مفهوم الشائعة وورودها في القرآن.

الشائعة في اللغة: الشين والياء والعين أصلان، يدل أحدهما على معاضدة، والآخر على بث وإشاعة، والشائعة من الثاني، يُقال: شاع الحديث والخبر، إذا ذاع وانتشر(١)، فهو شائع: ومعناه قد اتصل بكل أحد فاستوى علم الناس به ولم يكن علمه عند بعضهم دون بعض(٢)، وقال الراغب (ت٥٠٢هـ) في المفردات: " الشِّيَاعُ: الانتشار والتّقوية، يقال: شاع الخبر، أي: كثر وقوي، وشَاعَ القوم: انتشروا وكثروا" (٣)، والمعنى المشترك البارز بين هذه المعاني اللغوية لمادة (شيع) هو الانتشار والتكاثر.

الشائعة في الاصطلاح: إن لفظ الشائعة بمفهومها ومسماها في العصر الراهن لم تذكره معاجم اللغة العربية القديمة - فيما وقفت عليه-، ولذا فإن اللغويين المعاصرين قد أثبتوا معناها في اللغة بمعنى: خبر غير موثوق فيه ينتشر بين النَّاس(٤)، وعليه يكون معنى الشائعة في الاصطلاح العام مأخوذ من الشيوع وهو الانتشار غير المحدد، يقال: شاع الأمر، وشاع الذعر، وشاع الأثر، وشاع الخير، وهو موافق للمعنى اللغوي، غير أن هذا المعنى العام قد خُصص حتى صار للفظ (الشائعة) معنى اصطلاحي يضيق عن المعنى العام المذكور آنفاً، وذلك باشتراط أوصاف وأحوال محددة، فخُصص من حيث الثبوت(٥) فاصطُلح على

(١) ينظر: مقاييس اللغة: لابن فارس (٣/ ٢٣٥)، وينظر: تهذيب اللغة: للأزهري (٣/ ٤٠)، والصحاح: للجوهري (٣/ ١٢٤)، وتاج العروس: للزبيدي (٢١/ ٣٠١).

(٢) لسان العرب: لابن منظور (٨/ ١٩١).

(٣) المفردات في غريب القرآن ص٤٧٠.

(٤) ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة (٢/ ١٢٥٧)، ومعجم الصواب اللغوي (١/ ٤٥): كلاهما لأحمد عمر وآخرين.

(٥) ينظر: أحكام الشائعات في القانون العقابي المقارن: لعلي الشرف ص١٢٢، ومعجم المصطلحات السياسية والدبلوماسية: لخليل أحمد خليل ص١١٥.

أن الشائعة هي الخبر المختلق كلياً أو جزئياً الذي ليس عليه دليل ولا برهان (١)، وهذا يعني أن الشائعة في الغالب هي ما كان على خلاف الحقيقة فتكون غالباً رديفاً للكذب، ثم خصص من حيث الحكم إذ اقتصرت الشائعة على الخبر المستهدف نتائج غير مشروعة، ولذلك يُنظر إلى الشائعة عادة بأنها حرب نفسية تستهدف معنويات الأمة (٢)، وقد سار هذا البحث على هذا المعنى الاصطلاحي الخاص.

وأخذاً بالمعنى الاصطلاحي الخاص للشائعة يمكن ذكر بعض التعريفات التي ذكرها الباحثون في هذا المجال، ومن ذلك:

أن الشائعة كل قضية أو عبارة نوعية أو موضوعية قابلة للتصديق، تتناقل من شخص إلى شخص عادة بالكلمة المنطوقة، وذلك دون أن تكون لها معايير أكيدة للصدق. (٣)

أنها معلومة غير معروفة المصدر غير ثابتة يجري نشرها لهدف سياسي معين يكون مغرضاً في الغالب.(٤)

أنها بث خبر من مصدر ما في ظرف معين ولهدف ما يبغيه المصدر دون علم الآخرين، أو هي الأحاديث والأقوال والأخبار التي يتناقلها الناس والقصص التي يروونها دون التحقق من صحتها أو التثبت من صدقها.(٥)

أنها ضغط اجتماعي مجهول المصدر، يحيطه الغموض والإبهام، وتحظى من قطاعات عريضة بالاهتمام ويتداولها الناس لا بهدف نقل المعلومات، وإنما بهدف التحريض والإثارة وبلبلة الأفكار. (٦)

أنها ترويج لخبر مختلق لا أساس له من الواقع، أو تعمد المبالغة أو التهويل أو التشويه في

---

(١) ينظر: الشائعات وكلام الناس: لمحمد الخشت ص١١-١٣.

(٢) ينظر: أحكام الشائعات في القانون العقابي المقارن ص١٢٢.

(٣) سيكولوجية الاشاعة: لألبورت جوردان وآخرين ص ١١.

(٤) ينظر: معجم المصطلحات السياسية والدبلوماسية ص١١٥.

(٥) الإسلام والشائعة: لساعد الحارثي ص١٠.

(٦) دراسة في الرأي العام والإعلام والدعاية: لرفيق سكري ص١٧٦.

سرد خبر فيه جانب ضئيل من الحقيقة، وذلك بهدف التأثير النفسي في الرأي العام المحلي أو الإقليمـي أو النوعي؛ تحقيقاً لأهداف سياسية أو اقتصادية أو عسكرية على نطاق دولة أو عدة دول أو على النطاق الدولي بأجمعه. (١)

أنها رواية تتناقلها الأفواه دون التركيز على مصدر يؤكد صحتها. (٢)

ومرجع هذا التعدد في التعريفات أن كل تعريف يركز على خصيصة أو خصائص معينة للشائعة دون غيرها من الخصائص، وإذا أريد وضع تعريف محدد مختصر للشائعة في معناها الاصطلاحي فيمكن القول بأنها: (الخبر المثير المتعمد الذي يستهدف نتائج ضارة). [٣]

الاستعمال القرآني للشائعة

لم تَرد الشائعة في القرآن بصيغة المصدر وإنما وردت بصيغة الفعل (تشيع) في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ النور: ١٩، وذلك في مقام الذم لناشري الفاحشة في المؤمنين، قال مجاهد (ت١٠٤هـ) يعني: "تظهر ويتحدث بها في شأن عائشة" (٤)، وقد جاء التعبير عن الشائعة في القرآن بألفاظ أخرى متعددة، ومنها:

الإفاضة، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾ يونس: ٦١، حيث ذكر الطبري (ت٣١٠هـ) في معنى (تفيضون فيه) ثلاثة أقوال، منها: قول الضحاك (ت١٠٥ه): "إذ تشيعون في القرآن الكذبَ". (٥)

---

(١) الإشاعة: لأحمد نوفل ص٩٩.

(٢) الحرب النفسية والشائعات: لمعتز عبد الله ص ١٦٥.

(٣) ينظر: أحكام الشائعات في القانون العقابي المقارن ص١٢٤.

(٤) تفسير مجاهد ص٤٩٠.

(٥) جامع البيان (١٥/ ١١٥)، والقولان الآخران هما: قول ابن عباس t واختاره الطبري: إذ تفعلون، وقول مجاهد: إذ تفيضون في الحق. ينظر: المرجع السابق (١٥/ ١١٤-١١٥).

ومنــه أيضاً قولـه تعــالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾ ﴾ الأحقاف: ٨، وقوله:﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾النور: ١٤، حيث سمى الله ما أشيع عن عائشة رضي الله عنها إفاضة، قال ابن زيد (ت١٨٢هـ): "هذا للذين تكلموا فنشروا ذلـك الـكلام" (١)، قال الراغب الأصفهـاني (ت٥٠٢هـ): "فَاضَ المـاء: إذا سال منصبّاً... ومنه استعير: أَفَاضُوا في الحديث: إذا خاضوا فيه، ، وحديث مُسْتَفِيضٌ: منتشر". (٢)

الإذاعـة، ومنــه قوله تعـالى: ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ ﴾النساء:٨٣، قال الطبري (ت٣١٠هـ): "يقول جل ثناؤه: وإذا جاءهم خبرٌ عن سريةٍ للمسلمين غازية بأنهم قد أمِنوا من عدوهم بغلبتهم إياهم، أو الخوف، يقول: أو تخوّفهـم مـن عدوهم بإصابة عدوهم منهم، أذاعوا به، يقـول: أفشوه وبثّوه في الناس قبل رسول الله r وقبل مأتى سرايا رسول الله ﷺ... يقال منه: أذاع فلان بهذا الخبر، وأذاعه" (٣)، قال ابن زيد (ت١٨٢هـ): "(أذاعوا به) نشروه". (٤)

التلقـي: وذلــك في قولــه تعــالى:﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾النـور:١٥، علـى قـراءة الجمهـور (تَلَقَّوْنَـهُ) (٥)، وفي تفسـيره وجهان: أحدهما: هو أن تتحدث به وتلقيـه بين الناس حتى ينتشر(٦)، قال مجاهد (ت١٠٤هــ): "يرويـه بعضكم، عن بعض" (٧)، وقال سعيد بـن جبير (ت٩٤هـ): "إذ تلقونه بألسنتكـم وذلك حين خاضوا في أمر عائشة فقال بعضهم: سمعت من فلان يقول كذا وكذا،

(١) المرجع السابق (١٩/ ١٣٠).

(٢) المفردات في غريب القرآن ص ٦٤٨.

(٣) جامع البيان (٨/ ٥٦٨).

(٤) المرجع السابق (٨/ ٥٦٩).

(٥) بفتـح التـاء واللام والقاف وتشديد القاف، والبزي يشدد التاء حال الوصل. ينظر: التيسير في القراءات السبع: للداني ص٨٣، والنشر: لابن الجزري (٢/ ٢٣٢)، وإتحاف فضلاء البشر: للبناء ص٢١٠.

(٦) ينظر: جامع البيان (١٩/ ١٣٠)، وتفسير ابن فورك (١/ ١٢٧)، والنكت والعيون: للماوردي (٤/ ٨٢).

(٧) تفسير مجاهد ص٤٩٠.

وقـال بعضهم: بلى كان كذا وكذا، فقال: (تلقونـه بألسنتكم) يعني: يرويه بعض، عن بعض، سمعتـم مـن فلان، وسمعتم من فـلان" (١)، والوجه الثاني في معنـاه: أن يتلقاه بالقبول إذا حدث به ولا ينكره.(٢)

الخوض، ومنـه قوله تعالى:﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٍ يَلۡعَبُونَ ﴿١٢﴾ ﴾الطور:١٢، وقوله:﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ المدثـر:٤٥، حيـث ورد من معـاني الخوض إشاعـة التهم على النبي ﷺ، قال ابن زيد (ت١٨٢هـ):" قولهم محمد كاهن، محمد ساحر، محمد شاعر".(٣)

الإرجـاف، ومنه قوله تعالى:﴿لَئِن لمَّ يَنتَه المُنَافقُونَ وَالَّذينَ فِي قُلُوبهم مَّرَضٌ وَالمُرْجفُونَ فِي المَدينَـة لَنُغْرِيَنَّـكَ بهِـمْ ثُمَّ لاَ يُجَاوِرُونَـكَ فيَهَا إلاَّ قَليلاً﴾الأحـزاب:٦٠، فقد ورد في معنى (المرجفـون) أنهم: الذين يذكـرون من الأخبار ما يضعف به قلـوب المؤمنين وتقوى به قلوب المشركـين قاله قتـادة (ت١١٧هـ) (٤)، وقـال الكلبي (ت١٤٦هــ):" كانوا يحبـون أن تشيع الفاحشـة في الذيـن آمنـوا ويفشـون الأخبـار" (٥)، وقـال المـاوردي (ت٥٤٠هـ):"وسميت الأراجيف لاضطراب الأصوات بها، وإفاضة الناس فيها".(٦)

المطلب الثاني: أنواع الشائعات

يصعب تقديم حصر منضبط لأنواع الشائعات؛ لاختلاف آثارها ودوافعها والبيئات التي تظهـر فيها(٧)، ويمكن تقسيم الشائعات وفق اعتبارات عـدة، منها: موضوعها، وسرعتها، ومصادرها، ودلالتها الوظيفية.

وقد صنف علماء النفس الشائعات إلى أربعة أنواع رئيسة، وهي:

شائعـات الخـوف: وهي تهدف إلى إثـارة الرعب في النفوس، كتوقع الكـوارث الطبيعية والحروب.

---

(١) تفسير القرآن العظيم: لابن أبي حاتم (٨/ ٢٥٤٨).

(٢) ينظر: جامع البيان (١٩/ ١٣٠)، والنكت والعيون (٤/ ٨٢).

(٣) ينظر: النكت والعيون (٦/ ١٤٨).

(٤) ينظر: المرجع السابق (٤/ ٤٢٤).

(٥) ينظر: معالم التنزيل: للبغوي (٣/ ٦٦٥).

(٦) النكت والعيون (٤/ ٤٢٤).

(٧) ينظر: الإشاعة: لأحمد نوفل ص٧٨.

شائعات الأمل: وتتضمن هذا الشائعات أماني وتطلعات بأن تكون حقيقة، مثل صدور أمر بزيادة الدخل المادي، أو الانتصار في الحروب.

شائعات الكراهية: وهي تهدف إلى زرع جذور الفتنة بين شعبين أو طائفتين أو مذهبين.

الشائعات الوهمية: وهي التي تعبر عن خوف مثل: نشر أعداد ضخمة عن القتلى في الحروب.(١)

كما تصنف الشائعات حسب موضوعها إلى: الشائعات السياسية، والشائعات الجنسية، والشائعات الاقتصادية، والشائعات العسكرية. (٢)

وتصنف الشائعات كذلك حسب سرعة سريانها إلى عدة أنواع، هي:

الشائعات الحابية أو الزاحفة أو البطيئة: وهي التي تنتشر ببطء شديد ويتسع نطاقها حتى تصل إلى جميع الأفراد في جو من السرية.(٣)

الشائعات المندفعة أو السريعة: وهي الشائعة التي تنتشر بسرعة وفي وقت قياسي، مثل شائعات الحوادث والجريمة والانتصار في الحروب. (٤)

الشائعة الغاطسة: وهي الشائعة التي تنتشر في فترة معينة ثم تختفي وتعود الظهور في فترة أخرى، ومنها: الشائعات المرافقة للحروب، أو تشكيل الوزارات.(٥)

وتصنف الشائعات حسب مصادرها إلى عدة أنواع، وهي:
الشائعات القومية: وهي الشائعات التي تدور حول القضايا القومية العامة والأزمات.
الشائعات الشخصية: وهي التي ترمي إلى تحقيق مكاسب شخصية أو مراكز مرموقة لمروجيها.

---

(١) ينظر: الحرب النفسية والشائعات ص٢٠٠-٢٠١.
(٢) ينظر: الإشاعة ص٧٨، والإشاعة وأثرها على أمن المجتمع: لمحمد القحطاني ص٤٦.
(٣) ينظر: الإشاعة ص٧٩، والحرب النفسية في صدر الإسلام (العهد المدني): لمحمد المخلف ص٣٥١.
(٤) ينظر: الإشاعة ص٨٠، والإشاعة وأثرها على أمن المجتمع ص٤٦.
(٥) ينظر: الشائعات: لميشال روكيت ص١٥، والإشاعة ص٨٠.

الشائعات المحلية: وهي التي تدور حول القضايا الخاصة ببلد أو مكان معين.

الشائعات الدولية: وهي التي تنتشر عند حدوث الأزمات الدولية وانتشار الأوبئة ونحو ذلك.(١)

كذلك تصنف الشائعات حسب دلالتها الوظيفية إلى عدة أنواع، هي:

الشائعات المحايدة: وهي التي تنتشر في ظروف القلق والاضطراب، وتنصب على حالة خاصة لا أهمية لها بالنسبة للجمهور ولا تنتشر وإنما تبقى في نطاق ضيق.

الشائعات العدوانية: وهي شائعات مغرضة يطلقها بعضهم وتعبّر عن الكراهية أو العنصرية، مثل تحقير أصحاب البشرة السوداء، وكراهية العرب بقصد التجريح.

الشائعات الفكهة (أو المسلية): وهي التي تهدف لإثارة الضحك فقط. (٢)

ونظراً لتشعب البواعث والدوافع وامتزاج بعضها ببعض في الشائعة الواحدة، فإن أي تصنيف سيكولوجي للشائعات يكون على الدوام قاصراً.

المطلب الثالث: أركان الشائعة

للشائعة أركان يُجمِلها أهل الاختصاص فيما يأتي:

الخبر.

المصدر.

الهدف.

المتلقي.

وسيلة الانتقال. (٣)

---

(١) ينظر: الإشاعة وأثرها على أمن المجتمع ص٤٨، والشائعات ووظيفة المؤسسات الاجتماعية في مواجهتها: لإبراهيم الجويرص١٠-١١.

(٢) ينظر: الإشاعة وأثرها على أمن المجتمع ص٤٨.

(٣) ينظر: الإسلام والشائعة ص٢٥.

وعليه تكون أركان شائعة الإفك على النحو التالي:

الخبر: وهو اتهام أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها والصحابي صفوان بن المعطل بالزنا.

مصدر الشائعة: وهو المنافق عبدالله بن أُبَي بن سلول.

الهدف: وأهداف هذه الشائعة متعدِّدة، أبرزها: النَّيل من رسول الله r وأهله، والصد عن سبيل الله.

المتلقي: وهو مجتمع المدينة.

وسيلة الانتقال: وهي المشافهة عبر قنوات متعددة، منها: عبد الله بن أُبَي سلول وقومه، والمنافقون، وبعض أهل الإيمان.

المبحث الثاني

منهج القرآن في علاج الشائعة في ضوء حادثة الإفك

المطلب الأول: تكذيب الشائعة

يبدأ القرآن الكريم في علاج الشائعات بتكذيبها؛ وذلك لإنهائها واجتثاثها من أصولها ولو بعد حين، وإذا ما أُخذت شائعات الأعراض كنموذج في القرآن يُلاحظ أن التكذيب بالدليل القاطع هو منهج القرآن الكريم وسنة الله في الكون، فهذه عائشة رضي الله عنها أظهر الله براءتها بمعجزة الوحي الإلهي فأنزل الآيات الكريمة التي جعل في مطلعها تسمية ما أشيع عن عائشة رضي الله عنها إفكاً، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾النور:١١، وهذه مريم بنت عمران -عليها السلام- حين اتهمها قومها بالزنا، فقالوا: ﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ ﴾مريم:٢٨، أظهر الله براءتها بمعجزة تكلم عيسى في المهد ليبرئ أمه، قال تعالى: ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ ﴾ مريم:٢٩-٣٠، وحين انتشرت شائعة الزنا في مصر واتهم الناس امرأة العزيز ويوسف، أظهر الله براءته على لسان زوجة العزيز بعد أن سُجن بسبب اتهامها له بمراودتها عن نفسها، وكان ظهور الحق على أعلى المستويات عند ملك البلاد، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ﴾يوسف: ٥٠ – ٥١.

ويعدّ الباحثون في مجال الشائعات تكذيب الشائعة من الطرق الناجحة في مواجهتها، وأكثرها شيوعاً(١)، وقد تميز القرآن في هذا الجانب بثلاثة أمور، هي:

(١) ينظر: الحرب النفسية والشائعات ص٣٣٠.

الأول: عدم تكرار الشائعة نفسها عند تكذيبها باستخدام ذات الألفاظ التي انتشرت بها، ولذلك أعرض القرآن عما أشيع عن عائشة رضي الله عنها، وأطلق عليه مسمى الإفك.

الثاني: استخدام الألفاظ المختصرة في التعبير عن الشائعة المكذَّبة.

الثالث: العناية بالطريق الذي يرد به تكذيب الشائعة، حتى يكون تكذيباً قاطعاً لا يقبل التشكيك فيه، فقد تولى الله تعالى بنفسه تكذيب شائعة الإفك، وفي قصة مريم تحدث الطفل في المهد وكذب الشائعة، وفي قصة يوسف كان التكذيب للشائعة التي مسّته باعتراف امرأة لها مكانتها في المجتمع بحضرة الملك، وهذا من أنجح العلاجات في إنهاء الشائعة أن يكون تكذيبها من جهة لها مكانتها العالية.

المطلب الثاني: العناية بمن مسته الشائعة

من منهج القرآن في علاج الشائعات العناية بمن تمسه الشائعة، سواءً كان فرداً أو جماعة، وتقديم الاهتمام به والعناية بأمره ضمن خطوات علاج الشائعة، ففي حادثة الإفك جاء التهوين والتخفيف على النبي الكريم ﷺ، وعلى عائشة رضي الله عنها وعلى أبويها وذويها، وعلى صفوان بن المعطل، وعلى المجتمع المسلم الذي كره رواج تلك الشائعة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ النور: ١١، وهذه الخيرية لمن مستهم شائعة الإفك حاصلة عند الله وعند الناس(١)، ويظهر هذا الخير من جوانب عدة، منها ما يأتي:

حصول تبرئة لأم المؤمنين من الإفك بقرآن يتلى في محاريب المسلمين وصلواتهم إلى يوم القيامة. (٢)

أن الله رفعها بذلك الإفك وأعلى قدرها وأعظم شأنها وصار لها ذكراً بالطيب والبراءة بين أهل الأرض والسماء.(٣)

(١) ينظر: جامع البيان (١٩/ ١١٥).

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم: لابن كثير (٦/ ٢٥)، وجلاء الأفهام: لابن القيم ص٢٣٨.

(٣) ينظر: جلاء الأفهام ص ٢٣٩.

حصــول قوة الإيمان والثبات لمــن آذاه الناس بالشائعة، ومن تأمــل قول الصديقة، وقد نزلــت براءتها، "فقال لها أبواها: قومــي إلى رسول الله r فقالت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله" (١)، عَلِـم قـوة إيمانها، ومعرفتها بنعمة ربها، وإفـراده بالحمد في ذلك المقام، فلم تبادر إلى القيام إلى حبيبها r، مع شدة محبتها له، وهذا غاية الثبات والقوة. (٢)

أن فيما حصل كفارة للمرمي به، وتمحيصاً للذنوب. (٣)

أن فيه اكتساباً للثواب العظيم؛ لأنه كان بلاء مبيناً ومحنة ظاهرة. (٤)

أن فيه تعظيماً لشأن رسول الله ﷺ، وتطهيراً لأهل البيت. (٥)

أن فيــه كشفــاً للنفوس التي كانت تحيط ببيــت النبوة؛ ولذلك حُبس الوحــي شهراً قبل ظهـور الحقيقة؛ ليزداد المؤمنون الصادقون إيماناً وثباتاً على العدل والصدق، وحسن الظن بالله ورسوله وأهل بيته والصديقين من عباده، ويزداد المنافقون إفكاً ونفاقاً، ويظهر لرسوله وللمؤمنين سرائرهم. (٦)

حصول الفوائد الدينية والأحكام والآداب التي يُعمل بها إلى قيام الساعة. (٧)

المطلب الثالث: تقديم حُسن الظن

إن من خطوات المنهج القرآني في علاج الشائعات خطوة طلب الدليل الباطني الوجداني، وهي خطوة عرض الأمر على القلب واستفتاء الضمير(٨)، والواجب أن يحسن المؤمن الظن

(١) أخرجه البخاري ومسلم في حديث الإفك وقد تقدم تخريجه.

(٢) ينظر: زاد المعاد في هدي خير العباد: لابن القيم (٣/ ٢٣٦).

(٣) ينظر: جامع البيان (١٩/ ١١٥).

(٤) ينظر: الكشاف (٢١٧/٣).

(٥) ينظر: تفسير القرآن العظيم: لابن كثير (٦/ ٢٥).

(٦) ينظر: زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ٢٣٤).

(٧) ينظـر: الكشــاف (٢١٧/٣)، وتيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٦٣). وقد ذكر ابــن حجر في فتح الباري من ذلك فوائد كثيرة مترتبة على قصة الإفك. ينظر: (٤٧٩/٨).

(٨) ينظر: في ظلال القرآن: لسيد قطب (٤/ ٢٥٠١، ٢٥٠٢).

بإخوانه المؤمنين وأخواته المؤمنات الذين هم له بمنزلة النفس(١)، وهذا ما نص عليه القرآن في حادثة الإفك، فقال تعالى:﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ ﴾النور:١٢، وقد اشتملت الآية على توجيهين للمؤمنين والمؤمنات عند مرور مثل تلك الشائعة، التوجيه الأول: متعلق بالباطن، والثاني: متعلق بالظاهر، وقد عد بعضهم هذين التوجيهين من إنكار المنكر بالقلب واللسان.(٢)

أما الأول فقد أرشد الله عباده إذا سمعوا شيئاً من الكلام في عرض مسلم أو مسلمة أن يقيسوا ذلك الكلام على أنفسهم، فإن كان لا يليق بهم فإخوتهم في الدين أولى بالبراءة منه(٣)، وأن يظنوا ببعض خيراً، وهو السلامة مما رموا به، وأن ما معهم من الإيمان المعلوم يدفع ما قيل فيهم من الإفك الباطل(٤)، والثاني: أن يقولوا بألسنتهم: (هذا إفك مبين)، أي: كذب ظاهر فيبرؤا أخاهم المؤمن وأختهم المؤمنة بألسنتهم، ويكذبوا قائل ذلك(٥)، قال القرطبي (ت٦٧١هـ): " فأوجب الله على المسلمين إذا سمعوا رجلاً يقذف أحداً ويذكره بقبيح لا يعرفونه به، أن ينكروا عليه ويكذبوه، وتواعد من ترك ذلك ومن نقله"(٦)، وهذا من الأدب الحسن الذي قل القائم به والحافظ له، وليتك تجد من يسمع فيسكت ولا يشيع ما يسمعه بإخوانه! وكفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع. (٧)

وهذا هو الأَولى في حادثة الإفك فإن ما وقع لأم المؤمنين لم يكن ريبة؛ وذلك أن مجيئها راكبة جهرة على راحلة صفوان بن المعطل في وقت الظهيرة، والجيش بكماله يشاهدون ذلك، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم، لو كان هذا الأمر فيه ريبة لم يكن هكذا جهرة، ولا كانا يقدمان على مثل ذلك على رؤوس الأشهاد، بل كان يكون هذا -لو قُدّر- خفية مستوراً، فتعينَّ

---

(١) ينظر: جامع البيان (١٩/ ١٢٨)، ومعالم التنزيل (٣/ ٣٩٣)، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٣/ ٤٢).
(٢) ينظر: التحرير والتنوير: لابن عاشور (١٨/ ١٧٥).
(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم: لابن كثير (٦/ ٢٧).
(٤) ينظر: تيسير الكريم الرحمن ص٥٦٣.
(٥) ينظر: جامع البيان (١٩/ ١٢٩)، وتيسير الكريم الرحمن ص ٥٦٣.
(٦) الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٢٠٢).
(٧) فتح البيان في مقاصد القرآن: لمحمد صديق خان (٩/ ١٨٣).

أن ما جاء به أهل الإفك مما رموا به أم المؤمنين هو الكذب البحت، والقول الزور، والرعونة الفاحشة والصفقة الخاسرة. (١)

وقد روي أن هذا النظر السديد وقع من أبي أيوب الأنصاري وامرأته – رضي الله عنهما – حيث أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهما عن بعض رجال بني النجار، أن أبا أيوب خالد بن زيد، قالت له امرأته أمّ أيوب: " أما تسمع ما يقول الناس في عائشة؟"، قال: "بلى، وذلك الكذب، أكنت فاعلة ذلك يا أمّ أيوب؟"، قالت: "لا والله ما كنت لأفعله"، قال: "فعائشة والله خير منك". (٢)

وهذه الرواية وغيرها تدل على أن بعض المسلمين رجع إلى نفسه واستفتى قلبه، فاستبعد أن يقع ما نُسب إلى عائشة، وما نسب إلى رجل من المسلمين: من معصية لله وخيانة لرسوله، وارتكاس في حمأة الفاحشة، لمجرد شبهة لا تقف للمناقشة(٣)، وتدل روايات أخرى أن رسول الله ﷺ استشار في أمر عائشة رضي الله عنها بعض الصحابة والصحابيات فقالوا خيراً، فسأل: علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد – رضي الله عنهما – كما جاء في حديث الإفك لدى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: "دعا رسول الله ٢ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي، يسألهما ويستشيرهما في فراق أهله، قالت: فأما أسامة فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم لهم في نفسه، فقال أسامة: أهلك، ولا نعلم إلا خيراً، وأما عليّ فقال: يا رسول الله لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وسل الجارية تصدقك، قالت: فدعا رسول الله ٢ بريرة(٤)، فقال: "أي بريرة، هل رأيت من شيء يريبك؟"، قالت له بريرة: والذي بعثك بالحق، ما رأيت عليها أمراً قط أغمصه(٥) غير أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها، فتأتي

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم: لابن كثير (٦/ ٢٧).

(٢) ينظر: جامع البيان (١٩/ ١٢٩)، وتفسير القرآن العظيم: لابن أبي حاتم (٢٥٤٦/٨)، والإسناد فيه جهالة هؤلاء الرجال من بني النجار.

(٣) ينظر: في ظلال القرآن (٤/ ٢٥٠٢).

(٤) مولاة عائشة – رضي الله عنهما–.

(٥) أي أعيبها به. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر: لابن الأثير (٣/ ٣٨٦)، ولسان العرب (٧/ ٦١) مادة (غمص).

الداجن(١) فتأكله، قالت: فقام رسول الله r من يومه فاستعذر(٢) من عبد الله بن أبي بن سلـول وهو على المنبر، فقال: "يا معشر المسلمين، من يعذرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي، والله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما يدخل على أهلي إلا معي".(٣)

وسأل من الصحابيات كذلك: زينب بنت جحش رضي الله عنها التي لم يمنعها ما يكون بين نساء الرجل الواحد من غيرة وطلب للحظوة عنده من أن تحسن الظن وتقول الحق، قالت عائشة رضي الله عنها: " وكان رسول الله r سأل زينب بنت جحش زوج النبي r عن أمري: ما علمـت؟ أو رأيت؟ فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلا خيراً، قالت عائشة: وهي التي كانت تُساميني(٤) من أزواج النبي r، فعصمها الله بالورع". (٥)

بل إن من نساء الأنصار من كانت تدفع الشائعة بدمعها حتى بلغ من دفعها لها أن تبكي مع عائشة، قالت عائشة رضي الله عنها: " بكيت ليلتين ويوماً، لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، حتـى إني لأظن أن البـكاء فالق كبدي، فبينا أبواي جالسان عندي وأنا أبكي، فاستأذنت علي امـرأة من الأنصار فأذنت لها، فجلست تبكي معـي، قالت: فبينا نحن على ذلك دخل رسول

---

(١) هـي الشاة التي يعلفها النـاس في منازلهم. ينظر: تفسير غريب ما في الصحيحـين البخاري ومسلم: لمحمد بن فتـوح حميـد الأزدي ص ٢١٢، والنهايـة في غريب الحديث والأثر (٢/ ١٠٢)، ولسـان العرب (١٣/ ١٤٨) مادة (دجن).

ومعنى هذا الكلام أنه ليس فيها شيء مما تسألون عنه أصلاً، ولا فيها شيء من غيره إلا نومها عن العجين. ينظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج: للنووي (١٧/ ١٠٩).

(٢) حقيقـة عـذرت: محوت الإسـاءة وطمستها، (استعذر) معنـاه أنه قال: من يعذرني منه أي مـن يقوم بعذري إن كافأتـه على سـوء صنيعه فلا يلومني؟، وقيل معنى مـن يعذرني: من ينصرني والعزيـز الناصر. ينظر: تفسير غريـب ما في الصحيحين البخاري ومسلـم ص٥٣٣، والنهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ١٩٧)، وفتح الباري ٨/ ٤٧٠، ولسان العرب (٤/ ٥٤٨) مادة (عذر).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب المغازي، باب حديث الإفك، ٥/ ١١٦-١٢٠، ح (٤١٤١)، مطولاً)، ومسلم في صحيحه (كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف، ٤/ ٢١٣٣، ح (٢٧٧٠هـ)، مطولاً).

(٤) أي تعالينـي وتفاخـرني، وهـو مفاعلة من السمـو: أي تطاولني في الحظـوة عنده. ينظر: غريـب الحديث: لابن الجوزي (١/ ٥٠٠)، والنهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٤٠٥)، ولسان العرب (١٤/ ٣٩٧)، مادة (سما).

(٥) أخرجه الشيخان في حديث الإفك، وتقدم تخريجه.

الله ﷺ علينا فسلم ثم جلس، قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني بشيء ..." الخ الحديث.(١)

وإحسان الظن مطلوب في كثير من الأحوال، وهو في وقت انتقال الشائعات المتعلقة بالأعراض آكد، فقد أذن الله للمؤمنين أن يظنّ بعضهم ببعض الخير وأن يقولوه، وإن لم يكونوا من قيله فيهم على يقين(٢)، ونهى عن إساءة الظن، فقال:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾الحجرات: ١٢، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث"(٣)، ولذلك فالظن بالمؤمنين والمؤمنات وقت انتشار شائعة من الشائعات تطعن فيهم هو سلامتهم من ذلك امتثالاً قال القرطبي (ت٦٧١هـ): "ولأجل هذا قال العلماء: إن الآية أصل في أن درجة الإيمان التي حازها الإنسان، ومنزلة الصلاح التي حلها المؤمن، ولبسة العفاف التي يستتر بها المسلم لا يزيلها عنه خبر محتمل وإن شاع، إذا كان أصله فاسداً أو مجهولاً".(٤)

هذه هي الخطوة الأولى في المنهج الذي يفرضه القرآن لمواجهة الأمور وهي خطوة الدليل الباطني الوجداني، فأما الخطوة الثانية فهي طلب الدليل الخارجي والبرهان الواقعي يقول الله تعالى: ﴿ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ النور: ١٣(٥)، كما سيأتي في المطلب التالي، وهاتان الخطوتان غفل عنهما بعض المؤمنين في حادثة الإفك وتركوا الخائضين يخوضون في عرض رسول الله ﷺ، وهو أمر عظيم لولا لطف الله لمس الجماعة كلها البلاء العظيم. (٦)

---

(١) أخرجه الشيخان في حديث الإفك، وتقدم تخريجه.

(٢) ينظر: جامع البيان (٢٢/ ٣٠٤).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الأدب، ١٩/٨، ح(٦٠٦٦)، وفيه زيادة)، ومسلم في صحيحه (كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش ونحوها، ١٩٨٥/٤، ح (٢٥٦٣)، وفيه زيادة).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٢٠٣).

(٥) ينظر: في ظلال القرآن (٤/ ٢٥٠٢).

(٦) ينظر: المرجع السابق.

المطلب الرابع: التأكيد على ضرورة التروي وطلب الدليل

يُرشد القرآن الكريم الناس في وقت انتشار الشائعات إلى التروي وعدم العجلة، وضرورة طلب الدليل الخارجي، وذلك كله بعد خطوة عرض الأمر على القلب واستفتاء الضمير، (١) ، وهذه الآية أصل عظيم في تعامل الناس بعضهم مع بعض من عدم الإصغاء إلى كل ما يروى ويخبر به(٢)، فينبغي إذا جاء الخبر من الفاسق أن يُتثبت في خبره، ويُطلب دليله، ولا يؤخذ مجردًا، فإن في ذلك خطرًا كبيرًا يحصل به من تلف النفوس والأموال بغير حق، وإصابة قوم براء مما قُذفوا به ما يكون سببًا للندامة، بل الواجب عند خبر الفاسق، التثبت والتبين، فإن دلت الدلائل والقرائن على صدقه، عمل به وصدق، وإن دلت على كذبه كذب، ولم يعمل به.(٣)

وقد ورد في هذه الآية قراءتان، وهما: (فتثبتوا)، والقراءة الأخرى (فتبينوا)(٤)، والمراد من التبين التعرف والتفحص، ومن التثبت: الأناة وعدم العجلة، والتبصر في الأمر الواقع والخبر الوارد حتى يتضح ويظهر(٥)، ومؤدى القراءتين واحد(٦)، وكلاهما مهم في قبول الأخبار قبل إشاعتها.

والنهي عن العجلة في بث الأمور وإشاعتها ورد في آية أخرى وهي قوله تعالى:﴿ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ

---

(١) ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط، لكنها عامة في غيره كما قال ابن عطية (ت٥٤٢هـ): " ثم هي باقية فيمن اتصف بهذه الصفة غابر الدهر"، وفي تنكير (الفاسق) و(النبأ) في الآية تعميم في الفساق والأنباء، كأنه قال: أيّ فاسق جاءكم بأيّ نبأ. ينظر: جامع البيان (٢٢/ ٢٨٩)، وتفسير القرآن العظيم: لابن أبي حاتم ٣٣٠٣/١٠، والنكت والعيون ٣٢٨/٥، والكشاف (٤/ ٣٦٠)، والمحرر الوجيز (٥/ ١٤٧)، وزاد المسير في علم التفسير (٤/ ١٤٦)، وتفسير القرآن العظيم: لابن كثير (٣٧٠/٧).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٣١).

(٣) ينظر: جامع البيان (٢٢/ ٢٨٩)، وزاد المسير في علم التفسير (٤/ ١٤٦)، والجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٣١٢)، وفتح القدير: للشوكاني (٥/ ٧١)، وتيسير الكريم الرحمن ص٨٠٠.

(٤) قرأ حمزة والكسائي وخلف (فتثبتوا) من التثبت، وقرأ الباقون (فتبينوا) من التبين. ينظر: التيسير ص٩٧، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢٥١)، وإتحاف فضلاء البشر ص٢٤٤.

(٥) ينظر: فتح القدير (٥/ ٧١).

(٦) ينظر: الكشاف (٤/ ٣٦٠)، والتحرير والتنوير (٢٦/ ٢٣٢).

يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ ﴾ النساء:٨٣، فذكر الله أنه ينبغي للجماعة إذا جاءهم أمر من الأمور المهمة والمصالح العامة مما يتعلق بالأمن وسرور المؤمنين، أو بالخوف الذي فيه مصيبة عليهم أن يتثبتوا ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر، بل يردونه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم، أهلِ الرأي والعلم والنصح والعقل والرزانة، الذين يعرفون الأمور ويعرفون المصالح وضدها، فإن رأوا في إذاعته مصلحة ونشاطاً للمؤمنين وسروراً لهم وتحرزاً من أعدائهم فعلوا ذلك، وإن رأوا أنه ليس فيه مصلحة، أو فيه مصلحة ولكن مضرته تزيد على مصلحته، لم يذيعوه، وفي هذا نهي عن العجلة والتسرع لنشر الأمور من حين سماعها، والأمر بالتأمل قبل الكلام والنظر فيه، هل هو مصلحة، فيُقْدِم عليه الإنسان؟ أم لا فيحجم عنه؟(١)، وكذلك جاءت السنة بالنهي عن العجلة وعدم التأني، فعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: " التأني من الله، والعجلة من الشيطان".(٢)

وفي الشائعات المتعلقة بالأعراض بيّن الشرع أن التثبت يكون بالدليل وهو وجود أربعة شهداء ولا يجوز أن يكونوا أقل من أربعة، وأن يكونوا ذكوراً فلا تصح فيه شهادة النساء بحال، وأن يكونوا أحراراً عدولاً يصفون الزنا(٣)، وهذا كله من تعظيم حرمة عرض المسلم، بحيث لا يجوز الإقدام على رميه، من دون توفر نصاب الشهادة بالصدق(٤)، قال تعالى: ﴿ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ النور:١٣، أي: هلا جاء هؤلاء العصبة الذين جاءوا بالإفك ورموا عائشة بالبهتان، بأربعة شهداء يشهدون على مقالتهم فيها وما رَمَوها به، فإذا لم يأتوا بالشهداء الأربعة على حقيقة ما رَمَوْها به فأولئك: أي: فالعُصْبة الذين رَمَوها بذلك عند الله هم الكاذبون فيما جاءوا به من الإفك.(٥)

(١) ينظر: تيسير الكريم الرحمن ص١٩٠.

(٢) أخرجه أبو يعلى الموصلي في مسنده (٢٤٧/٧) ح (٤٢٥٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢١١/٦)، ح (٤٠٥٨)، وفي السنن الكبرى (١٧٨/١٠)، ح (٢٠٢٧٠)، قال الألباني: إسناده حسن. ينظر: السلسلة الصحيحة: للألباني (٤٠٤/٤).

(٣) ينظر: المغني: لابن قدامة (٦٩/٩)، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٣٧٣/٥).

(٤) ينظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٥٦٣.

(٥) ينظر: المرجع السابق ص ١٩٠.

فجعل الله التفصلة بين الرمي الصادق والكاذب: ثبوت شهادة الشهود الأربعة وانتفاءها، والذين رموا عائشة رضي الله عنها لم تكن لهم بينة على قولهم، فقامت عليهم الحجة.(١)

ويطلب الشرع ممن يسمع شائعة كشائعة الإفك ألا يتردد في دفعها وإنكارها؛ لأن الظاهر المعلوم في الشرع: وجوب تكذيب القاذف بغير بينة، والتنكيل به إذا قذف امرأة محصنة من نساء المسلمين(٢)، وقد يعجز الرجل عن إقامة البينة وهو صادق في قذفه، ولكنه في حكم الشرع وظاهر الأمر كاذب لا في علم الله تعالى، قال القرطبي (ت٦٧١هـ): " وهو سبحانه إنما رتب الحدود على حكمه الذي شرعه في الدنيا لا على مقتضى علمه الذي تعلق بالإنسان على ما هو عليه، فإنما يبنى على ذلك حكم الآخرة، ومما يقوي هذا المعنى ويعضده ما خرجه البخاري عن عمر بن الخطاب أنه قال: " أيها الناس إن الوحي قد انقطع وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم، فمن أظهر لنا خيراً أمناه وقربناه، وليس لنا من سريرته شيء الله يحاسبه في سريرته، ومن أظهر لنا سوءاً لم نؤمنه ولم نصدقه، وإن قال إن سريرته حسنة"(٣)، وأجمع العلماء أن أحكام الدنيا على الظاهر، وأن السرائر إلى الله.(٤)

إن منهج القرآن في وقت رواج الشائعات منهج منطقي؛ يطلب خطوتين من كل متلقٍّ للشائعات، الأولى: عرض الأمر على القلب واستفتاء الضمير، والأخرى: خطوة التثبت بالبينة والدليل، وطلب الدليل المادي يقطع كل شائعة من جذورها.

المطلب الخامس: التحذير من التهاون في نقل الشائعة

لقد حذر القرآن الكريم من التهاون وهو التساهل(٥) في نقل الشائعة، حيث قال تعالى في حادثة الإفك: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ

(١) ينظر: الكشاف (٣/ ٢١٩).

(٢) ينظر: المرجع السابق.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الشهادات، باب الشهداء العدول، (١٦٩/٣)، ح (٢٦٤١)، عن عمر بن الخطاب، بنحوه).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٢٠٣).

(٥) ينظر: لسان العرب (١٣/ ٤٣٩) مادة (هـ و ن)، وشمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم: للحميري (١٠/ ٧٠١٠).

عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾النور:١٥، والهـيّن: مشتق من الهوان، وهوان الشيء عدم توقيره والمبالاة بشأنه، يقـال: هان على فلان كذا، أي لم يعد ذلـك أمراً مهماً، والمعنى: شيئاً هيناً(١)، فلا يُظن أن روايـة الشائعة باللسـان وتلقي الناس لها عـن بعضهم البعض هين سهـل، لا إثم عليهم فيه ولا حـرج، بل هو عند الله عظيم من الأمـر، عظيم في الوزر(٢)، وهذا فيه الزجر البليغ عن تعاطـي بعض الذنوب على وجـه التهاون بها، فإن العبـد لا يفيده حسبانـه شيئاً، ولا يخفف مـن عقوبة الذنب، بل يضاعف الذنب، ويسهل عليـه مواقعته مرة أخرى (٣)، قال القرطبي (ت٦٧١هـ): " الضمير في (تحسبونه) عائد على الحديث والخوض فيه والإذاعة له، و(هيناً) أي سيئاً يسيراً لا يلحقكم فيه إثم، (وهو عند الله) في الوزر (عظيم)". (٤)

وإذا كان التهـاون في نقل الشائعة مذمومـاً؛ فإنه في حق شائعة الأعراض أكثر ذمّاً، وفي حادثة الإفك أعظم جُرماً؛ لأنها تخص زوجة النبي ﷺ، خاتم الأنبياء وسيد المرسلين، قال ابن كثير (ت٧٧٤هـ): " فعظيم عند الله أن يقال في زوجة رسوله ما قيل، الله يغار لهذا، وهو سبحانـه وتعالى لا يقدّر على زوجة نبي مـن أنبيائه ذلك حاشا وكلا، ولما لم يكن ذلك فكيف يكون هذا في سيدة نساء الأنبياء، وزوجة سيد ولد آدم على الإطلاق في الدنيا والآخرة؟!"(٥)

وقـد صـوّر القرآن التهـاون في نقل الشائعـات بقوله تعـالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾النـور: ١٥، إذ فيـه إشارة إلى المسارعـة في نقـل الكلام دون تدبره، وهي صـورة فيها التهاون وقلة التحـرج، وتناول أعظم الأمـور وأخطرهـا بـلا مبالاة ولا اهتمـام، فهو لسان يتلقـى عن لسان، بلا تدبـر ولا ترو ولا فحص ولا إنعام نظر، حتـى لكأن القول لا يمر على الآذان ولا تتدبـره القلوب، تقوله الأفواه قبل أن يستقر في المدارك، وقبل أن تتلقاه العقول، ولقد كان ينبغي أن تجفل القلوب من مجرد

(١) ينظر: التحرير والتنوير (١٨/ ١٧٩).
(٢) ينظر: جامع البيان (١٩/ ١٣٢)، ومعالم التنزيل (٣/ ٣٩٤).
(٣) ينظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٥٦٤.
(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٢٠٤).
(٥) تفسير القرآن العظيم: لابن كثير (٦/ ٢٨).

سماعه، وأن تتحرج من مجرد النطق به(١)، وفي الحديث: "إن العبد ليتكلم بالكلمة، ما يتبين ما فيها، يهوي بها في النار، أبعد ما بين المشرق والمغرب"(٢)، فقوله ﷺ: "ما يتبين ما فيها" معناه: لا يتدبرها ويفكر في قبحها، ولا يخاف ما يترتب عليها، وهذا كالكلمة عند السلطان وغيره من الولاة وكالكلمة تقذف، أو معناه: كالكلمة التي يترتب عليها إضرار مسلم ونحو ذلك، فينبغي لمن أراد النطق بكلمة أو كلام أن يتدبره في نفسه قبل نطقه فإن ظهرت مصلحته تكلم وإلا أمسك.(٣)

وفي التعبير عن حالة نقل الشائعة تفظيع صورة حديثهم في الإفك، من خلال أمرين:

الحرص والاندفاع لتلقي الأخبار، فإن أصل (تلقونه): تتلقونه بتاءين حذفت إحداهما، وأصل التلقي أنه التكلف للقاء الغير، ثم يطلق التلقي على أخذ شيء باليد من يد الغير، فشبه الخبر بشخص وشبه الراوي للخبر بمن يتهيأ ويستعد للقائه فجعلت الألسن آلة للتلقي على طريقة تخييلية بتشبيه الألسن في رواية الخبر بالأيدي في تناول الشيء.

الحرص على نشر الخبر بلا ترو ولا تريث، حيث جُعلت الألسن آلة للتلقي مع أن تلقي الأخبار بالأسماع؛ بسبب أن غاية وهدف هذا التلقي التحدث بالخبر.(٤)

وهذان الأمران لا يمكن التهاون بهما لأنهما: تكلم بالباطل، وقول بلا علم. (٥)

---

(١) ينظر: في ظلال القرآن (٤/ ٢٥٠٢-٢٥٠٣).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الزهد والرقائق، باب التكلم بالكلمة يهوي بها في النار، (٤/٢٢٩٠)، ح (٢٩٨٨)، من حديث أبي هريرة t).

(٣) ينظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١٨/ ١١٧).

(٤) ينظر: التحرير والتنوير (١٨/ ١٧٨)

(٥) ينظر: تيسير الكريم الرحمن ص٥٦٤.

المطلب السادس: التأكيد على مسؤولية الفرد في إيقاف الشائعة.

يركِّز القرآن الكريم في علاج الشائعات على ناقل الشائعة أكثر من مطلقها، ويطلب من المؤمن إذا مر به كلام في أخيه المؤمن أو أخته المؤمنة- وخاصة فيما يمس أعراضهما- أموراً ثلاثة بعد إحسان الظن المطلوب منه كما تقدم، وهذه الأمور الثلاثة ذُكرت في قوله تعالى في حادثة الإفك﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ ﴾ النور:١٦، وهي:

عدم ترديد الشائعة: وذلك بأن يعرف أن الحديث في مثل هذا الأمر ليس له، ولا يحل له الكلام فيه(١)، ولا ينبغي أن يخوض فيه، ولا يتعاطاه ولو على جهة الحكاية والنقل(٢)، وأنه مسؤول عن إيقاف الشائعة عند مرورها به بأن ينكرها، ويكذب الخائضين فيها ويقول لهم على سبيل الزجر والموعظة: (ما يكون لنا أن نتكلم بهذا) بصيغة ضمير الجمع (لنا) لأن المراد به: القائلون والمخاطبون، فأما المخاطبون فلأنهم تكلموا به حين حدثوهم بخبر الإفك، والمعنى: ما يكون لكم أن تتكلموا بهذا، وأما المتكلمون فلتنزههم من أن يجري ذلك البهتان على ألسنتهم.(٣)

وإنما وجب الامتناع عن نقل الشائعات، لأمور عدة، منها(٤):

أنها سبب لإيذاء الإنسان ومن يتصل به من غير جناية تم التأكد منها، وذلك حرام.

أنه إقدام على ما يجوز أن يكون سبباً للضرر مع الاستغناء عنه، والعقل يقتضي التباعد عنه؛ لأن القاذف بتقدير كونه صادقاً لا يستحق الثواب على صدقه، بل يستحق العقاب لأنه أشاع الفاحشة، وبتقدير كونه كاذباً فإنه فيه يستحق العقاب العظيم، ومثل ذلك مما يقتضي صريح العقل الاحتراز عنه.

أنه تضييع للوقت بما لا فائدة فيه.

---

(١) ينظر: جامع البيان (١٩/ ١٣٢).
(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٢٠٥)، وفتح القدير (٤/ ١٧).
(٣) ينظر: التحرير والتنوير (١٨/ ١٨٠).
(٤) ينظر: مفاتيح الغيب: للرازي (٢٣/ ٣٤٣).

أن في إظهار محاسن الناس وستر مقابحهم تخلقاً بالأخلاق الحميدة، قال الرازي (ت٦٠٦هـ): " فهذه الوجوه توجب على العاقل أنه إذا سمع القذف أن يسكت عنه وأن يجتهد في الاحتراز عن الوقوع فيه". (١)

أن يسبح الله: حيث أرشد القرآن الكريم إلى التسبيح في مثل هذه المواقف (سبحانك) أي: تنزيهاً لك يا ربّ وبراءة إليك مما جاء به هؤلاء(٢)، والتسبيح هنا يحتمل التعجب(٣) من أولئك الذين جاءوا بالإفك، وأصله التنزيه لله سبحانه، ثم كثر حتى استعمل في كل متعجب منه(٤)، ومن فوائد استعمال التسبيح دون غيره في وقت انتشار الشائعات، ما يأتي:

إعلان المتكلم البراءة منها بتمثيل حال نفسه بحال من يشهد الله على ما يقول فيبتدئ بخطاب الله بتعظيمه ثم بقول: (هذا بهتان عظيم)؛ تبرؤاً من لازم ذلك وهو مبالغة في إنكار الشيء والتعجب من وقوعه. (٥)

أن المؤمن إن علق بنفسه شيء منها- وسوسة أو خيالاً- يطرده بالتسبيح.

تنزيه الرب عن أن يعصى. (٦)

أن في التسبيح في حادثة الإفك على وجه الخصوص بيان فضل عائشة رضي الله عنها حيث نزهها باللفظ الذي نزه به نفسه، وهو لفظ (سبحان الله) (٧)، وفيه تعظيم لما رميت به عائشة رضي الله عنها، قال الآجري (ت٣٦٠ه) في الشريعة: " سمعت أبا عبد الله بن شاهين - رحمه الله - يقول: إن الله تبارك وتعالى لم يذكر أهل الكفر بما رموه به إلا سبح نفسه تعظيماً لما رموه به، مثل قوله:﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦ ﴾" البقرة: ١١٦، قال: فلما رميت عائشة رضي الله عنها بما رميت به من الكذب سبح نفسه تعظيماً لذلك، فقال: ﴿ وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا

(١) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٣٤٣).
(٢) ينظر: جامع البيان (١٩/ ١٣٢).
(٣) ينظر: معالم التنزيل (٣/ ٣٩٤)، والكشاف (٣/٢٢٠)، وزاد المسير (٣/٢٨٤).
(٤) ينظر: فتح القدير (٤/ ١٧).
(٥) ينظر: التحرير والتنوير (١٨/ ١٨١).
(٦) ينظر: تفسير مقاتل بن سليمان (٣/ ١٩١).
(٧) ينظر: بحر العلوم: للسمرقندي (٢/ ٥٠٣).

سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ ﴿١٦﴾ ﴾" النور:١٦، فسبح نفسه جل وعز تعظيماً لما رميت به عائشة رضي الله عنها".(١)

أن يحكم على مثل تلك الشائعة بأنها بهتان عظيم(٢)، وقد وصف الله شائعات الأعراض بأنها (بهتان عظيم) في أكثر من موضع، في حادثة الإفك هنا، وفي قوله تعالى في شأن مريم - عليها السلام -: ﴿ وَبِكُفۡرِهِمۡ وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا ﴿١٥٦﴾ ﴾ النساء:١٥٦(٣)، والبهتان: هو أن يقال في الإنسان ما ليس فيه، أي: هذا كذب عظيم(٤)، يبهت ويُتحير من عظمته(٥)، ووصف البهتان بأنه عظيم معناه أنه عظيم في وقوعه، أي بالغ في كُنه البهتان مبلغاً قوياً.

وإنما كان عظيماً لأنه مشتمل على منكرات كثيرة وهي: الكذب، وكون الكذب يطعن في سلامة العرض، وكونه يسبب إحَناً عظيمة بين المفترين والمفترى عليهم بدون عذر، وكون المفترى عليهم من خيرة الناس وانتمائهم إلى أخير الناس من أزواج وآباء وقرابات، وأعظم من ذلك أنه في حادثة الإفك اجتراء على مقام النبي ﷺ ومقام أم المؤمنين رضي الله عنها(٦)

وقد جاء في الروايات أن أبا أيوب الأنصاري قال: (سبحانك هذا بهتان عظيم) (٧)، فقد أخرج الطبراني والواحدي عن عروة أن عائشة رضي الله عنها حدثته بحديث الإفك، وقالت فيه:" وكان أبو أيوب الأنصاري حين أخبرته امرأته وقالت: يا أبا أيوب ألم تسمع بما تحدث الناس؟ قال: وما يتحدثون؟ فأخبرته بقول أهل الإفك، فقال: ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهذا بهتان عظيم، قالت: فأنزل الله ﴿ وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن

(١) الشريعة: للآجري (٥/ ٢٤١٨).
(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٢٠٥).
(٣) ينظر: مفاتيح الغيب (١١/ ٢٥٩).
(٤) ينظر: فتح القدير (٤/ ١٧)، والتحرير والتنوير (١٨/ ١٨١).
(٥) ينظر: معالم التنزيل (٣/ ٣٩٤).
(٦) ينظر: التحرير والتنوير (١٨/ ١٨١).
(٧) ينظر: تفسير القرآن: للسمعاني (٣/ ٥١٢)، ومعالم التنزيل (٣/ ٣٩٤)، وزاد المسير (٣/ ٢٨٤)، وفتح الباري (٨/ ٤٧٠).

تَتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ ﴾ النـور:١٦"(١)، وقيـل أن غـيره من الصحابة قالوا ذلك، ومنهم: أسامة بن زيد(٢)، وقيل: سعد بن معاذ(٣)، وقيل: زيد بن حارثة(٤)، وقيل: أبي بن كعب y، قال ابن حجر (ت٨٥٢هـ): "فإن ثبت فقد اجتمع ممن قال ذلك ستة: أربعة مـن الأنصار ومهاجريان"، يعنـي بالمهاجريين: زيداً وأسامـة (٥)، وعلى كلٍ فقد وافق فعل بعض الصحابةy ما جاء به الهدي القرآني.

المطلب السابع: ترتيب العقوبات النفسية والشرعية

إن النفـس البشريـة بطبيعتها قـد لا ترتدع عن الذنـب إلا بوجود عقـاب يردعها عنه، ولذلـك سلك القرآن الكريم في تصديـه للشائعات وعلاجها مسلك ترتيب العقوبات النفسية والشرعية، ليكون العقاب الرادع متعلقاً بالنفس والجسد.

ومن أبرز العقوبات النفسية التي جاءت في القرآن الكريم في علاج الشائعات، ما يأتي:

حصـول اللـوم والتأنيب لناقل الشائعة، وهـو ألمٌ قاسٍ على النفـس، خاصة إذا جاءها ممـن تهابـه وتعظمه وهو الله، وقـد عاتب الله المؤمنين الذين تناقلـوا الشائعات في أكثر من موضـع، فقـال:﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ ﴾ النور:١٦.

معاتبـة مروجـي الشائعـات بتذكيرهـم بوصف الإيمـان؛ فـإن الإيمان يصـدّ عن كل قبيـح(٦)، قال تعـالى:﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ النور:١٧، ففيه

(١) أخرجـه الطـبراني في المعجم الكبـير (٢٣/ ٧٤ - ٧٨)، والواحدي في أسباب النزول صـ ٣٢٣، وإسناده حسن. ينظر: أنيس الساري (تخريج أحاديث فتح الباري): لنبيل البصارة (١١/ ١٠٦٧).

(٢) ينظر: المعجم الكبير: للطبراني (١٤٣/٢٣)، وروح المعاني: للآلوسي (٩/ ٣١٦).

(٣) ينظر: المعجـم الكبير: للطبراني (١٤٤/٢٣)، وتفسير القرآن العظيم: لابن أبي حاتم (٢٥٤٩/٨)، وزاد المسير (٢٨٤/٣)، وفتح الباري (٤٧٠/٨)، وروح المعاني (٩/ ٣١٦).

(٤) ينظر: تاريخ المدينة: لابن شبة ص٣٢٠، وفتح الباري (٣٤٤/١٣).

(٥) فتح الباري (٣٤٤/١٣).

(٦) ينظر: الكشاف (٣/ ٢٢١)، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل: للنسفي (٢/ ٤٩٤).

تقريع لمن خاض في الإفك وتذكير بما يوجب ترك العود وهو الإيمان(١)، لأن من شرط الإيمان ترك قذف المحصنة وإشاعة الإفك عنها.(٢)

توعد مطلق الشائعة وتخويفه، قال تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ النور:١١، أي: والذي تحمل معظم ذلك الإثم والإفك منهم هو الذي بدأ بالخوض فيه(٣)، وكان يجمعه ويستوشيه ويذيعه ويشيعه(٤)، فله من الله عذاب عظيم يوم القيامة(٥)، والأكثرون على أن الذي تولى كبره من عصبة الإفك هو عبد الله بن أبيّ بن سلول؛ قال الطبري (ت٣١٠هـ): "وذلك أنه لا خلاف بين أهل العلم بالسير أن الذي بدأ بذكر الإفك، وكان يجمع أهله ويحدثهم، عبد الله بن أُبي ابن سلول، وفعله ذلك على ما وصفت كان توليه كبر ذلك الأمر".(٦)

كما يشمل الوعيد والتهديد ناقلي الشائعات أيضاً، قال تعالى: ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ النور:١٧، وقال:﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾ النور:١٤.

التشنيع على ناقل الشائعة، قال تعالى﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ النور:١١، حيث سمى الله الشائعة إفكاً، وفي ذلك تنفير منها؛ لأن الإفك: هو الكذب الشنيع.(٧)

حصول الندم بسبب أخذ الشائعات ونقلها دون تثبت، والندم: هو حالة نفسية فيها

(١) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل: للبيضاوي (٤/ ١٠١)، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل (٢/ ٤٩٤).
(٢) ينظر: التفسير الوسيط: للواحدي (٣/ ٣١٢)، وزاد المسير في علم التفسير (٣/ ٢٨٥).
(٣) ينظر: جامع البيان (١٩/ ١١٦).
(٤) ينظر: تفسير القرآن العظيم: لابن كثير (٢٥/٦).
(٥) ينظر: جامع البيان (١٩/ ١١٧).
(٦) المرجع السابق (١٩/ ١٢٠)، وينظر: زاد المسير ٢٨٣/٣، وتفسير القرآن العظيم: لابن كثير (١٩/٦).
(٧) ينظر: تيسير الكريم الرحمن ص٥٦٣.

الأسف على فعل صدر(١)، والندم الحاصل بسبب أذى الأبرياء هو غم يصحب الإنسان على اللزوم والدوام مع تمن دائم أنه لم يقع؛ لأن تركيب (ندم) يدورُ معَ الدوام(٢)، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ الحجرات: ٦، فلا يقول أحد من الناس هب أني أصبت قوماً، فماذا عليّ؟ بل عليك منه الهم الدائم، والحزن المقيم، ومثل هذا الشيء واجب الاحتراز منه. (٣)

هذه هي أبرز العقوبات والآلام النفسية التي يعيشها ناقل الشائعة؛ أما العقوبات الشرعية ولا سيما في الشائعات المتعلقة بالأعراض كحادثة الإفك، فمن أبرزها:

اكتساب الآثام، ولكل شخص نقل الشائعة نصيبه من الإثم بقدر خوضه فيها، وأنه سيعاقب على ما قال(٤)، يقول الله تعالى في حادثة الإفك﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ النور:١١، وفي الشائعات التي تمس أعراض المؤمنات يعد ذلك من القذف وهو من الكبائر، قال تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْغَـٰفِلَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ النور:٢٣، وقال ﷺ : "اجتنبوا السبع الموبقات"، وذكر منهن: قذف المحصنات المؤمنات الغافلات".(٥)

العذاب الأليم في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ النور: ١٩، وسبب هذا العذاب الأليم أن الذين يرمون المحصنات – وبخاصة أولئك الذين تجرأوا على رمي بيت النبوة الكريم – إنما يعملون على زعزعة ثقة المجتمع بالخير والعفة والنظافة وعلى

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٣٢).

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: لأبي السعود (٨/ ١١٨).

(٣) ينظر: محاسن التأويل: للقاسمي (٨/ ٥٢٤).

(٤) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٣/ ٢٨٣)، وتفسير القرآن العظيم: لابن كثير (٦/ ٢٥)، وتيسير الكريم الرحمن ص ٥٦٣.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الحدود، باب قذف المحصنات، (١٧٦/٨)، ح (٦٨٥٧))، وأخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، (٩٢/١)، ح (١٤٥)).

إزالة التحرج من ارتكاب الفاحشة، وذلك عن طريق الإيحاء بأن الفاحشة شائعة فيه، بذلك تشيع الفاحشة في النفوس، لتشيع بعد ذلك في الواقع(١)، فلذلك توعدهم بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة، أما عذاب الدنيا فهي الحد الشرعي للقاذف الذي لم يأت بالبينة وهي الشهود الأربعة كما تقدم، وقد جاء ذلك في قوله تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤ ﴾ النور:٤، وأما عذاب الآخرة فهو إلى الله.

المطلب الثامن: وجوب أخذ العظة من التجارب

من منهج القرآن الكريم في أحكامه أنه يبين الآيات المشتملة على الأحكام والوعظ والزجر والترغيب والترهيب، ويوضحها للناس توضيحاً جلياً(٢)، ولذلك لم ينه عن تناقل الشائعات قبل أن يقدِّم نموذجاً له وقعه، وتمت تجربته ومر الناس بتبعاته، قال تعالى: ﴿ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٨ ﴾ النور:١٨، وفي ذلك يقول ابن زيد (ت١٨٢هـ): "والذي هو خير لنا من هذا، أن الله أعلمنا هذا لكيلا نقع فيه، لولا أن الله أعلمناه لهلكنا كما هلك القوم، أن يقول الرجل: أنا سمعته ولم أخترقه ولم أتقوله، فكان خيرًا حين أعلمناه الله، لئلا ندخل في مثله أبداً، وهو عند الله عظيم".(٣)

والنهي عن أمر بعد وقوعه أبلغ في الموعظة، فبعد أن بيّن الله ما في خبر الإفك من تبعات لحق بسببها للذين جاءوا به والذين تقبلوه التوبيخ والتهديد، وافتضاح للذين روجوه، وانتفاع للمؤمنين بذلك، أعقب ذلك كله بتحذير المؤمنين من العود إلى مثله ونظيره من المجازفة في التلقي، ومن الاندفاع وراء كل ساع دون تثبت، فقال تعالى: ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧ ﴾النور:١٧، والوعظ المتعارف عليه هو: الكلام الذي يطلب به تجنب المخاطَب به أمراً قبيحاً(٤)، أو حالة يعرف منها المرء مواقع الزلل فينتهي عن اقتراف

(١) ينظر: في ظلال القرآن (٢٥٠٣/٤).

(٢) ينظر: تيسير الكريم الرحمن ص٥٦٤.

(٣) جامع البيان (١٩/ ١٣٣).

(٤) ينظر: التحرير والتنوير (١٨/ ١٨١-١٨٢).

أمثالهـا(١)، لكن العظة في الآية متضمنة معنى التحذير(٢)، والنهي(٣)، وقال ابن عباس : التحريم(٤)، فهو نهي مقترن بالوعيد(٥)؛ لعظم هذا الذنب.

والمعروف عند الناس أن الوعظ يكون بالترغيب والترهيب ونحو ذلك، لا بالأمر والنهي، لكن اقتضى المقام العظة بما تلين به القلوب وهو أمر الله ونهيه؛ فإنهم إذا سمعوا الأمر خافوا مـن سخـط الله في عدم امتثاله، وطمعوا فيمـا عند الله من الثواب في امتثالـه، وإذا سمعوا النهـي خافـوا من سخـط الله في عدم اجتنابه، وطمعـوا فيما عنده من الثـواب في اجتنابه، فحداهـم حادي الخوف والطمع إلى الامتثال، فلانـت قلوبهم للطاعة خوفاً وطمعاً(٦)، وقد اختصت هذه الموعظة في حادثة الإفك بخصائص، منها:

التصريـح بأنها موعظة من عند الله قال السعدي (ت١٣٧٦هـ): "والموعظة إذا جاءت مـن الله ونعم المواعظ والنصائح من ربنا فيجب علينا مقابلتها بالقبول والإذعان، والتسليم والشكر له، على ما بين لنا ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾ النساء:٥٨."(٧)

تعليقهـا بالإيمـان، والغرض من ذلـك التهييج والإلهاب لهم في عدم العـودة لمثله أبداً؛ لأنهـم حريصون علـى إثبات إيمانهم(٨)، فالمؤمنون لا يمكن أن يُكشف لهم عن بشاعة عمل كهذا الكشف، وأن يُحذّروا منه مثل هذا التحذير، ثم يعودوا إليه وهم مؤمنون.(٩)

تفصيل هذه الموعظة في آيات أخرى، كقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ

(١) ينظر: المرجع السابق (١٨/ ٢٣٠).
(٢) ينظر: المرجع السابق (١٨/ ١٨٢).
(٣) ينظر: جامع البيان (١٩/ ١٣٣)، ومعالم التنزيل (٣/ ٣٩٤).
(٤) ينظر: معالم التنزيل (٣/ ٣٩٤)، وتفسير القرآن العظيم: لابن كثير (٦/ ٢٩).
(٥) ينظر: تفسير القرآن العظيم: لابن كثير (٦/ ٢٩).
(٦) ينظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٢/ ٤٣٨).
(٧) تيسير الكريم الرحمن ص٥٦٤.
(٨) ينظر: التحرير والتنوير (١٨/ ١٨٢).
(٩) في ظلال القرآن (٤/ ٢٥٠٣).

ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ النـــور: ١٩، وقوله:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ النور: ٢٣.(١)

تضمينها معنى النهي المقترن بالوعيد؛ تعظيماً لذنب من لم يجتنب الشائعات.

(١) ينظر: التحرير والتنوير (١٨/ ١٩٠).

المبحث الثالث

مزايا المنهج القرآني في علاج الشائعات

بعد تناول هذا البحث لخطوات علاج الشائعات وفق المنهج القرآني، فإن أبرز ما تميز به هذا المنهج ما يأتي:

أنه علاج تفصيلي يشمل أركان الشائعة: الشائعة نفسها، ومطلقها، وناقلها، ومن تمسه الشائعة.

أنه علاج تعليمي تربوي؛ فلم ينه القرآن عن الشائعات قبل أن يجربها الناس وينالهم أثرها، وقبل أن يكون العلاج منبثقاً من حادثة عظيمة، وهذا أبلغ في التعليم.

أنه علاج نهائي وقاطع؛ لتكذيبه للشائعة، فإن أفضل الوسائل في محاربة الشائعة إصدار الحقائق المتعلقة بموضوع الشائعة، والبيانات السليمة حولها، فبالتالي يظهر الحق من الباطل، والصدق من الكذب.

أنه حين بدأ بتكذيب الشائعة تميز بثلاثة أمور مهمة في هذا المجال، وهي:

الأول: عدم تكرار الشائعة نفسها عند تكذيبها باستخدام ذات الألفاظ التي انتشرت بها.

الثاني: استخدام الألفاظ المختصرة في التعبير عن الشائعة المكذَّبة.

الثالث: العناية بالطريق الذي يرد به تكذيب الشائعة حتى يكون تكذيباً قاطعاً، فقد تولى الله تعالى بنفسه تكذيب شائعة الإفك، وفي قصة مريم تحدث الطفل في المهد وكذب الشائعة، وفي قصة يوسف كان التكذيب للشائعة التي مسّته باعتراف امرأة لها مكانتها في المجتمع بحضرة الملك، وهذا من أنجح العلاجات في إنهاء الشائعة أن يكون تكذيبها من جهة لها مكانتها العالية.

أنه علاج رادع؛ لترتيب العقوبات النفسية والشرعية التي تتناسب مع جرم ترويج الشائعات.

قوة التأثير: لأنه علاج يركز على متلقي وناقل الشائعة أكثر من مصدرها، وهذا أكثر تأثيراً في إخماد الشائعة.

أنه علاج صالح للتطبيق في كل زمان ومكان، وتعتمد عليه الدراسات الاجتماعية.

أنه يركز على تنمية التربية الذاتية، وهذا طريق إنهاء الشائعات في المجتمع؛ لأن الفرد إذا كانت لديه مراقبة ذاتية فإنه لن يروج الشائعات ولن يفتعلها أصلاً، فكلما كانت الشخصيات والأفراد تربيتهم قد أصَّلت فيهم منهج التحرِّي والتثبُّت وطلَب الدليل والبرهان، كان ذلك مِعْوَل هدمٍ للشائعة، وحائطًا منيعًا أمامها.

أنه علاج متدرج؛ فالترتيب في خطوات علاج الشائعات مقصود وهو جزء من العلاج، ففي شائعة الإفك بدأ بتكذيب الشائعة، ثم العناية بمن مسته الشائعة، ثم أكد على ضرورة التماسك الاجتماعي والثقة المتبادلة بين أفراد المجتمع وحسن الظن كدليل باطني، ثم التأكيد على ضرورة التثبت وطلب الدليل الخارجي، ثم انتقل إلى العلاج بالتحذير من التهاون في نقل الشائعة، وأهمية مسؤولية الفرد في إيقاف الشائعة، وترتيب العقوبات النفسية والشرعية، وختم بوجوب أخذ العظة من التجارب.

تلك هي أبرز مميزات منهج القرآن الكريم التي تفرد بها من خلال آيات شائعة الإفك.

الخاتمة

الحمد للّه وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده أما بعد، فمن أبرز النتائج التي توصل إليها هذا البحث ما يأتي:

١. إن لفظ الشائعة بمفهومها في العصر الراهن لم تذكره معاجم اللغة العربية القديمة - فيما وقفت عليه-.

٢. إن للشائعة في الاصطلاح معنيان: أحدهما عام وهو مأخوذ من الشيوع وهو الانتشار غير المحدد، والآخر خاص وهو: الخبر المثير المتعمد الذي يستهدف نتائج ضارة.

٣. أنه لم تَرِد الشائعة في القرآن بصيغة المصدر وإنما وردت بصيغة الفعل (تشيع).

٤. أنه جاء التعبير عن الشائعة في القرآن بألفاظ متعددة، منها: الإفاضة، والإذاعة، والتلقي، والخوض، والإرجاف.

٥. أنه يصعب تقديم حصر منضبط لأنواع الشائعات؛ لاختلاف آثارها ودوافعها والبيئات التي تظهر فيها، لكن يمكن تقسيمها وفق اعتبارات عدة، منها: موضوعها، وسرعتها، ومصادرها، ودلالتها الوظيفية.

٦. إن للشائعة أركان يُجمِلها أهل الاختصاص فيما يأتي: الخبر، والمصدر، والهدف، والمتلقي، ووسيلة الانتقال.

٧. إن خطوات العلاج القرآني للشائعة في ضوء آيات حادثة الإفك هي: تكذيب الشائعة، والعناية بمن مسته الشائعة، وتقديم حسن الظن، والتأكيد على ضرورة التثبت والتروي، التحذير من التهاون في نقل الشائعة، التأكيد على مسؤولية الفرد في إيقاف الشائعة، ترتيب العقوبات النفسية والشرعية، وجوب أخذ العظة من التجارب.

٨. إن القرآن الكريم يبدأ في علاج الشائعات بتكذيبها؛ وذلك لإنهائها واجتثاثها من أصولها ولو بعد حين، وقد تميز القرآن في هذا الجانب بثلاثة أمور، هي: عدم تكرار الشائعة نفسها عند تكذيبها باستخدام ذات الألفاظ التي انتشرت بها، واستخدام الألفاظ المختصرة في التعبير عن الشائعة المكذَّبة، تكذيب الشائعة على مستوى عال، وبمعجزة باهرة.

٩. حصول الخيرية لمن مستهم شائعة الإفك عند الله وعند الناس.

١٠. إن القرآن الكريم يُرشد الناس في وقت انتشار الشائعات إلى التروي وعدم العجلة، وطلب الدليل الخارجي، وذلك بعد خطوة عرض الأمر على القلب واستفتاء الضمير.

١١. إن التثبت في الشائعات المتعلقة بالأعراض يكون بالدليل وهو وجود أربعة شهداء كما بينه الشرع.

٢١. أنه إذا كان التهاون في نقل الشائعة مذموماً؛ فإنه في حق شائعة الأعراض أكثر ذَمّاً، وفي حادثة الإفك أعظم جُرماً؛ لأنها تخص زوجة النبي ﷺ، خاتم الأنبياء وسيد المرسلين.

١٣. أن القرآن الكريم يركِّز في علاج الشائعات على ناقل الشائعة أكثر من مطلقها.

١٤. إن من هدي القرآن الكريم إذا مر بالمؤمن كلام في أخيه المؤمن أو أخته المؤمنة- وخاصة فيما يمس أعراضهما- التحلي بثلاثة أمور وذلك بعد إحسان الظن المطلوب منه، وهي: عدم ترديد الشائعة، وتسبيح الله، وأن يحكم على مثل تلك الشائعة بأنها بهتان عظيم.

إن من فوائد استعمال التسبيح دون غيره في وقت انتقال الشائعات، ما يأتي:

١. إعلان المتكلم البراءة منها بتمثيل حال نفسه بحال من يشهد الله على ما يقول فيبتدئ بخطاب الله بتعظيمه ثم بقول: (هذا بهتان عظيم)؛ تبرؤاً من لازم ذلك وهو مبالغة في إنكار الشيء والتعجب من وقوعه.

٢. أن المؤمن إن علق بنفسه شيء منها- وسوسة أو خيالاً- يطرده بالتسبيح.

٣. تنزيه الرب - سبحانه وتعالى - عن أن يعصى.

٤. أن في التسبيح في حادثة الإفك على وجه الخصوص بيان فضل عائشة رضي الله عنها حيث نزهها باللفظ الذي نزه به نفسه، وفيه تعظيم لما رميت به عائشة رضي الله عنها.

٥. إن من أبرز العقوبات النفسية التي جاءت في القرآن الكريم في علاج الشائعات: حصول اللوم والتأنيب لناقل الشائعة، ومعاتبة مروجي الشائعات بالتذكير بوصف الإيمان، وتوعد مطلق الشائعة وتخويفه، والتشنيع على ناقل الشائعة، وحصول الندم بسبب أخذ الشائعات.

٦. إن من أبرز العقوبات الشرعية ولا سيما في الشائعات المتعلقة بالأعراض كحادثة الإفك: اكتساب الآثام، ولكل شخص نقل الشائعة نصيبه من الإثم بقدر خوضه فيها، والعذاب الأليم في الدنيا والآخرة.

٧. إن من منهج القرآن الكريم في علاج الشائعات أنه لم ينه عن تناقلها قبل أن يقدم نموذجاً له وقع وتمت تجربته، ومر الناس بتبعاته.

إن من أبرز مميزات المنهج القرآني في علاج الشائعات ما يأتي:

١. أنه علاج تفصيلي يشمل أركان الشائعة: الشائعة نفسها، ومطلقها، وناقلها، ومن تمسه الشائعة.

٢. أنه علاج تعليمي تربوي؛ فلم ينه القرآن عن الشائعات قبل أن يجربها الناس وينالهم أثرها، ويكون العلاج منبثقاً من حادثة عظيمة، وهذا أبلغ في التعليم.

٣. أنه علاج نهائي وقاطع؛ لتكذيبه للشائعة، فإن أفضل الوسائل في محاربة الشائعة إصدار الحقائق المتعلقة بموضوع الشائعة، والبيانات السليمة حولها، فبالتالي يظهر الحق من الباطل، والصدق من الكذب.

٤. أنه علاج رادع؛ لترتيب العقوبات النفسية والشرعية التي تتناسب مع جرم ترويج الشائعات.

٥. قوة التأثير؛ لأنه يركز على متلقي وناقلها الشائعة أكثر من مصدرها، وهذا أكثر تأثيراً في إخماد الشائعة.

٦. أنه علاج صالح للتطبيق في كل زمان ومكان، وتعتمد عليه الدراسات الاجتماعية.

٧. أنه يركز على تنمية التربية الذاتية، وهذا ينهي الشائعات في المجتمع.

٨. أنه علاج متدرج؛ فالترتيب في خطوات العلاج القرآني مقصود وهو جزء من علاج الشائعة.

ومن أبرز التوصيات التي خرج بها البحث:

١. ضرورة الاتجاه بالدراسات القرآنية إلى القضايا الحية التي تمس المجتمع.

٢. إعداد أعمال موسوعية فيها: إعادة لدراسة كثير من مشكلات العصر الراهن والبحث عن حلولها من خلال القرآن الكريم، ودراستها دراسة علمية قرآنية موضوعية.

ثبت المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.

٢. إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر، لأحمد بن محمد البنّا الدمياطي، تح: أنس مهرة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ.

٣. أحكام الشائعات في القانون العقابي المقارن، لعلي الشريف، ندوة أساليب مواجهة الشائعات، مركز الدراسات والبحوث، أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، ١٤٢٢هـ.

٤. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٥. أسباب النزول، لعلي بن أحمد الواحدي، تح: عصام الحميدان، دار الإصلاح، الدمام، ط٢، ١٤١٢هـ.

٦. الإسلام والشائعة، لساعد الحارثي، ندوة أساليب مواجهة الشائعات، مركز الدراسات والبحوث، أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، ١٤٢٢هـ.

٧. الإشاعة وأثرها على أمن المجتمع، لمحمد القحطاني، دار طويق، الرياض، ط١، ١٤١٨هـ.

٨. الإشاعة، لأحمد نوفل، دار الفرقان، الأردن، ط١، ١٤٠٣هـ.

٩. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ.

١٠. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، لعبد الله بن عمر البيضاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٨ه.

١١. أنيس الساري (تخريج أحاديث فتح الباري)، لنبيل البصارة، مؤسسة السماحة، بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ.

١٢. البحر المحيط في التفسير، لمحمد بن يوسف بن حيان، تح: صدقي جميل، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ.

١٣. تاج العروس من جواهر القاموس، لمحمد مرتضى الحسيني الزبيدي، مجموعة من المحققين، دار الهداية.

١٤. تاريخ المدينة، لعمر بن شبة البصري، تح: فهيم شلتوت، طبع على نفقة: السيد حبيب أحمد، جدة، ١٣٩٩ هـ.

١٥. التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤ هـ.

١٦. تفسير ابن فورك من أول سورة المؤمنون ـ آخر سورة السجدة، لمحمد بن الحسن بن فورك الأصبهاني، دراسة وتحقيق: علال عبد القادر بن دويش (ماجستير)، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٣٠هـ.

١٧. تفسير القرآن العظيم، لعبد الرحمن بن محمد ابن أبي حاتم، تح: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، ط٣، ١٤١٩هـ.

١٨. تفسير القرآن العظيم، لإسماعيل بن عمر بن كثير، تح: سامي سلامة، دار طيبة، ط٢، ١٤٢٠هـ.

١٩. تفسير القرآن، لمنصور بن محمد السمعاني، تح: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن غنيم، دار الوطن، الرياض، ط١، ١٤١٨هـ.

٢٠. تفسير غريب ما في الصحيحين، لمحمد بن فتوح حميد الأزدي، مكتبة السنة، القاهرة، ط١، ١٤١٥هـ.

٢١. تفسير مجاهد، لمجاهد بن جبر المكي، تح: محمد أبو النيل، دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر، ط١، ١٤١٠هـ.

٢٢. تفسير مقاتل بن سليمان، لمقاتل الأزدي، تح: عبد الله شحاته، دار إحياء التراث، بيروت، ط١٤٢٣،١ هـ.

٢٣. تهذيب اللغة، لمحمد بن أحمد الأزهري، تح: محمد عوض، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

٢٤. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، تح: عبد الرحمن اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠ه.

٢٥. التيسير في القراءات السبع، لعثمان بن سعيد الداني، تح: أوتو تريزل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٤٠٤هـ.

٢٦. جامع البيان في تأويل القرآن. لمحمد بن جرير الطبري، تح: أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ.

٢٧. الجامع المسند الصحيح (صحيح البخاري)، لمحمد بن إسماعيل البخاري، تح: محمد الناصر، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ.

٢٨. الجامع لأحكام القرآن، لمحمد بن أحمد القرطبي، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ.

٢٩. جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام، لابن قيم الجوزية، تح: شعيب وعبد القادر الأرناؤوط، دار العروبة، الكويت، ط٢، ١٤٠٧هـ.

٣٠. الحرب النفسية في صدر الإسلام (العهد المدني)، لمحمد المخلف، عالم الكتب، ط١، ١٩٨٩م.

٣١. الحرب النفسية والشائعات، لمعتز عبد الله، دار غريب للنشر، القاهرة، مصر، ١٩٩٧م.

٣٢. دراسة في الرأي العام والإعلام والدعاية، لرفيق سكري، جروس برس، لبنان، ط١، ١٩٩١م.

٣٣. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لمحمود بن عبد الله الألوسي، تح: علي عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

٣٤. زاد المسير في علم التفسير، لعبد الرحمن بن علي الجوزي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.

٣٥. زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن قيم الجوزية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢٧، ١٤١٥هـ.

٣٦. سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، لناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ط١.

٣٧. السنن الكبرى، لأحمد بن الحسين البيهقي، تح: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ١٤٢٤هـ.

٣٨. السيرة النبوية: لإسماعيل بن عمر بن كثير، تح: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٥هـ.

٣٩. سيكولوجية الاشاعة، لألبورت جوردان وآخرين، ترجمة صلاح مخيمر وعبده ميخائيل، دار المعرفة المصرية.

٤٠. الشائعات وكلام الناس، لمحمد عثمان الخشت، مكتبة ابن سينا ١٩٩٦هـ.

٤١. الشائعـات ووظيفة المؤسسات الاجتماعية في مواجهتها، لإبراهيم الجوير، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٤١٦هـ.

٤٢. الشائعات، لميشال روكيت، ترجمة وجيه أسعد، دار البشائر، دمشق، سوريا، ط١، ١٩٩٤م.

٤٣. الشريعة، لمحمد بن الحسين الآجُرِّيُّ، تح: عبد الله الدميجي، دار الوطن، الرياض، ط٢، ١٤٢٠هـ.

٤٤. شعب الإيمان، لأحمـد بن الحسين البيهقي، تح: عبد العلي حامد، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٤٢٣هـ.

٤٥. شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، لنشوان بن سعيد الحميري، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١،١٤٢٠ هـ.

٤٦. الصحـاح تاج اللغة وصحـاح العربية، لإسماعيل بن حماد الجوهـري، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٤٠٧هـ.

٤٧. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار المعرفة، بيروت.

٤٨. فتح البيان في مقاصد القرآن، لمحمد صديق خان القِنَّوجي، المكتبة العصريَّة، بيروت، ١٤١٢هـ.

٤٩. فتـح القدير، لمحمد بن علـي الشوكاني، دار ابن كثير، دمشـق/ دار الكلم الطيب، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ.

٥٠. في ظلال القرآن، لسيد قطب، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط١٧، ١٤١٢هـ.

٥١. الكشـاف عن حقائق غوامضـ التنزيل وعيـون الأقاويل في وجوه التأويـل، لمحمود بن عمر الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ.

٥٢. لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن منظور، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.

٥٣. محاسن التأويل، لمحمد جمال الدين القاسمي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨ هـ.

٥٤. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لعبد الحق بن غالب بن عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.

٥٥. المحـرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتـب التسعة، لخالد المزيني، دار ابن الجوزي، الدمام، ط١، ١٤٢٧هـ.

٥٦. مـدارك التنزيل وحقائق التأويـل، لعبد الله بن أحمد النسفـي، دار الكلم الطيب، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ.

٥٧. مسند أبي يعلى، لأحمد بن علي الموصلي، تح: حسين أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، ط١، ١٤٠٤هـ.

٥٨. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله r (صحيح مسلم)، لمسلم بن الحجاج النيسابوري، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٥٩. معالم التنزيل في تفسير القرآن، للحسين بن مسعود البغوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ.

٦٠. معجم الصواب اللغوي، لأحمد مختار عمر وآخرين، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ١٤٢٩هـ.

٦١. المعجم الكبير، لسليمان بن أحمد الطبراني، تح: حمدي السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط٢.

٦٢. معجم اللغة العربية المعاصرة، لأحمد مختار عمر وآخرين، عالم الكتب، ط١، ١٤٢٩هـ.

٦٣. معجم المصطلحات السياسية والدبلوماسية، لخليل أحمد خليل، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.

٦٤. المغازي: لمحمد بن عمر الواقدي، تح: مارسدن جونس، دار الأعلمي، بيروت، ط٣، ١٤٠٩هـ.

٦٥. المغني، لعبد الله بن أحمد قدامة المقدسي، مكتبة القاهرة.

٦٦. مفاتيح الغيب، لمحمد بن عمر الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠ هـ.

٦٧. المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، دار القلم، دمشق/ الدار الشامية، بيروت، ط١، ١٤١٢ هـ.

٦٨. مقاييس اللغة، لأحمد بن فارس الرازي، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ.

٦٩. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ليحيى بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـ.

٧٠. النشر في القراءات العشر، لمحمد بن محمد بن محمد ابن الجزري، تح: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٣هـ.

٧١. النكت والعيون: علي بن محمد الماوردي، تح: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت.

٧٢. النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩ه.

٧٣. الوسيط في تفسير القرآن المجيد، لعلي بن أحمد الواحدي، تح: عادل عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

سارة بنت هليل المطيري

الدرجة العلمية : الدكتوراه الإيميل : sara-hd@hotmail.com

التعليم :

- الدكتوراه في الأصول الاسلامية للتربية ١٤٣٦هـ، الرسالة بعنوان: المنهج التعليمي عند محمد بن سحنون (ت:٢٥٦) من خلال كتابه: آداب المعلمين تحقيق ودراسة.
- الماجستير في التربية الإسلامية والمقارنة ١٤٢٩هـ، الرسالة بعنوان: حوار الآباء مع الأبناء في القرآن الكريم وتطبيقاته التربوية.
- البكالوريوس في الكيمياء مع الاعداد التربوي ١٤٢٠هـ.

أهم المؤلفات :كتاب: "فاعلية الحوار مع الأبناء"، من مطبوعات مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني.

أهم الأبحاث والمشاركات العلمية :

- المشاركة ببحث "الدراسات البينية في تخصص الأصول الإسلامية للتربية" مؤتمر مستقبل الدراسات البينية في العلوم الإنسانية والاجتماعية المزمع عقده في رحاب جامعة حلوان بجمهورية مصر في الفترة ١٥/١٦ مارس ٢٠١٦م.
- المشاركة ببحث: "الدراسات البينية في تخصص الأصول الإسلامية للتربية، تحقيق النص التراثي التربوي أنموذجًا" في المؤتمر الدولي الأول: العلوم الإنسانية أكاديميًا ومهنيًا رؤى استشرافية، أقيم في جامعة الملك سعود بتاريخ ١٧-١٨ /٦/ ١٤٣٦هـ.
- المشاركة ببحث: "الحوار التربوي بين الآباء والأبناء في القرآن دراسة تأصيلية" في ملتقى التربية بالقرآن مناهج وتجارب الذي أقيم في جامعة أم القرى بتاريخ: ٢٢-٢٣ /٤/ ١٤٣٦هـ.
- بحث: "تحليل التعلم عند برهان الإسلام الزُرنوجي" منشور في مجلة مركز تطوير التعليم الجامعي بجامعة عين شمس.
- المشاركة ببحث: "حاجة الباحث في أصول التربية الإسلامية لعلوم الحديث" في المؤتمر العلمي الرابع لطلبة التعليم العالي في المملكة العربية السعودية الذي أقيم في مكة المكرمة بتاريخ: ١٩/٢٢ جمادى الآخرة ١٤٣٤هـ.

أخوة النسب أهميتها وعلاج مشكلاتها في ضوء القرآن الكريم

تقع الدراسة ضمن المحور الثالث وهو توظيف الدراسات القرآنية في علاج المشكلات الاجتماعية باعتبارها تعالج أحد أنواع العلاقات الأسرية.

إعداد:

د. سارة بنت هليل المطيري

مكة المكرمة

الإيميل: sara-hd@hotmail.com

المقدمة :

الحمدلله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين نبينا محمد وآله وصحبه ومن تبعهم إلى يوم الدين.

اهتمَّ الإسلام بصلاح الأسرة، وعَمِل على أن تكون البيئة التي ينشأ فيها الفرد بيئة تقيَّة نقيَّة، تُصان فيها الحقوق، وتتحقق فيها الفضائل١ ، فشرع لها من الأحكام ما يضمن نجاحَ قيامِها واستمرارَ وجودِها، ومن الوصايا والآداب ما يكفل الحياة السعيدة لأفرادها، ويُعِدُّهم للقيام بأدوارهم المختلفة في الحياة.

وفي سبيل تحقيق صلاح الأسرة حرص الإسلام على ترابط أفرادها، وتنظيم العلاقة بينهم، سواءً أكان ذلك بين الوالدين، أم بين الوالدين وأبنائهم، أم الأبناء فيما بينهم والمتمثِّلة في علاقة أخوَّة النسب.

إن قيام أخوة النسب على مراد الله تعالى وَوِفق شرعه يُجَنب المجتمع الإسلامي كثيرًا من المشكلات الحاصلة في الأسر، وهو حلٌ وقائي وعلاجي ناجع لقضايا معاصرة كقضايا الإرث وقطيعة الأرحام التي أصبحت منتشرة ووصلت آثارها إلى المحاكم والشرط ومراكز إصلاح ذات البين في بلادنا.

ومما يوحي بأهمية الموضوع النظر في عدد القضايا التي عالجها أحد مراكز اصلاح ذات البين، حيث بلغت قضايا الخلافات الأسرية عمومًا: ٥٦١٤ قضية، منها ٨٤ قضية تختص بالأهل والإخوة والأقارب، و١١ قضية عنف أسري بين الإخوة والأخوات، و١٧ قضية خلافات اجتماعية تتضمن ما يقع بين الإخوة والأخوات، و٤٢ قضية بين الإخوة والأخوات نتيجة أسباب خاصة.

ولكل ما سبق اتجهت الدراسة الحالية نحو كتاب الله تعالى محاولة بيان هديه في موضوع

(١) محمد السيد يوسف، منهج القرآن الكريم في إصلاح المجتمع، ط٢، القاهرة: دار السلام، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٤م، ص٣٥١.

أخوة النسب، وراغبة في توضيح كيفية معالجته لما قد يقع من خلاف بين الإخوة، خاصة وأن القرآن قد تحدث عنها في عدد كبير من آياته بلغت أكثر من سبعٍ وستين آية.

أهمية الدراسة :

١. صدور الدراسة عن القرآن الكريم، فهي تحاول تلمس منهجه واستلهام قيمه ومبادئه واستنباط هداياته في موضوع أخوة النسب.
٢. ارتباط موضوعها بواقع المجتمع الإسلامي المعاصر وبيانها لما قد يكون سببًا في تكدير صفوه بوقوع الخلافات في الأسرة بين الإخوة والأخوات.
٣. اهتمامها بخدمة جانب من جوانب صلة القرابة والأرحام.

تمثلت أهداف الدراسة في:

١. حصر الآيات المتعلقة بأخوة النسب ودراستها دراسة موضوعية تُمهد لاستنباط فوائدها.
٢. توظيف نتائج الدراسة الموضوعية للآيات بالشكل الذي يُبين مكانة أخوة النسب ويوضح مفهومها.
٣. الاهتداء بنماذج ذكرها القرآن الكريم منذ زمن ابني آدم عليه السلام وحتى موسى وهارون عليهما السلام وأبناء يعقوب عليه السلام.
٤. استنباط آثار اتفاق الإخوة، وأسباب وقوع الخلاف بينهم، وأساليب تقويمه والإصلاح بينهم، بما يُسهم في حل قضايا الأسرة والمجتمع المتعلقة بهذا الجانب.

منهج الدراسة :

سلكت الدراسة المنهج الوصفي، والتفسير الموضوعي للآيات التي تحدثت عن أخوة النسب.

حدود الدراسة :

تتناول الدراسة الآيات المتعلقة بأخوة النسب فقط دون أخوة الرضاع أو الأخوة الإيمانية أو أيًا من معاني الأخوة الأخرى التي وردت في القرآن الكريم.

وعليه جاءت الدراسة في مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة احتوت أهم نتائجها.

المبحث الأول

مكانة أخوَّة النسب في القرآن ومفهومها.

أولًا: مكانة أخوَّة النسب في القرآن:

اهتم القرآن الكريم بكل ما يرتبط بحياة الإنسان وما يضمن له عيشًا طيبًا في أسرة مُستقرة، تقوم وتمتد بوجود القرابة والأرحام، يقول تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمۡ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿٧٥﴾ ﴾الأنفال: ٧٥

و"ظَاهِرُ لَفْظ الْأَرْحام جَمْعُ رَحِم وَهُوَ مَقَرُّ الْوَلَد فِي بَطْنِ أُمِّه، فَمِنَ الْعُلَمَاء مَنْ أَبْقَاهُ عَلَى ظَاهِرِه فِي اللُّغَة، فَجَعَلَ الْمُرَادَ مِنْ أُولي الْأَرْحَام ذَوِي الْقَرَابَة النَّاشِئَة عَن الْأُمُومَة، وَهُوَ مَا دَرَجَ عَلَيْهِ جُمْهُورُ الْمُفَسِّرِينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَ الْمُرَادَ مِنَ الْأَرْحَامِ الْعَصَابَاتِ دُونَ الْمَوْلُودِينَ بِالرَّحِم"[١].

وتأكيدًا على أهمية الرحم أمر تعالى بعدم قطعها، فقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءًۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾النساء: ١، ففي تأويل معنى الآية يقول الطبري رحمه الله: "واتقوا الله الذي تساءلون به، واتقوا الأرحام أن تقطعوها"[٢].

وقد "قرن الأمر بتقواه بالأمر ببرِّ الأرحام والنَّهي عن قطيعتها؛ ليؤكد هذا الحقَّ، وأنه كما يلزم القيام بحق الله كذلك يجب القيام بحقوق الخلق، خصوصًا الأقربين منهم؛ بل القيام بحقوقهم هو من حقِّ الله الذي أمر الله به"[٣].

---

(١) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م. (١٠/ ٩١).

(٢) محمد بن جرير الطبري، جامع البيان، تحقيق: أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م، (٧/ ٥٢٠).

(٣) عبدالرحمن بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبدالرحمن اللويحق، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، ص ١٦٣.

ومن هؤلاء الأرْحام الذين تؤكد الآية حقَّهم: إخْوَة النسب.

والناظر في حجم المساحة التي استغرقتها الآيات المُتحدثة عن أخوة النسب يتيقن الأهمية الكبرى التي أولاها القرآن لهذه العلاقة الإنسانية النبيلة، حيث كان الحديث عنها على نوعين:

-الأول: الحديث عنها بإيراد لفظ (أخ) أو أحد اشتقاقاته اللغوية (أخ، أخت، أخانا، أخي، أخوهم، أخيك، أخيه....) حيث بلغ عدد المرات التي وردت فيها سبع وستون مرة. كقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ يوسف: ٧٠

-الثاني: الحديث عن أخوة النسب بمعناها وليس بأحد الألفاظ الدالة عليها، كقوله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ المائدة: ٢٧.

وتتنوع الموضوعات التي ورد فيها ذكر الإخوة والأخوات، كموضوع الميراث، وفي قصص الأنبياء: كابني آدم عليه السلام وموسى ويوسف عليهما السلام، وفي ذكر مشاهد الآخرة وفرار الإنسان من أخيه، وفي الحديث عن أولي الأرحام وتعلق الإنسان بهم، والأحكام الاجتماعية للأسرة والمحارم وغير ذلك.

ومن الشواهد التي تبين شيئًا من مكانة أخوة النسب في القرآن الكريم ما يأتي:

عن المؤمنين في الجنَّة يقول تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ الحجر: ٤٧، وفي وصف الله تعالى المؤمنين في الجنة بالأخوة تنبيه على انتفاء المخالفة من بينهم[١]، وفي هذا دلالة على عِظَم مكانتها وارتضاءها من الله - تعالى – وصفًا لأهل جنته.

(١) الراغب الأصفهاني، مفردات غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داودي، دار القلم، دمشق، ١٤١٢هـ -١٩٩٢م، ص ٦٨.

كما أن الله تعالى ارتضى هارون عليه السلام أخا موسى عليه السلام وزيرًا له، واستجاب دُعاءَه بأن يرسله الله تعالى معه إلى فرعون وقومه، وذلك لأن الأخ الصالح –هارون– خير معين وعضيد لأخيه في مهمات النبوة، كما أنه معين له على الطاعة.

جاء في التفسير: "وخصَّ هارون لفرط ثقته به، ولأنَّه كان فصيح اللسان مقْوالاً، فكوْنه من أهلِه مظنَّة النصح له، وكونه أخاه أقوى في المناصحة، وكونه الأخ الخاصَّ لأنَّه معلوم عنده بأصالة الرأي"[1].

كما أن القرآن الكريم استخدم لفظ الأخ لوصف بعثة كثير من الأنبياء إلى أقوامهم، كما في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾ هود:٦١، أي بمعنى واحدًا منهم[2]. وكان هذا لـ" التذكير بالأواصر التي تجمعهم، لعل ذلك يستثير مشاعرهم ويحقق اطمئنانهم إليه فيما يقول. فالرائد لا يكذب أهله، والناصح لا يغش قومه"[3].

كما ألمح القرآن الكريم إلى أنَّ صلاحَ الأخ تشريفٌ ورفعةُ ذكرٍ لأخيه أو أخته، سواء كان أخًا شقيقًا أو أخًا لأم أو لأب فقط. ففي قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ ﴾ مريم:٢٨، فعلى قول أن هارون أخو مريم لأمها[4]، يكون المعنى: يا شبيهته في العفة[5]. وهذا تشريف لها وتذكير بصلاحِ أخيها فتكون مثله.

كما عدَّ القرآنُ الأخَ في النسب أَحَدَ أكرم الناس وأحبهم على الإنسان، يظهر ذلك من معنى قوله تعالى: ﴿ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ ﴾ المعارج:١٢، فقد "بدأ جلّ ثناؤه بذكر البنين، ثم الصاحبة، ثم الأخ، إعلامًا منه عباده أن الكافر من عظيم ما ينزل به يومئذ من البلاء

---

(١) محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، ص ٢١٢.

(٢) محمود جار الله الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، بيروت: دار الكتاب العربي، ط٣، ١٤٠٧هـ. (١١٦/٢).

(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن، ط١٧، بيروت: دار الشروق، ١٤١٢هـ، (٤/ ١٨٩٦).

(٤) عبدالرحمن ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٢٢هـ، (١٢٩/٣).

(٥) علي بن أحمد الواحدي، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م، (١٨٢/٣).

يفتدي نفسه، لو وجد إلى ذلك سبيل بأحب الناس إليه، كان في الدنيا، وأقربهم إليه نسبًا"١.

ومع هذه المكانة العظيمة لأخوة النسب في القرآن الكريم، إلا التنبيه جرى فيه على أمر مهم وهو أنه لا وزن ولا اعتبار لمحبة الإخوة حين تتعارض مع حب الله ورسوله والجهاد في سبيل الله، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾التوبة: ٢٤، وقَدْ جَمَعَتْ هَذه الآيَةُ أَصْنَافًا منَ العَلَاقَات وَذَويهَا، منْ شَأنهَا أَنْ تَألفهَا النُّفُوسُ وَتَرْغَبَ في القُرْب منْهَا وَعَدَم مُفَارَقتهَا، فَإذَا حَصَلَ التَّعَارُضُ وَالتَّدَافُعُ بَيْنَ مَا أَرَادَهُ اللَّهُ منَ المُؤْمنينَ وَبَيْنَ مَا تَجُرُّ إليْه تلْكَ العَلَائقُ وَجَبَ عَلَى المُؤْمن دَحْضُهَا وَإرْضَاءُ رَبِّه٢.

ثانياً: مفهوم أخوَّة النسب:

الأخوَّة في اللغة:

أخ: الأصل "أخو"، وهو المشارك آخر في الولادة من الطرفيْن، أو من أحدهما، أو من الرَّضاع، ويُستعار في كلِّ مشارك لغيره في القبيلة، أو في الدِّين، أو في صنعة، أو في معاملة، أو في مودَّة، وفي غير ذلك من المناسبات، والأخت: تأنيث الأخ٣.

وسُمِّي الأَخُ أَخاً - كما قاله بعضُ النحويِّين- لأَنَّ قَصْده قَصْد أَخيه، وأَصله من وَخَى؛ أَي: قَصَد٤.

فالأخوَّة إما أن تطلق على الإخوَّة في النسب: الأشقَّاء أو غير الأشقَّاء؛ كالإخوة لأم، أو الإخوة لأب، أو تطلق على الإخوة من الرضاعة، وإمَّا أن تطلق على سبيل الاستعارة، ويدخل تحتها أنواعُ عديدة، كما جاءت في القرآن الكريم، وسيأتي بيانها.

(١) الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، (٢٣/ ٦٠٦).

(٢) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، (١٠/ ١٥٢-١٥٣)

(٣) الراغب الأصفهاني، مفردات غريب القرآن، مرجع سابق، ص٦٨.

(٤) جمال الدين ابن منظور، لسان العرب، دار صادر بيروت، ٢٠٠٠م، مادة أخا، المجلد الأول، ص ٦٨.

الأخوة في القرآن الكريم:

وردت لفظـة: (أخ) واشتقاقاتها في القرآن الكريم ١٠١ مرة، منها ٦٧ مرة وردت بمعنى أخـوة النسـب، و٣٤ استعيرت لمعاني أخرى. هذا بالإضافة إلى تنـاوُل القرآن الكريم للأخوَّة ضمن الحديث عن صلة الأرحام والقرابات في موضوعات متفرقة.

كان الحديث في أغلب المواضع التي ورد فيها لفظ من ألفاظ الأخوة عن الإخوة الأشقاء مـن أب وأم، وأخـوة الرضاعة في موضـع واحد قوله تعـالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾ النساء: ٢٣

أما الإخوة غير الأشقاء، فقد ورد الحديث عنهم في خمسة مواضع:

١-آية سورة النساء رقم: (١٢)

﴿ ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ النساء: ١٢

عن "سعد أنه كان يقرأ: "وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت" قال، سعد: لأمه"[١]. وقد أجمع العلماء على أن الإخوة في هذه الآية الإخوة لأم[٢].

(١) الطبري، جامع البيان، مرجع سابق،(٨/ ٦١)

(٢) ابـن عطيـة الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسـير الكتاب العزيز، تحقيق: عبدالسـلام عبدالشافي، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ، (٢/ ١٩).

٢-آية سورة الأعراف[1] رقم: (١٥٠)

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ ﴾الأعراف: ١٥٠

وهذا بناء على قول من قال: إن هارون عليه السلام أخو موسى عليه السلام لأمه[2].

٣-آيتا سورة يوسف رقم: (٨،٥٩)

﴿ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ﴾يوسف: ٨

﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾ يوسف: ٥٩

فيوسف وبنيامين أخوان من أم وأب، بينما بقية إخوانهم هم من أبيهم.

٤-آية مريم رقم: (٢٨)

﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ ﴾مريم: ٢٨

وهـذا على قول من قال بـأن هارون –وليس بهارون أخي موسى عليهما السلام- أخوها من أمها[3].

وقد ذكر أهل التَّفْسِير أَن الْأَخ فِي الْقُرْآن على خَمْسَة أوجه[4]:

الأول: الْأَخ مــن الْأَب وَالْأُم أَو مــن أَحدهمَا. وَمنْه قَوْله تَعَالَى فِي سُورَة النِّسَاء: (فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَة فلأمه السُّدس) ، وَفِي الْمَائِدَة: (فطوعت لَهُ نَفسه قتل أَخِيه فَقتله) .

(١) ومثلها آية (٩٤) من سورة طه، غير أنه لم يرد بها لفظ الأخ.

(٢) الحســن بــن مسعود البغــوي، معالم التنزيل في تفسير القــرآن، تحقيق: عبدالرزاق المهدي، بــيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ، (٢/ ٢٣٦)، و زاد المسير في علم التفسير، مرجع سابق، (٢/ ١٥٧).

(٣) عبدالرحمن ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، مرجع سابق، (١٢٩/٣) قول ابن عباس.

(٤) عبدالرحمــن ابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائــر بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م، (ص: ١٣٢).

وَالثَّـاني: الإخاء مـن الْقَبيلَة. وَمنْه قَوْله تَعَالَى: (وَإلَى عَـاد أَخَاهُم هودا) ، (وَإلَى ثَمُود أَخَاهُم صَالَحا) ، (وَإلَى مَدين أَخَاهُم شعيبا) .

وَالثَّالث: الإخاء فِي الدّين والمتابعة. وَمنْه قَوْله تَعَالَى فِي آل عمرَان: (فأصبحتم بنعمته إخْوَانًا) ، وَفِي بني إِسْرَائِيل: (إِن المبذرين كَانُوا إخْوَان الشَّيَاطِين) ، وَفِي الحجرات: (إنمَّا الْمُؤْمنُونَ إخْوَة) .

وَالرَّابِـع: الاخاء فِي الْمَوَدَّة والمحبة. وَمنْه قَوْله تَعَالَى فِي الْحجر: (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورهمْ من غل إخْوَانًا).

وَالْخَامِس: الصاحب. وَمنْه قَوْله تَعَالَى فِي ص: (إِن هَذَا أخي لَهُ تسع وَتسْعُونَ نعجة)

ولكن بناء على المعنى اللغوي يمكن بيان معنى الأخوة في القرآن الكريم كما يلي:

الأول: أُطلقت ويراد بها المعنى الأصلي:

وهـو أخوة النسـب؛ ومثالها قولـه تعـالى: ﴿ ۞ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤٢ ﴾ الأعراف: ١٤٢

الثـاني: أُطلقت على معانٍ أخرى مُستعـارة خرجت عن المعنى الأصلي، تُفيد المشاركة أو المُشابَهة، ومن أمثلتها:

أخـوَّة الديـن والعقيـدة: سواء أكانت الأخـوَّة في الإيمـان أم الأخوَّة في الشِّـرْك والكفر والنفـاق، فمثال أخوَّة الإيمـان قوله تعـالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٠ ﴾الحجرات: ١٠

يقـول القرطبـي – رحمـه الله -: أي في الدَّين والحُرْمَة لا في النَّسـب، ولهذا قيل: أخوَّة الدين أثبت من أخوَّة النسب؛ فإنَّ أخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين، وأخوَّة الدين لا تنقطع بمخالفة النَّسب١.

(١) محمـد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ط٢، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤ م، (١٦/ ٢٧٤).

ومثال أخوَّة الكفر والنفاق قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ ﴾ آل عمران: ١٥٦

وقوله: (وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ)، ويحتمل أن يكون المراد من هذه الأخوَّة المشاكلة في الدِّين، واتَّفق إلى أن صار بعض المنافقين مقتولاً في بعض الغزوات، فالَّذين بقُوا من المنافقين قالوا ذلك[١].

أخوَّة في الآدميَّة والإنسانية: ومثاله قوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾هود: ٥٠

أي: وأرسلنا إلى عاد أخاهم هودًا، قيل: أي بشرًا من بني أبيهم آدم[٢]، سماه أخًا تنبيهًا على إشفاقه عليهم شفقة الأخ على أخيه[٣].

أخوَّة في القبيلة: ومثالها الآية السَّابقة؛ وفق تفسير آخر، فقيل في قوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ هود: ٥٠ -ونظائرها من الآيات-؛ قيل: أخاهم، يعني: في القبيلة[٤].

أخوَّة الشَّيطان: ومثاله قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾الإسراء: ٢٧

والمراد من هذه الاطلاق: التشبه بهم في هذا الفعل القبيح؛ وذلك لأنَّ العرب يسمُّون الملازم للشيء أخًا له، فيقولون: فلان أخو الكرم والجود، وأخو السَّفر إذا كان مواظباً على هذه الأعمال[٥].

---

(١) فخر الدين الرازي، التفسير الكبير، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، (٩/ ٤٤).
(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، (٩/ ٤٦.)
(٣) الراغب الأصفهاني، مفردات غريب القرآن، مرجع سابق، ص ٦٨.
(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، (٩/ ٤٦).
(٥) فخر الدين الرازي، التفسير الكبير، مرجع سابق، (٢٠/ ١٥٥).

الأخـوَّة بـين الأمم: ومثالها قوله تعـالى: ﴿ قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ الأعراف: ٣٨ ، أي: صاحبتها وشبيهتها١.

الأخـوَّة بـين الآيـات: ومثالـه قولـه تعـالى: ﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ الزخرف: ٤٨

أي: كانـت آيـات موسى من كبار الآيات، وكانت كل واحـدة أعظم مما قبلها، وقيل: "إلاَّ وهـي أكبر مـن أختهـا"؛ لأنَّ الأولى تقتضي علمًا والثَّانيـة تقتضي علمًا، فتضـم الثَّانية إلى الأولى فيـزداد الوضوح، ومعنى الأخوَّة هنا: المشاكلة والمناسبة، كما يقال: هذه صاحبة هذه؛ أي: همـا قريبتان في المعنى٢. قال الراغب: وسمّاها أختاً لها لاشتراكهما في الصحة والإبانة والصدق٣.

(١) المرجع السابق، (١٤/ ٦٠).
(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، (١٦/ ٨٥).
(٣) الراغب الأصفهاني، مفردات غريب القرآن، مرجع سابق، (ص: ٦٨).

المبحث الثاني

نماذج من أخوة النسب.

من خلال حصر ودراسة الآيات المُتعلقة بأخوة النسب في القرآن الكريم تبرز ثلاث نماذج تميزت بحضورها الكبير في مساحة القصص القرآني من خلال تعدد المواضع أو الآيات التي تحدثت عنها، وكثرة جوانب الحياة الأسرية والاجتماعية التي شملتها.

وقد سارت الدراسة في عرضها لهذه النماذج على النحو الآتي:

١. ذكر الآيات التي تحدثت عن مجريات قصة الإخوة فيما بينهم وما تعلق بها من بيان قرآني.
٢. بيان معنى الآيات بإيجاز.
٣. استنباط الهدايات القرآنية والفوائد التربوية من الآيات.
٤. استخلاص الأساليب الوقائية أو العلاجية التي انتهجها القرآن الكريم لضمان سلامة علاقة الأخوة أو تصحيح مسارها.

النموذج الأول: أخوة ابني[1] آدم عليه السلام

وهو نموذج عجيب اشتمل على قصة ابني آدم، جعل الله تعالى فيه العبرة والعظة لبني البشر، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن ابني آدم ضُرِبا مثلًا لهذه الأمة، فخذوا بالخيّر منهما"[2].

﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ

---

(١) هذه هي التسمية القرآنية بـ:ابني آدم، وكذلك في السنة النبوية .

(٢) رواه الطبري عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلًا من حديث الحسن البصري، جامع البيان، مرجع سابق، (١٠/ ٢٣٠).

إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ المائدة: ٢٧ - ٣٠

يُبين الله تعالى وَخيمَ عَاقبَة الْبَغْي وَالْحَسَد وَالظُّلْم فِي خَبَر ابْنَيْ آدَمَ لِصُلْبه -فِي قَوْلِ الْجُمْهُور-وَهُمَا هَابيلُ وَقَابيلُ كَيْفَ عَدَا أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَر، فَقَتَلَهُ بَغْيًا عَلَيْه وَحَسَدًا لَهُ، فيمَا وَهَبَهُ اللَّهُ منَ النِّعْمَة وتَقبّل الْقُرْبَانِ الَّذي أَخْلَصَ فيه للَّه عَزَّ وَجَلَّ، فَفَازَ الْمَقْتُولُ بوَضْع الْآثَام وَالدُّخُول إلَى الْجَنَّة، وَخَابَ الْقَاتلُ وَرَجَعَ بالصَّفْقَة الْخَاسرَة فِي الدُّنْيَا وَالْآخرَة،" أَيْ: وَاقْصُصْ عَلَى هَؤُلَاء الْبُغَاة الْحَسَدَة، إخْوَان الْخَنَازير وَالْقرَدَة منَ الْيَهُود وَأَمْثَالهمْ وَأَشْبَاههمْ- خَبَرَ ابْنَيْ آدَمَ، وَهُمَا هَابيلُ وَقَابيلُ فيمَا ذَكَرَهُ غَيْرُ وَاحد منَ السَّلَف وَالْخَلَف[1].

الهدايات والفوائد التربوية من الآيات:

-تبين الآيات نموذجًا لأعظم حَدٍّ يمكن أن تصل إليه سوء العلاقة بين الأخوة.

-الحسد معصية تسببت بأسوأ ما يمكن أن يحصل بين البشر عامة والإخوة خاصة، وهي جريمة القتل، وقد تضمنت الآيات "الْبَيَانَ عَنْ حَالِ الْحَاسد، حَتَّى إنَّهُ قَدْ يَحْملُهُ حَسَدُهُ عَلَى إهْلَاك نَفْسه بقَتْلِ أَقْرَبِ النَّاسِ إلَيْه قَرَابَةً، وَأَمَسّهُ بِهِ رَحِمًا، وَأَوْلَاهُمْ بِالْحُنُوِّ عَلَيْه وَدَفْعِ الْأَذيَّة عَنْهُ"[2]، وهو الأخ.

-أول جريمة قتل في البشرية حصلت بين الإخوة بوسوسة الشيطان عدوهم الأول، وفي هذا دلالة حرصه على إثارة النزاع بين الإخوة ووقوع الحسد والتباغض بينهم؛ لعلمه بآثار ذلك على أنفسهم ووالديهم.

-الخسران نتيجة حتمية لسوء العلاقة بين الإخوة، فابن آدم الذي قتل أخاه ناله الخسران في الدنيا والآخرة، وهو كما قال ابن عباس: "خسر دنياه وآخرته، أما الدنيا فأسخط والديه وبقى بلا أخ، وأما الآخرة فأسخط ربه وصار إلى النار"[3]. وقد ثبت في صحيح مسلم أن على

(١) أبو الفداء إسماعيل القرشي، تفسير القرآن العظيم، دار طيبة للنشر، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ١٤٢٠هـ، (٣/ ٨١-٨٢).

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، (٦/ ١٤١).

(٣) علي بن أحمد الواحدي، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، مرجع سابق، (٢/ ١٧٧).

ابـن آدم الأول الـذي قتل أخاه (قابيل) كفل ونصيب من ذنب كل من يقتل أخاه بعده إلى يوم القيامة، فقد قال رسول الله صَلَّى الله عليه وسلَّم قال: "لَا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا، إِلاَّ كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا، لِأَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ"١.

-نُصـح الأخ لأخيـه أمرٌ واجب، حتى مع شـدة العداوة وظهور النوايـا السيئة؛ لتوضيح الموقف ودفع أسباب سوء الظن.

-مـن آثـار سوء العلاقة بـين الإخوة ووقوع النـزاع بينهم: عقوق الوالديـن والتسبب في تعاستهمـا، والحسـد والحقد وقطيعـة الرحـم. ورد في الحديث عن النَّبـيِّ صَلَّـى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّـمَ أَنَّـهُ قَـالَ: "مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرَ أَنْ يُعَجِّلَ اللَّهُ عُقُوبَتَـهُ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدَّخِر لِصَاحِبِهِ فِي الْآخِـرَةِ، مِـنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ"٢. "وَقَدِ اجْتَمَعَ فِي فِعْلِ قَابِيلَ هَذَا وَهَذَا، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجعون"٣.

الأساليب الوقائية والعلاجية المُستخدمة :

-قـام الأخُ التَّقِـي ببيـان كل ما يَظُن أنه يدفع به شر أخيه لـمَّا نـوى قتله فتدرج في بيانه كما يأتي:

١-إبتـدأ ببيان أن قبول القُربان من الله وليس منـه، وأن الله تعالى يتقبل من الـمُتقين. تذكيرًا له بوجوب الرضا بما قدَّر الله له.

٢-ثـم بَـينَّ له موقفه" أنـه لا يريد أن يتعرض لقتلـه، لا ابتداءً ولا مدافعـة وليس ذلك جبنًـا مني ولا عجـزًا. وإنما ذلك لأني والخائف لله لا يقدم علـى الذنوب، خصوصًا الذنوب الكبار"٤.

---

(١) مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق: مجموعة من المحققين، بيروت: دار الجيل، (٣/ ١٣٠٣).

(٢) سليمـان بـن الأشعث، سنن أبـي داوود، تحقيق: شعَيب الأرنؤوط - محَمَّد كامِل قـره بللي، دار الرسالة العالمية، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩ م، (٢٦٣/٧).

(٣) إسماعيـل ابن كثـير، تفسير القرآن العظيم، دار طيبة للنشر، تحقيق: سامي بن محمد سلامة ، ١٤٢٠هـ، (٣/ ٩٢)

(٤) عبدالرحمن السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مرجع سابق، ص٢٢٨.

٣-ثم أنه لمَّا رأى إصرار أخيه على قتله خوَّفَهُ القتل وبين له أن النار جزاء الظالمين.

٤-علــى الأخ أن يصــبر على خطأ أخيه مُحتسبًــا؛ فيحرص على عــدم ابتدائه بالسوء، وعــدم الــرد بالمثل، فقد قال ابــن آدم التقي لأخيه الذي ينوي قتلــه: "لَا أُقَابِلُكَ عَلَى صَنِيعِكَ الْفَاسِــدِ بِمِثْلِهِ، فَأَكُونُ أَنَــا وَأَنْتَ سَوَاءً فِي الْخَطِيئَةِ مِنْ أَنْ أَصْنَعَ كَمَا تُرِيدُ أَنَّ تَصْنَعَ، بَلْ أَصْبِرُ وَأَحْتَسِــبُ"١. وقــد حــذر نبينا محمد صلى الله عليــه وسلم من فتنة تكون بــين يدي الساعة وأوصــى مــن أدرك زمانهــا ودخل عليه من يريد قتلــه في بيته أن يكون كخــير ابني آدم، قال صلــى الله عليــه وسلم: عن أَبي موسى الأشعريِّ، قال: قال رسولُ الله - صلَّى الله عليه وسلم -: "إن بــينَ يدي الساعة فتَناً كقطَعِ الليلِ المُظلم، يُصبِــحُ الرجلُ فيها مؤمناً، ويُمسي كافراً، ويُمســي مؤمناً ويُصبحُ كَافَرا، القَاعَدُ فيها خيرَ مــن القائم، والماشي فيها خير من السَّاعي، فكسِّــروا قسيَّكم، وقطَّعوا أوتاركم، واضرِبوا سيوفكُم بالحَجَــارةِ، فإن دُخِلَ -يعني على أحدٍ منكم- فليَكن كخيرِ ابني آدم"٢.

"ولقد كان في هذا القول اللين ما يفثأ الحقد ويهدئ الحسد، ويسكن الشر، ويمسح على الأعصاب المهتاجة ويرد صاحبها إلى حنان الأخوة، وبشاشة الإيمان، وحساسية التقوى"٣.

لكن مع كل ذلك لم يرتدع الأخ الشرير ولم ينزجر فقتل أخاه.

النموذج الثاني: أخوة موسى وهارون عليهما السلام

وهــذا نموذج إنساني مثالي لأخــوة نسب كانت بين نبيين عظيمــين موسى وأخاه هارون عليهمــا السلام، ولهذا فهي تعتــبر أسمى مثال لبني البشر تجتمع فيه أخوة النسب إلى مقام النبوة العظيم.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، (٣/ ٨٥)

(٢) سليمان بن الأشعث، سنن أبي داوود، مرجع سابق، (٦/ ٣١٥).

(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، (٢/ ٨٧٦)

وقد ورد ذكر أخوة[1] موسى وهارون عليهما السلام –لفظ الأخوة مع الاسمين- في أكثر من سورة من سور القرآن الكريم، وهي: سورة الأعراف في آية رقم: (١٤٢)، سورة مريم في آية: (٥٣)، سورة طه في آية رقم: (٣٠، ٧٠، ٩٤)، سورة المؤمنون في آية رقم: (٤٥)، سورة الفرقان في آية رقم: (٣٥)، سورة الشعراء في آية رقم: (١٣)، سورة القصص في آية رقم: (٣٤)، (الأعراف:١١١، ١٥٠، ١٥١)، (يونس:٨٧)، (مريم:٥٣) (طه:٤٢، ٩٤)، (الشعراء:٣٦)، (القصص:٣٥)

ولطول الآيات التي تضمنت سياق كل آية، سيذكر فيما يلي بعض الآيات التي ورد فيها ذكر أخوة موسى وهارون كمثال فقط أو ما يدل على معناها، كما يلي:

﴿ قَالُوٓاْ أَرْجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ ﴾ الأعراف: ١١١

﴿ ۞ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ الأعراف: ١٤٢

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾ الأعراف: ١٥٠ - ١٥١

﴿ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ الشعراء: ٣٦

تتحدث الآيات في مجملها عن قصة إرسال موسى عليه السلام وطلبه من الله تعالى أن يجعل له وزيرًا من أهله وهو أخوه هارون، فاستجاب الله تعالى له. ثم تحدث الآيات عمَّا حصل بعد ذهاب موسى عليه السلام لميعاد ربه وقد أخلف أخيه هارون في قومه، وما حصل

---

(١) وقد ذكر الاسمان مقترنان –دون ظهور لفظ (أخ) أو مشتقاته أو ما يدل على معناه- في مواضع أخرى من القرآن وهي: (سورة النساء:١٦٣)، (الأنعام:٨٤)، (الأعراف:١٢٢)، (يونس:٧٥)، (الأنبياء:٤٨)، الشعراء:٤٨)، (الصافات: ١٢٠،١١٤).

من عبادة قومهما للعجل وعودة موسى وغضبه من أخيه وقومه، ثم بيان عذر هارون عليه السلام، وتُختم الآيات بدعاء موسى ربه تعالى بأن يغفر لهما....

الهدايات والفوائد التربوية من الآيات:

-تقدم الآيات نموذجًا لما يمكن أن تكون عليه علاقة الأخوة الطبيعية في أفضل حالتها، بل هو في حقيقته نموذج مثالي لكل أخ، وإن كان ظاهرُ الآيات يُبين أن موسى قد وقع منه الغضب على أخيه هارون بل وأخذ برأسه يجره إليه، إلا أن حصول سوء الفهم أو الإشكال بين الإخوة أمر وارد، قد يطرأ ولا يتنافى مع أساس المحبة والثقة والرحمة، كما أن العلاقة الطيبة تعود لمجراها الطبيعي بمجرد زوال الخطأ وبيان الحق.

- على الأخ أن لا يستجيب لداعي الغضب بمعاقبة أخيه أو قطع صلته به بمجرد سوء الفهم أو الظن، بل عليه السؤال والاستفهام عمَّا يراه خطأً مع تقديم إحسان الظن بالأخ والاعتذار عنه وإليه.

- كان غضب موسى عليه السلام على أخيه غضبًا لله، وسببه: " أنه توهم أن (أخاه) عصى الله بمُقامه بينهم (-أي بني إسرائيل-) وتركِ اللحوق به، وتعريفِه ما أحدثوا بعده ليرجع إليهم فيتلافاهم ويردّهم إلى الحقّ"[1].

-خلاف الإخوة وشجارهم سبب لشماتة الأعداء بهم وهو أمرٌ يسوء الأخ.

-يستفاد من تذكير هارون لموسى عليهما السلام بأمهما أهمية دور الأم في حل النزاع بين الإخوة، وفائدة استغلال ذلك من قِبَل لمصلحين بين الإخوان في حال الخلاف سواء بتذكيرهم بأمهم وحقها عليهم وسعادتها باتفاقهم ودوام محبتهم وصلاح ذات بينهم، أو من خلال تدخلها لحل الخلاف إذا لزم الأمر.

-من أعظم النعم على الإنسان أن يرزقه الله أخًا صالحًا يكون له ظهيرًا وعضيدًا، ولذلك فدعاء الله بصلاح الأخ وطلب عونه من الله تعالى أمر مندوب، قال موسى عليه

(١) عبدالرحمن ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، مرجع سابق، (٢/ ١٥٦)

السلام﴿ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ ﴾طه: ٢٩، فهارون عليه السلام هبة الله لموسى عليه السلام، فهو وزيره ومن أهله خاصة ليكون محل ثقته ومرافقه في الدعوة إلى الله، ﴿ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ٥٣ ﴾ مريم: ٥٣.

-من أولى الناس بنفع الإنسان أخوه من النسب، وأعلى الإخوان نفعًا لأخيه هو موسى عليه السلام، حين طلب أن يجعل الله له وزيرًا من أهله -هارون- يبعثه معه نبيًا، فقال: ﴿ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ٣٣ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ٣٥ ﴾طه: ٢٩ – ٣٥، وقد ذكر ابن كثير أن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها خَرَجَتْ فِيمَا كَانَتْ تَعْتَمِرُ، فَنَزَلَتْ بِبَعْضِ الْأَعْرَابِ، فَسَمِعَتْ رَجُلًا يَقُولُ: أَيُّ أَخٍ كَانَ فِي الدُّنْيَا أَنْفَعَ لِأَخِيهِ؟ قَالُوا: مَا نَدْرِي. قَالَ: وَاللَّهِ أَنَا أَدْرِي قَالَتْ: فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: فِي حَلِفِهِ لَا يَسْتَثْنِي، إِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَيَّ أَخٍ كَانَ فِي الدُّنْيَا أَنْفَعَ لِأَخِيهِ. قَالَ: مُوسَى حِينَ سَأَلَ لِأَخِيهِ النُّبُوَّةَ. فَقُلْتُ: صَدَقَ وَاللَّهِ[1].

-للأخ أن يستثمر ميزات أخيه بما يعود عليهما بالنفع والصلاح، فموسى عليه السلام طلب من ربه أن يشد ظهره بأخيه ويرسله معه لفصاحته، فقال:﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ٣٤ ﴾القصص: ٣٤، " وَخَصَّ هَارُونَ لِفَرْطِ ثِقَتِهِ بِهِ وَلِأَنَّهُ كَانَ فَصِيحَ اللِّسَانِ مِقْوَالًا، فَكَوْنُهُ مِنْ أَهْلِهِ مَظِنَّةُ النُّصْحِ لَهُ، وَكَوْنُهُ أَخَاهُ أَقْوَى فِي الْمُنَاصَحَةِ، وَكَوْنُهُ الْأَخَ الْخَاصَّ لِأَنَّهُ مَعْلُومٌ عِنْدَهُ بِأَصَالَةِ الرَّأْيِ"[2].

الأساليب الوقائية والعلاجية المُستخدمة:

-عند وقوع الخلاف بين الإخوة على الأخ المبادرة لبيان العذر وشرح ما خفي عن أخيه، حتى يقطع السبيل أمام سوء الظن أن يقع أو يستمر. وهذا ما فعله هارون عليه السلام لمَّا وقع غضب موسى عليه السلام حين رأى قومه قد عبدوا العجل ورأى من أخيه تقصيرًا في الانكار عليهم.

-استخدام الألفاظ المناسبة عند الكلام مع الأخ من الأمور المهمة الداعية لترقيق القلب

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، (٥/ ٢٨٣).

(٢) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، (١٦/ ٢١٢).

وزوال الغضب، "وقوله: ابْنَ أُمَّ استلطاف برحم الأم إذ هو ألصق القرابات"١. والانسان أرق ما يكون عند ذِكر أمه.

-قبـول عذر الأخ، والتراجع عن الخطأ في حقه، والاعتذار عند ظهور براءته مما أوجب العتـب عليـه، وقد قال موسى عليـه السلام " لَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ عُذْرُ أَخِيـه، رَبِّ اغْفِرْ لي، مَا صَنَعْتُ إِلَى أَخِي، وَلأَخِي، إِنْ كَانَ مِنْهُ تَقْصِيرٌ فِي الْإِنْكَارِ عَلَى عَبَدَةِ الْعِجْلِ، وَأَدْخِلْنَا جَمِيعًا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ"٢.

-الدعاء للإخوة أمر مهم، وقد دعا موسى عليه السلام لأخيه، ولعله كان على مسمع من هـارون عليـه السلام، وربما كان حسنًا أن يقع أمام النـاس إذا كان الخلاف قد وقع أمامهم سابقًـا، ولعـل موسى عليـه السلام فعل ذلك "ليُرضِى أخاه ويظهر لأهـل الشماتة رضاه عنه فـلا تتم لهم شماتتهـم، واستغفر لنفسه مما فرط منه إلى أخيـه، ولأخيه أن عسى فرط في حسن الخلافة"٣.

-ذكـر موسى عليه السلام وصف الأخوة في دعائه، وذلك " زِيَادَةٌ فِي الاسْتِعْطَافِ عَسَى اللَّهُ أَنْ يُكْرِمَ رَسُولَهُ بِالْمَغْفِرَةِ لِأَخِيهِ كَقَوْلِ نُوحٍ: رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي [هود: ٤٥]"٤.

-الحرص على إنهاء الخلاف بين الإخوة في وقت نشوؤه أمر مطلوب، يضمن رجوع الأمور إلى مسارها الطبيعي وراحة النفوس وزوال موجدتها قبل التفرق.

ويكتمـل جمال هـذا النموذج ويـزداد وضوح أثـره في النـاس ببيان نـوع آخر من علاقة الأخـوة حيث ذكر القرآن الكريم أخوة نسب أخرى تربط موسى عليه السلام بأخته في آيتين مختلفتين من سورة طه والقصص، تبين منها دورها العظيم في رجوعه إلى أمه ومدى حرص

(١) ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، مرجع سابق، (٢/ ٤٥٧). وفيه أيضًا: " فان قيل: لم قال: "يا ابن أمَّ" ولم يقل: "يا ابن أب"؟ فالجواب أن ابن عباس قال: كان أخاه لأبيه وأُمه، وإنما قال له ذلك ليرقّقـه عليه. قال أبـو سليمان الدمشقي: والإنسان عند ذكر الوالدة أرقُّ منـه عند ذكر الوالد. وقيل: كان لأمه دون أبيه، حكاه الثعلبي. (٢/١٥٧).

(٢) البغوي، معالم التنزيل في تفسير القرآن، مرجع سابق، (٢/ ٢٣٦)

(٣) الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، مرجع سابق،(٢/ ١٦٢).

(٤) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، (٩/ ١١٨)

الأخت وعنايتها بما أصلح حاله في صغره، وهي:

﴿ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَـٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَـٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّـٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ طه: ٤٠

﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ﴾ القصص: ١١

الهدايات والفوائد التربوية من أخوة موسى عليه السلام وأخته:

أمر الله تعالى أم موسى عليه السلام أن تلقيه في اليم ولا تخاف، فامتثلت أمر الله، ثم قالت لأخته: اتَّبِعي أثر موسى كيف يُصنع به؟ فتتبعت أثره فأبصرته عن بُعد، وقوم فرعون لا يعرفون أنها أخته، وأنها تتبع خبره.

-على الأخوة أن يكونوا عونًا للوالدين في رعاية شؤون بعضهم كما كانت أخت موسى عونًا لأمها وسببًا في رجوع أخيها موسى إلى أمه فتقر عينها به.

- التعبير القرآني عن أخت موسى عليه السلام بأُخوتها له، فقيل: (قالت لأخته)، دون أن يقال: قالت لابنتها نسبة إلى الأم، وذلك للتصريح بمدار المحبة -بين الإخوة- الموجبة للامتثال بالأمر[1].

-أهمية دور الأخت الكبرى في رعاية إخوتها.

النموذج الثالث: أُخُوة أبناء يعقوب عليه السلام

هذا نموذج آخر من بيت نبوة؛ فالأب يعقوب عليه السلام، والأبناء يوسف عليه السلام وإخوته الأحد عشر، وقع فيه الحسد من الإخوة لأخويهم غير الشقيقين: يوسف وبنيامين. وقد ذكرت قصتهم كاملة في سورة واحدة هي سورة يوسف. ووصف الله تعالى قصتهم بأنها أحسن القصص.

---

(١) شهاب الدين الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ، (٢٠/ ٥٠).

ورد لفظ أخ أو ما اشتق منه في هذه السورة تسعة عشر مرة، أما الآيات التي تحدثت بمعناها عن علاقة الأخوة بين أبناء يعقوب عليه السلام فهي كثيرة بدأت من أول القصة وحتى نهايتها في آية: (١٠١).

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ يوسف:٤

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ يوسف: ١٠٠ .

تُوضح الآيات ما حصل بين يوسف عليه السلام وإخوته، بداية برؤيته لرؤيا في المنام، وأنه قصَّها على أبيه يعقوب؛ قائلًا: إني رأيت في المنام أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين-وكانت هذه الرؤيا بشرى لما وصل إليه يوسف عليه السلام من علو المنزلة في الدنيا والآخرة-، قال يعقوب لابنه يوسف: يا بني لا تذكر لإخوتك هذه الرؤيا فيحسدوك، ويعادوك، ويحتالوا في إهلاكك، إن الشيطان للإنسان عدو ظاهر العداوة.

ووقع ما كان يخشاه الأب الحليم، فقد حسد الإخوة أخاهم يوسف ودفعهم هذا الحسد والغيرة إلى تدبير التخلص منه برميه في البئر، ثم توالت الأحداث بيوسف عليه السلام إلى أن صار عزيز مصر وجاء إخوته إليه لطلب المعونة، ثم حكى القرآن ما حصل بينهم وكيف تعارفوا؟ ومغفرة يوسف عليه السلام لما كان منهم، ثم اجتماع شمل يوسف بأبويه وإخوته -بعد توبتهم- من جديد.

الهدايات والفوائد التربوية من الآيات:

- قد يقع بين الإخوة حسد وكيد، وإن كانوا ناشئين في بيت النبوة، بسبب الشيطان الذي يسعى لإثارة العداوة والتفريق بينهم. وعلى الأب أن يحرص على دفع العداوة فلا تقع بين الإخوة، وذلك بإخفاء ما يسبب الحسد، كما فعل يعقوب مع ابنه يوسف عليهما السلام وإخوته، حين "نهاه عن قص الرؤيا عليهم خوفا أن تغِّل بذلك

صدورهم، فيعملوا الحيلة في هلاكه"[1].

- في اجتماع الأخوة على أمر من الأمور وسيلة لتحقيق أهدافهم، وقد اجتمع أخوة يوسف لإقناع أبيهم يعقوب عليه السلام لأخذ يوسف معهم، وهذا العمل منهم وإن كان استغلالاً لاجتماعهم في الاحتيال على أبيهم، إلا أنه وسيلة مهمة لتوحيد كلمة الإخوة واستخدام قوة اجتماعهم في أمور الخير.
- الحذر من الحسد بين الإخوة، لأنه يجر أعمال سوء أخرى منها: "قطع الرحم، عقوق الوالدين، وقلة الرأفة بالصغير الذي لا ذنب له، والغدر بالأمانة، وترك العهد والكذب مع أبيهم"[2].
- قد يُبتلى الإنسان من أقرب الناس إليه، كما وقع البلاء ليوسف عليه السلام من إخوته؛ فبسببهم انقطع عن والده سنينًا طوالاً مع ما وقع له فيها من التهمة والسجن، ثم كانت عاقبة أمره إلى خير.
- العبرة في حال العبد بكمال النهاية، لا بنقص البداية؛ فإن إخوة يوسف عليه السلام جرى منهم ما جرى من أفعال في أول الأمر، وهي من أكبر أسباب النقص واللوم، ثم انتهى أمرهم إلى التوبة النصوح، والسماح التام من يوسف عليه السلام، ومن أبيهم، والدعاء لهم بالمغفرة والرحمة[3].
- من النعم التي أنعم الله سبحانه وتعالى بها على يوسف عليه السلام -بعد النبوة-: حسن الخُلق، وشدة البر بأبيه، والإحسان إلى إخوته.

الأساليب الوقائية والعلاجية المُستخدمة:

-تحذير الأب لأحد أبناءه من إخبار إخوته بأمر ما يخصه إذا علم بأنه سَيُسبب الحسد له منهم، كما فعل يعقوب عليه السلام مع يوسف. ولكن مع التنبيه هنا أن قيام يعقوب عليه

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، (١١٠/٩).

(٢) البغوي، معالم التنزيل، مرجع سابق، (٤٤٠/١٢).

(٣) عبد الرحمن السعدي، تيسير الكريم الرحمن، مرجع سابق، ص٤٠٧.

السلام بذلك التحذير كان لثقته بأن التحذير لا يثير في نفس ابنه يوسف كراهة لإخوته؛ لأنه وثق منه بكمال العقل، وصفاء السريرة، ومكارم الخلق، ومن كان حاله هكذا كان سمحًا، عاذرًا، معرضًا عن الزّلات، عالمًا بأثر الصبر في رفعة الشأن[1]. كما أن يعقوب عليه السلام اعتذر أيضًا عن أبناءه فيما لو وقع منهم كيد لأخيهم يوسف بأن سبب وقوعه هو عداوة الشيطان.

-من بر الوالدين عدم إساءة الأخ لإخوانه أو ذكرهم بالسوء في غيبتهم أمام والديه أو تذكيرهم بما كان منهم سابقًا؛ لأن لهذا أثر في صفاء قلوب الإخوة، كما كان من يوسف عليه السلام عند حديثه مع أبيه عن نعم الله عليه حين اجتمع شملهم، فحرص أن لا يذكر إخوته بما يسوؤهم أمام أبيه؛ لئلا يدخل الحزن على قلبه إذا سمع منه ما يدل على بقاء العداوة بينهم. كما أن من أدبه مع أبيه أن تَأدَّب مع إخوته أيضًا، وهذا وإن كان واجبًا من الأخ في كل حال فهو في وجود الأب أكثر وجوبًا، ومما يدل على ذلك "ولم يقل الجُب مع كونه أشد بلاءً من السجن، استعمالاً للكرم لكيلا يخجل إخوته بعدما قال لهم"[2]: . وأحال ذنب إخوته على الشيطان[3].

-على الأخ أن يتحلى بالصبر في مقابلة ظلم أخيه، ففي قصة يوسف عليه السلام مع إخوته " دَلَائِلُ عَلَى مَا لِلصَّبْرِ وَحُسْنِ الطَّوِيَّةِ مِنْ عَوَاقِبِ الْخَيْرِ وَالنَّصْرِ"[4].

-على الأخ أن يكون قريبًا من أخيه في كل حال وفي مواقف المحن على وجه الخصوص؛ حيث تشتد الحاجة إلى الأخ سندًا وعضيدًا وباعثًا للطمأنينة في نفس أخيه المظلوم، فعل ذلك يوسف عليه السلام مع أخيه بنيامين، أي: ضم إليه أخاه لأبيه وأمه[5] قال الرازي: أَرَادَ تَعْرِيفَ أخيه بنيامين بالنَّسَبِ، لِأَنَّ ذَلِكَ أَقْوَى فِي إِزَالَةِ الْوَحْشَةِ وَحُصُولِ الْأُنْسِ[6].

---

(١) محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، (١٢/ ٢١٤).

(٢) البغوي، معالم التنزيل، مرجع سابق، (١٣/ ٥٠٠).

(٣) محمد بن علي الشوكاني، فتح القدير، دار الخير، بيروت، ١٤١٢ هـ- ١٩٩١ م، (٣/ ٦٥).

(٤) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، (١٢/ ٢١٨)

(٥) ابن جرير الطبري ، جامع البيان، مرجع سابق، (١٦/ ١٦٩).

(٦) فخر الدين الرازي، التفسير الكبير، مرجع سابق، (١٨/ ٤٨٥)

-علـى الأخ المظلوم حين يصبـح في موقف القوة أن يحذر من مطاوعـة نفسه إلى إيقاع العقوبـة بمـن ظلمه من إخوته، وليكـن فعل يوسف عليه السلام قدوة لـه، حيث اتهمه إخوته بالسرقة-وهـو ملـك مصر دون علمهـم بمكانته- زيادة على ما فعلوه بـه سابقًا من رميه في البئـر وقطعـه من أبيـه وأخيه بنيامين مدة طويلـة، فكتم غيظه مع قدرتـه عليهم؛ لحصول مصلحـة أكـبر وهي صلاح إخوته وذهاب غل قلوبهم بما يرونـه من عفوة وكريم خلقه معهم رغـم ظلمهم لهم. يقـول الطاهر بن عاشور: وَيَكُـونُ مَعْنَى أَسَرَّهَا فِي نَفْسِهِ أَنَّـهُ تَحَمَّلَهَا وَلَمْ يُظْهِرْ غَضَبًا مِنْهَا، وَأَعْرَضَ عَنْ زَجْرِهِمْ وَعِقَابِهِمْ مَعَ أَنَّهَا طَعْنٌ فِيهِ وَكذب عَلَيْهِ[1].

- التقوى والصبر هما علاج ناجع قابل به يوسف عليه السلام -بفضل الله ومنه عليه- صنيـع إخوته به، "يقول إنه من يتق الله فيراقبه بـأداء فرائضه واجتناب معاصيه... ويكفّ نفسـه، فيحبسها عما حرَّم الله عليه من قـول أو عمل عند مصيبة نزلتْ به من الله؛ ... فإن الله لا يُبْطل ثواب إحسانه وجزاء طاعته إيَّاه فيما أمره ونهاه"[2].

-العفـو والصفح الجميـل عن الأخ المخطئ؛ فـلا يُذكره بخطئه بعـد الصفح، كما فعل يوسـف عليـه السلام مـع إخوته، يقول ابـن جرير الطـبري: يقول تعالى ذكـره: قال يوسف لإخوتـه: (لا تثريب) أي: لا تعيير عليكم ولا إفســاد لما بيني وبينكم من الحرمة وحقّ الأخوة، ولكـن لكـم عندي الصفح والعفـو[3]. وعند الطبري أيضًـا: عن ابن إسحــاق: (قال لا تثريب عليكـم اليوم): أي لا تأنيب عليكم اليوم عندي فيمــا صنعتم، وعن السدي قال: اعتذروا إلى يوسف فقال: (لا تثريب عليكم اليوم،) أي لا أذكر لكم ذنبكم[4].

-الدعاء للإخوة بالمغفرة على مسمع منهم له وقع كبير في زوال ما في النفوس، فقد دعا يوسـف عليـه السلام لإخوته بالمغفرة قال الـرازي: ثُمَّ إِنَّهُ لَمَّا بَيَّنَ لَهُمْ أَنَّـهُ أَزَالَ عَنْهُمْ مَلَامَةَ الدُّنْيَا طَلَبَ مِنَ اللَّهَّ أَنْ يُزِيلَ عَنْهُمْ عِقَابَ الْآخِرَةِ فَقَالَ: يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَالْمُرَادُ مِنْهُ الدُّعَاءُ[5].

---

(١) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، (١٣/ ٣٤-٣٥).
(٢) ابن جرير الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، (١٦/ ٢٤٤).
(٣) المرجع السابق، (١٦/ ٢٤٧).
(٤) المرجع السابق، (١٦/ ٢٤٧).
(٥) فخر الدين الرازي، التفسير الكبير، مرجع السابق، (١٨/ ٥٠٦).

المبحث الثالث

آثار اتفاق الإخوة وأسباب الخلاف بينهم، وأساليب تقويم الخلاف بينهم

يظهر من خلال دراسة الآيات المتعلقة بأخوة النسب أن هناك آثارًا لاتفاق الإخوة وصلاح العلاقة بينهم، كما أن هناك أسباب للخلاف وسوء العلاقة. وفيما يأتي ذكرٌ لبعض هذه الآثار، وبعض الأساليب التي استنبطت من الآيات لتقويم هذا الخلاف.

آثار الاتفاق الإخوة:

- المحبة والمودة بين الإخوة واستقرار الحياة وراحة النفوس بعيدًا عن العداوات.
- الاحسان للإخوة بر بالوالدين وسبب لسعادتهما.
- الأخ الصالح نعم النصير والعضيد والمعين على الطاعة ومحل ثقة أخيه وأكثر الناس له نفعًا.
- صلاح الأخ تشريف ومزية يذكر بها إخوته، كما أن فسادة مسبة.
- الأخ عون لوالديه في رعاية شؤون إخوانه كما كانت أخت موسى عونًا لأمها وسببًا في رجوعه إليها فقرت عينها به.
- قُرب الأخ من أخيه في كل حال وفي مواقف المحن على وجه الخصوص.
- اجتماع الإخوة قوة لهم في أمور الدنيا والدين، كما كان اجتماع موسى وهارون عليهما السلام في أمر الدعوة والعبادة، وكما حصل من إخوة يوسف مجتمعين في أغلب أفعالهم.

أسباب الخلاف بين الإخوة:

من أشنع آثار الخلاف التي يُمكن أن تقع بين الإخوة جريمة قتل أحدهم للآخر، ثم تأتي بعدها آثار أخرى تختلف درجتها ومدة استمرارها، كوقوع النزاع بينهم وعقوق الوالدين والتسبب في تعاستهما، والحسد والحقد وقطيعة الرحم.

وفي ضوء الآيات الكريمة التي تناولت موضوع أخوة النسب، يظهر أن هناك أسباب أساسية لحصول الخلاف بين الإخوة، كما يأتي:

١-عداوة الشيطان، وهي عداوة أزلية مستمرة إلى قيام الساعة، توعد فيها بزرع الفتنة بين بني الإنسان، وقد أشار إلى أثرها يوسف عليه السلام حين قال:﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّاۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ يوسف: ١٠٠، كما أن يعقوب عليه السلام حذر ابنه يوسف عليه السلام منه في بداية القصة حين قال: ﴿ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ ﴾ يوسف: ٥

٢-الحسد، وهو معصية تسببت بأسوأ ما يمكن أن يحصل بين البشر عامة والإخوة خاصة، وهي جريمة القتل، وقد تضمنت الآيات الْبَيَانَ عَنْ حَالِ الْحَاسد، حَتَّى إِنَّهُ قَدْ يَحْمِلُهُ حَسَدُهُ عَلَى إِهْلَاكِ نَفْسِه بِقَتْلِ أَقْرَبِ النَّاسِ إِلَيْه قَرَابَةً، وَأَمَسُّهُ بِه رَحِمًا، وَأَوْلَاهُمْ بِالْحُنُوِّ عَلَيْه وَدَفْعِ الْأَذِيَّةِ، ثم هو يستلحق أفعال سوء يجر بعضها بعضًا: كقطع الرحم، عقوق الوالدين، وقلة الرأفة بالصغير الذي لا ذنب له، والغدر بالأمانة، وترك العهد والكذب مع الوالدين أو أحدهما. وعن أَنَسُ بْنُ مَالِك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "لاَ تَبَاغَضُوا، وَلاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا"[١].

٣- سوء الظن أو توهم الخطأ، كما فعل إخوة يوسف عليه السلام حين أساؤا الظن بأبيهم، وموسى عليه السلام توهم أن أخاه هارون عليه السلام عصى الله بمُقامه بين قومه بعد أن عبدو العجل وترك اللحوق به، وتعريفه ما أحدثوا بعده ليرجع إليهم فيتلافاهم ويردّهم إلى الحقّ. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ"[٢].

---

(١) محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ١٤٢٢ه، (٨/ ١٩).

(٢) المرجع السابق، (٨/ ١٩).

أساليب تقويم الخلاف بين الإخوة:

فيما يلي أساليب مستنبطة من الآيات الكريمة، وبعض شواهدها:

-النصيحة الهادئة بالكلمة الطيبة من الأخ في مقابل الكلمة السيئة من أخيه: كما فعل هابيل مع أخيه قابيل .

-الموعظة وتخويف الأخ الظالم بالله، قال هابيل لأخيه. تخويفًا له بالله.

-التحذير من إظهار ما يمكن أن يسبب العداوة ويستجلب الحسد بين الإخوة، كإظهار مزية عند من يُعلم عنه سوء الفهم.

- عدم إساءة الأخ لإخوانه أو ذكرهم بالسوء في غيبتهم أمام والديهم أو تذكيرهم بما كان منهم سابقًا. كما فعل يوسف عليه السلام فلم يُذكِّر إخوانه بفعلهم أمام والديه.

-المبادرة لبيان العذر عند وقوع الخلاف بين الإخوة، وشرح ما خفي عن الأخ، حتى يقطع السبيل أمام سوء الظن أن يقع أو يستمر. وهذا ما فعله هارون عليه السلام -قبول عذر الأخ، والتراجع عن الخطأ في حقه، والاعتذار عند ظهور براءته مما أوجب العتب عليه

-دور الأم في حل الخلاف بين الإخوة، يستفاد هذا من تذكير هارون لموسى عليهما السلام بأمهما .

وللمصلحين الاستفادة من هذا في حال الخلاف بين الإخوة سواء بتذكيرهم بأمهم وحقها عليهم وسعادتها باتفاقهم ودوام محبتهم وصلاح ذات بينهم، أو من خلال تدخلها لحل الخلاف إذا لزم الأمر.

-استخدام الألفاظ المناسبة عند الكلام مع الأخ من الأمور المهمة الداعية لترقيق القلب وزوال الغضب، وقوله ابْنَ أُمَّ استلطاف واستعطاف بالرحم.

-العفو والصفح الجميل من الأخ حتى مع القدرة على الرد.

-التقوى والصبر هما المُعين بعد الله تعالى على حل الخلاف وانتظار الفرج، قال يوسف عليه السلام لمّا بدت بشائر لقاءه بأبيه وأخيه:

- الدعاء للإخوة أمر مهم، وقد دعا موسى عليه السلام لأخيه، ودعا يوسف عليه السلام لإخوته، مع ذكر وصف الإخوة زيادة في استعطاف

-الحرص على إنهاء الخلاف بين الإخوة في وقت نشؤه أمر مطلوب، يضمن رجوع الأمور إلى مسارها الطبيعي وراحة النفوس وزوال موجدتها قبل التفرق.

وهذه الأساليب في الحقيقة حلول ناجعة وصالحة لكل زمان، وفي وقتنا المعاصر تهتم كثير من الجهات بإصلاح ذات بين الإخوة، حيث توجه إليها بعض القضايا المُتعلقة بهم لحلها، ومن خلال تعامل هذه الجهات مع مثل هذه القضايا ظهرت أسباب أخرى للخلاف بين الإخوة ارتبطت بوجود حقوق وواجبات في الأسرة، ومن هذه الأسباب:

- الميراث وتأخر الإخوة في تقسيمه.
- النفقة على الوالدين في حال وجوبها على الأولاد.
- النزاع بين الزوجات في حال كان للأب أكثر من زوجة.
- التفرقة في المعاملة بين الذكر والأنثى بحكم العادات والتقاليد.
- -الأنانية وحب الظهور والسيطرة أمام الوالدين.

ومن الأساليب التربوية التي يمكن اتباعها لمحاولة القضاء على الخلافات الناتجة من هذه الأسباب أو التقليل من مظاهرها، ما يلي:

-يجب أن يكون دور الوالدين حاضرًا للوقاية من هذه الخلافات كما يلي:

١. القدوة: فإذا كان الوالد مهتمًا وحريصًا على سلامة علاقته بإخوته، صار قدوة لأبنائه.
٢. التلقين المباشر: لابد أن يكون التوجيه مباشرًا للأبن في محبة إخوانه واحترامهم، وتفقد أحوالهم، وإبداء حسن الظن بهم في كل حال.

٣. العـدل بين الأبناء: العدل في النفقة والمعاملة، وهو أمر لازم به يتقي الوالدين كثيرًا من الخلافات.
٤. تربية الأبناء على التَّسامُح مع إخوانهم.
٥. الدعـاء لهـم والثناء على ترابط علاقتهـم معًا: وأن يكون ذلك علـى مسمع منهم؛ فيحفزهم نحو المزيد.
٦. تعْويدهم علـى التَّعبير عن المشاعِر والإفصاح عنْها: وذلـك بإبداء المحبة والخوف علـى بعضهم، والعتاب اللطيـف الذي يزيل كل ما قد يعلق بالنفـس، أو يدعو لسوء الظن بالأخ.
٧. بث روح التعاون والعمل الجماعي بين الأبناء: وذلك بتكليفهم بالعمل معًا والإشراف عليهم.
٨. التَّأكيد على أهمِّيَّة دور الأخ الأكبر في تقْوية العلاقة بين الإخوان: ومما يُساعد على ذلـك زرع مكانـة خاصة له في نفوس الأبناء، يسودها الحـب والاحترام من جانب الإخوة، والشعور بالمسؤولية من جانب الأخ أو الأخت الكبرى.

- أما في حال وقع الخلاف فهناك بعض التوجيهات التي يمكن أن تفيد في هذا الجانب:

١. على الأبناء أن يحلوا خلافاتهم بينهم قبل أن تصل إلى الوالدين برًا بهما.
٢. لابـد أن يكـون دور الأب حاضرًا للوقاية من الخلافات بـين الأبناء وخاصة في حال كون أبنائه من زوجات متعددات.
٣. يمكـن الاستعانـة بجهة خارجية لحـل الخلاف، فيما لو لم يصـل الإخوة لحل مناسب لجميع الأطراف.

الخاتمة

تناولت الدراسة موضوع أخوة النسب في القرآن الكريم، فبينت مكانتها ومفهومها، ثم أفردت ثلاثة نماذج بالتحليل والاستنباط بسبب ما حضيت به من مساحة كبيرة من آيات القرآن الكريم، وهي: الأول: أخوة ابني آدم عليه السلام، والثاني: أخوة موسى وهارون عليهما السلام، والثالث: أخوة أبناء يعقوب عليه السلام.

ثم استنبطت الدراسة في المبحث الأخير منها: آثار اتفاق الإخوة وأسباب الخلاف بينهم، وأساليب تقويم الخلاف بينهم ، ومن النتائج التي توصلت إليها الدراسة ما يلي:

- اهتمام القرآن الكريم بكل ما يضمن سلامة وحفظ علاقة أخوة النسب من المشكلات التي قد تعترضها، وسبل تقويمها.
- أعطى القرآن الكريم نماذج متعددة لأخوة النسب، منها الإيجابي كما كان بين موسى وأخته أو بين موسى وأخيه هارون. ومنها السلبي الذي انتهى بأسوأ ما يمكن أن يحصل بين الإخوة وهو القتل كما كان بين ابني آدم. ونموذج ثالث اعترضه ما يمكن أن يعترض علاقة الأخوة من مشاكل إلا أنه يعود إلى مساره الطبيعي كما حصل بين يوسف وإخوته.
- صلاح الأخ الشقيق أو غير الشقيق تشريف لإخوته ومؤثر في صلاحهم.
- الصبر والدعاء للأخ من أهم الأمور التي تُحل بها الخلافات.
- تقوى الله في عدم التعدي وانتهاك حرمات الله في المعاملة من أعظم ما يُعين على حلول الخلافات على المدى القريب أو البعيد.

المقترحات:

تقترح الدراسة على اللجان المُختصة بإصلاح ذات البين الاستفادة من أساليب التقويم المذكورة لحل الخلافات الخاصة بالإخوة والأخوات.

التوصيات

توصي الدراسة بإجراء دراسة خاصة عن حقوق الإخوة المالية والاجتماعية في القرآن الكريم.

قائمة المراجع

١. الحسين بن مسعود البغوي، معالم التنزيل، تحقيق: عبدالرزاق المهدي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ.

٢. ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبدالسلام عبدالشافي، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ.

٣. جمال الدين ابن منظور، لسان العرب، دار صادر بيروت، ٢٠٠٠م.

٤. علي بن أحمد الواحدي، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.

٥. إسماعيل ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار طيبة للنشر، تحقيق: سامي بن محمد سلامة ، ١٤٢٠هـ.

٦. عبدالرحمن ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٢٢هـ.

٧. عبدالرحمن ابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

٨. شهاب الدين الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥ه.

٩. سليمان بن الأشعث، سنن أبي داوود، تحقيق: شعَيب الأرنؤوط ومحَمَّد كامِل،دار الرسالة العالمية، ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.

١٠. محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ط٢، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

١١. الراغب الأصفهاني، مفردات غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داودي، دار القلم، دمشق، ١٤١٢هـ -١٩٩٢م.

١٢. محمود جار الله الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، بيروت: دار الكتاب

العربي، ط٣، ١٤٠٧ه.

١٣. سيد قطب، في ظلال القرآن، ط١٧، بيروت: دار الشروق، ١٤١٢ه.

١٤. عبدالرحمن بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبدالرحمن اللويحق، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

١٥. فخر الدين الرازي، التفسير الكبير، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

١٦. محمد السيد يوسف، منهج القرآن الكريم في إصلاح المجتمع، ط٢، دار السلام، القاهرة، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م.

١٧. محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، تنوس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.

١٨. محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير الناصر، دار طوق النجاة، ١٤٢٢ه.

١٩. محمد بن جرير الطبري، جامع البيان، تحقيق: أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

٢٠. محمد بن علي الشوكاني، فتح القدير، دار الخير، بيروت، ١٤١٢ ه- ١٩٩١ م.

٢١. مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق: مجموعة من المحققين، بيروت: دار الجيل.

محمد عالم أبوالبشر شاهر ملوك

-محل الميلاد/ دولة الإمارات العربية المتحدة –مدينة دبي-.

× **المؤهلات الدراسية:**

- -بكالاريوس الشريعة.
- -ماجستير في الكتاب والسنة قسم الحديث وعلومه من جامعة أم القرى بتقدير امتياز- ١٤٣٠.
- -دبلوم في الحاسب آلي - المعهد العالمية-كلية المعلمين،بتقدير امتياز.
- -إجازات في كتب الحديث والسنة.
- -شهادة حفظ القرآن الكريم.
- - شهادة معهد دارالأرقم لتدريس القرآن الكريم.عام ١٤١٤.
- -دورات في الحاسب الآلي.قسم الصيانة-والبرمجة.ودورات في إعداد البحوث العلمية.
- -شهادات خبرة في تدريس المناهج المدرسية.

البحوث العلمية، منها:

١. الخلل في مناهج تلقي العلم وعلاجه من خلال الدراسات القرآنية.
٢. الوسطية والاعتدال في أفراد الأقليات الإسلامية، وأثرهما في الدعوة إلى الله ونشر المنهج الصحيح.
٣. الإعجاز في وسطية واعتدال المنهج الإسلامي.
٤. دور الأسرة في تحقيق الحماية الشرعية من الجرائم الالكترونية للأبناء.
٥. المصالح المرسلة.
٦. بيع الأربون .
٧. جدة ميقات.

الخلل في مناهج تلقي العلم وعلاجه من خلال الدراسات القرآنية

محمد عالم أبوالبشر شاهر ملوك.

أسباب اختيار الموضوع:

١. الرغبة في المشاركة في أحد محاور المؤتمر الدولي القرآني الأول لتوظيف الدراسات القرآنية في علاج المشكلات المعاصرة.
٢. تقديم دراسة متخصصة عن الخلل في مناهج تلقي العلم وعلاجه من خلال الدراسات القرآنية مستمدة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

أهداف الدراسة:

١-إبراز الخلل في مناهج تلقي العلم.
٢- علاج الخلل في مناهج تلقي العلم من خلال الدراسات القرآنية .

منهج الدراسة:

يعتمد البحث على المنهج الاستقرائي التَتَبُّعِي.

أهمية الدراسة:

تكمن أهمية الدراسة في إبراز الخلل في مناهج تلقي العلم وعلاجه من خلال الدراسات القرآنية وبيان دوره في تشخيص الأمة الإسلامية بما حصل فيها من الغلو والتطرف لوضع الحلول المستوحاة من خلاله.

حدود الدراسة:اقتصرت الدراسة على بيان الخلل في مناهج تلقي العلم وعلاجه من خلال الدراسات القرآنية.

خطة الدراسة:تتكون خطة الدراسة-بإذن الله- من مقدمة، وتمهيد، وخمسة مباحث، وخاتمة، وفهارس .

المقدمة: وتتضمن ما يلي: (أسباب الاختيار، أهداف الدراسة ، منهج الدراسة ، أهمية الدراسة ،حدود الدراسة، خطة الدراسة).

التمهيد، وفيه:-تعريف الخلل، والمناهج .

- المبحث الأول: أهمية المنهج الصحيح في تلقي العلم .

- المبحث الثاني : إبراز مظاهر الخلل في مناهج تلقي العلم .
- المبحث الثالث: المنابع الصحيحة في تلقي العلم.
- المبحث الرابع: العلم الصحيح في فهم فقه الخلاف.
- المبحث الخامس: علاج الخلل في مناهج تلقي العلم .

الخاتمة: وتشتمل على أهم النتائج والتوصيات.والفهارس: (المصادر والمراجع، الموضوعات).

أهم النتائج:

١- إبراز مظاهر الخلل في مناهج تلقي العلم.

٢- توصيف علاج الخلل في مناهج تلقي العلم من خلال الدراسات القرآنية.

أهم التوصيات:

١-أوصي ببذل الجهود العلمية من قبل العلماء وطلاب العلم في دراسة موضوع الخلل في مناهج تلقي العلم وعلاجه من خلال الدراسات السنة النبوية، ونشر المنهج الصحيح في تلقي العلم، والتوسع في ذلك، حيث أرى أن هناك جوانب مهمة لم تعط حقها من البحث والدراسة.

٢- تربية الشباب والدعاة وطلبة العلم، على المنهج الصحيح في تلقي العلم، مما يقضي على الخلل الموجود في محيط المجتمع المسلم سواء أكان إفراطًا أو تفريطًا.

المقدمة

إنَّ الحمــد للّه نحمــده ونستعينــه ونستهديه ونستغفــره، ونعوذ باللّه من شــرور أنفسنا وسيئــات أعمالنا، من يهــده اللّه فلا مضل له، ومن يضلل فلا هـادي لــه، وأشهد أن لا إله إلا اللّه وحــده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبــده ورسوله، صلى اللّه عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ] [آل عمران: ١٠٢].

[يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا] [النساء: ١].

[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا] [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب اللّه، وخير الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

ثم إنَّ من نعمة اللّه على هذه الأمة وتشريفه لها أن جعلها أمةً وسطًا خيارًا عدولا، فقال-عزوجـل-: [وَكَذَلِـكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّـةً وَسَطًا] [البقرة:١٤٣] ، فهي خـير الأمم التي أخرجت للناس، وقد وصفها المولي -عزوجل- وشهد لها بذلك فقال: [كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ] [آل عمران: ١١٠].

ثم اصطفى اللّه -سبحانه وتعالى- لها رسولاً من خيارها وأوسطها نسبًا ومكانةً، فبعثه فيهـا نبيًّـا ورسولا: قـال -عزوجل- [لَقَدْ جَاءكُـمْ رَسُولٌ مِّـنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْـهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ] [التوبة: ١٢٨].

كمـا أنزل عليها أشرف كتبه، وجعله مهيمنًا على الكتب قبله، شاملاً لخير ما جاءت به:

[وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ] [المائدة: ٤٨].

وبهذا القرآن العظيم والرسول الكريم، ، شرفت هذه الأمة، فكانت خير الأمم وأوسطها وأعدلها، وكان أسعد هذه الأمة باتباعهما، وأحرصهم على هديهما قولا وعملا واعتقادًا، فهم أصحاب رسول الله ﷺ ثم تابعوهم، ثم التابعون لهم بإحسان من القرون الثلاثة المفضلة التي شهد لها النبي ﷺ بالخيرية في قوله: "خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ أَقْوَامٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ" (١).

فهؤلاء هم خيار الأمة، ثم يلحق بهم كل من كان على مثل ما كانوا عليه من الهدى والتمسك بكتاب الله وسنة رسوله ٢ في كل زمان ومكان، فهؤلاء جميعًا خيار هذه الأمة وأوسطها وأعدلها.

ولقد تأمَّلت كثيراً عند قضية الخلل في مناهج تلقي العلم وعلاجه من خلال الدراسات القرآنية، وبعيدًا عن الغلو والجفاء، والإفراط والتفريط؛ وتيقنت أنّ الأمة الإسلامية، بأمسّ الحاجة إلى المنهج الصحيح في تلقي العلم من المنابع الأصلية الصحيحة، بعيداً من بعض الانحراف الذي جلب عليه الرزايا والمصائب والنكبات.

كما وجدت أنّ القرآن الكريم، قد رسم لنا هذا المنهج في جميع جوانبه أصولاً وفروعاً وعقيدةً وعبادةً وخلقاً وسلوكاً وتصوراً وعملاً.

ومن هنا كان على الأمة الإسلامية الاستفادة من المنهج الصحيح في تلقي العلم من القرآن الكريم والسنة النبوية ومن منهج السلف؛ حتى يبتعد من المشاكل التي لاحصر لها من دينية وسياسية وثقافية واقتصادية،واجتماعية ، وفكرية (٢).

وفي هذه الدراسة أسلّط الضوء على موضوع الخلل في مناهج تلقي العلم وعلاجه من خلال الدراسات القرآنية.

---

(١) صحيح البخاري (١٧١/٣) كتاب الشهادات-بَابٌ: لاَ يَشْهَدُ عَلَى شَهَادَةِ جَوْرٍ إِذَا أُشْهِدَ- حديث رقم (٢٦٥٢).
صحيح مسلم (٤/ ١٩٦٢) كتاب فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ -رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ-، بَابُ فَضْلِ الصَّحَابَةِ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ-حديث رقم (٢٥٣٣).

(٢) انظر: مشكلات الأقليات المسلمة في الغرب، لأحمد عبدالغني محمود عبدالغني، موقع الألوكة (ص٤).

وختاما....أسأل المولى القدير التوفيق والسداد ،وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

التمهيد، وفيه :

-تعريف الخلل، والمنهج .

أولاً: تعريف الخلل:

الخَلَلُ لغة: الفرجة بين الشيئين، والجمع خِلَالٌ، كجبل وجبال وقرئ بهما، كما في قوله تعالى: [فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خلاله][النور: ٤٣] وخَلَلِه وهي فرج في السحاب يخرج منها المطر، والخَلَلُ أيضا: الفساد في الأمر (١).

الخلل اصطلاحا: اضطراب الشيء وعدم انتظامه، وأصله فرجة بين الشيئين (٢).

ثانيا: تعريف المنهج .

المنهج لغة: منهج الطريق ومنهاجه، النهج: الطريق الواضح ،ونهج الأمر وأنهج: وضح، قال تعالى:[لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا] [المائدة : ٤٨] (٣).

قال الإمام الطبري-رحمه الله- : المنهاج أصله: الطريق البين الواضح ،يقال منه: هوطريق نهج، ومنهج،بين (٤) ،كما قال الراجز:

من يك في شك فهذا فلج ××× ماء رواء وطريق نهج (٥).

ثم يستعمل في كل شيء كان بيّنًا واضحًا سهلا (٦).

اصطلاحا: "نظم الدعوة ،وخططها المرسومة لها"(٧).

(١) مختار الصحاح (ص: ١٩٦).

(٢) التعاريف (ص ٣٢٥)

(٣) المفردات في غريب القرآن (ص٤٥٠)مادة [نهج].

(٤) جامع البيان في تأويل القرآن (١٠/٣٨٤)

(٥) البيت في مجاز القرآن ، (١/١٦٨)

(٦) جامع البيان (١٠/٣٨٤)

(٧) (مصطلحات في علم الدعوة الإسلامية)لأعضاء هيئة التدريس بكلية الكتاب والسنة قسم الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى.

المبحث الأول

أهمية المنهج الصحيح في تلقي العلم

لقد أكَّد القرآن الكريم على أهمية العلم؛لأنه أغلى ما يطلب في هذه الحياة بلا شك، فلا سبيل إلى معرفة الله، ولا سبيل إلى الوصول إلى رضوان الله في الدنيا والآخرة إلا بالعلم الشرعي الصحيح، الذي هو قال الله وقال رسوله ﷺ، ولم يأمر الله نبيه بطلب الزيادة من شيء إلا من العلم، فلو تأملنا كلمة العلم ومشتقاتها في القرآن الكريم نجد أنها بلغت سبعمئة وثمانين مرة، فقد أشار القرآن الكريم إلى جوانب علمية ومعرفية متعددة ليأخذ بيد الإنسان نحو عمارة الأرض بكل ما أوتي من وسائل العلم المتوفرة، وإن النبي ﷺ أكّد على أهمية العلم وشرف العلماء في أحاديث كثيرة.

كما أن العلم هو مفتاح كل خير ،وهو الوسيلة إلى أداء ما أوجب الله وترك ما حرم الله، فإن العمل نتيجة العلم لمن وفقه الله، وهو مما يؤكد العزم على كل خير، فلا إيمان ولا عمل ولا كفاح ولا جهاد إلا بالعلم، فالأقوال والأعمال التي بغير علم لا قيمة لها، ولا نفع فيها؛ بل تكون لها عواقب وخيمة، وقد تجر إلى فساد كبير.

قال تعالى: [وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ] [البقرة، آية: ٣١]، فقد بدأ العلم مع بداية نشأة الخليقة، حينما هبط آدم من الجنة إلى الأرض ليعمرها، وكان مزوداً بجميع أنواع العلم التي تكفل له حياته على الأرض، ولهذا جعل الله تعالى العلم الحجة البالغة على الملائكة حين بدا لهم أن تسبيحهم وتقديسهم لله يؤهلهم لخلافة الأرض وعمارتها، بأنه علم آدم الأسماء وطلب منهم الإنباء بها، فلما عجزت الملائكة عن ذلك، دلَّ على أن آدم-عليه السلام-إنما استحق الخلافة في الأرض بما أوتي من العلم.

وأما قوله تعالى: [اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ × خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ × اقْرَأْ وَرَبُّكَ

الأَكْرَمُ × الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ × عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ] [العلق، آية: ١-٥]. وهذه أول الآيات التـي أنزل اللّه -عزوجل- في كتابه تحـث النـاس على العلم والتعلم، ورفع شأن العلم والدليل والحجة والبرهان في الإسلام أمر غني عن التعريف(١).

وقـد رفـع اللّه -عز وجل- قدر العلماء كما في قوله تعالى: [يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ] [المجادلة، آية: ١٧].

قال ابن عباس -رضي اللّه عنهما-: (لِلعُلَمَاءِ دَرَجَاتٌ فَوقَ المؤمنينَ بِسَبْعمَائَة دَرَجَة بين كُلّ دَرجَتين مَسِيرةَ خمسَمائة عَام)(٢).

فللعلم مقام عظيم في شريعتنا الغراء، فأهل العلم هم ورثة الأنبياء، وفضل العالم على العابـد كما بين السماء والأرض، وقال الرسـول r مبينًا أهمية العلم: "طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ"(٣).

وكتاب اللّه تعالى قد تضمّن الإشارة إلى أهمية العلم،وتميز العالم، والهدف من التفكير الصحيـح، كما أن العقل أيضًا يحتاج باستمرار إلى تزويده بالعلم النافع حتى تتسع مداركه، وتُفتح نوافذه، فتزداد معرفته بربه، وما يُقربه إليه، قال تعالى: [وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا] [طه، آيـة: ١١٤](٤)، قال القرطبي-رحمه اللّه-: فلو كان شيء أشرف من العلم لأمر اللّه تعالى نبيه ﷺ أن يسأله المزيد منه كما أمر أن يستزيده من العلم(٥).

وقـال الحسن البصري-رحمـه اللّه-: العالم مَـن خشي الرحمن بالغيـب، ورغب فيما رغـب اللّه فيـه، وزهد فيمـا سَخط اللّه فيه، ثـم تلا الحسن: [إِنمَّـا يَخْشَى اللَّهَ مِـنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ](٦).

(١) -سلسلة علو الهمة (١٤/ ١٢).

(٢) -فصل الخطاب في الزهد والرقائق والآداب (٩/ ٥٩).

(٣) -أخرجـه ابـن ماجه في سننه،في بَـاب فَضْلِ الْعُلَمَـاءِ وَالْحَثِّ على طَلَـبِ الْعِلْمِ (٨١/١). حديـث رقم (٢٢٤)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة حديث رقم (٢٢٠).

(٤) -انظر: نظرات في التربية الإيمانية (ص٦).

(٥) -تفسير القرطبي (٤/ ٤١).

(٦) -تفسير ابن أبي حاتم (٣١٨٠/١٠)، الدر المنثور (٢٠/٧).

وعن ابن مسعود-رضي الله عنه-، أنه قال: (ليس العلم عن كثرة الحديث، ولكن العلم عن كثرة الخشية) [١] ، وَهَذَا التَّأْوِيلُ يَعْضُدُهُ قَوْلُهُ-عَلَيْهِ السَّلَامُ-فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: "مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَلَا تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ نَاوَأَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ" وَظَاهِرُ هَذَا الْمَسَاقِ أَنَّ أَوَّلَهُ مُرْتَبِطٌ بِآخِرِهِ- وَاللَّهُ أَعْلَمُ- [٢] .

وفي الحديث الصحيح "وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْماً، سَهَّلَ اللَّه لَهُ بِهِ طَرِيقاً إِلَى الْجَنَّةِ"[٣] ، وذلك أن طريق الجنة يكون بصحة الاعتقاد ويكون بصحة العمل، وصحة الاعتقاد لا تكون إلا بعلم، وصحة العمل لا تكون إلا بعلم التوحيد أوالفقه، وقصة نوح -عليه السلام- دلالة على أهمية العلم الشرعي، والخسارة العظيمة بفقدانه، أرسل الله نبيه نوحا -عليه السلام- إلى قومه لما غلوا في الصالحين، ونُسي العلم، فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن الشرك، قال تعالى: [لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ][الأعراف، آية: ٥٩].

(١) -تفسير ابن كثير (٣/٥٥٥).
(٢) -تفسير القرطبي (٨/ ٢٩٧) الدر المنثور (٨/ ٢٧٣).
(٣) -صحيح البخاري (١/٣٧)كتاب العلم –باب بَاب الْعِلْمُ قبل الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ .

المبحث الثاني

إبراز مظاهر الخلل في مناهج تلقي العلم .

إن مظاهر الخلل في مناهج التلقي العلم كثيرة جدًّا لا أستطيع حصرها في هذه الدراسة ولكن أذكر أبرزها ما تيسر لي من ذكرها:

١ - التمشيخ ، أو التتلمذ :

لقد ظهرت في آخر الزمان ثلة من الجماعات والدعاة والشباب في البلاد الإسلامية وغيرها على قلة في الفقه، وضعف في العلم، أو تتلمذوا على الأقل علمًا واتخذوا شيوخهم الأصاغر، وقد حذر النبي ﷺ من ذلك حيث قال: "إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَاعَةِ أَنْ يُلْتَمَسَ العِلْمُ عِنْدَ الأَصَاغِرِ" (١) وهذا - والله أعلم- يشمل الأصاغر في العلم والقدر والسن- وكل ذلك حاصل في هؤلاء (٢) .

ويقصد بتتلمذ الأحداث هم صغار السن على بعضهم، أو على طلاب العلم الذين هم دون من هم أعلم منهم، بمعنى التتلمذ الكامل وترك المشايخ الكبار والانقطاع عنهم، وهذا هو مكمن الانحراف؛ بل أخطر منه أن يكون الصغار بعضهم شيوخًا لبعض في العلم، وأغلب ما تعتمد هذه الجماعات على الكتب الفكرية والثقافية أكثر من الكتب الشرعية؛ بل فيهم من يتنكر لكتب السلف، وأحكامهم: أهواؤهم، مما أدى إلى الخلط والخبط والاضطراب عند بعض هؤلاء في العقائد وفي الأحكام، وفي المواقف، وفي التعامل مع الآخرين، وفي النظر إلى قضايا الأمة الكبرى، وفي التصرفات الطائشة التي تحدث من بعضهم، وفي صدور الأحكام المتعجلة، ونحو ذلك من المظاهر التي نراها في فئة من الشباب.. (٣) .

---

(١) -الزهد لابن المبارك (٦١) ، شرح أصول اعتقاد أهل السنة (ص١٠٢) وحسنه الحافظ المقدسي، وصححه غيره.

(٢) -د. ناصر بن عبدالكريم العقل ،العلماء هم الدعاة - (١ / ٢٧).

(٣) -المصدر السابق.

٢- ازدراء العلماء واحتقارهم والتعالي عليهم.

مـن الواجب على الأمة الدعاء للعلماء بظهر الغيـب، أن الله ينصر بهم دينه، وأن يعلي بهم كلمته، وأن يوفقهم بالقيام بنشر العلم في مشارق الأرض ومغاربها، ليستمر هذا الدين.

وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: "إِنَّ اللهَ لا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَاد، وَلَكِـنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاء حَتَّـى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا " (١).

وعَـنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ، قَـالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "يَدْرُسُ الإِسْـلاَمُ كَمَا يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّـوْبِ، حَتَّى لاَ يُـدْرَى مَا صِيَـامٌ، وَلاَ صَلاَةٌ، وَلاَ نُسُـكٌ، وَلاَ صَدَقَةٌ، وَلَيُسْـرَى عَلَى كِتَابِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ فِي لَيْلَة، فَلَا يَبْقَى فِي الأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ، وَتَبْقَى طَوَائِفُ مِنَ النَّاسِ الشَّيْخُ الْكَبِيرُ وَالْعَجُوزُ، يَقُولُـونَ: أَدْرَكْنَـا آبَاءَنَا عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ، لا إِلَـهَ إِلا اللَّهُ، فَنَحْنُ نَقُولُهَا.. " (٢)، هذا بين يدي السـاعـة، لكن قبل الأشراط الكبرى للساعة، العلـم يقل، قال-عليه الصلاة والسلام-: " إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ وَيَكْثُرَ الْجَهْلُ " (٣).

وقـد وضـح النبـي ﷺ في حديث أَبِي هُرَيْـرَةَ - رضي الله عنه - عَـنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "يُقْبَضُ الْعِلْم، وَيَظْهَـرُ الْجَهْلُ وَالْفِتَنُ، وَيَكْثُرُ الْهَـرْجُ قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّه وَمَـا الْهَرْجُ ؟ فَقَالَ: هَكَذَا بِيَدِهِ فَحَرَّفَهَا كَأَنَّه يُرِيدُ الْقَتْلَ "(٤)، بأن قبض العلماء وعدم أخذ العلم عنهم هو سبب الضـلال والإضلال، فإنّ بداية الضلال أن يتصـدر الجهلاء أمر الدين وقضايا الأمة، وعند

(١) -صحيح البخاري (١/ ١٧٦) كِتَاب الْعِلْم، بَاب كَيْفَ يُقْبَضُ الْعِلْمُ حديث رقم (٩٨).

(٢) -سـنن ابن ماجه (٢/١٣٤٤) كِتَـاب الْفِتَنِ-بَاب ذَهَاب الْقُرْآنِ وَالْعِلْم .حديث رقم(٤٠٤٩) قال الشيخ الألباني: (صحيح) انظر حديث رقم(٨٠٧٧) في صحيح الجامع .

(٣) -صحيح البخاري (١/٤٣) ،كتاب العلم- بَاب رَفْعِ الْعِلْمِ وَظُهُورِ الْجَهْلِ وقال رَبِيعَةُ لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ عِنْدَهُ شَيْءٌ من الْعِلْمِ أَنْ يُضَيِّعَ نَفْسَهُ ،حديث رقم (٨١).

(٤) -صحيح البخاري (١/٤٤) كِتَاب الْعِلْمِ-بَاب من أَجَابَ الْفُتْيَا بِإِشَارَةِ الْيَدِ وَالرَّأْسِ.حديث رقم(٨٥).

قبض العلم وتصدر الجهلاء للفتوى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابد أن تكثر الفتن والقتل في الأمة، لذا أمرهم الله-عزوجل-:[وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً] [النساء ، آية: ٨٣]وقد طعن زعيم المنحرفين فكرياً في سيد العلماء النبي ﷺ،وطعن أذنابه في أجلة العلماء من أصحاب النبي ﷺ واستحلوا دماءهم الطاهرة فضلوا وهلكوا" (١).

تلك مظاهر شاذة مع الأسف بدأنا نرى نماذج منها، وهذا أمر مقلق، يجب أن نتناصح فيه، مالم يعالجه طلاب العلم والعلماء فالأمر خطير (٢).

فلابد للأمة في كلِّ زمان من وجود أهل علم يرجع إليهم فيما يجهلونه أو فيما يشكل عليهم من الأدلة، أو يشتبه من أحوال الزمان وأزماته، قال تعالى:[فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ] [النحل، آية:٤٣]فإن الله –عزوجل- جعل للعلماء من المنزلة والمكانة والحقوق ما ليس لغيرهم ؛ فهم ورثة الأنبياء، وهداة الخلق إلى الحق، ومن هنا فإن انعزال الشباب عن مجالس العلم والعلماء، وأهل الفضل والخير من أعظم أسباب الانحراف.

(١) -الانحراف الفكري،مفهومه.أسبابه.علاجه.في ضوء الكتاب والسنة، (ص٣١).

(٢) -الافتراق .. مفهومه – أسبابه – سبل الوقاية منه – (١ / ٢٦).

المبحث الثالث

المنابع الصحيحة في تلقي العلم

١- الاعتماد على الكتاب والسنة :

فالكتــاب والسنــة مصدران أساسيان لتلقــي الحق والهدى ؛ قال الله تعــالى: [إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ][الإسراء ، آية: ٩].

ولقــد تكفــل الله تعالى بحفظ نصوص كتابه من أن يدخلهــا تحريف أو تبديل ؛ قال الله تعالى: [إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ] [الحجر ، آية: ٩].

وقال النبي ﷺ : "إِنِّي أُوشِكُ أَنْ أُدْعَى فَأُجِيبَ، وَإِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ، كِتَابَ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ وَعِتْرَتِي، كِتَابُ اللَّه حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنْ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، وَعِتْرَتِي أَهْلُ بَيْتِي، وَإِنَّ اللَّطِيفَ الْخَبِيرَ أَخْبَرَنِي أَنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ، فَانْظُرُونِي بِمَ تَخْلُفُونِي فِيهِمَا" (١) .

ويتضمن ذلك حفظ سنة النبي ﷺ ومن ثم: العمل بموجبها فعلاً وتركاً (٢) .

فاتبــاع الكتــاب والسنة ظاهرًا وباطناً ، ومــن سار على نهجهما مــن الخلفاء الراشدين والسابقــين الأولين من المهاجرين والأنصــار هو العاصم الأول للفرد والجماعة كما أكد ذلك النبي ﷺ بقوله: "سَتَرَوْنَ مِــنْ بَعْدِي اخْتِلافًا شَدِيدًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْأُمُورَ الْمُحْدَثَاتِ؛ فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ" (٣) .

قــال ابــن تيمية-رحمــه الله- :" فلولا أن سنتــه، وسنة الخلفاء الراشديــن تسع المؤمن

(١) -مسند أحمد (٢٢ / ٢٥٢) قال الألباني: صحيح،انظر: السلسلة الصحيحة (٤ / ٣٥٦ - ٣٥٧).

(٢) -مجلة البيان - (العدد٩٢ ص ٨).

(٣) -سنن ابن ماجه (١٥/١) بَاب اتِّبَاعِ سُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ -حديث رقم (٤٢)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة حديث رقم(٤٠) .

وتكفيه عند الاختلاف الكثير لم يجز الأمر بذلك "(١).

وقال النبي ﷺ: " يُقْبَضُ الْعِلْمُ وَيَظْهَرُ الْجَهْلُ وَالْفِتَنُ وَيَكْثُرُ الْهَرْجُ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّه وَمَا الْهَرْجُ؟ فَقَالَ: هَكَذَا بِيَدِهِ فَحَرَّفَهَا كَأَنَّه يُرِيدُ الْقَتْلَ "(٢) (٣).

كما بين النبي ﷺ في حديث: " دَعْهُ فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلاتَهُ مَعَ صَلاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ "(٤) فهذه الأجناس الثلاثة مع أنها في أصلها مشروعة، ومما يحبها الله ولكنهم لما لم يلتزموا بالمقدار والكيفية التي شرعها الله كان ذلك الانحراف سبباً لخروجهم عن الدين، ولهذا قال السلف: " اقتصاد في سنة، خير من اجتهاد في بدعة "(٥).

إذاً فالبعد عن الكتاب والسنة علماً وعملاً، وعدم الوقوف عند حدودهما هو بداية الشر وأعظم مدخل من مداخل الشيطان والهلاك والانقطاع، والسلامة دائماً في لزوم الكتاب والسنة.

قال الشنقيطي-رحمه الله-: " ولو كان المسلمون يتعلمون كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ويعملون بما فيهما لكان ذلك حصنا منيعا لهم من تأثير الغزو الفكري في عقائدهم ودينهم، ولكن لما تركوا الوحي ونبذوه وراء ظهورهم .. "(٦).

٢- أخذ العلم من أهله وهم العلماء الربانيون.

قال تعالى: [يَرْفَعِ اللَّه الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ] [المجادلة ، آية: ١١].

(١) -الاستقامة(١/ ٤).

(٢) -صحيح البخاري (٤٤/١) كِتَاب الْعِلْم-بَاب من أَجَابَ الْفُتْيَا بِإِشَارَةِ الْيَدِ وَالرَّأْسِ.حديث رقم(٨٥).

(٣) -الانحراف الفكري،مفهومه ـ أسبابه ـ علاجه في ضوء الكتاب والسنة.(ص ١٦-١٨).

(٤) -صحيح البخاري(١٣٢١/٣).كتاب المناقب- بَاب عَلَامَاتِ النُّبُوَّةِ فِي الْإِسْلَامِ- حديث رقم (٣٤١٤) صحيح مسلم (٧٤٤/٢).كتاب الزكاة، باب التحريض على قتل الخوارج ،حديث رقم(١٠٦٤).

(٥) -مجموع الفتاوى(١١ / ٣٩٣).

(٦) -أضواء البيان (٣٧٨/٧).

وقال تعالى: [إِنمَّا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء] [فاطر ، آية: ٢٨].

فالإسلام عظيم بمنهجه الصحيح، وعظيم أن يكون المرء قد أجهد نفسه وجاهد في الوقوف على حقيقة الإسلام، ولكن لن يكون ذاك إلا بالعلم، فالعلم النافع به يصلح القلب وبه يصلح العمل، ولهذا قال الله -جل وعلا-: [قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي] [يوسف، آية:١٠٨]، ومعنى [عَلَى بَصِيرَةٍ] يعني على علم؛ لأن البصيرة للقلب هي العلم الذي به يُبصر حقائق المعلومات ويدرك الصواب فيها، وقال الله جل وعلا: [أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ] [الأنعام، آية:١٢٢]وقد قال أهل العلم: إن هذا النور هو الإسلام الذي هو العلم النافع والعمل الصالح.

ولهذا لم يأمر الله-جل وعلا- نبيه ﷺ وأمته من بعده أن يزدادوا من شيء شيئا إلا أن يزدادوا من العلم، فقال جل وعلا: [وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا] [طه، آية:١١٤].

ولقد حث الإسلام منذ نزول أول آية فيه على طلب العلم والتأكيد عليه ، قال تعالى: [اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ] [العلق،آية:١]، وقد كرم الدين الإسلامي العلماء في قوله تعالى: [شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ] [آل عمران،آية:١٨].

"والمنهج الإسلامي قائم على أن وجود الرجل المناسب في المكان المناسب هو واجب شرعي، وضامناً لسلامة العمل وحسن الأداء، والإسلام يربي الفرد على الإحسان والإتقان، ولا يسود الأمر إلا لأهله، كما فعل النبي ﷺ مع أبي ذر عندما طلب منه أن يوليه فقال له: "إنك ضعيف وإنها أمانة، وأنها يوم القيامة حسرة ندامة" (١).

ولقد ألزم الإسلام ولاة الأمور باختيار الأصلح لشغل الوظيفة العامة، وكان رسول الله ﷺ يقوم بتدريب من يستعملهم على مصالح المسلمين، ويزودهم بالنصائح والإرشادات، كما اهتم الخلفاء الراشدين بذلك في تنمية المعارف والقدرة على تفهم الأعمال فأولوه الكثير من اهتمامهم فكانت المدينة المنورة على عهد عمر بن الخطاب- رضي الله عنه – أشبه بالجامعة التي تخرج فيها القادة والولاة والأفراد.

(١) -صحيح مسلم(١٤٥٧/٣) كِتَاب الإمارة، بَاب كَرَاهَةِ الْإِمَارَةِ بِغَيْرِ ضَرُورَةٍ ،حديث رقم(١٨٢٥).

فلم يكن عمر - رضي الله عنه - يبعث أحدًا إلى الأمصار إلا بعد أن يكون قد إختبره بالتدريب والمناقشة، حتى أنه كان قلما يخطئ اختيار عماله كل في المكان الذي يصلح له (١).

ومن هؤلاء المدربين أهل العلم فإن منزلتهم عالية في دين الإسلام، ودرجتهم رفيعة سامقة، كيف لا..وهم الذين اجتباهم الله لحفظ دينه، ونشر كلمته، وقرنهم بشهادته فقال: [شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ] [آل عمران،آية:١٨]، ونفى المساواة بين من يعلم ومن لا يعلم، فقال: [قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ] [الزمر،آية:٩]، وأوضح إنَّ أفضل صفات أهل العلم، الخشية لله تعالى،كما في قوله:[إنمَّا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء] [فاطر،آية:٢٨]، ومن خشية العلماء لربهم أنَّهم لا يتكلمون إلا بالعلم والهدى، ويخشون ربهم من فوقهم أن يتقوَّلوا عليه بلا علم، ويوقِّعوا عنه بجهل؛ لأنَّهم وقَّافون عند حدود الله ونواهيه، إذ قال تعالى: [وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً] [الإسراء، آية:٣٦] (٢).

وقد تواترت كتابات العلماء في التحذير من التكلّم بلا علم والإفتاء بالجهل، ومنهم الإمام الشافعي-رحمه الله- فقد قال: " فالواجب على العالمين أن لا يقولوا إلا من حيث علموا، وقد تكلَّم في العلم من لو أمسك عن بعض ما تكلَّم فيه منه لكان الإمساك أوْلى به وأقرب من السلامة له، إن شاء الله " (٣).

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة-رحمه الله-: " ولا يحل لأحد أن يتكلَّم في الدين بلا علم، ولا يعين من تكلَّم في الدين بلا علم، أو أدخل في الدين ما ليس منه " (٤).

والواقع في زماننا أن الناس صاروا يأخذون العلم عن كل من دعاهم إلى التعلم، وكل من رفع فوق رأسه راية الدعوة، فيفتون بغير علم، ويَضلون ويُضلون، وهذا مصداق قول الرسول ﷺ : " إن الله لا ينتزع العلم بعد أن أعطاكموه انتزاعًا، ولكن ينتزعه منهم مع قبض العلماء

(١) -الحضارة الإسلامية بين أصالة الماضي وآمال المستقبل - (٨ / ٢٢).

(٢) - المصدر السابق (٨ / ٢٢).

(٣) - الرسالة-للشافعي (ص٤١) .

(٤) - مجموع الفتاوى(٢٢/٢٤٠).

بعلمهم، فيبقى ناسٌ جهال يستفتون فيفتون برأيهم فيَضلون ويُضلون " (١) .

ومـا لُبِّس علـى بعض الناس من الذين تزعمـوا الفتيا؛ فأفتوا بغير علـم، وشُبِّه عليهم، فأباحـوا الحرام، والله يقـول: [وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَـذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ] [النحل، آية:١١٦] .

×صفات العلماء في التلقي بالمنهج الصحيح:

١ـ التلقي من العالم الذي يخشى الله تعالى:

يقـول ابن مسعود-رضي الله عنه- وغيره: (كَفَى بِخَشْيَـةِ اللهِ عِلْمًا، وَكَفَى بِالاغْتِرَارِ بِهِ جَهْـلاً) (٢) ، وحـين نـادى أحدهم الإمام الشعبي قائـلاً له: يا عالم. فقـال الشعبي: " إنمَّا العـالم مـن يخشـى الله " (٣) ، وكان طلاب العلـم لا يتلقون العلم إلا عمَّـن عُرف بالخشية والخشوع.

٢ـ التلقي عن الراسخين في العلم:

قـال تعالى: [وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ] [العنكبوت، آية: ٤٣]وقال تعالى: [وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْـرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَـوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَـهُ مِنْهُـمْ] [النساء، آية: ٨٣]فأهل العلم هـم أولى الناس باستنباط أحكام الدين وشرائعه.

قـال أحد السلف: حقيقة الفقه عندي: الاستنباط لهذا حثَّنا الله تعالى على سؤالهم إن أشـكل علينا أمر شرعي، فقـال تعالى: [فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُـمْ لاَ تَعْلَمُونَ] [الأنبياء، آية: ٧] (٤) .

أخـرج الدارمي في مقدمة سننـه: عَنْ أَبِي أُمَامَةَt عَنْ رَسُولِ اللهِ r أَنَّهُ قَالَ " خُذُوا الْعِلْمَ قَبْلَ أَنْ يَذْهَبَ ، قَالُوا: وَكَيْفَ يَذْهَبُ الْعِلْمُ يَا نَبِيَّ اللهِ وَفِينَا كِتَابُ اللهِ؟ قَالَ: فَغَضِبَ- لا يُغْضِبُهُ

(١) -تقدم تخريجه(ص٨).

(٢) -مصنف ابن أبي شيبة - (١٣ / ٢٩١).

(٣) -مجموع فتاوى (٣ / ٨٠).

(٤) -المنثور في القواعد(٦٧/١) أصول الإفتاء والاجتهاد التطبيقي(٦٨/١)

إلاالله- ثُمَّ قَالَ: ثَكِلَتْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ أَوَلَمْ تَكُن التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمْ شَيْئًا ؟! إِنَّ ذَهَابَ الْعِلْمِ أَنْ يَذْهَبَ حَمَلَتُهُ، إِنَّ ذَهَابَ الْعِلْمِ أَنْ يَذْهَبَ حَمَلَتُهُ " (١) .

يقول الشاعر :

من يأخذ العلم عن شيخ مشافهةً ××× يكن من الزيف والتصحيف في حرم
ومن يكن آخذاً للعلم من صحف××× فعلمه عند أهل العلم كالعدم. (٢)

وصدق من قال:

وكم من عائب قولاً صحيحاً ××× وآفته من الفهم السقيم (٣)

ولهـذا كان أهل العلم- رحمهم الله جميعاً- إذا سئلـوا عن مسألة ولم يعرفوا لها جواباً قالوا: الله أعلم، كما نقل عن الإمام مالك-رحمه الله- أنَّه في بعض الأحيان إن أفتى قال: [إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ] [الجاثية،آية:٣٢] (٤) .

٣ـ التلقي عمن له باع طويل في تحصيل العلم:

إنَّ ضرورة التأصيل العلمي، وقوَّة التمكن الشرعي، له أثره البالغ في أهليَّة العالم أو المعلِّم ، ذلـك أنَّـه يعطي المتعلِّم أو المستفتي اطمئناناً لمن يسأله، والقـارئ ارتياحاً لما يكتبه الداعية المعلِّـم، وقد كان أهل العلم الربَّانيين السابقين منهم واللاحقين يطلبون العلم، ويجتهدون في نيل مرامه، من المهد إلى اللحد (٥) .

كلُّ من يدَّعي بما ليس فيه فضحته شواهد الامتحان. (٦)

(١) -سنن الدارمي (١ / ٨٩).

(٢) - الضوء اللامع (٤ / ٣١٠).

(٣) - البيت للشاعر المتنبي من قصيدته التي مطلعها :

إذا غامرت في شرف مروم××× فلا تقنع بما دون النجوم

يراجع: ديوان المتنبي المطبوع مع شرح العكبري المسمى بالتبيان في شرح الديوان (١٢٠/٤)

(٤) - جامع بيان العلم وفضله(١٤٦/٢).

(٥) -رسالة في الاجتهاد والتقليد (ص٤٨ـ٤٩).(بتصرف).

(٦) -شروط النهضة (ص٩١) .

٤- اتباع طريقة السلف في العلم والعمل:

جـاء في الحديث عن رسول الله ﷺ : " لَيَأْتِيَنَّ على أُمَّتِي ما أتى على بَنِي إِسْرَائِيلَ حَذْوَ النَّعْـلِ بِالنَّعْـلِ، حتى إن كان منهم من أتى أُمَّهُ عَلَانِيَةً لَكَانَ في أُمَّتِي من يَصْنَعُ ذلك، وَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيـلَ تَفَرَّقَتْ على ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً وَتَفْـتَرِقُ أُمَّتِي على ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، كلهم في النَّارِ إلا مِلَّةً وَاحِدَةً، قالوا: وَمَنْ هِيَ يا رَسُولَ الله قال ما أنا عليه وَأَصْحَابِي"(١) .

وقال عبد الله بن مسعود حيث قال: (مَن كانَ مُسْتَنًّا ، فَلْيَسْتَنَّ بمن قد ماتَ ، فإنَّ الحيَّ لا تُؤْمَنُ عليه الفِتْنَةُ) (٢) .

وقـد بيّن النبي ﷺ أن خير قرون هذه الأمة وأفضلها:أقربها إليه، فقال: " خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، .. " (٣) .

٥- اختيار الأئمة العدول الثقات الموثوق بعلمهم :

إن معرفـة أحكام الدين أمانة، وطلبهـا من مصادرها الصحيحة أمانة، ولابد أن يعتني المسلمـون بالجهة التي يأخذون عنها العلم، لأن هذا دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم،قال تعالى: [فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ] [الأنبياء، آية:٧] .

فالأخذ عمـن عُلم بصلاحه وتقواه، وورعه واعتماده علـى الأحاديث الصحيحة، وعدم تعصّبـه المذهبـي، وسيره مع الدليـل، والتزامه بالمذهـب الوسط فلا تشـدد ولا تساهل، هو الخبير الذي نسأله . [الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا] [الفرقان، آية:٥٩] .

قال الخطيب: " ينبغي للمتعلم أن يقصد من الفقهاء من اشتهر بالديانة وعرف بالستر والصيانة" (٤)

---

(١) -سـنن الترمذي (٢٦/٥) كِتَاب الْإِيمَانِ عن رسول الله r بـاب ما جاء في افْتِرَاقِ هذه الْأُمَّةِ حديث رقم(٢٦٤١) وقال الألباني: السلسلة الصحيحة (١/ ٤٠٤).

(٢) -جامع الأصول في أحاديث الرسول (١ / ٢٩٢).

(٣) -أخرجـه البخـاري في صحيحه (٩٣٨/٢)كتاب الشهـادات، بَاب لَا يَشْهَدُ علـى شَهَادَةِ جَـوْرٍ إذا أُشْهِدَ،حديث رقـم(٢٥٠٩) ، وأخرجه مسلـم في صحيحه(١٩٦٣/٤) ، كتاب فضائل الصحابة، بـاب فضل الصحابة، حديث رقم (٢٥٣٣).

(٤) -الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي- (٢ / ٤٤٣).

ثـم أن العلـم يؤخذ بالتـدرج النوعي والكمي حسـب المدارك والاستعـداد، والعلم الذي يحصـل بـه الفقه في الدين هو العلم الشرعي المستمد من الكتـاب والسنة والآثار الصحيحة عن أئمة الهدى، فالكتب الثقافية والفكرية والأدبية والتاريخية ونحوها لا تفقه في الدين، إنما هي علوم وافدة مساعدة لمن أحسن انتقاءها .

وأخـذ العلم من أهل البدع والمعاصي: من أعظم عوائق وخلل في تلقي العلم، حيث يزين أصحـاب السـوء لجليسهم مـا هم عليه من باطل، فـإن لم يستطع أن يقلبـوا الحق في ذهنه ويغـيروا مفاهيمه: حاولوا إجباره على فعل باطلهم إما مجاملة لهم، أو خوفاً من استهزائهم ونقدهم فإن لم يستطيعوا ذلك فلا أقل من أن يداهنهم بترك الإنكار عليهم، أو بعدم القيام بعمل الحق الذي لا يتفق مع أهوائهم .

وقال ابن عباس-رضي الله عنهما-: (لا تُجَالِسْ أَهْلَ الْأَهْوَاءِ ، فَإِنَّ مُجَالَسَتَهُمْ مُمْرِضَةٌ لِلْقُلُوبِ) (١) ، ولـذا: اشتد نكـير السلف وعظم تحذيرهم لأهل السنـة من مخالطة جلساء السوء، ففي قصة عمر t مع صبيغ: قال أبو عثمان الراوي: "إن عمر كتب إلينا أن لاتجالسوه، قال: فلو جلس إلينا ونحن مئة لتفرقنا عنه" (٢).

٦- تقديم النصوص الثابتة على غيرها :

قـال تعالى: [وَإِذَا قِيلَ لَهُـمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ] [المائدة ، آية: ١٠٤].

قال ابن كثير-رحمه الله- في تفسيره لهذه الآية: "أي: إذا دعوا إلى دين الله وشرعه وما أوجبـه وترك ما حرمه: قالوا: يكفينا ما وجدنا عليه الآبـاء والأجداد من الطرائق والمسالك ؛ قـال الله تعـالى: [أَوَلَـوْ كَانَ آبَاؤُهُـمْ لاَ يَعْقِلُـونَ شَيْئـاً] أي: لا يفهمون حقّـاً، ولا يعرفونه، ولا يهتـدون إليـه، فكيف يتبعونهـم والحالة هـذه ؟ لا يتبعهم إلا من هو أجهـل منهم وأضل سبيلاً" (٣) .

(١) -الشريعة للآجري - (١ / ١٤٤).
(٢) -الإبانة الكبرى، (١ /٤١٤) تاريخ دمشق (٨ /٢٣٣) المناقب ابن الجوزي (ص ١٢٥)، الإصابة(٢٥٨/٣).
(٣) -تفسير ابن كثير - (٣ / ٢١١).

وقال ابن مسعود : (أَلَا لَا يُقَلِّدَنَّ رَجُلٌ رَجُلًا دِينَهُ، فَإِنْ آمَنَ آمَنَ وَإِنْ كَفَرَ كَفَرَ، فَإِنْ كَانَ مُقَلِّدًا لَا مَحَالَةَ فَلْيُقَلِّدِ الْمَيِّتَ وَيَتْرُكِ الْحَيَّ، فَإِنَّ الْحَيَّ لَا تُؤْمَنُ عَلَيْهِ الْفِتْنَةُ) (١).

وقال عمر بن عبد العزيز-رحمه الله-: "لا رأي لأحد مع سنة سنها رسول الله" (٢).

وقال الشافعي-رحمه الله-: "أجمع الناس على أن من استبانت له سنة عن رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس"، وصح عنه أنه قال: "لا قول لأحد مع سنة رسول الله" (٣).

ولابن تيمية-رحمه الله-كلام نفيس في ذلك، إذ يقول: "فدين الله مبني على اتباع كتاب الله، وسنة نبيه، وما اتفقت عليه الأمة، فهذه الثلاثة هي المعصومة، وما تنازعت فيه الأمة ردوه إلى الله والرسول ، وليس لأحد أن ينصب للأمة شخصاً يدعو إلى طريقته،يوالي عليها ويعادي، غير كلام الله ورسوله وما اجتمعت عليه الأمة؛ بل هذا من فعل أهل البدع الذين ينصبون لهم شخصاً أو كلاماً يفرقون به بين الأمة، يوالون به على ذلك الكلام أوتلك السنة ويعادون" (٤).

وهذا هو ما عليه بعض من أبناء زماننا الذين قدموا رأي شيوخهم أوجماعاتهم أوأحزابهم على النصوص الصحيحة الثابتة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

٧-تقديم النقل الصحيح على العقل:

قال عزوجل: [فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا] [النساء ، آية: ٦٥]، قال ابن أبي العز الحنفي-رحمه الله:"ولا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام"، فقال: "أي: لا يثبت إسلام من لم يسلّم لنصوص الوحيين ،وينقاد إليها ،ولا يعترض عليها ،ولايعارضها

(١) -اعتقاد أهل السنة (١ / ٩٣)المعجم الكبير (٩/ ١٦٦).

(٢) -جامع بيان العلم وفضله (٢ /٧٥).

(٣) -كتاب الروح، لابن القيم (ص٣٩٦).

(٤) -درء تعارض العقل والنقل (١ /١٤٩).

برأيه ومعقوله وقياسه" [(١)] .

ولقد كرم الله الإنسان وفضله بالعقل ،وامتدح في كتابه ذوي الألباب والعقول المستنيرة، قال تعالى: [إِنمَّا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ] [الرعد ، آية: ١٩].

وقال-سبحانه-:[كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِه وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ] [ص ، آيـة: ٢٩] ولكـن كثيراً مـن الناس لم يبقوا العقل في المكانة التـي وضعه الله تعالى فيها؛ بل زلـوا فيه على صنفين :صنف عطله ولم يقم له وزناً، وصنف بالغ فيه وجعله مصدراً للتشريع وقدمه على النقل الصحيح.. [(٢)] .

٨- عدم الاعتماد على النصوص الضعيفة والموضوعة:

من أعظم عوائق الاتباع: الاعتماد على النصوص الضعيفة والموضوعة، وإثبات الأحكام بهـا، والقيـام بمنافحة الحق الثابـت بالنصوص الصحيحة من قبل كثير مـن الناس، سواء أكان ذلك بسبب جهلهـم وعدم قدرتهم على التمييز بين الصحيح والضعيف والموضوع منها ،أو الاغـترار بمقولـة بعض أهل العلم بجـواز العمل بالحديث الضعيـف في فضائل الأعمال، متناسين أن لذلك شروطاً، أهمها: ألا يعتقد عند العمل ثبوت الحديث ؛ لئلا ينسب إلى النبي ﷺ مـا لم يقله، وألا يكـون الضعف شديداً، وأن يكون الحكم الـذي يثبته الحديث الضعيف مندرج تحت أصل عام، ليخرج بذلك ما لا أصل له والذي يمتنع تأسيس الأحكام وإثباتها عن طريق ما كان كذلك [(٣)] .

٩- التخصص في العلم:

قـال -تعالى -: [فَلَوْلاَ نَفَرَ مِـن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ] [التوبة، آية: ١٢٢].

وقال -سبحانه -: [وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ] [النساء، آية: ٨٣] .

---

(١) -شرح الطحاوية، (١ /٢٣١) .

(٢) -انظر: درء تعارض العقل والنقل (١ /١٤٩-١٥٥) .والاعتصام (١ /٢٩٤-٣٠١) .

(٣) -انظر: الاعتصام (١ /٢٨٧-٢٩١) ومجلة البيان - (العدد٩٢ ص ٨).

وقال-عليه الصلاة والسلام-: "مَنْ يُرِدْ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَإِنمَّا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ "(١) .

وقال أيضاً: "لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِى يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ "(٢) وهم أهل العلم.

قال النووي-رحمه الله- في شرحه لصحيح مسلم عن هذا الحديث: " قلت: ويحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين منهم شجعان مقاتلون ، ومنهم فقهاء ، ومنهم محدثون ، ومنهم زهاد وآمرون بالمعروف وناهون عن المنكر ، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير ، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين؛ بل قد يكونون متفرقين في أقطار الأرض، وفي هذا الحديث معجزة ظاهرة ; فإن هذا الوصف ما زال بحمد الله تعالى من زمن النبي ﷺ إلى الآن ، ولا يزال حتى يأتي أمر الله المذكور في الحديث " أهـ كلامه. (٣)

---

(١) -صحيح البخاري (٣٧/١) كتاب العلم-بَاب الْعِلْمُ قبل الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ.

(٢) -صحيح البخاري(١٥٢٤/٣) كتاب الإمارة، باب قوله -صلى الله عليه وسلم- لا تزال طائفة من أمتي،حديث رقم (١٩٢٤) .

(٣) -شرح النووي على صحيح مسلم (٦٧/١٣).

المبحث الرابع

العلم الصحيح في فهم فقه الخلاف.

ونعني بالخلاف هنا ما هو أشمل من الخلاف في المسائل الفقهية الاجتهادية، فيدخل في ذلك المخالفة في المسائل الاعتقادية، كما في قوله تعالى: [وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ] [آل عمران،آية: ١٠٥] .

ويقصد بفقه الخلاف معرفة أحكام الخلاف بين المسلمين، وماذا يترتب على وقوع الخلاف؟ وما يجوز الخلاف فيه وما لا يجوز ؟ وإذا خالف المخالف متى يُعذر ومتى لا يُعذر؟ وماذا نطلق عليه ؟ ومتى نطلق عليه الكفر أو الفسوق ؟ وهل إطلاق الحكم على المخالف أو الموقف منه متروك لكل أحد ؟ وتفصيل ذلك أمر يجهله كثير من الناس، ومن هنا قد يحدث الافتراق في أمور لا يجوز الافتراق عليها .

.. وكذلك التقصير في فقه الاجتماع والجماعة، وهو فقه مهم جدًا قد غفل عنه الكثير من الذين يأخذون العلوم الشرعية، كما غفلوا عن المقاصد العظمى للدين في الاجتماع ! اجتماع الأمة وجمع الشمل وفقه الجماعة، وأكثرهم لا يفقه محاذير الافتراق، وكيف يكون ؟ ومحاذير الفتن، وما توصل إليه ؟ ولا يُحسن التفريق بين الثوابت وبين المتغيرات من الأحكام والأصول .

فالأخذ بظواهر النصوص دون فقه ولا اعتبار لدلالة المفهوم، ولا قواعد الاستدلال، ولا الجمع بين الأدلة، ولا اعتبار لفهم العلماء، ولا نظر في أعذار الناس [(١)] .

وهذا المنهج سبب لصنوف من الانحراف والضلال، وأشد ذلك وأعظمه خطرًا، التكفير والحكم بذلك على الأشخاص والجماعات والأنظمة دون فقه أو تثبت، أو اعتبار

(١) -انظر: ناصر العقل، الخوارج أول الفرق في تاريخ الإسلام، (ص٢٢) (بتصرف) .

للضوابط الشرعية، وهو ما وقع فيه بعض الأفراد والجماعات في هذا العصر،ورتبوا على ذلك استباحة الدماء والأموال، والاعتداء على حياة الناس الآمنين المطمئنين في مساكنهم ومعايشهم، والاعتداء على مصالحهم العامة التي لا غنى للناس في حياتهم عنها، فحصل بذلك فساد كبير في المجتمعات الإسلامية(١).

فعن أبي هريرة -رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: " أَيُّمَا رَجُلٍ قَالَ لأَخِيهِ كَافِرٌ فَقَدْ بَاءَ بِهِ أَحَدُهُمَا". (٢)

" إنَّ عدم الفهم السليم للدين وفق ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، وما أصَّله علماء أهل السنة والجماعة عبر القرون، يؤدى إلى انحراف الأمة وتفرقها وتناحرها، ويظهر ذلك من خلال أغلب الذين ظهر فيهم فكر الغلو في عهد النبي ﷺ وبعده لم يكونوا من أهل العلم والفهم السليم للدين؛ بل كان الجهل بما عليه سلف هذه الأمة أحسن وصف لهم كما جاء في الحديث "قَوْمٌ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّه رَطْبًا لا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ " (٣)، فهم أخذوا القرآن تلاوة وحفظاً دون فهم سليم له وفق ما فهمه الصحابة وعلماء الأمة الراسخون فضلوا من حيث كان ينبغي لهم أن يهتدوا به، وقد قال ابن تيمية-رحمه الله- " فإن عامة ضلال أهل البدع كان بهذا السبب فإنهم صاروا يحملون كلام الله ورسوله على ما يدعون أنه دالّ عليه ولا يكون الأمر كذلك"(٤).

ولذلك قال النبي ﷺ : "إِذَا رَأَيْتُمْ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللَّه فَاحْذَرُوهُمْ " (٥). (٦).

---

(١) -أسباب ظاهرة الإرهاب - لعبدالله بن محمد العمرو (ص ١١).

(٢) -صحيح البخاري (١٩/ ٥٨) كتَاب الْأَدَب ،بَاب مَنْ كَفَّرَ أَخَاهُ بِغَيْرِ تَأْوِيلٍ فَهُوَ كَمَا قَالَ.حديث رقم(٥٦٣٨).

(٣) -صحيح البخاري (١٣/ ٢٤٨) كِتَاب الْمَغَازِي، بَاب بَعْثُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَام وَخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى الْيَمَنِ قَبْلَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ(٤٠٠٤).

(٤) -مجموع الفتاوى(٧ / ١١٥) .

(٥) -صحيح البخاري(١٦٥٥/٤). كتاب التفسير، باب قوله تعالى: (مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ) ،حديث رقم (٤٢٧٣).

(٦) -إعلام الموقعين(٢/ ٢٩٤-٣٠٧) .

وقـال ﷺ : " إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّيـنَ أَحَدٌ إلا غَلَبَه" [1] ؛ لأن هذا الانحراف الفكـري الـذي سببه الغلو يصاب به كمـا أخبر الصادق الكريم ﷺ حدثـاء الأسنان سفاء الأحلام [2] .

قـال الشاطبي-رحمـه الله-: " النظر في مـآلات الأفعال معتبر مقصـود شرعًا، كانت الأفعـال موافقـة أو مخالفة، وذلك أن المجتهـد لا يحكم على فعل من الأفعـال الصادرة عن المكلفـين بالإقـدام أو بالإحجام إلا بعد نظره إلى ما يئول إليه ذلك الفعل، فقد يكون مشروعًا لمصلحة فيه تستجلب، أو لمفسدة تدرأ، ولكن له مآل على خلاف ما قصد فيه، وقد يكون غير مشروع لمفسدة تنشأ عنه أو مصلحة تندفع به، ولكن له مآل على خلاف ذلك [3] .

(١) -صحيح البخاري (١/ ٦٩) كتَاب الْإِيمَانِ، بَاب الدِّينُ يُسْرٌ(٣٨)

(٢) -الانحراف الفكري،مفهومه.أسبابه.علاجه.فيضوء الكتابوالسنة، (ص١٩).

(٣) -الموافقات - (٥ / ١٧٧).

المبحث الخامس
علاج الخلل في مناهج تلقي العلم .

أولا: الالتزام بنصوص كتاب الله سبحانه وتعالى:

قال تعالى: [يأَيُّهَا لَّذِينَ ءامَنُواْ سْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ] [الأنفال: ٢٤].

وقال تعالى: [وَأَنَّ هَذَا صرطي مُسْتَقِيمًا فَتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ لسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ] [الأنعام: ١٥٣].

وقال الله تعالى: [الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ] [المائدة : ٣] .

قال ابن عباس-رضي الله عنهما-: (أخبر الله نبيه ﷺ والمؤمنين أنه أكمل لهم الإيمان فلا يحتاجون إلى زيادة أبدًا،وقد أتمه الله فلا ينقصه أبدًا، وقد رضيه فلا يسخطه أبدًا) (١) .

وقال تعالى: [يأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ] [الأنفال: ٢٠].

وقال تعالى: [وَاتَّبِعُواْ أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ] [الزمر: ٥٥].

والآيات السابقة كلها تُبيّن المنهج الأكمل والطريق الأمثل في تلقي العلم.

(١) -جامع البيان (٤١٩/٤).

ثانيا : - الالتزام بنصوص السنة النبوية :

عـن العرباض بن سارية t قال: صلى بنا رسـول الله r ذات يوم ثم أقبل علينا، فوعظنا موعظـة بليغـة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال قائـل: يا رسول الله، كأن هذه موعظـة مـودّع فماذا تعهد إلينـا؟ قال: "أوْصيكُـم بتقْـوى الله والسَّمْع والطَّاعَـة، وإن عَبدًا حَبَشيًـا، فإنه مَنْ يَعشْ منْكم فَسَيرى اختلافًا كَثيرًا، فَعلَيْكم بسنَّتـي وسنَّة الخُلفاء المهْديّين الرَّاشديـن، تمسَّكوا بها وعضُّوا عليهَـا بالنَّواجِذ، وإيَّاكُم ومحدَثَات الأمُـور؛ فإنَّ كلَّ مُحدَثَةٍ بدعَة، وكلَّ بدعة ضَلالَة" (١) .

وعن عبد الله بن مسعود t قال: (خَطَّ لَنَا رَسُولُ الله r خَطًّا ، فَقَالَ : "هَذَا سَبيلُ الله" ، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمينه ، وَعَنْ شمَاله ، فَقَالَ : هَذه سُبُلٌ عَلَى كُلِّ سَبيل منْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إلَيْـه، ثُـمَّ تَلاَ: [وَأَنَّ هَذَا صرَاطـي مُسْتَقيمًا فَاتَّبعُوهُ وَلاَ تَتَّبعُواْ السُّبُـلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبيله ذَلكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ] [الأنعام:١٥٣] (٢) .

وعـن جابر ،عـن النبي ﷺ قال: " وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَمْ تَضِلُّـوا إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ كِتَابَ اللَّهِ" (٣) .

ثالثا- الالتزام بنصوص المنقولة عن السلف الصالح وأتباعهم:

قـال عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – : (إِيَّاكُمْ وَأَصْحَابَ الرَّأْيِ فَإِنَّهُمْ أَعْدَاءَ السُّنَنِ أَعْيَتْهُمُ الْأَحَادِيثُ أَنْ يَحْفَظُوهَا فَقَالُوا بِالرَّأْيِ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا) (٤) .

وقال أيضاً: (سَيَأْتِي أُنَاسٌ يُجَادِلُونَكُمْ بِشُبُهَاتِ الْقُرْآنِ، فَجَادِلُوهُمْ بِالسُّنَنِ، فَإِنَّ أَصْحَابَ السُّنَنِ أَعْلَمُ بِكِتَابِ اللَّهِ) (٥) .

وقال ابـن مسعود : (إِنَّكُمْ أَصْبَحْتُمْ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَإِنَّكُـمْ سَتُحْدِثُونَ، وَيُحْدَثُ لَكُمْ، فَإِذَا

(١) -رواه أبو داود في سننه (١٣/٥)، وقال الألباني: صحيح.انظر: مشكاة المصابيح (١٦٥).
(٢) -رواه أحمد في المسند (٤٣٥/١)و حسّنه الألباني. انظر: ظلال الجنة مع كتاب السنة (١٧).
(٣) -رواه مسلم في صحيحه: كتاب الحج، باب: حجة النبي صلى الله عليه وسلم (١٢١٨).
(٤) -رواه الدارقطني في سننه (١٤٦/٤).
(٥) -رواه الدرامي في سننه (٤٩/١)، والإبانة لابن بطة (٢٥٠/١) وقال المحقق: "إسناده صحيح".

رَأَيْتُمْ مُحْدَثَةً، فَعَلَيْكُمْ بِالْهَدْيِ الأَوَّلِ) [(١)].

وقال أبو العالية: "وعليكم بسنة نبيكم والـذي كان عليه أصحابه، وإياكم وهذه الأهواء التي تلقي بين الناس العداوة والبغضاء" [(٢)].

وقال شريح القاضي: "إن السنة قد سبقت قياسكم، فاتبع ولا تبتدع، فإنك لن تضل ما أخذت بالأثر" [(٣)].

وجاء رجل إلى مالك فسأله عن مسألة، فقال له: قال رسول الله r : كذا وكذا، فقال الرجل: أرأيت؟ قال مالك: [فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ] [النور:٦٣] [(٤)].

رابعا: التصدي لظاهرة الانحراف مسؤولية جماعية :

حينما تكون هناك ظاهرة انحرافية فلابد أن يكون التصدي لها بصورة جماعية لتقويمه ، ولذلك فإن القرآن حمل المجتمع بكافة أطيافه مسؤولية التغيير والإصلاح، كما في قوله تعالى: [وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ × مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ] [الصافات:٢٤-٢٥].

ومن هنا نجد أن القرآن أشار إلى المسؤولية على كل الأفراد فقال: [إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ] [الرعد:١١].

فلا يمكن للإنسان أن يبعد نفسه من عملية التغيير في المجتمع وفي حديثه عن التغيير حمل الجميع مسؤولية التغيير، وقد ذمَّ بني إسرائيل لأنهم كانوا يحملون غيرهم مسؤولية الإصلاح، وينوءون بأنفسهم عن المسؤولية ، قال تعالى:[وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء ... قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ] [المائدة: ٢٠- ٢٢].

---

(١) -الإبانة (٣٢٩/١).
(٢) -الإبانة (١٩٩/١).
(٣) -شرح السنة (٢١٦/١).
(٤) -المصدر السابق (٢١٦/١).

خامسا: التواصي ودوره في عملية الاصلاح.

مــن إحدى النقاط المهمة التي وجه إليها القرآن في عملية الاصلاح هي مسألة التواصي والتذكـير بـين أفراد المجتمـع في أمور الخير وفي الصـبر على عملية الاصـلاح، قال تعالى: [وَالْعَصْــرِ × إِنَّ الإِنسَــانَ لَفِــي خُسْرٍ × إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُــوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَــاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ] [العصر: ١-٣].

وقال تعالى:[ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ] [البلد ١٧].

وفي نهايــة حديثــي عن علاج الخلــل في مناهج تلقي العلم أوكد أن القــرآن وضع منهجاً متكامــلاً لعملية الإصلاح الاجتماعي وبين أن العلاج لابــد أن يتم بصورة جماعية ولا يُكتفى العلاج الفردي كما في قوله تعالى: [وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَان] [المائدة:٢]

إن تــرك الأمر بالمعــروف والنهي عن المنكر ، وترك المناصحــة ووقوع المداهنة في الدين أوسلــوك مسلك التشاؤم واليأس مــن الإصلاح يعتبر فساد كبير ، فالمناصحة باب عظيم من أبــواب الخير والجهاد ، كما أن المناصحة تزيل الغل من القلوب، وهي قوة للخير وإعذار عند الله ، أو دفع للبلاء والنقمة عن الأمة.

الخاتمـة

الحمـد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وأشكره شكـرًا عظيمًا على ما أولاه من فضل وعون وتوفيق، وأصلي وأسلم على نبينا محمد ، وآله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فقد ذكرت في مقدمة هذه الدراسة أنها جاءت لتعالج قضية الخلل في مناهج تلقي العلم من خلال الدراسات القرآنية ونشر المنهج الصحيح، من حيث جهل كثير من الناس بها، وما ترتّب على ذلك من إفراط وتفريط، ولذا فـإنّي أجد من المناسب أن ألخص ما توصلت إليه في هذه الدراسة فيما يلي:

أولاً: نتائج الدراسة:

١. مـن خلال هـذه الدراسة تم إبراز الإعجـاز في وسطية واعتـدال المنهج الإسلامي، والسير على منهج الرسول ﷺ في الوسطية والاعتدال.

٢. تعزيـز قيمـة الوسطيـة والاعتـدال في نفوس المسلمين،لتحقيـق الأمـن النفسـي والاجتماعي والعالمي.

٣. الرد على التهم التي ألصقت بالمنهج الإسلامي بأنه تطرف وغلو.

٤. إن أهـم أسباب نشـوء جماعات الغلو بين المنتسبـين إلى الدعوة في هذا العصر هو الخلل في مناهج تلقي العلم.

٥. الجهل بأهمية تصحيح مناهج التلقي في طلب العلم.

٦. عـدم الأخذ بمناهج التلقي على وجهها الصحيح من قبـل بعض أفراد الأمة، حيث أتـاح للأعـداء فرصـة اقتناص بعض الأخطـاء والهفوات، ومن ثـم إقناع كثير من النـاس بصحة تلك الدعاوى وتلبيس هذه التهم الباطلة.

٧. إن القـرآن الكريم يقـرر مناهج التلقـي الصحيح بأساليب متعـددة ومتنوعة ،وإن

أحاديث كثيرة وتوجيهات نبوية كريمة رسمت هذا المنهج الصحيح، والحث على الاهتمام به والنهي عن التعمق والتشدد، والابتعاد عن تكلف ما لا يطاق.

٨. وأخيرًا فإن هناك لبسًا في فهم مناهج التلقي في العلم من قبل بعض الجماعات والدعاة، وهذا اللبس أدى إلى أنهم خلطوا عملا صالحًا وآخر سيئًا.

ثانيًا: التوصيات:

١. أوصي ببذل الجهود العلمية من قبل العلماء وطلاب العلم في دراسة موضوع الخلل في مناهج تلقي العلم وعلاجه من خلال الدراسات القرآنية، ونشر المنهج الصحيح، والتوسع في ذلك، حيث أرى أن هناك جوانب مهمة لم تعط حقها من البحث والدراسة.
٢. عقد الندوات والمحاضرات لبيان أهمية الموضوع وحقيقته، وأثره الإيجابي في حياة الناس.
٣. الممارسة العملية الواقعية في مناهج تلقي العلم من قبل أفراد الأمة الإسلامية، مما يتيح للناس أن يروا القدوة الصالحة التي هم في أمس الحاجة إليها.
٤. تربية الشباب والدعاة وطلبة العلم، على هذا المنهج الصحيح في التلقي تربية عملية شاملة، مما يقضي على الخلل الموجود في محيط المجتمع المسلم سواء أكان إفراطًا أوتفريطًا.
٥. تعلم اللغة العربية والحرص على التحدث بها مهم جدًا لفهم المنهج التلقي العلم الصحيح.

ولذلك لا بد من تصفية المنهج مما علق به ليكون وفق الكتاب والسنة، ومنهج سلف الأمة، فلن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.

٢. الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة، للشيخ الإمام أبي عبد الله بن بطة العكبري، تحقيق أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية،بيروت،طبعة عام٢٠٠٢ .

٣. أسباب ظاهرة الإرهاب في المجتمعات الإسلامية رؤية ثقافية إعداد، د . عبد الله بن محمد العمرو قسم الثقافة الإسلامية - كلية الشريعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

٤. الاستقامة، تأليف: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، دار النشر: جامعة الإمام محمد بن سعود - المدينة المنورة - ١٤٠٣، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. محمد رشاد سالم

٥. الإصابة في تمييز الصحابة، تأليف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار النشر: دار الجيل - بيروت - ١٤١٢ - ١٩٩٢، الطبعة: الأولى، تحقيق: علي محمد البجاوي

٦. أصول الافتاء و الاجتهاد التطبيقي في فقه الدعوة ، للشيخ محمد أحمد الراشد .

٧. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، الناشر : دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت — لبنان الطبعة : ١٤١٥ هـ- ١٩٩٥ م .

٨. الاعتصام، تأليف: أبي إسحاق الشاطبي، دار النشر: المكتبة التجارية الكبرى - مصر

٩. إعلام الموقعين عن رب العالمين، تأليف: أبي عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن سعد الزرعي الدمشقي، دار النشر: دار الجيل - بيروت - ١٩٧٣، تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد

١٠. الافتراق .. د. ناصر بن عبدالكريم العقل ،مفهومه – أسبابه – سبل الوقاية منه .مكتبة الشاملة.

١١. الانحراف الفكري،مفهومه ـ أسبابه ـ علاجه في ضوء الكتاب والسنة، لطه عابدين.

١٢. تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل، تأليف: أبي القاسم علي بن الحسن إبن هبة الله بن عبد الله الشافعي، دار النشر: دار الفكر – بيروت – ١٩٩٥ ، تحقيق: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري

١٣. تفسير ابن كثير ، لإسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ، بيروت : دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

١٤. التوقيف على مهمات التعاريف، تأليف: محمد عبد الرؤوف المناوي، دار النشر: دار الفكر المعاصر ، دار الفكر – بيروت ، دمشق – ١٤١٠ ، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. محمد رضوان الداية

١٥. جامع الأصول في أحاديث الرسول لابن الأثير، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة الحلواني، الطبعة الأولى ١٣٧٢هـ/ ١٩٣٢م.

١٦. جامع البيان في تأويل القرآن،لمحمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، المحقق : أحمد محمد شاكر، الناشر : مؤسسة الرسالة، الطبعة : الأولى، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م.

١٧. الجامع الصحيح سنن الترمذي،لمحمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، الناشر : دار إحياء التراث العربي – بيروت، تحقيق : أحمد محمد شاكر وآخرون.

١٨. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وسننه وأيامه (صحيح البخاري) ، لأبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ .

١٩. جامع بيان العلم وفضله، تأليف: يوسف بن عبد البر النمري، دار النشر: دار الكتب العلمية – بيروت – ١٣٩٨

٢٠. الجامع لأحكام القرآن، تأليف: أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي،

دار النشر: دار الشعب - القاهرة

٢١. الحضارة الإسلامية بين أصالة الماضي وآمال المستقبل (مكتبة الشاملة).

٢٢. الخوارج أول الفرق في تاريخ الإسلام، ناصر العقل (المكتبة الشاملة)

٢٣. الدر المنثور، تأليف: عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي، دار النشر: دار الفكر - بيروت - ١٩٩٣

٢٤. درء تعارض العقل والنقل، تأليف: تقي الدين أحمد بن عبد السلام بن عبد الحليم بن عبدالسلام بن تيمية، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م. ، تحقيق: عبد اللطيف عبدالرحمن.

٢٥. ديوان المتنبي المطبوع مع شرح العكبري المسمى بالتبيان في شرح الديوان .

٢٦. رسالة في الاجتهاد والتقليد لحمد بن ناصر بن معمَّر (مكتبة الشاملة).

٢٧. الرسالة، تأليف: محمد بن إدريس أبي عبد الله الشافعي - القاهرة - ١٣٥٨ - ١٩٣٩، تحقيق: أحمد محمد شاكر

٢٨. الزهد ويليه الرقائق، لعبد الله بن المبارك بن واضح المرزوي أبو عبد الله، الناشر : دار الكتب العلمية — بيروت، تحقيق : حبيب الرحمن الأعظمي.

٢٩. السلسلة الصحيحة، لمحمد ناصر الدين الألباني، الرياض، مكتبة المعارف.

٣٠. سلسلة علو الهمة ، لمحمد بن أحمد بن إسماعيل المقدم، الناشر: دار الإيمان - الإسكندرية؛ سنة النشر: ٢٠٠٤م

٣١. سنن ابن ماجه، تأليف: محمد بن يزيد أبي عبدالله القزويني، دار النشر: دار الفكر - بيروت - -، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

٣٢. سنن أبي داود، تأليف: سليمان بن الأشعث أبي داود السجستاني الأزدي، دار النشر: دار الفكر - -، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد

٣٣. سنن الدارقطني، تأليف: علي بن عمر أبي الحسن الدارقطني البغدادي، دار النشر: دار المعرفة - بيروت - ١٣٨٦ - ١٩٦٦، تحقيق: السيد عبد الله هاشم يماني المدني.

٣٤. سنن الدارمي، لعبدالله بن عبدالرحمن أبي محمد الدارمي، الناشر : دار الكتاب

العربي – بيروت، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧، تحقيق : فواز أحمد زمرلي ، خالد السبع العلمي.

٣٥. السنن الكبرى لأحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، الناشر : مكتبة دار الباز – مكة المكرمة ، ١٤١٤ – ١٩٩٤، تحقيق : محمد عبد القادر عطا .

٣٦. شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي . تحقيق: أحمد حمدان – الطبعة الثانية – دار طيبة – الرياض.

٣٧. شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة، تأليف: هبة الله بن الحسن بن منصور اللالكائي أبو القاسم، دار النشر: دار طيبة – الرياض – ١٤٠٢، تحقيق: د. أحمد سعد حمدان.

٣٨. شرح السنة، تأليف: الحسين بن مسعود البغوي، دار النشر: المكتب الإسلامي – دمشق ــــ بيروت – ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م، الطبعة: الثانية، تحقيق: شعيب الأرناؤوط – محمد زهير الشاويش

٣٩. شرح الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي. تحقيق: د.عبدالله التركي وشعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة،ط(١) ،١٤٠٨هـ.

٤٠. شروط النهضة. لمالك بن نبي ترجمة عبد الصبور شاهين. دمشق: دار الفكر، ١٩٩٦م.

٤١. الشريعة، تأليف: أبي بكر محمد بن الحسين الآجري، دار النشر: دار الوطن – الرياض / السعودية – ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م، الطبعة: الثانية، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عمر بن سليمان الدميجي

٤٢. صحيح الجامع الصغير وزيادته ، الألباني ، المكتب الإسلامي ، ١٤٠٢هـ .

٤٣. صحيح سنن ابن ماجة ، الألباني ، المكتب الإسلامي ، بيروت ١٤٠٨هـ .

٤٤. صحيح مسلم بشرح النووي، تأليف: أبي زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، دار النشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت – ١٣٩٢، الطبعة: الطبعة الثانية

٤٥. صحيح مسلم، تأليف: مسلم بن الحجاج أبي الحسين القشيري النيسابوري، دار النشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي

٤٦. الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، تأليف: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، دار النشر: منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت

٤٧. ظلال الجنة في تخريج السنة لابن أبي عاصم،لمحمد ناصر الدين الألباني، الناشر : المكتب الإسلامي – بيروت،الطبعة : الثالثة - ١٤١٣-١٩٩٣ .

٤٨. العلماء هم الدعاة: د. ناصر بن عبد الكريم العقل مكتبة الشاملة.

٤٩. فصل الخطاب في الزهد والرقائق والآداب ، لمحمد نصر الدين محمد عويضة (مكتبة الشاملة).

٥٠. الفقيه و المتفقه، تأليف: أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، دار النشر: دار ابن الجوزي - السعودية - ١٤٢١هـ، الطبعة: الثانية، تحقيق: أبي عبد الرحمن عادل بن يوسف الغرازي

٥١. كتاب الروح،لابن قيم الجوزية ، دار الفكر - الأردن .

٥٢. مجاز القرآن ، لأبي عبيدة معمر بن المثنى التيمى البصري ، المحقق: محمد فواد سزكين، الناشر: مكتبة الخانجى – القاهرة، الطبعة: ١٣٨١ هـ.

٥٣. مجلة البيان - العدد(٩٢)

٥٤. مجموع الفتاوى، لابن تيمية، المحقق : أنور الباز - عامر الجزار، الناشر : دار الوفاء، الطبعة : الثالثة ، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م .

٥٥. مختار الصحاح، لمحمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي، تحقيق : محمود خاطر الناشر : مكتبة لبنان ناشرون – بيروت، الطبعة طبعة جديدة ، ١٤١٥ – ١٩٩٥.

٥٦. المسند، لأحمد بن حنبل أبي عبدالله الشيباني، الناشر : مؤسسة قرطبة – القاهرة.

٥٧. مشكاة المصابيح:محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الثالثة، المكتب الاسلامي، بيروت، لبنان،دمشق، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٥م.

٥٨. مشكلات الأقليات المسلمة في الغرب، لأحمد عبدالغني محمود عبدالغني، موقع الألوكة (ص٤).

٥٩. مصطلحات في علم الدعوة الإسلامية لأعضاء هيئة التدريس بكلية الكتاب والسنة

قسم الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى.

٦٠. المصنف في الأحاديث والآثار، تأليف: أبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، دار النشر: مكتبة الرشد – الرياض – ١٤٠٩، الطبعة: الأولى، تحقيق: كمال يوسف الحوت.

٦١. المعجم الكبير، تأليف: سليمان بن أحمد بن أيوب أبي القاسم الطبراني، دار النشر: مكتبة الزهراء – الموصل – ١٤٠٤ – ١٩٨٣، الطبعة: الثانية، تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي.

٦٢. المفردات في غريب القرآن ، لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى ،المحقق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت، ط١ – ١٤١٢ هـ.

٦٣. مناقب الإمام أحمد المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي،المحقق: د. عبدالله بن عبد المحسن التركي .

٦٤. المنثور في القواعد: المؤلف: بدر الدين محمد بن بهادر الزركشي الشافعي، المحقق: تسير فائق أحمد; الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

٦٥. الموافقات في أصول الفقه، تأليف: إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي، دار النشر: دار المعرفة – بيروت، تحقيق: عبد الله دراز.

محمد أحمد عبابنة

- الجنسية: أردني
- الدرجة العلمية: دكتوراه
- التخصص الدقيق: الاقتصاد والمصارف الإسلامية/ جامعة اليرموك /الأردن.
- المؤسسة الأصلية: وزارة التربية والتعليم
- الدولة: الأردن
- رقم الهاتف/ الفاكس: ٠٠٩٦٢٧٨٨٦١١٤٣١
- البريد الإلكتروني: Muhammad_ababnih@yahoo.com

الأبحاث المحكمة:

- بحث بعنوان: مؤسسة الحسبة في الدولة العثمانية ودورها في ضبط الأسواق / مجلة جامعة مؤتة للدراسات.
- بحث بعنوان: دور القيم النبوية في توجيه سلوك المسلم الاقتصادي، المنتج والمستهلك/ مجلة التسويق العالمية/لندن.

المشاركة في العديد من المؤتمرات والندوات ومنها:

- دور الزكاة في تحقيق الأمن الاجتماعي / مؤتمر الأمن الاجتماعي جامعة آل البيت.
- صكوك الوقف، دورها ومجالات تطبيقها/ مؤتمر الصكوك وأدوات التمويل/ جامعة اليرموك.
- مدى تحقيق المنتجات المالية الإسلامية للمقاصد الشرعية/ مؤتمر المقاصد / جامعة اليرموك.
- السياسة الشرعية في مواجهة الغلو/ مؤتمر الغلو وأسبابه / جامعة جرش.
- أخلاقيات العمل المصرفي دراسة تأصيلية/ مؤتمر البعد المعرفي والإبداعي في العمل المصرفي/ مركز تمكين للتنمية الإدارية.
- أخلاقيات العمل الجامعي / مؤتمر العمل الأكاديمي / الجامعة الأردنية.

المنهج القرآني في حماية المال العام

الدكتور محمد أحمد عبابنة

مقدم للمشاركة
في المؤتمر الدولي القرآني الأول بعنوان:
توظيف الدراسات القرآنية في علاج المشكلات المعاصرة
والذي ينظمه قسم القرآن وعلومه بكلية الشريعة وأصول الدين
جامعة الملك خالد / المملكة العربية السعودية

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، ومن سار على هديهم واستنَّ بسنَّتهم إلى يوم الدين، واشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لا ربَّ غيرُه ولا معبود بحقٍ سواه، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله صلواتُ ربي وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وبعد:

فإن القرآن الكريم هو دستور هذه الأمة والذي نظَّم حياتنا وارتقى بنا وعلمنا كيف نحافظ على ما يصلحنا في دنيانا، فهو المنهج الذي ارتضاه الله للبشر، حيث قال جل شأنه: ﴿إنَّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾ [الإسراء ٩]، ولا شك أن المعرفة الوافية لمنهجية القرآن الكريم في إدارة المال العام والحفاظ عليه له أثر كبير في فهم الواقع وتوجيهه، حيث أنار الطريق للأمة ووضع حجر الأساس في كل جانب من جوانب الحياة، في الوقت الذي نحن بأمس الحاجة فيه إلى العودة إلى قواعده وأحكامه خاصة فيما يتعلق بالمال العام وإدارته وحمايته لأنه متعلق بمجموع الأمة.

ومن هنا جاءت هذه الدراسة لتبين منهجية القرآن الكريم في حماية المال العام والأساليب التي استخدمها لذلك وإبراز جانب السبق الحضاري للإسلام في هذا المجال، إضافة إلى ما يترتب على حماية هذا المال من آثار ايجابية تعود على الفرد والمجتمع على حدٍ سواء، وتكون سبباً في الحفاظ على الدولة ومقدراتها وثرواتها.

ولتحقيق هذا الهدف جاءت هذه الدراسة في ثلاثة مباحث على النحو التالي:

المبحث الأول: مفهوم المال والمال العام.

المبحث الثاني: منهجية القرآن الكريم في حماية المال العام.

المبحث الثالث: الآثار المترتبة على حماية المال العام على الدولة والمجتمع.

وفي الخاتمة: النتائج والتوصيات

هدف الدراسة :

تهدف هذه الدراسة إلى جمع النصوص القرآنية التي يمكن للباحث من خلالها الاستفادة في توظيفها لبيان منهجية القرآن الكريم في حماية المال العام وما يتعلق به من أحكام ووسائل تحفظه وتعمل على تنميته و توجيهه الوجهة المرضية بما يعود على الأمة بالنفع والفائدة.

منهج الدراسة :

اتبع الباحث في هذه الدراسة المنهج الاستقرائي والتحليلي، بحيث يتم جمع الآيات المتعلقة بهذا الموضوع وتحليلها وفق ما يتناسب معها من أفكار.

أهمية الدراسة وسبب اختيار الموضوع:

تكمن أهمية الدراسة من كون المال العام متعلق بمجموع الأمة، فهو مسؤولية مهمة من هذا الجانب، كما أن أهمية هذا المال ودراسة ما يتعلق به من أحكام ووسائل لحمايته وصيانته واستثماره والمحافظة عليه له أكبر الأثر في تحقيق الرفاهية للمسلمين وسد حاجاتهم، ولذلك فإن اختيار هذا الموضوع نابع من هذه الأهمية للمال العام ودوره في الحفاظ على مكتسبات الأمة ومقدراتهم.

ومما تجدر الإشارة إليه أن هناك كثير من المشكلات تتعلق بالمال العام حاول الباحث في هذه الدراسة أن يشير إليها، وذلك مثل تعرض هذا المال أحياناً للسرقة والاعتداء، والتساهل والغش أحياناً أخرى، كما أنَّ هناك مشكلات أخرى متعلقة بالرشاوي لتحقيق مصلحة خاصة على حساب المصلحة العامة، أضف إلى ذلك مشكلة الترهل الإداري والتساهل في اختيار الأكفاء من العاملين والقائمين على المال العام، كما أن هناك مشكلة متعلقة بتعطيل الثروات المنتجة من المال العام وعدم استثمارها الاستثمار الأمثل مما يفوِّت على المسلمين مصلحة مهمة، كل ذلك من المشكلات المهمة التي حاول الباحث التركيز عليها واختار الموضوع لأجل إبرازها.

فرضية الدراسة :

تقوم هذه الدراسة على فرضية مؤداها أن المنهجية القرآنية في حماية المال العام هي

المنهجيـة المثلـى في المحافظة علـى هذا المال وصيانته علـى اعتبار أنها أصـلا تشريعيا ثابتاً متصفاً بالمرونة في استيعاب المستجدات.

وتحـاول هذه الدراسـة إثبات هذه الفرضية مـن خلال الإجابة على التسـاؤلات التالية والتي تشكل بمجموعها مشكلة الدراسة :

ما مفهوم المال؟ وما المقصود بالمال العام ؟
ما هي أساليب ووسائل حماية المال العام في القرآن الكريم؟
ما هي الآثار الايجابية لحماية المال العام على الدولة والمجتمع؟

وختاماً:

فـإن هذه الدراسة تأتي كمحاولـة لتوظيف الدراسات القرآنية في تحسس مواطن الخلل وعلاجهـا بهدف تحقيـق استقرار الدولـة الإسلامية وتعزيـز كفاءتها وقدرتهـا في مواجهة الاحتياجات المتجددة.

المبحث الأول

مفهوم المال والمال العام

أولاً: مفهوم المال:

المـال مشتـق من: "مول" ويطلق على كل ما يملكه الإنسان مـن الأشياء، قال ابن الأثير: "المال في الأصل ما يُملك من الأعيان، وأكثر ما يطلق المال عند العرب على الإبل لأنها أكثر أموالهم، ومُلتَ وتمولتَ: معناه كثر مالك" (١)، قال الفراهيدي: "المال معروفٌ وجمعُهُ أموال وكانت أموال العرب أنعامهم" (٢)، وقد كان يطلق على ما يملك من الذهب والفضة ثم أطلق على كل ما يقتنى ويملك من الأعيان(٣).

وتطور استعماله باختلاف الأزمنة، وأنه تأثر أيضا بالأعراف والبيئات، وقد قال سفيان الثوري رحمه الله: "إنما سمي المال مالاً لأنه يميل القلوب" (٤).

مفهوم المال اصطلاحاً:

اختلـف الفقهـاء في تعريف المال على أقوال، جوهرهـا أنَّ الحنفية قد تفردوا في تعريف المـال بأمـور، ونصُّـوا على أن المال مـا يمكن ادخاره ولـو إلى لحظة واحدة، أمـا ما لا يمكن ادخـاره مطلقـاً، فلا يدخل في تعريف المال عندهم، فقد جـاء في حاشية ابن عابدين تعريف المـال بأنه: "مـا يميل إليه الطبع ويجري فيه البذل والمنع ويمكن ادخاره لوقت الحاجة" (٥)، خلافـاً للجمهـور الذين اتفقـوا بالجملة فيما بينهم علـى أنَّ المال هو كل ما يمكـن أن ينتفع بـه سـواء كان قليـلاً أو كثيراً، وسواء كان ممـا يمكن ادخاره أو لا يمكن ادخـاره، وقد توافق

(١) ابن منظور: لسان العرب، مادة "مول"، ج١١، ص٦٣٦.
(٢) الفراهيدي: كتاب العين، ج٨، ص٣٤٤.
(٣) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، ج٤، ص٣٧٣.
(٤) الأصبهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج٦، ص٣٨٦.
(٥) ابن عابدين: حاشية رد المحتار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار، ج٤، ص٥٠١.

تعريفهم للمال بأنّه: "ما كان منتفعاً به، أي مستعداً لأن ينتفع به وهو أعيان أو منافع".(١)

وقد قسم العلماء المال إلى أقسام كثيرة تبعاً للصفة المتوفرة فيه، ومن بين هذه التقسيمات المال الخاص وهو الذي أشرت إليه سابقاً، والمال العام والذي هو موضع البحث، وسيورد الباحث تعريف المال العام وخصائصه فيما يلي:

مفهوم المال العام:

يعرف المال العام بأنَّه ما ليس داخلاً في الملك الفردي بل لمصلحة العموم ومنافعهم(٢)، وهو الذي يُقَابِلُ الْمَال الخاص، كَبَيْتِ مَال الْمُسْلِمِينَ، وَالْمَوْقُوفِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ عَامَّةً، وَكُل مَا كَانَ نَفْعُهُ لِلْمُسْلِمِينَ عَامَّةً(٣).

ويدخل فيه الحمى، وهو عبارة عن تخصيص جزء من الأرض الموات التي لا يملكها أحد لمصلحة عامة، وقد خصَّه النبي صلى الله عليه وسلم فيما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أَنَّ الصَّعْبَ بْنَ جَثَّامَةَ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهَّ صَلَّى الله عَلَيْه وَسَلَّمَ قَالَ: ((لاَ حِمَى إِلاَّ لِلَّهَّ وَلِرَسُولِه، وَقَالَ: بَلَغَنَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى الله عَلَيْه وَسَلَّمَ حَمَى النَّقِيعَ))(٤).

جاء في المنتقى أن الحمى هو أن يحمي موضعاً لا يقع بـه التضييق على الناس للحاجة العامة إلى ذلك(٥).

ويدخل فيها أيضاً الأراضي الموقوفة على جماعة المسلمين كالنصف الذي رصده الرسول صلى الله عليه وسلم من أرض خيبر لنوائبه وحاجاته، فقد روي عَنْ سَهْلِ بْنِ أَبِي حَثْمَةَ قَالَ: ((قَسَمَ رَسُولُ اللَّهَّ صَلَّى الله عَلَيْه وَسَلَّمَ خَيْبَرَ نِصْفَيْنِ، نِصْفًا لِنَوَائِبِه وَحَاجَتِه، وَنِصْفًا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، قَسَمَهَا بَيْنَهُمْ عَلَى ثَمَانِيَةَ عَشَرَ سَهْمًا))(٦).

---

(١) ( ) الزّركشي: المنثور في القواعد، ج٣، ص٢٢٢ .

(٢) الزرقا: المدخل الفقهي العام، ج٣، ص٢٢١.

(٣) الموسوعة الفقهية الكويتية، ج١٩، ص٧.

(٤) صحيح البخاري، كتاب المساقاه، باب لا حمى إلا لله ورسوله، ج٣ص١١٣، حديث رقم ٢٣٧٠.

(٥) الباجي: المنتقى شرح الموطأ، ج٦، ص٣٧.

(٦) سنن أبي داود، باب ما جاء في حكم أرض خيبر، حديث رقم ٣٠١٠، ج٣ص١٥٧، قال الألباني حسن صحيح.

فالأمـوال العامة مخصصة للانتفاع المباشر لأفـراد الأمة كالطرق والأنهار ونحوها، أو للمنفعة العامة المباشرة كالحصون أو غير المباشرة كالمعدات اللازمة لها، ومن ثَمَّ فلا يجوز تملكها ولا تمليكها مادامت هذه الأشياء على حالتها منتفعاً بها الانتفاع الذي أعدت له(١).

ويدخـل فيها أيضاً المرافق العامة، وأموال الـزكاة والجزية والخراج، وكل ما يدخل إلى بيت المال من أموال من الغنائم والفيء ومال من لا وارث له.

فصاحـب الملكيـة لهذه الأمـوال مجموع الأمـة أو جماعة منهـا ينتفع بهـا الجميع دون اختصاص فرد معين بها.

(١) أوهاب: حماية المال العام في الفقه الإسلامي، ص٢٣.

المبحث الثاني

منهج القرآن الكريم في حماية المال العام

حماية المال بشكل عام والمحافظة عليه من مقاصد الشريعة، وقد تواترت النصوص الشرعية الدالَّة على ذلك حيث حرَّم الإسلام الإسراف والتبذير وإتلاف المال، كما أوجب المحافظة عليه وعدم تسليمه للسفهاء الذين لا يحسنون التصرف، إضافة إلى حثِّ الإسلام على استثمار المال وتنميته، وكل ذلك مما يهم الفرد في ملكيته الخاصة للمال.

أما المال العام فيحتاج إلى مزيد من الاهتمام لأنَّه من أكثر الأموال تعرضاً للضياع والهلاك والاعتداء على اعتبار أنه مملوك لمجموع الناس وليس لفرد بعينه، وخصوصاً في ظل مجتمعات ضعفت فيها القيم الإيمانية والأخلاق الحسنة إضافة إلى الجهل بفقه حرمة المال العام.

وقد أسَّس الإسلام في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم قواعد عامة وأسس شرعية متينة من شأنها أن تحفظ الأموال العامة بجميع أصنافها وأنواعها، وسنقف مع منهجية القرآن الكريم من خلال توجيهاته وتشريعاته والتي تعتبر النموذج الأمثل للاقتداء والامتثال.

منهجية القرآن الكريم في حماية المال العام:

بدايةً لا بدَّ من تحديد مسؤولية ولي الأمر عن المال العام تحصيلاً وإنفاقا، فقد اتفق الفقهاء على أنَّ وظيفة ولي الأمر في المال العام وظيفة النائب، وهي فرع من وظيفته العامة على شؤون المسلمين، قال ابن العربي: "الأمير نائب عن الجميع في جلب المنافع، ودفع المضار"(١)، وقال ابن تيمية: "وليس لولاة الأمور أن يقسموها- أي الأموال العامة- بحسب

(١) ابن العربي: أحكام القرآن، ج٢، ص٤٥٨.

أهوائهم، كما يقسم المالك ملكه، فإنما هم أمناء ونواب.. ليسوا ملاكاً" (١)، وقال ابن رجب: "والإمـام هـو النائب لهم، والمجتهد في تعيين مصالحهم" (٢)، وقال الدسوقي: "الإمام.. إنمـا هو نائب عن المسلمين" (٣)، وقد جاءت بعض الآيـات الكريمة التي توضح ذلك كما في الزكاة حيث قال سبحانه:﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾ [التوبة١٠٣]، ولا شك أنَّ الذي يأخذ هو ولي الأمر، قال القرطبي: "هَذِهِ الْآيَةُ خِطَابٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُـوَ يَتَنَاوَلُ الْأُمَرَاءَ بَعْدَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ" (٤)، وهناك أحاديث عن النبي صلى الله عليه تشير إلى تحديد مسؤولية ولي الأمر عن المال العام، فقد روي عن أبي هريرة رضي الله عنـه قال: قـال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ما أعطيكـم ولا أمنعكم، أنا قاسم، أضع حيث أمرت)) (٥).

فقـد دلَّ الحديث على عدم ملك رسـول الله صلى الله عليه وسلم المال العام بنفيه ملك إعطـاء أحـد، أو منعه، وأن وظيفته فيه الحفـظ والقسم؛ إذ لو كان ملكـه لملك حق الإعطاء والمنع كسائر المالكين(٦).

ولا مانـع من أن يكون لـولي الأمر من المال العام كفايته، وكفاية من يعول، فعن المستورد بـن شداد الفهري رضي الله عنه عن النبي صلـى الله عليه وسلم قال: ((من كان لنا عاملاً فليكتسـب زوجـة، فإن لم يكن له خـادم فليكتسب خادمـاً، فإن لم يكن لـه مسكن فليكتسب مسكناً)) (٧).

ومـن خلال استعراضـ الآيات الكريمة في التعامـل مع المال العام يمكـن أن نستنتج أن المنهجيـة كانت تتمثل في جانبـين، الأول: جانـب التوجيهات بالترغيـب والترهيب، والثاني:

(١) ابن تيمية: السياسة الشرعية، ج١، ص٢٦.
(٢) ابن رجب الحنبلي: الاستخراج لأحكام الخراج، ج١، ص ١٤٥-١٤٦.
(٣) الدسوقي: حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، ج١، ص٤٨٧.
(٤) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، ج٥، ص٣٦٤.
(٥) صحيح البخاري، كتاب فرض الخمس، باب قوله تعالى "فأن لله خمسه"، حديث رقم ٣١١٧، ج٤ص٨٥.
(٦) ابن حجر: فتح الباري، ج٦، ص٢١٨.
(٧) سنن أبي داود، باب في أرزاق العمال، حديث رقم ٢٩٤٥، ج٣، ص١٣٤.

بالتشريعات متمثلة بالأنظمة والقوانين والعقوبات الرادعة لمن يتعدى على المال العام، وتفصيل ذلك كما يلي:

أولاً: التوجيهات القرآنية لحماية المال العام والمحافظة عليه:

لقد وجَّهنا القرآن الكريم وربَّانا على الخوف والخشية من الله، وعَمل على تفعيل الرقابة الذاتية وتنمية الوازع الإيماني في قلوب المؤمنين، حتى يكون الحفاظ على الأموال العامة من منطلق إيماني وليس خوفاً من عقوبة دنيوية أو خوفاً من الناس، وقد ظهر هذا الأسلوب من خلال ما يلي:

الترهيب من السرقة والغلول:

و الغلول: هو السرقة من المال العام، قَالَ ابْن الْأَثِير: "الغلُول هُوَ الخيَانَة فِي المغنم وَالسَّرِقَة فِي الغَنِيمَة قبل القسمَة، وكل من خَان فِي شَيْء خُفيَة فقد غلَّ، وَسميت غلولاً لأَن الأَيدي فيهَا مغلولة، أَي: مَمْنُوعَة مجعول فِيهَا غل، وَهُوَ الحديدة الَّتِي تجمع يَد الْأَسير إِلَى عُنُقه، وَيُقَال لَهَا الجامعة أَيْضا" (١).

وقد نقل النَّوَوِيّ الإِجمَاع على أَنه من الكَبَائِر (٢)، وتواترت الآيات والأحاديث الشريفة التي ترهب من التعدي على المال العام بالسرقة والغلول، وجاءت هذه النصوص تثير الرهبة في قلوب المؤمنين وتربِّيهم على مراقبة الله سبحانه وتعالى وتقواه في الأموال العامة، فهي ملك لمجموع الأمة، والتعدي عليها سبب لولوج النار ، قال الله تعالى: ﴿ وما كان لنبي أن يغلَّ ومن يَغلُل يأت بما غلَّ يوم القيامة﴾ [آل عمران ١٦١]، قال القرطبي: "فَالْآيَةُ فِي مَعنَى نَهْي النَّاس عَن الْغُلُول فِي الغَنَائم، وَالتَّوَعُّد عَلَيه يَأتي به حَاملًا لَهُ عَلَى ظَهره وَرَقَبَته، مُعَذَّبًا بِحَمْله وَثِقَله، وَمَرعُوبًا بِصَوْته، وَمُوَبَّخًا بِإِظْهَار خِيَانَته عَلَى رُءُوس الْأَشْهَاد" (٣).

وقد بلغ الأمر بصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم تورعوا عن العمل بجباية المال العام خشية الوقوع في الحرام أو التقصير في صيانة هذا المال والحفاظ عليه فقد روي

(١) ( ) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، ج٣، ص٣٨٠.
(٢) العيني: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ج ١٥، ص٦.
(٣) تفسير القرطبي، ج٤، ص٢٥٦.

عن ابْنِ عُمَرَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ مُصَدِّقًا، وَقَالَ: ((إِيَّاكَ يَا سَعْدُ أَنْ تَجِيءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِبَعِيرٍ لَهُ رُغَاءٌ، فَقَالَ: لَا أَجِدُهُ ولا أجيءُ به، فأعفاه))(١)، صححه الألباني(٢).

فمن خلال هذه النصوص يتضح لنا عمق التربية النبوية والتوجيهات الإيمانية التي تدفع المسلم إلى الأمانة دون الحاجة إلى مراقبة من أحد حتى لو تعرضوا إلى الضغوطات أو الإغراءات المادية، فهذه التربية كفيلة بحمايتهم وعصمتهم من الوقوع في المال العام وحرمته.

تحريم خيانة الأمانة:

وذلك بتعيين العمال ممن هم دون الكفاءة أو يفتقدون القيم والأخلاق والخبرة بسبب المحسوبية والمجاملة، وخصوصاً إذا كان يوجد من هم أتقى وأكفأ منهم، قال سبحانه: ﴿ إنَّ الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ [النساء ٥٨]، وقال أيضاً: ﴿إنَّا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها﴾ [الأحزاب ٧٢]، وَالْأَمَانَةُ تَعُمُّ جَمِيعَ وَظَائِفِ الدِّينِ(٣).

وقال سبحانه:﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون﴾ [الأنفال٢٧]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: "و"الأمانة": الأعمال التي أمِن الله عليها العباد"(٤).

وقد ورد عن رسول الله عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((مَنِ اسْتَعْمَلَ رَجُلًا مِنْ عِصَابَةٍ وَفِي تِلْكَ الْعِصَابَةِ مَنْ هُوَ أَرْضَى لِلَّهِ مِنْهُ فَقَدْ

---

(١) ابن حبان: الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، باب ذكر الزجر عن أن يكون المرء مصدقاً للأمراء، حديث رقم ٣٢٧٠، ج٨، ص٦٥.

(٢) الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، حديث رقم ٢٥٤٢، ج٦، ص٩٥.

(٣) تفسير القرطبي، ج١٤، ص٢٥٣.

(٤) الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن، ج١٣، ص٤٨٥.

خَانَ اللَّهَ وخانَ رَسُولَهُ وخانَ الْمُؤْمِنِينَ))(١). ضعفه الألباني(٢).

وقد روي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((إِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ، قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: إِذَا أُسْنِدَ الأمر إِلَى غَيْرِ أَهْلِه فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ))(٣)، وَالْمُرَادُ مِنَ الْأَمر جِنْسُ الْأُمُورِ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِالدِّينِ كَالْخِلَافَةِ وَالْإِمَارَةِ وَالْقَضَاءِ وَالْإِفْتَاءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ(٤).

وقد جاءت هذه النصوص تحذر من تعيين من لا يحسن العمل ولا يتقنه في هذا الموقع، فضلاً عن أمانة العامل وورعه عن المال العام، لما يترتب على ذلك من فساد إداري قد ينجم عنه ضياع مصلحة البلاد والعباد لسوء الإدارة أو لقلة الخبرة أو لانتفاء الأمانة، ولا مجال للمجاملات في هذا الجانب فقد روي عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: ((قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي؟ قَالَ: فَضَرَبَ بِيَدِه عَلَى مَنْكِبِي، ثُمَّ قَالَ: يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ ضَعِيفٌ وَإِنَّهَا أَمَانَةُ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ إِلاَّ مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا))(٥).

تحريم الغش في العمل:

وذلك بإتقان العمل الموكول إلى أصحابة، والبعد عن المحاباة والتمييز بين الناس في إعطاء الحقوق والمستحقات وتولية المناصب، فإنَّ كل هذا يعد من التطفيف كما قال سبحانه: ﴿ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون﴾[المطففين ١-٣]، ولا شك أنَّ الذي يطلب حقوقه كاملة دون أن يؤدي ما عليه من واجبات أنه من المطففين لأنه الأمر متعلق بالحقوق والواجبات.

قال السَّعديُّ: "دلَّت الآية الكريمة على أنَّ الإنسان كما يأخُذ من النَّاس الذي له، يجب عليْه أن يُعطيهم كلَّ ما لَهم من الأموال والمعاملات، بل يدخُل في عموم هذا :الحُجَج

(١) الحاكم: المستدرك على الصحيحين، كتاب الأحكام، حديث رقم ٧٠٢٣، ج٤، ص١٠٤.
(٢) الألباني: ضعيف الترغيب والترهيب، كتاب القضاء وغيره، حديث رقم ١٣٣٩ ،ج٢، ص٤٠.
(٣) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، بَابُ رفع الأمانة، حديث رقم ٦٤٩٦ ،ج ٨، ص١٠٤.
(٤) فتح الباري، ابن حجر، ج١١، ص ٣٣٤.
(٥) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة، حديث رقم١٨٢٥ ،ج٣، ص١٤٥٧.

والمقالات، فإنَّه كما أنَّ المتناظرين قد جرت العادة أنَّ كلَّ واحد منهما يحرص على ما لَه من الحجج، فيجب عليه أيضًا أن يبيِّن ما لخصمه من الحُجَج التي لا يعلمها، وأن ينظُر في أدلَّة خصمه كما ينظر في أدلَّته هو، وفي هذا الموضع يعْرف إنصاف الإنسان من تعصُّبه واعتسافه، وتواضعه من كبره، وعقله من سفهه" (١).

ولقد حرم القرآن أيضاً الانتقاص من أشياء الآخرين وأمتعتهم وأموالهم وحتى أفكارهم واقتراحاتهم، فقال سبحانه:﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾ [الشعراء ١٨٣]، وفي كل هذا تربية وتوجيه للمسلم على منهج عظيم قائم على العدل والمساواة وإعطاء الحقوق إلى أصحابها.

وقد حث النبي صلى الله عليه وسلم على إتقان العمل في كثير من النصوص، منها ما روي عَن عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَت: قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((إِنَّ الله تعالى يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ)) (٢)، صححه الألباني(٣).

كما روي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا، وَمَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا)) (٤)، ولا شكَّ أنَّ الغش المحرَّم مطلق في التجارة وغيرها، وقد يزداد الإثم إذا كان الغش في العمل الذي يمسُّ مصلحة المسلمين وأموالهم.

وقد روى مسلم في صحيحه أنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللهُ رَعِيَّةً، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ، إِلاَّ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ(٥).

قَالَ الْقَاضِي عِيَاضُ رَحِمَهُ اللهُ: "مَعْنَاهُ بَيِّنٌ فِي التَّحْذِيرِ مِنْ غِشِّ الْمُسْلِمِينَ لِمَنْ قَلَّدَهُ اللهُ تعالى شَيْئًا مِنْ أمرهِمْ وَاسْتَرْعَاهُ عَلَيْهِمْ وَنَصَبَهُ لِمَصْلَحَتِهِمْ فِي دِينِهِمْ أَوْ دُنْيَاهُمْ فَإِذَا خَانَ

(١) السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ج١، ص٩١٥.

(٢) البيهقي: شعب الإيمان، البيهقي، باب الأمانات وما يجب من أدائها إلى أهلها، حديث رقم ٤٩٣٠، ج٧، ص٢٣٣.

(٣) الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، حديث رقم ١١١٣ ،ج٣، ص١٠٦.

(٤) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم من غشنا فليس منا، حديث رقم ١٠١ ،ج ١، ص٩٩.

(٥) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب استحقاق الولي الغاش لرعيته النار، حديث رقم ٢٢٧، ج١، ص١٢٥.

فيمَا اؤْتُمِنَ عَلَيْه فَلَمْ يَنْصَحْ فِيمَا قُلِّدَهُ إِمَّا بِتَضْيِيعِه تَعْرِيفَهُمْ مَا يَلْزَمُهُمْ مِنْ دِينِهِمْ وَأَخْذَهُمْ بِه وَإِمَّا بِالْقِيَام بِمَا يَتَعَيَّنُ عَلَيْه مِنْ حِفْظ شَرَائِعهمْ وَالذَّبِّ عَنْهَا لكل متصد لإدخال داخلة فيهَا أَوْ تَحْرِيف لِمَعَانِيهَا أَوْ إِهْمَال حُدُودهمْ أَوْ تَضْيِيع حُقُوقِهِمْ أَوْ تَرْك حِمَايَة حَوْزَتهمْ وَمُجَاهَدَة عَدُوِّهِمْ أَوْ تَرْك سِيرَة الْعَدْل فِيهِمْ فَقَدْ غَشَّهُمْ" (١).

ومن هنا، ومن خلال هذه النصوص الشرعية فإنَّ المسلم إذا تربى على هذا المنهج فإنه وبلا شك سيكون أهلاً لتولي مهام الحفاظ على المال العام وغيره مما يوكل إليه من أعمال، فنضمن بذلك جانباً مهماً من جوانب الحفاظ على المال العام وحمايته.

تحريم الهدايا للعمّال والموظفين واستغلال الوظيفة العامة:

يعتبر التربح من الوظيفة سُحْتاً وغلولاً، ويمثل إعتداء على الملكية العامة والمال العام ويستدل على ذلك بالآيات والأحاديث التي وردت في السرقة والاختلاس والغل والخيانة والرشوة، منها قول الله تبارك وتعالى: ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكّام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون﴾ [البقرة ١٨٨].

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يُغلق جميع المنافذ الموصلة إلى الإخلال بالوظيفة العامة وما يرتبط بها من أموال عامة أؤتمن عليها هذا الموظف أو العامل، فقد روي عن أبي حُمَيْد السَّاعديِّ رَضيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: ((اسْتَعْمَلَ النَّبِيُّ صَلَّى الله عَلَيْه وَسَلَّمَ رَجُلًا مِنَ الأَزْد يُقَالُ لَهُ ابْنُ الأُتْبِيَّة عَلَى الصَّدَقَة، فَلَمَّا قَدمَ قَالَ: هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أُهْدِيَ لي، قَالَ: فَهَلاَّ جَلَسَ فِي بَيْت أَبِيه أَوْ بَيْت أُمِّه فَيَنْظُرَ يُهْدَى لَهُ أَمْ لاَ؟ وَالَّذي نَفْسي بِيَده لاَ يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْهُ شَيْئًا إِلاَّ جَاءَ بِه يَوْمَ الْقيَامَة يَحْمِلُهُ عَلَى رَقَبَته، إِنْ كَانَ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ، أَوْ بَقَرَةً لَهَا خُوَارٌ، أَوْ شَاةً تَيْعَرُ، ثُمَّ رَفَعَ بِيَدِه حَتَّى رَأَيْنَا عُفْرَةَ إِبْطَيْه: اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ، اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ، ثَلاَثًا)) (٢).

وَفِي هَذه الأَحَاديث بَيَانُ أَنَّ هَدَايَا الْعُمَّال حَرَامٌ وَغُلُولٌ لأَنَّهُ خَانَ فِي وِلاَيَته وَأَمَانَته وَلِهَذَا ذَكَرَ فِي الْحَدِيث فِي عُقُوبَته وَحَمْله مَا أُهْدِيَ إِلَيْه يَوْمَ الْقيَامَة كَمَا ذَكَرَ مِثْلَهُ فِي الْغَالِّ وَقَدْ بَيَّنَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ فِي نَفْس الْحَدِيث السَّبَبَ فِي تَحْرِيم الْهَدِيَّة عَلَيْه وَأَنَّهَا بِسَبَب الْوِلاَيَة

(١) شرح صحيح مسلم، ج٢، ص١٦٦.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الهبة وفضلها، باب من لم يقبل الهدية لعله، حديث رقم ٢٥٩٧،ج٣، ص١٥٩-١٦٠.

بخلَاف الْهَدِيَّة لغَيْر الْعَامِل فَإِنَّهَا مُسْتَحَبَّةٌ، أما الموظف العام فالواجب عليه أن يرد مَا يقبضه بِاسْمِ الْهَدِيَّةِ إلى مُهْدِيهِ فَإِنْ تَعَذَّرَ فَإلى بَيْتِ الْمَالِ(١).

وهكذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يحاسب عماله بشكل دائم ليعلمهم أقصى درجات الانضباط في المحافظة على المال العام، وكان يصادر للمصلحة العامة ما يرى أن العامل قد حصل عليه باستغلال منصبه(٢).

فلا شك أن مثل هذه الهدايا والتي ظاهرها هدايا وهي في الحقيقة رشاوى تتلبس بهذا اللباس، لها أثر كبير في التساهل بالمال العام وذلك بالتجاوز عن أخطاء مقدمي الهدايا أو مجاملتهم أو الخوف منهم أحيانا، وهي بذلك تكون وسيلة للإخلال بالواجبات العامة.

ثانياً: التشريعات الإدارية القرآنية للحفاظ على المال العام:

التوجيهات تحتاج إلى تشريعات لحمايتها، ولو تُرك الناس لضمائرهم لركبوا العظائم، ولذلك لابد من تشريع يصون ويحمي تلك التوجيهات وذلك بالقوانين والأنظمة الإدارية وتطبيق العقوبات، وقد تميَّز المنهج القرآني في هذا الجانب بالأمور التالية:

التنظيم الإداري:

وقد عمل الإسلام على ضبط الأموال العامة بجملةٍ من التنظيمات الإدارية والتي من شأنها أن تحد من التساهل في المال العام، ومن ذلك ما يلي:

اختيار الأَكْفَاء من العمال على المال العام:

فالصفة العامة في منهج القرآن لمن يعهد إليهم بأمر المال العام أن يكونوا أُمناء، لأن العامل حفيظ على المال، وهو راعٍ ليس من حقه أن يتصرف فيه(٣)، وهو منهج قرآني أشار إليه القرآن على لسان يوسف عليه السلام حينما طلب الولاية العامة، فقال:﴿قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم﴾ [يوسف٥٥]، قال ابن كثير: "حفيظ أي خَازِنٌ أَمِينٌ،

(١) شرح صحيح مسلم، ج١٢، ص٢١٨.

(٢) القضاة: بيت المال في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، ص ٤٢.

(٣) ( ) قطب، محمد: السياسة المالية للرسول، ص٢٥٣.

عليم، ذُو عِلْمٍ وبصرَ بِمَا يَتَوَلاَّهُ" (١).

وفي معرض الحديث عن الصفات الواجب توافرها في من يصلح لهذا العمل الدقيق، قال سبحانه: ﴿إنَّ خير من استأجرت القوي الأمين﴾ [القصص٢٦]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وينبغي أن يعرف الأصلح في كل منصب، فإن الولاية لها ركنان: القوة والأمانة، كما قال تعالى: (إن خير من استأجرت القوي الأمين)...، والقوة في كل ولاية بحسبها: فالقوة في إمارة الحرب ترجع إلى شجاعة القلب وإلى الخبرة بالحروب والمخادعة فيها..، والقوة في الحكم بين الناس ترجع إلى العلم بالعدل الذي دل عليه الكتاب والسنة، وإلى القدرة على تنفيذ الأحكام، فالواجب في كل ولاية الأصلح بحسبها، فإذا تعين رجلان أحدهما أعظم أمانة، والآخر أعظم قوةً، قدم أنفعهما لتلك الولاية، وأقلهما ضرراً فيها" (٢).

وقد أشار القرآن إلى هذه الصفات العظيمة في معرض الحديث عن عرش بلقيس، والذي بلا شك كان ثميناً وعظيماً ويعتبر حينها مالاً عاماً من الواجب حمايته والحفاظ عليه، فقال: ﴿ أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنِّي عليه لقوي أمين﴾ [النمل٣٩]، قال النسفي: "آتي به كما هو لا آخذ منه شيئاً ولا أبدله" (٣).

وقد وصف النبي صلى الله عليه وسلم هؤلاء الذين يتصفون بالأمانة وحسن الإدارة للمال العام بأنهم من المتصدقين، فقد روي عنْ أَبِي مُوسَى، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((الخَازِنُ المُسْلِمُ الأَمِينُ، الَّذِي يُنْفِذُ - وَرُبَّمَا قَالَ: يُعْطِي - مَا أمر به كَامِلًا مُوَفَّرًا طَيِّبًا بِهِ نَفْسُهُ، فَيَدْفَعُهُ إِلَى الَّذِي أمر لَهُ بِهِ أَحَدُ المُتَصَدِّقَيْنِ)) (٤)، ولا شك أن هذه الصفة مهمة جداً في محافظة الموظف على المال العام وعدم التفريط أو المخاطرة فيه.

(١) ( ) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص٣٩٥.

(٢) ابن تيمية: السياسة الشرعية،ج١، ص١٢.

(٣) النسفي: تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، ج٢، ص٦٠٧.

(٤) ( ) صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب أجر الخادم إذا تصدق بأمر صاحبه غير مفسد، حديث رقم ١٤٣٨، ج٢، ص ١١٤.

إعطاء العامل كفايته :

وذلك حتى تعف نفسه عن المال العام ويتفرغ لعمله، ولهذا فقد جعل القرآن لجباة الزكاة وعمالها مالاً مقدراً من الزكاة وهو من الأسهم الثمانية التي حددها القرآن وذلك حتى لا يتطلعوا إلى هذا المال وتعف نفوسهم، فقال سبحانه:﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها ...﴾ [التوبة٦٠].

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يعطي أجرا محدداً لمن يستخدمه في عمل معين، وكان يوصي العمال بالأمانة التامة والمحافظة على المال العام كاملاً وعدم أخذ غير ما يُعطى لهم من قِبَله.

أما ولاة الأقاليم فقد كان يأذن للوالي بالحصول على الخدمات الأساسية أياً كانت كلفتها حسب البلد الذي يعيش فيه، نظراً لاختلاف مستويات المعيشة في الأقاليم الخاضعة للحكومة النبوية، هذا بالإضافة لما يخصص له من راتب لمعيشته(١)، وفي ذلك يقول صلى الله عليه وسلم: ((مَنْ وَلِيَ لَنَا عَمَلًا وَلَيْسَ لَهُ مَنْزِلٌ فَلْيَتَّخِذْ مَنْزِلًا، أَوْ لَيْسَتْ لَهُ زَوْجَةٌ فَلْيَتَزَوَّجْ، أَوْ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ فَلْيَتَّخِذْ خَادِمًا، أَوْ لَيْسَتْ لَهُ دَابَّةٌ فَلْيَتَّخِذْ دَابَّةً، وَمَنْ أَصَابَ شَيْئًا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ غَالٌّ))(٢).

وقد ولىَّ النبي صلى الله عليه وسلم عدداً من الصحابة على الوظائف العامة في القضاء وإدارة الأقاليم أو على الوظائف المالية كجباية الزكاة والجزية وقد كان هؤلاء الولاة والعمال يتقاضون رواتب من الدولة، فقد أعطى النبي صلى الله عليه وسلم عتاب بن أسيد كل يوم درهم أو درهمين على- اختلاف الروايات- حال توليه مكة(٣).

تمييز الأموال العامة عن غيرها :

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الإجراء عن طريق تحديد مصارف معينة لبعض الأموال العامة، مثل الزكاة حيث حدد لها مصارف معينة، ومن هنا يجب أن تُميَّز عن

(١) القضاة: بيت المال في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، ص ٤١.

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج٢٩، ص ٥٤٣.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص٥٠٠.

غيرهـا، كما جعل أيضاً للغنائم مصارفها المحددة، وكذلك الحال في الفيء، كل ذلك يوجب أن نميز هذه الأموال عن غيرها حتى تُعطى لمستحقيها الذين حددهم القرآن.

ففـي الزكاة قال سبحانه: ﴿إنما الصدقـات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهـم وفي الرقـاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيـل﴾ [التوبة ٦٠]، وفي الغنائم قال سبحانـه: ﴿ واعلمـوا أنمَّا غنمتم من شـيء فأَنَّ لله خُمُسه وللرسول ولـذي القربى واليتامى والمساكـين وابـن السبيل ﴾ [الأنفال٤١]، وقال في الفيء: ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾ [الحشر٧].

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يضع علامة مميزة على أموال الصدقات من الثروة الحيوانيـة بشـكل خاص، فقد روي عـن أَنَسُ بْنُ مَالـك ، رَضيَ اللَّهُ عَنْهُ قَـالَ: ((غَدَوْتُ إلى رَسُـولِ الله صلى الله عليه وسلم بِعَبْدِ الله بْنِ أَبِي طَلْحَـةَ لِيُحَنِّكَهُ فَوَافَيْتُهُ فِي يَدِهِ الْمِيسَمُ يَسِمُ إِبِلَ الصَّدَقَة)) (١)، والمَيسَم هو اسم للآلَة الَّتِي يوسم بهَا كالمكواة التي وسم بِهِ الْحَيَوَان من ضروب الصُّور والعلامة(٢).

والحكمـة في ذلـك أن تُميَّز عن غيرها مـن الأموال، وليردها من أخذهـا ومن التقطها وليعرفهـا صاحبهـا فـلا يشتريهـا إذا تصدق بهـا مثلا لئلا يعـود في صدقته، وقـد ورد أنَّ ابـن الصبـاغ من الشافعيـة نقل إجماع الصحابـة على أنه كان يكتب في ميسـم الزكاة زكاة أو صدقـة، وفي هـذا الحديث دلالة علـى أن للإمام أن يتخذ ميسماً وليسـ للناس أن يتخذوا نظيره وهو كالخاتم، وفيه إعتناء الإمام بأموال الصدقة وتوليها بنفسه ويلتحق به جميع أمور المسلمين(٣).

تخصيص أماكن لحفظ المال العام:

ويسمـى المـكان الذي يحفظ فيه المـال العام بيت المال، وهو الجهـة التي تختص بكل ما يـرد إلى الدولـة ويخرج منها ما يستحقـه المسلمون من مال، وبناءً على ذلـك فإن بيت المال

(١) صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب وسم الإمام ابل الصدقة، حديث رقم ١٥٠٢، ج٢، ص ١٣٠.
(٢) () المعجم الوسيط، باب الواو، ج٢، ص ١٠٣٢.
(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج٣، ص ٣٦٧.

عبارة عن الجهة المعنوية المسؤولة عن تنظيمه وإدارته والتشريعات المنظمة لذلك، وليس هو ذات المكان الذي تحفظ فيه الأموال العامة إلى أن يتم إنفاقها على مصارفها، بل يعتبر المال المستحق للدولة ملكاً لبيت المال سواء أدخل في حرزه أم لم يدخل(١).

تشريع العقوبات الرادعة :

حتى يكون لها أثر في نفس كل من يتجرأ على المال العام، ومما ورد في ذلك قول الله سبحانه: ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم﴾ [المائدة ٣٨].

ولا شك أنَّ السارق من بيت المال تُقْطَع يدُه، استدلالاً بعموم الآية، وقد اعتبر المالكية هذا النص عامٌّ يشمل السارقَ من بيت المال والسارقَ من غيره، وبأنَّ السارق قد أَخَذَ مالاً مُحَرَّزًا، وليستْ له فيه شُبهة قويَّة، فتُقْطَع يده كما لو أَخَذَ غيرَه من الأموال التي ليستْ له فيها شُبهة قويَّة"(٢).

وقد توعَّد بالوعيد الشديد لِمَن أَخَذَ من المال العام شيئًا، فقال: ﴿ وما كان لنبي أن يغل ومن يغلل يأتِ بما غلَّ يوم القيامة﴾ [آل عمران ١٦١].

حماية وسائل الإنتاج وعدم تعطيلها :

لقد سخر الله لنا كل ما في الكون من نعم عظيمة للإفادة منها، ولإعمار الأرض وفق منهجه وشريعته، فقال سبحانه:﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[لقمان٢٠]، وبالمقابل فقد حرَّم القرآن وحذَّر من العبث بهذه الموارد وتعطيلها وإفسادها، لأنها متعلقة بمجموع الأمة، ومن ذلك أشير إلى الصور التالية:

تحريم تعطيل الثروات المنتجة :

ولاشك أن تعطيل الثروات عن العمل يضر بالصالح العام، ويؤدي إلى الفقر والبطالة،

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية، ج١، ص٣١٥.
(٢) مالك بن أنس: المدونة، ج٤، ص٥٤٩.

وقد عاب الله على المشركين الذين عطَّلوا بعض من وسائل الإنتاج من الثروة الحيوانية لمجرد الأهواء والتشريع بغير ما أنزل الله، فقال سبحانه: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦].

وقال أيضاً: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٨]، فهذه إبل وزرع حرام، لا يأكلها إلا مَن يأذنون له -حسب ادعائهم- من سدنة الأوثان وغيرهم، وهذه إبل حُرِّمت ظهورها، فلا يحل ركوبها والحملُ عليها بحال من الأحوال، فقال سبحانه وتعالى عنهم أنهم: ﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠]، ولذلك فإن إخراج هذه الثروة من محيط الانتفاع هو بلا شك إضرار بالمصلحة العامة وبالإنتاج الذي تعود آثاره السلبية على قدرة الدولة لتغطية حاجات المجتمع العامة.

تحريم الإفساد في الأرض والتعدي على الموارد الطبيعية والبشرية:

وقد حارب القرآن الكريم كل من يعبث بالثروات الطبيعية التي ينتفع منها الناس، فهي من قبيل الملكية العامة التي يشترك فيها آحاد الناس، ويستوي القول في ذلك على الثروة البشرية والتي هي أساس القيام بالأعمال والإنتاج وتغطية حاجات المجتمع، فقال سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٥]، فالحرث هو الزرع أو الأرض الصالحة للزراعة، والنسل هي الذرية من البشر، ولا شك أن العمل على إفساد هذين العنصرين من عناصر الإنتاج لهو أكبر إعتداء على المال العام الذي به قوام حياة المجتمع.

تحريم الاعتداء على الوسيط في التبادل بين الناس وهي النقود:

وقد جعل الله المال قوام الحياة، أي لا تقوم إلا به، فقال سبحانه: ﴿وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ [النساء: ٥]، ومن الصور التي أنكرها القرآن في التلاعب

بالنقود والتي هي في الأصل معيار ومقياس لقيم الأشياء ولأداء الديون، وهي بهذه الصورة إنما هي مقياس عام للجميع وهي بهذا الاعتبار ملكية عامة، ومن ذلك ما ورد بشأن قوم شعيب وتلاعبهم بالنقود ما حكاه القرآن عنهم بقوله سبحانه: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]، حيث كانوا يعملون على كسر الدراهم وقطعها (١)، وهم بذلك ينقصون من وزنها حقيقة، ويعتبر هذا العمل سرقة من المال العام الذي هو وسيط للتبادل، وهي سرقة خفية، قال سعيد بن المسيِّب: "قطع الدراهم من الفساد في الأرض" (٢)، ومما يدخل في ذلك في وقتنا الحاضر ما يُعرف بالتضخم وهو نقص القيمة الشرائية للنقود والذي له أسبابه الكثيرة، ولكنه أحياناً يكون بسبب مفتعل كالتوسع في الإصدار النقدي أو التقليل من المعروض السلعي وهو بذلك سرقة خفية من المال حيث القطعة النقدية كما هي غير أن قيمتها الشرائية تقل.

وجوب حماية الثروات من المفسدين أو المخربين:

ومن هذا ما أشار إليه القرآن حول قصة الملك الصالح ذو القرنين الذي استنجد به القوم لحمايتهم وحماية ثرواتهم المنهوبة من يأجوج ومأجوج، فاستجاب لطلبهم، ولكنه طلب مساعدتهم في إنشاء السد، وزهد في أموالهم التي عرضوها عليه لقاء هذا العمل، فقال عز وجل: ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: ٩٤-٩٥].

ثم جاء خبر السفينة التي كانت من الممكن أن تتعرض للغصب، فما كان من الخضر إلا أن خرقها وذلك لحمايتها من غصب الملك الظالم لها، وهي في الحقيقة للمساكين الذين يتعيشون من ورائها، وقد قام بهذا العمل من باب ارتكاب أخف الضررين، قال سبحانه: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف:٧٩].

(١) الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن، ج١٥، ص٤٥٠.

(٢) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، ج٣، ص١٨.

وقد جاء مثل هذا أيضاً في تصرفه لحماية أموال الغلامين اليتيمين وكنزهما المدفون حتى يبلغا أشدهما ويكونا قادرين على حماية أموالهما واستخراجها، فقال سبحانه: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [الكهف:٨٢].

الكفاءة في الاستخدام الأمثل للموارد ومراعاة الأولويات:

ومصطلح الكفاءة هو ما يعبر عنه بالكفاءة الاقتصادية والتي تشير إلى الاستخدام الأمثل للموارد بهدف تعظيم الإنتاج من السلع والخدمات، ولهذا أشار القرآن الكريم إلى منهجية سيدنا يوسف عليه السلام في تطبيق هذا المبدأ حيث أرشدهم إلى خطة محكمة لاستخدام ما هو متاح من الموارد لتلافي خطر المجاعة في السنوات العجاف، فقال سبحانه: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف:٤٧-٤٩].

أما مراعاة الأولويات فيقصد بها أن المسلم دائماً يرتب أموره في المعاملات الاقتصادية حيث يبدأ بالفرائض ثم الواجبات ثم المندوبات، وبمصطلح الفقه الضروريات فالحاجيات فالتحسينات، يقول الشاطبي: "تكاليف الشَّريعة ترجع إلى حفظ مقاصدها في الخلق، وهذه المقاصد لا تعدو ثلاثة أقسام: أحدها: أَن تكون ضروريَّة، والثَّاني أَن تكون حاجِيَّة، وَالثَّالث أَن تكون تحسينية(١).

فيجب أن يرتب أولويات الإنفاق طبقاً لسلم الأولويات الإسلامية بحيث يجب مراعاة مراتب الأحكام باعتبار مقاصدها على النحو الذي ذكر فلا يراعى تحسيني إذا كان في مراعاته إخلال بحاجي، ولا يراعى حاجي ولا تحسيني إذا كان في مراعاة أحدهما إخلال بضروري، وتحليل ذلك على النحو التالي:

الإنفاق على الضروريات: ويقصد بها ما ينفق لقوام الناس والمخلوقات ويحقق المقاصد

(١) ( ) الشاطبي: الموافقات، ج٢ص١٧.

الشرعية، ولا يمكن أن تستقيم الحياة بدونها ، مثل نفقات المأكل والمشرب والمسكن والصحة والأمن والعلم والزواج، وقد عرفها الشاطبي بأنها: "الأمور التي لابد منها لإقامة مصالح الدين والدنيا بحيث إذا فقدت لم تجرِ مصالح الدنيا على استقامة بل على فساد"(١).

الإنفاق على الحاجيات: ويقصد بها ما ينفق على ما يحتاجه الناس لجعل حياتهم ميسرة وتخفف من المشاق والمتاعب، ولا يجب الإنفاق على الحاجيات إلاّ بعد استيفاء مطالب الضروريات وهى أيضاً تتعلق بالمقاصد الشرعية.

وهي الأمور التي لا تختل الحياة بفقدها، وإنما يترتب على فقدها أن يقع الناس في الضيق والمشقة، مثل الأخذ بالرخص التي جعلها الشارع مخففة للمشقة والضيق ، كإباحة الفطر في رمضان للمريض والمسافر.

الإنفاق على التحسينات: وتتمثل في بنود النفقات التي تجعل حياة الإنسان رغده طيبة وعلى أحسن حال عن حالة الضروريات والحاجيات ، ولا يجب الإنفاق عليها إلاّ بعد استكمال نفقات الضروريات والحاجيات.

وقد عرفها الشاطبي: "أنها الأخذ بما يليق من محاسن العادات وتجنب الأحوال المدنسات، التي تأنفها العقول الراجحات، وهي في النهاية قسم في مكارم الأخلاق كتحريم سب الناس والتحايل والخداع وخروج المرأة بزينتها"(٢).

ومن ثم يجب على الأفراد والحكومات الالتزام بهذه الأولويات عند الإنفاق لتحقيق مقاصد الشريعة، ومن ناحية أخرى لا يجوز إنفاق المال فيما يعرض هذه المقاصد للهلاك والضرر مثل شراء المدمنات والدخان والخمور وشراء الأفلام الفاسدة وما في حكم ذلك.

الاعتدال في الإنفاق العام:

ومن صوره الإسراف في استخدام المال العام، تبديد الأموال العامة في الإنفاق على الأبنية، والأثاث- المبالغة في استخدام المقتنيات العامة في الأمور الشخصية- إقامة

(١) ( ) المرجع نفسه، ج١، ص٢٠.

(٢) ( ) الشاطبي: الموافقات، ج١، ص٢٠.

الحفلات، والدعايات ببذخ على الدعاية، والإعلان والنشر في الصحف والمجلات في مناسبات التهاني، والتعازي والتأييد والتوديع، قال سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ [الإسراء:٢٧].

وقد أرشدنا القرآن وعلمنا الاعتدال في الأمور كلها كمنهج في الحياة فقال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان:٦٧].

المبحث الثالث

الآثار المترتبة على حماية المال العام على الدولة والمجتمع

لا شك أن المال العام وهو ملك لمجموع الأمة يحتاج لخصوصية أكبر من حيث الاهتمام والحفظ والحماية، لما له من أثر في ازدهار الدولة وتقدمها إن كان محفوظاً ومحمياً من كل ما يفضي إلى ضياعه وهلاكه والتعدي عليه، وما يؤول بعد ذلك من مفاسد على الدولة وضياعها وجوع أهلها وتعرضهم للفقر والحاجة إن كان مهملاً ومعرضاً للتعدي والتقصير والنهب، ومن هنا كانت التوجيهات والتشريعات النبوية أساساً يعتمد عليه في صيانة هذا المال والحفاظ عليه، ويمكن لنا أن نوجز الآثار المترتبة على حماية المال العام على الدولة والأفراد فيما يلي:

أولاً: الأمن النفسي والطمأنينة التي تتحقق لأفراد المجتمع المسلم عند وثوقهم بإجراءات الدولة في الحفاظ على المال العام، فتطمئن نفوسهم ويتولد لديهم الشعور بتحمل المسؤولية مع الدولة حيال هذا المال في حال تعرضها لأزمات اقتصادية أو ظروف طارئة، على اعتبار أن الدولة قد قامت بواجبها دون تقصير أو تعدٍ أو نهبٍ للمال العام لمصالح شخصية على حساب المصلحة العامة، بل وقامت بكل الإجراءات الكفيلة بصيانة هذا المال وحفظه، في حين لو شعر أفراد المجتمع بشيءٍ من الشبهات حول صيانة المال العام وحفظه فإن ذلك لا شك سوف يكون له أثراً سلبياً عليهم قد يدفعهم للتفريط فيه أيضاً حال تسلمهم لأدنى مسؤولية تتعلق بهذا المال.

ثانياً: إشاعة جو من الأمن والأمان في الدولة، لأنَّ من مقتضيات الحفاظ على المال العام أن يوزع في مصارفه توزيعاً عادلاً، فإذا كان الأمر خلاف ذلك فإن حالة التقصير والتعدي على المال العام حتماً ستنعكس على سلوكيات الأفراد كلٌ يريد أن يحصل على نصيبه بطريقته الخاصة مما يؤدي إلى الفوضى وانتشار الجريمة والسلب والنهب والتعدي على المال العام بحجة أنَّ من حقي أن أحصل على نصيبي من هذا المال أو من حقي أن أحصل على خدمات

توفرهــا لي الدولــة من هذا المال، وكما قَالَ البَعْضُ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: ((إنَّك أَدَّيْت الْأَمَانَةَ إلى اللهَّ تعالى، فَأَدُّوا إلَيْك الْأَمَانَةَ، ولو رتعت لرتعوا))(١).

ثالثــاً: إشاعة جو من المهابة على المال العام، من خلال التوجيهات والتشريعات النبوية، حيــث أن اهتمام المشرع دلالةً علــى خطورة المسألة وأنها من الأهميــة بمكان بحيث لا يتجرأ عليها ضعاف النفوس وأصحاب الأطماع، فتكون بذلك عرضةً للتفريط والتعدي.

رابعاً: الحفاظ على المال العام وحمايته سوف يكون له أثر في نمائه وازدهاره واستغلاله بمــا يحقق مصلحة البــلاد والعباد، مما سينعكس أيضاً على الأفــراد ورفاهيتهم في الدولة، فضــلاً عن تقدم الدولــة ورفعتها ورقيها وتحقيــق الكفاية لأفرادها، أمــا إن كان المال العام معرضاً للتعدي فسيكون الأمر على خلاف ذلك.

خامســاً: أن الحفاظ على المــال العام بالوسائل الشرعية السابقة وفق المنهج القرآني له أثــر كبير في تشكيل موارد للدولة تنفق منها علــى مصالح البلاد والعباد، وإذا تملكت الدولة جملــة من المــوارد القوية حينئذ ستحقق الرفــاه لأفرادها من خلال التوســع في الإنفاق على المصالح العامة والاستغناء بعد ذلك عن الضرائب التي ترهق الأفراد وتستقطع من دخو

النتائج والتوصيات

أولاً: أن المــال العــام هو مــا يملكه مجموع الأمة، ولهــم حق فيه، ومن واجــب الدولة أن تحافظ عليه وتصونه ولا تتصرف فيه إلا بما يحقق المصلحة للعامة.

ثانياً: تمثلت منهجية القرآن الكريم في حماية المال العام بالتوجيهات التربوية التي تُفعِّل الرقابة الذاتية، وبالتشريعات التي تعمل على حماية هذه التوجيهات.

ثالثــاً: من واجبات الدولة في الحفاظ على المال العام أن تختار المسؤولين على أسس من الكفاءة والأمانة وحسن الإدارة.

(١) ( ) ابن تيمية: السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، ج١ ، ص٢٧.

رابعـاً: أن منهـج القرآن في المحافظة على المال العام قد تميَّز بقيامه على أسس وقواعد ثابتة وواضحة وصالحة للبناء عليها على مر العصور واختلاف الأزمان والأماكن والبيئات.

خامساً: كفاءة المنهج القرآني في التربية والتوجيه والتشريع للحفاظ على المال العام.

سادسـاً: حماية المال العام فريضـة شرعية، وحاجة بشرية، ومسئولية فردية وجماعية، وفرضـ عين على الراعــي والرعية، والمقصد من ذلك أن يُكتسب من حِلِّه ويُنفق في حِلِّه وفق شرع الله .

سابعـاً: يتمثـل المنهج القـرآني لحماية المـال العام والـذود عنه في: التربيـة الإيمانية، والالتـزام بالأخلاق الفاضلة، والتفقه في الحلال والحرام، والقدوة الحسنة، وقيام الأجهزة النيابيـة والشعبية بدورهـا الرقابي، وتطويـر أداء أجهزة الرقابة الماليـة المعاصرة في ضوء أحـكام الشريعة الإسلامية، وهذه المسألة تحتاج إلى مزيد من الدراسة والبحث والتحليل في مناسبة أخـرى.

ثامناً: يحقق حماية المال العام، وحرمة الاعتداء عليه : الأمن والاستقرار للفرد والمجتمع والخـير للنـاسـ جميعاً ، وتجنب وقوع النـاسـ في الحرام، وتيسير وتحقيـق المقاصد السامية للمال وهي تعمير الأرض ليحيا النـاس حياة طيبـة، وعبادة الله والتقرب إليـه والفوز بالجنـة وهذا هو غاية كل مسلم.

ويوصي الباحث بما يأتي:

ضـرورة التركيـز على حرمة المال العـام وأهميته ووجـوب المحافظة عليـه عبر وسائل الإعلام المختلفة وفي مناهج التربية والتعليم، وتكثيف البرامج التي تفي بهذا الغرض.

تشريع وتفعيل العقوبات الرادعة لكل من يتجرأ على انتهاك حرمة المال العام بأي وسيلة كانت.

وجوب الالتزام بالمنهج الشرعي في القرآن والسنة لحماية المال العام والمحافظة عليه.

وجوب اختيار الأكفاء من أهل الأمانة والخبرة لتولي المسؤوليات المختلفة في المجتمع.

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.

٢. ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم: النهاية في غريب الحديث والأثر، الناشر: المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ /١٩٧٩م، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى و محمود محمد الطناحي.

٣. الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد اللّه: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، الناشر: السعادة، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.

٤. الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين: سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، الناشر مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى.

٥. الألباني، محمد ناصر الدين: ضعيف الترغيب والترهيب، مكتبة المعارف، الرياض.

٦. أوهاب، نذير بن محمد الطيب: حماية المال العام في الفقه الإسلامي، مركز الدراسات والبحوث، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

٧. الباجي ، أبو الوليد سليمان بن خلف: المنتقى شرح الموطأ، مطبعة السعادة، الطبعة الأولى، ١٣٣٢هـ.

٨. البخاري، محمد بن إسماعيل: صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٩. البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي الخراساني: شعب الإيمان، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض ، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣ م.

١٠. ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم: السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، الناشر: وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية،الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

١١. الحاكم، أبو عبد الله: المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

١٢. ابن حبان، محمد: الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان،حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

١٣. ابن حجر، أحمد بن علي: فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.

١٤. ابن حنبل، أحمد بن محمد: مسند الإمام أحمد بن حنبل، الشيباني، المحقق: شعيب الأرناؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ/٢٠٠١ م.

١٥. أبو داود، سليمان بن الأشعث السِّجِسْتاني: سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.

١٦. الدسوقي، محمد بن أحمد بن عرفة: حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، الناشر: دار الفكر، بدون طبعة وبدون تاريخ.

١٧. ابن رجب الحنبلي، أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد: الاستخراج لأحكام الخراج، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٥ هـ/١٩٨٥ م.

١٨. الزرقا، مصطفى: المدخل الفقهي العام، الطبعة الأولى، دار الفكر، ١٩٤٦م.

١٩. الزّركشي، بدر الدين محمد بن بهادر: المنثور في القواعد، أبو عبد الله بن عبد الله الشافعي، الناشر: وزارة الأوقاف الكويتية،الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ /١٩٨٥م .

٢٠. السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

٢١. الشاطبي إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي: الموافقات، دار ابن عفان، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

٢٢. الطبري، محمد بن جرير: جامع البيان في تأويل القرآن، المحقق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ/٢٠٠٠ م.

٢٣. ابن عابدين، محمد أمين: حاشية رد المحتار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .

٢٤. ابن العربي، القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر: أحكام القرآن، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلَّق عليه: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.

٢٥. العيني، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٢٦. الفراهيدي، الخليل بن أحمد: كتاب العين، تحقيق مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

٢٧. القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري: الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، تحقيق : أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤ م.

٢٨. قطب، محمد: السياسة المالية للرسول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨.

٢٩. القضاة، زكريا: بيت المال في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، ندوة مالية الدولة في صدر الإسلام، ٧-١٠ شعبان ١٤٠٧هـ، ٥-٨ نيسان ١٩٨٧م، مركز الدراسات الإسلامية، جامعة اليرموك.

٣٠. ابن كثير، إسماعيل بن عمر: تفسير القرآن العظيم، المحقق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩ م.

٣١. مالك، ابن أنس الأصبحي: المدونة، دار الكتب العلمية،الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

٣٢. الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد: الأحكام السلطانية، الناشر: دار الحديث – القاهرة، بلا طبعة.

٣٣. مجمع اللغة العربية بالقاهرة، (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار): المعجم الوسيط، دار الدعوة.

٣٤. مسلم بن الحجاج النيسابوري: صحيح مسلم، ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣٥. ابن منظور، محمد بن مكرم: لسان العرب، دار صادر، بيروت،الطبعة الثالثة، ١٤١٤ هـ.

٣٦. النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين: تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.

٣٧. النووي، محيي الدين يحيى بن شرف: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي ، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ.

٣٨. ابن هشام، عبد الملك: السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الثانية، ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م.

٣٩. وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية: الموسوعة الفقهية الكويتية، الكويت، الطبعة من ١٤٠٤/١٤٢٧هـ.

د.عبد الرحمن أبو المجد صالح

- الوكيل الثقافي بمعهد د.جاد يوسف.
- محاضر مركزي بهيئة قصور الثقافة المصرية.

النشاط العلمي

متابعة للإصدارات العالمية في مجال الدراسات القرآنية يشارك في حوارات دولية لمناقشة أكاديميين غربيين حول إنتاجهم المستهدف للثقافة العربية والإسلامية ويقوم بنشر بعضه على هذين الرابطين بالغة العربية وباللغة الإنجليزية.

http://en.alukah.net/Authors/View/World_Muslims/160/
http://www.alukah.net/authors/view/home/1333

- نشرت بعض أعماله في صحف ومجلات مصرية وعربية ودولية محكمة.
- يشارك في بعض البرامج الثقافية بفضائية طيبة المصرية.

المؤتمرات الدولية

- من المؤتمرات الدولية التي شارك فيها بأوراق علمية :
- مؤتمر الحوار بجامعة الإمام مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز للدراسات الإسلامية المعاصرة وحوار الحضارات ٧ صفر ١٤٣٥ه.
- مؤتمر الدراسات القرآنية جامعة الملك سعود من ٦-١٠/ربيع الآخر/١٤٣٤هـ
- ندوة العلماء العُمانيون والأزهريون والقواسم المشتركة جامعة السلطان قابوس: ذو القعدة ١٤٣٤هـ
- مؤتمر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمستجدات المعاصرة بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة محرم عام ١٤٣٤هـ
- مؤتمر المرأة في السيرة النبوية والمرأة المعاصرة بجامعة القصيم، ١٨-٢٠/٥/١٤٣٣ه.

الكتب

- كتاب الدبلوماسية النبوية ٢٠٠٩م مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع.
- وكتب فصلاً عن عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لنصارى نجران في كتاب عهود النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) للنصارى في عصره.

The Covenants of the Prophet Muhammad with the Christians of the World Paperback – November 2, 2013 by John Andrew Morrow.

تحت الطبع

- كتاب موقف المستشرق بروس لورنس من الفكر الإسلامي.
- كتاب الغزوات النبوية حروب اضطرارية أم حروب اختيارية؟!

الدراسات القرآنية في مواجهة النزاعات الاستشراقية

دراسة المعالجة القرآنية في قصة إبراهيم (عليه السلام) لدحض بعض المزاعم الاستشراقية.

د.عبد الرحمن أبو المجد صالح

المقدمة

جاء البحث تلبية لدعوة صاحب المعالي الأستاذ الدكتور/ علي بن محمد الشهراني -عميد الكلية- الحق أن الدعوة أشعرتني بثقل المسؤولية، وعلى الرغم من أن الدراسات القرآنية مجال محبب إلي (ولله الفضل والمنة)، لطالما كتبت فيه[١]، وتناقشت[٢]، إلا إنني تهيبت الكتابة لاختيار ورقة بحثية تزيد قيمة المؤتمر ولا تكون عالة عليه، حتى رأيتني أفحص وأراجع وأجود هذا البحث الجديد في موضوعه، ومن واقع متابعاتي المستمرة لأكثر من ربع قرن للإنتاج الاستشراقي (الكتب تحديداً) ، جذب انتباهي كم البحوث والدراسات الاستشراقية التي تتبنى وجهة النظرة اليهودية والنصرانية (يهودية إبراهيم (عليه السلام) ونصرانيته)، وكأنها حقيقة ثابتة، الكم اليهودي أكبر حجماً وعدداً وفاعلية والحال كما وصفنا يحتم علينا الاقتراب منها، ودراستها لتجلية حقيقتها بدراسات قرآنية تبدد المزاعم وتظهر الحق واضحاً جلياً، وفي ضوء ما سبق يمكن أن تتحدد مشكلة البحث من خلال التساؤلات الرئيسة التالية: كيف رد القرآن هذه المزاعم بحجج قوية؟

(١) عبد الرحمن أبو المجد، هل تصلح الهرمنيوطيقا نهجًا لتفسير القرآن؟!، مركز تفسير، ملتقى الانتصار للقرآن الكريم، ١٤٣٦/٠٧/٠٨ - ٢٠١٥/٠٤/٢٦

عبد الرحمن أبو المجد، أصالة القرآن... ومزاعم تأصيل القرآن، مركز تفسير، ملتقى الانتصار للقرآن الكريم، ١٤٣٦/٠٥/٢٧ - ٢٠١٥/٠٣/١٧

عبد الرحمن أبو المجد، معالم منهجية جديدة في الدراسات القرآنية، مجلة البيان،الانتصار للقرآن الكريم، العدد : ٣٤٠ ، ٢٠١٥/٠٩/١٥ .

(٢) عبد الرحمن أبو المجد، حوار ميشيل كويبرس وعبد الرحمن أبو المجد حول نظم القرآن المذهلة! تاريخ الإضافة: ٢٠١٤/١٢/١٧ ميلادي - ١٤٣٦/٢/٢٤ هجري، شبكة الألوكة

Abdur-Rahman Abul-Majd, Michel Cuypers and Abdur-Rahman Abou Almajd discuss The Composition of the Qur'an, Published On: 62014/12/ A.D. - 131436/2/ H.

عبد الرحمن أبو المجد، حوار ريموند فارين حول تناسق القرآن المعجز، تاريخ الإضافة: ٢٠١٤/١٢/١٤ ميلادي - ١٤٣٦/٢/٢١ هجري

http://www.alukah.net/culture/079776//#ixzz47nCregQq

Abdur-Rahman Abul-Majd, Raymond Farrin and Abdur-Rahman Abou Almajd around Structure and Quranic Interpretation, Published On: 182014/11/ A.D. - 251436/1/ H

وما المزاعم الاستشراقية حول يهودية إبراهيم (عليه السلام) ونصرانيته؟

وكيفية مواجهة هذه المزاعم الاستشراقية عالمياً ودحضها؟

أهداف البحث.

أ   بناء أسس منهجية في الدراسات القرآنية.

بالمعالجة القرآنية لبعض ما ذكر في قصة إبراهيم (عليه السلام) كخطاب إسلامي.

تتفعيل منهج الدراسات القرآنية في مواجهة المزاعم الاستشراقية.

منهج البحث.

يستخدم الباحث المنهج الوصفي التحليلي النقدي بحسبانه أفضل المناهج لطبيعة البحث.

حدود البحث.

يقتصر البحث على عرض المعالجة القرآنية لبعض ما ذكر في قصة إبراهيم (عليه السلام)، وحصر جل الشبهات الاستشراقية (اليهودية والنصرانية) ودحضها فقط لعل البحث ينجح في إعطاء رؤية كاشفة إذ أن الأمر بحاجة لبحوث ودراسات مستفيضة.

تبويب البحث.

يتكون البحث من ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: المعالجة القرآنية لقصة إبراهيم (عليه السلام) لدحض الشبهات الاستشراقية.

المبحث الثاني: المزاعم الاستشراقية.

المبحث الثالث: دحض المزاعم الاستشراقية.

المبحث الأول

المعالجة القرآنية لقصة إبراهيم (عليه السلام).

يتناول المعالجة القرآنية لدحض اليهودية والنصرانية عن إبراهيم (عليه السلام) بعد مطالعة الباحث لبعض الكتب(1) التي تناولت القصة تعرض للإشكال في آزر و(تارح(2)) أو (تارخ(3)) اسماً(4) أو اسمان(5) أو لقب(6) والصحيح أن آزر هو الاسم العَلَم لأبي إبراهيم كما سماه الله في كتابه(7)، ولا يجوز إهمال أو تجاوز هذا النص القرآني (آذر) هو أبو إبراهيم، كما نُص عليه قال تعالى:(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ(8)).

وقال تعالى: (هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا

(1) العسقلاني، ابن حجر، تحفة النبلاء من قصص الأنبياء للإمام الحافظ ابن كثير، المحقق: غنيم بن عباس بن غنيم، 1419ه- 1998، باب إخبار إبراهيم خليل الرحمن.
-الوكيل، محمد السيد (دكتور)، نظرات في أحسن القصص، 2006م
-الجنباز،محمد منير(دكتور)، قصص القرآن الكريم وسيرة سيد المرسلين بعيداً عن الإسرائيليات وشطحات المفسرين، 1429ه/2008م
-الخالدي، صلاح(دكتور)، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، 1419ه،1998م.
-السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، كتاب مصابيح الضياء من قصص الأنبياء، ط2، 1429ه.
-زيدان، عبد الكريم(دكتور)، المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة، 1419ه/1998م

(2) الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء (المتوفى: 207هـ)، معاني القرآن، المحقق: أحمد يوسف النجاتي/ محمد علي النجار/ عبد الفتاح إسماعيل الشلبي، بدون تاريخ.

(3) قصص الأنبياء للإمام أبى الفداء إسماعيل بن كثير 701 - 774ه، تحقيق د. مصطفى عبد الواحد الطبعة الأولى 1388ه- 1968م، 1/167-253 هذا الكتاب مستل بالنص من كتاب تاريخ بن كثير.

(4) الطبري، جامع البيان، مصدر سابق، 11/466-469

(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1405ه/1985م، 7/22

(6) إسماعيل، محمد بكر(دكتور)، قصص الأنبياء، دار المنار للطبع والنشر القاهرة، ط1، 1424ه/2003م، ص57

(7) الجواليقي، المعرب، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر، مصدر سابق، ص 77 حاشية رقم 5

(8) سورة الأنعام : الآية 74

شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ)١ فضلاً عن وجوب إتباع ملته قال تعالى: (وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ)٢ ولتنازع اليهود والنصارى فيه.

قصة إبراهيم (عليه السلام) من القصص الجديرة التي لها حضور كبير، فقد ذكرت في خمس وعشرين سورة من سور القرآن الكريم، تدعوا للتفكر والتأمل والثقة فضلاً عما فيها من حجاج، وحرص الباحث على تناول القصة من القرآن الكريم باعتبارها غيبيات أضاءت جوانب كثيرة من سيرته وحسمت قضايا النزاع حول حقيقته.

إبراهيم (عليه السلام) في القرآن الكريم.

ورد اسم إبراهيم (عليه السلام) في خمس وعشرون سورة ومجموع مرات ذكره تسع وستون مرة٣ بيانها كالتالي:

خمس عشرة مرة في سورة البقرة، وسبع مرات في سورة آل عمران، وأربع مرات في سور النساء والأنعام وهود والأنبياء، وثلاث مرات في سور التوبة ومريم والحج والصّافات، ومرتان في سور يوسف والنحل والعنكبوت والممتحنة، ومرة واحدة في سور إبراهيم والحجر والشعراء والأحزاب وص والشورى والزخرف والذاريات والنجم والحديد والأعلى، لا تسمح منهجية البحث أن أعرض من القصة وبإيجاز إلا وما ينسجم مع هدف البحث وغايته.

حنيفية إبراهيم (عليه السلام) وأمته.

حسم القرآن الكريم القضية في آيتين اثنتين: قال تعالى: (إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾)٤.

دعوة إبراهيم (عليه السلام) بأن يجعله مسلماً وأن يجعل من ذريته أمة مسلمة.

قال تعالى: (رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾)٥.

---

(١) سورة الحج : ٧٨

(٢) سورة البقرة : ١٣٠

(٣) عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الكتب المصرية،١٣٦٤ه، ص١-٢

(٤) سورة الأنعام:٧٩

(٥) سورة البقرة:١٢٨

انتفاء اليهودية والنصرانية عن إبراهيم (عليه السلام).

قال تعالى: (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ (1)).

وصية إبراهيم (عليه السلام) قبيل وفاته.

قال تعالى: (وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ (2)).

توضح الآية الأولى بأن إبراهيم (عليه السلام) وصى بنيه (إسماعيل وإسحاق) وحفيده يعقوب بالموت على الإسلام، والآية الأخيرة تبين أن يعقوب عندما حضره الموت سأل بنيه مستفسراً يستنتج الباحث أنه اقتدى بجده إبراهيم (عليه السلام) الذي وصى بنيه (إسماعيل وإسحاق) وحفيده عندما حضره الموت(فَلَا تَمُوتُنَّ) الآية.

أوحى الله إلى محمد (صلى الله عليه وسلم) أن يتبع ملته.

قال تعالى: (ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ (3)).

دعوة المؤمنين للاقتداء بإبراهيم في هذا الموقف.

قال تعالى: (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ

(1) سورة آل عمران:٦٥-٦٨

(2) سورة البقرة: ١٣٢-١٣٣

(3) سورة النحل:١٢٠-١٢٣

رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾(١).

إشكال في آزر.

كثير ما يطرح السؤال من هو أبو إبراهيم (عليه السلام) آآزر أم تارح؟[٢]!

يتبنــون تارح بقــوة لأنه ذكر في كتبهم[٣] لهذا جدير بأن نتعرض لهذا في السياق، اختلف العلمــاء في اســم والد خليــل الله إبراهيم (عليه الســلام) ثلاثة أقوال منهم مــن أقر أن أبا إبراهيــم هو آزر كما هو واضح وجلي بصريــح القرآن، وبدون تأويل، ومنهم من أراد التوفيق بــين مــا جاء في القرآن (آزر) وما جاء من النسابين (تارح)، وقول رفض أن يكون(آزر) أباً لإبراهيم، ولأن الخلاف شهير ومتجدد رأى الباحث أن يقف على أهم ما فيه.

القــول الأول: اسمه (آزر) أخذاً بظاهــر الآية الكريمة، ذهب أبو جعفر الطبري(رحمه الله) إلى أن أولى القولــين بالصواب منهما قــولُ من قال: هو اسم أبيه لأن الله تعالى ذكره، أخــبر أنــه أبوه، وهو القول المحفوظ من قول أهل العلم، دون القول الآخر الذي زعم قائلُه أنه نعتٌ[٤])

ووجــه الحجة فيه: أن هــذا النبي الذي جاءنا بالقرآن من عند الله فصدقناه وآمنا، أنه لا ينطــق عــن الهوى، هو الــذي أخبر أن (آزر) أبــو إبراهيم، وذكره باسمــه العلم في حديثه الصحيح وهو المبين لكتاب الله بسنته فما خالفها من التأويل أو التفسير باطل.

يعلق محقق كتاب (المعرب) بأن هذه الأخبار عن الأمم المطوية في دفائن الدهور المتغلغلة

---

(١) سورة الممتحنة:٤-٦

(2) Who was Abraham's father? Azar (Quran 6:74)? or Terah (Genesis 11:26)? Which is right, the Bible or the Quran? Nairaland / Login / Trending / Recent / New Stats. Date: Thursday, 05 May 2016

(3) Parallel Verses, New International Version
After Terah had lived 70 years, he became the father of Abram, Nahor and Haran. Genesis 11:26

(٤) الطبري، جامع البيان، مصدر سابق، ١/٤٦٨

في القدم قبل تأريخ التواريخ، لا نعلم عنها خبراً صحيحاً إلا ما حكاه النبي المعصوم إخباراً عن الغيب بما أوحى الله إليه في كتابه أو ألقى في روعه في سنته وحياً أو إلهاماً، إذ لا سبيل غيره الآن لتحقيقها تحقيقاً علمياً تاريخياً، وما ورد في كتب أهل الكتاب لم تثبت نسبته إلى من نسب إليه بأية طريق من طرق الثبوت، فلا يصلح أن يكون حجة لأحد أو عليه[1].

القول الثاني: اسمه (تارح) أو (تارخ) وهو قول أكثر العلماء والمفسرين ذهب الزجاج إلى أنه لا خلاف بين النسابين في أن اسم أبي إبراهيم (تارح)[2]، وذكر ابن كثير أن اسمه

(إبراهيم بن تارخ بن ناحور[3])، قال إن جمهور أهل النسب (منهم ابن عباس) على أن اسم أبيه تارح وأهل الكتاب يقولون (تارخ)[4].

قول بالجمع.

قال بعض المفسرين: إن لوالد إبراهيم (عليه السلام) اسمين (آزر) و(تارح)، كما روى الطبري في (جامع البيان) قال: هو(آزر) وهو(تارح) مثل (إسرائيل) و(يعقوب)، وجوز الطبري (رحمه الله) أيضاً أن يكون (آزر) لقباً لوالد إبراهيم وليس اسماً[5]، جمع الإمام القرطبي بين الاسمين:(آزر هو أبو إبراهيم وهو تارح مثل إسرائيل ويعقوب يكون له اسمان[6]).

يؤكد الباحث أن من أفضل من بحث هذه المسألة (حسب اطلاعه)، هو الشيخ أحمد

(١) الجواليقي، موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر أبو منصور، المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر، مطبعة دار الكتب، الطبعة الثانية١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م، ص/٤١١-٤١٣

(٢) الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء (المتوفى: ٢٠٧هـ)، معاني القرآن، المحقق: أحمد يوسف النجاتي/ محمد علي النجار/ عبد الفتاح إسماعيل الشلبي، دار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، بدون تاريخ،٢/٢٦٥

(٣) قصص الأنبياء للإمام أبى الفداء إسماعيل بن كثير ٧٠١ - ٧٧٤ ه، تحقيق د. مصطفى عبد الواحد الجزء الأول يطلب من دار الكتب الحديثة، الطبعة الأولى ١٣٨٨ه- ١٩٦٨م، ١/١٦٧-٢٥٣ هذا الكتاب مستل بالنص من كتاب تاريخ بن كثير.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق،١/١٦٣

(٥) الطبري، جامع البيان، مصدر سابق، ١١/٤٦٦-٤٦٩

(٦) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥ه/١٩٨٥م، ٧/٢٢

محمـد شاكر (رحمه الله) وذلك في ذيل تحقيقه لكتاب (المعرب) للجواليقي، وقد كان وعد عنـد تعليقـه على كلمـة (آزر) في كلام الجواليقـي باستيفاء البحث، فقـال تعليقاً على قول الجواليقـي :(ليس بين النـاس خلاف أن اسم أبي إبراهيم تارح والـذي في القرآن يدل على أن اسمـه آزر) قـال شاكر:(وهذه الأقوال التي حكى أبو منصـور- الجواليقي- وغيرها مما ذهـب إليه بعض المفسرين لا تستنـد إلى دليل، وأقـوال النسابين لا ثقة بهـا، وما في الكتب السالفة ليس حجة على القرآن، فهو الحجة وهو المهيمن على غيره من الكتب، والصحيح أن آزر هـو الاسم العَلَـم لأبي إبراهيم كما سماه الله في كتابـه[1]) ، ولا يزال الخلاف قائماً، قال الشعراوي(رحمه الله):(القرآن صريح في أن الأبوة تطلق على الوالد الحقيقي الذي ينحدر الولد من صلبه، وتطلق على أخي الوالد، أي العم، والدليل على ذلك أن القرآن قال في موضع آخـر قال تعالى:(أَمْ كُنتُـمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَـالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ من بَعْدِي قَالُـوا نَعْبُدُ إِلَهَـكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًـا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ[2])[3]) وجاء بدليل آخر ذكره في كتابه (قصص الأنبياء):(فلو ذكر القرآن في كل آياته بالنسبة لإبراهيـم كلمة(لأبيـه) لانصرف الأمر إلى أبيه الحقيقي، بيد أنـه قيد ذكر أبيه بعلم، مما يدل على أنه يقصد به العم[4]).

وقـال الشيخ الزغبي:(لعل لوالد إبراهيم (عليه السلام) اسمان علمان يطلقان عليه، وكلاهما صحيـح[5]) والدكتور بكر جعل تارح اسماً، وجعل آزر له لقباً، يقول:(ويذكر العلماء أن اسم والد إبراهيم (تارح بن ناحور) ولقب تارح آزر)[6].

---

(١) الجواليقي، المعرب، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر، مصدر سابق، ص ٧٧ حاشية رقم ٥

(٢) سورة البقرة: ١٣٣

(٣) الشعراوي، محمد متولي، تفسير الشعراوي،أخبار اليوم، ط١،١٩٩١م، ٣٧٣٣/٦

(٤) الشعراوي، محمد متولي، قصص الأنبياء، دار القدس، القاهرة، ط١ ، ١٤٢٦ه/٢٠٠٦م، ص٨٣

(٥) ابـن كثـير، أبو الفـدا إسماعيل، قصص الأنبيـاء صحيحه وضعيفـه، ت: محمد عبد الملك الزغبـي، دار الغد الجديد، ٢٠١٢م، ص١٠٤

(٦) إسماعيل، محمد بكر(دكتور)، قصص الأنبياء، دار المنار للطبع والنشر القاهرة، ط١ ، ١٤٢٤ه/٢٠٠٣م، ص٥٧

وقال الدكتور الخالدي:(قد نص القرآن على اسمه، وقليلاً ما يصرح باسم الأشخاص لأنه يبقيها مبهمة غالباً، حتى يريح المسلمين من عناء البحث عن اسمه، وحتى لا يذهب أحدهم إلى التوراة المحرفة أو الإسرائيليات ليأخذ اسمه منها، إن التوراة تذكر له اسماً آخراً هو (تارخ) ونتوقف في هذا الاسم لأننا نعلم أن اليهود حرفوا التوراة وقد يكونوا حرفوا اسم أبي إبراهيم (عليه السلام) كما حرفوا غيره[1])، ويصر بأنه (آذر) مستشهداً بالإعراب يقول:(ويجب أن نعتمد الاسم الذي أطلقه القرآن (آذر)، ولا يجوز إهمال أو تجاوز هذا النص القرآني (آذر) هو أبو إبراهيم كما تنص عليه الآية، ولهذا جاء في الإعراب بدلاً من أبيه (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ[2]) والأب يطلق على والد الإنسان الذي أنجبه، وخرج من صلبه ولا ننكر أن الأب يطلق على العم، لكن استعمال الأب في الوالد حقيقة، واستعمال الأب في العم مجاز، ولا يجوز العدول عن الحقيقة إلى المجاز إلا عند تعذر حمل اللفظ عن الحقيقة[3]).

وسأل الباحثُ الخالدي، لأنه لم يتعرض لإشكال استغفار إبراهيم (عليه السلام) لأبيه، فرد رداً وافياً (بالنسبة لاستغفار إبراهيم (عليه السلام) لأبيه كان استغفاره له تنفيذاً لوعد وعده إياه، وطمعاً في إيمانه، واستغفاره لوالديه كما تقرر آية سورة إبراهيم (رب اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين)، لم يكن بعد ما تبرأ منه كما تقرر آية سورة التوبة، إنما كان قبل ذلك وقبل أن يتبين له أنه عدو لله فلا تعارض بين آية سورة التوبة وآية سورة إبراهيم والتوفيق بينهما كما ذكرت لك بإيجاز[4])

---

(١) الخالدي، قصص الأنبياء، مصدر سابق، ص ص٣٢٣-٣٢٤

(٢) الأنعام : الآية ٧٤

(٣) الخالدي، قصص الأنبياء، مصدر سابق، ص٣٢٣-٣٢٤

(٤) الرد يوم الثلاثاء ١٧ ربيع الأول ١٤٣٧هـ الموافق ٢٠١٥/١٢/٢٩م

وعليكم السلام ورحمة الله ..وحياك الله يا عبد الرحمن ...بالنسبة لاستغفار ابراهيم عليه السلام لابيه كان استغفاره له تنفيذا لوعد وعده اياه وطمعا في ايمانه ..كما تقرر اية سورة التوبة..ولم يستعفر له بعد ذلك بل تبرا منه كما تصرح تلك الاية (فلما تبين له انه عدو لله تبرا منه) ..واستغفاره لوالديه كما تقرر اية سورة ابراهيم رب اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين) لم يكن بعد ما تبرا منه كما تقرر اية سورة التوبة ،انما كان قبل ذلك ، وقبل ان يتبين له انه عدو لله ...فلا تعارض بين اية سورة التوبة واية سورة ابراهيم ..والتوفيق بينهما كما ذكرت لك بايجاز ...

تبــين أن القــول الصحيح، هو القول الأول أن (آزر) أبــو إبراهيم، وسبب الخلاف هل قام إبراهيم (عليه السلام) بهذا الدعاء: (رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ[1]) قبل موت (آزر) أو بعد موته؟

هــذا كان في حيــاة (آزر) فلما تبين لإبراهيــم أن (آزر) قد مات علــى الشرك كف عن الاستغفــار له وتبرأ منه قال تعــالى:(وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيــهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾[2]).

(١) سورة إبراهيم: ٤١

(٢) سورة التوبة: ١١٤

المبحث الثاني

المزاعم الاستشراقية.

تنقسم المزاعم الاستشراقية إلى قسمين:

قسم يروج المزاعم اليهودية، وقسم يروج المزاعم النصرانية، والمزاعم اليهودية أكثر صخباً وهيمنة وقوة وترويجاً.

المطلب الأول :المزاعم اليهودية.

يتناول مزاعم يهودية إبراهيم (عليه السلام) في المصادر اليهودية، ويتوسع في مزاعم يهودية إبراهيم تناولاً مفصلاً، لتجلية أبعادها هناك ثلاثة آراء هي:

الرأي الأول: يزعم بأن إبراهيم (عليه السلام) أول يهودي ذكر في التلمود[1].

وهذا رأي غالبية اليهود، على سبيل المثال لا الحصر، فقد ذكر ذلك دونين في (كن يهودياً[2])، وهيرزبرغ في (شخصيات الشعب[3])، وريزونبرغ في (سيرة إبراهيم الذاتية[4])، وروبينسون في (اليهودية ضرورية[5])، ودوسيك في (عش يهودياً[6]) أن إبراهيم وسارة كانا أول اليهود.

(1) For example, in the Talmud, Chagigah 3a, he is called the first convert.

(2) To Be A Jew: A Guide To Jewish Observance In Contemporary Life
by Hayim H. Donin ,1991, p.12

(3) Jews: The Essence and Character of a People b1999 by Arthur Hertzberg , P.3

(4) Abraham:The First Historical Biography Kindle Edition 2009 by David Rosenberg.

(5) Essential Judaism: A Complete Guide to Beliefs, Customs & Rituals 2001, by George Robinson, p.7

(6) Living Judaism: The Complete Guide to Jewish Belief, Tradition, and Practice 2010 by Wayne D. Dosick , p.64

الرأي الثاني أن إبراهيم (عليه السلام) لم يكن يهودياً غير أنه أصبح يهودياً بالقانون[١].

هذا الرأي أقل شعبية من الرأي الأول، يقول الحبر موشيه بن ناخمان: بأنه لما اختتن إبراهيم اعتبر يهودياً كاملاً[٢]، وتبناه بلاتنر في (اليهودية للذميين[٣]).

الرأي الثالث: أنه أبيهم.

لا يذكرون إلا أن إبراهيم (عليه السلام) أبيهم ولكونهم يهود، فهو يهودي، وهم عهده، ذكر هذا الرأي الرابي لام في كتابه (كونوا هوداً[٤])، غير أن الترجمة الدقيقة نظراً لمضمون الكتاب هي: (كونوا هوداً تهتدوا)، وذكر إبراهيم (عليه السلام) فيه ٨٢ مرة وقال بأنه أبينا ونحن عهد إبراهيم، وعلى الرغم من أن باخوس متخصص في الدراسات اليهودية القديمة في جامعة كالفورنيا إلا أنه ذكر إبراهيم بأنه أول الموحدين في كتابه (أسرة إبراهيم التفسيرات اليهودية والنصرانية والإسلامية[٥])

في التقاليد اليهودية يسمى إبراهيم (عليه السلام) (أبونا إبراهيم) (أفراهام أفينو Avraham Avinu)، مما يدل على أنه كل السلف البيولوجي لليهود (بما في ذلك المتهودين، وفقاً للتقاليد اليهودية) هو أبو اليهودية، وأول يهودي[٦].

ولا يزالون يروجون ذلك في الكتب الحديثة، فقد ذكر الحبر ياكوف غولدشتاين أن إبراهيم أول يهودي[٧]، ويسربون ذلك في كتب الأطفال، والمراهقين الصغار بأن إبراهيم أول يهودي، كحقيقة لا تقبل النزاع[٨].

---

(1) Dershowitz 2015, Alan M. Abraham: The World's First (But Certainly Not Last) Jewish Lawyer (Jewish Encounters Series), p.83

(2) Rabbi Moshe ben Nachman (Nachmanides), commentary to Leviticus 24:10.

(3) Judaism For Dummies 2013 by Rabbi Ted Falcon, David Blatner (Author), p.12

(4) Becoming a Jew1991 by Maurice Lamm, p.xxviii

(5) The Family of Abraham: Jewish, Christian, and Muslim Interpretations 2014 by Carol Bakhos , p.13

(6) Levenson, Jon Douglas (2012). Inheriting Abraham: The Legacy of the Patriarch in Judaism, Christianity, and Islam. Princeton University Press, p. 3.

(7) Rabbi Yaakov Goldstein, Awaking like a Jew (Shulchan Aruch Admur) 2014, p.48
Rabbi Yaakov Goldstein, Awaking like a Jew (Shulchan Aruch Admur) 2014, p.48

(8) Malky Weinstock (Author), Steve Pileggi (Illustrator),Yael Gets a Guest 2015, p.14

ولا يكتفون بذلك بل يهاجمون التقاليد الإسلامية التي ذكرت في (الكتاب والسنة النبوية الصحيحة)، ويزعمون بأن (حنيفاً) سريانية وليست عربية١.

وذكر ديفيد باورز٢ أن النص (Gol3:14) أعيد تفسيره لتشمل أبوة إبراهيم (عليه السلام) للمسيحيين اليهود وغير اليهود٣.

المطلب الثاني: المزاعم النصرانية.

يتناول في هذا المطلب طبيعة المزاعم النصرانية ففي أول صفحات إنجيل برنابا٤، اعتبر إبراهيم وابنيه (إسماعيل وإسحاق) نصرانيين، ولأن نصرانيته لم تذكر في الأناجيل الأخرى يعتبرونها ضعيفة، غير أنهم يصرون على أنه كان حنيفاً، باعتبار أن (حنيفاً٥) يقال بأنها مشتقة من(ḥanpā) السريانية، والجمع حنفاءḥanpē وهذا يعني بأنه (غير اليهود) فهو نصراني.

تدعي كنيسة الروم الكاثوليك أن إبراهيم (عليه السلام) (أبوهم في الإيمان)، وفي الصلاة الإفخارستية الرومانية، ويتلى خلال القداس، ويتم الاحتفال أيضاً في تقويمات القديسين من عدة طوائف: يوم ٢٠ أغسطس من قبل الكنيسة المارونية، وفي ٢٨ أغسطس في الكنيسة القبطية والكنيسة الأشورية الشرقية، ويوم ٩ أكتوبر من قبل الكنيسة الكاثوليكية

(1) The Blackwell Companion to the Qur'an 1st Edition, by Andrew Rippin (Editor), Binyamin Abrahamov (Contributor), Christopher Buck (Contributor), Michael Carter (Contributor), Vincent Cornell (Contributor), Frederick Denny (Contributor), Francois Deroche (Contributor), Salwa El-Awa (Contributor), Reuven Firestone (Contributor), Anna Gade (Contributor) 2006.

(٢) عبد الرحمن أبو المجد، ديفيد باورز.. مستشرق لا يكل عن الكلالة، تاريخ الإضافة: ٢٠١١/١٢/٢١ ميلادي - ١٤٣٣/١/٢٥ هجري، شبكة الألوكة.

(3) David S. Powers, Muhammad Is Not the Father of Any of Your Men: The Making of the Last Prophet (Divinations: Rereading Late Ancient Religion) University of Pennsylvania Press (August 7, 2009), p.14

(4) The Epistle Of Barnabas 2009 by St. Barnabas, p.3

Ancient Epistle of Barnabas: His Life and Teachings 2010 by Ken Johnson.

(5) Mark 7:26 and Romans 1:16

الرومانية والكنيسة اللوثرية[1].

وتحتفل الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية واصفة إياه بأنه (جد الصالحين)، يحتفلون به في يومين اثنين من أيام العيد في التقويم الليتورجي، أول مرة هو يوم ٩ تشرين الأول (لتلك الكنائس التي تتبع التقويم اليولياني التقليدي ٩ أكتوبر يصادف يوم ٢٢ أكتوبر من التقويم الغريغوري الحديث)، حيث يتم الاحتفال به جنباً إلى جنب مع ابن أخيه (الصالح لوط)، والاحتفال الآخر هو في (أحد الأسلاف)، (ثان أحد قبل عيد الميلاد)، عندما يتم الاحتفال باعتبار أنه من أسلاف يسوع الآخرين، وذكر إبراهيم أيضاً في القداس الإلهي للقديس باسيليوس الكبير، ويتم استدعاء (إبراهيم وسارة) في الصلاة، ويزعم النصارى أن تعبير (أبينا إبراهيم)، أو الأب إبراهيم تعبير نصراني[2] ذكر في كثير من الكتب المسيحية[3] المقدسة، ليؤكدون به زعمهم في نصرانية إبراهيم.

(1) Caxton, William "Abraham". The Golden Legend. Internet Medieval Source Book. Retrieved 3 April 2014.

(2) Marvin R. Wilson, Our Father Abraham: Jewish Roots of the Christian Faith, 1990, p,xvi

(3) Luke 1:73

John 8:53

Acts 7:2

المبحث الثالث

دحض المزاعم الاستشراقية.

نتنــاول فيه الرد علــى المزاعم الاستشراقية (اليهوديــة والنصرانية)، نقلياً، وعقلياً ،كمــا بينها القــرآن الكريم حجاجاً عن إبراهيــم (عليه السلام)، ودحضــ شبهات يهوديته ونصرانيته.

المطلب الأول: عرض النظرة القرآنية.

قــال تعالى: (قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّــهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَــهُ مُخْلِصُــونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَــاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُــودًا أَوْ نَصَــارَى قُلْ أَأَنْتُــمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَــادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾(1)).

حسم رب العزة (سبحانه) الحجاج بسؤال حاسم والعجز غاية من يحاول أن يجيب سؤاله (أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ) لأنه الأعلم، وصم من يكتم هذه الشهادة بأنه الأظلم، ولا يستطيع -حبر (ولا قس ولا أحد) مهما تعمق أو علا- أن يجيب بالإيجاب.

الحجاج في إبراهيم (عليه السلام).

قال تعالى: (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْــدِهِ أَفَــلَا تَعْقِلُونَ﴿٦٥﴾ هَا أَنْتُمْ هَــؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِــهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُــم بِــهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُــمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّــا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾(2)).

---

(1) سورة القرة:١٣٠-١٤٠

(2) سورة آل عمران:٦٥-٦٨

واعتبر الإسلام أن أحسن الناس ديناً، هو من أسلم وجهه لله، وأحسن العبادة لله، واتبع ملة إبراهيم (عليه السلام)، وكان حنيفاً مثله، ورفض القرآن الكريم كون الهداية في إتباع اليهود أو النصارى، واعتبرها في اتباع إبراهيم (عليه السلام) قال تعالى: (وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ (١)).

الأمر باتباع ملة إبراهيم حنيفاً

قال تعالى: (قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ (٢)).
وأمر الله نبيه باتباع ملة إبراهيم الحنيف

قال تعالى: (ثُمَّ أَوحَينا إِلَيكَ أَنِ اتَّبِع مِلَّةَ إِبراهيمَ حَنيفًا وَما كانَ مِنَ المُشرِكينَ ﴿١٢٣﴾ (٣)).

وأمر الله نبيه محمداً (صلى الله عليه وسلم) أن يعلنها بصراحة.

قال تعالى: (قُل إِنَّني هَداني رَبّي إِلى صِراطٍ مُستَقيمٍ دينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبراهيمَ حَنيفًا وَما كانَ مِنَ المُشرِكينَ ﴿١٦١﴾ (٤)).

إبراهيم (عليه السلام) أبو المسلمين أبوة إيمانية.

قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ (٥)).

---

(١) سورة القرة:١٣٥
(٢) سورة آل عمران:٩٥
(٣) سورة النحل:١٢٣
(٤) سورة الأنعام:١٦١
(٥) سورة الحج:٧٧-٧٨

المطلب الثاني: دحض المزاعم اليهودية.

دحض الرأي الأول:

الـرأي الـذي يزعـم بـأن إبراهيم (عليـه السـلام) أول يهودي ذكـر في التلمود وأن إبراهيـم وسارة كانا أول اليهود، وهذا رأي غالبية اليهـود، سؤال هل أنزلت التوراة من قبله أم من بعده؟

فـإن أنزلـت التوراة من قبله أصبتم وإن أنزلت التوراة مـن بعده فقد كذبتم، وأخطأتم، ولأن التوراة لم تنزل من قبله فإن إبراهيم (عليه السلام) لم يكن يهودياً.

الرأي الثاني أن إبراهيم لم يكن يهودياً غير أنه أصبح يهودياً قانوناً.

هـذا الرأي أقل شعبية من الرأي الأول، يقولون أن إبراهيم (عليه السلام) لما اختتن اعتبر يهودياً كاملاً، ويدحض هذا الرأي شرطه، لأن الختان ليس فضيلة يهودية، هم يروجون هذا الرأي في الغرب، حيث يزعمون للنصارى الغربيين، بأن الختان فضيلة يهودية، ولا يعلم النصـارى الغربيون أن المسلمين يختتنون اقتداء بأبيهم إبراهيم (عليه السلام)، هذا الرأي يدحضـه شرطـه، يزعمون كل مختتن يهـودي، المسلمون يختتنون المسلمون غـير اليهود إذن مزعومة أبطلت شرطها وأسقطته.

الرأي الثالث: أنه أبيهم.

لا يذكـرون إلا أن إبراهيـم (عليـه السلام) أبيهم، ولكونهم يهـود فهو يهودي، وهم عهـده، ذكر هذا الـرأي الرابي لام في كتابه (كونـوا هوداً)، غير أن الترجمـة الدقيقة نظراً لمضمـون الكتاب (كونوا هوداً تهتـدوا)، وذكر إبراهيم (٨٢ مرة)، وقـال: (بأنه أبينا ونحن عهـد إبراهيم) وعلى الرغم مـن أن باخوس متخصص في الدراسـات اليهودية القديمة في جامعة كالفورنيا، إلا أنه ذكر إبراهيم بأنه أول الموحدين في كتابه (أسرة إبراهيم التفسيرات اليهودية والنصرانية والإسلامية).

في التقاليد اليهودية يسمى إبراهيم (عليه السلام) (أبونا إبراهيم) (أفراهام أفينو) ممـا يـدل على أنه سلف لكل اليهود بيولوجياً، (بما في ذلـك المعتنقين لليهودية وفقا للتقاليد اليهودية)، والد اليهودية، وأول يهودي.

نشـأ هذا الرأي لقناعتهم بوهن وضعف حجج الرأيين السابقين، (الأول والثاني)، وكما دحض الرأي الثاني شرطه، فإن هذا الرأي يدحضه شرطه، لأن أبوة إبراهيم (عليه السلام) ليست مقصورة على اليهود، فهـو أب لابنه الأول إسماعيل(عليه السلام)، بالإضافة إلى أن النص (Gol3:14) أعيد تفسيره لتشمل أبوة إبراهيم (عليـه السلام) للمسيحيين اليهود، وغير اليهود١ .

إشكال الهاجرية Hagarism.

علينا أن ننتبه لإشكال آخر زعمه برنارد لويس وحاول أن يروجه وتحمس له تلاميذه مـن بعده (باتريشيـا كرونه ومايكل كوك) وكتبـا (الهاجريون) كمصطلـح يطلق على أبناء هاجـر (أبناء إسماعيل عليـه السلام)، يلحقون إسماعيل بأمـه، ولا يلحقونه بأبيه إبراهيم (عليهمـا السلام)، ومثـل الكتاب سقطة علميـة مشينة، دحضه المستشرقـون، وتناولناه في السياق أثناء الحوار مع البروفيسور بيتر رايت.

كنـت تناقشـت مـع البروفيسور فريد دونـر حول كتابه (محمـد والمؤمنون)، تذكرت مـا قالته باتريشيـا كرونه قي نقدها للكتاب: (إن ما فعله فريـد دونر خليط مخبول، تم الآن تفكيكُه) قال لي فريد: (من الصعب أن أجد ذلك التعليق على عملي)، وبينته له.

وعلـق البروفيسور بيتر رايت: (أنا قرأت هـذا الكتاب في كلية الدراسات العليا، وتعلَّمْتُ الكثير منه، الشيء الوحيد الذي تعلمته هو أن المرء لا يستطيع المضيَّ قدمًا منهجيًّا، كما فعل (كـوك وكرونه)، أخذوا الموقف الذي لا يمكن للمرء استخلاصُ أي معلومات تاريخية موثوقة عن المجتمع في وقت مبكر من النصوص التي أنتجت، لأن تلك النصوص تعكس وجهاتِ نظرٍ دينية (مصادر مطلعة).

وعلى هذا الأساس حاولا إعادة بناء بدايات الإسلام من (خارج) المواد وحدها، لقد كانـت تجربة مثيـرة للاهتمام، وغريبة الأطـوار، لا أحد في أي مجال مـن مجالات التحقيق

(1) David S. Powers, Muhammad Is Not the Father of Any of Your Men: The Making of the Last Prophet (Divinations: Rereading Late Ancient Religion) University of Pennsylvania Press (August 7, 2009), p.14

التاريخي يحاول المضي قدمًا على هذا النحو، كل واحد يدرك أن (الغرباء) أيضًا لديهم التحيُّزات، والحرفية، وأنا أقرت نقد الدكتور باتريشا كرونه لكتاب دونر ولكن لديَّ انطباع دائم، بأنها حققت لي أنها كانت لا تزال تحاول تبرئةَ نفسها من نظرية الهاجرية Hagarism.

وقال ألبرت حوراني لي ذات مرة: كتاب (الهاجرية) لم يحصل على إجابات صحيحة وأنا أتَّفقُ مع دونر وحوراني وأرجو ألا أظهَرَ بأني قاسٍ جدًّا على باتريشيا كرونه، وكما قلت لقد استفدتُ من عملها، وأرجو أن أكون أوضحت ذلك، ولكن نقدها لكتاب دونر هو علامة، لقد كانت رافضة تمامًا، وبصورة غير معقولة جدًّا في رأيي(1).

مثل هذا النقد الأكاديمي العلمي، جدير أن يتابع، ويناقش، لأن دحضهم له قيمة كبرى لديهم، واعتبار كبير ونحن حتى الآن لم نحسن استغلاله، لقلة المتابعة، وندرة الاشتباك في مناقشات علمية مطولة، وبقيت (حنيفاً) إذ يزعمون بأنها سريانية وليست عربية ودحضها أخرناه إلى المطلب الثاني، لأنه يروج له باعتباره حجه نصرانية أكثر منها حجة يهودية، فقد ذكرها اندريه رايبان في كتابه مرتين فقط.

المطلب الثاني: المزاعم النصرانية.

يتناول في هذا المطلب طبيعة المزاعم النصرانية، ففي أول صفحات إنجيل برنابا اعتبر إبراهيم وابنيه نصرانيين، ولأنها لا تذكر في الأناجيل الأخرى، يعتبرونها حجة ضعيفة غير أنهم يصرون على أنه كان حنيفاً، باعتبار أن (حنيفاً)، يقال بأنها مشتقة من(ḥanpā) السريانية والجمع حنفاءḥanpē وهذا يعني بأنه (غير اليهود) فهو نصراني، ويزعم

(1) عبد الرحمن أبو المجد، بيتر رايت وعبد الرحمن أبو المجد في حوار حول التأويلات القرآنية الحديثة، تاريخ الإضافة: ٢٠١٣/٩/١٦ ميلادي - ١٤٣٤/١١/١١ هجري

رابط الموضوع: http://www.alukah.net/world_muslims/0/60014/#ixzz47euioeXr

Abdur-Rahman Abul-Majd, Peter Wright and Abdur-RahmanAbouAlmajd in dialog about Modern Qur'anic Hermeneutics, Published On: 122013/9/ A.D. - 71434/11/ H.

http://en.alukah.net/World_Muslims/02529//

النصـارى أن تعبير (أبيهـم إبراهيـم)، أو الأب إبراهيم تعبير نصـراني[١]، ذكر في كثير من الكتب المسيحية المقدسة، ليؤكد نصرانية إبراهيم.

خطـوة جديـرة[٢] بالفحص والتقييـم، دخول بعض الباحثـين ومشاركتهم مع غيرهم في تأليـف الكتب، بحيث يتبنوا وجهة نظرهم الأيديولوجية مثـل كتاب (أبناء إبراهيم (عليه السـلام) في محادثـة[٣])، ألف هـذا الكتاب ثلاثـة مؤلفين هـم: ريتشارد هاريـس (أسقف أكسفورد)، والحاخام الدكتور نورمان سليمان، هو (عضو في وحدة جامعة أوكسفورد لتعليم والبحـوث في العبرية والدراسـات اليهودية، وكان مديـراً سابقاً لمركـز الدراسات اليهودية والعلاقـات اليهوديـة المسيحيـة)، وتيموثـي وينتر (الشيـخ عبـد الحكيم مـراد محاضر في الدراسات الإسلامية في جامعة كامبريدج المملكة المتحدة).

دلائل جديدة على أن العهد لإسماعيل (عليه السلام).

جـون نوبل[٤] في كتابه (مكان لابن هاجر[٥]) قام بدراسة أكاديمية علمية لمكانة إسماعيل (عليه السلام)، وأثبت أن مكانته لا تقل عن مكانة إسحاق، أقتطف من الحوار معه[٦].

---

(1) Marvin R. Wilson, Our Father Abraham: Jewish Roots of the Christian Faith, 1990, p,xvi

(٢) أقول جديرة لأن للباحث تجربة في مشاركة التأليف الأجنبي فقد شارك بكتابة فصل في كتاب

)The Covenants of the Prophet Muhammad with the Christians of the World Paperback – November 2, 2013(

الفصل الرابع: عهد النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) مع نصارى نجران، ص ١٠٩-١٣٨

(3) Richard Harries (Editor), Norman Solomon (Editor), Timothy Winter (Editor),Abraham's Children: Jews, Christians and Muslims in Conversation, 2006, p.30

(٤) جون. ت نوبل.

أستـاذ مساعـد في الكتاب المقدس والدين ومدير مركز الدراسـات غير الغربية في جامعـة هنتنغتون، إنديانا منـذ ٢٠١٢م، وهو حاصل علـى الماجستير والدكتوراه في قسم لغات الشرق الأدنى والحضارات جامعة هارفارد، تم قبـول أطروحته التـي تحقق في الوظائف الأدبية واللاهوتية لإسماعيل (عليـه السلام) في العهد الإبراهيمي بامتياز، ومن المقرر أن تظهر في مايو ٢٠١٦ ككتاب بعنوان (مكان لابن هاجر: إسماعيل (عليه السلام) كدراسة حالة في التقاليد.

(5) John T. Noble: 2016, A Place for Hagar's Son: Ishmael as a Case Study in the Priestly Tradition

(6) Abdur-Rahman Abul-Majd, A Place for Hagar's Son, John T. Noble and Abdalrahman Abul-majd, Published On: 2/5/2016 A.D. - 24/7/1437 H.

http://en.alukah.net/World_Muslims/07307//

الباحث الدكتور جون نوبل له رأي علمي موضوعي، توصل إليه بعد بحوث علمية متعمقة، يكشف عن بعضها، مما أقره بعض أحبار يهود عن مكانة إسماعيل(عليه السلام) في مكان لابن هاجر، لفت انتباهه أنه وجد لهذين الشخصين(هاجر وإسماعيل) كثير من الاهتمام الإيجابي في سفر التكوين، ووجد أن سفر التكوين قد يكون المقصود أكثر لهاجر وإسماعيل، على الرغم من أننا كثيراً ما نسمع من التفسيرات اليهودية، أو المسيحية التقليدية.

سألته: هل يمكن أن تستفيض في شرح الوعود الأبوية لإبراهيم(عليه السلام) وتبين أن إسماعيل(عليه السلام) هو المرشح المفضل وبشكل واضح وإن لم يكن المختار.

جون نوبل: أنا هنا اعتمد على عمل باحث يهودي آخر، إنه الحبر البارز جون ليفينسون (موت وقيامة الابن الحبيب١) ، الذي أشرف أيضا على هذا المشروع باعتباره أطروحة.

كل من المواد والتلميع لهاجر وإسماعيل(عليه السلام): ١٦: ١- ١٤ (Yahwist، أو "J")؛ ١٧: ١-٢٧ (بريسلي، أو "P")، و ٢١: ٨-٢١ (المصدر الإلوهي، أو "E"). أولاً أنا أعلق على التقاليد في غير بريسلي بما في ذلك الإلوهيست أو الياهويست Yahwist و Elohistكثيرا ما كتبتُ حول تجميع ملاحظات أخرى أو مشتقة على سبيل المثال فكرتي بنيت على ما أتى به الحبر اليهودي جويل كامينسكي (وعلى الرغم من كل ذلك إلا إنني أحب يعقوب٢)

يلاحظ أن سفر التكوين لا يميز بدقة بين (الانتخاب)، و(مكافحة المنتخب) في قصص الأبوية التي تتوجه إلى حد كبير في جميع الأنحاء لصالح أمر إلهي غامض خاص بأحد الأخوين (إسماعيل وإسحاق)، ملاحظتي هي أن إسماعيل(عليه السلام)، يبرز في المقارنة متميزاً عن غيره من أفراد الأسرة الإبراهيمية في سفر التكوين، ولا تتم تزكيته، ويتم إظهار الخصائص السلبية التي من شأنها أن تبدو للتبرير دُست عليه في الخيارات، ولا يتم تصوير إسماعيل(عليه السلام) وأمه في الإلوهيست، أو الياهويست بما لا يستحقون، ولكن

(1) Jon D. Levenson :1993,The Death and Resurrection of the Beloved Son: The Transformation of Child Sacrifice in Judaism and Christianity.

(2) Joel S. Kaminsky :2007 Yet I Loved Jacob: Reclaiming the Biblical Concept of Election Kindle Edition

فضلاً من ذلك فإنهم من المضطهدين، ولدرجة يتم اعتبارهم ضحايا في منزل إبراهيم (عليه السلام) وسارة.

وفي سفر التكوين ٢١ (E)، ويوفر الله لو يعوض هاجر وإسماعيل(عليه السلام) في البرية بعد أن (لقد تركت أسرة إبراهيم(عليه السلام) سفر التكوين ١٧ (P) يصور عهد الله مع إبراهيم يتناقض تناقضاً كبيراً، فيما يتعلق بإسماعيل، هناك دلائل تشير إلى أن هذا المصدر الكهنوتي على دراية بالقصص القديمة عن الابن الأول لإبراهيم(عليه السلام)، ولكن يعرض الوضع المبهم له بطريقة مختلفة، وذلك باستخدام اللغة التي تشير على حد سواء تجاه استبعاد إسماعيل وإدراجه في العهد الإبراهيمي، أن الله جعل في طقوس الختان محور العهد، ولكن ختان إسماعيل(عليه السلام) جنباً إلى جنب مع كل من الذكور الآخرين بين المنزلية من إبراهيم (عليه السلام).

وسألته كيف يمكن للعهد مع نوح أن يتصل بالعهد مع إبراهيم(عليهما السلام)؟

أجابني: كل من عهد نوح في سفر التكوين ٩ والعهد الإبراهيمي سفر التكوين ١٧ هي مجال بريسلي، وبالعهدين بعض الأمور الهامة المشتركة: (علامة العهد) إعلاناً بأن العهد (أبدياً)، والتأكيد على تكاثر النسل ويعتزم برسلي للعهدين ليتصل مع بعضهم البعض.

وعلى الرغم من هذا ينبغي أن يراعى في الاعتبار أن إسماعيل يمكن أن ينظر إليه على أنه نوع من الارتباط للعهدين، في لحظة عندما يتم تضييق التركيز، يعطى ابنه الأول إسماعيل نعمة مورثه يشارك إسماعيل أيضاً في الختان، ويتمتع أيضاً بنعمة تكاثر النسل، حتى أنه أيضاً يصبح أباً لأمة عظيمة. أجد من المفيد تفسير كونراد شميد لكل من هذه العوامل، إضافة إلى الإدراج الجزئي لإسماعيل في العهد الإبراهيمي، وهذا صحيح بقدر ما يتميز العهد من قبل اثنين من دوائر مختلفة، واحدة للأسرة إبراهيم الأوسع، واحد لبني إسرائيل، ولإسماعيل لأنه هو الشخصية الرئيسية في التقاليد بريسلي، ثم لأنه يسلط الضوء على النظرة العالمية لبريسلي، يشير إلى أن جميع نسل آدم ونوح وإبراهيم يقع ضمن ما اختصهم الله بالرحمة والاهتمام.

أتذكـر إسماعيل يأتي أيضاً من نسـل إبراهيم (سفر التكوين ٢٠:١٧، ٢٥)، ومن المؤكد أن كل مـن الجنرال ١٦: ١-١٤ والجنرال ٢١: ٨-٢١، نرى إزالة لإسماعيل من عائلة أبرام / إبراهيـم ممـا يجعل مساحة لإسحاق أن يكون وريثاً للعهد، وجدتُ في العهد في بريسلي سفر التكوين ١٧ حيث يشارك في العهد الإبراهيمي، ويصبح أبا لاثني عشر أميراً، وأمة عظيمة.

استغلال البلبلة التوراتية والإنجيلية في دحض الحجج اليهودية والنصرانية.

في حوار كارلين إيايو١ ،كشفت لي إيايو عن المزيد حول ما هو موجود عن إسماعيل

في المعالجـات المختلفـة لكلٍّ مـن إسماعيـل وهاجـر والياهويسـت Yahwist، المصادر التوراتيـة المجتمعـة فضَحَـت وأدانَتْ ما يُمارسـه اليهود، والموجود في مصـادر بريسلي / في النصوص الإلهية أن البركـة لإسماعيل بالإضافة لإسحاق وجـدت أن هناك جسرًا يستغرق فـترة تصل لنصوص سفر التكوين ١٢ / ٢٢ ، ويخلص إلى أنه ليـس من البساطة أن يدعي البعض، ويُلاحظ ما يعتقد أن يكون التوتر / الازدواجية الداخلية أو التناقضات داخل السرد، وتبنـي فرضيَّـة وثائقيَّة فيما يتعلَّق بتأليـف أسفار موسى الخمسة، ويقـال: إنه مِن المفترض أن التقاليـد تُنوِّع تأليفَها كوسيلة لشـرح أصل المطالبات المتناقضة على وجه الخصوص، وفي المقابـل فـإنَّ (سفر التكويـن ٢١: ٨ - ٢١) الذي يدعـي بأنه يأتي من مصـدر إلهي (يصوِّر هاجرَ أكثر من ذلك بكثير من التعاطف)، وإن الله وإبراهيمَ أُصيبا بالقلق الكبير ليس فقط لرعايتهـا، ولكن أيضًا من أجل ابنهـا إسماعيل٢، وعد الله إبراهيمَ أن بركتَه ينبغي أن تكون على إسماعيل (أنه سمع صرخة إسماعيل، وأتى ليكون أمة عظيمة، وتذكر أن إسماعيل يأتي

---

(١) أستـاذة الدراسات البابيليَّة واللاهـوت بجامعة أطلانتيك بالم بيتش ومديرة برنامـج وزارة الإنترنت والتعليم العام.

الكنيسة والبقع العمياء في الكتاب المقدس- حوار كارلين إيايو تاريخ الإضافة: ٢٠١٥/٨/٢٠ م - ١٤٣٦/١١/٥هـ
http://www.alukah.net/translations/090653/

Abdur-Rahman Abul-Majd, Karelynne Gerber Ayayo and Abdur-Rahman Abou Almajd discuss The topic of Hermeneutics, Published On: 30/7/2015 A.D. - 13/10/1436 H.

http://en.alukah.net/World_Muslims/0/6191/

(2) Steven L. Bridge: 2009 Bridge, Getting the Old Testament, Getting the Old Testament: What It Meant to Them, What It Means for Us, p. 65

أيضًا من نسل إبراهيم) سفر التكوين ١٧:٢٠، ٢٥ ،كما يُسجِّلُ أن إسماعيل كان والد اثني عشَرَ سِبطًا (سفر التكوين ٢٥: ١٥).

علينا أن نحيط بقصة إبراهيم (عليه السلام) إحاطة شافية كافية.

قصة إبراهيم (عليه السلام) من القصص الجديرة التي لها حضور كبير، فقد ذكرت في خمس وعشرين سورة من سور القرآن الكريم، تدعوا للتفكر والتأمل والثقة، فضلاً عما فيها من حجاج، وحرص الباحث على تناول القصة من المصادر اليقينية الصحيحة المحصورة في الكتاب والسنة النبوية الصحيحة، باعتبارهما غيبيات(سمعيات) أضاءت جوانب من سيرته، وحسمت قضايا النزاع حول حقيقته.

إبراهيم (عليه السلام) في سور القرآن الكريم.

ورد اسم إبراهيم (عليه السلام) في خمس وعشرون سورة، ومجموع مرات ذكره تسع وستون مرة، وهذا ما ذكر في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم[1]، وبالمراجعة والتدقيق تبين للباحث صدق النتائج، فقد ذُكر في سور القرآن (٦٩) مرة، بيانها كالتالي:

خمس عشرة مرة في سورة البقرة وسبع مرات في سورة آل عمران وأربع مرات في سور النساء، والأنعام، وهود، والأنبياء وثلاث مرات في سور التوبة، ومريم، والحج، والصّافات ومرتان في سور يوسف، والنحل، والعنكبوت، والممتحنة ومرة واحدة في سور إبراهيم، والحجر، والشعراء، والأحزاب، وص، والشورى، والزخرف، والذاريات، والنجم، والحديد، والأعلى.

ترتيب قصة إبراهيم(عليه السلام).

أشهر كتاب استمرت شهرته لقرون هو كتاب (قصص الأنبياء) للإمام الحافظ ابن كثير، جمعه ابن حجر العسقلاني بعنوان(تحفة النبلاء من قصص الأنبياء)، لم يرتب قصة إبراهيم[2] (عليه السلام) ترتيباً زمنياً بدأ بحجاجه لمدعي الإلوهية، وسماه النمرود

(١) عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الكتب المصرية،١٣٦٤ه، ص١-٢

(٢) العسقلاني، ابن حجر، تحفة النبلاء من قصص الأنبياء للإمام الحافظ ابن كثير، المحقق: غنيم بن عباس بن غنيم، مكتبة الصحابة، ١٤١٩ه- ١٩٩٨، باب إخبار إبراهيم خليل الرحمن، ص١٩٦-٢٣٨

ثـم مـا كان لإبراهيم مع قومه، مستشهداً بآيات من سـورة الأنبياء ثم هجرة إبراهيم (عليه السـلام) منطلقاً بسارة زوجه العاقر، ولوط(عليه السلام)، وحدد الموضع بأنه بلاد الشام، وذكـر أيضـاً بأنه مكة، وذكر بأنه حران، وقـال إن المشهور بأن إبراهيـم هاجر من بابل إلى حـران،١ ثـم ذكر مولد ابنــه إسماعيل، والهجرة بـه وبأمه إلى مكة المكرمـة، والذبيح٢، ثم مولـد إسحاق، ثم بناء البيت العتيق، ثـم ذكر مناقب إبراهيم٣ ثم وفاته، ومدة عمره وقبره والكتاب مليء بالإسرائيليات.

تناول الدكتور الوكيل قصة إبراهيم(عليه السلام) في(نظرات في أحسن القصص)، لم يرتـب القصــة ترتيباً جيـداً٤، وكذلك الدكتور الجنبـاز، لم يرتب قصــة إبراهيم (عليه السلام) في (قصص القرآن الكريم وسيرة سيد المرسلين بعيداً عن الإسرائيليات وشطحات المفسرين)٥

رتبهـا الجنبـاز على النحو التالي: (ولـد في مدينة أور، ووالــده آزر٦، راح يتأمل ليصل بالفكـر النقي إلى الحقيقــة التي ارتاح لها فؤاده أن هذا الكون مـن صنع إله واحد، ثم أرني كيـف تحيي الموتى، ثم الصراع العقدي بين إبراهيم (عليه السلام) وقومه، ثم دعوته لأبيه، ثـم تحطيمـه للأصنام، ثم المرحلة الثانية مواجهة النمـرود٧، ثم دخول مصر ثم الدعوة في الحجـاز، وتـرك هاجر وإسماعيل، ثـم البشارة بإسحـاق، ثم بناء الكعبـة٨ واختتم القصة ببراءة إبراهيم (عليه السلام) من أبيه٩.

---

(١) العسقلاني، قصص الأنبياء، المصدر السابق،ص٢٠٦

(٢) العسقلاني، قصص الأنبياء، المصدر السابق، ص ٢١٢-٢١٩

(٣) العسقلاني، قصص الأنبياء، المصدر السابق، ص٢٢٥

(٤) الوكيل، محمد السيد (دكتور)، نظرات في أحسن القصص، الدار الشامية للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٦م ، ١/١٨٥ - ١٨٦

(٥) الجنباز،محمـد منير(دكتور)، قصص القرآن الكريم وسيرة سيد المرسلين بعيداً عن الإسرائيليات وشطحات المفسرين، مكتبة التوبة، الرياض، ١٤٢٩ه/٢٠٠٨م، ص٦٢-٨٨.

(٦) الجنباز، قصص القرآن الكريم وسيرة سيد المرسلين، مصدر سابق، ص ٦٣

(٧) الجنباز، قصص القرآن الكريم وسيرة سيد المرسلين، مصدر سابق، ص ٧٢

(٨) الجنباز، قصص القرآن الكريم وسيرة سيد المرسلين، مصدر سابق، ص٨٣

(٩) الجنباز، قصص القرآن الكريم وسيرة سيد المرسلين، مصدر سابق، ص٨٨

ويعد أفضل مرجع اطلع عليه الباحث في ترتيبها، هو كتاب الدكتور الخالدي (القصص القـرآني عرض وقائع وتحليل أحـداث١)، قسم القصة على مرحلتـين المرحلة الأولى رتبها ترتيبـاً حسنـاً، وبعد مطالعة الباحث قصة إبراهيم (عليه السـلام) في مراجع أخرى منها، كتـاب (مصابيح الضياء مـن قصص الأنبيـاء٢)، و(المستفاد من قصص القـرآن للدعوة والدعاة٣).

(١) الخالـدي، صلاح (دكتـور)، القصص القـرآني عرض وقائـع وتحليـل أحداث،الـدار الشاميـة، بـيروت، ١٤١٩ه،١٩٩٨م.

(٢) السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، كتاب مصابيح الضياء من قصص الأنبياء،الرياض، ط٢، ١٤٢٩ه.

(٣) زيدان، عبد الكريم (دكتور)، المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة، دار الرسالة، بيروت، ١٤١٩ه/١٩٩٨م، قصة إبراهيم (عليه السلام) ص٢٠٦-٢١٨.

النتائج والتوصيات

مـن خـلال عرض أهم مـا يمكـن استخلاصه من هـذا البحث، يمكـن أن نخلص إلى أن أكـبر هـدف تسعى إليه هـذه الشبهات بمختلـف اتجاهاتها، هو تأكيـد المزاعم حول يهودية إبراهيم (عليه السلام)، وكسر نموذجه ومثاله الذي يمثله في القرآن الكريم لأجيال المسلمين المتلاحقة، وذلك من خلال عرض إبراهيم (عليه السلام) برؤية يهودية أو نصرانية مغرضة...

لقـد اتضح أن هذه الكتابـات المغرضة والمسيئة لإبراهيـم (عليه السلام) لم تحفل بالردود اللازمة من طرف المسلمين في الغرب، وفي ديار الإسلام بل وجدنا من أبناء المسلمين مـن يمتدح مثل هذه الأعمال، ويثني عليهـا ويعتبرها احتفاء بمكانة إبراهيم (عليه السلام) وإسماعيل ولذلك نقترح ما يلي:

- كتابة ردود خاصة على كل شبهة من هذه الشبهات.
- كتابة ردود عامة على جُلِّ ما جاء في مجمل هذه الشبهات من افتراءات وطعون.
- كتابـة سـيرة إبراهيـم (عليه السـلام) باللغـات العالميـة الأسـاسيـة (الإنجليزية والإسبانيـة والفرنسية والإيطاليـة والألمانية والبرتغالية...) يقوم كتـاب مسلمون لهم ثقافة إسلاميـة واسعة ولهم دراية ووعـي بذهنية القارئ والمتلقي في الغرب، وأن تكتب هذه السيرة أيضًا من طرف أدباء متخصصين في الكتابة الروائية بأساليب أدبية راقية تبرز من خلالها الوجـه المشرق لإبراهيـم (عليه السلام)، وما قدمه من تضحيـات لصالح الإنسانية، يمكن أن يكـون لها أبلغ التأثير في نفسية المشاهد الغربي، بحيـث تساهم في إعادة تشكيل الذهنية الغربية بطريقة صحيحة تجاه إبراهيم (عليه السلام) كما جاء في القرآن الكريم.

كمـا نوصـي بمخاطبة العقـلاء والمنصفين من الغربيين، وتوعيتهـم بخطورة ما يكتبه المغرضون الواقعـون ضحية الاستشراق، وضحية الإعلام الغربي المنحاز ضد رؤية إبراهيم، كما ذكر في الآيات القرآنية.

ولا يفوتنا في هذا المقام أن نؤكد على ضرورة إعداد خطة عمل مدروسة، محسوبة الخطوات على مستوى منظمة المؤتمر الإسلامي، أو رابطة العالم الإسلامي، وغيرها من المؤسسات العربية والإسلامية، للتصدي لهذه الإساءات المتكررة وألا تبقى الردود والاحتجاجات والتنديدات، عبارة عن ردود أفعال متحمسة سرعان ما تفتر وتخفت أو عبارة عن تصرفات مندفعة، قد تكون لها نتائج عكسية في بعض الأحيان.

أما على المستوى العربي الإسلامي الرسمي فينبغي اتخاذ ما يلزم في المحافل الدولية (كهيئة الأمم المتحدة)، بهدف تجريم الإساءة إلى الشخصيات الرمزية الإسلامية (إسماعيل بن إبراهيم) (عليهما السلام)، درءًا لما يمكن أن ينتج عن ذلك من موجات عنف وكراهية بين الأمم والشعوب، وإذا كان غيرنا استطاع أن يستصدر قوانين تُجرم (معاداة السامية) وتُقيد حريات الناس في هذا المجال، فلا يجوز لنا أن نتقاعس في الدفاع عن الرؤية القرآنية في إبراهيم والذب عنها وصونها له ولإسماعيل (عليهما السلام).

مصادر البحث ومراجعه.

١. القرآن الكريم

٢. إسماعيل، محمد بكر (دكتور)، قصص الأنبياء، دار المنار للطبع والنشر القاهرة، ط١، ١٤٢٤ه/٢٠٠٣م

٣. ابن كثير، أبو الفدا إسماعيل، قصص الأنبياء صحيحه وضعيفه، ت: محمد عبد الملك الزغبي، دار الغد الجديد، ٢٠١٢م

٤. الجنباز،محمد منير (دكتور)، قصص القرآن الكريم وسيرة سيد المرسلين بعيداً عن الإسرائيليات وشطحات المفسرين، ١٤٢٩ه/٢٠٠٨م

٥. الجواليقي، موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر أبو منصور، المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر، مطبعة دار الكتب، الطبعة الثانية١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م

٦. الخالدي، صلاح (دكتور)، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، ١٤١٩ه،١٩٩٨م.

٧. السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، كتاب مصابيح الضياء من قصص الأنبياء، ط٢، ١٤٢٩ه.

٨. الشعراوي، محمد متولي، تفسير الشعراوي، أخبار اليوم، ط١٩٩٩١

٩. الشعراوي، محمد متولي، قصص الأنبياء، دار القدس، القاهرة، ط١، ١٤٢٦ه/٢٠٠٦م

١٠. الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)

١١. جامع البيان جامع البيان في تأويل القرآن، المحقق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م

١٢. العسقلاني، ابن حجر، تحفة النبلاء من قصص الأنبياء للإمام الحافظ ابن كثير، المحقق: غنيم بن عباس بن غنيم، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨.

١٣. الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء (المتوفى: ٢٠٧هـ)، معاني القرآن، المحقق: أحمد يوسف النجاتي/ محمد علي النجار/ عبد الفتاح إسماعيل الشلبي، بدون تاريخ.

١٤. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م

١٥. الوكيل، محمد السيد (دكتور)، نظرات في أحسن القصص، ٢٠٠٦م

١٦. زيدان، عبد الكريم (دكتور)، المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م

١٧. عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الكتب المصرية،١٣٦٤هـ

مصادر أجنبية

1. Bridge, Steven L. (2009):Bridge, Getting the Old Testament, Getting the Old Testament: What It Meant to Them, What It Means for Us.

2. Carol Bakhos(2014) The Family of Abraham: Jewish, Christian, and Muslim Interpretations

3. Caxton, William(2014) "Abraham". The Golden Legend. Internet Medieval Source Book. Retrieved.

4. Dershowitz (2015), Alan M. Abraham: The World's First (But Certainly Not Last) Jewish Lawyer (Jewish Encounters Series)

5. Donin, Hayim H. (1991) , To Be A Jew: A Guide To Jewish Observance In Contemporary Life

6. Dosick, Wayne D. (2010) , Living Judaism: The Complete Guide

to Jewish Belief, Tradition, and Practice

7. Dummies 2013 Becoming a Jew

8. Hertzberg, Arthur (1999), Jews: The Essence and Character of a People b

9. Abraham:The First Historical Biography Kindle Edition 2009 by David Rosenberg.

10. Levenson, Jon D. :(1993),The Death and Resurrection of the Beloved Son: The Transformation of Child Sacrifice in Judaism and Christianity.

11. Johnson, Ken (2010) Ancient Epistle of Barnabas: His Life and Teachings.

12. Jon Douglas (2012). Inheriting Abraham: The Legacy of the Patriarch in Judaism, Christianity, and Islam. Princeton University Press

13. Goldstein, Rabbi Yaakov (2014), Awaking like a Jew (Shulchan Aruch Admur)

14. Kaminsky, Joel S. (2007):Yet I Loved Jacob: Reclaiming the Biblical Concept of Election Kindle Edition

15. Noble, John T. (2016), A Place for Hagar's Son: Ishmael as a Case Study in the Priestly Tradition

16. Robinson, George (2001), Essential Judaism: A Complete Guide to Beliefs, Customs & Rituals,

17. Maurice Lamm,Rabbi Ted Falcon, David Blatner(1991) Judaism For Levenson,

18. Rippin, Andrew (Editor), Binyamin Abrahamov (Contributor), Christopher Buck (Contributor), Michael Carter (Contributor), Vincent Cornell (Contributor), Frederick Denny (Contributor), Francois Deroche (Contributor), Salwa El-Awa (Contributor), Reuven Firestone, (Contributor), Anna Gade (Contributor) (2006) The Blackwell Companion to the Qur'an 1st Edition.

19. St. Barnabas The Epistle Of Barnabas (2009)

20. Powers, David S. (2009) Muhammad Is Not the Father of Any of Your Men: The Making of the Last Prophet (Divinations: Rereading Late Ancient Religion) University of Pennsylvania Press

21. Marvin R. Wilson(1990), Our Father Abraham: Jewish Roots of the Christian Faith.

22. Richard Harries, Norman Solomon, Timothy Winter (2006)

23. Abraham's Children: Jews, Christians and Muslims in Conversation

24. Weinstock, Malky (2015), Steve Pileggi (Illustrator),Yael Gets a Guest

د. عبد الحميد أحمد مرشد حمود

- الجنسية: يمني.
- تاريخ الميلاد: ١٩٧٦م.
- رقم الجوال(٠٥٥٠٧٦٤٠٢٢).
- البريد الإلكتروني: (noorr2000@gmail.com)

المؤهلات العلمية:

الأستاذ المساعد بقسم العقيدة والمذاهب المعاصرة بكلية الشريعة وأصول الدين، جامعة الملك خالد.

المؤلفات:

- الإمام الهادي وآراؤه العقدية(دراسة نقدية مقارنة)، مطبوع.
- الإسماعيلية وفرقها(حقائق ووثائق) مطبوع.
- أضواء على حقيقة الفكر الحوثي(مطبوع).
- روابط الحب والوفاء بين الصحابة والقرابة(غير مطبوع).

الأبحاث المحكمة:

- عوامل التحول الزيدي في اليمن(دراسة تحليلية) بحث منشور في مجلة الدراسات العقدية بالمدينة المنورة.
- براءة الإمام زيد من عقائد الزيدية(دراسة تحليلية عقدية)، بحث منشور في كلية التربية بجامعة كفر الشيخ بمصر.
- التكفير بالتأويل بين الشيعة الزيدية وأهل السنة والجماعة(بحث منشور في مجلة جامعة الباحة).
- المشروع الرافضي في اليمن(ملامحه ومخاطره وطرق مواجهته) مقبول للنشر في (مجلة جامعة الجوف للعلوم الاجتماعية).

التكفير بين الإفراط والتفريط
ومنهج القرآن في معالجته
عرض وتحليل

إعداد

د. عبد الحميد أحمد مرشد حمود

الأستاذ المساعد بكلية الشريعة وأصول الدين بجامعة الملك خالد
قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة
١٤٣٧هـ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على من بعثه الله رحمة للعالمين، محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحابته والتابعين، وعلى من سار على نهجه واقتفى أثره إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن من أعظم ما بليت به أمتنا اليوم ظاهرة التكفير، والتي استطاع أعداء الإسلام تحويل تلك الحالة الشاذة في الأمة إلى عصا غليظة لضرب الإسلام وأهله في أصقاع المعمورة تحت مبرر (محاربة التكفير)؛ وقد اكتوى المجتمع المسلم بنار هذه الظاهرة الغريبة، ومن أبرز تبعاتها السلبية على المجتمع: ظهور ظاهرة التفريط في التكفير، وبروز سلوكيات وأفكار الإرجاء؛ تحت ذريعة الخوف من الوقوع في التكفير، الأمر الذي نتج عنه تسطيح لكثير من عظائم الأمور، وظهور ملامح الإلحاد في بلاد المسلمين.

وتحت سيف هاتين الظاهرتين اكتوت المجتمعات المسلمة بكثير من المصائب والبلايا العقدية والفكرية والسلوكية.

ونحن في هذا البحث سوف نسعى جاهدين لتشخيص مظاهر وأسباب الظاهرتين، والوقوف على أسبابهما، كما نقف على منهجية القرآن الكريم في معالجة ظاهرة التكفير بين الإفراط والتفريط.

فنسأل الله العون والسداد، والتوفيق والرشاد.

الأهمية والأهداف والأسباب لاختيار الموضوع

تكمن أهمية الموضوع في الآتي:

أولاً: تفشي ظاهرة الغلو في التكفير؛ الأمر الذي أساء إلى المسلمين عموماً.

ثانياً: بروز ظاهرة اتهام أهل السنة عموماً والمنهج السلفي على وجه الخصوص بالتكفير.

ثالثاً: ردود الفعل السلبية من هذه الظاهرة ولدت تفريطاً في التكفير.

أهداف البحث:

يهدف الباحث من خلال هذا البحث الموجز إلى :

- أولاً: التعرف على ظاهرة الإفراط في التكفير ومظاهرها ومخاطرها وأسبابها.
- ثانياً: التعرف على ظاهرة التفريط في التكفير ومظاهرها ومخاطرها وأسبابها.
- ثالثاً: التعرف على المنهج القرآني لعلاج الظاهرتين.

أسباب اختيار الموضوع:

لاختيار موضوع: (التكفير بين الإفراط والتفريط) أسباب عدة؛ لعل أبرزها:

- شيوع ظاهرتي الإفراط والتفريط في إطلاق وصف الكفر على المعين من الأشخاص والهيئات، والحكام والمحكومين على حدٍ سواء.
- سوء توظيف النصوص الشرعية في قضايا الاستدلال، وما ترتب عليها من أحكام علمية وعملية.
- المساهمة في توظيف النصوص القرآنية في علاج الظواهر السلبية، ومنها ظاهرة التكفير.

خطة البحث

تتكون خطة البحث من تمهيد، وثلاثة مباحث:

التمهيد:

ويحتوي على أهمية الموضوع، وأسباب اختياره.

المبحث الأول: الإفراط في التكفير، مظاهره وأسبابه ومخاطره، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: مظاهر الإفراط في التكفير.

المطلب الثاني: أسباب الإفراط في التكفير.

المطلب الثالث: مخاطر الإفراط في التكفير.

المبحث الثاني: التفريط في التكفير مظاهره وأسبابه ومخاطره، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: مظاهر التفريط في التكفير.

المطلب الثاني: أسباب التفريط في التكفير.

المطلب الثالث: مخاطر التفريط في التكفير.

المبحث الثالث: منهج القرآن الكريم في علاج ظاهرة التفكير، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: منهج القرآن الكريم في علاج ظاهرة الإفراط في التكفير.

المطلب الثاني: منهج القرآن الكريم في علاج ظاهرة التفريط في التكفير.

الخاتمة:

وتحتوي على:

أهم النتائج والتوصيات، وفهرس المراجع والمصادر، وفهرس الموضوعات.

المبحث الأول

الإفراط في التكفير، مظاهره وأسبابه ومخاطره

وفيه ثلاثة مطالب

- المطلب الأول: مظاهر الإفراط في التكفير.
- المطلب الثاني: أسباب الإفراط في التكفير.
- المطلب الثالث: مخاطر الإفراط في التكفير.

المطلب الأول : مظاهر الإفراط في التكفير

قبل الدخول في مظاهر الإفراط في التكفير؛ من الأهمية بمكان التوطئة بتعريف موجز لمصطلحات: التكفير، والإفراط.

تعريف التكفير:

التكفير مأخوذ من لفظة (الكفر) ،والذي يعني في اللغة: التغطية، والجحود، والستر، يقال: كَفَرَ يَكْفُرُ كُفُوراً وكُفْرَاناً (١) ، ولهذا قيل لليل: كافراً؛ لأنه ألبس كل شيء، وغطاه، وسمي لابس السلاح كافراً؛ لأن السلاح غطاه، وسمي الكافر كافراً؛ لأن الكفر غطى قلبه كله(٢).

وحقيقة الكفر في الاصطلاح: إنكار معلوم من الدين ضرورة(٣).

والتكفير تفعيل من الكفر، يقال: كفَّر فلاناً تكفيراً أي نسبه إلى الكفر(٤).

(١) انظر: تاج العروس، للزبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، ٥١/١٤.

(٢) انظر: تهذيب اللغة للأزهري، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م، ١١٢/١٠.

(٣) انظر: إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات، لابن الوزير، ٣٧٦/١.

(٤) أساس البلاغة، للزمخشري، دار الفكر، ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م، ص ٥٤٧.

فيكون التفكير: الحكم بالكفر على معَّين، فرداً أو جماعة.

وبالمقارنة بين معنى الكفر ومعنى التكفير؛ نجد أن الكفر هو: الفعل الصادر من فاعله، بينما التكفير قول يصدر من قائله، وهو حكم ذلك الفعل.

كما يلاحظ ندرة استخدام المعاجم العربية القديمة لمصطلح التكفير؛ مما يدل على أن هذا المصطلح ظهر متأخراً؛ لا سيما إذا ربطناه بدلالاته واستعمالاته المعاصرة.

تعريف الإفراط:

الإفراط: مأخوذ من فعل(فرَّط) إذا قصَّر في الشيء وضيعه(١)، يقال: أفرط إفراطاً؛ أسرف وجاوز الحد(٢)، ومنه قوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾[الزمر: ٥٦].

مظاهر الإفراط في التكفير:

للإفراط في التكفير جملة المظاهر؛ لعل من أبرزها ما يأتي:

التكفير من غير دليل أو بدليل ظني، أو في مسائل الخلاف والاجتهاد:

فقد حمل بعض أرباب التكفير نصوص الوعيد على تكفير الأعيان؛ وذلك مخالف لمنهج السلف.

لأن نصوص الوعيد التي في الكتاب والسنة لا يستلزم موجبها في حق المعين إلا إذا وجدت الشروط وانتفت الموانع(٣).

وإذا علمنا أن الإيمان والكفر محلهما القلب، ولا يطلع على ما في القلوب غير اللّه سبحانه، وليست كل القرائن الظاهرة تدل يقيناً على ما في القلب؛ فأكثر دلالتها ظنية، والإسلام نهى عن اتباع الظن في أكثر من نص في القرآن والسنة؛ ولذلك أنكر النبي صلى

---

(١) القاموس المحيط، للفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٨٧٩/١.

(٢) التعاريف، لعبد الرؤوف المناوي، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، ودار الفكر، بيروت ودمشق، ط١، ١٤١٠هـ، ص١٩٢.

(٣) المنتقى من منهاج الاعتدال، للذهبي، تحقيق: محب الدين الخطيب، بدون بيانات، ٢٩١/١.

الله عليه وسلم قتله للرجل بعد أن ألقى إليه السلام، وعليه يبنغي العلم والحالة هذه أن الكافر قد انعقد قلبه بالكفر، وشرح به صدراً، وهذا لا ينبغي أن يقوم على الظن والقرائن، وإنما على الحقيقة واليقين(١).

يقول شيخ الإسلام بن تيمية عليه رحمة الله: "ولا يجوز تكفير المسلم بذنب فعله، ولا بخطأ فيه، كالمسائل التي تنازع فيها أهل القبلة، فإن الله تعالى قال:﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[البقرة: ٢٨٥]، وقد ثبت في الصحيح أن الله تعالى أجاب هذا الدعاء وغفر للمؤمنين خطأهم"(٢).

وفي هذا الباب قد يكفر الإنسان بما يعتقد أنه كفراً وليس كذلك؛ وعليه لم يقبل أهل العلم الشهادة بالردة المجملة؛ مثل قول الشهود: كفر فلان، أو ارتدَّ، حتى يفصلوا ما سمعوه ورأوه منه؛ لاختلاف الناس في التكفير؛ فقد يعتقدون كفراً ما ليس بكفر(٣).

التكفير لمجرد المخالفة في المذهب، أو الرأي، أو المدرسة الفكرية :

وهذا من أعظم ما وقعت فيه جماعات التكفير المعاصرة، فيكفرون المخالف لمجرد أنه ليس على مذهبهم وطريقتهم في التفكير أو منهجهم في التكفير، فيستحلون دمه لمجرد المخالفة، وربما أثنوا عليهم قبل مخالفتهم لهم، وعقدوا لهم الولاء، والتأييد والنصرة.

التكفير لمجرد الولاء للحاكم الذي يعتقد الطرف الآخر أنه كافر أو ظالم؛ بغض النظر عن صحة ذلك المعتقد من عدمه:

وهو ناتج على مقدمة خاطئة يزعم أصحابها أن الحكام اليوم قد كفروا بمجرد موالاتهم

(١) شبهات التكفير، لعمر بن عبد العزيز قريشي، مكتبة التوعية الإسلامية للتحقيق والنشر والبحث العلمي، مصر، طبعة عام ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م، ص٤٤، وما بعدها بتصرف.

(٢) توحيد الألوهية، لابن تيمية، تحقيق: عبد الرحمن العاصمي النجدي، مكتبة ابن تيمية، ط٢، بدون تاريخ، ٣/٢٨٢.

(٣) تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام، لبرهان الدين أبي الوفاء بن فرحون اليعمري، تحقيق: جمال مرعشلي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، ٢/٢١١.

للكفار، ولم يفرقوا بين الموالاة للكفار في أمور دنيوية، من خلال العلاقات والمصالح المشروعة، وبين الموالاة التي تكون على سبيل الحب والتأييد لدينهم ومتابعتهم في عقائدهم.

وفي ذلك يقول الشيخ الشنقيطي: "ويفهم من ظواهر هذه الآيات أن من تولى الكفار عمداً اختياراً رغبة فيهم أنه كافر مثلهم" (١).

يقول د. عبد الله القرني: "والمهم فيما ذكره الشيخ الشنقيطي هنا أنه لم يقصد تفسير آية بعينها وإنما أراد بيان قاعدة ترجع إليها الآيات في حكم موالاة الكفار، وحاصل ما قرره هنا من اشتراط الرغبة في الكفار وفي دينهم للحكم بموالاة الكفار يقتضي أن من كانت موالاته للكفار دون ذلك، بحيث لم تكن موالاته للكفار لأجل دينهم، وإنما كانت لمجرد غرض دنيوي فإنه لا يكفر؛ لأن من يوالي الكفار لغرض دنيوي مع ثبوت أصل البراءة من الكفار عنده لا يقال إن حاله كحال من والاهم رغبة فيهم وفي دينهم، وإذا كان الحكم بالكفر بموالاة الكفار مقيداً بمن والاهم رغبة في دينهم لم يكن من والاهم لمجرد رغبة في الدنيا مع يقينه بدينه وعدم رغبته عنه كذلك" (٢).

ولعل من أبرز أسباب الإفراط في تكفير الحكام دعوى أنهم لا يحكمون بما أنزل الله، وبالتالي أدرجوهم في عموم قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤] دون تفريق بين من استحل ترك الحكم بغير ما أنزل الله وبين من تركه تأويلاً أو جهلاً أو تأويلاً (٣)، كما لم يفرقوا بين الموافقة القلبية للحاكم بغير ما أنزل الله من عدمها (٤).

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين الشنقيطي، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ. ١٩٩٥م، ٤١٣/١.

(٢) مناط الكفر بموالاة الكفار، لعبد الله بن محمد القرني، دار الدراسات العلمية للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، ط١، ١٤٢٩هـ.٢٠٠٨م، ص٢٠.

(٣) الغلو في الدين في حياة المسلمين المعاصرة (دراسة علمية حول مظاهر الغلو ومفاهيم التطرف والأصولية)، لعبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ. ١٩٩٢م، ص١٨٩.

(٤) راجع تفاصيل ذلك في: فكر التكفير قديماً وحديثاً وتبرئة أتباع مذهب السلف من الغلو والفكر والمنحرف، لعبد السلام بن سالم السحيمي، دار الإمام أحمد، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ. ٢٠٠٥م، ص٥٤، وما بعدها.

وقـد حكى ابن عباس أن ذلك كفر لا يخرج من الملة؛ حتى يجيء الحاكم بكفر لا يُختَلَفُ فيه(١).

المطلب الثاني: أسباب الإفراط بالتكفير

للإفراط في التكفير جملة من الأسباب يمكن إيجازها في الآتي:

السبب الأول: قلة العلم بالدين والفقه في أحكامه:

فالمفرطون في التكفير لا يفرقون بين من وقع في الكفر جاهلاً، وبين من حصل منه الكفر عالماً مستحلاً لذلك، كما لا يفرقون بين المُكْرَه من عدمه؛ الأمر الذي يوقعهم في التكفير بكل فعل أو قول؛ دون اعتبار لحال صاحبه، أو قناعته من عدمها.

يقـول الشيـخ ابن بـاز عليه رحمـة الله: "إن الكثير ممـن اعتنق هذا الفكـر ـ يعني فكر التكفـير ـ هـم جهلة غرر بهم؛ لقلة علمهم وبصيرتهم، فقبلوا هـذه الآراء التكفيرية من قبل فئـة اتخذوا هذا النهج لتحقيق غاياتهم المشبوهة، فجـاؤوا بهذه الأفكار؛ ليخدعوا بها قليلي العلم والفهم والبصيرة"(٢).

ومن قلة العلم بالدين والفقه في أحكامه: سوء فهم كلام الأئمة في قضايا التكفير وسوء توظيفها:

يقول شيخ الإسلام بن تيمية: "وقد نقل عن أحمد ما يدل على أنه كفر به(بخلق القرآن) قوماً معينين، فأما أن يذكر عنه في المسألة روايتان ففيه نظر، أو يحمل الأمر على التفصيل؛ فيقال: من كفر بعينه فليقام الدليل على أنه وجدت فيه شروط التكفير، وانتفت موانعه، ومن لم يكفره بعينه فلانتفاء ذلك في حقه، هذا مع إطلاق قوله بالتكفير على سبيل العموم"(٣).

---

(١) توحيد الألوهية، لابن تيمية، ٧/٢٥٤. .

(٢) منـاط الكفر بموالاة الكفـار، لعبد الله بن محمد القرني، دار الدراسات العلميـة للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، ط١، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م، ص٢٠.

(٣) مجموع الفتاوى، لابن تيمية، تحقيق: عبد الرحمن العاصمي، دار بن تيمية، ط٢، ١٢/٤٨٨.

وواضح من خلال هذا النقل الذي يتحدث عن القائلين بخلق القرآن أن كلام الأئمة ربما يحمل على محمل لا يحتمله، أو فيه لبس، أو يحتمل أكثر من معنى، أو يكون للإمام أكثر من رواية، وتكفير المعين لا بد أن يقوم على يقين لا لبس فيه ولا غموض.

السبب الثاني: عدم التفريق بين التكفير المطلق وتكفير المعين:

وهذا سببه في الغالب: التمسك بظواهر النصوص دون معرفة المعاني الدقيقة والأحكام التفصيلية، والدلالات والمقاصد.

يقول شيخ الإسلام بن تيمية: "التكفير العام كالوعيد العام، يجب القول بإطلاقه وعمومه، وأما المعينَّ أنه كافر، أو مشهود له بالنار، فهذا يقف على الدليل المعينَّ، فإن الحكم يقف على ثبوت شروطه وانتفاء موانعه"(١).

السبب الثالث: التكفير باللازم:

والمقصود بالتكفير باللازم هو: أن يكفر المخالف بلازم قول يؤدي سياقه إلى الكفر، أو هو التصريح بقول ليس كفراً، وإنما التصريح بقول يلزم عنه الكفر، رغم أن قائله لا يعتقد لزومه(٢).

ومن أشهر من عرف عنه التكفير باللازم والمآل: فرقة الخوارج، وفرقة الزيدية من الشيعة، فقد كفروا المخالفين لهم سواء من طوائف الزيدية المخالفين، أو من طوائف أهل السنة، أو الدويلات التي اختلفوا معها سياسياً، حيث تم توظيف التكفير باللازم والتكفير بالتأويل في تصفية خلافات الزيدية مع خصومها الدينيين، والسياسيين، والقبليين، نتج عنه معاملة من يسمونهم كفار التأويل معاملة الكافر الحربي، من خلال: استحلال الدماء، والأموال، والأعراض، ولم يفرقوا بين الكافر الحربي وبين من وقع فيما يرونه كفر تأويل(٣).

---

(١) فكر التكفير قديماً وحديثاً، لعبد السلام السحيمي، ص٦٢.

(٢) الموقف من المخالف بين الخوارج والشيعة الاثنى عشرية، لأحمد قوشتي عبد الرحيم، الدار العربية للطباعة والنشر، السعودية، ط١، ١٤٣٧هـ- ٢٠١م، ص٣٨.

(٣) راجع تفاصيل ذلك في: (ظاهرة التكفير بالتأويل بين الشيعة الزيدية وأهل السنة والجماعة. دراسة نقدية)، لعبد الحميد أحمد مرشد، بحث منشور في مجلة جامعة الباحة للعلوم الإنسانية، جامعة الباحة، العدد(٤)، محرم ١٤٣٧هـ- أكتوبر ٢٠١٥م.

ولجماعات التكفير والغلو المعاصرة توسع مقيت، وانحراف خطير في باب التكفير باللازم والمآل، وإنزاله على عموم المسلمين، لا سيما من خلال فهمهم الخاطئ لقاعدة:(من لم يكفر الكافر فهو كافر) (١).

السبب الرابع: قلة الورع:

وينتج عن قلة الورع في الدين نتائج صادمة؛ فالمكفِّر لا يقتحم هذا الميدان، ولا يسلك هذا المسلك الوعر إلا في حال قلة ورعه في دينه، أو غيابه أحياناً؛ لأن صاحب هذا الفكر يعرض إيمانه هو للخطر؛ لأنه بمجرد إصدار الحكم على المعين يكون قد عرَّض إيمانه للشك في صحته، ولو تورع في إصدار الأحكام التكفيرية لأراح واستراح.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك: "أيما امرئ قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما إن كان كما قال وإلا رجعت عليه" (٢).

السبب الخامس: تضخيم الخلافات في مسائل الفروع، أو بعض مسائل العقيدة من غير الأصول:

من خلال الحكم على أفعال المخالفين بأنها كفر مخرج من الملة، مع أنها في حقيقتها ليست كذلك (٣).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "ولهذا ذُمَّ أهل الاهواء والخصومات، ذُمَّ أهل الجدل في ذلك والخصومة فيه؛ لأنه شر وفساد من غير حاجة داعية إليه، لكن هذا القدر لا يمنع تفصيلها، ومعرفة دقها وجلها، والكلام في ذلك إذا كان بعلم، ولا مفسدة فيه، ولا يوجب أيضاً تكفير كل من أخطأ فيها إلا أن تقوم فيه شروط التكفير، هذا لعمرى في الاختلاف الذى هو تناقض حقيقي، فأما سائر وجوه الاختلاف كاختلاف التنوع، والاختلاف الاعتبارى واللفظى؛ فأمره قريب، وهو كثير أو غالب على الخلاف في المسائل الخبرية" (٤).

(١) الموقف من المخالف بين الخوارج والشيعة الاثنى عشرية، لأحمد قوشتي عبد الرحيم، ص ٣٩.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، باب: بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم: يا كافر، برقم(٦٠)، ١/٧٩.

(٣) الموقف من المخالف بين الخوارج والشيعة الاثنى عشرية، لأحمد قوشتي عبد الرحيم، ص٣٨.

(٤) توحيد الألوهية، لابن تيمية، تحقيق: عبد الرحمن العاصمي، مكتبة ابن تيمية، ط٢، ٦/٥٨.

ويقول الإمام الشاطبي: "إذ لا شك في أن البدع يصح أن يكون منها ما هو كفر؛ كاتخاذ الأصنام لتقربهم إلى الله زلفى، ومنها ما ليس بكفر؛ كالقول بالجهة عند جماعة، وإنكار الإجماع، وإنكار القياس، وما أشبه ذلك"(١).

السبب السادس: اختراق بعض الجماعات التكفيرية لخدمة مصالح أعداء الإسلام:

فقد وجد أعداء الإسلام في الجماعات التكفيرية أداة لتدمير الإسلام وتمزيق أهله، وتوسيع دائرة الفرقة، فوظفت القناعات الخاطئة عند بعض الجماعات، وغذت النزعة التكفيرية لديها، في صراعها مع الإسلام، أو مع بعض العاملين للإسلام من المناوئين للمشاريع الاستعمارية، واستخدمت هؤلاء سلاحاً فتاكاً في تشويش الرؤية على المسلمين وتلبيس الحق بالباطل.

ولم يَخَفْ هؤلاء الأعداء من التبعات المستقبلية لتغذية مثل هذه الجماعات؛ لأنهم يعرفون يقيناً أن هذا المنهج التكفيري يحمل في طياته بذور فنائه، وتشرذمه، وتمزقه، فعندما يشكل خطراً على مصالحهم، أو تتعارض توجهاتهم مع مصالح الأعداء يفرِّخون كيانات جديدة تؤدي الدور المطلوب ـ شعرت به أم لم تشعر ـ وهكذا يستمر الانشطار والتشظي، وهذا بدوره يوسع الهوة بين طوائف الأمة وكياناتها، ويمزقها شر ممزق، ويذهب ريحها ويجعل بأسها بينها شديداً.

السبب السابع: الكبت والظلم الذي يعيشه المسلمون في أصقاع المعمورة ولَّدَ ردة فعل غير منضبطة بضوابط الشرع:

وهذا بدوره يدفع المعتنقين لفكر التكفير إلى الدفاع عن أنفسهم بمثل تلك الفتاوى، تحت مبرر أن هذه الأنظمة، وأولئك الحكام يحاربون الدين، ويضيقون على أهله، ويخدمون مصالح الكفار، ثم يسقطون ذلك على أنفسهم، فهم الدين، وهم الشريعة، وهم الغيورون على الأمة ومصالحها، وبالتالي فأي تضييق عليهم هو محاربة للدين ورِدَّة عنه.

بل وصل الحال بهم إلى استهداف كل من له علاقة بالأنظمة الحاكمة، ولا يحتاج المكفِّر أو المفجِّر حينها إلى دليل، فيكفي بالنسبة له وجود شرطي يرتدي الزي العسكري كدليل

(١) الاعتصام، للشاطبي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، بدون بيانات، ٢/١٩٦.

لاستحلال دمه، ولا يشفع له صلاته وصيامه، أو حتى وجوده في المسجد لأداء شعيرة صلاة الجماعة، وأحياناً لا تشفع له القرابة وصلة الرحم.

وقد حصل ذلك بالفعل في مسجد منسوبي قوات الطوارئ وقت صلاة الظهر، وأسفر من مقتل خمسة عشر مصلياً من قوات الطوارئ(١).

وهذه كارثة بحد ذاتها، تنبيء عن حجم المخاطر العملية لهذه الظاهرة الفكرية الغريبة الشاذة الدخيلة على الإسلام.

السبب الثامن: التدين العاطفي، والحماس غير الواعي عند بعض الشباب المتدين:

فكثير من وقود هذه الأفكار هم من الشباب المتدين تديناً عاطفياً غير واعٍ، مصحوب بحماس صبياني غير منضبط بضوابط الشريعة الغراء، فإذا أضيف إلى هذا الحماس العاطفي الجهل بالدين، والبعد عن أهل الوسطية والاعتدال، وسوء المعالجات، وضعف الاستيعاب أنتج ذلك فكراً تكفيرياً مدمراً لصاحبه قبل الآخرين.

السبب التاسع: تصور الإيمان كتلة واحدة لا تقبل الزيادة ولا النقص:

وهي عقيدة الخوارج والمرجئة، فالخوارج وقعوا في الإفراط فغيبوا الإيمان بالكبيرة، والمرجئة وقعوا في التفريط فقالوا إن الكبيرة لا تؤثر في الإيمان ولا تنقصه ولو عملها على سبيل الاستحلال.

والإفراط في هذه المسألة جعل أصحابه لا يتصورون مؤمناً مقارفاً لذنب، أو متلبساً بكبيرة، فاتجهوا إلى التكفير، دون تصور منهم أن الإنسان قد يجتمع فيه كفر وإيمان، وشرك وتوحيد، وفجور وتقوى، ونفاق وإيمان، وهذا من أعظم الأصول التي بنى عليها أهل السنة مذهبهم في التعامل مع أصحاب الكبائر من هذه الأمة، فسلم مذهبهم من إفراط الخوارج وتفريط المرجئة(٢).

كما قرر السلف أن من كان به شعبة من الإيمان لا يسمى بها وحدها مؤمناً، ومن كان به

---

(١) جريدة الرياض، العدد(١٧٢١٢)، الأحد، ٢٤ شوال، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥/٨/٩م.

(٢) شبهات التكفير، لعمر قريشي، ص٤٧.

شعبة من شعب الكفر لا يسمى بها كافراً، وإن كان ما قام به كفراً، وذلك لا يمنع تسمية تلك الشعبة إيماناً أو كفراً(١).

فهذه الأسباب التسعة للإفراط في التكفير، وليست على سبيل الحصر؛ بل هي ما وسعنا الوقوف عليه في هذا المطلب، وتم الوقوف عندها خشية الإطالة والإسهاب.

المطلب الثالث : مخاطر الإفراط في التكفير

للإفراط في التكفير جملة من المخاطر تحدث عنها أهل العلم قديماً وحديثاً، ومنها:

يقول شيخ الإسلام الشوكاني: "اعلم أن الحكم على الرجل المسلم بخروجه من دين الإسلام، ودخوله في الكفر لا ينبغي لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقدم عليه إلا ببرهان أوضح من شمس النهار"(٢).

ومن مخاطر الإفراط في التكفير والتسرع فيه: ما يترتب عليه من أمور خطيرة من: استحلال الدماء المعصومة، وانتهاك الأعراض المصونة، وسلب الأموال الخاصة والعامة، وتفجير المساكن والمركبات، وتدمير المنشآت، ومنع التوارث، وفسخ النكاح، وغيرها مما يترتب على الردة، والتمرد على ولاة الأمر، وحمل السلاح عليهم، وإشاعة الفوضى، وسفك الدماء، وفساد العباد والبلاد(٣).

وبالمقابل فإنه من الأهمية بمكان عند الحديث عن الإفراط في التكفير القول بأن ذلك لا يعني إغلاق باب التكفير لمن كفره الله ورسوله، ودلت نصوص الشريعة على كفره أو ردته؛ ذلك أن الانحراف في التكفير لا يقابل بانحراف آخر لا يقل خطراً عنه، وهو الإرجاء(٤).

---

(١) شبهات التكفير، لعمر قريشي، ص٤٧.

(٢) السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار، لمحمد بن علي الشوكاني، تحقيق: محمود إبراهيم زايد، ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥هـ، ٥٧٨/٤.

(٣) فتاوى الأئمة في النوازل المدلهمة وتبرئة دعوة وأتباع محمد بن عبد الوهاب من تهمة التطرف والإرهاب، جمع وترتيب: محمد بن حسين بن سعيد آل سفران القحطاني، تقديم: سماحة المفتي: عبد العزيز آل الشيخ، والشيخ صالح الفوزان، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، ص١٨٩، وما بعدها.

(٤) ضوابط تكفير المعين عند شيخي الإسلام ابن تيمية وابن عبد الوهاب وعلماء الدعوة الإصلاحية، لأبي العلا راشد بن أبي العلا الراشد، قرأه وقدم له وقرظه الشيخ: صالح بن فوزان الفوزان، مكتبة الرشد، الرياض، ط٥، ١٤٣٥هـ-٢٠١٤م، ص١١.

المبحث الثاني

التفريط في التكفير مظاهره، وأسبابه، ومخاطره

وفيه ثلاثة مطالب

- المطلب الأول: مظاهر التفريط في التكفير.
- المطلب الثاني: أسباب التفريط في التكفير.
- المطلب الثالث: مخاطر التفريط في التكفير

المطلب الأول : مظاهر التفريط في التكفير

تعريف التفريط:

التفريط هو: التقصير في الأمر، وتضييعه حتى يفوت(١)، والقعود بالشيء عن رتبته التي هي له(٢).

والمقصود به: التساهل في إسقاط حكم الكفر على من يستحقه؛ لقول أو فعل أو اعتقاد يخرج من الملة.

ومن أبرز مظاهر التفريط في التكفير الآتي:

ظهور الفكر الإرجائي في عصرنا، ولو لم يأخذ طابعاً عقدياً إرجائياً كصورته الأصلية القديمة.

محاولة إلغاء حكم الكفر؛ تحت دعاوى وذرائع واهية، منها: نقد الفكر الديني، وإعادة

---

(١) تاج العروس، للزبيدي، ١٩/٥٣٣.

(٢) مقاييس اللغة، لابن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م، ٤/٤٩٠.

النظر في المسلمات العقدية، وغربلة التراث العقدي، وتنقيحه من المدخلات البشرية(١).

السعي لإلصاق وصف الإرهاب والتكفير بعلماء الإسلام، والزعم بأنهم السبب في بذر بذور الشقاق، والتباغض، والتنازع بين المسلمين؛ بدافع الهوى، والظلم، والجهل، والزعم بأن أغلب علماء العقيدة أدخلوا في العقيدة ما ليس منها(٢).

الدفاع عن رموز البدع، وتسويقهم كأعلام للحرية، والفكر، والتنوير قديماً وحديثاً.

تسطيح الخلاف الديني العقدي بين المسلمين وغير المسلمين، وبين أهل السنة ومخالفيهم من فرق أهل القبلة التي انحرفت في كثير من مساراتها العقدية.

وذلك بالسعي للتسوية بين أصول الدين وفروعه، وأصول العقائد وفروعها؛ تحت ذريعة أن ذلك التصنيف استخدمه أهل السنة ضد خصومهم، وأنه دخيل عليهم من الأمم الداخلة في الإسلام بثقافاتها وخلافاتها التي أصبحت فيما بعد عقائد ثابتة لا تجوز مخالفتها(٣).

التبرير لحرية الردة عن الإسلام في بلاد المسلمين، وظهور الإلحاد علناً تحت غطاء الحرية.

هذه الأسباب وغيرها ساهمت في شيوع ظاهرة التفريط في التكفير والترويج للردة، والسخرية بأحكام الشريعة، والتطاول على ثوابت الأمة ومقدساتها، والتهاون بالكبائر والمحرمات، والترويج لمختلف الفواحش ومظاهر الفجور والسفور.

المطلب الثاني : أسباب التفريط في التكفير

للتفريط في التكفير جملة من الأسباب من أبرزها :

ردة فعل مضادة لظاهرة الإفراط في التكفير.

الحملة الإعلامية على العلماء والدعاة عموماً، وعلى منهج أهل السنة على وجه التحديد.

---

(١) الليبراليون الجدد (الواقع المحلي) المحور الأول: الانحرافات العقدية عرض ونقد، لخليفة بن بطاح الخزي، ١٤٣٣هـ، بدون بيانات، ص ١٦٠ .

(٢) المرجع السابق، ص ٤٣ .

(٣) المرجع السابق، ص ٨٥ .

ووصفهم بأنهم هم من وضع العقائد وفقاً لأمزجتهم وتماشياً مع الوضع السياسي والاجتماعي في عصرهم، وهذا بدوره يضعف القيمة المعنوية للدين، وأمور الشريعة، وهو الأمر الذي أراده الطاعنون، وأعلنوا عنه، وصرحوا بأن الجهل بالعقيدة لا يضر، وزعموا أن الإنسان باستطاعته أن يكون مؤمناً كامل الإيمان، ولو لم يعلم شيئاً من العقيدة(١).

اتفاق مصالح أعداء الإسلام من الداخل والخارج على تشجيع التفريط في التكفير.

الهوى عند دعاة التفريط للتكفير؛ لمعارضة الشريعة لأهوائهم وأمزجتهم، وشهواتهم، التي غالباً ما تلبس بلباس فكري تحضري، وهي في الحقيقة معركة خفية بين الشريعة وبين أهوائهم ومصالحهم.

المطلب الثالث : مخاطر التفريط في التكفير

للتفريط في التكفير جملة من المخاطر، من أبرزها الآتي:

تعطيل الأحكام الشرعية:

وذلك تحت مبررات وذرائع واهية؛ يسوقونها من خلال نظرتهم للعقائد الإسلامية، وتهوينهم من شأنها، والسعي لحصرها في أضيق نطاق، وتسويق العقيدة الإسلامية كنتاج طبيعي للصراع السياسي والاجتماعي، بغية سلب العقيدة لمصدرها الرباني، وتصنيفها في عداد الانتاج البشري المحض الذي أفرزه الصراع السياسي(٢).

الإرهاب الفكري الممارس ضد علماء الشريعة.

الترويج للكفر، وإتاحة الفرصة للكفريات والشركيات أن تنتشر دون مدافعة.

ظهور الفكر الإرجائي وشيوعه في أوساط الأمة.

(١) الليبراليون الجدد، لخليفة الخزي، ص ٧١.

(٢) الليبراليون الجدد(الواقع المحلي)، لخليفة بن بطاح الخزي، ص ٢٩، ٤٠، وما بعدهما، بتصرف يسير.

المبحث الثالث

منهج القرآن الكريم في علاج ظاهرة التكفير

وفيه مطلبان

المطلب الأول: منهج القرآن الكريم في علاج ظاهرة الإفراط في التكفير.

المطلب الثاني: منهج القرآن الكريم في علاج ظاهرة التفريط في التكفير.

المطلب الأول : منهج القرآن الكريم في علاج ظاهرة الإفراط في التكفير

المتتبع لنصوص القرآن الكريم التي وردت في سياق التحذير من التكفير، وإخراج المسلم من الملة من غير وجه حق يجدها كثيرة، ومتنوعة في طريقة المعالجة.

ويمكننا إيجاز منهج القرآن الكريم في علاج ظاهرة الإفراط في التكفير في الآتي:

أولاً: تنوع المنهج القرآني في العلاج باختلاف الزمان والمكان وحجم الظاهرة:

وهذا يظهر جلياً في تأمل القرآن الكريم بشقيه: المكي والمدني سلك منهجية قويمة في علاج ظاهرة الإفراط في التكفير؛ والمتأمل لنصوص المرحلة المكية يجد التركيز المباشر على قضيتي الكفر والإيمان، والشرك والتوحيد من حيث الجملة، كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾[الكافرون: ١-٦]، بينما ركز القرآن الكريم في المرحلة المدنية على وصف الظواهر الكفرية؛ سواء كانت قلبية، أو سلوكية، أو قولية؛ والسبب في ذلك هو ظهور شرائح من الكفار مختلفة تصدر منها تلك الظواهر، والمسلمون يعيشون في تلك البيئة، فيحتاجون إلى منهجية واضحة في التعامل مع تلك الظواهر ومع أصحابها بما يتناسب مع كل فصيل، فهناك المنافقون نفاقاً اعتقادياً، وهناك اليهود، ومشركوا العرب.

ثانياً: إثبات أصل الإيمان لمن ظهرت منه شعائر الإسلام فلا نخرجه منه إلا بيقين:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.[النساء:٩٤].

فقد جاء في تفسير هذه الآية أن أناساً من المسلمين لحقوا رجلاً في غنيمة له، فقال: السلام عليكم، فقتلوه، وأخذوا تلك الغنيمة، فنزلت هذه الآية، وقيل: إنها نزلت في رجل من بني سليم مرَّ على نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في غنم له، فسلم عليهم، فقالوا: ما سلَّم عليكم إلا ليتعوذ منكم، فعمدوا إليه، فقتلوه، وأخذوا غنمه، فأتوا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله عز وجل الآية، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم لأهله بديته، وردَّ عليهم ماله، ونهى المؤمنين عن ذلك(١).

والملاحظ أن الآية لم تركز على شخص القاتل، ولا على شخص المقتول، بقدر ما ركزت على ترسيخ مبدأ ثبوت أصل الإيمان بمجرد النطق بالشهادتين دون تكليف للمؤمنين بالبحث عن بواعث ذلك الإيمان ومدى صدقه من عدمه؛ فإن هذا التحقق غير مراد للشريعة، وقد ناطت صفة الإسلام بقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، أو بتحية الإسلام وهي السلام عليكم.(٢).

وقد حكى الرازي الإجماع على سبب النزول، وبنى على ذلك حكماً هو: عدم جواز قتل من أظهر الإيمان(٣).

وعليه فإن وصف الإسلام يثبت للمعين بمجرد الإقرار سواء بالنطق بالشهادتين، أو بما يقوم مقامها، ويكفي في الإقرار أدنى ما يدل عليه(٤)، ولا يجوز الحكم بالكفر بمجرد

(١) تفسير الطبري، لمحمد بن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ، ٥/٢٢٣.
(٢) التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر بن عاشور، مؤسسة التاريخ العربي، بيرت، ط١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، ٤/٢٢٥.
(٣) التفسير الكبير، للرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م، ١٠/١٩٠.
(٤) ضوابط التكفير عند أهل السنة والجماعة، لعبد الله بن محمد القرني، ص٨٤.

القرائن؛ لأنها لا تفيد اليقين(١).

ثالثاً: حذر القرآن الكريم من قتل المؤمن عمداً؛ استحلالاً لدمه، ورتب عليه الوعيد الشديد:

فقال سبحانه ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾.[النساء: ٩٣].

رابعاً: وصف القرآن الكريم للمتقاتلين من أهل القبلة بالمؤمنين:

فرغم قتال بعضهم بعضاً، وارتكابهم لكبيرة من الكبائر، فقد أثبت لهم أصل الإيمان، وآصرة الأخوة.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[الحجرات: ٩ـ ١٠].

خامساً: حرم القرآن الكريم القول على الله بغير علم:

ومن أعظم صور القول على الله بغير علم: التكفير بغير يقين، ولا أهلية، والغلو في إسقاط أحكامه على المعينين.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾[الإسراء: ٣٦].

سادساً: التركيز على توصيف الكفر دون إسقاط الأحكام على المعين:

ومن ذلك قوله تعالى في حق القائلين بالتثليث، قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾[المائدة: ١٧].

(١) تكفير أهل الشهادتين: موانعه ومناطاته (دراسة تأصيلية)، للشريف حاتم بن عارف العوني، مركز نماء للبحوث والدراسات، الدار العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط٢، ٢٠١٦م، ص ١٢.

فرغم أن القائلين بالتثليث معروفون؛ إلا أن النص القرآني ركز على القول دون ذكر قائله؛ ليبين لنا أن مشكلتنا مع الكفار ليست تكمن في أشخاصهم أو هيئاتهم، أو أعراقهم؛ بقدر ما تكمن المشكلة مع الفعل أو القول الكفري الصادر عنهم، وهذا هو المنهج الذي ينبغي أن يسلكه المسلمون في التعامل مع الظواهر الكفرية سواء كانت قولية أو فعلية؛ حتى لا يتحول الصراع بيننا وبين الكفر إلى صراع شخصي خالٍ من مضامينه العقدية.

المطلب الثاني : منهج القرآن الكريم في علاج ظاهرة التفريط في التكفير

كما أن القرآن الكريم كان واضحاً في منهجه القويم في علاج ظاهرة الإفراط في التكفير والغلو فيه؛ فإنه كان واضحاً كذلك في منهجيته في علاج ظاهرة التفريط في التكفير؛ فكلاهما صورتان متضادتان للغلو في الدين، والتطرف في إسقاط الأحكام.

إن التفريط في التكفير لا يقل خطورة عن الإفراط فيه؛ لما له من الآثار السلبية المترتبة عليه كما أسلفنا سابقاً؛ ولأجل ذلك فإن القرآن الكريم قد عالج هذه الظاهرة بأكثر من صورة، ويمكن تلخيص ملامح المنهج القرآني في علاجها في الآتي:

أولاً: بين القرآن الكريم أن الكفر أعظم ذنب، وأنه الذنب الذي لا يغفر:

قال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان: ١٣].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾[النساء: ٤٨].

وقال أيضاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾[النساء: ١١٦].

ثانياً: نهى القرآن عن الوقوع في الكفر، وحذر منه أيما تحذير:

وقد جاء ذلك في أكثر من موطن، منها:

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا

حَمِيدًا﴾[النساء: ١٣١].

وقال تعالى:﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[النساء: ١٧٠].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[إبراهيم: ٨].

وقال تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[الزمر: ٧].

ثالثاً: أوضح المنهج القرآني بعض صور الكفر؛ محذراً منها، ومبيناً عقوبتها حتى لا يقع فيها المؤمن:

ومنها: قتل الأنبياء والدعاة:

قال تعالى:﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾[آل عمران: ٢١ـ٢٢].

ومنها أيضاً: التكذيب بالله وبالرسل، والتفريق في الإيمان بين الله وبين رسله، أو بين رسله، والإيمان ببعض الدين والكفر ببعضه:

قال تعالى:﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾[النساء: ١٥٠ـ ١٥١].

ومنها أيضاً: الاستهزاء بالدين والسخرية من عقائده وشعائره وأحكامه:

قال تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا

أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾[الأنعام: ٧٠].

ومنها: استحلال الحكم بغير ما أنزل الله من غير جهل ولا تأوُّل ولا إكراه:

قال تعالى:﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المائدة: ٤٤].

يقول شيخ الإسلام بن تيمية: "ولا ريب أن من لم يعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله على رسوله فهو كافر فمن استحل أن يحكم بين الناس بما يراه هو عدلا من غير اتباع لما أنزل الله فهو كافر" (١).

ويقول ابن كثير عليه رحمة الله: "فمن ترك الشرع المحكم المنزل المنزل على محمد بن عبد الله خاتم الانبياء وتحاك إلى غيره من الشرائع المنسوخة كفر" (٢).

ومنها: افتراء الكذب على الله:

﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾[يونس: ٦٩- ٧٠].

ومن صور الافتراء على الله الكذب: الزعم أن الله حرم شيئاً لم يحرمه الله، أو يدعي لله الصاحبة والولد، والشركاء(٣).

ومنها تعلم السحر وتعليمه:

قال تعالى:﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ

(١) منهاج السنة، لأحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة، ط١، ١٤٠٦هـ، ١٣٠/٥.

(٢) البداية والنهاية، لابن كثير، مكتبة المعارف، بيروت، ١١٩/١٣.

(٣) أضواء البيان، للشينقيطي، ٤٦٣/٢.

حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ١٠٢].

فتعلم السحر وتعليمه كفر على الإطلاق(١)، وإن فصَّل بعض أهل العلم في بعض صوره، فقرروا إنه لو كان السحر مما يعظم فيه غير الله كالكواكب والجن وغير ذلك مما يؤدي إلى الكفر فهو كفر بلا نزاع، ومن هذا النوع سحر هاروت وماروت المذكور في سورة البقرة، وإن كان السحر لا يقتضي الكفر؛ كالاستعانة بخواص بعض الأشياء من دهانات وغيرها فهو حرام حرمة شديدة، ولكنه لا يبلغ بصاحبه الكفر(٢).

وهذا التفصيل الدقيق في هذه المسألة وفي غيرها من مثيلاتها وشبيهاتها يحتاجه أرباب العلم وصناع الفتوى؛ حتى لا يقعوا في فتنة التكفير، كما يحتاجه أهل الفكر والرأي وغيرهم حتى لا يقعوا في فتنة الإرجاء.

والمتأمل في المنهج القرآني لعلاج ظاهرة التفريط في التكفير يستخلص الملامح الآتية:

التنوع في سرد صور الكفر ومظاهره.

التركيز على الأفعال أكثر من التركيز على فاعليها.

وضع القواعد العامة والخطوط العريضة دون الخوض في التفاصيل الجزئية والفرعيات والاحتمالات.

استخدام منهج الترهيب من الكفر وصوره والوعيد عليه.

ربط الجزاء على تلك الصور بالآخرة في الغالب.

---

(١) التفسير الكبير، للرازي، ١٩٥/٣.

(٢) أضواء البيان، للشنقيطي، ٥٠/٤.

الخاتمة

وتحتوي على أهم النتائج والتوصيات، وفهرس المراجع والمصادر، وفهرس الموضوعات.

أولاً: أهم النتائج:

خرج الباحث في ختام هذا البحث إلى جملة من النتائج أبرزها:

تكتوي الأمة عبر التاريخ بنار التكفير بسبب الخروج على المنهج القرآني في التعامل مع مظاهر الكفر وصوره.

وظف أعداء الإسلام الظاهرتين في خدمة مصالحهم الاستعمارية، وفي حربهم على الإسلام وأهله، من خلال توظيفهم لكلا الظاهرتين.

أن التفريط في التكفير لا يقل خطراً عن الإفراط فيه، فكلاهما خروج على منهج الإسلام الوسطي.

لا يجوز بحال من الأحوال استخدام سلاح التكفير ضد المخالفين في المذهب، أو الجماعة، كما لا يجوز توظيف التكفير في تصفية الحسابات السياسية بين الراعي والرعية.

ثانياً: التوصيات:

خرج الباحث بتوصية عملية واحدة من هذا البحث وهي:

أن إسقاط الحكم بالكفر على معين في عصرنا الحاضر يحتاج إلى فتاوى مجامعية تستوفي شروطه، وتتحقق من انتفاء موانعه، وتقيم الحجة على فاعله، ولا يجوز بحال إسقاط أحكام الكفر على معين إلا عبر فتاوى المجامع الفقهية العالمية المعتبرة.

فهرس المراجع والمصادر

١. أساس البلاغة، للزمخشري، دار الفكر، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

٢. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين الشنقيطي، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م .

٣. الاعتصام، للشاطبي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، بدون بيانات.

٤. إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات، لابن الوزير.

٥. البداية والنهاية، لابن كثير، مكتبة المعارف، بيروت

٦. تاج العروس، للزبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.

٧. تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام، لبرهان الدين أبي الوفاء بن فرحون اليعمري، تحقيق: جمال مرعشلي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

٨. التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر بن عاشور، مؤسسة التاريخ العربي، بيرت، ط١، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.

٩. التعاريف، لعبد الرؤوف المناوي، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، ودار الفكر، بيروت ودمشق، ط١، ١٤١٠هـ.

١٠. تفسير الطبري، لمحمد بن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ.

١١. التفسير الكبير، للرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

١٢. تكفير أهل الشهادتين: موانعه ومناطاته (دراسة تأصيلية)، للشريف حاتم بن عارف العوني، مركز نماء للبحوث والدراسات، الدار العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط٢، ٢٠١٦م

١٣. تهذيب اللغة للأزهري، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

١٤. توحيد الألوهية، لابن تيمية، تحقيق: عبد الرحمن العاصمي النجدي، مكتبة ابن تيمية، ط٢، بدون تاريخ.

١٥. جريدة الرياض، العدد(١٧٢١٢)، الأحد، ٢٤ شوال، ١٤٣٦هـ- ٢٠١٥/٨/٩م.

١٦. السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار، لمحمد بن علي الشوكاني، تحقيق: محمود إبراهيم زايد، ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥هـ.

١٧. شبهات التكفير، لعمر بن عبد العزيز قريشي، مكتبة التوعية الإسلامية للتحقيق والنشر والبحث العلمي، مصر، طبعة عام ١٤٣٣هـ- ٢٠١٢م.

١٨. صحيح مسلم، لمسلم بن الحجاج النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٩. ضوابط تكفير المعين عند شيخي الإسلام ابن تيمية وابن عبد الوهاب وعلماء الدعوة الإصلاحية، لأبي العلا راشد بن أبي العلا الراشد، قرأه وقدم له وقرظه الشيخ: صالح بن فوزان الفوزان، مكتبة الرشد، الرياض، ط٥، ١٤٣٥هـ- ٢٠١٤م.

٢٠. ظاهرة التكفير بالتأويل بين الشيعة الزيدية وأهل السنة والجماعة. دراسة نقدية، لعبد الحميد أحمد مرشد، بحث منشور في مجلة جامعة الباحة للعلوم الإنسانية، جامعة الباحة، العدد(٤)، محرم ١٤٣٧هـ- أكتوبر ٢٠١٥م.

٢١. الغلو في الدين في حياة المسلمين المعاصرة(دراسة علمية حول مظاهر الغلو ومفاهيم التطرف والأصولية)، لعبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م.

٢٢. فتاوى الأئمة في النوازل المدلهمة وتبرئة دعوة وأتباع محمد بن عبد الوهاب من تهمة التطرف والإرهاب، جمع وترتيب: محمد بن حسين بن سعيد آل سفران القحطاني، تقديم: سماحة المفتي: عبد العزيز آل الشيخ، والشيخ صالح الفوزان، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣.

٢٣. القاموس المحيط، للفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٢٤. القرآن الكريم.

٢٥. الليبراليون الجدد (الواقع المحلي) المحور الأول: الانحرافات العقدية عرض ونقد، لخليفة بن بطاح الخزي، ١٤٣٣هـ، بدون بيانات.

٢٦. مجموع الفتاوى، لابن تيمية، تحقيق: عبد الرحمن العاصمي، مكتبة ابن تيمية، ط٢.

٢٧. مفكر التكفير قديماً وحديثاً وتبرئة أتباع مذهب السلف من الغلو والفكر والمنحرف، لعبد السلام بن سالم السحيمي، دار الإمام أحمد، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

٢٨. مقاييس اللغة، لابن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

٢٩. مناط الكفر بموالاة الكفار، لعبد الله بن محمد القرني، دار الدراسات العلمية للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، ط١، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

٣٠. المنتقى من منهاج الاعتدال، للذهبي، تحقيق: محب الدين الخطيب، بدون بيانات.

٣١. منهاج السنة، لأحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة، ط١، ١٤٠٦هـ

٣٢. الموقف من المخالف بين الخوارج والشيعة الاثنى عشرية، لأحمد قوشتي عبد الرحيم، الدار العربية للطباعة والنشر، السعودية، ط١، ١٤٣٧هـ-٢٠١م.

٣٣. نواقض الإيمان الاعتقادية وضوابط التكفير عند السلف، لمحمد بن عبد الله الوهيبي، بدون بيانات.

د. محمّد الأمين محمّد سيلا

محاضر بكلية الدراسات الإسلاميّة
بجامعة الأمير سونكلا، في جنوب مملكة تايلاند
الجوال: ٠٠٦٦٩٨٣٢٣٢١٨٠

المؤهلات العلميّة وتاريخها:

درجة الدكتوراه بقسم الفقه وأصوله، بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا ٢٠١٤م

درجة الماجستير بقسم الفقه وأصوله، بالجامعة الإسلاميّة العالميّة بماليزيا ٢٠١١م

الشهادة الجامعيّة بكلية الشّريعة، بالجامعة الإسلاميّة بالمدينة المنوّرة ٢٠٠٧م

خبرة العمل:

العمل مع إدارة المسجد النبوي، كمترجم اللغة الفرنسية وأنكو ٢٠٠٥م.

معيد بالجامعة الإسلاميّة العالمية بماليزيا، تحت قسم النشاطات، ٢٠٠٨- ٢٠١٢م.

النتاج العلميّ:

عدد البحوث المنشورة: ثمانية، في: الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، وسلطنة عُمان، والهند، ومملكة تايلاند، وجامعة قطر بدولة قطر، وجامعة الملك سعود بالرياض. وعدد المؤتمرات ورشة العمل التي قدمت فيها أوراق بحثية، أو المشاركة بدون ورقة أكثر من عشرين بحثاً. ٢٠٠٧-٢٠١٦م.

شهادة النشاطات العلميّة:

مشارك في الدروة التدريبيّة لمعلمي اللغة العربية والثقافة الإسلاميّة، المنظمة من الجامعة الإسلاميّة بالمدينة المنوّرة، المقيمة في غينيا كوناكري ١٤٢٠هـ.ومشارك في الدروة الشرعيّة المنظمة من مؤسسة الحرمين الخيريّة، في غينيا ١٤٢٢هـ. ومشارك في جمعيّة الفرائض، بالجامعة الإسلاميّة بالمدينة المنوّرة ١٤٢٧هـ. ومشارك في الدروس العلميّة الصيفيّة السّابعة بجامع الراجحي بشبرا، بالرياض، تحت رعاية الشّيخ عبد الله بن عبد

الرحمن الجبرين رحمه الله تعالى عام ١٤٢٨هـ. وأخذتُ المركز السّادس في مسابقة حفظ الحديث الشريف، بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنوّرة ١٤١٨هـ. وأخذت المركز الأوّل في مسابقة حفظ المتون، بالجامعة الإسلاميّة بالمدينة المنوّرة ١٤٢٨هـ. وأخذت المركز الأوّل في مسابقة كتابة المقالات العربية بالجامعة الإسلاميّة العالميّة بماليزيا، ٢٠٠٩م.

للتواصل الاجتماعي:

البريد الإلكتروني: sylla_mohamed13@yahoo.com

مصطلح "الكفر" في الخطاب القرآني وإشكاليّة المفهوم المعاصر

إعداد:

د. محمّد الأمين محمّد سيـلا*[1]

عضو هيئة التّدريس بكليّة الدّراسات الإسلاميّة
بجامعة الأميرسونكلا، (فرع فطاني).
مملكة تايلاند

(١) * الدرجة الجامعيّة (B.A) من الجامعة الإسلاميّة بالمدينة النّبويّة، بكلية الشّريعة.
ودرجة الماجستير (M.A) والدكتوراه (PhD) من الجامعة الإسلاميّة العالميّة بماليزيا، بقسم الفقه وأصوله.
للتواصل: sylla__mohamed١٣@yahoo.com

المقدّمة

الحمد لله الذّي خلق الإنسان لعبادته وحده وحرَّم عليهم أن يشركوا به شيئاً لا ملكًا مقرَّباً ولا نبيًّا مرسلاً، ولقد شهد الله سبحانه وتعالى بوحدانيَّته في كتابه العزيز، وثَنَّى بهذه الشّهادة الملائكةَ الكرام، وثلَّثَ بها أهل العلم الرّبانيين الرَّاسخين، بقوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُو الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران:١٨) ، وله الحمد والثّناء أن اختار جنس الإنسان وجعله من أفضل مخلوقاته على وجه الأرض، ثم اصطفى المؤمنين به سبحانه وتعالى وجعلهم من خيرة النّاس في أرجاء الأرض وأفضلهم على الإطلاق. والغرض من وجود الإنسان على وجه الأرض هو عبادة الله تعالى لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، (الذاريات:٥٦)، فوحدانيّة الله تعالى في العبادات غرض أساسيّ لخلق الإنسان، وكل ما يؤدّي إلى عدم تحقيق هذا الهدف السّامي فهو مردود وخارج عن مقصود الله تعالى في مخلوقاته. ثم الصّلاة والسّلام على خيرٌ من عبّدَ ربّه وخيرٌ مَنْ أَخْلصَ العبادات لربّه وخيرٌ مَنْ صلَّى لربّه وخيرٌ مَنْ عرفَ هدفَ خلقه، محمّد بن عبد الله القرشي الهاشمي وعلى آله وصحبه وكل مَن سار على نهجه ﷺ إلى يوم التّغابن والجزاء، والقائل ﷺ: "العهد الذى بيننا وبينهم الصّلاة فمن تركها فقد كفر[١]".

أما بعد:

فالقرآن الكريم مليء بمصطلحات شتى ومتنوّعة يحتاج لها المرء إلى تأمّل وتدبّر في حكمة اختيار الله تعالى لهذه المصطلحات القرآنيّة في كتابه العزيز، فإنّه سبحانه وتعالى قد استخدم مصطلح "الكفر" في كتابه المجيد في أماكن شتى وفي حالات متباينة، ولكل موقف مراد خاص ومعنى معين؛ لكن أكثر التّالين لكتاب الله قد لا يتدبَّرونه أو لا يقفون عنده لإمعان النّظر في استعمالات القرآن لهذه المصطلحات وتكرارها في الآيات المختلفة،

---

(١) جلال الدين السيوط، جامع الأحاديث، ج١٤، ص٣٧٦؛ بن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه، ج٣، ص٣٧٨؛ محمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي، ج٩، ص٢٠٧؛ أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي، السنن الكبري، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط٣، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م)، ج٣، ص٥١١.

وفي هـذا البحث المتواضع سيتم تناول مفهـوم مصطلح "الكفر" في القرآن العظيم، مع بيان أنواع أو أقسام الكفر من خلال تلك الآيات القرآنيّة. وقد انتهج الباحث في المنهج الاستقرائي والتّحليلـي لغرض الخـروج بنتيجة مرجوّة مـن البحث، ولتوضيح فكـرة "الكفر" في القرآن الكريم. وهدف الباحث في البحث إبراز شيء من معالم وجماليات القرآن الكريم؛ لأنَّه معجزٌ ومتعبـدٌ بتلاوته، وأنّه لا يَعني اتحـاد مصطلح واحد في المعنى في كتابه العزيز اتحاده من كل وجه، بل وقد يُرادُ بمصطلح معناً معيناً في مكان ما، ويراد به معناً متبايناً في موضع آخر، مع أن المصطلح نفسه، وألّا يُفسر القرآن الكريم بمجرد معرفة اللغة العربيّة، وإنما يحتاج الأمر إلى الرّجوع إلى الكتب المعتمدة في ذلك. وفي المحورين الآتين يتم تناول جزئيات البحث:

المحور الأوّل: التّعريف بمصطلحات البحث

المحور الثّاني: بيان أنواع مصطلح "الكفر" في القرآن الكريم

المحور الأوّل: التّعريف بمصطلحات البحث

في هـذا المحور، يتـم تناول تعريف مصطلـح "الكفر" من حيث اللغـة والاصطلاح؛ لأن الحكـم علـى الشيء فـرعٌ عن تصـوّره، فمنَ العسير جـداً أن تدلو بدلوك في شــيء لا تعرف حقيقتـه، فلذلك قُـررَ في منهج البحـث العلمي التّعريف بمفـردات البحث، قبـل التّغلغل في تفصيل حيثيات البحث.

أولاً- تعريف مصطلح الكفر لغةً:

الكفـر مصدر، وفِعْلـه "كَفَرَ" شيئاً إذا غطـه وستره ولم يُبيّن حقيقتـه وقدره. وفي هذا الصّـدد يؤيـد ابن فارس اللغوي رحمه الله تعالى هـذا المعنى بقوله: "الـكاف والفاء والراء أصـل صحيـح يدل على معنى واحد، وهـو السّتر والتّغطية. ويقال لمن غطـى درعه بثوب: قد كفـر درعـه(١)". وقد أيّد ودعَّم القرآن الكريم هذا المعنى اللغـوي بقول الله تعالى: ﴿...كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا...﴾ (الحديد: ٢٠). وعلى هـذا المعنـى يَصح أن يسمي الفلاح أو الزارع بكافر؛ لأن الزارع يستر الحب أو الحبوب تحت الثرى؛ ولهذا أيضاً تسمى عجلة السيارة أو الدراجة النّارية بالكفرة.

ويُستنبـط من هذا المعنى اللغـوي: أن الله تعالى قد سمى الكافر كافـراً؛ لأنَّه لم يشكره تعـالى علـى ما أنعمه عليه من النعـم الظاهرة والباطنة. ومن القيام بشكـر نِعم الله تعالى، الطاعـة لله تعالى، والانقياد له، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، فإذا لم يقم الإنسان بهذه المهمـات الواجبـة عليه لقد كفـر ربّه سبحانه وتعـالى، ويُفهم من هذا المعنــى أن من حافظ علـى الصلوات الخمس، والصيام الواجـب، والزكاة المفروضة، وأداء الحج مع التزام بسائر الشّعائر الإسلاميّة، فقد آمن بربّه وأدّى شيئاً من شكر نعمته سبحانه وتعالى عليه.

وفي هـذا المعنــى اللغوي يقول ابن الأثير رحمه الله مؤيـداً: "وأصل الكفر: تغطية الشّيء

(١) أبـو الحسـين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (بيروت: دار الفكر، د. ط، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م)، ج٥، ص١٩١.

تغطيــة تستهلكه[١]". وكل هذه النّصوص اللغويّة تؤيّد بـأن الكفر يطلق في اللغة العربيّة ويراد بـه التغطيــة والسّتر. فلأجل هذا المعنى اللغوي-التغطية والسـتر- تطلق كلمة الكفر في اللغة العربيّـة على: الليل لأن الليل يغطى كل شيءٍ بظلمتـه[٢]، وعلى هذا كل من ستر شيئاً أو غطاه يقال له كافر من حيث اللغة العربيّة.

تنبيـه: تَناولُ مثل هذا اللفظ العربي ينبغي أن يكون بـين أهل العلم والمثقفين، وإلا لأدّى الأمـر إلى ضـده، أو إلى مفهـوم ظاهر لـدى المجتمـع؛ لأن لفظ الكافـر في استعمال العرف المعاصر هو ذلك الشخص غير مسلم، أو مسلمة.

ثانياً- تعريف مصطلح الكفر اصطلاحاً:

لقـد عرّف العلمـاء الجهابذة رحمهم اللّه تعـالى "الكفر" بتعريفات عديـدة وبعبارات مختلفة، ومنها ما يأتي:

الأوّل-تعريـف الكفـر عند الإمام ابن حزم رحمه اللّه تعـالى: "اسم الكفر في الشّريعة: جحـد الربوبيّـة وجحد نبوة نبي من الأنبياء صحت نبوته في القـرآن، أو جحد شيء مما أتى بـه رسول اللّه ﷺ ممـا صح عند جاحده بنقل الكافة أو عمل شـيء قام البرهان بأن العمل به كفر[٣]".

علـى ضوء تعريـف الإمام ابن حزم رحمـة اللّه عليه، أن من أنكر شيئـاً من ربوبية اللّه سبحانـه وتعالى-أنكر أن اللّه هـو رب الخلائق-، أو أنكر نبوة نبيٍ من أنبياء اللّه تعالى، وقد صـرّح اللّه في القـرآن الكريم بثبـوت تلك النبوّة، أو أنكر أيَّ شيءٍ ممّـا جاء به رسولُنا ﷺ، أو أنكـرَ شيئـاً ممّا ثبت أن النبي ﷺ عمل به أو نقل عنـه ﷺ بنقل ثابتٍ صحيحٍ، فهو كافر بـاللّه تعالى. وفي هذا ردٌّ مفحمٌ على الذين يزعمون أنهـم يؤمنون بالقرآنٍ فقط بدونٍ السّنة

(١) أبـو السعـادات المبارك بـن محمد الجزري، النهاية في غريـب الحديث والأثر، تحقيق: طاهـر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي، (بيروت: المكتبة العلمية، د. ط، ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩م)، ج٤، ص٣٤٠.

(٢) علـي بـن أحمد بـن سعيد بن حزم الظاهـري أبو محمد، الفصل في الملـل والأهواء والنحـل، (القاهرة: مكتبة الخانجي، د. ط، د. ت)، ج٣، ص١١٨.

(٣) ينظر: المصدر نفسه.

المحمّديّة، يقال عليهم: "القرآنيون"، أو الذين يفرقون بين أنبياء الله سبحانه وتعالى.

الثاني-تعريف الكفر عند الإمام القرافي المالكي رحمه الله تعالى: "أصل الكفر إنّما هو: انتهاك خاص لحرمة الربوبيّة إمّا بالجهل بوجود الصانع أو صفاته تعالى، وإمّا بالجرأة على الله تعالى كرمي المصحف في القاذورات أو السّجود للصنم أو التردد للكنائس في أعيادهم بزي النّصارى، ومباشرة أحوالهم أو جحد ما أجمع عليه وعُلم منَ الدِّين بالضرورة[1]".

يُفهم من نص الإمام القرافي المالكي رحمه الله تعالى، أن من انتهك شيئاً من ربوبيّة الله تعالى حتى بجهل منه، أو رفض كتابه العزيز، أو انقاد لغير الله تعالى، أو أنكر أيّ شيئاً ممّا عُرف في الدين بالضرورة فقد كفر بالله تعالى. وعلى هذا لا ينحصر الكفر في جحود الله تعالى، وإنما يدخل في لفظ "الكفر" احتراق القرآن الكريم، أو إهانته أو عبادة غير الله سبحانه وتعالى.

الثالث-تعريف الكفر عند الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: "الكفر جحد ما علم أن الرسول ﷺ جاء به، سواء كان من المسائل التي يسمونها علميّة أو عمليّة، فمن جحد ما جاء به الرسول ﷺ بعد معرفتة بأنّه جاء به كافر في دق الدين وجله[2]".

ركَّزَ تعريف الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى على جحود ما أتى به نبيُّنا ورسولنا محمّد ﷺ من المسائل العمليّة والعلميّة، فهو كافر جملةً وتفصيلاً. ولعل علة التركيز على جحود نبوة محمد ﷺ؛ لأن من أطاع الرسول فقد أطاع الله سبحانه وتعالى، ومن آمن بنبي واحد فقد آمن بسائر الأنبياء صلوات ربي وتسليماته عليهم جميعاً. والله تعالى أعلم بالصواب.

يُستخلص ممّا سبق ذكره أن لفظ الكفر يُحمل على تغطية، وستر الشّيء، كما أنّه يُفهم من معنى الكفر في المفهوم الشّرعي أنّه: جحودٌ لنِعم الله تعالى من ربوبيته وألوهيته وأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وإنكار ما جاء به نبيٌّ منَ أنبيائه سبحانه وتعالى من لدن أبينا آدم إلى نبيّنا ورسولنا محمّد عليهم الصّلاة وأتم التّسليم، أو تكذيب بما ثبت عن نبيٍّ من أنبياء

(١) أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس المالكي الشهير بالقرافي، أنوار البروق في أنواع الفروق، ج٨، ص٣٣.
(٢) ابن القيم، مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، ص١٥٨٩.

الله، مـن قـولٍ أو عملٍ أو تقرير، فمن جحد شيئاً من هذه الثّوابت فهو داخل في مفهوم الكفر في المفهوم الشّرعي. والعلم عند الله سبحانه وتعالى وهو أحكم الحاكمين.

ثالثاً-نظائر الكفر أو مقابلات مصطلح الكفر:

اللغـة العربيّـة لغـةٌ واسعةٌ وغنيةٌ، فقـد يأتي مصطلـحٌ واحدٌ وتجد له كلمـة ترادفها أو تُعاكسهـا أو تضادها في المعنى، وبنـاء على هذا توجد كلماتٌ تعاكس مصطلح "الكفر". وهي على النّحو التّالي:

الأوّل-الشّكـر مقابله الكفـر: أي ضد الشّكر لقوله تعـالى: ﴿إِمَّا شَاكِـرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (الإنســان:٣). لقد قسَّم الله سبحانه وتعالى الإنسانَ في هذه الآية إلى قسمين لا ثالث لهما، فـلا يخلو الإنســان: إمّا أن يكون ممن يشكـر الله تعالى على نعمه الظاهـرة والباطنة، وإمّا أن يكـون عكس ذلك وهو الكفر بنعم الله تعـالى. وعلى هذا قد ربط الله الشكر بمزيد النعم والفضـل لِمَنْ لازمَ شكر الله بلسانه وبجوارحـه، وفي الوقت نفسه هدَّد الله مَنْ لم يقم بشكره سبحانـه وتعالى بعـذاب شديد، لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَـأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَـرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (إبراهيم:٧).

وهـذه الآيـة القرآنيّة الكريمة تؤكّد تقسيـم الله تعالى الإنســان إلى صنفين. ومن عدل الله سبحانـه وتعـالى أن بَيَنَّ ميـزة كل واحد مـن القسمين. وفي موضع آخـر يوطد الله هذا الأمـر حاكياً عن نبيّه سليمـان عليه الصّلاة والسّلام: ﴿...قَالَ هَذَا مِـنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُـرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنمَّا يَشْكُرُ لِنَفْسِـهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ (النمل:٤٠). تُعلمنـا هـذه الآية العظيمة، أن الله إذا أنعم على عبـدٍ من عباده فيتحتم على ذلك الشّخص أن يشكـر الله المنعـم عليه، وأن من لم يشكر الله عز وجل فإنَّـه يدخل في الطرف الثَّاني فهو كفـرٌ بالله جلَّ شأنه، فهذا الذي استشعـر به نبيّه سليمان ﷺ، وكما يُتعلم من الآية بأن الله تعـالى في غنى كامل عن أعمـال العبد، فلا يستفيد الله سبحانه الله تعالى شيئاً من الأعمال الصالحـات الصادرة من عباده المخلصين، كمـا أنه لا تضرُّه الأعمال السّيئات التي يقترفها عباده الكافرون؛ لكن من مقتضى العقل السليم أن يُشكر من أحسن إليه؛ فلذلك مَن لم يشكر الإنســان الـذي صنع إليه معروفاً فمن بـاب الأولى أن لا يشكر الله تعـالى، كما ثبت ذلك في

حديث صحيح عن النّبي الهدى ﷺ "من لم يشكر النّاس، لم يشكر الله[1]". فإذا فعل إنسانٌ لـك خـيراً وهو أمامـك ولم تشكره فأحرى ألاَّ تشكـر الله تعالى الذي لا تـراه في هذا الدنيا. فيُفهـم من هذا، أن من قام بشكـر الله على النِّعم فهو مؤمن بالله وبالغيب، وعكسه صحيح، وهو أن مَن لم يقم بشكر الله تعالى فليس بمؤمن بالله تعالى، وعكس الإيمان الكفر.

وفي الشـرع الحنيـف شيء مـن هذا القبيـل في شأن النّسـاء، لما أُسـري بالرسول ﷺ وعُرض عليه زمرة من النّساء في النّار، ثم سأل ﷺ عن سبب دخولهن النّار، فأجيبَ بأنهن يكفـرن العشـير، أي أزواجهن. ويُفهم من ذلـك أن عدم الشّكر قد يدخـل الإنسان في النّار. ونصـ الحديث: "...وَرَأَيْتُ النَّارَ فَلَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ مَنْظَرًا قَطُّ وَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ قَالُوا لِمَ يَـا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ بِكُفْرِهِنَّ قِيـلَ يَكْفُرْنَ بِاللَّهِ قَالَ يَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ وَيَكْفُرْنَ الْإِحْسَانَ لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا قَالَتْ مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ[2]".

يفهـم من هذا الحديـث أن كفر النّعمة قد يدخل الإنسان في النّار؛ ولكن قد لا يخلد فيه بخلاف الكفر المخرج من الملة الإسلاميّة. والعلم عند الله تعالى.

وعلى هذا البيان، يصح أن يكون ضابط عدم الشّكر كفراً: أن يشكر الإنسانُ غيرَ المنعِم عليـه، أي أن يصرف الإنسانُ فضلَ مَنْ أنعمَ عليـه إلى غيره الذي لم ينعم عليه-لغير المنعِم عليـه-. أو ألا يقـدر الإنسان نعمةَ المنعم عليه، ويحجد بها ولا يشكره عليها-على النعم-؛ لأن الله قـد يحـث شخصاً علـى شخصٍ آخر في نجاح حياتـه الدنيويّة والأخرويّـة، فإذا لم يقم بتقدير جهود ذلك الشّخص، فمن باب الأَولى ألّا يشكر الله تعالى في الغيب، ومن حجد بنعم الله عليه فقد كفر بالله تعالى.

الثاني-الكفـر مقابلـه الإيمان بالله تعالى: فمـن آمن بالله تعالى، وصـدَّق بكل ما ثبت

---

(1) أخرجـه محمـد بن عيسى أبوعيسـى الترمذي السلمي، تحت "ماجـاء في الشكر لمن أحسـن إليك" في الجامع الصحيح سنن الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكروآخرون، (بيروت: دار إحياءالتراث العربي، د. ط. د.ت)، ج٤، ص٣٣٩، رقم الحديث: ١٩٥٤، قال أبو عيسى هذاحديث حسن صحيح، وقال الشيخ الألباني: صحيح.

(2) محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، صحيح البخاري، تحت باب: كفران العشير، رقم الحديث: ٤٧٩٨، ج١٦، ص٢٠٢.

عـن نبـي من أنبياء الله، من قولٍ أو فعلٍ أو تقرير، وآمـن بالقدر خيره وشره وآمن بالغيبات، فهـو مؤمـنٌ كامل. وفي المقابـل: من أنكر شيئـاً أو جاحد وجود الله أو بنبـوة الأنبياء وإرسال الرسل، فهو كافر بالله سبحانه وتعالى، وفي هذا الصّدد يقول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُـمْ كَافِـرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (التغابن:٢). فإن الله يبصر عمل كلا الطرفين، يبصر أصحاب الأعمال الصالحات، كما يرى أصحاب الأعمال السيئات؛ لكن من عمل صالحاً فيعمله لنفسه، ومن عمل غير ذلك فيعمله على نفسه، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿مَـنْ عَمِلَ صَالِحًـا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَـى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّـهُ حَيَاةً طَيِّبَـةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَـنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النّحـل:٩٧). تلاحظ في هذه الآية العظيمة بأن الله تعالى ربط قبـول العمـل الصالح بالإيمـان به عزَّ وجـل؛ ولأهمية العمـل الصالح أقسـم الله تعالى أنه سيجزي صاحب العمل الصالح بأحسن الجزاء في يوم الدين، وأكّد قسمه بلام القسم وبنون التوكيد في قوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾. وقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَـا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (فصلت:٤٦). أن مـن آمن بربه سبحانه وتعالى ثم أردفه بالأعمـال الصالحات، فالجزاء يعود إليه، وأن من أساء العمل فسيحصد نتيجة ذلك العمل؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فالله تعالى غني جواد كريم لا يظلم أحداً، ومثله قوله تعالى: ﴿مَـنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُـمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ (الجاثية:١٥). والآيات في هذا المجال كثيرة يُكتفى بما ذُكرَ خشية الملل والسآمة.

يُلخص مـن معاكسات لفظ الكفـر، أن لِلَفظ الكفـر نظائر كثيرة، وقـد يأتي مصطلح الكفـر ويعاكسه الإيمان بالله تعالى، وقد يأتي لفظ "الكفر" في الشّريعة الإسلاميّة السّمحاء ويقابله الشكر. وقد بينَّ ووضح الله في تلك الآيات القرآنية صنفي الناس، مؤمنٌ بالله تعالى، أو شاكرٌ لله تعالى أو كافرٌ به سبحانه، كما أنّه تعالى وصف جزاء كلا العملين، إما بالجنة أو بالنّـار. فعلى الإنسان العاقل أن يختار ما يراه مناسباً ومفيداً له في الدارين. وقد يؤدّي عدم الاعتراف بالنّعمة إلى دخول النّار والعياذ بالله.

المحور الثّاني-بيان أنواع مصطلح "الكفر" في القرآن الكريم:

أنواع الكفر١ :

لقد فصل العلماء رحمهم الله تعالى أنواع الكفر في مصنفاتهم، فجزاهم الله عن الإسلام خير ما يجزي به عباده الصالحين. فالكفر عندهم قسمان من حيث الجملة وهما: أحدهما-الكفر الأكبر وثانيهما-الكفر الأصغر. الكفر الأكبر: يخرج الإنسان من الملة الإسلاميّة، بخلاف الكفر الأصغر: فلا يخرج المرء من الدين الإسلامي. وبناء على هذا التّقسيم الفقهي توجد آيات قرآنيّة تؤيّد وتدعم كلا قسمين وتبيّنُ خطورتهما.

النوع الأوّل-الكفر الأكبر المخرج من الملة الإسلاميّة٢ :

الكفر الذي يخرج الإنسان من إطار الإسلام الحنيف، له أنواع كثيرة وسيتناول الباحث بيانها بالتفصيل هاهنا بمشيئة اللّه تعالى.

أولاً-كفر الإباء والاستكبار٣ :

إذا أبى أو رفض مخلوقٌ تنفيذ أمر خالقه، وتَعَالَى على خَالقِه، فهذا يُعتبر من عدم تقدير اللّه حق قدره، أو عدم القيام بشكره سبحانه وتعالى، وهذا الفعل عين الكفر المخرج من الدِّين الإسلامي، إذا استمر عليه الإنسان ولم يتب قبل أن يغرغر، وفي هذا يُصرح اللّه تعالى في خطورة هذا النوع، وفي مقدمة هذا الفعل إبليس عليه ما يستحق من اللّه تعالى:

---

(١) ينظر: حافظ بن أحمد حكمي، معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر، (الدمام: دار ابن القيم، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م)، ج٢، ص٥٩٣؛ نخبة من العلماء، كتاب أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، (الرياض: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ط١، ١٤٢١هـ)، ص٨٤؛ التَّوسُّطُ والاقتِصَادُ في أنَّ الكفرَ يكونُ بالقولِ أو الفِعلِ أو الاعتقاد، ص٤٧؛ أبو يحيى بن محمد بن أحمد آل بدر، دراسة علمية في الرد على مرجئة العصر لإخراجهم عمل الجوارح من مسمى الإيمان، ص٢٢٤.

(٢) ينظر: القاضي علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي، شرح العقيدة الطحاوية؛ ص٣٠٤؛ محمد بن عبد الوهاب بحاشية عبد الرحمن بن محمد بن قاسم الحنبلي النجدي، حاشية الأصول الثلاثة، (الرياض: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ط١، ١٤١٦هـ)، ص٥٣؛ محمد بن عبد الوهاب، مؤلفات الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب، تحقيق: عبد العزيز زيد الرومي، د. محمد بلتاجي، د. سيد حجاب، (الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود، د. ط، د. ت)، ج١، ص٧١.

(٣) ينظر: صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، كتاب التوحيد، (الرياض: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ط٤، ١٤٢٣هـ)، ص١٦.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة:٣٤). فعلى الإنسان العاقل المطيع أن ينفذ أوامر الله تعالى قدر المستطاع؛ لأن الله تعالى لا يكلف مخلوقاً بما لا يطيق، وفي هذا يقول سبحانه وتعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ (البقرة:٢٨٦). فخلق الله تعالى الملائكة وآدم وسائر المخلوقات، ثم أمر الملائكة بالسّجود لآدم عليه الصّلاة والسّلام فنفذوا أمر الله عزّ وجلّ، وتكبّر إبليسُ عن ذلك لعنة الله عليه، فكان ذلك سبب شقائه وخسرانه في الدّارين. ويُعلم هذا الموقف أن أيَّ شخص استكبر ورفض عن إفراد الله تعالى بالعبادة مع اقتراف المعاصي المنهي عنها، فيشمله ذلك العقاب الأليم الذي نصَّ عليه القرآن الكريم في حق إبليس وقبيله؛ لأنه سيكون ﴿مِنَ الْكَافِرِينَ﴾، والجزاء من جنس العمل.

وفي آية أخرى يُعاتب الله تعالى إبليس بصيغة السّؤال عن علة استكباره عن السّجود لآدم عليه الصّلاة والسّلام، قائلاً: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ (ص:٧٥)، وفي آية أخرى: ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ (الحجر٣١:)، وأجاب إبليس عليه لعنة الله علة استكباره عن أمر الله للسجود لآدم عليه السّلام قائلاً: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ (ص:٧٦). فكان جزاء إبليس عليه لعنة الله الطرد من رحمة الله وبهذا الصدد يقول الله تعال: ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ (ص:٧٧-٧٨). وبعد طرد إبليس عليه لعنة الله من رحمات الله تعالى، صرَّح الله تعالى بمأواه هو وكل من سار على نهجه ومات عليه، لقوله تعالى: ﴿اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ﴾ (الإسراء:٦٣)[1]. فبعدما لَعنَ الله إبليس وقبيله مع طرده من الجنة، أخذ إبليس يروج مذهبه من كل فجٍ عميق، ليكثر من

---

(١) ينظر للمزيد من المعلومات: أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، معالم التنزيل، تحقيق: محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، (دار الطيبة للتوزيع والنشر، ط٤، ١٤١٧ هـ/١٩٩٧ م)، ج١، ص٨١؛ محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب أبو جعفر الطبري؛ تفسير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠ م)، ج١، ص٥٠٠١؛ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: هشام سمير البخاري، (الرياض: دار عالم الكتب، د. ط، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م)، ج١، ٢٩١؛ محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، دز ط، ١٤١٥ هـ/١٩٩٥)، ج٣، ص١٦٦.

يدخل معه في النّار؛ لكن أكثر الناس لا ينتبهون لهدف إبليس، فعلى الإنسان الواعي أن يعرف مسالك إبليس ليتجنبها، حتى لا يكون جزاؤه جهنم ولبئس المصير.

يلاحظ في هذا الحوار بين المولى سبحانه وتعالى وبين إبليس عليه ما يستحقه من الله، أن الذي حمل إبليس عليه لعنة الله عن الانقياد لأوامر الله هو الاستكبار، فأقر إبليس عليه لعنة الله عن هذا الاستكبار، بزعمه أنه أفضل من آدم عليه الصلاة والسلام؛ وعلة التفضيل لديه: أنه –إبليس– خُلقَ من النّار وخُلق آدم عليه السّلام من الطين، وفي ظنه أن النّار أفضل وأشرف من الطين، ولذلك طرده الله تعالى من رحماته، ثم أعلن الله مقعده وكل من سار على دربه، وكل ما في الأمر أن الاستكبار والإباء داءٌ كبيرٌ وسببٌ من أسباب المخرج من الملة الإسلاميّة. والله تعالى أعلم بالصواب.

ولخطورة الاستكبار جاءت براءة إلهية لصفوته الخيار –المسيح عيسى عليه السّلام– من الاستكبار، ثم صرّح الله تعالى أن من استكبر عليه سبحانه وتعالى، فإن مصيره نفس مصير إبليس عليه لعنة الله، وفي هذا الصّدد يقول الله تعالى: ﴿لّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ...﴾ (النّساء:١٧٢). وفي هذه الآية الكريمة تشريف للنبي عيسى عليه الصّلاة والسّلام، أنه لم يستكبر أبداً أن يكون عبداً لله تعالى، وكذلك أقرب المخلوق إلى الله تعالى وهم الملائكة لم يستكبروا على عبادة الله تعالى. ثم أكّد الله تعالى خطورة الإنذار عن هذا الأمر–الاستكبار على الله تعالى– بحرف الشّرط وجوابه، يعنيى أن من استكبر عن عبادة الله سبحانه وتعالى، فجزاؤه دخول النّار في يوم الجزاء، وفي هذا يقول الله: ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعاً﴾ (النساء:١٧٢). فهذا حكم شامل لجميع أفراد النّاس، إلا من استثناهم الله، وفي هذا الاستثناء الإلهي يقول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُواْ وَاسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلُيماً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً﴾ (النّساء:١٧٣).

فإن الله تعالى غنيٌ جوادٌ كريمٌ لا يظلم أحداً، فمن عمل صالحاً فلنفسه، ومن عمل سوءاً فلا يجني إلا على نفسه. وقد بينَّ ووضح الله تعالى وكرَّر خطورة كفر الاستكبار في

هـذه الآيات القرآنيّـة، فهذا دليل جليّ على عظـم جرم الاستكبار وخطورتـه، وإلا لما احتاج إلى التّكـرار، ثم أتـى الله تعالى بنتيجة واضحة للاستكبار، لقوله تعـالى: ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾، ولا يكـون عذاب الله سبحانه وتعالى إلا في شيء محرّم فعله، فدل ذلك على تحريم الاستكبـار والإبـاء عن أوامر الله سبحانه وتعالى، وبالأخص إذا صدر هذا الفعل الشّنيع من الإنسان المهين في حق خالقه سبحانه وتعالى، فعند ذلك يكون أسوأ وأخطر.

يُستخلص ممّا سبق ذكره في كفر الاستكبار، أن الاستكبار دُاء كبيرٌ وعلاجه الرجوع إلى الانقياد لله تعالى، وامتثال لأوامره واجتناب لنواهه، وأن رئيس المتكبرين هو إبليس عليه لعنة الله والملائكـة والناس أجمعين، ويُعتبر الاستكبار مـن الكفر المخرج من الملة الإسلاميّة، وأن مـن استكبر على ربّه سبحانه وتعالى سيصيبه مـا يصيب إبليس في يوم الجزاء، والاستكبار سبب من أسباب الشّقاء، والطرد من رحمات الله تعالى.

ثانياً- كفر الجحود[1]:

بنـاء على هذا المصطلح الشّرعـي، فإن الفقهاء أو العلماء قاطبـة متفقون على أن غير جاحد للدين الإسلامي، ليس بكافر لجهل منه، أو كسلان، أو لبعض الشّبهات؛ لكن إذا انتفت كل الموانع فلم يستسلم لأحكام الشّريعة الإسلاميّة فعندئذٍ يُحكم بكفره، وكفر الجحود يُعتبر نوعاً من أنواع الكفر المخرج من دائرة الإسلام الحنيف. وفي الجحود يقول الله تعالى حاكياً عمّـا حـدث بين نبيّه موسى عليـه الصلاة والسلام وبين قومـه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (النمـل:٨٤). وإن كانت الآية تخاطـب غير النّبي محمّد عليه الصّلاة والسّلام؛ لكن الكلام في نبي من أنبياء الله كلامٌ في سائـر الأنبياء إلا بالتّخصيص، والإيمان بنبيّ واحـد يوجب الإيمان بسائر الأنبياء، والعكس صحيـح، يعني أن من زعم أنه يؤمـن بمحمّد بن عبد الله ﷺ فقط، ولا يؤمن بباقي الأنبياء فليس بمسلم ولا مؤمن، فلازم أن يؤمـنَ الإنسانُ بالله تعالى وبجميع الأنبياء والرسل عليهم الصّـلاة والسّـلام؛ ليكون في دائـرة الإسلام والإيمان، ومن كفر بنـبيٍّ واحدٍ فقد كفر بجميع الأنبياء والرسل[2].

---

(١) الجحد هو: الإنكار الشّديد مع العلم بذلك الشّيء.

(٢) ينظـر للمزيـد من المعلومات: البغـوي، معالم التنزيـل، ج٤، ص١٨٤؛ ابن كثـير، تفسير القـرآن العظيم، ج١، ص٣٣١؛ أحمد المحلي، أبوبكر السيوطي، تفسير الجلالين، ج٤، ص٣٩.

وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ...﴾ (هود:٥٩). أي أنكر قوم هود عليه السّلام الآيات والواقعات والمشاهدات التي أتى بها هود عليه الصلاة والسلام، وكذبوه-هود-، فعمَّم الله تعالى تكذيب قوم هود عليه السّلام له تكذيباً لجميع الرسل والأنبياء مع أنهم عصوا رسولاً واحداً فقط وهو هود عليه السّلام؛ لأن غرض جميع الأنبياء هو ترك عبادة الأصنام إلى عبادة الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد. فعليه، إذا كُذبَ رسولٌ واحدٌ فقد كُذب جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام لأن هدفهم هدفٌ واحدٌ[١].

ولتحريم التفريق لما جمع الله ولم يفرق بينهما، يقول الله تعالى معاتباً الذين يَدَّعون أنهم المسلمون أو المؤمنون، في قوله تعالى: ﴿...أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (البقرة:٨٥)، ولازم الدخول في الإسلام كاملاً، وليس الدخول النصفي كما قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً... ﴾ (البقرة:٢٠٨)، أي كن مسلماً كاملاً، ولا بد من الاستسلام الكامل، وليس الإسلام كما يزعم بعض الذين يختارون من الشّريعة ما يوافق هواهم ويتركون أو يكذبون ما لا يوافق رغباتهم، أو ما لا يحقق أهدافهم الدنيويّة على فهمهم هم، وفي آية أخرى يؤكّد الله تعالى هذا الأمر بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلا﴾ (النساء:١٥٠).

ويُستنبط ممّا سبق، بأن الله تعالى اعتبر الإيمان به سبحانه وتعالى إيمانٌ بالأنبياء والرسل، كما أنه تعالى جعل الكفر به سبحانه وتعالى كفرٌ بالأنبياء والرسل عليهم الصّلاة والسّلام، وبعبارة أخرى: أن من كفر بالله تعالى فقد كفر بجميع الأنبياء والرسل والملائكة، وكذلك من قال أنه آمن بالله تعالى، فيتحتم ويقتضي منه أن يؤمن بجميع الأنبياء والرسل والملائكة، ومن فرَّق بين واحدٍ منهم فليس بمسلم، والنتيجة الخروج من الملة الإسلاميّة. لذا جاء قول الله تعالى في خاتمة سورة البقرة ليقرِّر هذه المسألة، مسألة الإيمان بالله تعالى

(١) ينظر للمزيد من المعلومات: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، التحرير والتنوير، (بيروت: مؤسسة التاريخ العربي، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م)، ج١١، ص٢٨٥.

وبجميــع الأنبيــاء والرسل والملائكة: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة:٢٨٥).

يُلخص ما في مضمون كفر الجحود المخرج من الإسلام، أن من جاحدَ شيئاً من شرائع الله تعالى عالماً به، فقد كفر بالله تعالى، وهذا النّوع من الكفر يُخرج الإنسان من الإسلام جملةً وتفصيلاً، وأن من كذّبَ نبياً من أنبياء الله تعالى، أو رسولاً من رسل الله تعالى فقد كفر بالله تعالى، وكما يُستفاد من هذه الآيات القرآنيّة أن الإيمان برسولٍ واحدٍ يوجب الإيماء بسائر الرسل عليهم الصّلاة والسّلام، وكذلك الكفر بواحدٍ منهم كفرٌ بالجميع. وفي هذا، ردٌّ ربانيّ على الذين يختارون من الإسلام ما يرونه مناسباً لهم، ويتركون ما لا يرونه موافقاً لأغراضهم التافه والفانية، ثم يتهمون الشريعة الإسلاميّة والعلماء بالتّشدد.

ثالثاً- كفر التّكذيب(١):

كذّب وكذب فلانٌ فلاناً إذا لم يصدقه بما قاله، أو لم يصدق بما جاء به، وعلى هذا فمن كذّب برسالة محمّد أو بنبوته ﷺ، أو بأي شيء ثبت وروده عنه ﷺ، فقد كفر بالله وبجميع الرّسل والأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام؛ لأن طاعة الرّسول طاعة للّه تعالى، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ (النساء:٨٠). وبالعمل بمفهوم المخالفة، فمن كفر برسول الله فقد كفر بالله تعالى، ومن كفر بالله تعالى فمصيره إلى النّار والشّقاء عاجلاً أو آجلاً إن لم يتب قبل أن يأتيه اليقين.

وعند استقراء القرآن الكريم والتأمّل فيه، توجد آيات كثيرة تقرر بأن المكذبين غير المصدقين بالرسالة المحمّديّة؛ حيث أنهم رموه بالجنون، واتهموه بالسّحر وكذّبوه كما أنهم كذبوا بما أتى به وهو القرآن العظيم، وبهذا الصدد يقول الله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ...﴾ (يونس:٣٩). أي كذّبت أُمَّة الدعوة المحمّديّة برسالة نبيّنا ورسولنا محمّد ﷺ، قبل تحقق من مصداقيّة الرسالة وما فيها، أي كذبوا محمّد عليه الصلاة والسلام، ولم يعرفوا حقيقة ما أتى به محمّد عليه الصّلاة والسّلام. فهنا استخدم

(١) الكذب، والتكذيب: هو خلاف الصدق في الكلام والحمل والأداء.

اللّه تعالى عملية القياس تسليةً لرسوله محمّد ﷺ، كأن اللّه تعالى يقول له: أصبر يا محمّد لست بدعاً في هذا التّكذيب، فقد كذبت قومٌ رسلهم من قبلك، فإذا كذَّبك قومك وبني جلدته فلا تحزن فلا تباخع نفسك، سيقع بهم مثل ما وقع بتلك الأمم التي كذبت رسولهم. وفي هذا يقول اللّه تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾. أنظر يا محمّد كيف كان عُقْبى الكفار الذين كفروا باللّه، أهلكت بعضهم بالرجفة، وبعضهم منهم بالخسْف وبعضهم بالغرق١، فإذا ساوى قوم محمّد ﷺ بقوم الذين قبلهم في المعاصي وعدم طاعة الرسول، سيهلك اللّه قوم محمّد كما أهلك الذين كذبوا رسلهم، وعُلـمَ من هذا أن هلاك اللّه للعباد لا يكون إلا في ترك الواجب على الإنسان فدل ذلك، على أن تكذيب الرّسول ﷺ كفرٌ مخرجٌ من الملة الإسلامية.

واتفقت أقوال المفسرين رحمهم اللّه تعالى على أن المراد بالشّيء الذي كذّب به قوم محمّد بن عبد اللّه ﷺ في هذه الآية القرآنيّة هو القرآن الكريم٢، فمن كذّب بمصداقيّة القرآن العزيز، فقد هدم الدِّين الإسلامي الحنيف، ومن هدم ذلك فلا رسولاً ولا نبياً ولا إلهاً، والعياذ باللّه، فلعظم آثار هذا الفعل الخبيث كان التّكذيب بالرّسالة المحمّديّة مخرجاً من أمان الإسلام إلى ويلات الكفر، إلا من تاب قبل الموت؛ لأنَّ من تاب إلى اللّه تعالى تاب اللّه عليه؛ لأنّه هو توابٌ رحيمٌ غفورٌ.

فيوم الجزاء، يحشر اللّه تعالى هؤلاء الكذبة في مكان لا منفذ ولا مفر إلا إليه سبحانه وتعالى، فيوبخهم اللّه تعالى بأعمالهم السيئة، فكما كذبتم أنتم هؤلاء بآياتي البينات والواضحات في الحياة الدنيا، فكذبوا بهذا اليوم أيضاً، وفي هذا التوبيخ العظيم يقول تَعَالَى ذكرُه وتقدست أسماؤه: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً أَمَّا ذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (النمل:٨٤). وآيات اللّه كثيرة جداً لا حصراً لها، ومنها: القرآن الكريم، وإرسال الرسل بالمعجزات، والسّموات العلى، والأراضين، والجبال، وغيرها. وفي تفسير هذه

---

(١) ينظر: الطبري، تفسير الطبري، ج١٥، ص٩٣.

(٢) ينظر للمزيد من أقوال المفسرين للآية: البغوي، معالم التنزيل، ج، ص؛ الطبري، تفسير الطبري؛ ج١٥، ص٩٣؛ القرطبي، جامع الأحكام، ج٨، ٣٤٤. وابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص٢٧٠؛ الشنقيطي، أضواء البيان، ج٤، ص١٨٨؛

الآيـة يقـول أبو جعفر رحمه الله تعالى: "ممن يكذّب بأدلتنا وحججنا، فهو يحبس أوّلهم على آخرهم، ليجتمع جميعهم، ثم يساقون إلى النار[1]". ويقول ابن كثير رحمة الله عليه: "يقول تعـالى مخـبراً عن يوم القيامة، وحشر الظالمين المكذبين بآيـات الله ورسله إلى بين يدي الله عـز وجـل، ليسألهم عمّا فعلـوه في الدار الدنيـا، تقريعاً وتوبيخاً، وتصغـيراً وتحقيراً[2]". ولا يكـون لـوم الله وتوبيخه إلا في ترك الواجب على المكلف، فعُرف من هذا أن من كذّب بآية من آيات الله تعالى، ولم يتب قبل موته فليس مات في دائرة الإسلام، فمصيرته إلى النّار، إلا أن يرحمه الله تعالى، وهو أحكم الحاكمين، ولا معقّب لحكمه.

خلاصة القول في موضوع تكذيب النّبي ﷺ، أن أيّا واحدٍ كذّبَ بما جاء به النَّبي محمّد ﷺ، أو بمـا ثبـت عنه من أقوالٍ أو أفعالٍ أو تقريرية، فقـد كفر بالله تعالى، وخرج من إطار الإسـلام، إلا أن ينيـب إلى الله تعالى، ومن كذّب رسولاً واحداً فقد كذب جميع الرسل عليهم أفضـل الصلاة وأتم التّسليم. ومن هـذا عُرف أن نتيجة التّكذيب بآيات الله تعالى، وبالرسل والملائكة؛ هي دخول النّار فلبئس المصير، وكل ما في الأمر أن التّكذيب بآيات الله تعالى كفرٌ مخرجٌ من الإسلام إلّا من توبةٍ نصوحٍ.

رابعاً- كفر الإعراض[3]:

هـذا نـوع آخر يخرج الإنسـان من الدِّين الإسلامـي؛ لأن الله تعالى لقـد أرسل الأنبياء والمرسلـين عليهم الصّـلاة والسّلام بالبراهين الواضحـات المختلفة، لكل نبـي أو رسولٍ آيةٌ معينةٌ؛ لينذر بها قومه وجماعته، ويبشرهم بالجنات والرحمات في يوم الدين الباقي؛ لكن مع قيام الأنبياء والرسل بوظائفهم الكبرى، لم يقدر بعض القوم جهود الأنبياء والمرسلين، وإنما كفـروا بهم وأعرضوا عمّا يخبرونهم بـه، وبهذا الصّدد يقول الله مخبراً عن حال بعض قوم محمّد عليه الصّلاة والسّلام قائلاً: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ﴾ (الأحقاف:٣).

---

(١) الطبري، تفسير الطبري، ج١٩، ص٥٠٠.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٦، ص٢١٥.

(٣) الإعراض عـن شيء: ترك الشيء بعد مـا عرفته وعلمت حقيقته وكل ما فيه. أو تـرك العمل بما أخبرت به، أو العمل بما حظرته عنه. "والإعراض عن الشيء الصدود عنه، وعدم الإقبال إليه". أضواء البيان، ج٧، ص٢١٢؛ صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، كتاب التوحيد، ص١٦.

وممّا أنذروا به: القرآن الكريم، والبعث والحساب، وجهنم، وغيرها، فمن كذب بهذه الثّوابت فليس بمسلم للّه تعالى[1].

فتلاحظ هذه الآية القرآنيّة الكريمة، بأن اللّه تعالى قد عبّر عن الإعراض بالكفر، فدل المنطوق على أن هذا النّوع من الكفر الذي يُخرج من الإسلام، إلا من توبةٍ جديدة، وهي الرجوع إلى كتاب اللّه وإلى تصديق الرسول ﷺ فيما أخبر واجتناب ما نهى عنه، وامتثال بما أمر به ﷺ قدر المستطاع.

وفي آية أخرى يؤكّد اللّه تعالى إعراض الناس عن آيات اللّه، في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ (الأنعام:٤). كأن اللّه تعالى يقول لنبيّه عليه الصّلاة والسّلام، يا محمّد مهما جئتَ بأي نوع من آيات عجيبة ومعجزة، فلا يؤمن بها هؤلاء المعاندون. وقد يكون الإعراض بسبب عدم الامتثال لما يأمرهم به ﷺ من الخيرات، أو التكذيب لما يخبرهم به من الجزاء. والجزاء إمّا أن يكون للعامل أو على العامل، كما يقال: بأن الجزاء من جنس العمل، ومن أنواع الإعراض الطعن في آيات القرآن الكريم، بأي شكل من أشكال الطعن، كقولهم بأن القرآن شعر، أو أنه أساطير الأوّلين، أو أن الرسول ﷺ شاعر، أو مجنون[2]، ويصدّق القرآن الكريم هذه المقولة بقوله تعالى: ﴿بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ (الأنبياء:٥)، وقوله تعالى حكايةً عنهم: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾. (الصافات:٣٦)؛ لكن رسولنا ونبينا محمّد ﷺ ليس بدعاً في هذا الاتهام المفتري، ويحكي اللّه تعالى عن قوم نوح عليه الصّلاة والسّلام ليعالج جرح النّبي محمّد عليه الصلاة والسلام، لقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ (القمر:٩). ليتحلى الرسول ﷺ بالصبر أكثر، ولتقوية شوكة النّبي محمّد مع المكذبين له، والمعرضين عنه ﷺ.

---

(١) البغوي، معالم التنزيل، ج٧، ص٢٤٩؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٧، ص٢٧٤؛ محمد بن علي بن محمد الشوكاني، فتح القدير الجامع، ج٦، ص٤٤٨.

(٢) ينظر للمزيد: البغوي، معالم التنزيل، ج٣، ص١٢٨؛ القرطبي، تفسير القرطبي، ج٦، ص٣٩٠؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٢، ص٢٦١.

و"يقول تعالى مخبراً عن المشركين المكذبين والمعاندين: إنهم مهما أتتهم ﴿مِنْ آيَةٍ﴾ أي: دلالة ومعجزة وحجة، من الدلالات على وحدانية الرب عَزَّ وجل، وصدق رسله الكرام، فإنهم يعرضون عنها، فلا ينظرون فيها ولا يبالون بها[1]". ولعدم رجوع هؤلاء المعاندين والمعرضين إلى الشّرع الإسلامي، يخبر الله نبيّه وخليله ﷺ، بأن قد طبع على قلوبهم بالكفر والعناد، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (البقرة:٦)، ومع قوله تعالى: ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (يس:١٠). وهذا تصريح إلهي على أن هؤلاء لن يؤمنوا بالله الواحد الأحد، وهذا في منتهى الإعراض عن آيات الله تعالى. والعياذ بالله.

ولعظم جريمة الإعراض عن آيات الله تعالى، توعد الله تعالى بالانتقام بمن يقترف هذا الفعل المنهي عنه شرعاً، ويقول الله تعالى ذكره: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ (السّجدة:٢٢). ولا يوجد ظلم أكبر وأعظم ممّن يُذكر بآيات الله ثم يتولى مدبراً كأن لم يسمعها أصلاً؛ فلذلك شبّه الله المعرض بالحمار، وفي هذا ذم لجنس المعرض، لقوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ... ﴾ (القيامة:)، وهذا تشبيه بليغ من الله تعالى؛ لأن الكل يعرف كيف يكون الحمار المربوط بعد ما يُطلق قيده أو سراحه، فكذلك المعرض الذي يعرض عن آيات الله تعالى، يفر ويهرب منها كما يفر الأرنب من الأسد أو النمر. وجعل الله جزاء المعرض عن آياته البينات بمعيشة ضنك في نار جهنم، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (طه:١٢٤). ومع قوله تعالى ذكره: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً﴾ (الجن:١٧). ولا يكون جزاء الإنسان بمعيشة ضنك، ولا يدخل في عذاب شديد وأليم إلا إذا ارتكب كبيراً مع عدم التوبة قبل الموت، فدلّ ذلك على أن الإعراض عن آيات الله كفرٌ مخرجٌ من الملة الإسلاميّة السّمحاء. وفي هذا يقول قتادة: "إياكم والإعراض عن ذكر الله، فإن مَنْ أعرض عن ذكره فقد اغتر أكبر الغرَّة، وأعوز أشد العَوَز، وعظم من أعظم الذنوب[2]". والآيات القرآنيّة متظافرة في هذا الشّأن لكن يكتفى بما تم استعراضها.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص٢٤٠.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن الكريم، ج٦، ص٣٧٠.

تُلخص المقولة في هذا النّوع، بأن الإعراض عن آيات الله تعالى على أحوال، منها: الإعراض عن العمل بكتاب الله تعالى، وعدم تصديق رسول ﷺ، أو بما أتى به ﷺ من قول أو عمل أو الإعراض بما ثبت عنه ﷺ من المعجزات وغيرها، ومن الإعراض عن آيات الله عدم الإيمان بالحساب والجنة والنّار، ومعجزات الأنبياء والرسل عليهم الصّلاة والسّلام، وأن الجزاء من جنس نوع العمل، فمن أعرض عن آيات الله تعالى فيدخله النّار، وفي معيشةٍ ضنكٍ، وعذابٍ صعدٍ، وأن الإعراض عملٌ يخرج الإنسان من الإسلام إلا من توبةٍ نصوحٍ.

خامساً- كفر الاستهزاء[1]:

الاستهزاء بشيء من الدين وشعائره وشرائعه لا يصدر إلا عن نفس خبيثة تنطوي على كفر بالله العظيم وإلحاد عن الإيمان. وفي هذا يقول تعالى: ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (الأنبياء:٣٦). يذكر الله جلَّ شأنه عن تصرفات الكفار تجاه النّبي محمّد عليه أفضل الصّلاة وأتم التّسليم، كيف يتعاملون مع النّبي ﷺ إذا رأوه ﷺ يستهزؤون به ويستخفونه[2]. إن الله تعالى قد سماهم الكفار لأجل استهزائهم بالرسول المجتبى ﷺ، فهذا دليلٌ جلي بأن الاستهزاء بالدين الإسلامي وبشعائره كفرٌ يخرج من الإسلام. وفي موضع آخر: يؤكّد الله أسلوب الاستهزاء بالرسول في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّه رَسُولاً﴾ (الفرقان:٤١).

لهذا الغرض السّامي، أخرج الله المسلمين-الذين كانوا يلعبون بشعائر الإسلام الحنيف، ويخوضون فيه خوض الفوضى واللعب-من سور الإسلام إلى جحيم الكفر بقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إنمَّا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِه وَرَسُوله كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ (التوبة:٦٥/٦٦). مع أنهم كانوا مؤمنين بنص ظاهر هذه الآية الكريمة؛ لكن الله تعالى كفَّرهم وأخرجهم من الدين الإسلامي، ولم يعتبر الله تعالى مبرراتهم، فهذا

---

(١) الاستهزاء: هو تحقير الشّيء، وعدم تقدير قيمته، وعدم مبالات به. صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، كتاب التوحيد، ص١٦.

(٢) ينظر: الشنظيقي، أضواء البيان، ج٤، ص١٤٧؛ وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٧، ص٤٨.

دليل ظاهر على خطور الاستهزاء بالدين الإسلامي، بأي نوع من أنواع الاستهزاء، بعلماء الشّريعة، أو بمقدسات المسلمين، مثل: شهر رمضان، أو الحج والعمرة وغيرها، فيدخل في ضمن الاستتهزاء بالدين الإسلامي.

ملحوظة مهمة : تُلاحظ في هذه الآية العزيزة بأن الله تعالى توّابٌ رحيمٌ ودودٌ، ومع عظم جريمة الاستهزاء بالله تعالى وبشعائر الإسلام، فإذا تاب المستهزأ تاب الله عليه وعفا عنه؛ لأنَّه كريمٌ جوادٌ ذو الرحمة والمغفرة.

استعمل الله تعالى منهج عملية المفاضلة أو المقارنة بين الذين يستهزؤون بالرسول ﷺ، وبين المؤمنين به ﷺ، في قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (البقرة:٢١٢). السّخرية أسلوب من أساليب الاستهزاء بالإنسان؛ لكن الله اختار وفضل المؤمنين به سبحانه وتعالى، أنهم في أعلى القمَّة في يوم الجزاء، على الذين كانوا يستخفون بالرسول ﷺ وبالمسلمين، وفي هذا تسليةٌ للمسلمين الذين يسكنون في بلاد غير إسلاميّة ويستهزأ بهم هنالك، فعليهم أن يعلموا أنهم على الحق ما تماسكوا بالكتاب والسّنة النّبويّة الطاهرة الصّحيحة.

لتعزيز النّبي عليه الصّلاة والسّلام، ولتسليته، يقول الله تعَالَى ذكرُه: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (الأنعام: ١٠)، يخاطب الله نبيّه ورسوله محمّد بن عبد الله ﷺ، بأنه ليس هو أوّل نبي استهزأ به، فقد استهزأ بالرسل من قبله عليه الصّلاة والسّلام، فعليه أن يتحمل ويحتسب كما فعله من سبقه من الأنبياء والرسل عليهم الصّلاة والسّلام. وقوم النّبي محمّد بن عبد الله ﷺ، كانوا يستهزؤون به، مع قوة ثقتهم به، واعترافهم بفضله وشرفه ونسبه ﷺ، وطهارة بيته ومربيه ومنشئه، حتى أنهم كانوا يسمونه بينهم قبل أن يوحى إليه: "الأمين"، وقد اعترف بذلك رئيس الكفار "أبو سفيان" حين سأله "هرقل" ملك الرّوم[١]. والآيات القرآنية الوادرة في هذا الشأن كثيرة؛ لكن يكتفى بهذه الآيات المستعرضة هاهنا.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن الكريم، ج٣، ص٣٣٢.

يستخلص ما ورد في كفر الاستهزاء، أن قد عرفنا من خلال هذه النّصوص القرآنيّة الواردة في هذا الشّأن، أن الاستهزاء شيءٌ مذمومٌ في الأخلاق الإنسانيّة أولاً فضلاً عن إذا كان الاستهزاء بالشّريعة الإسلاميّة فعندئذٍ يكون الأمر أسوأ أكثر، وفي الاستهزاء تحقير وتصغير لشأن المستهزأ به، لقد استهزأ بالرسل من قبل النّبي محمّد بن عبد الله عليهم الصّلاة والسّلام، فليس نبيّنا محمّد أوّل من أُستهزأ به، وأن عاقبة المستهزأ النار، ولن يقبل الله عذر المستهزأ إلا من تاب وأناب إلى الله تعالى، وأن الله تعالى أخرج الذين زعموا أنهم قد أسلموا من دائر الإسلام إلى دائر الكفر بسبب استهزائهم بالرّسل وبشعائر الإسلام، فهذا دليلٌ قاطعٌ بأن الاستهزاء كفرٌ مخرجٌ من الإسلام إلا من توبةٍ نصوحٍ إلى الله تعالى.

سادساً- كفر النّفاق[1]:

المنافقون هم الذين حذر منهم الذكر الحكيم في مواطن متعددة، وكشف مسالكهم وأحوالهم لأهل الإيمان، فيلحق بالمسلمين مبدئياً، وقد قال تعالى في شأنهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ، يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (البقرة:٨-٩). فالإنسان إمّا أن يكون مؤمناً بالله، أو كافراً به سبحانه وتعالى، وعليه قد نفى الله الإيمان عن هؤلاء وبقي الكفر، والكافر جزاؤه النّار إلا إذا تاب واعتنق الإسلام. لكشف عورتهم وصفهم الله تعالى في هذه الآية العزيزة، وفي غيرها من الآيات القرآنيّة، بأنهم إذا كانوا مع المسلمين الآخرين يظهرون لهم الإسلام، وإذا كانوا بَعيدِين من المسلمين الحقيقين المخلصين لله دينهم، قالوا لسنا المسلمين وإنما نعلب بعقولهم ونستهزأ بهم وهم بذلك لا يشعرون، وفي هذا يحكي الله عن سلوكياتهم في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إنمَّا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ (البقرة:١٤).

أخطر شيء على الإنسان أن يكون ذا وجهين، وجهٌ مع المسلمين، ووجهٌ آخر مع غيرهم، فإذا كان مع المسلمين يخادهم بلفظ الإسلام، وإذا تجافى عنهم تغير لونُه وأتى بلون الذين

(١) هو الدخول في شيء معين من باب، ثم الخروج منه من باب آخر. وفي هذا يقول ابن فارس رحمه الله: "النفاق، لأن صاحبه يكتم خلاف ما يظهر، فكأن الإيمان يخرج منه، أو يخرج هو من الإيمان في خفاء. والنفق: المسلك النافذ الذي يمكن الخروج منه". ومنه حجر اليربوع. ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج٥، ص٤٥٥.

هو معهم في ذلك الحين؛ لذا أكّد اللّه عذابه، بأن عذاب المنافق أشد من كثير الذين يدخلون النار، وفي هذا ينص اللّه على مأواهم ومآلهم في يوم تبلى السّرائر، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾ (النّساء:١٤٥). يُصرّح اللّه تعالى هنا بأن منزل المنافق في أعمق النّار، وأسفلها، والكل يعرف أن أسفل النّار أشد عذاباً من غيرها، فهذا يدل على خطورة النّفاق؛ لكن لأجل رحمة اللّه ومغفرته سبحانه تعالى استثنى الذين يتوبون من الأخلاق النّفاقيّة إلى أخلاق الإخلاص والصلاح، في قوله تعالى: إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ للّهِ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾ (النساء:١٤٦). ولازم تتوفّر هذه الشّروط المذكورة في هذه الآية الكريمة ليقبل اللّه توبة المنافق، أن يكون تائباً إلى اللّه توبة نصوحاً، وأن يكون صالحاً في توبته، وأن يكون معتصماً باللّه وحده، وأن يكون مخلصاً للّه وحده الصمد جميع العبادات، فإذا توفرت هذه الشّروط يجمع اللّه المنافق التّائب مع المؤمنين في يوم التّغابن، فنعم المصير. رزقنا اللّه تعالى جميعاً جنات الفردوس.

وبالعمل بمفهوم المخالفة، فمن لم يتب من النّفاق إلى إخلاص الأعمال للّه تعالى، فإن اللّه تعالى سيحشره يوم الجزاء مع الكافرين فلبئس المصير، فهذا خسران مبين، يكون الإنسان مع المسلمين المخصلين للّه تعالى أحياناً في الحياة الدنيويّة، ثم يوم الجزاء يدخل مع الكفار في النّار، فهذا عين الخسارة، وفي هذا يُبين اللّه مصير المنافق بعد الحساب وإعطاء الكتاب لكل عامل: ﴿...إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ (النساء:١٤٠). فدخول المنافق في النار، دليل واضح بأن النّفاق كفرٌ مخرجٌ من الدين الإسلامي، والكافر جزاؤه النّار، وفي هذا يأمر اللّه خليله وحبيبه أن يخبر المنافقين بأن جزائهم النّار بشرط إذا ماتوا على النفاق، لقوله تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (النّساء:١٣٨). يلاحظ بأن اللّه تعالى لم يأمر النّبي محمّد ﷺ في بقية أنواع الكفر المخرج من الملة الإسلاميّة أن يخبرهم بالنار مباشرةً إلا كفر النّفاق، فهذا يدل على خطورة النّفاق، وما أكثر المنافقين في عصرنا الحاضر، أجارنا اللّه منه.

يُستخلص ما تم استعراضه من كفر النّفاق، بأن النّفاق أمر في منتهى الخطورة؛ حيث إن اللّه تعالى يجزيه بأعمق وأسفل نار جهنم، وأشد نار الجحيم أسفله، وأن المنافق ذو لونين

لون معين مع المسلمين المخلصين لله جميع العبادات، ولَون آخر مع مثلهم من البشر، فيُفهم من هذا أن المنافق ليس له لون معين، دوماً يتغير من لون إلى آخر؛ لأجل ذلك يحشر الله المنافق مع الكافرين في يوم الدين، وهذا خسران مبين للإنسان. وزبدة القول في الموضوع أن كفر النفاق يخرج الإنسان من الإسلام، إلا من تاب إلى الله بتوبةٍ نصوحٍ قبل ساعة الموت.

النّوع الثّاني-الكفر الأصغر غير المخرج من الملة الإسلاميّة:

الكفر الأصغر هو الكفر العملي كالذنوب التي سميت في القرآن الكريم والسّنة النبويّة الشّريفة كفراً؛ لكن لا تصل درجة هذا الكفر إلى أن يخرج الإنسان من دائرة الشّريعة الإسلاميّة السّمحاء، بيد الإصرار عليه قد يؤدّى في نهاية المطاف إلى الكفر الأكبر؛ لأن الذّنوب تتوارث بعضها بعضاً، ويعرّج الباحث على هذه الأنواع بإيجاز شديد.

أولاً- كفر النّعمة: بالمنعم ومنه قوله تعالى: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (النحل:١١٢). النِّعم والأَنعم جمع النّعمة، والمراد بالكفر هاهنا هو كفر النِّعم؛ لأنهم أشركوا غير الله تعالى في عبادته سبحانه وتعالى فلم يقوموا بشكر المنعم عليه الحق[١]. ويشير قوله تعالى إلى شيء من هذا في موضع آخر في كتابه العزيز بقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (النحل:٨٣). ويُلاحظ في هذه الآية القرآنيّة بأن الله تعالى قد صنَّفَ المنكرين للنعم في قائمة الكفر، وهو كفر نعمة المنعم على الإنسان المحتاج، والإنسان يعرف أن نعمتَه من الله تعالى ثم ينكرها أو يجحد بها، فمن حق الله وقدرته الانتقام من ذلك الإنسان؛ فلذا ابتلي الله تعالى أهل مكة بالجوع لمدة سبع سنين والخوف الشّديد بسبب عدم اعتراف بنعم الله تعالى بعد ما أن كانوا في رزقٍ واسعٍ واطمئنانٍ[٢].

وقد قابل هؤلاء نعمة الله بالكفران، أو أنهم يعرفون نعمة الله عليهم في حالة الشّدة، ثم ينكرونها أو يتناسونها في حال الرخاء[٣]، وبهذا الصّدد يقول الله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ

(١) ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٣، ص٢٤٦.

(٢) ينظر: البغوي، معالم التنزيل، ج٥، ص٤٩.

(٣) ينظر: الشّنقيطي، أضواء البيان، ج٢، ص٤٢١.

بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (إبراهيم:٢٨). ومن أعظم هذه النعم نعمة إرسال النّبي محمّد بن عبد الله عليه الصّلاة والسّلام، وقوم هؤلاء صاروا معهم في الهلاك والخسران؛ لأنهم تابعوهم في الكفر١.

ويُستخلص من موضوع كفر النّعمة، أنه يجب على المرء أن يقوم بشكر الله تعالى الذي أنعم عليه بنعمه الكثيرة، وألا يشرك أحداً معه في تقدير تلك النّعمة، وأن كفر النّعمة مصيره الهلاك والخسران، إلا من تداركته نعمة الله عليه بالتوبة. وكفر النّعمة لا يخرج الإنسان من دائر الإسلام.

ثانياً-كفر المعصية٢: كفر لا يخرج من الملة الإسلاميّة عند المحققين، ومنه قوله تعالى ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (المائدة:٤٤)، وقوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (المائدة:٤٥)، مع قوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (المائدة:٤٧)، ويتحتم على الإنسان المسلم أن يحكم بكتاب الله تعالى، وإذا حكم بغيره ويخالف ذلك الحكم حكم الله فقد عصى الله تعالى؛ لكن لم يخرج من سور الإسلام، وفي هذا قال حبر الأمة ابن عباس t وغيره في تفسير هذه الآية "كفرٌ دون كفر، وظلمٌ دون ظلم، وفسقٌ دون فسق٣" أي كفر أصغر؛ لأن مصطلح "الكفر" إمّا أن يكون كفراً أكبراً أو كفراً أصغراً، والأصغر لا يُخرج الإنسان من الملة الإسلاميّة.

السّؤال الذي يطرح نفسه، متى يكون الحكم بغير ما أنزل الله كفراً مخرجاً من الملة؟ وقبل الشّروع في الإجابة، من باب إتمام الفائدة وتعميمها يطيب للباحث أن ينوّه على أقوال أهل العلم في تأويل مصطلح "الكفر" الوارد في الآية، فقد ذكر أهل العلم رحمهم الله خمسة الأقوال حوله: القول الأوّل: أن المراد به أهل الكتاب، والقول الثّاني-التّفصيل: عني بالكافرين

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٢، ص٢٥٢.

(٢) كل عمل مخالف للشرع، ويقوم به الإنسان بعد ما عرف أنه عمل مخالف لمقصد الشّارع الحكيم، فهو معصية لله تعالى.

(٣) أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، (مؤسسة القرطبة، د. ط، د. ت)، ج٤، ص١٣٧؛ أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي (بيروت: دار المعرفة، ١٣٧٩هـ)، ج١٠، ص٤٦٦.

أهل الإسلام، وبالظالمين اليهود، وبالفاسقين النّصارى. والقول الثالث: كفرٌ دون كفر، وظلمٌ دون ظلم، وفسقٌ دون فسق، والقول الرابع: أن الثّلاث الآيات في أهل الكتاب، والمراد بها جميع الناس، والقول الخامس: ومن لم يحكم بما أنزل الله جاحدًا به، فأما "الظلم" و"الفسق"، فهو للمقرِّ به[1].

الجواب والعلم عند الله تعالى: أن مَن جحد بحكم الله تعالى الذي أنزله في كتابه العزيز، أو اعتقد أن حكم غيره سبحانه وتعالى أفضل وأحسن من حكم الله تعالى، أو اعتقد أن أحكام الله تعالى غير مناسبة لأوقاتنا ولظروفنا المعاصرة، أو أن القوانين الوضعية المعاصرة أرفق وأصلح للناس من حكم الله تعالى، أو اعتقد المساواة بين حكم الله وحكم غيره، يعني إن شاء حكم بحكم الله تعالى، وإن شاء حكم بغير حكم الله، فقد كفر بما أنزل الله تعالى كفراً مخرجاً من الملة، إلا من توبة نصوحاً[2].

ولذا، قال الإمام عبد الواهاب في رسالة نواقض الإسلام بشرح الشّيخ المفتي عبد العزيز بن باز رحمهما الله ما نصه: "من اعتقد أن هدي غير النّبي ﷺ أكمل من هديه، أو أن حكم غيره أحسن من حكمه، كالذين يفضلون حكم الطواغيت على حكمه، فهو كافر[3]". والنّبي محمّد عليه الصّلاة والسّلام ما نطق عن هواه إن هو إلاّ وحيٌ من ربّه سبحانه وتعالى.

ملاحظة هامّة: وأمّا إن كان الحكم بغير ما أنزل الله تعالى، عن قهرٍ، أو كرهٍ، أو لرشوةٍ، أولهواه، أو لمصلحة معينة، مع اليقين بأن حكم الله تعالى هو الأفضل والأحسن، فهو ظالمٌ وفاسقٌ. والله تعالى أعلم بالصواب وهو أحكم الحاكمين.

(١) ينظر للتفاصيل: الطبري، جامع البيان، ج١٠، ص٣٤٥، وما بعده؛ البغوي، معالم التنزيل، ج٣، ص١٦؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٦٣، ص١٩٠؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص١١٩، وما بعدها.

(٢) لينظر للمزيد من المعلومات: البغوي، معالم التنزيل، ج٣، ص٦١؛ ، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٦، ص١٩٠؛ ابن كثير، تفسير ابن كثير، ج٣، ص١١٩.

(٣) عبد العزيز بن عبد الله بن باز، نواقض الإسلام، (الرياض: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ط١، ١٤١٠هـ)، ص٢. وينظر: محمد بن صالح بن محمد العثيمين، مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين، تحقيق: فتاوى العقيدة جمع وترتيب: فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان، الرياض: دار الوطن، د. ط، د. ت)، ج٢، ص١٤٦؛ سعيد بن علي بن وهف القحطاني، العروة الوثقى في ضوء الكتاب والسُّنَّة – المفهوم، والفضائل، والمقتضى، والأركان، والشروط، والنواقص، والنواقض، (الرياض: مطبعة سفير، د. ط، د. ت)، ص٩٢.

ولقـد وردت لفظة الكفر في أحاديـث كثيرة، والمقصود بها كفر النّعمة، أو كفر المعصية، ومـن أمثلتها: كفر الحلف بغـير الله[1]، وكفر قتال المسلم[2]، وكفر العشـير[3]، كأن تكفر المرأة إحسان زوجها، وهلم جرا. وأرجو أن تكون الفكرة واضحةً ومفهومةً في هذا النّوع الثّاني الذي هـو الكفر الأصغر، وقد أوجز الباحث الحديـث في هذا النوع الثّاني، مرعاة لضوابط المؤتمر الموقـر[4]، وكل مـا يدور عليه الأمر في هذا النّوع الثّاني هـو أن الكفر الأصغر لا يخرج الإنسان من الإسلام، وإن دخل صاحبه النّار، فقد لا يخلد فيها بإذن الله تعالى.

خلاصة عامة للبحث المتواضع:

الكفر الأكبر يخرج من الملة الإسلاميّة، ويحبط الأعمال الصالحات، وصاحبه مخلد في النّـار، ومباح الدّم والمال بشروطـه وضوابطه، ولا يجوز للمؤمن محبته وموالاته، بينما الكفر الأصغـر فلا يُخرج الإنسان من الملة الإسلاميّة السّمحـاء، ولا يحبط الأعمال؛ لكن ينقصها بحسـب الذنب المقـترف، ويعرض صاحبه للوعيـد الخطير، ولا يخلد في النّـار فيعذب بقدر الذنوب ثم يخرج منها بإذن الله تعالى، وقد يتوب الله على صاحب الكفر الأصغر فلا يدخل النّـار أصـلاً، ولا يباح دم ومال صاحب الكفر الأصغر، ولا يمنع موالاته مطلقاً. فالكفر متنوع متفاوت زيادةً ونقصاناً بعضه أخف من بعض، فكما أن الإيمان ذو شعب كثيرة[5].

إشكاليّة المفاهيم المعاصرة لمصطلح "الكفر":

لقـد حـاول الباحث قدر الإمكان أن يستعرض شيئاً من هـذا المفهوم، "مفهوم مصطلح الكفـر" في منظـور الشّرع الإسلامي، من ذكر أنواع الكفر المخـرج من الإسلام، والكفر غير المخرج من الإسلام، وعدم فهم هذا المصطلح قد تسبَّب إحداث المشاكل في المجتمع الإسلامي مـن بني جلدتنا، فطاب للباحث أن يُجمل الكلم في تلك الإشكاليّة المعاصرة في استعمال هذا المصطلح.

(١) الترمذي، سنن الترمذي، ج٤، ص١١٠، رقم الحديث١٥٣٥:، باب: ما جاء في كراهية الحلف بغير الله.

(٢) ينظـر: البخـاري، صحيـح البخـاري، ج١، صـ٨٤. باب خوف المؤمـن من أن يحبـط عمله وهـو لا يشعر، رقم الحديث:٤٦.

(٣) وقد سبقت الإشارة إليه من قبل عند عرض المقابلات بين الكفر وغيره، يرجع إليه في مطلع هذا البحث.

(٤) عدد الصفحات المسموحة: ٣٠ صفحة فقط.

(٥) أبو الحسن عبيد الله بن محمد عبد السّلام بن خان محمد بن أمان الله بن حسام الدين الرحماني المباركفوري، مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، (الهند: الجامعة السّلفية، ط٣، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م)، ج١، ص٨٢.

وإشكاليّة المفهوم المعاصر لهذا الموضوع واضحة فلا تخفى على أحد منا من كان متأمِّلاً لمشاكلنا المعاصرة، وجلُّ الذين يُكَفِّرون العلماءَ الرّبانين، والرؤساء وأحكام الدّول الإسلاميّة أو غير الإسلاميّة، عدم تفريقهم بين مفهوم مصطلح "الكفر" المخرج من الإسلام، و"الكفر" غير المخرج من الإسلام، فهذه هي إشكاليّة لديهم؛ لأنهم لا يفقهون الشّرع الإسلامي بكل دقائقها، ولا يميزون بين الحابل والنابل؛ وهم على هذه الحال يتّبعون علماء السّوء الذين يحرضونهم على هذه الفكرة الواهيّة، ويقول لهم مشايخهم أن من لم يحكم بكتاب اللّه تعالى فهو كافرٌ وفاسق وظالم ومخرجٌ من الإسلام، فيجوز الخروج عليه ويباح دمه وما إلى ذلك، فتجد هؤلاء الجهال قد لا يجيدون حتى قراءة سورة الفاتحة على وجهٍ صحيح، أو أن بعضهم لم يكملوا حتى المرحلة الثّانويّة، ومع ذلك تجدهم يأكلون لحوم العلماءِ ولم يتفّطنوا أن لحوم العلماء سمٌّ وحرامٌ عليهم، ولم يعلموا كذلك على أن الشّرع الحكيم قد حرَّم الخروجَ حتى على الإمام الجائر؛ لكن هذا الوعي مفقود لديهم وهم يحسبون أنهم يعلمون حسناً كثيراً، وهم عن معرفة دينهم جاهلون.

وقد تكون إشكاليّة المفاهيم المعاصرة من جهة أخرى، وهو حمل النّصوص الشرعيّة على ظاهرها بدون الرجوع إلى كتب الشّروح، وآراء الفقهاء والمفسرين، وعدم معرفة أسباب الوقائع، وعلى سبيل المثال: المراد بتكفير العشير، وكفر النّعمة، أو كفر من لم يحكم بما أنزل اللّه، أو المقصود بأن قتال المسلم كفرٌ، وما إلى ذلك، فقدان هذه المعاني لدى كثير من شبابنا المعاصرين، رأس الإشكال ومربط الفتن، وأسباب خروجهم على الرؤساء، وإباحة الدماء.

وقد تكون الإشكاليّة باستعمال نعمة اللّه تعالى في غير محلها-نعمة التكنولوجيا الجديدة، مثل: الإنترنت، والقنوات المتطوّرة- فيستمعون لبعض العلماء الذين يرون الخروج على منْ لم يحكم بكتاب اللّه والسنة النبويّة، فتأخذهم الحماسة بدون علمٍ راسخٍ وصحيحٍ بضروريات دينهم.

الحلول الشّرعيّة لهذا الإشكال على النّحو الآتي:

الرجوع إلى فهم كتاب اللّه تعالى، والسّنة النبويّة الصحيحة فهماً صحيحاً، وأن يتم الرجوع إلى هذين المصدرين وغيرهما عن طريق العلماء الربانين والمربين والراسخين في العلم.

تشجيع الشّباب بالتحلي بعلوم الشّريعة الإسلاميّة بكل أشكالها وأنواعها.

إقامة الدورات العلميّة المكثفة، لغرض توجيه هؤلاء الذين انحرفوا عن الشّريعة الإسلاميّة السّمحاء.

تربية الأولاد تربية إسلاميّة رسيخة في البيوت، وفي المدارس والمعاهد والجامعات، وفي كل المؤسسات التعليميّة.

مراقبة الشّباب في جميع التصرفات، فعند الشّك بأن فلاناً لديه هذه الفكرة-فكرة التّكفير والخروج على الرؤساء-يُدعى في ظرف طيب، ويقدم له النّصائح المناسبة لعقله مع ضرب المثال العقلي إذا لم يكن يفقه أحكام الشّرع الإسلامي؛ لأن بعض الناس قد لا يقبل أحكام الشّرع بسرعة، لكن تجده يرحب ويقبل الحكم العقلي بكل سعة الصدر. وعليه، فيحتاج الموجه أن يكون ملماً بأحوال الشّخص الذي يريد أن يقدم له النّصائح ليزجَّره عن مثل هذه الأفكار الفتاكة والمدمّرة.

مراقبة استعمال الشّباب لهذه الشّكبة العنكبوتيّة-الإنترنت-، من قبل الآباء، مع اختيار الرفقاء الطيبين. فهذا من وظائف أولياء الأمور ومنْ تحت مسؤولياتهم؛ لكن مشكلة أكثر الآباء عدم الإحتكاك بالأولاد، وعدم معرفة معاناتهم ومشاكلهم، هذا وغيره يسبب انحراف الشّباب إلى الأفكار غير المرغوبة وغير المرضية.

الخاتمة

الحمد للّه الذي بنعمته تتم الصالحات، وله الحمد والثناء أن يسر للباحث الوقوف على بعض النقاط من هذه المسائل الشرعيّة، ويَعتبر الباحث بأن هذا الوقت من أجمل وأحسن أوقاته في الحياة؛ لأنه كان يعيش مع كتاب اللّه تعالى.

الشّكر والعرفان للجهة المنظمة:

كما ثبت في الحديث الصحيح أن من لم يشكر النّاس لا يشكر اللّه. وعليه، أنتهز هذه الفرصة الذهبيّة؛ لأتقدم بجزيل الشّكر والعرفان لدولة المملكة العربية السّعوديّة، وبالأخص جامعة الملك خالد على مبادرتهم بتنظيم هذا المؤتمر القيم، في أهم الموضوعات المعاصرة، فأسأل اللّه تعالى أن يتولى بثواب القائمين والمساهمين والمحكِّمين على بحوث المؤتمر، والمقَدِّمين في هذا الملتقى العلمي المتميز خير ما يجزي به عباده الصالحين المخلصين.

هذا ما تيسر للباحث، فإن كان فيه صواب فمن اللّه تعالى، وإن وُجد غير ذلك فمِنّه ومن سبب نزغ الشّيطان، ويستغفر اللّه تعالى ويتوب إليه. وصل اللّه على نبيّه ورسوله محمّد بن عبد اللّه وعلى آله وصحبه الكرام، وسلم تسليماً كثيراً.

قائمة المصادر والمراجع:

١. أبو الحسن عبيد الله بن محمد عبد السّلام بن خان محمد بن أمان الله بن حسام الدين الرحماني المباركفوري، مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، (الهند: الجامعة السّلفية، ط٣، ١٤٠٤ هـ ، ١٩٨٤م).

٢. أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (بيروت: دار الفكر، د. ط، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م).

٣. أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي، (بيروت: المكتبة العلمية، د. ط، ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩م).

٤. أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس المالكي الشهير بالقرافي، أنوار البروق في أنواع الفروق.

٥. أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: هشام سمير البخاري، (الرياض: دار عالم الكتب، د. ط، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م).

٦. أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبي، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، (مؤسسة القرطبة، د. ط، د. ت).

٧. أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، معالم التنزيل، تحقيق: محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، (دار الطيبة للتوزيع والنشر، ط٤، ١٤١٧ هـ/١٩٩٧ م).

٨. أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي، السنن الكبري، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط٣، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).

٩. أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي (بيروت: دار المعرفة، ١٣٧٩هـ).

١٠. علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري أبو محمد، الفصل في الملل والأهواء والنحل، (القاهرة: مكتبة الخانجي، د. ط، د. ت).

١١. محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، دز ط، ١٤١٥ هـ/١٩٩٥).

١٢. محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، التحرير والتنوير، (بيروت: مؤسسة التاريخ العربي، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).

١٣. محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب أبو جعفر الطبري؛ تفسير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠ م).

١٤. محمد بن عيسى أبوعيسى الترمذي السلمي، في الجامع الصحيح سنن الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكروآخرون، (بيروت: دارإحياءالتراثالعربي، د. ط. د.ت).

المحتويات

محتويات المجلد الأول :

محتويات المجلد الثاني :

محتويات المجلد الثالث :